قلمس

مُخْتصَر نَظْمِ الدُّرَرِ

في تَنَاسُبِ الآيِ وَالسُّوَرِ

برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي

العنكبوت – الناس

قائمة المحتويات		
	السورة	الصفحة

سورة العنكبوت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الحث على الاجتهاد في الدعاء إلى الله تعالى من غير فترة كما ختمت به السورة الماضية، من غير تعريج على غيره سبحانه أصلًا، لئلا يكون مَثَل المعرّج عنه المتعوض عوضًا منه مثل العنكبوت، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين، وقد ظهر سر تسميتها بالعنكبوت وأنه دال على مقصودها.

﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ في ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ ولو كان على وجه التجديد والاستمرار: ﴿ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ١﴾ مرة بعد أخرى، أولًا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأحكام، وثانيًا بالصبر عند الابتلاء؟

وقال ابن الزبير: "افتتحت القَصص بذكر امتحان بني إسرائيل وصبرهم، وامتحان أم موسى بفراقه رضيعًا، وابتلاء موسى بأمر القبطي، وكل هذا ابتلاء أعقب خيرًا، ثم بضرب آخر من الابتلاء أعقب شرًا وهو ابتلاء قارون بماله ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ [القصص: ٨١]، فحصل بهذا أن الابتلاء سنة ليميز سبحانه الخبيث من الطيب؛ ليظهر منهم عند الفتنة والابتلاء ما لم يكن ليظهر قبل ذلك، فيشهدوا على أنفسهم.

فأعقب تعالى هذا بقوله معلمًا للعباد ومنبهًا أنها سنته فيهم: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ أي: أحسبوا أن يقع الاكتفاء بمجرد استجابتهم؟ ثم أتبع هذا بذكر حال بعض الناس ممن يدعي الإيمان، فإذا أصابه أدنى أذى من الكفار صرفه ذلك عن إيمانه فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ فكيف حال هؤلاء في تلقي ما هو أعظم من الفتنة!

ثم أتبع ذلك بما به يتأسى الموفق من صبر الأنبياء عليهم السلام، وخص نوحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا بالذكر لأنهم من أعظم الرسل مكابدة وأشدهم ابتلاء، ثم ذكر حسنَ عاقبتِهم وأخذَه للمكذبين من أممهم فقال: ﴿فكلًا أخذنا بذنبه﴾".

ثم قال مؤكدًا؛ لمن يمنع الابتلاء لأن الله غني عنه فلا فائدة فيه، جاهلًا بما فيه من الحكمة: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ﴾ ولما كان التأسي بالقريب في الزمان أعظم، أثبت الجار في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ كصاحب أكثر السورة الماضية عليه السلام، ففي قصته حديث طويل

عن ابن عباس يقال له حديث الفتون ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وأكد إشارة إلى أن أكثر الناس يظن الثبات عند الابتلاء ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ ولو كانوا في أدنى مراتب الصدق ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ أي: الراسخين في الكذب الذين يعبدون الله على حرف، فيكون جزاءُ كلٍّ على حسب ما كشف منه البلاء، والتعبير بالمضارع؛ لتجدد الاختبار، فمن لم يجاهد نفسه عند الفتنة كان من الكافرين.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ أي: يفوتونا فوت السابق لغيره فيعجزونا فلا نقدر عليهم ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾. ثم قال استنتاجًا مما مضى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ فليعتد لذلك بالمجاهدة لنفسه من ينصحها، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾ حثًا على تطهير الظاهر والباطن.

ولما حث على العمل بين أنه ليس إلا لنفع العامل، فقال عاطفًا على ما تقديره: فمن أراح نفسه في الدنيا فإنما ضر نفسه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ لأن نفع ذلك له، وعبر بالنفس لأنها الأمارة بالسوء، وإنما طوى ما ادُّعي تقديره لأن السياق للمجاهدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ وأكد لأن كثرة الأوامر ربما أوجبت للجاهل ظن الحاجة، وذلك نكتة الإتيان بالاسم الأعظم ﴿عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الشدة والرخاء على قدر طاقتهم، وأشار بقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ إلى أن الإنسان وإن اجتهد لا بد أن يزل لأنه مجبول على النقص ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

ولما ذكر سبحانه أنه لا بد من الفتنة، قال مشيرًا إلى تعظيم حرمة الوالد حيث جعلها في سياق تعظيم الخالق، وإلى أنها أعظم فتنة: ﴿۞وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ مشيرًا بنفي العلم إلى انتفاء العلوم ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

ولما كانت ترجمة ما مضى من الأقسام: فمن الناس من يؤمن بالله فإذا أوذي في الله صبر واحتسب، ولكنه حذف من كل جملة ما دل عليه بما ذكر في الأخرى، عطف عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وأومأ إلى كثرتهم بضمير الجمع، ثم أشار إلى أن الأذى في هذه الدار لا بد منه بقوله بأداة التحقيق: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ﴾ من أيّ مؤذٍ ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ لكونه في سبيله

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ له بما يصيبه منهم في جسده الذي إذا مات انقطع أذاهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ الذي لا يطاق لأنه على الروح والجسد ولا يمكن مفارقته بموت ولا حياة، حتى يطيعهم في جميع ما يأمرون به ظاهرًا وباطنًا، فيتبين كذبه في دعوى الإيمان.

وقصر الرجاء على الملك الديان، وأشار إلى أن الفتنة ربما استمرت إلى الممات بالتعبير بأداة الشك في قوله: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ﴾ ولما كان الإحسان منه تعالى إنما هو محض امتنان قال: ﴿مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ خداعًا للمؤمنين خوفًا ورجاء، وعبر في حالة الشدة بالإفراد لئلا يتوهم أن الجمع قيد، وجمع هنا دلالة على أنهم لا يستحيون من الكذب ولو على رؤوس الأشهاد فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١٠﴾.

ولما كان السياق للفتنة والأذى في الله، ذكر بعض ما كانوا يقولون لهم عند الفتنة فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جهلًا منهم بما خالط قلوبهم من بشاشة الإيمان ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ إن كان ما تقولون حقًا، أنه لا بد لنا من معاد نؤاخذ فيه ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ﴾ أي: أنهم إذا عاينوا تلك الأهوال تبرؤوا منهم، وقال مؤكدًا؛ لظن من غروه صدقهم: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١١ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ﴾ بما تسببوا به من إضلال غيرهم، ومن تأصيل السنن الجائرة ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ١٢﴾.

ولما كان السياق للبلاء والامتحان والصبر على الهوان، ذكر من الرسل عليهم السلام من طال صبره ولم يفتر عزمه، فقال عاطفًا على ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ ما هو كالشرح له، وأكده دفعًا لوهم من يقول في دار التسبب: إن القدرة على التصرف في القلوب مغنية عن الرسالة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ عبر بها ذمًا لأيام الكفر ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ إشارة إلى أن زمان حياته عليه السلام بعد إغراقهم كان رغدًا واسعًا بالإيمان والخصب ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٣ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٤﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٥﴾ أي: فأنتم تقولون: إنه خير. ولما نفى العلم عمن جهل خيريته، دل عليه بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ إشارة إلى تفرق الهم بكثرة المعبود، والكثرة يلزمها الفرقة، ولا خير في الفرقة، ومادة «وثن» بجميع تقاليبها تدور على ما لا ينبغي لرتبة الإلهية من الكثرة والفرقة والرخاوة، ولذلك أتى بصيغة الحصر، وهو قصرُ قلبٍ لسلب ما اعتقدوه فيها من الإلهية ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ فإنه مصنوع وأنتم تسمونه باسم الصانع.

ولما كان الإنسان لا يزال متوجهًا إلى من ينفعه لدوام حاجته، وكان قد أشار تعالى إلى نقص معبوداتهم بنفي الخير عنها، صرح بعجزها وباختصاصه بالخير؛ لينتج استحقاقه للعبادة دونها، وأكده ردًا لما كانوا يتوهمونه من نفعها وضرها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ﴾ وأنتم تعبدونها فكيف بغيركم ﴿رِزۡقًا فَٱبۡتَغُواْ﴾ وأشار بالافتعال إلى السعي فيه؛ لأن عادته تعالى أنه لا يؤتيه إلا بالكد، إما في العبادة والتوكل وإما في أسبابه الدنيوية ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: عبادة يقبلها وهي ما كان خالصًا عن الشرك، فلا يشغلكم ابتغاء الرزق بالأسباب الظاهرة عنها فإنها هي الأسباب الحقيقية، فربما حُرم العبدُ الرزقَ بذنبه ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٦﴾.

ولما كان التقدير: فإن تصدقوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة، عطف عليه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ والذي دلنا على هذا المحذوف هذه الواو العاطفة على غير معطوف معروف ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ فجرى الأمر فيهم على سنن واحد في نجاة المطيع للرسول وهلاك العاصي له، ولم يضر ذلك بالرسول شيئًا وما ضروا به إلا أنفسهم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أن يقهركم على التصديق، بل ما عليه ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٨﴾.

ولما استدل على الوحدانية المستلزمة للقدرة على المعاد فحصل الاستعداد للتصريح به قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ﴾ إن لم تقتدوا بأبيكم إبراهيم عليه السلام وتتأملوا ما أقام من الدليل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إن لم يكفكم النظر في أحوال بلادكم، ولما كان السياق لإثبات الإلهية التي تجب المبادرة إلى تفريغ الفكر للاستدلال عليها، عبر بالفاء فقال: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

ثم قال مهددًا بعد البيان: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢١﴾.

ولما أمرهم بالاستدلال وهددهم ليرجعوا عن الضلال قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ أي: تحقق يأسهم؛ لأنهم لم يرجوا لقاء الله يومًا ﴿مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾.

ثم شرع في إكمال قصة الخليل عليه السلام فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ إنجاءً وحيًّا ﴿مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ ونفعته بأن أحرقت وثاقه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ﴾ ولما كان ما للشيء إنما هو في الحقيقة ما ينفعه، وكان قد حجبها تعالى بالشهوات الشاغلة عن استعمال نور العقل قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾.

ولما تقدم سلبه النفع عن هذه الأوثان، أشار هنا إلى نفع يعقب من الضر ما لا نسبة له منه فقال: ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام غير هائب لتهديدهم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم﴾ أي: باصطناع وتكلف ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي لا كلفة في اعتقاد كونه ربًا باحتياج إلى مقدمةِ جَعلٍ وصنعة ولا غير ذلك ﴿أَوۡثَـٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كما يتفق ناس على مذهب فيكون سبب تصادقهم، ويدخل في هذا كل من وافق أصحابه من أهل المعاصي أو البطالة على الرذائل؛ ليعدوه حسن العشرة مهذب الأخلاق لطيف الذات، أو خوفًا من أن يصفوه بكثافة الطبع وسوء الصحبة ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ٢٥﴾.

ولما كان في سياق الابتلاء، بين أنه لم يكن لهم من أممهم تابع يقدر على نصرهم، وأن الله سبحانه تولى كفايتهم بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ أي: إلى أرض ليس بها من ترجى نصرته ولا من تنفع مودته، فحينئذ يتبين الرضى بالله وحده، والاعتماد عليه دون ما سواه، وهو أول من هاجر في الله، قال مقاتل: "وكان إذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة".

ثم قال مؤكدًا، تسكينًا لمن عساه يتبعه وتهوينًا عليه لفراق ما ألفت النفوس أنه لا عز إلا به من العشائر والأموال والمعارف: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: فهو جدير بإعزاز من انقطع إليه ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ * وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ولما كان إبراهيم عليه السلام قد ابتلي في إسماعيل بفراقه مع أمه ووضعهما في أرض لا أنيس بها، لم يذكره تصريحًا في سياق الامتنان، وأفرد إسحاق عليه السلام لأنه لم يبتل فيه بشيء من ذلك، ولأن المنة به -لكون أمه عجوزًا وعقيمًا- أكبر وأعظم، وذكر إسماعيل عليه السلام تلويحًا في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي

﴿ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فلم يكن بعده نبي أجنبي عنه، وبشرناه بما يسر به من إسحاق بعد أن أمرناه بما يضر من إسماعيل عليهما السلام، فصبر في الضراء وشكر في السراء.

﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ وأفرد ليدل -مع تناوله بالجنسية- الكتب الأربعة، على أنه لا شيء يستحق أن يكتب إلا ما أنزل فيها أو كان راجعًا إليه، ولو جمع لم يفد هذا المعنى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ ولما كان المنكر للبعث يعتقد أنه نكَّد حياته بالهجرة نكدًا لا تدارك له، أكّد قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

ولما كان السياق للابتلاء، خص بالبسط في القص من لم يكن له ناصر من قومه أو كان غريبًا منها فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ثم علل كونها كذلك بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ أو: هي حال مبينة لعظيم جرأتهم على المنكر، أي: غير مسبوقين ﴿بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴿٢٨﴾﴾ فأوجب حالهم ظن أنهم وصلوا من الخبث إلى حد لا مطمع في الرجوع عنه، مع ملازمته لدعائهم من غير ملل ولا ضجر.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ أي: المكان الذي تجلسون فيه للتحدث بحيث يسمع بعضكم نداء بعض، وهو ناد ما دام القوم فيه فإذا قاموا عنه لم يسم بذلك ﴿ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ أي: هذا الجنس، وهو ما تنكره الشرائع والمروءات والعقول، ولا تتحاشون عن شيء منه في المجتمع الذي يتحاشى فيه الإنسان من فعل خلاف الأولى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: الذين فيهم قوة ونجدة بحيث يخشى شرهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وعبروا بالاسم الأعظم زيادة في الجرأة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ تعظيمًا لهم في أنفسهم ولما جاؤوا به.

ولما كان المقام للابتلاء أجمل البشرى وفصل النذرى فقال: ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ﴾ ولما كان إنجاؤه من بينهم مستبعدًا قال: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن﴾ وأثبت «أن» لتأكيد ترتب الاستياء على المجيء في وقتين متجاورين؛ لِمَا اقتضاه مقصود السورة من الابتلاء ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ لما رأى من حسن أشكالهم وخاف من تعرض قومه لهم وهو يظن أنهم من الناس ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ﴾ الأصل

في ذلك أن من طالت ذراعه نال ما لا يناله قصيرها، فضرب مثلًا في العجز والقدرة ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يخرجون في كل وقت من دائرة العقل والحياء ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما كان شعيب عليه السلام ممن استضعفه قومه واستقلوا عشيرته لتسميتهم لهم رهطًا فكان كذلك في هذا العداد، عقب بقصته فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ولما كان مقصود السورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير فترة، عبر بالفاء فقال: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ولما كان معنى ختام قصة مدين: فأهلكناهم، عطف عليه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: ما وصف من هلاكهم وما كانوا فيه من شدة وسعة ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولما كان ذلك ربما ظن أنه لفرط غباوتهم قال: ﴿وَكَانُواْ﴾ أي: فعل بهم الشيطان ذلك والحال أنهم كانوا ﴿مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: معدودين بين الناس من البصراء العقلاء؛ لما فاقوهم به من علم ظاهر الحياة الدنيا، ولم يسبقونا.

﴿وَقَٰرُونَ﴾ أهلكناه، لأن وقوعه في أسباب الهلاك أعجب لكونه من بني إسرائيل وابتُلي بالمال والعلم، فكان ذلك سبب إعجابه ﴿وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره الذي أوقد له على الطين، فلا هو نجا ولا كان رأسًا في الكفر، بل باع سعادته بكونه ذنبًا لغيره ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: فعلوا أفعال من يطلب أن يكون أكبر من كل كبير ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد مجيء موسى أكثر مما كانوا قبله ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فائتين ما نريدهم، بل هم في القبضة كما تقدم.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ فمرة نبيد بالغمس في الكثيف وكرة بالغمر في اللطيف؛ ليعلموا حقيقة قوله: ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ [العنكبوت: ٢٢] الآية.

ولما كان ما عبدوه ورجوا نصره أضعف منهم فلم يغن عنهم شيئًا، قال مستنتجًا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ ولما كان دعاء غير الله مخالفًا للعقل والنقل والفطرة، فكان يحتاج إلى تدرب على الجلافة وتطبّع في الكثافة قال: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم لينفعوهم، فكان ذلك البيت مع تكلفها في أمره في غاية الوهن، ولما كان حالها في صنعه حال من ينكر وهنه قال مؤكدًا: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

ولما كان ضرب المثل للشيء لا يصح إلا من العالم به، وكان قد ختم بنفي العلم عنهم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ وهكذا حال التشبيهات كلها، هي طرق لكشف المعاني المحتجبة وتصويرها. ولما قدم أنه لا معجز له سبحانه ولا ناصر لمن أخذه، وصحح ذلك بالمشاهدة في القرون البائدة وقربه إلى الأذهان بالمثل، دل عليه بقوله بعد ما حقق أن أولياءهم في أنزل مراتب الضعف: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: الأمر الذي يطابقه الواقع، أو بسبب إظهار أن الواقع يطابق أخباره، أو بسبب إثبات الحق وإبطال الباطل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤﴾ أي: الذين هم العالمون في الحقيقة، حداهم علمهم بما في الكونين على الإيمان بجميع ما أخبر به.

ولما أفاد ذلك أن مفتاحَ العلم بالله رسوخُ الإيمان قال: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فإنه المفيد للإيمان، مع أنه أحق الحق الذي خلقت السماوات والأرض لأجله، والإكثار في تلاوته يزيد بصيرة في أمره، وهو أكرم من أن تُنال فرائده في أول مرة، بل كلما تدبره القارئ حباه بكنز من أسراره، ومهما زاد زاده من لوامع أنواره، إلى أن يقطع بأن عجائبه لا تعد.

ولما أرشد إلى مفتاح العلم، دل على قانون العمل الذي لايصح إلا بالقرآن، وهو ما يجمع الهم فيحضر القلب فينشرح الصدر فينبعث الفكر، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للمواظب على إقامتها بجميع حدودها ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: الخصال التي بلغ قبحها ﴿وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ أي: الذي فيه نوع قبح وإن دق، وأقل ما فيها من النهيِ: النهيُ عن تركها الذي هو كفر، ومن انتهى عن ذلك انشرح صدره واتسع فكره، فعلم من أسرار القرآن ما لا يعلمه غيره ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولما كان الناهي في الحقيقة إنما هو ذكر الله، أتبع ذلك الحث على المقصد الأعظم من الصلاة فقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فمن استحضر ذلك بقلبه هان عنده كل شيء سواه، أو يكون المراد: أن من واظب على الصلاة ذكر الله، ومن ذكره أوشك أن يرق قلبه، ومن رق قلبه استنار لبه، فأوشك أن ينهاه هذا الذكر عن المعصية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ معبرًا بلفظ الصنعة الدال على ملازمة العمل، تنبيهًا على أن إقامة ما ذكر تحتاج إلى تمرن عليه.

ولما انتهى الكلام إلى روح الدين وسر اليقين مما لا يعلمه حق علمه إلا العلماء، وكان العالم أقدر على إيراد الشكوك وترويج الشبه بما له عند الناس من القبول وبما للنفوس من النزوع إلى الأباطيل وبما للشيطان في ذلك من التزيين، وكان الجدال يورث الإحن فيحمل على الضلال قال[1]: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ظنًا منكم أن الجدال ينفع الدين أو يزيد في اليقين أو يهدي الضال ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالتجاوز في الافتراء، فإنه يباح جدالهم ولو أدى إلى جلادهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝٤٦﴾ فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفًا للوحي، فنوقِع حينئذ الإسلام في غير موضعه ظلمًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ حقيقة كعبد الله بن سلام ومخيريق رضي الله عنهما، أو مجازًا بالمعرفة به مع الكفر كحيي بن أخطب وكثير منهم ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: العرب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ كذلك في الحقيقة والمجاز، والدليل على ما أردته من الحقيقة والمجاز قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ أي: ينكر من الفريقين بعد المعرفة، قال البغوي: "قال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة".

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ التي هي أقوى الجارحتين، وعبر بها إشارة إلى أنه لا تحدث ريبة في أمره إلا بمواظبة قوية ينشأ عنها ملكة ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ فكانوا يجدون مطعنًا، ولكنه لم تكن قراءةٌ ولا خطٌّ كما هو معروف من حالك فضلًا عن المواظبة لشيء منهما، فلا ريبة في صدقك، وإذا

(١) أو يقال: لما ذكر العلمَ بتلاوة الكتاب والزكاةَ بإقامة الصلاة، بقي إفاضة ذلك على الغير فعلّم بعض أحواله بقوله: ..، والله أعلم.

انتفت الريبة من أصلها صح نفي ما عندهم منها؛ لأنه لما لم يكن لهم في الواقع شبهة، عدت ريبتهم عدمًا.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ فلا يقدر أحد على تحريف شيء منه لبيان الحق لديهم، وفيه إشارة إلى أن خفاءه عن غيرهم لا أثر له ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ إن كانوا طالبين للحق ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ فأعظِم به آية باقية، إذ كل آية سواه منقضية ماضية، ولما كان هذا أعظم من كل آية يقترحونها، أشار إلى هذه العظمة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال الكتاب على هذا الوجه البعيد المنال البديع المثال ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قال الحرالي: "ولما كان القرآنُ لسانَ إحاطةٍ، لم يفِ بالقيام به خلقٌ؛ لأنه نبأ عن كلية أمر الله، ثم كل ناظر فيه من أيّ وجه نظَرَه، أدرك -بمقتضى علوه على رتبته- وجهًا من العجز فيه، إن كان بليغًا فمن جهة البلاغة، وإن كان عالمًا بأخبار الأولين فبصحة مقتضاها فيه، وبالجملة فما يكون لأحد حظ من أيّ علم إلا ويجد له موقعًا في القرآن على نهاية مدركه منه بمقدارٍ لا يرتاب في وقوعه فوق طور الخلق، فجهات ظهور إعجازه تأتي على حظوظ أصناف الخلق من وجوه الإدراك، لا يتعين لظهور الإعجاز فيه جهة، ولا يفقد ناظر فيه حظًا يتطرق بمقدار إدراكه منه إلى يقين وجه إعجازه؛ لإحاطته بكل تفصيل وإجمال".

ثم رتب قياسًا على إثبات النبوة فقال: "إن محمدًا ﷺ ذو آية هذا القرآن؛ بالتجربة السمعية المتيقنة المسماة بالتواتر، وذو آيةِ هذا القرآنِ نبيٌ؛ بما فيه من الإعجاز الذي يجده كل ناظر في معناه، وبما تضمنه من شهادته لذي آيته ﷺ، والمستعمل في ذلك: أن محمدًا ﷺ تحدى بهذا القرآن العرب الفصحاء والله البلغاء، فلما لجؤوا للحرب وضح أنهم فروا لِما وجدوه في أنفسهم من العجز، وإذا عجز أولئك فمن بعدهم أحق بالعجز، فلما شمل العجزُ الكلَّ وجب العلم بأن هذا القرآن حق، والمتحدي به نبي جاء بالصدق".

ولما كان من المعلوم أنهم يقولون: نحن لا نصدق أن هذا الكتاب من عند الله فضلًا عن أن نكتفي به قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ ولما كانت العناية هنا بتفصيل أحوال الناس، ابتدأ بقوله: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ بخلاف الرعد والأنعام، وعلل كفايته بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ولما ذكر كفرهم بالله، وكان النبي ﷺ ينذرهم على ذلك بالعذاب وكانوا يستعجلونه، ذكر توركهم عليه عقبه فقال][2]: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فعلم بذلك إحاطته بجميع الجوانب ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾.

ولما أبلغ في الإنذار، وكان قد كرر أن هذه المواعظ إنما هي للمؤمنين، قال مخاطبًا لهم معرضًا عن سواهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ فإن لم تتمكنوا بسبب المعاندين الذين يفتنونكم في دينكم من الإخلاص إلي في أرضكم، فهاجروا إلى أرض تتمكنون فيها من ذلك، ولما كانت الإقامة بمكة قبل الفتح مؤدية إلى الفتنة، وكان المفتون ربما طاوع بلسانه، وكان ذلك -وإن كان القلب مطمئنًا بالإيمان- في صورة الشرك قال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ عبادة لا شرك فيها لا باللسان ولا بغيره، ولا استخفافًا بها ولا مراعاة لمخلوق في معصيته، بالهرب ممن يمنعكم من ذلك إلى من يعينكم عليه.

ولما كانت الهجرة في معنى الموت من حيث كونها مفارقة المألوف، وكان في الموت ذلك كله وزيادة، قال مرهبًا من تركها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مفارقة كل ما ألفت، فإن أطاعت ربها أنجت نفسها ولم تُنقِصها الطاعةُ في الأجل شيئًا، وإلا أوبقت نفسها ولم تزدها المعصية في الأجل شيئًا، فإذا قدّر الإنسان أنه مات سهلت عليه الهجرة، فإنه إن لم يفارق بعضَ مألوفه بها فارق كلَّه بالموت، وما ذُكر الموت في عسير إلا يسره ولا يسير إلا عسره وكدره، ولما هوّن أمر الهجرة حذّر من رضي في دينه بنوع نقص حثًا على الاجتهاد في التزود للمعاد فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ فيجازي كلًا منكم بما عمل.

[ولما بين ما يكون للكافرين وقت الرجوع إليه بقوله: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، بين ما يكون للمؤمنين فقال][3]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ولما كانت لا نكد فيها يوجب هجره في لحظة ما قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾. ثم وصفهم بما يرغب في الهجرة فقال معرفًا بجماع

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٨.

(٣) مفاتيح الغيب ١٣/ ٨٤، بتصرف.

الخير كله، منبهًا على أن الإنسان لا ينفك عما ينبغي الصبر عليه: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ وحده لا على أهل ولا وطن ﴿يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾.

ولما أشار بالتوكل إلى أنه الكافي سبحانه قال: ﴿۞وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ فهو لم يأمركم بما أمركم به إلا وقد أعد له أسبابه.

ولما أعرض عن المشركين بخطاب المؤمنين، عاد إلى استعطافهم فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ ولما كان حالهم في إنكار البعث حال من ينكر أن يكون تعالى خلق هذا الوجود، قال مؤكدًا: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ عن الإخلاص له مع إقرارهم بذلك، فيكون وجه أحدهم إلى قفاه فينظر الأشياء على خلاف ما هي عليه. ولما كان قد يشكل على ذلك: التفاوت في الرزق قال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ ولما كان ذلك إنما هو لمصالح العباد وإن لم يظهر لهم وجه حكمته قال: ﴿لَهُۥٓۚ﴾ ولما كان تعالى يرزق الناس ويمكّن لهم بحسب ما يعلم من ضمائرهم أنه لا صلاح إلا فيه، قال معللًا لذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾.

ولما ذكر السبب البعيد في الترزيق ذكر القريب فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ فلما ثبت أنه الخالق بدءًا وإعادة، قال منبهًا على عظمته سبحانه اللازم منها صدق رسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ حيث أقروا بمعنى الحمد من أنه الخالق، ثم فعلوا ما ينافيه.

ولما تبين بهذا أن الدنيا مبنية على الفناء والزوال قال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولما كان مقصود السورة الحث على الجهاد والنهي عن المنكر وكان في معرض سلب العقل عنهم، قدم اللهو لأن الإعراض عنه يحسم مادة الشر فإنه الباعث عليه فقال: ﴿إِلَّا لَهۡوٞ﴾ أي: شيء يلهي عما ينفع ﴿وَلَعِبٞۚ﴾ يشتغل به صبيان العقول، فيشغل عن استعمال العقل في اتباع ما ينجي في الآخرة فينشأ عنه الضلال، على ما أشارت إليه آية لقمان: ﴿يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ [الآية: ٦] ومنه اللعب، وهو فعل ما يزيد النفس في دنياها سرورًا وينقضي بسرعة، وكل باطل يقصد به التمادي في قطع الزمان فيما يشتهى من غير تعب.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ أي: الحياة التامة الباقية لأنه لا موت فيها ولا فناء لشيء ولذلك اختير هذا البناء الدال على المبالغة، وحركته مشعرة بما في الحياة من مطلق الحركة

والاضطراب، ولما كانوا قد غلطوا في كلتا الدارين فأنزلوا كل واحدة غير منزلتها، فعدوا الدنيا وجودًا دائمًا والآخرةَ عدمًا قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: لم يغلطوا في ذلك.

﴿فَإِذَا﴾ أي: فتسبب عن عدم عقلهم المستلزم لعدم علمهم أنهم إذا ﴿رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فعُلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصاد عن كل خير، وأن الانقطاع عنها معين للفطرة الأولى المستقيمة. ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بما يجتمعون عليه في الإشراك من التواصل والتعاون ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ولما كان كفرهم عند الأمن بعد الإخلاص عند الخوف هزلًا لا يفعله إلا من أمن مثل تلك المصيبة في البر، قال منكرًا عليهم ذلك بأن قدرته سبحانه على إخافتهم في البر كقدرته عليها في البحر؛ ليدوم إخلاصهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ مع قلة من بمكة وكثرة من حولهم، فالذي خرق العادة في فعل ذلك، قادر على أن يعكس الحال فيجعل من بالحرم متخطفًا ومن حوله آمنًا، أو يجعل الكل في الخوف على منهاج واحد ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وجاء الحصر من حيث إن من كفر بالله تبعه الكفر بكل حق والتصديق بكل باطل ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ولما كان فعلهم هذا أظلم الظلم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

ولما كان هذا كله في الذين فتنوا فلم يجاهدوا أنفسهم، عطف بأضدادهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بعظمته وجلاله وجميع كماله لمعهم، ولكنه أراد الإعلام بإحسانهم وتعليق الحكم بالوصف والتعميم فقال: ﴿لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ كلهم بالنصر والمعونة في دنياهم والثواب والمغفرة في عقباهم بسبب جهادهم، وإن رأى الجاهل خلاف ذلك، فإنه يجعل عزهم من وراء ذل، حماية لهم مما يجر إليه دائم العز من الكبر، ونقل القشيري عن الحارث المحاسبي أنه قال: "من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة".

فقد عانق أول السورة هذا الآخر، وكان إليه أعظم ناظر، فنسأل الله العافية من الفتن، والمجاهدة إن كان لا بد من المحن، وإليه المآب.

سورة الروم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إثبات الأمر كله لله، فتأتي الوحدانية والقدرة على كل شيء، فيأتي البعث ونصر أوليائه وخذلان أعدائه، وهذا هو المقصود بالذات، واسم السورة واضح الدلالة عليه بما كان من السبب في نصر الروم.

ولما افتُتحت تلك بأمر المفتونين، وكان الفرس قد انتصروا على الروم، وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم؛ لأن فارس لم يكن لهم كتاب وكانوا يجحدون البعث ويعبدون النار والأصنام، ففرح كفار مكة وشمتوا فقالوا للمسلمين: قد انتصر إخواننا الأميون على إخوانكم أهل الكتاب فلننصرن عليكم، أخبر تعالى بأن الأمر يكون على خلاف ما زعموا، فكان ذلك فتنة يعرف بها الثابت من المزلزل، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين فقال: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝١﴾ أي: لتبديلهم دينهم، غلبهم الفرس.

وقال ابن الزبير: "لما أعتب سبحانه أهل مكة في التغافل عن الاعتبار بحالهم، وتبينوا أن أمنهم إنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته مع أنهم أقل العرب، أعقب بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد وقد أيد عليهم غيرهم ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم، أفلا يشكرون!

وأيضًا فإنه تعالى لما قال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ [العنكبوت: ٦٤] الآية، أتبع بذكر تقلب حالها وتبين اضمحلالها، فوجب اعتبار العاقل بذلك وطلبه الحصول على تنعم دار لا ينقلب حالها، ومما يقوي هذا المأخذ قوله: ﴿يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا﴾ [الروم: ٧]، أي: لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب ولعرفوا أمر الآخرة.

ومما يشهد لكل من المقصدين قوله: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ [الروم: ٩] الآيات، أي: لو فعلوا هذا لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة ما بين لهم عدم إبقائها على أحد، فتحققوا لهوها ولعبها وعلموا أن حالهم سيؤول إلى حال من ارتكب مرتكبهم".

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٢ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وهي من الآيات البينة الشاهدة الصادقة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله نزل بالحق المبين؛ لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى فطابقه الواقع.

ولما كان تغليب ملك على ملك أمرًا هائلًا، وكان الإخبار به قبل كونه أهول، ذكر علة ذلك فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل دولة فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس ﴿وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ أي: بعد دولة الروم عليهم ودولتهم عليهم.

﴿وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٣ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾ لهم على المشركين في بدر وهو المقصود بالذات، والروم على فارس لتصديق موعود الله، ونصر من سيصير من المسلمين من مشركي العرب على الفرس في وقعة ذي قار، فقد وقع الفرح بنصر أهل الدين الصحيح أصلًا وحالًا ومآلًا، وكانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر، وقيل: إنها مثلت لرسول الله ﷺ وهو بالمدينة، فلم يزل يدعو لبني شيبان أو لجماعة ربيعة بالنصر حتى أري هزيمة الفرس ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ من ضعيف وقوي ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يعز من عادى ولا يذل من والى، ولما كان هذا السياق لبشارة المؤمنين قال: ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٤﴾ أي: يخص حزبه بما ينيلهم قربه.

ثم قال معرفًا أنه كما صدق في هذا الوعد لأجل تفريح أوليائه فهو يصدق في وعد الآخرة ليحكم بالعدل: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ﴾ وأعاد ذكر الجلالة تنبيهًا على عظم الأمر فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ ولما كان لا يخلف شيئًا من الوعد لا هذا ولا غيره، أظهر فقال: ﴿وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ أنه وعد وأنه لا بد من وقوع ما وعد به.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما أدتهم إليه حواسهم وتجاربهم إلى ما يكون سببًا للتمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، قال الحسن: "إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ، وهو لا يحسن يصلي"، وأمثال هذا لهم كثير، وهو وإن كان عند أهل الدنيا عظيمًا فهو عند الله حقير، فلذلك حقره؛ لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم في إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل، وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع، وأما علم باطنها وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها بالطاعة فهو الممدوح.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْأٓخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ أي: فصاروا لاستيلاء الغفلة عليهم إذا ذكرت لهم كذبوا بها مع أن دلائلها تفوت الحصر، فلذلك لا يصدقون الوعد بإدالة الروم؛ لما رسخ في نفوسهم من أن الأمور تجري بين العباد على غير قانون الحكمة؛ لأنهم كثيرًا ما يرون الظالم يموت ولم يقتص منه، وهم في غفلة عن أنه أخر جزاؤه إلى يوم الدين.

وهذا السياق يدل على أنه لا حجاب عن العلم أعظم من التكذيب بالآخرة، ولا شيء أعون عليه من التصديق بها والاهتمام بشأنها لأنه حامل على طلب الخلاص في ذلك اليوم، وهو لا يكون على أتم الوجوه إلا لمن وصل إلى حالة المراقبة، وذلك لا يكون إلا لمن علم فلم يتحرك إلا بدليل، والمعنى أن العلم منفي عنهم لما شغل قلوبهم من هذا الظاهر في حال غفلتهم عن الآخرة، فانسد عليهم باب العلم.

ولما كانت الحكمة لا تتم إلا بإيجاد الآخرة قال موبخًا لهم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ ثم ذكر آلة الفكر فقال: ﴿فِي أَنفُسِهِمۗ﴾ ويجوز أن تكون هي المتفكر فيه، أنه لا بد في حكمته من جمعهم للعدل بينهم؟ ثم ذكر نتيجة ذلك، وعلى التقدير الأول يكون هذا هو المتفكَّر فيه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الثابت والقضاء، فالقدرة التي خلق بها ذلك وابتدأكم ثم يبيدكم، بها يحييكم ويعيدكم.

أو: إلا بسبب إحقاق الحق وإبطال الباطل، فلا بد من تصديقِ وعده وإثباتِ كل حق رأيتموه قد أبطل، وإبطال كل باطل رأيتموه قد أعمل؛ لأنه أحكم الحاكمين، فلو أقر على إماتة حق أو إحياء باطل لما كان كذلك.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ وذلك أنه كما جعل لهم آجالًا لم يشذ عنها أحد منهم، فكذلك لا بد من أجل مسمى لما خلقوا منه، فإذا جاء انحل هذا النظام ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٧﴾ فلا يهولنكم تكذيبهم بما وعدكم من إدالة الروم على الفرس؛ لأنهم قد كذبوا بما هو أكبر منه.

ولما أقام الدليل أتبعه التهديد فقال: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ ولما كان علم العاقبة مشروطًا بمعرفة البادئة قال: ﴿كَانُوٓاْ﴾ ولما كان السياق للغلبة التي مدارها على الشدة المقتضية للثبات لا الكثرة العارية عنها، أعرض عنها، وقال مسقطًا ضمير الفصل؛ لأن هذا السياق لا يظهر فيه ادعاء العرب علوَّهم على فارس والروم: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ أي: السالفون.

﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: هؤلاء ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٨﴾ لأنهم لا يعتبرون بعقولهم فيعلموا الحق من الباطل،

ولا يقبلون من الهداة إذا كشفوا لهم ما عليها من الغطاء، ولا يرجعون عن الغي إذا اضطروهم بالآيات، بل ينتقلون من الغفلة إلى العناد.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ ثم ذكر العلة بقوله: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٩﴾﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلًا من ﴿السوأى﴾ أو بيانًا لها، بمعنى أنهم لما أساؤوا زادتهم إساءتهم عماوة حتى ارتكسوا في العمى فوصلوا إلى التكذيب والاستهزاء الذي هو أقبح الحالات، عكس ما يجازى به المؤمن من أنه يزداد بإيمانه هدى.

ثم قال ذاكرًا نتيجة ما مضى ومحصله، تصريحًا بالمقصود وتلخيصًا للدليل: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾﴾. ولما ذكر الرجوع أتبعه بعض أحواله فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١١﴾﴾ الذين وصلوا من الدنيا ما من حقه أن يقطع لفنائه، وقطعوا من أسباب الآخرة ما من حقه أن يوصل لبقائه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: ساترين لأن يكونوا اعتقدوهم آلهة، جريًا على عادتهم فيما لا يغني من العناد والبهت.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: المؤمنون والكافرون فرقة لا اجتماع بعدها. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ بالسوق والزجر العنيف.

ولما كان تكذيبهم بالمعاد مستلزمًا لاعتقاد نقائص، منها العجز وإخلاف الوعد وترك الحكمة، قال منزهًا لنفسه، آمرًا بذلك لأنه يدفع عن المنزِّه مضارّ الوعيد ويرفعه إلى مسارِّ الوعد، ذاكرًا من أفعاله ما يدل على خلاف ما يلزم اعتقادهم: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وقدم المحو لأنه أدل على البعث الذي النزاع فيه، وهو الأصل فقال: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٦﴾﴾. ولما ذكر التنزيه أتبعه عموم الكمال فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ وفيه إشارة للصلوات الخمس، في المساء بالعصر والمغرب، وفي الصباح بالصبح، وفي العشي بالعشاء، وفي الإظهار بالظهر.

ولما ذكر -دلالةً على البعث المستلزم للوحدانية- مطلقَ التحويل الذي هو إحياء في المعنى بعد إماتة، أتبعه الإحياء والإماتة حقيقة فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ

إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ولم يختم هذه الآية بما ختم به ما بعدها دلالة على أنها جامعة لجميع الآيات. ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ من قولهم: سكن إليه، إذا مال وانقطع واطمأن إليه، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها.

ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الألفة قال: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ﴾ أي: معنى يوجب أن لا يحب أحد الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه؛ لأن مادة «ودد» تدور على الاتساع والخلوّ، من الدوّ والدوية وهي الفلاة، و«الود» قال في القاموس: الحب، وقال القزاز: الأمنية، تقول وددت أن ذاك كان، وذاك لاتساع مذاهب الأماني وتشعب أودية الحب، وقال الحرالي: "الود: خلو عن إرادة المكروه، فإذا حصل إرادة الخير وإيثاره كان حبًا، فمن ود لا يقاطع، ومن أحب واصل وآثر"، ولما كان هذا المعنى الحسن لا يتم إلا بإرادة الخير قال: ﴿وَرَحۡمَةً﴾ والود والرحمة من الله، والفرك -وهو البغض- من الشيطان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ أي: لغاتكم ونغماتكم وهيئاتها، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين، وأنتم من نفس واحدة، فلو كان الحكم للطبيعة لم يختلف؛ لأنه لا اختيار لها، مع أن نسبة الكل إليها واحدة ﴿وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ إيماء إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لو نطق الجماد لأخبر بمعرفته، والقراءة بالكسر حث للمخاطبين على النظر ليكونوا من أهل العلم.

﴿۞وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أمرًا قهريًا لا تقدرون على الانفكاك عنه ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾. ولما ختم بالسمع ما جمع آيات الأنفس والآفاق لكونه نشأ من أحوال البشر والخافقين، افتتح بالرؤية آية جامعة بين الترغيب والترهيب فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ على هيئات وكيفيات طالما شاهدتموها تارة تأتي بما يضر وتارة بما يسر ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ولما كان جميع ما مضى من الآيات المرئيات ناشئًا عن هذين الخلقين العظيمين المحيطين بمن أنزلت عليهم هذه الآيات المسموعات، ذكر أمرًا جامعًا للكل فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن

تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ دالًا على أنه لا فرق عنده في شمول أمره بين قيام الأحياء وقيام الأرض والسماء ﴿دَعۡوَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٤﴾.

ولما ذكر تصرفه في الظرف وبعض المظروف من الإنس والجن، ذكر قهره للكل فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٥ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ ولا تتم حكمة هذا الكون إلا بالبعث، بل هو محط الحكمة الأعظم ليصل كل ذي حق إلى حقه، وإلا لكان الباطل أحق من الحق وأكثر، فكان عدم هذا الموجود خيرًا من وجوده وأحكم.

ولما بان من هذا أنه المتفرد في الملك، اتصل بحسن أمثاله وإحكام مقاله وفعاله قولُه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾ التي هي أقرب الأشياء إليكم، فأنتم لما تذكرون به أجدر بأن تفهموه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ مع ضعف ملككم فيه، ولما كانت الشركة سببًا لتساوي الشريكين في المشترَك قال: ﴿فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ﴾ في التصرف فيه ﴿كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أي: كما تخافون من الحرِّ الذي تشاركونه في شيء أن تتصرفوا فيه بما لا يرضيه، فإذا لم ترضوا لأنفسكم أن يستوي عبيدكم معكم في الملك فكيف ترضونه بخالقكم في هذه الشركاء التي زعمتموها!

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٧ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ إشارة إلى بعدهم في الضلال؛ لأن الجاهل يهيم على وجهه بلا مرجح غير الميل كالبهيمة لا يرده شيء، وأما العالم فربما رده علمه ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ والتقدير: ليس أحد يهديهم؛ لأنهم أبعدوا أنفسهم عن أسباب الهدى فبعدوا عن أسباب النصر، فلذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٨﴾ يخلصونهم مما هم فيه من الخذلان وأسر الشيطان ومما يسببه من النيران.

ولما تحررت الأدلة وانتصبت الأعلام، قال مسببًا عن ذلك: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ أي: قصدك كله ﴿لِلدِّينِ﴾ فإن من اهتم بشيء سدد إليه نظره وقوم له وجهه ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ أي: حال كونك ميالًا مع الدليل، ثم بين أن هذا الأمر في طبع كل أحد وإن كانوا فيه متفاوتين، كما تراهم إذا كانوا صغارًا أسهل شيء انقيادًا، فإذا كشف لهم الحال في كثير من الأشياء عن أن

انقيادهم كان خطأ، يصيرون يدربون أنفسهم على المخالفة دائمًا حتى تصير لبعضهم طبعًا تجريبيًا، فيصير أقسى شيء وأجمده بعد أن كان أسهل شيء وأطوعه.

فقال مبينًا لهم صحة دينه بأمر هو في أنفسهم، كما بين بطلان دينهم بذلك: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ وقال الغزالي في الإحياء في هذه الآية: "أي: كل آدمي فطر على معرفة الأشياء على ما هي عليه، أعني أنها كالمتضمنة فيه لقرب استعداده للإدراك"، ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ وهي سهولة الانقياد وكرم الخلق الذي هو في الصورة فطرة الإسلام، وتحقيقه أن المشاهد من الأطفال سلامة الطباع وسلاسة الانقياد لظاهر الدليل، ليس منهم في ذلك عسر كما في الكبار وإن تفاوتوا في ذلك، فالمراد بالفطرة قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه.

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها» فالجدع والوسم وشق الأذن ونحو ذلك مثال للأخلاق التي يتعلمها الطفل ممن يعامله بها من الغش والكذب وغير ذلك، وأكثر ما يكون هذا من قرناء السوء الذين يقولون ما لا يفعلون، ولهذا نهى ﷺ أن يوعد الطفل بما لا حقيقة له.

وكذا قوله ﷺ: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»، ولكن الشيطان لا يتمكن إلا بإقدار الله له في الحال بما يخلق في باطن المخذول من الباعث، وفي الماضي من الطبائع التي هيأه بها لمثل ذلك، كما أشار إليه قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وآية سبحان: ﴿كل يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء: ٨٤]، وذلك أنه لما أخبرهم ﷺ أن الله تعالى قد كتب أهل الجنة وأهل النار، قالوا: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فالكتاب حجة عليهم؛ لأن مبناه على أن فلانًا من أهل النار لكونه لم يعمل كذا وكذا، فأرادوا أن يجعلوه حجة لهم.

فأُعلموا أن في ذلك أمرين لا يبطل أحدهما الآخر: باطن وهو علم الله، وظاهر وهو العمل، عوملوا بذلك ليتعلق خوفهم بالباطن المغيب عنهم، ورجاؤهم بالظاهر البادي لهم، والخوف والرجاء مدرجتا العبودية؛ ليستكملوا بذلك صفة الإيمان، ونظير ذلك أمران: الرزق المقسوم مع الأمر بالمكسب، والأجل المحتوم مع المعالجة بالطب، وقد اصطلح الناس على أن الظاهر منهما لا يترك بالباطن، ذكر معناه الرازي في اللوامع عن الخطابي.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجعل طفلًا في أول أمره خبيث الفطرة لا ينقاد ولا يستسلم، وكلما كبر رجع لما طبع عليه من كفر أو إيمان حتى ينساق إلى ذلك عند البلوغ أو بعده، فإن مات قبل ذلك جوزي بما كان الله يعلمه منه أنه يعمله طبعيًا ويموت عليه كالغلام الذي قتله الخضر عليه السلام، ولا يعذب بما يكون عارضًا منه ويعلم أنه سيكون لو كان كأبوي الغلام، فقد عَلم منهما الكفر لو عاش فلم يؤاخذا به لأنه عارض لا طبعي، فالعبرة بالموت، ومن طبع على شيء لم يمت على غيره، فحقق هذا تعلم أنه لا تنافي بين شيء من النصوص لا من الكتاب ولا من السنة، والله الهادي.

ولما كان الميل مع الدليل كيفما مال أمرًا لا ينال إلا بتوفيق من الله، أشار إلى عظمته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قد تدربوا في اتباع الأهوية لما تقدم من الشبه فصاروا بحيث ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ حتى يميزوا الحق من الباطل؛ لما غلب عليهم من الجفاء.

﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ تعالى بالنزوع عما اكتسبتموه من رديء الأخلاق إلى تلك الفطرة السليمة المنقادة للدليل ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوا أن تزيغوا عن سبيله، فإذا خفتموه فلزمتموها كنتم ممن تخلى عن الرذائل ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تصيروا ممن تحلى بالفضائل، هكذا دأب الدين أبدًا: تخلية ثم تحلية، أول الدخول إلى الإسلام التنزيه، وأول الدخول في القرآن الاستعاذة ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣٠﴾ أي: لا تكونوا ممن يدخل في عدادهم بموادة أو معاشرة أو عمل تشابهونهم فيه فإنه «من تشبه بقوم فهو منهم» وهو عام في كل شرك سواء كان بعبادة صنم أو غيره أو بالتدين بما يخالف النصوص.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ أي: فرقًا متحالفين، كل واحدة منهم تشايع من دان بدينها على من خالفهم حتى كفّر بعضهم بعضًا واستباحوا الدماء والأموال، فعلم قطعًا أنهم كلهم ليسوا على الحق ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣١﴾ ظنًا منهم أنهم صادفوا الحق وفازوا به دون غيرهم.

ثم ذكر الدليل "على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان" كما قال الرازي، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٢﴾ فعلم أن الحق الذي لا معدل عنه: الإنابة في كل حال إليه، كما أجمعوا في وقت الشدائد عليه، وأن غيره مما فرقهم ضلال. ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ ولما كان فعلهم هذا

سببًا لغاية الغضب، دل عليه بتهديده ملتفتًا إلى المخاطبة بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ إذا حل بكم البلاء، هل ينفعكم ما تقربتم إليه؟

ثم قال ملتفتًا إلى مقام الغيبة، إيذانًا بالتهاون بهم وإبعادًا لهم عن جنابه، حيث استمروا بعد هذه الأدلة في خطر إغضابه: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ بدلالته وإفهامه ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٤﴾ فلم يجدوا بدًا من متابعته.

ثم قال دالًا على خفة أحلامهم من وجه آخر: ﴿وَإِذَآ﴾ معبرًا بأداة التحقيق إشارة إلى أن الرحمة أكثر ﴿أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن﴾ بأداة الشك، دلالة على أن المصائب أقل، وقال: ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾ غير مسند لها إليه، تأديبًا لعباده وإعلامًا بغزير كرمه ﴿سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٥﴾.

ولما كان السياق لذم القنوط الذي يكفي فيه مشاهدة اختلاف بقية الأحوال، عبر بالرؤية فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: رؤية متكررة، بخلاف الزمر التي مقصودها الدلالة على صدق الوعد الكافي فيه مطلق العلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ فلو اعتبروا حال قبضه وبسطه لم يبطروا ولم يقنطوا، بل كان حالهم الصبر في البلاء، والشكر في الرخاء، والإقلاع عما نزل بسببه القضاء، فعُرف أنهم متقيدون بالحاضر، آمنون من زوال النعم مع تكرر مشاهدة الزوال في النفس والغير، واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج، فهم يغلطون في الأمور المتكررة المشاهدة، فلا عجب في تقيدهم في إنكار البعث بهذه الحياة الدنيا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٦﴾.

ولما أفهم ذلك عدم الاكتراث بالدنيا؛ لأن الاكتراث لا يزيدها والتهاون بها لا ينقصها، فصار ذلك لا يفيد إلا تعجيل النكد بالكد والنصب، سبب عنه الإقبال على إنفاقها في حقوقها إعراضًا عنها وإيقانًا بأن ذلك هو استثمارها فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٧﴾ وأما غيرهم فخائب، أما إذا لم ينفق فواضح، وأما من أنفق على وجه الرياء بالسمعة فإنه خسر ماله وأبقى عليه وباله.

وأما من أنفق على وجه الرياء الحقيقي فقد صرح به تعريفًا بعظيم فحشه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾ وهو أن يعطي عطية ليأخذ في ثوابها أكثر منها ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي:

تحصل فيه زيادة تكون أموال الناس ظرفًا لها، فهو كناية عن أن هذه الزيادة لا يملكها المربِي أصلًا ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ أي: يزكو وينمو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكل ما لا يربو عنده فهو ممحوق لا وجود له، فإنه إلى فناء وإن كثر ﴿يمحق الله الربا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ولما ذكر ما زيادته نقص، أتبعه ما نقصه زيادة فقال: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي: صدقة، وعبر بذلك ليفيد الطهارة والزيادة، أي: تطهرون بها أموالكم من الشبه وأبدانكم من مواد الخبث وأخلاقكم من الغل والدنس ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: الذين ضاعفوا أموالهم في الدنيا بالبركة، وفي الآخرة بالثواب.

ولما وضح بهذا أنه لا زيادة إلا فيما يزيده الله، بين ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن﴾ ولما كان إشراكهم بما أشركوا لم تظهر له ثمرة إلا في أنهم جعلوا لهم جزءًا من أموالهم، عبر بقوله: ﴿شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ولما بين لهم سبحانه من حقارة شركائهم ما كان حقهم به أن يرجعوا فلم يفعلوا، أتبعه ما أصابهم به على غير ما كان في أسلافهم، عقوبة واستعطافًا للتوبة فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ أي: النقص في جميع ما ينفع الخلق ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: عملت من الشر عملًا هو من شدة تراميهم إليه كأنه مسكوب من علو، ومن شدة إتقان شره كأنه مسبوك ﴿أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ولما ذكر علة الفساد البدائية ثنى بالجزائية فقال: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾.

وأشار إلى كرمه تعالى بقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: وباله، والمراد الجزاء بمثل أعمالهم التي آذوا بها الناس، فيعرفوا إذا أُصيبوا بمثل ما قدّموه لغيرهم وهم يتضاحكون ويعجبون من جزعه، مقدار ما ذاق منهم ذلك الذي آذوه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ خوفًا من أن يعاد لهم بمثل ذلك من الجزاء.

ثم قال تأكيدًا لمعنى الكلام السابق: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولما كان قد ذكّرهم بما أصابهم على نحو ما أصاب به الماضين قال: ﴿فَانظُرُواْ﴾ بفاء التعقيب ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤١﴾﴾ فلذلك أهلكناهم ولم تغن عنهم كثرتهم.

ثم قال مسببًا عما مضى من الأدلة والوعظ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ﴾ بإثبات الجار، إشارة إلى الرضا باليسير من العمل ولو ساعة من نهار، بشرط الاتصال بالموت ﴿أَن

يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ۝٤٣ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ وحّد الضمير إفهامًا لأن الكفرة قليل وإن كانوا أكثر من المؤمنين؛ لأنه لا مولى لهم ولتفرق كلمتهم ﴿تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى﴾ [الحشر: ١٤]، ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وجمع الجزاء مع إفراد الشرط، ترغيبًا في العمل بلا نظر إلى مساعد بأنه ينفع نفسه وغيره؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا فقال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ۝٤٤﴾ أي: يوطئون منازل في القبور والجنة، بل وفي الدنيا فإن الله يعزهم بعز طاعته.

ولما فرغ من بيان تصدعهم ذكر علته فقال: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٥﴾ فلا يسويهم بالمؤمنين، وعلم من ذلك ما طوى من جزائهم، فالآية من وادي الاحتباك.

ولما ختم في أول السورة الآيات الدالة على الوحدانية المستلزمة للبعث: بأن قيام السماء والأرض بأمره، أتبع ذلك ما اشتد التحامه به، ذكر ما حفظ به قيام الوجود وهو الرياح، بجعلها سببًا في إدرار النعم التي منها ما هو أعظم أدلة البعث وهو النبات، والرياح أيضًا أشبه شيء بالناس، منها النافع نفعًا كبيرًا ومنها الضار ضرًا كثيرًا فقال: ﴿۞وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٤٦﴾.

ولما كانت في كثرة منافعها وعمومها إن كانت نافعة، ومضارها إن كانت ضارة، أشبه شيء بالرسل في إنعاش قوم وإهلاك آخرين، وما ينشأ عنها كما ينشأ عنهم، كما قال النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا» الحديث، أتبعها بذكرهم عليهم السلام فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾.

ولما أقام الدليل على البعث وإقامة الوجود بتصريف الرياح، وكان عذاب المذكورين فيها بالريح أو ما هي سببه أو لها مدخل فيه، أتبع ذلك الإعلام بأنه مختص بذلك فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٨ وَإِن كَانُواْ﴾ وبين قرب يأسهم من استبشارهم دلالة على سرعة انفعالهم وكثرة تقلبهم بالجار،

فقال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٨﴾ فلم يكن لهم على الإتيان بشيء من ذلك حيلة، ولا لمعبوداتهم صلاحية له باستقلال ولا وسيلة.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ ولما كانت قدرته على تجديد إحيائها دائمة -على ما أشار إليه المضارع ودعا إليه مقصود السورة- أشار إلى ذلك أيضًا بترك الجار فقال: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ولما كان هذا دالًا على القدرة على إعادة الموتى لأنه مثله قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥٠﴾ فلا هم عند السراء شكروا ولاعند الضراء صبروا.

ولما كانت سرعة تقلّبهم وإصرارهم على تجديد الكفر دليلًا على خفة أحلامهم وسوء تدبرهم، فإنهم لا للآيات المرئية يعون ولا للمتلوة يسمعون، سبب عنه قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥١﴾.

ولما بدأ بفاقد حاسة السمع لأنها أنفع من حيث إن الإنسان إنما يفارق غيره من البهائم بالكلام، أتبعها حاسة البصر فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ فممثول الموتى: من لا يقبل الخير بوجه ما مثل أبي جهل وأبي بن خلف، وممثول الصم: من قد يقارب مقاربة ما مثل عتبة بن ربيعة حين كان يقول لهم: خلوا بين هذا الرجل وبين الناس، فإن أصابوه فهو ما أردتم وإلا فعزه عزكم، وممثول العمي: المنافقون ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أشار بالإفراد في الشرط إلى أن لفت الواحد عن رأيه أقرب من لفته وهو مع غيره، وأشار بالجمع في الجزاء إلى أن هذه الطريقة إن سلكت كثر التابع فقال: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٢﴾.

ولما دل على قدرته على البعث بوجوه من الدلالات، وصل بذلك دليلًا جامعًا بين القدرة على الأعيان والمعاني إبداء وإعادة فقال: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٣﴾ فلولا إلف ذلك لكان خرق العادة في إيجاده بعد عدمه كإعادة الشيخ شابًا بعد هرمه.

ولما ثبتت قدرته على البعث وغيره، عطف على قوله أول السورة: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ [الآية: ١٢]: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٤ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الصرف عن حقائق الأمور إلى شكوكها ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ

﴿٥٥﴾ أي: يصرفون عن الصواب، ولعله بنى الفعل للمجهول إشارة إلى سهولة انقيادهم إلى الباطل مع أي صارف كان.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بناه للمجهول إشارة إلى تسهيل أخذه عليهم من الجليل والحقير، وأتبعه ما لا يشرق أنواره ويبرز ثماره غيره فقال: ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ أي: الذي آمنا به وكنتم تنكرونه، تنبيهًا لهم على أنه لا فائدة في تحرير مقدار اللبث في الدنيا ولا في البرزخ، وإنما الفائدة في التصديق بما أخبر به الكتاب حيث كان التصديق نافعًا ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾ لأن ذلك لا يكون إلا بالطاعة وقد فات محلها.

ولما أبانت هذه السورة طرق الإيمان أيّ بيان، قال مقبحًا لمخالفتهم لما يأتي من قِبَله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا﴾ ولما كانت العناية فيها بالناس أكثر قدّمهم فقال: ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي: مما اقترحوه ووعدوا الإيمان به ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الطبع العظيم جدًا ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾ ما حققه هذا الكتاب من علوم الدنيا والآخرة، رضًى بما عندهم من جهالات سموها دلالات، وضلالات ظنوها هدايات.

﴿فَاصۡبِرۡ﴾ أي: على إنذارهم مع هذا الجفاء والرد بالباطل فإنه لم يخرج عن إرادتنا، وعلله بقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ في كل ما وعدك به، الذي منه نصرك ونصر دينك ومن قارب أتباعك في التمسك بكتاب على من لا كتاب له ﴿حَقّٞۖ﴾ أي: ثابت جدًا يطابقه الواقع ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ باستعجال النصر خوفًا من عواقب تأخيره أو بتفتيرك عن التبليغ، بل كن بعيدًا منهم بالغلظة والصدع بمر الحق بُعدًا لا يطمعون معه أن يحتالوا في خفتك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ فإنهم إما شاكون فأدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف، أو مكذبون بنصر الله للمؤمنين ومن قاربهم في التمسك بكتاب أصله صحيح، فقد انعطف آخرها على أولها.

سورة لقمان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله سبحانه، وقصة لقمان دليل واضح على ذلك، كأنه لما ابتدأ القرآن بعد الفاتحة بنفي الريب عن هذا الكتاب وأنه هدى للمتقين واستدل على ذلك فيما تبعها من السور، ثم ابتدأ سورة يونس بعد سورة غزو الروم بإثبات حكمته وأتبع ذلك دليله، ابتدأ دورًا جديدًا على وجه أضخم، فوصفه في هذه التالية للروم بما وصفه به في يونس التالية لغزو الروم وزاد أنه هدى للمحسنين، فهؤلاء أصحاب النهايات، والمتقون أصحاب البدايات.

لما ختمت الروم بالحث على العلم وهو ما تضمنه هذا الكتاب العظيم، والأمر بالصبر والتمسك بما فيه من وعد، والنهي عن إطماع أهل الاستخفاف في المقاربة لهم في شيء من الأوصاف وكان ذلك هو الحكمة، قال أول هذه: ﴿الٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ بوضع الأشياء في حواق مراتبها، فلا تستطاع معارضته ولا نقض ما أبرمه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما تكرر الأمر بالاعتبار بالمخلوقات في سورة الروم وبسط الدلائل وضرب الأمثال حتى قال: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ [الروم: ٥٨] وهي إشارة إلى ما أودع الله كتابه، أتبعه بقوله: ﴿الم تلك آيات الكتاب الحكيم﴾، ثم أشار إلى من حُرم منفعته فقال: ﴿ومن الناس من يشتري﴾ الآيات، ثم أتبع بما يبكّت كل معاند فذكر خلق الخافقَين ثم قال: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ ثم ذكر من هداه سبيلَ الفطرة فقال: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ الآية، لتأسيس من اتبع فطرة الله التي تقدمت في سورة الروم".

ولما كان الإحسان ما دعت إليه سورة الروم من الإيمان بالله معبودًا بما شرعه على وجه الإخلاص والانقياد للدليل وكان ذلك هو عين الحكمة قال: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣﴾ وهم الذين لزموا التقوى فأدتهم إلى الإحسان، وهو عبادته تعالى على المراقبة، فهي له أول وهو لها آخر، ثم وصفهم بما دعت إليه سورة الروم من كمال الإحسان في معاملة الحق والخلق فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يعبر بالوصف الدال على الرسوخ؛ لأن المحسن هو الراسخ في الدين رسوخًا جعله كأنه يرى المعبود ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ولما كان الإيمان بالبعث حاملًا على سائر وجوه الإحسان، وكان قد ختم الروم بالإعراض عمن ليس فيه أهلية الإيقان قال: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾ أي: يؤمنون بها إيمان موقن، فهو لا يفعل ما ينافي الإيمان بها ولا يغفل عنها طرفة عين، فهو يعبد الله كأنه يراه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ تذكيرًا لهم بأنه لولا إحسانه ما وصلوا إلى شيء، ليلزموا تمريغ الجباه على الأعتاب، خوفًا من الإعجاب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٤﴾.

ولما كان فطم النفس عن الشهوات أعظم محصلٍ للمرادات، وإتباعها إياها أعظم قاطع عن الكمالات، وكان ما دعا إليه الكتاب هو الحكمة التي نتيجتها الفوز، وما دعا إليه اللهو هو السفه المثمر للعطب، قال معجّبًا ممن يترك الجد إلى اللهو، وجوهرَ العلم إلى صَدَف السهو: ﴿وَمِنَ﴾ أو يكون حالًا، أي: تلك آيات الكتاب الحكيم، والحال أن من ﴿ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: ما يلهي من الأشياء المتجددة التي تستلذ فيقطع بها الزمان من الغناء والمضحكات وكل شيء لا اعتبار فيه، فيوصل النفس بما أوصلها إليه من اللذة إلى مجرد الطبع البهيمي.

ولما كان من المعلوم أن عاقبة هذه الملاهي: الضلال بانهماك النفس في ذلك؛ لما طبعت عليه من الشهوة لمطلق البطالة، فكيف مع ما يثير ذلك من اللذاذة؟ فتصير أسيرة الغفلة عن الذكر، وقتيلة الإعراض عن الفكر قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ لأنهم لا علم لهم بشيء من حال السبيل ولا حال غيرها ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ ولما كان الجمع في مقام الجزاء أهول، والتعجيب من الواحد أبلغ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥﴾.

ولما كان المرء قد ينتبه من غفلته إذا نُبه، دل على أن هذا بخلاف ذلك، فقال مفردًا للضمير لئلا يقال بأن المذموم الجمع: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ولما كان السامع لآياته تعالى جديرًا بأن يرق ويتواضع قال: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ فدل على أنه لم يزل متكبرًا؛ لأن حاله مع السماع الكبر، وشبهه بحاله مع عدمه، فكان كذلك ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٦﴾.

ولما كان من الحكمة إذا بيّن ما لأحد الجزئين أن يبين ما للآخر قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٧ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾. ولما ختم بالعزة وهي غاية القدرة، والحكمة وهي ثمرة العلم، دل عليها بإحكام أفعاله

فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ ولما ذكر العمد المقلة، أتبعه الأوتاد المقرة فقال: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٩﴾.

ولما ثبت بهذا الخلق العظيم على هذا الوجه المحكم عزته وحكمته، ثبتت ألوهيته فألزمهم وجوب توحيده في العبادة كما توحد بالخلق؛ لأن ذلك عين الحكمة فقال: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ ولما كان العاقل بل وغيره، لا ينقاد لشيء إلا إن رأى له ما يوجب الانقياد له، نبه على ذلك بقوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ فالمعنى أنكم غُبنتم غبنًا ما غبنه أحد أصلًا بأن انقدتم إلى من لا فعل لهم، ثم قدّرتم لهم أفعالًا ترجونهم بها وتخشونهم ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأظهر تعميمًا وتنبيهًا على الوصف الذي أوجب لهم كونهم: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ لانحجاب شمس الإيمان عنهم بجبال الهوى.

ولما ثبتت حكمته، أخبر عن بعض من آتاه إياها من المحسنين فوضعوا الأشياء في مواضعها بأن آمنوا وعملوا الصالحات فقال: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قال الحرالي: "هي العلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم، والحكم: الحمل على الصبر والمصابرة ظاهرًا بالإيالة العالية، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم" وقال ابن ميلق: "من كمال تربية الحكيم لمن يريد إعلاء شأنه: أن يُجري على ظاهره من أثر العدل ما فيه تكميل لهم وتنوير لمداركهم وتطهير لوجودهم وتهذيب وتأديب"، ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكر الكافر ﴿حَمِيدٞ ۝١١﴾ للشاكر.

ولما كان الإنسان لا يعرف حكمةَ الحكيم إلا بأقواله وأفعاله، ولا صدقَ الكلام وحكمتَه إلا بمطابقته للواقع قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ﴾ ما يدل على شكره في نفسه وأمره به لغيره ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ أي: فهو ضد الحكمة؛ لأنه وضع الشيء في غير محله، فظلمه ظاهر من جهات عديدة جدًا، أظهرها أنه تسوية المملوك الذي ليس له من ذاته إلا العدم فلا نعمة منه أصلًا، بالمالك الذي له وجوب الوجود فلا خير ولا نعمة إلا منه.

وأتبع تعالى وصيته للولد بالوالد لكونه المنعم الثاني، المتفرد بجعله سبب وجود الولد اعترافًا بالحق لأهله، وإيذانًا بأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس، وإعلامًا بأن الوفاء شيء واحد

متى نقص شيء منه تداعى سائره، فقال معرِّفًا بقباحة من أمر ابنه بالشرك لكونه منافيًا للحكمة، وبوجوب مخالفة الابن لأبيه فيه، تقديمًا لأعظم الحقين وارتكابًا لأخف الضررين: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ عبّر بالعام الذي يدور على السعة؛ ترجية لهما بالعول عليه وتعظيمًا لحقهما بالتعبير بما يشير إلى صعوبة ما قاسيا فيه باتساع زمنه ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

وعلل الأمر بقوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٣﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ مع ما أمرتك به من طاعتهما ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ وأشار بأداة الاستعلاء إلى أن من أطاعهما فيه ولو باللفظ: فليس من المحسنين، وإن كانا في غاية العلو والتمكن من الأسباب الفاتنة له، بخلاف سورة العنكبوت فإنها لمطلق الفتنة وليست لقوة الكفار، فعبر فيها باللام إشارة إلى مطلق الجهاد الصادق بقويه وضعيفه، ففي الموضعين رمز إلى أنه إن ضعف أطاع باللسان ولم يخرجه ذلك عن الإيمان كما أخرجه هنا عن الإحسان ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشارة إلى أنه لا يمكن أن يدل علم على شيء من الشرك، بل العلوم كلها دالة على الوحدانية.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فيه تنبيه لقريش على الغلط في التقليد لآبائهم فيه ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ولما كان ذلك قد يجر إلى وهن في الدين ببعض محاباة، نفى ذلك بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ وفي هذا حث على معرفة الرجال بالحق، وأمر بحك المشايخ وغيرهم على محك الكتاب والسنة ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ولما ختم بعلم الله للأعمال، ذكر دقيق العلم ومحيطه المكمّل للتوحيد، وعبر بمثقال الحبة لأنه أقل ما يخطر غالبًا بالبال فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ وأسقط النون للإيجاز في الإيصاء والدلالة على أقل الكون ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [بالجمع] ليكون أعظم لضياعها لحقارتها ﴿أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي: عظيمُ المتِّ بالوجوه الدقيقة في بلوغ المراد ﴿خَبِيرٌ ﴿١٥﴾﴾.

ولما أمر بتكميل نفسه توفيةً لحق الحق، عطف على ذلك تكميله لنفسه بتكميل غيره توفيةً لحق الخلق فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ حبًا لأخيك ما تحب لنفسك، تحقيقًا لنصيحتك وتكميلًا لعبادتك؛ لأنه ما عبد اللهَ أحدٌ ترك غيرَه يتعبد لغيره، وهذا وإن كان من قول لقمان إلا أنه لما كان في سياق المدح له كنا مخاطبين به.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ﴾ وحقق بالماضي أنه لا بد من المصيبة ليكون الإنسان على بصيرة فقال: ﴿أَصَابَكَۖ﴾ في عبادتك من الأمر بالمعروف وغيره، سواء كان بواسطة العباد أو لا، وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر لأنهما ملاك الاستعانة ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ٤٥] واختلاف المخاطب في الموضعين أوجب اختلاف الترتيبين، المخاطب هنا مؤمن متقلل من الدنيا، وهناك كافر متكثر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٦﴾.

ولما كان من آفات العبادة لا سيما الأمر والنهي: الإعجاب الداعي إلى الكبر، قال محذرًا منه، منبهًا على أن المطلوب في الأمر والنهي اللين لا الفظاظة المنفّرة: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ﴾ وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوي منه عنقه ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للإمالة عنهم، وذلك لا يكون إلا تهاونًا بهم من الكبر، بل أقبل عليهم بوجهك كله ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ أي: اختيالًا وتبخترًا؛ لأن ذلك مشي أشر وبطر وتكبر، فهو جدير بأن يَظلم صاحبُه ويبغي، بل امش هونًا فإن ذلك يفضي بك إلى التواضع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ أي: يرى له فضلًا على الناس فيشمخ بأنفه ﴿فَخُورٖ ١٧﴾ أي: يعدد مناقبه.

ولما كان الإنصاف في الكلام والمشي لا على طريق المرح والفخر ربما دعا إلى الاستماتة فيهما أو الإسراع، قال محترسًا في الأمر بالخلق الكريم عما يقارب الحال الذميم: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ مجانبًا لوثب الشيطان ودبيب المتماوتين، وهو المشي الهون الذي ليس فيه تصنع للخلق لا بتواضع ولا بتكبر ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ ولما كان رفع الصوت فوق العادة منكرًا، وخفضه دونها تماوتًا أو دلالًا وتكبرًا، أشار إلى النهي عن هذا بـ«من» فأفهم أن الطرفين مذمومان، فقال: ﴿مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٨﴾ وهذا يفهم أن الرفع مع الحاجة غير مذموم، فإنه ليس بمستنكر ولا مستبشع.

ولقد دعت هذه الآيات إلى معالي الأخلاق وهي أمهات الفضائل الثلاث: الحكمة والعفة والشجاعة، وأمرت بالعدل فيها، وفي النهي عن الاستماتة نهي عما قد يلزمها من الانحطاط إلى البله والبلادة والغفلة والخلاعة، والكافل بشرح هذا ما قاله التفتازاني: "إن الخالق تعالى وتقدس قد ركب في الإنسان ثلاث قوى: **إحداها** مبدأ إدراك الحقائق، ويعبر عنها بالقوة النطقية والعقلية والنفس المطمئنة الملكية، **والثانية** مبدأ جذب المنافع والملاذ، وتسمى القوة الشهوية والبهيمية والنفس الأمارة، **والثالثة** مبدأ الإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع، وهي القوة الغضبية والسبعية والنفس اللوامة.

ويحدث من اعتدال الحركة الأولى: الحكمة، والثانية: العفة، والثالثة: الشجاعة، فأمهات الفضائل هي هذه الثلاث، وما سوى ذلك إنما هو من تفريعاتها وتركيباتها.

أما الحكمة فهي معرفة الحقائق على ما هي بقدر الاستطاعة، وهي العلم النافع المشار إليه بقوله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وإفراطها: الجربزة، وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات، وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة الشرائع، نعوذ بالله من علم لا ينفع"، وهي مأخوذة من الجربز وهو الخب، أي: الخداع الخبيث، قال: "وتفريطها: الغباوة التي هي تعطيل القوة الفكرية، والوقوف عن اكتساب العلوم النافعة.

وأما الشجاعة فهي انقياد السبُعية للناطقة؛ ليكون إقدامها على حسب الروية، وإفراطها التهور أي: الإقدام على ما لا ينبغي، وتفريطها: الجبن أي: الحذر عما لا ينبغي، **وأما العفة** فهي انقياد البهيمية للناطقة؛ لتكون تصرفاتها بحسب اقتضائها، فتسلم عن استعباد الهوى إياها واستخدام اللذات، وإفراطها: الخلاعة والفجور أي: ازدياد اللذات على ما يجب، وتفريطها: الجمود أي: السكوت عن طلب ما رخص فيه العقل والشرع منها إيثارًا لا خلقة، فالأوساط فضائل والأطراف رذائل.

فإذا امتزجت الفضائل الثلاث حصلت العدالة، وبهذا الاعتبار عبر عنها بالوساطة في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والحكمة في النفس البهيمية: بقاء البدن الذي هو مركب النفس الناطقية ليصل إلى كمالها اللائق بها، وفي السبعية: كسر البهيمية ودفع الفساد المتوقع من استيلائها، واشترط التوسط في أفعالهما لئلا تُستعبد الناطقةُ في هواهما، وتصرفاها عن كمالها ومقصدها".

ولما تمّ ذلك أبرز سبحانه الآيات المرئية على وجه يدل على استحقاقه لما أمر به لقمان عليه السلام من العبادة وأن إليه المرجع، وهو عالم قادر على كل شيء، وأن كل ما ترى خلقه، مذكرًا بأن النعمة إنما هي منه فلا ينبغي لأحد أن يفخر بما آتاه غيره، ولو وكل فيه إلى نفسه لم يقدر على شيء منه، فقال دليلًا على أول السورة من أن منهم المعاند بعد وضوح الدليل: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَ﴾ الحال أن ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بل بألفاظ ركيكة المعاني؛ لعدم استنادها إلى حس ولا عقل ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ﴾ أي: من الله، ووصفه بما هو لازمه فقال: ﴿مُّنِيرٍ ۝١٩﴾.

ولما كان حال المجادلين هذا لظهور أدلة الوحدانية عجبًا، عجب منهم تعجيبًا آخر بإقامتهم على الضلال مع إيضاح الأدلة فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ ولما كان ضلال الجمع أعجب من ضلال الواحد أفرد أولًا وجمع هنا فقال: ﴿لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ دليلهم فهو ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢٠ ۞وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ أي: قصده وتوجهه وذاته كلها.

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٢١ وَمَن كَفَرَ﴾ فلم يسلم وجهه إليه، فقد ألقى نفسه في كل هلكة لكونه لم يتمسك بشيء ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٢﴾ أي: بالأعمال التي هي صاحبتها ومضمرة فيها من قبل أن تبرز إلى الوجود، فكيف بذلك بعد عملها! ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٣﴾.

ولما كانوا يجادلون أو يقولون: بل نتبع آباءنا، مع إقرارهم بما يلزمهم بالوحدانية، عجّب من ذلك بقوله: ﴿وَلَئِن﴾ أي: يفعلون ذلك والحال أنهم إن ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ ولما كان مما يستحق به الحمد سبحانه: إقرارهم بذلك وهم في غاية التكذيب قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٤ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما تحرر بما تقدم أنهم عالمون مقرون بما يلزم عنه وحدانيته، لم يؤكد بإعادة «ما» والجار، بل قال: ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: كلها كما كانتا مما صنعه، فلا يصح أن يكون شيء منها له شريكًا، ولما كان ادعاؤهم الشريك يتضمن إنكار غناه، قال مؤكدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٥﴾.

ثم بيّن أنه لا حد لغناه ولا ضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾ وفنيت الأقلام والمداد، ويتبع الكلماتِ الإبداعُ، فلا تكون كلمة إلا لإحداث شأن، ولما كان ادعاء الشريك إنكارًا للعزة، وعدم البعث إنكارًا للحكمة، قال مؤكدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦﴾ وعُلم من السياق أن المراد بالسبعة المبالغة في الكثرة، وأن المراد بجمع القلة في ﴿أبحر﴾ الكثرة لقرينة المبالغة، وبجمع القلة في ﴿كلمات﴾ حقيقتها لينتظم المعنى، وكل ذلك سائغ في لغة العرب.

ولما ختم بهاتين الصفتين، ذكر بعض آثارهما في البعث فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فنسبة القليل والكثير إلى قدرته سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ٢٧﴾.

ولما قرر هذه الآية، دل عليها بأمر محسوس يشاهد كل يوم مرتين، مع دلالته على تسخير ما في السماوات والأرض، وإبطال قولهم: ﴿ما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: ٢٤] بأنه هو الذي أوجد الزمان بتحريك الأفلاك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى﴾ ولما كان محط مقصود السورة الحكمة، كان الموضع لحرف الغاية فقال: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا يتعداه في منازل معروفة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت بالحقيقة، وثبوت غيره عدم؛ لأنه غير مستفاد من ذاته، ومنه ما أشركوا به، ولذا أفرده بالنص فقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ولما تقدمت الأدلة على بطلان آلهتهم، وأكثر هنا من إظهار الجلالة موضع الإضمار تنبيهًا على عظيم المقام، لم تدع حاجة إلى التأكيد بضمير الفصل فقال: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: العدم حقًا، لا يستحق أن تضاف إليه الإلهية بوجه وإلا لمنع شيئًا من هذه الأفعال ولو مرة، فلما وجدت على هذا النظام علم أنه الواحد الذي لا كفؤ له ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ٢٩﴾.

ولما تضمنت الآية ثلاثة أشياء، أتبعها دليلها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على إدامة الفكر في هذه النعم واستحضارها في الشدة والرخاء ﴿شَكُورٍ ٣٠﴾ وعُلم من صيغة المبالغة أنه لا يعرف في الرخاء من عظمة الله ما كان يعرفه في الشدة إلا من وفقه الله لذلك بحفظ العهد، وقال الرازي في اللوامع: "وكيفما كان فالصبر: هو الثبات في مراكز العبودية، والشكر: رؤية النعمة من المنعم الحق وصرف نعمه إلى محابه". ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ﴾ وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ ٣١﴾ طباق ومقابلة لختام التي قبلها.

ولما ظهر أنه لا بد من الصيرورة إلى يوم الفصل، أمر عباده بالإقبال عليه وخوّفهم ما هم صائرون إليه فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وفي التعبير بـ«هو» إشعار بأن المنفيَّ نفعُه بنفسه، ففيه

ترجية بأن الله قد يأذن له في نفعه إذا وجد الشرط، وعبر هنا بالاسم الفاعل لأن الولد من شأنه أن يكون ذلك له ديدنًا لِما لأبيه عليه من الحقوق، والفعل يطلق على من ليس من شأنه الاتصاف بمأخذ اشتقاقه، فعبر به في الأب لأنه لا حق للولد عليه يوجب عليه ملازمةَ الدفع عنه ويكونَ ذلك من شأنه فلا ينفك عنه، وذلك كما أن الملك لو خاط صح أن يقال: أنه يخيط، ولا يصح «خياط» لأن ذلك ليس من صنعته ولا من شأنه.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ ولما كان ما في هذا الكون المشهود من المستلذات منسيًا ذلك اليوم قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٢﴾ وهو الشيطان، بما يزين لكم من أمرها، وينسيكموه من تعبها وغدرها، فتعرضوا عن ذلك اليوم فلا تتخذون له زادًا. ولما كان لسان حالهم بعد السؤال عن تحقق ذلك اليوم: السؤال عن وقته، أجاب عن ذلك ضامًا إليه أخواته من مفاتيح الغيب؛ لما في ذلك من الحكمة التي سقيت لها السورة، مرتبًا لها على الأبعد فالأبعد عن علم الخلق بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهذا هو **المفتاح الأول** من مفاتيح الغيب، ينفتح به من العلوم ما يجل عن الحصر.

المفتاح الثاني آية الله في خلقه على قيام الساعة، وأدل الأدلة عليه إنزال المطر، ولذا قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، **المفتاح الثالث** علم الأجنة وهو الرتبة الثانية في الدلالة على البعث، ولما كان للخلق في ذلك معالجات وظنون في وجود الحمل ثم في كونه ذكرًا أو أنثى، عبّر بالعلم فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ﴾، **المفتاح الرابع** الكسب الناشئ عما في الأرحام، عبر فيه بالدراية لأنها تدل على الحيلة بتصريف الفكر وإجالة الرأي، فهي أخص من مطلق العلم فقال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ﴾.

المفتاح الخامس مكان الموت الذي هو ختام الأمر الدنيوي وابتداء الأخروي، ولما كان لا يعلمه الإنسان بنوع حيلة مع شدة حذره منه، عبر عنه بما عبر عن الذي قبله فقال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ ولم يقل: بأي وقت؛ لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت مع القدرة على الانفكاك عن مكان معين، فكان ذلك أدل دليل على جهله بموضع موته، إذ لو علم به لبعد عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ٣٣﴾ فهو الحكيم في ذاته وصفاته، ولذا أخفى هذه المفاتيح عن عباده؛ لأنه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحكم.

فقد انطبق آخر السورة بإثباته الحكمة بإثبات العلم والخبر، على أولها المخبر بحكمة صفته، التي من علمها حق علمها وتخلق بما دعت إليه كان حكيمًا خبيرًا.

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الإنذار بهذا الكتاب، واسمها «السجدة» منطبق على ذلك بما دعت إليه آيتها من الإخبات وترك الاستكبار، وكذا «الم تنزيل» فإنه مشير إلى تأمل السورة.

ولما كان المقصود في التي قبلها إثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب بعد أن أخبر أنه مختص بعلم المفاتيح، أنتج أنه لا يكون شيء إلا ويعلمه تعالى، وأجلّ ذلك إنزال هذا الذكر الحكيم الذي فيه إثبات هذه العلوم، مع شهادة العجز عن معارضته بأنه من عند الله، فلذلك قال: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في كونه من السماء؛ لأن نافي الريب -وهو الإعجاز- معه لا ينفك عنه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ فلا يتصور أنه يترك خلقه من غير كتاب يبقيهم، أو أن يصل شيء من كتابه إلى هذا النبي الكريم بغير أمره.

وقال ابن الزبير: "لما نبهت الروم على عجائب الكون، ثم أتبعت بسورة لقمان تعريفًا بأن تلك الشواهد من آيات الكتاب ودلائله، أتبعها بما يحكم بصحة الكتاب وأن دلائله ترفع كل ريب فقال: ﴿الم تنزيل﴾ إلى ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: أيقع منهم هذا بعد وضوحه وجلاء وشواهده! ثم أعلم أن الواقع منهم إنما هو بإرادته فقال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ كما فعلنا بلقمان، ثم ذكر انقسامهم بحسب السوابق فقال: ﴿أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا﴾ ثم ذكر مصير الفريقين، وسوء حال من ذُكّر فأعرض".

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: رسول في الزمن القريب؛ لقول ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد الفترة، ويؤيده إثبات الجار في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٢﴾.

ثم أتبعه بيان ذلك الدليل بإيجاد عالم الخلق والأمر وإحاطة العلم بذلك، فقال شارحًا لأمر يندرج فيه إنزاله، معبرًا بالاسم الأعظم لاقتضاء الإيجاد والتدبير على وجه الانفراد له: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم إذا حل بكم شيء مما تنذرون به ﴿وَلَا شَفِيعٍ ۚ﴾ يشفع عنده في تدبيركم أو في أحد منكم بغير إذنه ﴿أَفَلَا

﴿تَتَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ فكيف تخالفون في هذه الأمور التي هي أهم المهم؛ لأن عاقبتها خسارة الإنسان نفسه، فضلًا عما دونها!

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ لو كان الصاعد واحدًا منكم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤﴾ من سنيكم التي تعهدون، والذي دل على هذا التقدير التعبير بـ«كان» مع انتظام الكلام بدونها لو أريد غيره، وقد وردت الأحاديث بألفاظ متغايرة في مقدار السير، وليس في شيء منها نص على سير معين حتى يتحامى تأويله، فلا بد أن يحمل كل لفظ على سير.

ولما دل هذا على شمول القدرة فكان لا بد من إحاطة العلم قال: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وعبر بالحسن؛ لأن ما كان على وجه الحكمة كان حسنًا وإن رآه الجاهل قبيحًا.

ولما أقام دليل الوحدانية بالآفاق أقامه بالأنفس، فقال دالًا على البعث: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ الذي هو المقصود بالخطاب بهذا القرآن ﴿مِن طِينٍ ۝٦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٧ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لعله قدمهما لأنه ينتفع بهما حال الولادة، وقدم السمع لأنه يكون إذ ذاك أمتن من البصر، وأما العقل فإنما يحصل بالتدريج، فلذا أخر محله فقال: ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ قال الرازي: "جعل الإنسان مركبًا من روحاني وجسماني وعلوي وسفلي، جمع فيه بين العالمين بنفسه وجسده وعقله وحسه، وارتفع عن الدرجتين باتصال الأمر الأعلى به"، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٨﴾.

ثم قال معجّبًا من إنكارهم البعث بعد ما تقدم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۝٩ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ أي: منكرون للبعث عنادًا، ساترون لما في طباعهم من أدلته؛ لما غلب عليهم من الهوى القائد لهم إلى أفعالٍ منَعهم من الرجوع عنها: الكبر عن قبول الحق، والأنفة من الإقرار بما يلزم منه نقص العقل.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فإذا البدن ملقًى لا روح فيه وهو على حاله كاملًا لا نقص في شيء منه يدّعى الخلل بسببه، مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾. ولما تقرر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لبس، شرع يقص بعض أحوالهم عند ذلك فقال: ﴿۞وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ

نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ أي: لو لرأيت ذلك لربت أمرًا لا يحتمله من هوله عقل ولا يحيط به وصف.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي: هدايتها ورشدها وتوفيقها للإيمان ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾ وبدأ بهم لاستعظام الإنس لهم ولأنهم الذين أضلوهم ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ أي: عملتم عمل الناسي له، مع أنه مركوز في طباعكم أنه لا يسوغ لذي علم وحكمة أن يدع عبيده يمرحون في أرضه ويتقلبون في رزقه، ثم لا يحاسبهم على ذلك وينصف مظلومهم ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ فأوردناكم النار كما أقسمنا أنه ليس أحد إلا يردها، ثم أخرجنا أهل ودنا وتركناكم فيها ترك المنسي ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

ولما ذكر علامة أهل الكفران بالإشارة إلى أن الحامل لهم على الكفر الكبر، ذكر علامة أهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥﴾.

ولما كان المتواضع ربما نسب إلى الكسل، نفى ذلك عنهم بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ قال السهروردي: "فمن نام عن غلبةٍ بهمٍّ مجتمعٍ متعلقٍ بقيام الليل: وفق له، وإنما النفس إذا طمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه، وإذا أُزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل في الاستقرار، وهذا الانزعاج هو التجافي الذي قال الله".

﴿يَدۡعُونَ﴾ وأظهر الوصف الذي جرأهم على السؤال فقال: ﴿رَبَّهُمۡ﴾ أي: الذي عودهم بإحسانه ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ وعبر به دون الرجاء إشارة إلى أنهم لمعرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيئًا بل يطلبون فضله بغير سبب، وإذا كانوا كذلك بغير سبب فهم مع السبب أرجى، فهم لا ييأسون من روحه.

ولما كانت العبادة تقطع عن التوسع في الدنيا، فربما أمسك العابد ما في يده خوفًا من نقص العبادة عند الحاجة لطلب الرزق، حث على الإنفاق منه اعتمادًا على الرزاق الذي ضمن الخلف؛ ليكونوا بما ضمن لهم أوثق منهم بما عندهم، وإيذانًا بأن الصلاة سبب للبركة في الرزق ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك﴾ [طه: ١٣٢] فقال لفتًا إلى مظهر العظمة تنبيهًا على أن الرزق منه وحده: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ

نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ كما كانوا يخفون أعمالهم بالصلاة في جوف الليل وغير ذلك ولا يراؤون بها، ولعله بني للمفعول تعظيمًا له بذهاب الفكر في المخفي كل مذهب ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس﴾ الآية.

ولما كانوا ربما قالوا: ما له إذا كان عزيزًا رحيمًا لا يسوي بين الكل في إدخال الجنة، فيعمهم بالرحمة الظاهرة كما عمهم بها في الدينا؟ قال مشيرًا إلى أن ذلك خارج عن الحكمة، فإن تلك دار الجزاء وهذه دار العمل: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ أي: خارجًا عن دائرة الإذعان ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾.

ولما نفى استواءهم أتبعه تفصيل حالهم فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ دون الدنيا التي هي دار ممر، والنار التي هي دار مفر لا مقر، بتأهلها للمأوى الكامل في هذا الوصف، بما أشار إليه بـ«ال»، ثابتون فيها لا يبغون عنها حولًا، كما تبوؤا الإيمان الذي هو أهل للإقامة فلم يبغوا به بدلًا.

﴿نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ أي: وهم مجتمعون، فكيف إذا أراد بعضهم ﴿أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ﴾ وهذا يدل على أنه يزاد في عذابهم بأن يخيل إليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها، كما كانوا يخرجون بفسوقهم من محيط الأدلة ودائرة الطاعات إلى بيداء المعاصي والزلات ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾.

ولما كان المؤمنون يتمنون إصابتهم بشيء من الهوان في هذه الدار؛ لأن النفوس مطبوعة على العجلة، بشرهم بذلك على وجه يشمل عذاب القبر فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ وقد كان ذلك، رجع كثير منهم خوفًا من السيف، فلما رأوا محاسن الإسلام كانوا من أشد الناس فيه رغبة وله حبًا.

ولما كان التقدير: يرجعون عن ظلمهم فإنهم ظالمون، عطف عليه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ وأظهر الوصف الذي صاروا به أظلم فقال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ ولما بلغت هذه الآيات غاية

الوضوح فكان الإعراض عنها مستبعدًا، عبر عنه بأداة البعد فقال: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ﴾ ويجوز وهو أحسن أن تكون «ثم» على بابها للتراخي، أي: من ذُكِّر بها فأخذ يتأمل فيها ثم أعرض عنها بعد ذلك ولو بألف عام، فهي أبلغ من التعبير بالفاء كما في الكهف، ويكون عدل إليها فيها شرحًا لما يكون من حالهم عند بيان سؤالهم الذي جعلوا بيانه آية الصدق، والعجز عنه آية الكذب ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولما كان مقصود السورة نفي الريب عن تنزيل هذا الكتاب في أنه من رب العالمين، وكان قد انتقم سبحانه ممن استخف بموسى عليه السلام، وكان أولَ من أنزل عليه كتاب من بني إسرائيل، ذكّر بحاله تسلية وتأسية لمن أقبل وتهديدًا لمن أعرض فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولما كان ذلك مما لا ريب فيه أيضًا، وكان قومه قد تركوا اتباع كثير منه، وكان هذا منهم كفعل الشاك فيه، قال معرّضًا بهم: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ أي: في لقاء موسى عليه السلام للكتاب منا وتلقيه له بالرضا، أو: لا تفعل فعل الشاك في لقائك الكتاب منا وإن رموك بالافتراء أو تأخر بعض ما يخبر به.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ﴾ أي: بسبب صبرهم ولأجله على قراءة الكسر والتخفيف، أو: حين صبرهم على قبول أوامرنا على قراءة الفتح والتشديد، وإن كان الصبر إنما هو بتوفيق الله لهم ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا يرتابون في شيء منها، ولا يفعلون فعل الشاك فيه الإعراض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وأما غير ما اختلفوا فيه فالحكم فيه لهم أو عليهم لا بينهم، وما اختلفوا فيه لا على وجه القصد فعفو.

ولما تقدم عن الكفار في هذه السورة قولان: أحدهما في التكذيب بالقرآن، والثاني في إنكار البعث، ودل تعالى على فسادهما حتى ختم بذكر الآيات والبعث، أتبعه استفهامين إنكاريين منشورين على القولين فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۚ﴾ ولما كان إهلاك القرون إنما وصل إليهم بالسماع، قال منكرًا: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إن أحوالهم لا يحتاج من ذُكرت له في الرجوع عن الغي إلى غير سماعها، فإن لم يرجع فهو ممن لا سمع له.

﴿أَوَلَمۡ﴾ أي: أينكرون البعث ولم ﴿يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ﴾ تذكيرًا بنعمة الإبقاء بعد الإيجاد ﴿أَنۡعَٰمُهُمۡ﴾ قدّمها لأن بها قوامهم ولأن السياق لمطلق إخراج الزرع، وأول صلاحه لأكل الأنعام، بخلاف ما في «عبس» فإن السياق لطعام الإنسان الذي هو نهاية الزرع ﴿وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾.

ولما كانت هذه الآية مبصَرة، وكانت دلالتها على البعث لا يحتاج الجاهل معها للإقرار به سوى رؤيتها قال: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧ وَيَقُولُونَ﴾ مع هذا البيان الذي لا لبس معه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨﴾.

ولما أسفر حالهم بهذا السؤال الذي محصله الاستعجال استهزاء عن أنهم لا يزدادون مع البيان إلا عنادًا، قال في جوابهم مهددًا: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ لأنه ليس إيمانًا بالغيب، ولكنه ساقه سوق ما هو معلوم ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾. ولما كان ﷺ ربما أحب إعلامهم بما طلبوا وإن كانوا مستهزئين لعله ينفعهم نفعًا ما، سبب سبحانه عن إعراضه عن إجابتهم أمرَه له بالإعراض عنهم أيضًا فقال: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾.

فقد انطبق آخرها على أولها بالإنذار بهذا الكتاب وأنه ليس فيه ارتياب، وأيضًا فأولها في التكذيب بتنزيله، وآخرها في الاستهزاء بتأويله، والأول في التكذيب بإنزال الروح المعنوي، والآخر في التكذيب بإعادة الروح الحسي، والله الهادي.

سورة الأحزاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الحث على الصدق في الإخلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق؛ لأنه عليم بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله.

لما تحقق في التي قبلها أن تنزيل الكتاب من عند رب العالمين، وختمت بالإعراض عن الكافرين، والنهي عن الشك في لقائه، افتتح هذه بالأمر بأساس ذلك، والنهي عن طاعة المخالفين مجاهرين كانوا أو مساترين، والأمر باتباع الوحي الذي أعظمه الكتاب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ وإن لاح لائح خوف أو برق بارق رجاء، ثم علل الأمر والنهي بما يزيل الهموم ويوجب الإقبال عليهما واللزوم، فقال ملوحًا إلى أن لهم أغوارًا في مكرهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ فهو لم يأمرك بأمر إلا وقد علم ما يترتب عليه، وأحكم إصلاح الحال فيه.

وقال ابن الزبير: "طريقة خطابه تعالى للعباد أنه متى جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهي فهو موضع ذكرهم بالأخص الأمدح من محمود صفاتهم، ومنه: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩] الآية، ومهما كان الأمر والنهي عدل في الغالب إلى الأعم، ومنه: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١] وما ورد على خلاف هذا القانون فلسبب خاص استدعاه، كقوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧].

وفي هذه السورة من تأنيس المؤمنين وبشارتهم ما يكسر سَورة الخوف الحاصل من سورتي لقمان والسجدة، من نحو قوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلًا كبيرًا﴾ ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ ومن هذا القبيل ما تضمنته من تعداد النعم وتحسين خلاصهم نحو: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله﴾ إلى ﴿هنالك ابتُلي المؤمنون﴾ [الآيات: ٤٧، ٧٣، ٩ - ١١] الآية".

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ سواء كان إقبالًا عليهم أو إعراضًا عنهم أو غير ذلك، ثم رغبه في اتباعه بأوضح من التعليل الأول في أن مكرهم خفي فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا

﴿يَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ۝٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٣﴾ فلا تلتفت في شيء من أمرك إلى شيء؛ لأنه ليس لك قلبان تصرف كلًّا منهما إلى واحد.

ولما كان النازع إلى جهتين والمعالج لمتباينين كأنه يتصرف بقلبين، أكد أمر الإخلاص في توحيد الهمّ فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ﴾ وأكد الحقيقة؛ لما قد يظن الإنسان من أنه يقدر على صرف النفس إلى الأمور المتخالفة كما يفعل المنافق، بقوله: ﴿فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ فيتمكن من أن ينزع بكل قلب إلى جهة غير التي نزع إليها الآخر؛ لأن ذلك مفسد للبدن؛ لأن القلب مدبره بإذن الله، واستقلال كل بالتدبير يؤدي إلى الفساد.

قال الرازي في اللوامع: "القلب كالمرآة، مهما حوذي به جانب القدس أعرض عن جانب الحس، ومهما حوذي به جانب الحس أعرض عن جانب القدس، فلا يجتمع الإقبال على الله وعلى ما سواه"، وحاصل ذلك أنه تمهيد لأن التوزع والشرك لا خير فيه، وأن مدبر الملك واحد كما أن مدبر البدن قلب واحد، فلا التفات إلى غيره، وأن الدين ليس بالتشهي وجعل الجاعلين وإنما هو بجعله سبحانه، فإنه العالم بالأمور على ما هي عليه.

ولما كان كل من المظاهرة والتبني نازعًا إلى جهتين متنافيتين، وكان أهل الجاهلية يعدون الظهار طلاقًا مؤبدًا قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ﴾ بما أباح لكم من الاستمتاع بهن من جهة الزوجية، ثم أشار إلى الجهة الأخرى بقوله: ﴿ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ بما حرم عليكم من الاستمتاع بهن حتى تجعلوا ذلك على التأبيد وترتبوا عليه أحكام الأمهات كلها؛ لأنه لا يكون لرجل أمان، ولو جعل ذلك لضاق الأمر واتسع الخرق وامتنع الرتق.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ﴾ بما جعل لهم من الانتساب إلى غيركم ﴿أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ بما جعلتم لهم من الانتساب إليكم حتى ترتبوا على ذلك أحكام الأبناء، ولا يكون لابن أبوان، ولو جعل ذلك لضاعت الأنساب وعم الارتياب وانقلبت الحقائق أيَّ انقلاب، وهذا توطئة لما يأتي من قصة زواجه ﷺ بزينب بنت جحش مطلَّقةِ زيدٍ مولاه، فإنه لما تزوجها قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ أي: لا حقيقة له وراء القول من غير مطابقة قلوبكم، فإن كل من يقول ذلك لا يعتقده ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ فلا قدرة لأحد على نقضه فإن أخبر عن شيء فهو كما قال، ليس بين الخبر والواقع المخبَر عنه شيء من المخالفة، فإن أقواله سبحانه

سابقة على الواقع لأنها مصدرة فيها بكون، فإذا قال قولًا وجد مضمونه مطابقًا لذلك القول، فكان ذلك المضمون ثابتًا كما كان ذلك الواقع ثابتًا، فكان حقًا ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ أي: الكامل الذي من شأنه أن يوصل إلى المطلوب إن ضل أحد في فعل أو قول.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾ أي: أعدل من التبني، وإن كان إنما هو للشفقة على المتبني والإحسان إليه ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فضلًا عن آبائهم، في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم؛ لأنه لا يدعوهم إلا إلى العقل والحكمة ولا يأمرهم إلا بما ينجيهم، وأنفسهم إنما تدعوهم إلى الهوى والفتنة فتأمرهم بما يرديهم.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في الحرمة والإكرام وتحريم النكاح دون جواز الخلوة والنظر وغيرهما من الإحكام، فلا يحل انتهاك حرمتهن ولا الدنو من جنابهن بنوع نقص، لأن حق النبي ﷺ على أمته أعظم من حق الوالد على ولده، وهو حي في قبره، وهذا أمر جعله الله، وهو إذا جعل شيئًا كان؛ لأن الأمر أمره والخلق خلقه، وهو العالِم بما يصلحهم وما يفسدهم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤].

ولما رد الله الأشياء إلى أصولها، ونهى عن التشتت والتشعب، وكان من ذلك أمر التبني، وكان من المتفرع عليه الميراث بما كان قديمًا من الهجرة والنصرة والأخوة، وكان قد نُسخ بالآية آخر الأنفال، وكان ما ذكر هنا فردًا داخلًا في عمومها، أعادها هنا تأكيدًا وتنصيصًا عليه للاهتمام به، مع ما فيها من تفصيل وزيادة فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ فيكون حينئذ ذلك الولي مستحقًا لذلك ولا يكون ذو الرحم أولى منه، بل لا وصية لوارث ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

ولما كان نقض العوائد وتغيير المألوفات شاقًا على النفوس ومفرقًا للمجتمعين، قال مذكرًا بما أخذ على من قبله ﷺ من العهد في تغيير مألوفاتهم إلى ما يأمرهم به من إبلاغ ما يوحى إليهم والعمل بمقتضاه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ وذكّره ما أخذ عليه من ذلك فقال: ﴿وَمِنكَ﴾ وأتبعه بقية أولي العزم؛ لأن من علم له شريكًا في أمر اجتهد في سبقه

فيه، ورتبهم على الزمان لأنه لم يقصد المفاضلة بل التأسية فقال: ﴿وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾. ولما كان الأخذ عليهم في ذلك أخذًا على أممهم قال: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الوفاء بالعهد ﴿عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ هل هو لله خالصًا أو لا ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾.

ولما أكد تعالى وجوب الصدع بكل أمره وإن عظمت مشقته من غير ركون إلى مؤالف ولا اهتمام بمخالف اعتمادًا على تدبيره، ذكّرهم بدليل شهودي هو أعظم وقائعهم وأشد كروبهم فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ لتشكروه بالنفوذ لأمره غير ملتفتين إلى خلاف أحد فإن الله كافيكم ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ وهم الأحزاب من قريش وأحلافها فكانوا اثني عشر ألفًا، واثقين بأنهم لا يرجعون وقد بقي للإسلام باقية، ولما أجمل القصة على طولها، فصلها فقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: الأحزاب من التألب والمكر ﴿بَصِيرًا ٩﴾ فدبر في الحرب ما كان المسلمون به الأعلين ولا ضرهم قلتهم، ولم ينفع أهل الشرك قوتهم ولا أغنت عنهم كثرتهم.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ ولما كانت هذه حالة عرضت عبر بالماضي، ولمّا نشأ عنها تقلب القلوب وتجدد ذهاب الأفكار عبر بالمضارع فقال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ أما بالنسبة للأشخاص فبحسب قوة الإيمان وضعفه، وأما الشخص الواحد فبحسب تغير الأحوال، فتارة يظن الهلاك للضعف وتارة النجاة لأن الله قادر على ذلك، ويظن المنافقون ومن قاربهم من ضعفاء القلوب ما حكى الله عنهم.

ولما كانت الشدة إنما هي للثابت؛ لأنه ما عنده إلا الهلاك أو النصرة، وأما المنافق فيلقي السلم ويدخل دارة الذل بالموافقة على جميع ما يراد منه، ترجم حال المؤمنين فقال: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾ فثبتوا بتثبيت الله لهم على عهدهم.

وأشار إلى أن ذلك لم يزلزهم بأن حكى أقوال المزلزَلين دون أقوالهم، وسيذكرها بعدُ ليكون الثناء عليهم بالثبات مع عظيم الزلزال بالإشارة والعبارة فقال: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ﴾ أي: مرة بعد أخرى ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: من أمراض الاعتقاد فأضعفَها في الثبات في مواطن اللقاء وفي كل معنى جليل، فهم لم يصلوا إلى الجزم بالنفاق ولا الإخلاص في

الإيمان بل هم على حرف فعندهم نوع النفاق ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ استهزاءً واستدلالًا في زعمهم بهذا البلاء على بطلان تلك الدعوى ﴿إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾.

ولما ذكر ما هو الأصل في نفاقهم وهو التكذيب أتبعه ما تفرع عليه فقال: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ عدلوا عن الاسم الذي وسمها به النبي ﷺ من المدينة وطيبة مع حسنه، إلى اسمها القديم مع احتمال قبحه باشتقاقه من الثرب الذي هو اللوم والتعنيف، إظهارًا للعدول عن الإسلام ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ في مكان القتال ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم هرابًا، أو إلى دينكم الأول على وجه المصارحة؛ لتكون لكم عند هذه الجنود يد.

ولما ذكر الذين هتكوا الستر وبينوا سفول أمرهم، أتبعهم من تستروا قليلًا تمسكًا بأذيال النفاق، خوفًا من أهوال الشقاق فقال: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ بيوتهم من أيّ داخل ﴿عَلَيْهِم﴾ إشارة إلى أنه دخول غلبة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ بحيث لا يكون لهم مهرب ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ من أي سائل ﴿ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ إجابة له مع غلبة الظن بدخول الإحاطة أن لا نجاة، فهم أبدًا يعولون على الفرار من غير قتال حماية لذمار أو دفعًا لعار، وهذا المعنى ينتظم أيضًا على قراءة ﴿لآتوها﴾ لأن من أجاب إلى الفرار فقد أعطى ما كأنه كان في يده، ولما كان هذا عند العرب عجبًا لما لهم من النجدة وخوف السبة، أكده وزاد تصويره فقال: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي: البيوت ﴿إِلَّا يَسِيرًا ١٤﴾ فصح أنهم لا يريدون إلا الفرار لا حفظ البيوت.

ويدلك على هذا المعنى إتباعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وبين قرب زمنه بإثبات الجار فقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين أعجبتهم المواعيد الصادقة بالفتوحات التي سموها الآن عندما جد الجد مما هي مشروطة به من الجهاد: غرورًا.

﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ لأن الأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار وإلا لم يقصّره الثبات ﴿وَإِذًا﴾ أي: وإذ فررتم، ولما كانوا لا يقصدون بالعيش إلا التمتع بنى للمجهول فقال: ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ بما بقي من عمركم إن كان بقي منه شيء ﴿إِلَّا قَلِيلًا ١٦﴾ بل يتمكن العدو منكم بأدباركم فيفسد ما قدر عليه، فلا تقدرون على تداركه إلا بعد زمان طويل وتعب كبير، بخلاف ما إذا ثبتم وفاء بالعهد اعتمادًا على ربكم وطاعة لنبيكم، فإن كان الأجل قد أتى لم

ينقصكم ذلك شيئًا ومتم كرامًا، وإلا فزتم بالنصر وحزتم الأجر وعشتم بأتم نعمة، فالثبات أبقى للمهج وأحفظ للعيش البهج.

ولما كانوا جديرين بأن يقولوا: بلى ينفعنا؛ لأنا طالما رأينا من هرب فسلم، ومن ثبت فاصطلم، أجاب بقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

ثم حذرهم بدوام علمه لمن يخون منهم فقال: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ﴾ ولعله عبر بـ«قد» التي ربما أفهمت في هذه العبارة التقليل، إشارة إلى أنه يكفي من له أدنى عقل في الخوف من سطوة المتهدد: احتمال علمه ﴿ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ﴾ موهمين أن ناحيتهم مما يقام فيه القتال ويواظب على صالح الأعمال ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ للرياء والسمعة.

ولما كانوا يوجهون لكل من أفعالهم هذه وجهًا صالحًا، بين فساد قصدهم بالتعبير بالشح الذي هو بخلٌ بما في اليد وأمرٌ للغير به فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ بحصول نفع منهم أو من غيرهم بنفس أو مال ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ ثم شبهها في سرعة تقلبها لغير قصد صحيح فقال: ﴿كَٱلَّذِى﴾ أي: كدوران الذي ﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ سنة الله في أن كل من عامل الناس بالخداع كان قليل الثبات عند القراع ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ ناسين ما وقع منهم عن قرب من الجبن والخور ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربة قاطعة بعد أن كانت في غاية اللجلجة لا تقدر على الحركة من قلة الريق ويبس الشفاه، وهذا لطلب العرض الفاني من الغنيمة أو غيرها.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾ أي: المال الذي عندهم، وفي اعتقادهم أنه لا خير غيره، لا يريدون أن يصل شيء منه إليكم ولا يفوتهم شيء منه، وهذه سنة أخرى في أن من كان صلبًا في الرخاء كان رخوًا حال الشدة وعند اللقاء.

ولما وصفهم بهذه الدنايا، أخبر بأن أصلها الذي نشأت عنه عدم الوثوق بالله لعدم الإيمان فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ بقلوبهم وإن أقرت به ألسنتهم، ولما كان العمل لا يصح بدون الإيمان قال: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ﴾ فإنهم لا قصد لهم بها إلا التوصل إلى الأعراض

الدنيوية، وهذا إعلام بأن من كانت الدنيا أكبر همه فهو غير مؤمن، وأنه يكون خوارًا عند الهزاهز، ميالًا إلى دنايا السجايا والغرائز ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩﴾.

ثم قال تعالى تحقيقًا لقوله الماضي في جبنهم: ﴿يَحۡسِبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ وقد علمتم أنهم ذهبوا ﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ بل غابوا خداعًا، ولما أخبر عن حالهم في ذهابهم، أخبر عن حالهم لو وقع ما يتخوفونه من رجوعهم فقال: ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الذين هم عندهم في محل النقص وممن تكره مخالطته، ولو كان تمنيهم في ذلك الحين محالًا، ثم ذكر حال فاعل ﴿بادون﴾ فقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ ليبقوا لهم عندكم وجهًا كأنهم مهتمون بكم، أو ليخفوا غيبتهم ويظهروا أنهم كانوا بينكم في الحرب بأمارة علمهم بما وقع لكم ﴿عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الذي رضيتم مخالطة الأجلاف بدل الكون معه.

﴿إِسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ بالصبر على الجراح في نفسه والإصابة في أعز أهله وجميع ما كان يفعل في مقاساة الشدائد، والنصيحة لله ولنفسه وللمؤمنين، وعبر عنه بوصف الرسالة لأنه حظُّ الخلق منه ليقتدوا به، ونبه على أن الذي يحمل على التأسي به ﷺ إنما هو الصدق في الإيمان ولا سيما بالقيامة، وأن الموجب للرضا بالدنايا هو التكذيب بالآخرة فقال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾.

ولما أخبر عما حصل في هذه الوقعة لعامة الناس وخص المنافقين، ذكر حال الراسخين المتأسين بالداعي فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ﴾ مع ما حصل لهم من الزلزال ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في نحو: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ [البقرة: ٢١٤] ﴿أحسب الناس أن يتركوا﴾ [العنكبوت: ٢]، فسموه وعدًا؛ لعلمهم بما لهم عليه عند الله ولا سيما في الآخرة، وما يعقبه من النصر عند اشتداد الأمر ﴿وَصَدَقَ﴾ مطلقًا لا بالنسبة إلى مفعول معين ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ ولما كان هذا قولًا يمكن أن يكون لسانيًا فقط كقول المنافقين، أكده؛ لظن المنافقين ذلك فقال: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾.

ولما كان بعض الراسخين في الإيمان لم يعط الإيمان حقه في القتال، ومنهم من وفى هذه الغزوة وما قبلها فأراد الله التنويه بذكرهم، توفية لما يفضل به في حقهم وترغيبًا لغيرهم، أظهر ولم يضمر لئلا يتقيد بالمذكورين سابقًا فيخص هذه الغزوة فقال: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ ولما كان ربما فهم أن الصدق لا يكون إلا بالقتل، قسمهم قسمين مشيرًا إلى خلاف ذلك بقوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ بأن قتل شهيدًا، فلم يبق عليه نذر كحمزة ومصعب وأنس بن النضر.

وسعد بن معاذ ممن جرح في هذه الغزوة وحكم في بني قريظة بالقتل والسبي، ولم يَرْعَ لهم حلفهم لقومه ولا أخذته بهم رأفة؛ غضبًا لله ولرسوله، وممن لم يقتل في عهد النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله، فعل في أحد ما لم يفعله غيره فشهد النبي ﷺ أنه ممن قضى نحبه، فالمراد بالنحب هنا: العهد الذي هو كالنذر المفضي إلى الموت، وأصله الاجتهاد في العمل، ومن هنا استعمل في النذر لأنه الحامل على ذلك.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ قضاء النحب إما بالنصرة أو الموت على الشهادة أو مطلق المتابعة الكاملة، ولما كان المنافقون ينكرون أن يكون أحد صادقًا فيما يظهر من الإيمان، أكد قوله تعريضًا بهم: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ بفترة أو توان. ولما أفهم السياق أن القصد الإقبال عليه سبحانه، فكان ربما قيل: فلمَ لم يحكم بالاتفاق على الإسلام؟ أجيبَ بأن ذلك لتظهر صفة العز والعدل وغيرها من حِكَم تُرفع لتجليها ستور الأسباب، فقال تعالى معلقًا بقوله: ﴿إذ جاءتكم جنود﴾: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾.

ولما ختم بالمغفرة والرحمة قال مذكرًا بأثر الصفتين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ الذي أوجب لهم التحزب ثم التفرق من غير طائل، حال كونهم ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ لا من الدين ولا من الدنيا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾.

ولما أتم أمر الأحزاب أتبعه حال الذين ألبوهم فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ بتهيئتكم لذلك، وهي خيبر ثم مكة ثم فارس والروم وغيرهما ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾.

ولما تقرر بهذه الوقائع التي نصر فيها سبحانه وحده بأسباب باطنة وأمور خفية ما قدم من أنه كافي من توكل عليه وأقبل بكليته إليه، أخذ يأمر أحب الخلق إليه، المعلوم امتثاله للأمر بالتوكل والإعراض عن كل ما سواه وأنه لا يختار من الدنيا غير الكفاف، بتخيير

ألصق الناس به تأديبًا لغيرهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ أي: ليس فيه مضارة ولا حقد ولا مقاهرة. ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ﴾ الآمر بالإعراض عن الدنيا ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ المؤتمر بما أمره به، لما له عليكن وعلى سائر الناس من الحق بما يبلغهم عن الله ﴿وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾.

وسبب ذلك أنه ﷺ وجد على نسائه فآلى منهن شهرًا، فلما انقضى نزلت الآيات فخيرهن فاخترنه رضي الله عنهن، وسبب ذلك أن منهن من سألت التوسع في النفقة وكان النبي ﷺ لا يحب التوسع في الدنيا، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية، ولو شئنا لشبعنا ولكنه كان يؤثر على نفسه".

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾ باختيار الدنيا وزينتها على الله ورسوله أو غير ذلك ﴿مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ بالنسبة إلى ما لغيرها؛ لأن مقدارها لا يعشره مقدار غيرها، كما جعل حد الحر ضعفَي ما للعبد وكما جعل أجرهن مرتين، وعلى قدر علو المقام يكون الملام، وبقدر النعمة تكون النقمة ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾.

ولما قدم درء المفاسد الذي هو من باب التخلي، أتبعه جلب المصالح الذي هو من طراز التحلي فقال: ﴿۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ﴾ بإدامة الطاعة ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ فلا تغاضبه ولا تطلب منه شيئًا؛ ليتمكن غاية التمكن من إنفاذ أوامرنا والقيام بما أرسلناه بسببه ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: الذي أنتن من أعلم الناس بما بينه وبين الله من الإنباء ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال البغوي: "ولم يقل: كواحدة، لأن الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث"، فالمعنى كجماعات من جماعات النساء، إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة؛ لما خصكن الله به من قربه بقرب رسوله ﷺ ونزول الوحي الذي بينه وبين الله في بيوتكن.

ولما كان المعنى: بل أنتن أعلاهن، ذكر شرطه فقال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ﴾ أي: في الخيانة ﴿ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: فساد وريبة، والتعبير بالطمع للدلالة على أن أمنيته لا سبب لها في الحقيقة؛ لأن اللين في كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه، فأريد من نسائه ﷺ تكلف الإتيان بضده ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا

﴿تَبَرَّجۡنَ﴾ أي: تظاهرن من البيوت بغير حاجة محوجة ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ أي: المتقدمة على الإسلام وعلى ما قبل الأمر بالحجاب.

ولما أمرهن بلزوم البيوت للتخلية، أرشدهن إلى التحلية فقال: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ ثم قال مبينًا أن ذلك إنما هو لتشريف أهل النبي ﷺ ترغيبًا فيه، مؤكدًا دفعًا لتوهم أن ذلك لهوان أو غيره من نقصان وحرمان: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾.

ثم أتبعه التذكير بما أنعم سبحانه به مما أثره التطهير، من التأهيل لمشاهدة ما يتكرر من تردد الملائكة بنزول الوحي الذي هو السبب في كل طهر فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان المراد بذلك القرآن، عطف عليه ما هو أعم منه فقال: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ من العلم المزين بالعمل، والعمل المتقن بالعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ أي: يوصل إلى المقاصد بخفي الوسائل ﴿خَبِيرًا ٣٤﴾ أي: يدق علمه عن إدراك الأفكار، فهو يجعل الإعراض عن الدنيا جالبًا لها على أجمل الطرائق وأكمل الخلائق، ويعلم من يصلح لبيت النبي ﷺ ومن لا يصلح، وما يصلح الناس دنيا ودينًا وما لا يصلحهم، والطرق الموصلة إلى كل ما قضاه وقدره وإن كانت على غير ما يألفه الناس.

وأتبع ذلك ما لمن تلبس من أهل البيت بما يدعو إليه، وذكره على وجه يعم غيرهم، فقال مستنتجًا، بادئًا بالوصف الأول الأعم الأشهر من أوصاف أهل هذا الدين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ ولما كان الإسلام يمكن أن يكون بالظاهر فقط، أتبعه إسلام الباطن فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ولما كان المؤمن المسلم قد لا يكون مخلصًا قال: ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في إخلاصهم في الطاعة، وذلك يقتضي الدوام، ولذا قال مشيرًا إلى أن ما لا يكون دائمًا لا يكون صدقًا: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ ولما كان الصبر قد يكون سجية، دل على صرفه إلى الله بقوله: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾.

ولما كان الخشوع لا يصح مع توفير المال فإنه سكونٌ إليه، قال معلمًا أنه إذ ذاك لا يكون على حقيقته: ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ تطوعًا للإيثار بالقوت وغيره، ولما كان الصوم يكسر الشهوة وقد يثيرها قال: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ ولما كان حفظ الفروج وسائر الأعمال لا تكاد توجد إلا بالذكر قال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ

﴿كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾ وإعداد الأجر يدل على أن المراد بهذه الأوصاف اجتماعها؛ لأن تارك بعضها متصف بضده فيكون مخلًا بالباقي، وأن المراد بالعطف التمكن والرسوخ في كل وصف منها، زيادة على التمكن الذي أفاده التعبير بالوصف دون الفعل.

ولما قدم سبحانه قوله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ واستدل على مضمون الآية بقصة الأحزاب، وأتبعها نتيجة ذلك وهو تأديب الأزواج له ﷺ وتطهير أهل بيته وتكريمهم، عطف على سبب الآية ما تقتضيه كثرة الذكر فقال: ﴿۞وَمَا كَانَ لِمُومِنِ وَلَا مُومِنَةٍ﴾ فعلق الأمر بالإيمان إعلامًا بأن من اعترض غير مؤمن وإن أظهر الإيمان بلسانه ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ أَمْرًا أَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾ ليفعلوا خلاف ذلك القضاء، فإن المراد بالاستخارة ظن ما اختاره الله، وإخبار النبي ﷺ قطعي الدلالة على ذلك ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ٣٦﴾.

وفي هذا عتاب لزينب رضي الله عنها على قولها عندما خطبها النبي ﷺ لنفسه: "ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي" فقامت إلى مسجدها فنزل القرآن، وعلى كراهتها عندما خطبها لزيد مولاه، ولكنها لما قدّمت بعد نزول الآية خِيرته ﷺ في تزويجها من زيد رضي الله عنهما على خيرتها، عوضها الله أن صيرها لنبيه ﷺ ومعه في الجنة.

ولما كان قد أخبره سبحانه أنه سيتزوج زينب عن طلاق زيد، وأخفى في نفسه ذلك تكرمًا وخشية من قالة الناس، وكان إظهار ذلك من أعلام النبوة، وكان مبنى الرسالة على إبلاغ الناس ما أعلم الله به أحبوه أو كرهوه كما أخذ الله الميثاق به من النبيين كلهم قال: ﴿وَإِذ تَقُول لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام وتولي نبيه ﷺ إياه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والتبني، حين استشارك في فراق زوجه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في جميع أمرك لا سيما ما يتعلق بحقوقها، ولا تغبنها بقولك: إنها تترفع علي، ونحو ذلك.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ مما أخبرك الله ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: بحملِ زيد على تطليقها وإن أمرته أنت بإمساكها، وتزويجِك بها ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أن يقولوا: تزوج حليلة ابنه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ﴾ أي: وحده، ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئًا أخبرك به لشيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر، قالت عائشة رضي الله عنها: "لو كتم النبي ﷺ شيئا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية".

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ أي: حاجة، وذلك بانقضاء عدتها منه لأنه به يعرف أنه لا حاجة له فيها وإلا لراجعها ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ تشريفًا لك ولها، ولم يقدر منافق ولا غيره على الخوض في ذلك، ثم ذكر علة التزويج، دالًا على أن الأصل مشاركة الأمة للنبي ﷺ في الأحكام وأن لا خصوصية إلا بدليل فقال: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾.

ولما أنتج هذا: التسهيل لما كان استصعبه ﷺ والتأمين مما كان خافه، عبر عن ذلك بقوله مؤكدًا، ردًا على من يظن خلاف ذلك: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ ولما كان مما يهون الصعاب: المشاركة فيها، خاصة من الأكابر قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ في إباحة التوسيع في النكاح لهم، وأعلمَ بأن هذا الزواج لا بد من وقوعه فلا محل لمعترضٍ، بقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في النكاح أو غيره، شقت أو لا ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾.

ولما أفاد هذا أن الدعيّ ليس ابنًا، وكانوا قد قالوا لما تزوج زينب ما تقدم، قال على وجه هو من أعلام النبوة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ لا بالتبني ولا بالولادة لتحرم عليه زوجة الابن، ولم يقل: منكم، وإن لم يكن له في ذلك الوقت ابن؛ لعلمه تعالى أنه سيولد له إبراهيم، مع ما كان قبله من البنين الذين لم يبلغوا الحلم ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ بينكم وبينه من جهة الرسالة أبوة وبنوة مجازية، أما من جهته فبالرحمة والتربية والنصيحة، وأما من جهتكم فبالتعظيم والطاعة وحرمة الأزواج، وأما كون الرسالة عن الله فهو مقتضٍ لتبليغ جميع أوامره، وقد بلغكم قوله: ﴿ادعوهم لآباءهم﴾.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ وللبخاري عن ابن أبي أوفى: "لو قضي أن يكون بعد محمد ﷺ نبي لعاش ابنه، ولكن لا نبي بعده"، لأن فائدة إتيان النبي تتميم شيء لم يأت به من قبله، وقد حصل به ﷺ التمام، وأما تجديد ما وهي بما أحدثه بعض الفسقة فالعلماء كافون فيه لوجود القرآن، وأما إتيان عيسى بعد تجديد المهدي فلأجل فتنة الدجال ثم يأجوج ومأجوج ونحو ذلك مما لا يستقل بأعبائه غير نبي، وهو قد كان نبيًا قبله لم يستجد له شيء، فيأتي من أمته ﷺ مقررًا لشريعته كما كانت أنبياء بني إسرائيل مقررة لشريعة موسى، فكان المقرر لشريعة نبينا ﷺ من كان ناسخًا لشريعة موسى عليهما السلام.

ولما كان المقامُ في هذا البت بأنه لا يكون له ولد يصير رجلًا على كثرة نسائه وتعدد أولاده = مقامَ إحاطة العلم قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾.

ولما أمر بطاعة نبيه ﷺ وتعظيمه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١﴾ ليحملكم ذلك على تعظيم رسوله ﷺ حق تعظيمه. ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ عن أن يكون شيء على خلاف ما أخبر به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ أي: دائمًا لأن هذين الوقتين إما للشغل أو للراحة، فوجوب الذكر فيهما وجوب له في غيرهما من باب الأولى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإنه لم يجعل له حدًا ينتهي إليه ولم يعذر أحدًا في تركه".

[ثم قال محرِّضًا للمؤمنين على الذكر والتسبيح](٤): ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ فتكونوا مؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ بتوفيقهم لفعل ما يرضاه.

ولما كان أظهر الأوقات في ثمرة هذا الوصف ما بعد الموت، قال مبينًا لرحمتهم: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤﴾.

ولما وعظ المؤمنين فيه ﷺ وهذبهم له بما أقبل بهم إليه، أقبل بالخطاب عليه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ والمأمور به في كل ذلك الإبلاغ بقدر الحاجة بمبالغة أو غيرها، فمن لم ترده عن غيه النذارة وتقبل به إلى رشده البشارة، حمل على ذلك بالسيف، ولما كان الداعي إلى الله يلزمه النور لظهور الأدلة قال: ﴿وَسِرَاجًا﴾ يمد البصائر فيجلي ظلمات الجهل بالعلم المبصّر لمواقع الزلل ﴿مُّنِيرًا ۝٤٦﴾.

ولما تقدمت هذه الأوصاف الخمس [ذكر آثارها] فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تترك إبلاغ شيء مما أنزلته إليك كراهة شيء من مقالهم أو فعالهم فإنك نذير لهم، وزاد على ما في أول السورة محط الفائدة في قوله مصرحًا بما اقتضاه ما قبله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ فلا تحسب له حسابًا أصلًا، واصبر عليه فإنه غير ضائرك لأن الله دافع عنك. ولما أمر تعالى بما لا بد فيه من محاولات ومنازعات وكان ذلك شاقًا، ذكّره بالدواء فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾.

---

(٤) مفاتيح الغيب ١٣/ ٢٠٧.

وأتبع ذلك أقرب الطلاق إلى المظاهرة التي محط قصدها عدم قربان المظاهر عنها، فقال قاطعًا لهم عما كانوا يشتدون به في التحجر على المرأة المطلقة: ﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُومِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ ودل بالافتعال على اعتيادهم ذلك ومبالغتهم فيه كما في الظهار فقال: ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٤٩﴾.

ولما كان المراد الأعظم في هذه الآيات بيان ما شرف الله به نبيه ﷺ من ذلك، أتبع ما حرمه على المؤمنين من التضييق على الزوجات المطلقات: بعضَ ما خصه به من التوسعة في النكاح فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ وبين أنه كان يعجل المهور ويوفي الأجور فقال: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ قال في الكشاف: "وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم وما لا يعرف بينهم غيره"، ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ مما كان في أيدي الكفار، وعبر بالفيء الذي معناه الرجوع إفهامًا لأن ما في يد الكافر ليس له وإنما هو لمن يستلبه منه من المؤمنين بيد القهر، أو لمن يعطيه الكافر منهم عن طيب نفس.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ ولما بين شرف أزواجه من جهة النسب لِما عُلم واشتهر أن نسبه ﷺ من جهة الرجال والنساء أشرف الأنساب، بين شرفهن من جهة الأعمال فقال: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ولم يرد بذلك التقييد بل التنبيه على الشرف، وإشارة إلى أنه سبق في علمه سبحانه أنه لا يتزوج من هي خارجة عن هذه الأوصاف ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّومِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾.

ولما ذكر وصف النبوة لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة من الخلائق تشريفًا له وتعليقًا للحكم به، كرره فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ ثم قال ملتفتًا إلى الخطاب لأنه معين للمراد: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾ وقد كان الواهبات عدة ولم يكن عنده منهن شيء ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُومِنِينَۗ﴾ لأنا ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ من أنه لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة منها ولا بدون مهر ولا ولي وشهود، وهذا عام لجميع المؤمنين ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ ولما فرغ من تعليل الدونية، علل التخصيص لفًا ونشرًا مشوشًا بقوله: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠﴾.

ولما ذكر هاتين الصفتين، أتبعهما ما خففه عنه من أمرهن إكرامًا له ﷺ فقال: ﴿تُرۡجِئُ مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ أي: من الواهبات فلا تقبل هبتها، أو من نسائك بالطلاق أو غيره ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾ بقبول الهبة أو بالإبقاء في العصمة ﴿إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ أي: ملت ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ أي: فارقت ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ في إيوائها بعد ذلك ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ﴾ أي: بالفراق وغيره مما يحزن من ذلك ﴿وَيَرۡضَيۡنَ﴾ لعلمهن أن ذلك من الله ﴿بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ أي: ليس منهن واحدة إلا هي كذلك راغبة فيك راضية بصحبتك إن آويتها أو أرجأتها؛ لما لك من حسن العشرة وكرم الأخلاق.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ فلا بدع أن علم ما في قلوب هؤلاء، ولما رغبه في الإحسان إليهن بإدامة الصحبة بما أخبره من ودهن ذلك لكونه ﷺ شديد المحبة لإدخال السرور على القلوب، زاده ترغيبًا بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ فينبغي لعبده المحب له أن يحلم عمن يعلم تقصيره في حقه، فإنه سبحانه يأجره على ذلك بأن يحلم عنه فيما علمه منه.

ولما أمر بما يشق من تغيير العوائد في أمر العدة، وما قد يشق عليه ﷺ من تخصيصه بما ذكر خشيةٍ مِن طعن من لم يرسخ إيمانه، وختم بما يسرّ أزواجه، وصل به ما يزيد سرورهن من تحريم غيرهن عليه شكرًا لهن على إعراضهن عن الدنيا واختيارهن الله ورسوله فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد من معك من هؤلاء التسع، وهذه الآية منسوخة بما تقدم عليها في النظم وتأخر عنها في الإنزال من آية: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾، ولكنه ﷺ ترك ذلك أدبًا مع الله حيث عبر في المنع بصيغة الخبر والمضارع، ورعاية لحقهن في اختيارهن الدار الآخرة.

ولما كان ربما فهم أن المراد الحصر في عدد التسع لا بقيد المعينات قال: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ وقد ملك رسول الله ﷺ ريحانة رضي الله عنها من سبي بني قريظة، واستمرت في ملكه مدة لا يقربها حتى أسلمت، ثم ملك بعد عام الحديبية مارية رضي الله عنها أم ولده إبراهيم، ولما تقدم سبحانه في هذه الآيات فأمر ونهى وحد حدودًا، حذر من التهاون بشيء منها ولو بنوع تأويل فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ وهو من أشد الأسماء وعيدًا.

ولما تقدم إلى أزواجه ﷺ بلزوم البيوت وترك ما كان عليه الجاهلية من التبرج، أرخى عليهن الحجاب في البيوت ومنع غيره ﷺ مما كانت العرب عليه من الدخول على النساء؛ لما عندهم من الأمانة في ذلك، فقال مخاطبًا لأدنى أسنان أهل الإيمان؛ لما ذكر في سبب نزولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولأن المؤمنين كانوا منتهين عنه بغير ناه بدليل قول عمر: "إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن" فنزلت، [وقوله رضي الله عنه ليس إخبارًا بذلك بل ضجرة من مقتضى عدم الحجاب وهو دخول البر والفاجر، ويكون التعبير رجاء الأمر بالحجاب، فوقع ما رجاه](٥).

﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: استواءه للأكل؛ لأن في ذلك تكليفًا له ﷺ بما يشق عليه، فإنه ربما كان ثَم من هو أحوج إليه أو غير ذلك من الأعذار ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ ولا تمكثوا بعد الأكل لا مستريحين لقرار الطعام في بطونكم ﴿وَلَا مُسۡتَـٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: الذي هيأناه لسماع ما ننبئه به مما يكون سبب شرفكم في الدارين، فاحذروا أن تشغلوه عن شيء منه فننبئه بشيء تهلكون فيه.

﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾ أي: يوجد الحياء، وأصله إيجاد الحياة، كأن من لا حياء له: جماد لا حياة له ﴿مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ ولما كان البيت يطلق على المرأة لملازمتها له عادة، أعاد الضمير عليه مرادًا به النساء استخدامًا فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ من وساوس الشيطان التي كان يوسوس بها في أيام الجاهلية، قناعة منه بما كانوا في حبالته من الشرك.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ﴾ وذكّرهم بالوصف الذي هو سبب لسعادتهم واستحقاقه به عليهم ما لا يقدرون على القيام بشكره فقال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي له إليكم من الإحسان ما يستوجب غاية الإكرام والإجلال، فضلًا عن كف الأذى.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ لأنه حي في قبره لا يزال، وقطعًا للأطماع عن امتدادها إلى شيء من الدنيا بعده، لئلا يتمنى أحد موته ﷺ ليأخذ ذلك فيكفر؛ لأنه لا إيمان لمن لا يقدمه على نفسه، وأولئك الذين جلسوا فنزلت بسببهم الآية، والنبي ﷺ كاره

---

(٥) مختصر من هامش المخطوط.

لجلوسهم بما ذُكر من حيائه وتهيئه للقيام ونحوه، لم يستثمروا الفقه من أحواله بل كانوا واقفين عند ما يسمعونه من مقاله، وطريقة الكمل الاستبصار برسمه وحاله كما يستبصرون من قاله وفعاله ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾.

ولما كان بعض الدال على الكلام أصرح من بعض، فكان الإنسان قد يضمر أن يفعل ما يؤذي، وقد يؤذي ويدعي أنه قصد ما لا يؤذي، قال تعالى حاملًا لهم على التفطن للأقوال وغيرها والمقاصد ظاهرًا وباطنًا، في جواب من ربما انتهى بظاهره وهو عازم على الأذى عند التمكن: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾.

ثم استثنى من عمَّه النهي عن الدخول على وجه يعم جميع النساء على نحو ما تقدم في النور فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ دخولًا وخلوة من غير حجاب ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ لأن عارهن عارهم ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ فإنهن بمنزلة آبائهم ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فإنهن بمنزلة أمهاتهم ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ المسلمات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ﴾ لأن سلطانهن عليهم يبعد منهم الريبة هيبة لهن مع مشقة الاحتجاب عنهم، ولما كانت الريبة غير مقطوع بنفيها وكانت من جهة النساء أكثر؛ لأنه لا يكاد رجل يتعرض إلا لمن ظن إجابتها؛ لما يرى من مخايلها أو مخايل أشكالها، أقبل بالخطاب لأنه أوقع في النفس فقال: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾.

ولما كانت هذه الآيات في إظهار شرف النبي ﷺ علل ما فيها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ ولما تقدم قوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وكان النبي ﷺ رأس المؤمنين أفرده هنا فقال: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ ولما كان المراد بهذا التأسي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟﴾ ولما كان المراد بكل منهما إظهار الشرف وكان السلام أظهر في ذلك فإن معناه الانقياد للأوامر، ومعنى الصلاة إظهار الشرف كما فسره البيضاوي، لأن مادتها تدور على الصلة وهذا لازمها = أكدهما به فقال: ﴿تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ فهو مؤكد لـ﴿صلوا﴾ بمعناه ولـ﴿سلموا﴾ بلفظه.

ولما نهى سبحانه عن أذاه ﷺ علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ بارتكاب ما يدل على التهاون من كل ما يخالف ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحمل على ما يوجب السخط ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بإدخال النار، ولما كان الحامل على الأذى الاستهانة قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ

عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾. ولما كان من أعظم أذاه ﷺ أذى من تابعه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨﴾.

ولما نهى سبحانه عن أذى المؤمنات، وكانت الحرائر بعيدات عن طمع المفسدين لما لهن في أنفسهن من الصيانة وللرجال بهن من العناية، وكان جماعة من أهل الريبة يتبعون الإماء إذا خرجن يتعرضون لهن للفساد، وكان الحرائر يخرجن لحاجتهن ليلًا، فكان ربما تبع المرأة منهن أحد من أهل الريب يظنها أمة أو يعتل بذلك فيتعرض لها، ولم يكن إذ ذاك كما نقل عن مقاتل: فرق بين الحرة والأمة، كن يخرجن في درع وخمار، وكان اتسام الحرائر بأمارة يعرفن بها ليُهبن ويُحتشمن يخفف هذا الشر قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ﴾ أي: على جميع أبدانهن ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ ولا يتشبهن بالإماء، قال الخليل: "كل ما تستتر به من دثار وشعار وكساء فهو جلباب"، والكل يصح إرادته هنا، فإدناء القميص: إسباغه حتى يغطي يديها ورجليها، وإدناء ما يغطي الرأس: ستر وجهها وعنقها، وإدناء ما يغطي الثياب: تطويله وتوسيعه بحيث يستر جميع بدنها وثيابها، وإدناء ما دون الملحفة: ستر الوجه واليدين ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ أنهن حرائر بما يميزهن عن الإماء ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾.

ولما كان المؤذون بما مضى وغيره: أهل النفاق ومن داناهم، حذرهم بقوله مؤكدًا؛ دفعًا لظنهم الحلم عنهم: ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: مقرب من النفاق حامل على المعاصي ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يشيعون الأخبار المخيفة لأهل الإسلام التي تضطرب لها القلوب ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ بأن نحملك عليهم ونوصلك إليهم، حتى تصير لاصقًا بجميع أحوالهم لصوق الشيء الذي يلحم بالغراء فلا يقدروا على الانفكاك عما تفعله بهم إلا بترك المدينة ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠﴾.

وبين حالهم في نفيهم أو نصبه على الشتم فقال: ﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢﴾.

ولما بين تعالى ما أعد لأعداء دينه في الدنيا، بين ما لهم في الآخرة بعد أن قدم ما حرك السؤال عنها فقال: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ فهل أعد من يخشاها شيئًا للمدافعة أو النجاة إذا جاءت؟

ثم استأنف الإخبار بحال السائلين، مؤكدًا؛ لإنكار الكفار أن يكون في حالهم نقصٌ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ﴾ متمنين لما لا يدركون تلافيه، لأنهم لا يجدون ما يقدّرون أنه يبرد غلتهم سوى هذا التمني: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا﴾ بما كان لهم من نفوذ الكلمة ﴿ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ كما هي عادة المخطئ في الإحالة على غيره بما لا ينفعه. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ﴾ ضعفًا بضلالهم، وآخر بإضلالهم ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَثِيرٗا ٦٨﴾.

ولما كان السبب في هذا التهديد كله ما كانوا يتعمدونه من أذى رسول الله ﷺ بقولهم: تزوج امرأة ابنه، وغير ذلك، وكان سماع هذا لطفًا لمن صدق به، أتبعه ما هو كالنتيجة له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ بأنواع الأذى، كما قال نبينا ﷺ حين قسم قَسمًا فتكلم فيه بعضهم فقال: «لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر»، ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ ولما كان قصدهم بهذا الأذى إسقاط وجاهته قال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ وإذا كان عند الله بهذه المنزلة كان عند الناس بها.

ولما نهاهم عن الأذى، أمر بالنفع ليصيروا وجهاء عنده سبحانه، ولما كان قد خص النبي ﷺ في أول السورة بالأمر بالتقوى، عم في آخرها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ أي: قاصدًا إلى الحق ذا صواب له ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: بأن يدخلكم في العمل الصالح وأنتم لا تعلمون ما ينبغي من كيفيته، فيبصركم بها شيئًا فشيئًا ويوفقكم للعمل بذلك فتكونوا على أرضى وجه وأقومه، ببركة قولكم الحق على الوجه الحسن ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

ولما كان كل شيء أودعه الله شيئًا فرعاه وآتاه لأهله: باذلًا للأمانة غير حامل لها، ومن ضيعه ومنعه أهله: خائنًا فيه حاملًا له، وكان الله قد أودع الناس من العقول ما يميزون به الصحيح والفاسد، ومن القوى ما يصرفونه فيما أرادوا من المعصية والطاعة قال: ﴿۞إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ أي: أداءها أو حملها ومنعها أهلها، وهي طاعته تعالى فيما أمر به العاقل، وفيما أراده من غيره ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ فيمنعنها عن أهلها، قال الزمخشري: "من قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، أي: لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته؛ لأن الأمانة كأنها راكبة عليه وهو حاملها".

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ فبذلن ما أُودِعْنه، وهو معنى: ﴿أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١]، والحاصل أنه جعل الأمر التكويني في حق الأكوان لكونها لا تعقل: كالأمر التكليفي في حقنا لأنا نعقل، تمييزًا بينهما في الحكم كما ميز بينهما في الفهم، إعطاءً لكل منهما ما تستحقه رتبته.

ولما كان الخائن أكثر من الأمين، وكانت النفس بما فيها من الشهوات والحظوظ محل النقائص، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ والإسناد إلى الجنس لا يلزم منه أن يكون كل فرد منه كذلك، فهو هنا باعتبار الأغلب، وفي التعبير به إشارة إلى أنه لا يخون إلا من هو في أسفل الرتب لم يصل إلى حد النوس.

ولما كان الإنسان لِما له بنفسه من الأنس، وفي صفاته من العشق، وله من العقل والفهم: يظن أنه لا نقص فيه، علل ذلك بقوله مؤكدًا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ يضع الشيء في غير محله لما غطى من شهواته على عقله، ولذلك قال: ﴿جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ فيقع في الظلم.

ولما كان الحكم في الظاهر على جميع الإنسان، بيّن أن المراد الأكثر بتقديم التعذيب، لافتًا العبارة إلى الاسم الأعظم لتنويع المقال إلى جلال وجمال فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَٰتِ﴾ ولما كان هذا مؤذنًا بأنه ما من أحد إلا وقد حملها وقتًا ما، قال مؤنسًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

ولما أمر النبي ﷺ في مطلعها بالتقوى، أمر بها في مقطعها على وجه عام، وتوعد المشاققين والمنافقين الذين نهى في أولها عن طاعتهم، فتلاقيا وتعانقا، والله أعلم.

سورة سبأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها أن الدار الآخرة التي أشار إليها آخر تلك كائنة لا ريب فيها؛ لما في تركها من عدم الحكمة، ولقصة سبأ التي سميت بها السورة مناسبة كبيرة لهذا المقصد كما يأتي بيانه، لذلك سميت بها.

لما خُتمت الأحزاب بما عُلم منه تمام ملكه سبحانه وتصرفه وختم بصفتي المغفرة والرحمة، دل على ذلك بابتداء هذه بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بما له على كل شيء من نعمة **أقلها** الإيجاد، حتى أهل النار يحمدونه بما يحبب إليهم في الدنيا، **ومنها** إنزال الكتب وإرسال الرسل على وجه علموا منه أنهم المفرطون حيث أبوا في الأولى، ويحمدونه في الآخرة لعلمهم أنه لا يعذب أحدًا فوق ما يستحق ولذا جعل النار دركات، فكانوا في الأولى حامدين على غير وجهه فلم ينفعهم لبنائه على غير أساس، وفي الآخرة على وجهه فما أغنى عنهم لكونها ليست دار العمل.

وقد علم بهذا أن الحمد تارة يكون بالنظر إلى الحامد وتارة إلى المحمود، فالثاني اتصاف المحمود بالجميل، والأول وصف الحامد له بالجميل، فكل الأكوان ناطقة بألسن أحوالها بحمده سواء نطق لسان القال بذلك أم لا، وهو محمود قبل تكوينها.

قال القطب الرازي: "**وحقيقة الحمد العرفي**: ما يشعر بتعظيم المنعم لكونه منعمًا، **وحقيقة الشكر العرفي**: صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه من القوى إلى ما خلق له، فالحمد قد يكون واقعًا بإزاء النعمة وقد لا يكون، واشتراط التعظيم يفهم تطابق الظاهر والباطن، فإن عري اللسان عن مطابقة الاعتقاد أو خالفته الجوارح لم يكن حمدًا بل استهزاء وسخرية، ومطابقة الجنان والأركان شرط في الحمد لا شطر، فلا يتداخل التعريفان.

وقد حمد الله تعالى نفسه بما يقطع به من القول والفعل، **أما الفعل** فإنه بسط بساط الوجود على ممكِنات لا تحصى، ووضع عليه موائد كرمه التي لا تتناهى، فكشف ذلك عن صفات كماله بدلالات غير متناهية فإن كل ذرة في الوجود تدل عليها، ولا يتصور في عبارات المخلوق مثل هذه الدلالات، **وأما القول** فقد أنزل علينا كتابًا مفصحًا بالمراد، أثنى فيه على نفسه وبين صفات كماله بالبيان الذي يُعجِز القوى.

وأما الحمد والشكر اللغويين فبينهما عموم وخصوص من وجه؛ لأن **الحمد** قد يترتب على الفضائل وهي الصفات الجميلة التي لا يتجاوز منها أثر إلى غير الممدوح كالشجاعة، والشكر يختص بالفواضل وهي النعم وهي الصفات المتعدية التي يحصل منها منفعة لغير الممدوح كالإحسان، فالحمد أعم مطلقًا لعموم النعم الواصلة إلى الحامد وغيره، واختصاص الشكر بما يصل إلى الشاكر، وأما **الشكر** المطلق فهو تعظيم المنعم بصرف نعمته إلى ما يرضيه، ولا يخفى أنه إذا كان نفس الحمد والشكر من النعم لم يمكن أحدًا الإتيان بهما على التمام والكمال؛ لاستلزامه تسلسل الأفعال إلى ما لا يتناهى".

ولما تقرر أن الحكمة لا تتم إلا بإيجاد الآخرة قال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولما كانت الحكمة لا تتهيأ إلا بدقيق العلم قال: ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ فلا يجوز مع اتصافه بهما كما هو مشاهد في إتقان أفعاله وإحكام أقواله أن يخلق الخلق سدى من غير إعادة للجزاء.

قال التفتازاني: "التصدير بالحمد إشارة إلى أمهات النعم الأربع، وهي الإيجاد الأول والإيجاد الثاني، والإبقاء الأول والإبقاء الثاني، والفاتحة لكونها أم الكتاب أشير فيها إلى الكل، ثم أشير في كل سورة صدرت بعدها بالحمد إلى نعمة منها على الترتيب، وأشير في الأنعام إلى الإيجاد الأول وهو ظاهر، وفي الكهف إلى الإبقاء الأول؛ لأن انتظام البقاء الأول والانتفاع بالإيجاد لا يكون إلا بالكتاب والرسول، وأشير في هذه السورة إلى الإيجاد الثاني؛ لانسياق الكلام إلى إثبات الحشر والرد على منكري الساعة".

وقال ابن الزبير: "لما انطوت سورة الأحزاب على عظيم نعمائه على المؤمنين فكان مظنة الحمد على ذلك، افتتح هذه به فقال: ﴿الحمد لله﴾ الآية، ثم أتبعه شواهد حكمته وعلمه الموجبة لحمده على ما هو أهله فقال: ﴿يعلم ما يلج﴾ الآية، ثم ذكر إمهاله من كفر مع عظيم اجترائهم لتتبين سعة رحمته ومغفرته فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ ثم بسط لعباده من ذكر آلائه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح قهره وعظيم ملكه فقال: ﴿ولقد آتينا داود﴾ الآيات، ثم ذكر حال من لم يشكر فذكر قصة سبأ، ثم وبخ من عبد غيره بعد البيان فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم﴾ الآية، إلى وصفه حالهم الأخروي".

ولما ختم بصفة الخبر أتبع ذلك ما يدل عليه فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فكيف يستبعد عليه أن يحيي الموتى لعسر تمييز

تراب كل ميت بعد التمزق والاختلاط من تراب آخر! ولما كان ربما ظن جاهل أنه لا يعلم أعمال الخلائق لأنه لو علمها ما أقر عليها، أعلم أن رحمته سبقت غضبه، ولذلك قدمها ولأنه في سياق الحمد، فناسب تقديم الوصف الناظر إلى التكميل على الوصف النافي للنقص فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾.

ولما ثبتت حكمته بما نشاهد من محكم الأفعال وصائب الأقوال، فثبت بذلك علمه لأن الحكمة لا تكون إلا بالعلم، فثبت البعث الذي هو محط الحكمة وموضع ظهور العدل، ذكر إنكارهم له بقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ فإنه لا يكون سيد قط يرضى أن يبغي بعض عصاة عبيده على بعض ويدعهم سدى من غير تأديب، فكيف إذا كان المبغي عليه مطيعًا له والباغي عاصيًا!

ولما كان ما تقدم من إثبات العلم ربما خصه متعنت بعالم الشهادة، وصف ذاته سبحانه بما بين أنه لا فرق عنده بين الغيب الذي الساعة منه والشهادة، فقال مبينًا عظمة المقسم به ليفيد حقية المقسم عليه؛ لأن القسم بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى منزلة كان في الشهادة أقوى فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ ولما كان السياق للحمد وجهة العلو به أوفق، قدّم السماء فقال: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثم قال عاطفًا على الجملة من أصلها لا على المثقال لأن الاستثناء يمنعه(٦): ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣﴾.

ويجوز -ولعله أحسن إذا تأملتها مع آية يونس- أن يعطف على مثقال ويكون الاستثناء منقطعًا و«لكن» على بابها في كونها بين متنافيين، فإن المعنى أنه لا يعزب عنه شيء لكنه محفوظ في كتاب لا يراد منه كشفُ شيءٍ إلا كان له في غاية الإبانة، ولعله عبر بأداة المتصل إشارة إلى أنه إن كان هناك عزوب فهو على هذه الصفة التي هي في غاية البعد عنه.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ وعطف على قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾: مدْحَ المؤمنين، فقال واصفًا لهم بالعلم إعلامًا بأن الذي أورث الكفرةَ التكذيبَ الجهلُ: ﴿وَيَرَى

---

(٦) لأنه "يصير المعنى عليه إذا كان الاستثناء متصلًا كما هو الأصل: .. إلا في كتاب مبين فإنه يعزب عنه فيه، وفساده ظاهر" [روح المعاني ٢٢/ ١٤].

﴿ٱلَّذِينَ﴾ معبرًا بالرؤية والمضارع إشارة إلى أنهم في عملهم كالشاهدين تثبتًا، وإلى تجدد علمهم مترقين في رتبه على الدوام، مقابلة لجلافة أولئك في ثباتهم على الباطل الذي أشار إليه التعبير بالماضي ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾ أي: الذي من سلك طريقه -وهو الإسلام- عز وحمده ربه فحمده كل شيء وإن تمالأ عليه الخلق أجمعون.

ولما عجب من الذين كفروا في إنكارهم الساعة، عجب منهم تعجيبًا أشد؛ لتصريحهم بالتكذيب على وجه عجيب فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ ولما أخرجوا الكلام مخرج الغرائب المضحكة، لم يذكروا اسمه مع شهرته بل قالوا: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمۡ﴾ أي: يخبركم متى شئتم مجددًا لذلك ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾.

ولما نفروا عنه بهذا الإخبار المحير في الحامل له عليه، خيلوا بتقسيم القول فيه في استفهام مردد بين حالين فقالوا: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهو عاقل يصح منه القصد! ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ فهو يكذب من غير تعمد؟ فالآية من الاحتباك: ذكر الافتراء أولًا يدل على ضده ثانيًا، وذكر الجنون ثانيًا يدل على ضده أولًا، ولما كان الجواب: ليس به شيء من ذلك، عطف عليه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ولما كان هذا القول مسببًا عن ضلالهم وكان ضلالهم سببًا لعذابهم، قدم العذاب فقال: ﴿فِى ٱلۡعَذَابِ﴾ في الدنيا بمحاولة إبطال ما أراد الله إتمامه، وفي الآخرة لما هم فيه من المعصية، وأتبعه سببه فقال: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ﴾ ولما كان الضلال يبعد ببعد صاحبه عن الجادة، قال واصفًا له: ﴿ٱلۡبَعِيدِ ۝٨﴾.

ولما أنكروا الساعة لقطعهم بأن من مُزِّق كل ممَزَّق لا يمكن إعادته، فقطعوا بأن الله لا يقول ذلك، فنسبوا الصادق إلى تعمد الكذب أو الجنون، شرع يدل على صدقه في جميع ما أخبر به، فأثبت قدرته على ذلك مشيرًا إلى أن إنكارهم مستند لضلالهم بسبب غفلتهم عن تدبر الآيات فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ ولما لم تدع حاجة إلى الجمع أفرد فقال[٧]: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ ومن المعلوم أنه خالقهما، ومن أوجد شيئًا قدر على ما أراد منه ﴿إِنَّ فِى

(٧) أو: لأن المكذبين بالبعث لا يتحققون إلا بما يرونه كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ﴾ أي: متحقق أنه مربوب ضعيف مسخر لما يراد منه ﴿مُّنِيبٖ ۝٩﴾ أي: فيه قابلية الرجوع عما أبان له الدليل أنه زل فيه.

ولما أشار سبحانه بهذا إلى أنه تارة يعدل وتارة يفضل، وكان الفضل أجلب لذوي الهمم العلية والأنفس الأبية، بدأ به في عبد من رؤوس المنيبين فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ فدل قران الجبال بها على أن الترجيع حقيقة وليس رجع الصدى، ولما ذكر طاعة أكثف الأرض وألطف الحيوان، ذكر ما ولّده من الأكثف من أصلب الأشياء فقال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠﴾ فجعلناه في يده كالشمع، ثم ذكر علته بصيغة الأمر إشارة إلى أن عمله كان لله فقال: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١﴾.

ولما كان ابنه سليمان عليهما السلام مشاركًا له في الإنابة أتبعه به فقال: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ بطاعة سليمان ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢﴾ ولما ذكر تسخير الجن ذكر حالهم في أعمالهم دلالة على أنه يتصرف في السماء والأرض وما فيهما بما يشاء فقال: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أي: لأجل الشكر له تعالى ليزيدكم من فضله، أو النصب على الحال أي: شاكرين، أو على تقدير: اشكروا شكرًا؛ لأن «اعملوا» فيه معنى «اشكروا» من حيث إن العمل للمنعم شكر له ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ يصرف جميع ما أنعم الله عليه فيما يرضيه، وعبر بـ«فعول» إشارة إلى أن من يقع منه مطلق الشكر كثير.

ولما كان ربما استبعد موت من هو على هذه العظمة من الملك، أشار إلى سهولته بقرب زمنه وسرعة إيقاعه على وجه مبطل لتعظيمهم للجن بالإخبار بالمغيبات بعد تنبيهه على مثل ذلك باستخدامه لهم، بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فخمها بهذه الإضافة التي من معناها أنه لا دابة للأرض غيرها؛ لما أفادته من العلم ولأنها تأكل من كل أجزاء الأرض فكانت أحق الدواب بذلك، ثم بين أنها الأرضة بقوله: ﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ التي مات وهو متكئ عليها؛ ليخفي موته على الجن الذين كانوا يعملون في بيت المقدس حتى يتم، قال في القاموس: "المنسأة العصا؛ لأن الدابة تنسأ بها أي: تساق"، فالمعنى أن الجن كانوا يزجرون ويساقون بها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ من ذلك العمل الذي كانوا مسخرين فيه، والمراد إبطال ما كانوا يدّعونه من علم الغيب؛ لأن دعواهم ذلك إما كذب أو جهل، فأحسن الأحوال لهم أن تكون جهلًا منهم، وقد تبين لهم الآن جهلهم بيانًا لا يقدرون على إنكاره أو التدبيج فيه والتلبيس، ويجوز أن تكون «أن» تعليلية والتقدير: تبين حالهم فيما يظن بهم من أنهم يعلمون الغيب لأنهم، إلى آخره، وهذا توبيخ للعرب أنهم يصدقون من لا يعلمون الغيب في خرافات الكهان وغيرهم مما يفتنهم، مع إعراضهم عمن يخبرهم بالآخرة شفقة عليهم ونصيحة لهم مع ظهور صدقه.

ثم أتبع قصته بقصة قوم كان تمام صلاحهم به، فاختل أمرهم حين ضاع شكرهم، فكان من ترجمة إتباع قصتهم لما قبلها: أن آل داود شكروا فسخر لهم ما لم يكن غيرهم يطمع فيه، وهم أضاعوا الشكر فأعصى عليهم وأضاع منهم ما لم يخافوا فواته فقال: ﴿۞لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ وأشار إلى أنه لا يقدر أحد على أن يقدره حق قدره بقوله: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ ولولا ذلك ما أنعم عليكم بما أنتم فيه ولأهلككم بذنوبكم، وأخبرني بعض أهل اليمن أنها اليوم مفازة قرب صنعاء اليمن، في بعضها عنب في غاية الصفاء ليس له نوى.

ولما تسبب عن هذا الإنعام بطرهم الموجب لإعراضهم عن الشكر، دل على ذلك بقوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ فأفسد عليهم جميع ما ينتفعون به، قال أبو حيان: "ولما غرق من غرق منهم ونجا من نجا، تفرقوا وتمزقوا حتى ضربت العرب المثل بهم فقالوا: تفرقوا أيدي سبا وأيادي سبا، والأوس والخزرج منهم، وكان ذلك في الفترة التي بين عيسى ونبينا محمد ﷺ"، ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ فسرهما بقوله، إعلامًا بإن إطلاق الجنتين عليهما مشاكلة لفظية للتهكم بهم: ﴿ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾.

ولما أخبر عن الجنان التي بها القوام، أتبعه مواضع السكان فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم ﴿ءَامِنِينَ ١٨﴾. ولما أخبر عن أوصاف تستدعي غاية الشكر، دل على بطرهم للنعمة بها بأن جعلوها سببًا للملال بقوله: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ ليقلّ الناس فيكون ما يخص أحدَنا من الجنان أضعاف ما يخصه الآن، ونحمل الزاد ونتعلق السلاح ونستجيد

المراكب، وكأن بعضهم كان على الضد من غرض هؤلاء فاستكثر مسافة ما بين كل قريتين، فقال كما قرأ يعقوب: ﴿ربُّنا باعَدَ﴾ على أنه خبر، فازدرى تلك النعمة الواردة على قانون الحكمة ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ فبُدِّلوا بحال هو في الوحشة بقدر ما كانوا فيه من الأنس، وهو معنى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ بحيث صاروا مثلًا مضروبًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ على قدرة الله على التصرف فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، وعلى أن بطرهم للنعمة حتى ملوها ودعوا بإزالتها دليل على أن الإنسان دائمًا في نعمة يجب عليه شكرها وإن رآها بلية، لأنه لِما طبع عليه من القلق: كثيرًا ما يرى النعم نقمًا واللذة ألمًا، ولما كان الصبر حبس النفس عن أغراضها الفاسدة، وكانت مخالفة الهوى أشدها عليها، وكانت النعم تبطر وتلهي، فكان عطف النفوس للشكر بعد جماحها بطغيان النعم صعبًا، قال تعالى معبرًا بصيغة المبالغة إشارة إلى ذلك وإلى أن من ليس في طبعه الصبر فاته الشكر، ومحذرًا من مثل عقوبتهم: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ أي: كان في ذلك آيات مانعة من اتباع الشيطان، والحال أنه قد ﴿صَدَّقَ﴾ ولما كان في استغوائهم غالبًا لهم في إركابهم ما تشهد عقولهم بأنه ضلال، أتى بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ذرية آدم، وعبر بقوله: ﴿إِبۡلِيسُ﴾ الذي هو من الإبلاس، وهو اليأس من كل خير؛ ليكون أعظم في التوبيخ ﴿ظَنَّهُۥ﴾ أي: في قوله: ﴿لأحتنكن ذريته إلا قليلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] ﴿ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك﴾ [الحجر: ٣٩] ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ بميل الطبع والاستلذاذ الموجب للنزوع والترامي، بعضهم في الكفران وبعضهم في مطلق العصيان ﴿إِلَّا فَرِيقٗا﴾ أي: ناسًا لهم القدرة على تفريق كلمة أهل الكفر وإن كانوا بالنسبة إليهم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾.

ولما كان ذلك ربما أوهم أن لإبليس أمرًا بنفسه، نفاه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا﴾ أي: لكن نحن سلطناه عليهم ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ فلا يفعل الشيطان ولا غيره شيئًا إلا بعلمه وإذنه.

ولما أثبت ملكه سبحانه، وكان المقصود الأعظم التوحيد، فإنه أصل ينبني عليه كل خير قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فليفعلوا شيئًا مثله أو يبطلوا شيئًا مما فعله، ولما كان جوابهم السكوت عجزًا وحيرة، تولى تعالى الجواب إشارة إلى أنه جواب كل متأمل،

لا وقفة فيه بقوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ ولما أريد العموم قال: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ ذاكرين صفة الإحسان ليرجع إليهم رجاؤهم فتسكن قلوبهم ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: الثابت الذي لا يمكن أن يبدل ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ فلا يقول غيره ﴿ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ فلا كبير غيره فيعارضه في حكمه.

ولما سلب عن شركائهم أن يملكوا شيئًا وأثبت جميع الملك له وحده، قررهم بما يلزم منه ذلك فقال: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾ ولما كان كل الرزق متوقفًا على الكونين، وكان في معرض الامتنان والتوبيخ، جمع لئلا يدعى أن لشيء من العالم العلوي مدبرًا غيره تعالى فقال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ أي: إنّ أحدنا على إحدى الحالتين، فانظروا بعقولكم هل هو الذي عرف الحق لأهله أو الذي بذله لغير أهله، قال ابن الجوزي: "وهذا كما تقول للرجل تكذبه: والله إن أحدنا لكاذب، وأنت تعنيه تكذيبًا غير مكشوف"، لا سيما بعد إقامة الدليل على المراد.

﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ أي: واضح لكل أحد أنه ضلال إلا من كان منغمسًا فيه مظروفًا له فإنه لا يحس بنفسه، وما بينه وبين أن يستبصر إلا أن يخرج منه وقتًا ما فيعلم أنه كان في حاله ذلك فاعلًا ما لا يفعله عاقل، ففي هذا حث على النظر في الأدلة التي يتميز بها الحق من الباطل على أحسن وجه بأنصف دعاء، ولقد كان ذوو الأحلام من الصحابة رضي الله عنهم كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وناهيك بهما، يعجبون ممن يتوقف عن الإسلام بعد أن كان عجبهم ممن يدخل فيه.

﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: فاتركونا كما أنّا تاركوكم، فمن وضح له شيء من الطريقين سلكه. ولما كانوا يقولون: لا نترككم، أجابهم بقوله: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في قضائه المرتب على قدره ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ فهو القدير على فصل الخصومات. ولما كانت القدرة لا تكون شاملة إلا عند الوحدانية، أمره بما يوجب لهم القطع بهما بقوله: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا مثل له ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ أي: المحكِم لكل ما يفعله، فكيف يكون له شريك!

ولما لزم عن ذلك التوحيد وبطل الشرك فلم يبق إلا إثبات الرسالة قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ والمعنى أن داود وسليمان عليهما السلام فُضِّلا بما ذكر، وفُضِّلت أنت بالإرسال إلى كل من يمكن نوسه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: ليس لهم قابلية العلم فيعلموا أنك رسول الله فضلًا عن أن إرسالك عام. ولما سلب عنهم العلم أتبعه دليله، فقال معبرًا بالمضارع الدال على الملازمة والتكرير، للإعلام بأنه على سبيل الاستهزاء لا الاسترشاد: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولما دل بملازمتهم للاستهزاء على أنهم غير منفكين عن الكفر، ذكر تصريحهم بذلك وحالهم في بعض الأوقات المنطبقة عليها الآية السالفة في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مؤكدين؛ قطعًا للأطماع عن دعائهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: قبله من الكتب، لأن بعض أهل الكتاب أخبروهم أن صفة هذا النبي ﷺ في كتبهم، فأغضبهم ذلك فقالوه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ على وجه الخصام عداوة، وسببها موادّتهم في الدنيا بطاعة بعضهم لبعض في معاصي الله، والجواب: لرأيت أمرًا فظيعًا من ذلهم وتحاورهم وتخاذلهم حيث لا ينفعهم شيء من ذلك ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ لأنه لم يكن عندنا كبر من أنفسنا يحملنا على العناد للرسل.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: الواقع فيهما ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ على الاستمرار ﴿أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ولما كان في هذا تسلية أخروية، أتبعه التسلية الدنيوية فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ ولما كان المقصود التعميم، لأنه لم يتقدم قول قريش ليخص التسلية بمن قبلهم، أسقط القبلية فقال: ﴿فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ ولو لم يرض منا ما نحن عليه ما رزقنا ذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فإن الحال نموذج المآل، والأول دليل الآخر، ولو تأملوا قصة سبأ لكفتهم.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ ولا يمكن أن يكون جميع الموسع عليهم على ما هو حق عنده ومَرْضيّ له لاختلافهم في الأصول وتكفير بعضهم لبعض، فإن الله معذب بعضهم لا محالة، فبطلت شبهتهم.

﴿۞وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا﴾ أموال وأولاد ﴿مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي: في ماله بإنفاقه في سبيل الله وفي ولده بتعليمه الخير، وأما غيرهم -وهم المرادون بما بعده- فأموالهم وأولادهم وبال عليهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ ثم بين حال من يبعده ماله وولده من الله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ ولما كان سبحانه قد بت الحكم بشقاوتهم، أسقط فاء السبب إعراضًا عن أعمالهم وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾.

ولما أبطل شبهتهم بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة، قرب ذلك بدليل واحد في شخص واحد فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ﴾ فلو أن الإنعام يوجب الدوام أو في يده نفع نفسه لما تغيرت حاله من السعة إلى الضيق ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ أي: لا غيره؛ لأنه ضمن الرزق لكل أحد بحسب ما قسمه له، وتارة يكون إخلافه حسًا وبالفعل، وتارة معنًى وبالقوة بالترضية بتلك الحالة ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ أي: الذين تعدونهم هذا العداد ممن يقيمهم لكم فتضيفون الرزق إليهم، فإنهم وسائط لا يقدرون إلا على ما قدرهم، وأما هو تعالى فلا يضيق ترزيقُه ولا يتوقف على شيء.

ولما كان قد بقي من شبههم أنهم يقولون: نحن نعبد الملائكة فهم يشفعون لنا قال(٨): ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ ليس بيننا وبينهم من ولاية بل عداوة، وكذا كل من تقرب إلى شخص بمعصية الله، يقسي الله قلبه عليه ويبغضه فيه فيجافيه ويعاديه، ولما كان من يعمل لأحد عملًا لم يأمر به ولم يرضه إنما عمل في الحقيقة للذي دعاه إلى ذلك العمل، قالوا: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ أي: إبليس وذريته الذين زينوا لهم عبادتنا من غير رضانا بذلك، من هذا: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة».

---

(٨) مبطلًا نجاتهم من العذاب بشفاعة الملائكة بعد أن أبطلها بكثرة الأموال والأولاد، والله أعلم.

﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ ولما كان المدار على الخلاص والسياق للشفاعة، قدم النفع فقال: ﴿نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ولما لم يتقدم له وصف، كان المضاف إليه أحق بالوصف لأنه المصوَّب إليه بالتكذيب فقال: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾.

ولما أخبر أنهم أبوا الإيمان بالقرآن الذي تظافرت عليه الأدلة، وآمنوا بالجن غيبًا وعبدوهم بما لم يدع إليه عقل ولا نقل، وأسند تعذيبهم إلى تكذيبهم، أتبعه بأنهم أصروا عليه فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ﴾ ولم يسندوا الفعل إليهم نفيًا للغرض عن أنفسهم وإلهابًا للمخاطبين فقالوا: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ لتكونوا له أتباعًا.

ولما كانت أدلة الكتاب بينة خافوا الاتباع لها، فجزموا أنها كذب ليوقفوهم ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فأظهر الوصف الحامل لهم على ذلك وهو التدليس ﴿لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ من غير أن يمهلوا لنظر ولا تدبر ليقال: عرضت لهم شبهة، بل سارعوا إلى الطعن إيهامًا لأنه مما لا يتوقف فيه، وأكدوا لما تقدم من خوفهم على أتباعهم ليخيلوهم فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٤٣﴾ أي: ظاهر العوار جدًا، فلا تغتروا بما فيه مما يؤثر ويميل، ولقد انصد لعمري بهذا التلبيس بشر كثير حتى هدى الله بعضهم، وتمادى بآخرين حتى ماتوا على ضلالهم، مع أنه كان ينبغي لكل من رأى مبادرتهم وتحرقهم أن يعرف أنهم متغرّضون، لم يحملهم على ذلك إلا الحظوظ النفسانية والعلق الشهوانية.

ولما بارزوا بهذا القول من غير دليل ولا شبهة، بين هذا معجّبًا من شأنهم موضحًا لعنادهم، بقوله مؤكدًا؛ إشارة إلى أن ما يجترئون عليه من هذه الأقوال التي لا سند لها إلا التقليد، لا يكون إلا عن كتاب أو رسول: ﴿وَمَآ﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنا ما ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ فهي متظاهرة الدلالة باجتماعها على معنى واحد، متواترة عندهم لا شبهة فيها، ليكون ذلك سببًا للطعن في القرآن إذا خالفها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾ ودل على استغراق النفي لجميع الزمان الماضي بالتجريد عن الخافض فقال: ﴿قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ۝٤٤﴾ بهذا الباطل الذي ادعوه، لا مطلق الإرسال.

ولما نفى موجب الطعن، ذكر المانع منه الموجب للإذعان فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ﴾ هؤلاء ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ أي: إنكاري على المكذبين لرسلي؛ ليكون السؤال داعيًا إلى الإذعان خوفًا أن يحل به ما حل بهم.

ولما أبطل شبههم وحذرهم فصاروا جديرين بقبول الوعظ، أقبل عليهم فقال: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ ليكون أصفى للسر وأعون على خلوص الفكر، ومن خاف على نفسه ضم إليه آخر ليذكره إن نسي، ولم يذكر غيرهما إشارة إلى أنهم إذا كانوا على هاتين الحالتين كان أجدر لهم بأن يعرفوا الحق من غير شائبة حظ مما يكون في الجمع الكثير من الجدال واللغط المانع من تهذيب الرأي وتثقيف الفكر.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ وخصها لأنها قد تطرأ، ولم يعرّج على الكذب لأنه لا يكون فيمن عاش بين أناس عمرًا طويلًا، وهو أعلاهم همة وأوفاهم مروءة وأزكاهم خلائق = ساحة في مطلق الكذب، فكيف بما يخالف أهواءهم، فكيف بما ينسب إلى الله! ثم قال منبهًا على أن الذي أتاهم به لا يدعيه إلا مجنون أو صادق، وقد انتفى الأول فثبت الثاني: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾.

ولما انتفى عنه بهذا ما خيلوا به، بقي إمكان أن يكون لغرض دنيوي فنفاه بقوله: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ وهو كناية عن أني لا أسألكم أصلًا، فإذا ثبت أن الدعاء ليس لغرض دنيوي وأن الداعي أعقل الناس، ثبت أن الذي حمله على تعريض نفسه لذلك أمر الله الذي له الأمر كله ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾.

ولما لم يبق شيء يخدش في أمر المبلِّغ أتبعه تصحيح النقل فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾ بل هو كالجماد لا حركة به؛ لأنه مهما نطق به صاحبه في أمره بعد هذا البيان افتضح. ولما بقي أن يقولوا عنادًا: ليس بك جنون ولا كذب ولكنك قد عرض لك ما أضلك، قال: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ على سبيل الفرض ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ لأن الضلال إذا استعلى على شيء ظهر أمره فلزم عاره، فيصير صاحبه بحيث لا يدري شيئًا ينفع ولا يعيد، فيصير يفزع إلى السفه والمشاتمة كما وقع في مذاهبكم كلها، لأن الله تعالى جعل العقول الصحيحة معيارًا على ذلك، فمهما ذكرت طرق الحق وحررت، ظهر أمر الباطل وافتضح.

ولما كانت النفس منقادة بل مترامية نحو الباطل، عبر في الضلال بالمجرد وفي الهدى بـ«الافتعال» إشارة إلى أنه لا بد فيه من هاد وعلاج فقال: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ وهي إرشاد من الله تعالى إلى أنه وإن كان خلق للآدمي عقلًا لا يضل ولا يزيغ، لكنه حفه بقواطع من الشهوات والحظوظ والكسل والفتور فلا يكاد يسلم منها إلا من عصمه الله، فلما كان كذلك أنزل سبحانه كتبًا هي العقل الخالص، وأرسل رسلًا جردهم من تلك القواطع، فجعل أخلاقهم شرائعهم.

ولما أبطل شبههم[٩]، وختم من صفاته بما يقتضي البطش بمن خالفه، قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ أي: أخذًا سهلًا، فإن الآخذ قادر وليس بينه وبين شيء مسافة، بل هو أقرب إليه من نفسه.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أي: تناول الإيمان أو شيء من ثمراته، وكأنه عبر به لأنه يطلق على الرجوع، فكان المعنى أن ذلك بعد عليهم؛ لأنه لا يمكن إلا برجوعهم إلى الدنيا التي هي دار العمل ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾. وأنى لهم ذلك ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾ في أمر ما دعوا إليه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ من مرجمات الظنون، ولما كان الشيء لا يمكن أن يصيب ما يقذفه وهو غائب عنه ولا سيما مع البعد، قال معلِمًا ببعدهم عن علم ما يقولون مع بعده جدًا من حال ما تكلموا فيه ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ وذلك على الضد من قذف علام الغيوب فإنه من مكان قريب، فهو معلوم لازم للحق.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من قبول إيمانهم عندئذ، أو حصول شيء من ثمراته لهم من حسن الثواب، كما يرى الإنسان منهم -وهو في غمرات النار- مقعده في الجنة الذي كان يكون له لو آمن، ولا يقدر على الوصول إليه، وإن خُيِّل إليه الوصول فقصَده فمُنع كان أنكأ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۝٥٤﴾ فكيف يقبلون أو ينفذ طعنهم أو تحصل لهم ثمرة طيبة وهم على غير بصيرة في شيء من أمرهم، بل كانوا يشكون في قدرتنا وعظمتنا، فاللائق بالحكمة أن نبين لهم ذلك بالعذاب لهم والثواب لأحبابنا.

فتبين أنهم يؤمنون عند ظهور الحمد أتم الظهور وذلك في الآخرة، فصح أن له الحمد في الأولى وفي كل حالة، فتعانق آخرها مع أولها.

---

(٩) فثبت عنادهم فلم يبق إلا التهديد.

سورة فاطر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هي ختام السور المفتتحة بالحمد التي فصلت فيها النعم الأربع، وختامها الإبقاء الثاني الذي هو أحكمها وهو المشار إليه في هذه، على أنه استوفى فيها النعم الأربع، فمقصودها إثبات القدرة الكاملة لله تعالى اللازم منها القدرة على البعث الذي عنه يكون أتم الإبقاءين، ولاسمها أتم مناسبة لمقصودها؛ لأنه لا شيء يعدل ما في الجنة والنار من تجدد الخلق ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها﴾ [النساء: ٥٦]، وكذا تسميتها بـ«الملائكة» فإنهم يبدَعون خلقًا جديدًا كل واحد منهم على ما أراد الله سبحانه.

ولما أثبت في التي قبلها الحشر الذي هو الإيجاد الثاني إلى أن ختم بأخذ الكفار وبالحيلولة بينهم وبين جميع ما يشتهون، وكان الحمد يكون بالمنع والإعدام، كما يكون بالإعطاء والإنعام، قال تعالى ما هو نتيجة ذلك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ولما كان الإيجاد من العدم أدل على ذلك قال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كانت الملائكة كالخافقين في أن كلًا منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق، وكان لا طريق لعامة الناس إلى معرفتهم إلا الخبر، أخبر عنهم بعد ما أخبر عما طريقه المشاهدة بما هو الحق فيهم فقال: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ﴾ لمن لا يحتاج فيما صرف فيه إلى أكثر من ذلك ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾.

ولما ثبت بهذا أنه فاعل بالاختيار دون الطبيعة وغيرها، كانت نتيجة ذلك: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ أي: المخلوقات من أشياء مستقلة ومن هيئات ومعاني وغير ذلك مما يرجع إلى الكم والكيف مما لا يقدر على الإحاطة به غيره سبحانه ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ فلا بدع في أن يوجد دارًا أخرى تكون لدينونة العباد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما أوضحت سورة سبأ أنه تعالى المالك والمستحق للحمد في الدنيا والآخرة أوضحت هذه أن ذلك خلقه كما هو ملكه، وأنه المستحق للحمد لذلك، ولهذا دارت آيها على التنبيه على ابتداءات الخلق، ولم يقع شيء من ذلك في سورة سبأ بل لما تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقه دارت آيها على التعريف بعظيم الملك والتصرف فيه، وتأمل افتتاحها وقصة داود وسليمان عليهما السلام وقوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم﴾ [سبأ: ٢٢] الآيات، يتضح لك ما ذكرناه، رزقنا الله الفهم عنه بمنه وكرمه".

ولما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة، دل على ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع ذلك أو اقتناصه فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ أي: من الأرزاق الحسية والمعنوية من اللطائف والمعارف ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ﴾ بإغلاق باب الخلق عنه ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ ولما كان ربما ادعى فاجر حال إمساك الرحمة أو النقمة أنه هو الممسك قال: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ أي: بعد إمساكه، ولما كان هذا ظاهرًا في العزة في أمر الناس والحكمةِ في تدبيرهم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

ولما بين أنه المنعم وحده، أمر بذكر نعمته ليقود إلى الشكر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ في الفتح والإمساك لتشكروه ولا تكفروه، ثم أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته وحكمته فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ ولما كانت كثرة الرزق مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾. ولما قررهم على ما تقدم وختم بالتوحيد الذي هو الأصل الأول من أصول الدين، نبه على أنه المقصود بالذات بذكر ما يعقبه في الأصل الثاني وهو الرسالة، فقال ناعيًا على قريش سوء تلقيهم لآياته، مسليًا له ﷺ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾.

ولما أشعر هذا الختام باليوم الموعود وهو الأصل الثالث، قال محذرًا منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ أي: الذي لا يصدق في شيء وهو الشيطان العدو. ثم قال مؤكدًا؛ لأن أفعال المشايعين له بما يمنيهم به من العفو مع الإصرار على المعصية أفعالُ المعتقدين لمصادقته: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ﴾ أي: خاصة، فهو في غاية الفراغ لأذاكم ﴿عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ والله لكم ولي فاتخذوه وليًا بأن تغيظوا الشيطان بمخالفته في كل ما يريد، وترضوا الرحمن بملازمة ما نهجه لكم ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ ولكنه يجتهد في تعمية ذلك عنهم بأن يقرر في نفوسهم الرجاء وينسيهم الخوف، ويسوّف لهم بالتوبة بالفسحة في الأمل للإفساد في العمل، والرحمن سبحانه إنما ﴿يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس: ٢٥].

ولما بيّن غرض الشيطان، نبه على ما حكم به في أشياعه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ﴾ ولما ذكر جزاء حزبه، أتبعه حزب الله الذين عادوا عدوهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾. ولما أبان هذا تفاوت الحزبين، وكان الكفار يدّعون أنهم الفائزون وأبصر الناس وأحسنهم أعمالًا -وكذا كل عاص ومبتدع- أنكر تساويهما فقال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ وبين السبب في ضلالهم بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ ولما كان تقدير المشبه به: كمن بصره الله بالحقائق؟ وكان الجواب: لا، سبب عنه قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾. ولما أخبر أنه لا بد من إيجاد ما وعد به من البعث وغيره، قال مبينًا لاختياره وقدرته على ما وعد به: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾.

ولما قرر بهذا كله ما أثبته سابقًا من عزته وحكمته، وكانت منافسة الناس -لا سيما الكفرة- في العزة فوق منافستهم في الحكمة، وكان الكفرة إنما عبدوا الأوثان ليعتزوا بها كما قال: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًا﴾ [مريم: ٨١] قال مستنتجًا من ذلك: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي: فليطلبها منه وحده فإنه لا شيء لغيره فيها، ومن طلب الشيء من غير صاحبه خاب.

ثم دل على اختصاصه بها بشمول علمه وتمام قدرته وذلك معنى العزة، وبين أنها إنما تنال بالحكمة فقال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: الجاري على قوانين الشرع فيعز صاحبه ويثيبه، ولما أعلى رتبة القول الحكيم، بين أن الفعل أعلى منه لأنه المقصود بالذات، فقال دالًا على علوه بتغيير السياق: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ ولما بين ما يحصّل العزة من الحكمة، بين ما يكسب الذلة من رديء الهمة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يسترون قصودهم بها ليوقعوها بغتة ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾.

ولما ذكر تفاوتهم في الأخلاق أتبعه ما كانوا عليه من الوحدة في الأصل، فقال عاطفًا لبعض آيات الأنفس على قوله: ﴿والله الذي أرسل الرياح﴾ الذي هو من آيات الآفاق، منبهًا على أنه قادر على التمييز بعد شديد المزج: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ دلالة أظهر مما قبلها على الاختيار وكذب أهل الطبائع، ولما كان تفاضلهم في الأعمار مع تماثلهم في الحقيقة دالًا أيضًا على الاختيار قال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ وهو المعمر الذي كان قابلًا في

العادة لطول العمر فلم يعمر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ مكتوب فيه عمر كل أحد وزيادته أو نقصه إن عمل كذا أو ترك كذا ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾.

ولما ذكر أحد أصليهم: التراب المختلف الأصناف، ذكر الأصل الآخر: الماء الذي هو أشد امتزاجًا منه، ذاكرًا اختلاف صنفيه اللذين يتفرعان إلى أصناف كثيرة، منكرًا على من سوى بينه وبين شيء حتى أشركه به مع المباعدة الشديدة، والحال أنه تعالى يفرق بين هذه المحسوسات لمباعدة قريبة فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾.

ولما ذكر اختلاف الذوات الدال على بديع صنعه، أتبعه تغييره المعاني آية على بليغ قدرته فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى﴾ ولما كان مقصود السورة تمام القدرة، والسياق هنا لقسر المتنافرات على ما يريد، لم يصلح لهذا الموضع حرف الغاية فقال: ﴿لِأَجَلٍ﴾ أي: لأجْل أجَل ﴿مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ فكيف بما فوقه!

ثم بين ذلك بقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ﴾ لأنهم إذ ذاك يعلمون أن إجابتكم لا ترضي الله، أو: ولو كانوا سامعين ما لزم من السماع إجابة؛ لأنه لا قدرة لهم على أكثر ما يطلب منهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ فلا يمكن الطعن في شيء مما أخبر به.

ولما بين اختصاصه سبحانه بالملك ونفى عن شركائهم النفع، أنتج قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ لانتشار عقولكم وتتفرق دواعيكم، فيعظم احتياجكم لشدة ضعفكم، ولو نكّر الخبر لم يفد هذا ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ قال القشيري: "والفقر على ضربين: فقر خلقة وفقر صفة، فالأول عام فكل حادث مفتقر إلى خالقه في أول حاله ليبديه وفي ثانيه ليبقيه، وأما فقر الصفة فهو التجرد من المال"، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ ولما كان إعطاؤه ومنعه حمدًا؛ لأنه لا يمنع لغرض بل لحكمة قال: ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ فأنتج ذلك قطعًا تهديدًا وتحذيرًا: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾.

ولما أنهى سبحانه الدلائل بالتهديد بالأخذ وكان ذلك عقابًا، وكان العقاب لا يكون إلا عند الذنب قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالذنوب ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليخفف عنها فيخفف العذاب ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ﴾ ولما كان هذا أمرًا خالعًا للقلوب فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن يسمعه ولا يخشى، قال مزيلًا له: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: حال كونهم غائبين عما دعوا إليه، أو: حال كونه غائبًا عنهم، أو: غائبين عمن يمكن مراءاته، فهم مخلصون في خشيتهم، ولا نعلم أحدًا وازى خديجة والصديق رضي الله عنهما في ذلك.

ولما كانت إقامة الصلاة بحفظ جميع حدودها في كل حال أدل الطاعات على الإخلاص، قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر وتكثر بهذه المحاسن، ولما كان الإنسان لتقيده بالأسباب القريبة قد يغفل عن أن هذا نفع له، أكده فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾.

ثم ذكر ما يصلح أمثلة للمتدسي والمتزكي وما تكون به التدسية والتزكية، دلالة على تمام قدرته الذي السياق له، وتقريرًا لأن الخشية والقسوة بيده، إبطالًا لقول من يسند الأمور إلى الطبائع فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ التي هي مثال للأباطيل، وأكد بتكرير النافي؛ لأن المفاوتة بين أفراد الظلمة وأفراد النور خفية، فقال منبهًا على أن طريق الحق واحدة، تكذيبًا لمن قال من الزنادقة: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق: ﴿وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠﴾ الذي هو مثال للحق. ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾ ببرده الذي هو مرجع المؤمن في الآخرة ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾ بوهجها، وهي مرجع الكافر.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾ لتفاوت الصفات، فلا يكاد يتساوى حيان في جميع الخلال ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ في صعوبة الموت وسهولته وغيره مما يخفى، [ولما كان هذا التفاوت من فعله سبحانه]، قال مؤكدًا ردًا على من يرى لغيره تعالى فعلًا من خير أو شر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ ولو كان إسماعهم مستندًا إلى الطبائع لاستووا إما بالإجابة أو الإعراض ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ ثم قال مؤكدًا؛ للرد على من يظن أن النذير يقدر على هداية أو غيرها: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ وبين أن نذارته رحمة بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإن من نظر إلى ما أوتيته من الدلائل علم مطابقة الواقع لما تأمر به ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ﴾.

ولما كان مما يسهّل القيادَ التأسيةُ قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ واقتصر على النذارة لأنها هي التي تقع بها التسلية لما فيها من المشقة، ولأن من الأنبياء عليهم السلام من تمحضت دعوته للنذارة لأنه لم يتّبعه أحد منهم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وبين أن تكذيبهم لعناد لا لنقص البيان فقال: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ولما كانت نسبة التكذيب إلى جميع الأمم عجبًا، أكد بإعادة الجار فقال: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ أي: إنكاري، أي: أنه إنكار يجب السؤال عن كيفيته لهوله وعظمه.

ولما كان من أغرب ما يدل على القدرة أن يكون الشيء هدًى لقوم وضلالًا لآخرين قرّبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ فالذي فاوت بينها وهي من ماء واحد، يجعل الدلائل نورًا لشخص وعمى لآخر ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ أي: مثل الثمار والأراضي.

ولما كان السياق لإنذار من يخشى بالغيب، ذكر ما يعرف به من يخشى ومن لا يخشى فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ لا سواهم وإن كانوا عبّادًا؛ لأنه لا يخشى أحد أحدًا إلا مع معرفته ولا يعرفه جاهل، قال السهروردي: "فلا علم لمن لا يخشى الله"، وختم تنبيهًا على أنه أهل لأن يُخشى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾.

ثم عرّف العلماء بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ محافظين على ذلك، بفهم وبغير فهم، تعبدًا ودراسة؛ لأنه: «أشد تفلتًا من الإبل في عقلها» ولذا عبر فيه بالمضارع ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي ينبغي الإقبال عليه وحده لما له من نعوت الجمال والجلال ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الناهية عن الفحشاء والمنكر فناجوه فيها بكلامه، ولما ذكر الوصلة بينهم وبين الخالق، ذكر إحسانهم للخلائق فقال: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ودل على الدوام بقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وعبر فيهما بالماضي حثًا على المبادرة.

وتحصل من هذا أنه جعل لفعل القلب وهو الخشية: دليلًا باللسان والأركان والأموال ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ على تلك الأعمال ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ زيادةً ليس لهم فيها تسبب، ولما كانت أعمالهم لا تنفك عن شائبة وإن خلصت فلم يكن

ثوابها مستحقًا، على توفيتهم لها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ بمحو النقص عن العمل ﴿شَكُورٌ ٣٠﴾ يقبله ويزيد عليه.

ولما كانت ترجمة الآية أن العلماء حملة الكتاب وكان ذلك مرغبًا فيه، أتبعه ترغيبًا أعلى منه فقال: ﴿۞وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولما كان الكتاب لا يطرقه تغير لأنه صفة من لا يتغير قال: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ وأكده بقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾.

ولما دل على أن العلم هو الحق الثابت وما عداه باطل، وأن التالين لكتابه الذي هو العلم هم العلماء، وأن الكتب الماضية وإن كانت حقًا، ليست في كمال القرآن؛ لأن الأمر ما لم يختم فالزيادة متوقعة فيه، وكان ربما تراءى لأحد في بعض المتصفين بذلك غير ذلك، قال تعالى إعلامًا بأن العبرة بما عنده لا بما يظهر للعباد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ أي: بظواهرهم وبواطنهم، فهو يُسكِن الخشيةَ والعلمَ القلوبَ على ما أوتوا من الكتاب، وأنت أحقهم بالكمال لأنك أخشاهم وأتقاهم فلذلك آتيناكه، فأخشاهم بعدك أحقهم بعلمه.

ثم قال صارفًا القول إلى مظهر العظمة لاقتضاء الحال لها في نزع شيء من قوم وإثباته لآخرين: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وعبر في غير هذه الأمة بقوله: ﴿ورثوا الكتاب﴾ [الأعراف: ١٦٩] فانظر فرق ما بين العبارتين تعرف الفرق بين المقامين ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ وهذا الإيراث لا يختص بمن يحفظ جميع القرآن، فإن الصحابة لم يكن كل واحد منهم يحفظ جميعه وهم قطعًا مصطفون، وقدّم الأدنى لكثرتهم ولئلا يحصل اليأس فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالتفريط والتهاون في توفية الحق لما يقتضيه حاله من العمل غير متوق للكبائر، وهذا القسم هم أكثر الوراث وهم المرجئون لأمر الله.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ أي: متوسط في العمل غير باذل لجميع الجهد إلا أنه مجتنب للكبائر، فهو مكفر عنه الصغائر، وهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ موف للمقام الذي أقيم به حقَّه، كلما ازداد قربًا ازداد عملًا، لا يكون سابقًا إلا وهو هكذا، وختم بالسابقين ليكونوا أقرب إلى الجنة، وقدمهم في سورة التوبة عقيب أهل القربات من الأعراب، وأخر المرجئين وعقبهم بأهل مسجد الضرار، وقدم في الأحزاب المسلمين ورقى الخطاب إلى الذاكرين الله كثيرًا، فهو سبحانه تارة يبدأ بالأدنى وتارة بالأعلى بحسب ما يقتضيه الحال.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي: إقامة؛ لأنه لا سبب للرحيل عنها ﴿يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ أي: لأنا صرنا في دار لا يفوت فيها شيء ولا يفنى، ولما كانوا عالمين بزلاتهم، عللوا ما صاروا إليه معها بقولهم: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: بلا عمل منا فإن حسناتنا إنما هي من منه سبحانه، لو لم يبعثنا عليها وييسرها لنا لما كانت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾.

ولما بين ما هم فيه من النعمة، بين ما لأعدائهم من النقمة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾. ولما بين عذابهم بين اكتئابهم فقال: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا﴾ أي: زمانًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ و«ما» يشمل كل عمر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه غير أن التوبيخ في الطويل أعظم ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ ولما أشار إلى دليل العقل، أشار إلى أدلة النقل المنبه على ما قصر عنه العقل فقال: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ وهذا عام في كل ظالم، فإن من ثبت له نُصر عليه؛ لأن ظلمه في كل يوم يضعف ويهن، والحق في كل حين يقوى ويضخم.

ولما كان سبحانه عالمًا بما نفى وما أثبت، علل ذلك مقررًا سبب دوام عذابهم وأنه بقدر كفرانهم كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] بقوله، مؤكدًا إشارة إلى أنه لا يجب تمرين النفس عليه لما له من الصعوبة لوقوف النفس مع المحسوسات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ فهو يعلم أنكم لو مدت أعماركم لم ترجعوا عن الكفر أبدًا، ولو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه، ولذلك يأمر الملك أن يكتب عند نفخ الروح في الولد أنه إما شقي أو سعيد قبل أن يكون له خاطر أصلًا، وأما الخواطر بعد وجودها في القلوب فقد يطلع عليها الملك والشيطان.

[ولما قالوا: ﴿أخرجنا نعمل صالحًا﴾ فاحتج عليهم بما تقدم، زاد على ذلك بقوله][10]: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ولما كان ذلك نعمة منه، تسبب عنه قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا

---

(١٠) مفاتيح الغيب ١٣/ ٢٩١، بتصرف.

خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾. ولما بين أنه سبحانه هو الذي استخلفهم، أكد بيان ذلك عندهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ أضافهم إليهم لأنهم -وإن كانوا جعلوهم شركاءه- لم ينالوا شيئًا من شركته لأنهم ما نقصوه شيئًا من ملكه، وإنما شاركوا العابدين في أموالهم وأعمالهم، فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإلا فادعاؤكم ذلك فيهم كذب محض، وأنتم تدعون أنكم أبعد الناس منه في الأمور الهينة فكيف بمثل هذا!

ولما أتم التبكيت بالاستفهام عن المرئي أتبعه التوبيخ بالاستفهام عن المسموع فقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ﴾ حتى يشهدوا لهم هذه الشهادة التي لا يسوغون مثلها في إثبات الشركة لعبد من عبيدهم في أحقر الأشياء، ولما كان التقدير: لم يكن شيء من ذلك، قال منبهًا لهم على سفه آرائهم وخسة هممهم ونقصان عقولهم: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

ولما حقر أمر شركائهم، بين عظمته معجّزًا مهددًا مبينًا للنعمة بعدم معاجلة الهلاك على هذا الافتراء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ فإن ادعيتم أن شركاءكم لا يقدرون على الخلق لعلةٍ، فادعوهم لإزالة ما خلق تعالى ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ ولما كان السياق أميل إلى الترغيب في الإقبال عليه وحده من الترهيب، وكان جديرًا بأن يزيلهما لعظيم ما يرتكبه أهلهما، قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ وأشار إلى أنه ليس عنده ما عند حلماء البشر من الضيق الحامل لهم على أنهم إذا غضبوا لا يغفرون بقوله: ﴿غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

ولما ظهر ضلالهم في إشراكهم بالمرسِل، بين ضلالهم في تكذيبهم الرسل فقال: ﴿۞وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ﴾ لأنهم أحد أذهانًا وأقوم لسانًا وألزم لداعي العقل وأطلب لما يشهد بالفضل ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: طلبًا لإيجاد الكبر لأنفسهم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي من شأنها السفول والتواضع ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِ﴾ أي: ولأجل مكرهم الذي يسوء، وهو إرادة إيهان أمر النبي ﷺ وإطفاء نور الله ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي: يحيط إحاطة لازمة ضارة ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ وإن آذى غيرهم، لكنه لا يحيط به.

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ أي: في سرعة أخذ الله لهم وإنزال العذاب بهم، وقال مؤكدًا؛ لجزم الكفرة بأنهم لا يتغيرون عن حالهم وأن المؤمنين لا يظهرون عليهم: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ بسنة أخرى لأنه لا مكافئ له ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣﴾ أي: من حالة إلى أخفى منها؛ لأنه لا مرد لقضائه لأنه لا كفؤ له، وفي الآية أن أكثر حديث النفس الكذب، فلا ينبغي لأحد أن يظن بنفسه خيرًا، ولا أن يقضي على غائب إلا أن يعلقه بالمشيئة تبرؤًا من الحول والقوة، لعل الله يسلمه في عاقبته.

ولما أخبر عن سنته في الأولين استشهد عليها بآثارهم فقال: ﴿أَوَ لَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ فإن العاقل إذا رأى شيئًا تفكر فيه حتى يعرف ما ينطق به لسان حاله إن خفي عنه مقاله ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ولما كان السياق لاتصافهم بقوتي الظاهر من الاستكبار والباطن من المكر، وصف قوة الذين خوفهم بمثل مآلهم بالأشدية في جملة حالية فقال: ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ أي: أهلكناهم والحال أنهم كانوا ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأكد بإعادة النافي فقال: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ولما كان منشأ العجز الجهل علل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ۝٤٤﴾ فلا يريد شيئًا إلا كان.

ولما كانوا يستعجلون بالتوعد استهزاء، قال مظهرًا للحلم مع العلم: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ أما المكلفون فلأنه ليس في أعمالهم شيء يقدره تعالى حق قدره، وأما غيرهم فإنما خلقوا لهم، والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم، وذلك كما فعل في زمان نوح عليه السلام لم ينج ممن كان على الأرض غير من كان في السفينة ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ۝٤٥﴾ بمن يستحق العذاب منهم ومن يستحق الثواب.

فقد انطبق آخرها على أولها باستجماع صفات الكمال، وتمام القدرة على الإيجاد والإعدام، بما ختمت به من إحاطة العلم المستلزمة لشمول القدرة، فثبت استحقاقه تعالى لجميع المحامد، فكانت عنه الرسالات الجامعة للعزة والحكمة، بالملائكة المجردين عن الحظوظ، إلى من ناسبهم من البشر بما غلب من عقله على نفسه وشهوته.

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها إثبات الرسالة، وجل فائدة الرسالة إثبات الوحدانية التي هي قلب الاعتقاد، وإنذار يوم الجمع الذي به صلاح القلب الذي به يكون قبول ما ذكر، فيكون به صلاح الخلق أو فسادهم، وعلى ذلك تنطبق معاني أسمائها: «يس» وسيأتي، و«القلب» وتقدم، و«الدافعة» و«القاضية» لأن من اعتقد الرسالة كفته ودفعت عنه جميع مهمّه وقضت له بكل خير، و«المعمة»: الشاملة بالخير والبركة، فقد لاح أن هذه السورة لما كانت قلبًا، كان كل شيء فيها له نظر عميق إلى القلبية.

قال البوصيري: "ليس في هذه إلا تقرير الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والحشر بأقوى البراهين، فابتدأها بالرسالة بقوله: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ ودليله ما قدمه بقوله: ﴿والقرآن الحكيم﴾ وقوله: ﴿لتنذر قومًا﴾ وأنهاها بالوحدانية والحشر بقوله: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ إشارة إلى الحشر، ومن حصَّل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق بالجَنان، وأما باللسان والأركان ففي غيرها، فلما كان فيها أعمال القلب لا غير سماها قلبًا".

﴿يسٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ ولما ثبت في سورة الملائكة أنه تعالى الملك الأعلى، وكان من أجلّ ثمرات المُلك إرسال الرسل إلى الرعايا بأوامر الملك وردهم عن الضلال، وكانت الرسالة أحد الأصول الثلاثة التي تنقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان، وكانت هي السبب في الأصلين الآخرين، قال مقدمًا لها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما أوضحت سبأ وفاطر من عظيم ملكه تعالى وتوحده بذلك ما تنقطع العقول دون تصور أدناه، وأشارت من البراهين إلى ما يرفع الشكوك ويوضح السلوك مما كانت الأفكار قد خمدت عن إدراكها، ذكّر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بثنائه على من اختاره لبيانها فقال: ﴿يس﴾ إلى ﴿لتنذر قومًا﴾ الآية، فأشار إلى ما تثمر نعمة الإنذار، ثم ذكر علة من عمي بعد تحريكه فقال: ﴿لقد حق القول﴾ الآية، ثم أشار إلى أن بعض من عمي عن تلك البراهين لأول وهلة قد يهتز عند تحريكه فقال: ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ فكذلك نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم، ثم ذكر ما أودع في الوجود من

الدلائل والبراهين فقال: ﴿ألم يروا كم أهلكنا﴾ الآيات، إلى أن ذكر إعراضهم مع ذلك وتكذيبهم وسوء حالهم عند بعثتهم وندمهم وتوبيخهم".

ثم بيّن الذي أرسل به فقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْعَزِيزِ﴾ ولما كانت هذه الصفة للقهر والغلبة، وكان ذلك لا يكون صفة كمال إلا بالرحمة قال: ﴿ٱلرَّحِيمِ ۝٤﴾ الذي ينعم على من يشاء من عباده بعد الإنعام بإيجادهم بما يقيمهم على المنهاج الذي يرضاه لهم، فهو الواحد الذي لا مثل له؛ لما قهر به من عزته، وجبر به من رحمته. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ولما كان عدم الإنذار موجبًا لاستيلاء الحظوظ والشهوات على العقل فتحصل الغفلة عن طريق النجاة قال: ﴿فَهُمْ﴾ بسبب زمان الفترة ﴿غَٰفِلُونَ ۝٥﴾.

ولما كان تطاول الإقامة على شيء موجبًا للإلف له "وحبك للشيء يُعمي ويصم"، قال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ بملازمة الغفلة، ولما كان المعنى أنه لا يتجدد منهم إيمان بعد البيان الواضح وكان ذلك أمرًا عجبًا، علله بما هو اليوم مثال وفي الآخرة ذات ظاهر، بما يُفهم أنه ما انفك عنهم أصلًا فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ من ظلمات الضلالات، وأشار بالظرف إلى أنها من ضيقها لزَّت اللحم حتى تثنى على الحديد فكاد يغطيه، فصار والعنق فيه: كأنه فيها وهي محيطة به.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٧﴾ أي: رافعي رؤوسهم لا ينظرون إلا ببعض أبصارهم هيئة المتكبر، قال أبو عمرو: "والقامح من الإبل هو الذي لا يشرب وهو عطشان عطشًا شديدًا ولا تقبل نفسه الماء"، فهذا تمثيل لأنهم يتركون هذا الأمر العظيم الحسن الجدير بأن يقبل عليه ويتروّى منه وهم في غاية الحاجة إليه، فهم في ذلك كالبعير القامح، إنما منعه من الماء مع شدة عطشه مانع عظيم أقمحه، ولكنه خفي أمره فلم يعلم ما هو، ولذلك بنى الاسم للمفعول إشارة إلى أنهم مقهورون على ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ ولما كان المقصود حجبهم عن الخير المؤدي للسعادة الكاملة خاصة لا عن كل ما ينفعهم، أدخل الجار فقال: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: الوجه الذي يمكنهم علمه ﴿سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: الوجه الخفي عنهم، وأعاد السد تأكيدًا؛ لإنكارهم ذلك، وتحقيقًا لجعله فقال: ﴿سُدًّا﴾ فصاروا لا يمكنهم النظر إلى الحق ولا الخلوص إليه، فلذا قال: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٨﴾ ولما مُنعوا بذلك البصر أخبر عن السمع فقال: ﴿وَسَوَآءٌ﴾ وزاد في

الدلالة على عدم عقولهم بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ إيذانًا بأنهم إذا امتنعوا مع المستعلي، كانوا مع غيره أشد امتناعًا ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩﴾.

ولما أخبر أن الأكثر بهذه الصفة، أخبر بأمارة يعرف بها الأقل الناجي لأنه المقصود بالذات فقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ ودل لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى الرحمانية على أن أهل الخشية يكفيهم في الاتعاظ: التذكير بالإحسان ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي: بسبب ما يخبر به من المغيَّبات من غير طلب آية كاشفة للحجاب بل تجويزًا لانتقامه ولو بقطع إحسانه ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ لذنوبه وإن عظمت وتكررت مواقعته لها وتوبته منها، فإن ذلك لا يمنع الاتصاف بالخشية ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

ولما كان الأصل الثالث في الإيمان وهو البعث سببًا عظيمًا في اعتقاد الوحدانية قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ﴾ أي: كتاب هو أهل لأن يُقصد ﴿مُّبِينٖ ۝١١﴾ أي: لا يخفى فيه شيء على أحد أراد علمه منه، فلله هذه القدرة الباهرة والعظمة الظاهرة!

ولما كان مقصود السورة إثبات الرسالة لإنذار يوم الجمع، وكانت غاية الإنذار اتباع الذكر، ضرب مثلًا جامعًا للأصول الثلاثة، صور فيه البعث تصويرًا لم يتقدم مثله فقال: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣﴾ أي: عن الله لكونهم عن رسوله عيسى عليه السلام. وقال تسلية للنبي ﷺ: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ مع ما لهما من الآيات؛ لأنه من المعلوم أنا ما أرسلنا رسولًا إلا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، سواء كان منا من غير واسطة أو بواسطة رسولنا.

﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ﴾ مؤكدين بحسب ما رأوا من تكذيبهم: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: العام الرحمة، فعموم رحمته مع استوائنا في عبوديته تقتضي أن يسوي بيننا في الرحمة فلا يخصكم بشيء دوننا ﴿مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥﴾ ولما زادوا في تأكيد تكذيبهم، زادوا في تأكيد جوابه فقالوا: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦﴾ ما أتيناكم غلطًا ولا كذبًا، فالأول ابتداء إخبار وهذان جوابا إنكار فأعطى كلًا ما يستحق. ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٧﴾ أي: المؤيد بالأدلة

القطعية، فلولا أنه يعلم لما أمكننا شيء من ذلك، كما أن آلهتكم لما لم يكن لها علم لم يقدروا على بيان في أمرها بشيء.

ولما كان حلول الصالحين بين ناس يكون نعمة أو نقمة باعتبار التصديق والتكذيب والإساءة والإحسان، فلما كذب هؤلاء ابتُلوا بجدب الأرض وصعوبة الزمان ونحو ذلك، ذكر ما أثره ذلك عندهم فقال: ﴿قَالُوٓاْ﴾ ولما كانوا يتوقعون تكذيب الناس لهم إذا ذموهم؛ لما يرون عليهم من الآيات الشاهدة بيمنهم، أكدوا قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ لأن عادة الجهال التيمنُ بما مالوا إليه ويسندون ما حل بهم من نعمة إلى يمنه، والتشاؤمُ بما كرهوه ويسندون ما أصابهم من نقمة إلى شؤمه.

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: شومكم الذي أحل بكم البلاء ﴿مَّعَكُمۡ﴾ وهو أعمالكم القبيحة التي منها تكذيبكم، ولما كان لم يبد منهم عند النظر الصحيح غير ما يقتضي التيمن والبركة وهو التذكير بالله الذي بيده الخير كله، قالوا منكرين: ﴿أَئِن﴾ أي: ألأجل أن ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾ بالله تطيرتم بنا! ولما كان ذلك لا يصح أن يكون سببًا للتطير بوجه قالوا: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٨﴾ أي: عادتكم الخروج عن الحدود والطغيان.

ولما كان السياق لأن الأمر بيد الله، قدم مكان المجيء على فاعله بيانًا لأن الدعاء نفع الأقصى دون الأدنى فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ وأمرهم بمجاهدة النفوس بقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٩﴾. ثم نبههم على الداعي لاتباعهم والمانع من الإعراض عنهم بقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ ولما أفرد الضمير دلالة على وجوب الاتباع لمن اتصف بهذا وإن كان واحدًا، جمع بيانًا للأولوية بالتظافر والاتفاق في الصيانة الدال على اتحاد القصد، الدال على الصدق فقال: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢٠﴾.

ولما أفهم ذلك اتباعه لهم، قال جوابًا لمن يلومه على ذلك، وترغيبًا فيما اختاره لنفسه، وتوبيخًا لمن يأباه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٢ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٣﴾ ولما أقام الأدلة ولم يبق لأحد تخلَّف عنه علة، صرح بما لوح إليه من إيمانه، فقال

مظهرًا لسروره بالتأكيد، وقاطعًا لما يظنونه من أنه لا يجترئ على مقاطعتهم كلهم بمخالفتهم في أصل الدين: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٤﴾ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

ولما عُلم أنهم لا يبقون هذا الذي هو من مدينتهم وقد صارحهم بما إن أغضوا عنه انتقض عليهم أكثر أمرهم لم يذكره، وقال معلِمًا بحاله بعد ذلك(١١): ﴿قِيلَ﴾ له بعد قتلهم إياه ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ لأنه شهيد، والشهداء يسرحون في الجنة من حين الموت.

ولما كان الطبع البشري داعيًا للانتقام ممن آذاه، بين أن الأصفياء على غير ذلك فقال: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي﴾ أي: الذين فيهم قوة لما يراد منهم، فلو كانت على الكفار لكانت حسنة، وهذا كما بادر الأنصار إلى الإيمان مع بعد الدار والنسب، وقول شهداء بئر معونة منهم: بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ﴿يَعۡلَمُونَ ٢٥ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٦ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لإهلاكهم، فإن الهلاك لا يكون بأكثر من ملَكٍ لأنه أدل على الاقتدار، فلذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٧﴾ أي: ما كان ذلك من سنتنا وما صح في حكمتنا أن يكون الاستئصال بجند كثير.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ لحقارتهم عندنا، وزاد في تحقيرهم ببيان الإسراع في الإهلاك بقوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٨ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٩﴾ أي: تعالي يا حسرة، فإن المستهزئين بالرسل -وهم أبعد الخلق من الهزء- جديرون بحضورها عليهم. ولما آذن التحسر بتحتّم الهلاك دل عليه بقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: إلى الرسل ﴿لَا يَرۡجِعُونَ ٣٠﴾ عن مذاهبهم الخبيثة فهو تعليل لهلاكهم، و﴿يرجعون﴾ هنا نحو قوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾ [السجدة: ٢١].

﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣١﴾ ولما ختم بالبعث وكانوا ينكرونه، دل عليه بقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ ونبه على عظيم القدرة بقوله: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٢﴾ وفي هذه الآية وأمثالها حث على استخراج ما في القرآن من المعاني الدالة على جلال الله وكماله. ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ ولما كان من طبع

---

(١١) لأن العبرة بالنهاية ﴿فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ [آل عمران: ١٨٥] لا بكيفيتها، والله أعلم.

الماء الغور في التراب فكان فورانه أمرًا باهرًا لا يكون إلا بقسر حكيم قال: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝٣٣ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ولما كان الإنسان قد يتسبب في تربية بعض الأشياء، نبه على أن الكل بخلقه فقال: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ أي: لم تعمله وفي قراءة: ﴿وما عملت﴾ قصرًا للفعل؛ تعميمًا للمفعول، ردًا لجميع الأمور إلى بارئها سواء كانت بسبب أو بغيره.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٥ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٦ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٧ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ﴾ بعد أن كان بدرًا عظيمًا ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٨﴾. ولما ذكر ما حد له حدودًا في السباحة في وجه الفَلك لو تعداها لاختل النظام، ذكر ما هيأه من الفُلك للسباحة على وجه الماء الذي طبق الأرض في زمن نوح عليه السلام فقال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٣٩ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤٠﴾.

ولما كانت هذه الآية لم تنقطع بل عم الله بنفعها قال: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ۝٤١ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝٤٢ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٤٣﴾. ولما كان هذا الحال معلومًا لهم لا ينازعون فيه، عجب منهم في إعراضهم عنه سبحانه مع قيام الأدلة القاطعة على وحدانيته وقدرته فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: مما يمكن أن تقعوا فيه من العثرات ﴿وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ أي: ما فرطتم فيه ولم تجازوا به، ولا بد من المحاسبة عليه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٤﴾. ولما كان التقدير: أعرضوا؛ لأنه صار لهم خلقًا لا يقدرون على الانفكاك من أسره، عطف عليه قوله إشارة إليه: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤٥﴾.

ولما كانت الرحمة بالرزق والنصر إنما تنال بالرحمة للضعفاء «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» وكان الإنفاق خلق المؤمنين، قال مبينًا أنهم انسلخوا عن الإنسانية جملة، فلا يخافون عذابًا ولا يرجون ثوابًا: ﴿۞وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فأظهر الوصف الحامل لهم على البخل تبكيتًا لهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ لكنه لم يطعمهم لما نرى من فقرهم فنحن

أيضًا لا نفعل موافقةً لمراد الله، فتركوا التأدب مع الأمر وأظهروه مع بعض الإرادة المنهي عن الجري معها والاستسلام لها ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٦﴾.

ولما ذكر قلة خيرهم المستندة إلى تهكمهم بالبعث، أتبعه استهزاءً آخر دال على عظيم جهلهم فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٧﴾. ولما كان الحازم لا يتهكم بشيء إلا إذا استعد له بما يدفعه، بين سفهَهم بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ﴾ وحقارتَهم وقدرتَه بقوله: ﴿وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ۝٤٨﴾ أي: على غاية من الغفلة، بما أشار إليه الإدغام اللازم عنه تعالي الخصام، إشارة إلى أنهم وقت الصعق يكونون في أعظم الأمان منها، ولم يقرأ أحد «يختصمون» بالإظهار إشارة لأنه لا تقع آنذاك خصومة كاملة حتى تكون ظاهرة، بل تهلكهم الصيحة قبل استيفاء الحجج.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤٩﴾ بل يموت كل واحد في مكانه حيث تفجؤه الصيحة، وفي الحديث: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يبيعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها».

ولما دل ذلك على الموت عقبه بالبعث فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥٠﴾. ولما كانوا عالمين بأن الخزيَ جزاءُ ما أسلفوا ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ عدوا البرزخ مع ما كانوا فيه من العذاب مرقدًا هنيئًا بالنسبة لما انكشف لهم من العذاب الأكبر ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: الذي اقتضت رحمانيته البعث لينصف المظلوم ويجازي كلًا بعمله، وقد رحمنا بإرسال الرسل إلينا بذلك، ولما كان التقدير: فصدق الرحمن، عطف عليه: ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥١ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا﴾ ولما كانت المجازاة بالجنس أدل على القدرة وأعدل قال: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٤﴾.

ولما قرر أن الجزاء من جنس العمل شرع في تفصيله، وبدأ بأشرف الحزبين فقال: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾ أي: عظيم جدًا، كما كانوا في الدنيا في الشغل بالمجاهدات في الطاعات، وفسر الشغل بقوله: ﴿فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ أي: لهم عيش المتفكه وهو الأمن والنعمة وتمام الراحة. ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾ وذلك لأجل ما كانوا في الدنيا يفطمون أنفسهم عن الشهوات، عزوفًا عما يفنى

وطموحًا إلى ما عندنا ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ أي: انفردوا انفرادًا بغاية القصد، فامتازَوا في الحال فكان لهم من فنون المساءة وشؤون الحسرة ما تعجز عنه العقول وتنخلع منه القلوب ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾.

وقال لهم في تلك الحال موبخًا: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ﴾ أي: أوصيكم إيصاء عظيمًا بما نصبت من الأدلة ومنحت من العقول ﴿إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠﴾ أي: ظاهر العداوة جدًا، حتى أخرج أباكم من الجنة، وأمركم بما ينغص الدنيا من التخالف، وزيّن الفاني الذي لا يرغب فيه عاقل لو لم يكن فيه عيب غير فنائه، فكيف وأكثره أكدار، فكيف وهو شاغل عن الباقي عائق عن المولى مغضب له! ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ وعرف بحسن عبادته حثًا على لزومها قبل ذلك اليوم قائلًا: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾ أي: بليغ القوَم، وعبادة الشيطان صراط في غاية الضيق والعوج.

[ودل على هذا بقوله]: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾ لتكونوا في شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة، وشتان ما بين الشغلين ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥﴾ أثبت الكلامَ للأيدي لأنها المباشرة، وأثبت الشهادةَ للأرجل لأنها حاضرة، وقول المباشر إقرار وقول الحاضر شهادة.

ولما ختم بالختم على الأفواه بعد البعث أتبعه الختم بالطمس والمسخ قبل الموت تهديدًا فقال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ ولما كان المهدّدُ لآخر إذا فاجأه بمصيبة بادر الهربَ خوفًا من غيرها، كما فعل قوم لوط عليه السلام لما مسح جبريل أعينهم فأغشاها قال: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ الذي اعتادوه ولهم به غاية المعرفة ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝٦٦﴾.

ولما كان هذا كله مع القدرة على الحركة قال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ إلى الجمادية فأبطلنا منهم الحركة الإرادية، ولما كان المقصود المفاجأة بهذه المصائب قال: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ أي: المكان الذي كان قبل المسخ ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ۝٦٧﴾ إلى حالتهم قبل المسخ، دلالة على أن ذلك حق لا خيال وسحر.

ولما كانت هذه أمورًا فرضية قد يطعن بعض المعاندين فيها مكابرة، دل عليها بما يشاهدونه فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ إلى أن تضمحل قواه الحسية فيكون كالطفل فلا

يقدر على شيء، والمعنوية فلا يعلم شيئًا، ومن قدر على هذا التحويل قدر على مثل ما مضى بلا فرق، غير أنهم لكثرة إلفهم لذلك صيره عندهم هينًا، ولقلة وجود الأول صيره عندهم بعيدًا، ولذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ وقال بعض العارفين: "قيد بالخلق احترازًا عن الأمر، فإن المؤتمر كلما زاد سنًا ازداد لربه طاعة وبه علمًا"، يعني أن النكس في البدن أمر لا بد منه، وأما في المعارف فتارة وتارة.

ولما كان الأنبياء تظهر عليهم العلوم والحكم في سن وقوف الغرائز وضعف القوى عادةً، إكرامًا لهم وتنبيهًا على صدقهم، وكان ﷺ قد أتى بالقرآن في سن الوقوف، المعلوم أنه لا يحدث للإنسان فيه غريزة لم تكن أيام شبابه، قال رجل من بني قريع:

إذا المرء أَعْيَتْهُ المروءةُ ناشِئًا فَمَطلَبُها كَهلًا عليهِ شديدُ

لما كان ذلك قال(١٢): ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ لأنه وإن كنتم تعدونه فخرًا، لا يليق بجنابنا؛ لأنه لا يفرح به إلا من يريد ترويج كلامه وتحليته ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ لأن منصبه أجل وهمته أعلى من أن يكون مداحًا أو عيابًا أو أن يتقيد بما قد ينقص المعنى، وليس المعنى أنه لا يحسن الوزن، بل أن تعمده لا يليق بمنصبه ﷺ؛ لأن الشاعر مقيد بوزن وروي وقافية، فإن أطاعه المعنى وإلا أتم ما هو مقيد به وإن نقص المعنى، فهذا هو الذي لم يعلمه الله له؛ لأنه ﷺ تابع للمعاني والحكم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٨﴾ لكل ما فيه لمن يرومه حق رومه، كما أنه ﴿ذكر للعالمين﴾ [ص: ٨٧] ذكيهم وغبيهم، بخلاف الشعر فإنه مع نزوله عن بلاغته، ذكر للأذكياء ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٩﴾

لما أعلم بأن كتابه حاكم بإنذارهم ذكّرهم بقدرته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ولا يبعد عندي وإن طال المدى أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ [يس: ٣١] فذاك استعطاف إلى توحيده بالتحذير من النقم، وهذا بالتذكير بالنعم ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧٠﴾ أي: ضابطون قاهرون من غير قدرة لهم على ذلك لولا قدرتنا ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧١ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٢﴾.

(١٢) أو يقال: لما أبطل السحر في أفعاله سبحانه بقوله: ﴿ومن نعمره﴾ الآية، أبطل الشعر في أقواله، إذ الكل منه تعالى حقيقة لا خيال، والله أعلم.

ولما ذكرهم نعمه وحذرهم نقمه عجب منهم في سفول نظرهم وقبح أثرهم فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ حال فعلنا لهم ذلك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةَ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٣﴾ ولما كان للنصر سببان: ظاهري وهو الاجتماع، وأصلي باطني وهو الإله المجتمع عليه، بين غلطهم بتضييع الأصل فقال: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: الآلهة ﴿نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ﴾ أي: العابدون ﴿لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ ٧٤﴾ يفعلون في الاجتماع إليها والمحاماة عنها فعل من تجمعه كرهًا إيالة الملك، فصارت العبرة بهم في حيازة السبب الظاهري لا بالآلهة، فلو أنهم جمعوا أنفسهم على الله لكان لهم ذلك وحازوا السبب الأعظم. ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ ولما كان علم القادر بما يعمل عدوه سببًا لأخذه، علل ذلك بقوله مهددًا: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٥﴾.

ثم استدل على قدرته بأبين من الأول فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾ ولما كان هذا المثل الذي قاله الكافر لا يرضاه حمار لو نطق، أشار لغباوته بالتعبير بالإنسان الذي هو -وإن كان أفطن المخلوقات لما ركب فيه سبحانه من العقل- يغلب عليه الإنس بنفسه حتى يصير مثلًا في الغباوة فقال: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٦ *وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ﴾ أي: ذهل أو ترك ﴿خَلۡقَهُۥۖ﴾ أي: خلقنا لهذا المخاصم.

﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٧ قُلۡ﴾ لهذا الذي ضرب المثل جهلًا منه في قياسه من يقدر على كل شيء على من لا يقدر على شيء ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٨﴾ فلا يخفى عليه أجزاء ميت، فقد بلغ هذا البيان في الدلالة على البعث الجسماني والروحاني معًا النهاية التي ليس وراءها بيان، بعد أن وطأ له في هذه السورة نفسها بما لا يحتمل طعنًا.

ولما كان مآل هذا المثل استبعاد تمييز الشيء عن غيره من التراب، وصف نفسه تعالى بإخراج ما هو أخفى ما يكون من ضده وذلك بتمييز النار من الخشب الذي فيه الماءُ ظاهرٌ بأيدي العجزة من خلقه فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ بأن يأخذ أحدكم غصنين أخضرين يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فتخرج النار، ولذا قالوا في المثل: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٧٩﴾ لا النار تعدو على الخشب فتحرقه ولا الماء يعدو على النار فيطفئها.

ثم أتبعه ما هو أعظم منه تقريرًا للقدرة على الأدنى بالأعلى فقال: ﴿أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: مثل هؤلاء الأناسي، وعبر به إفهامًا لتحقيرهم وأن إحياء العظام أكثر ما يكون خلقًا جديدًا، بل ينقص عن الاختراع بأن له مادة موجودة ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٠﴾.

ولما تقرر ذلك أنتج قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨١﴾. ولما كان ذلك تسبب عنه المبادرة إلى تنزيهه سبحانه عما ضربوه له من الأمثال فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٢﴾.

فثبت أنه سبحانه على كل شيء قدير، فلا يعجل على أحد بل يرسل الرسل للبشارة والنذارة، فرجع آخر السورة بكل من الرسالة وإحياء الموتى إلى أولها، والله الهادي.

سورة الصافات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الاستدلال على آخر يس من التنزه عن النقائص، اللازم منه رد العباد للفصل بينهم بالعدل، اللازم منه الوحدانية، وذلك هو المعنى الذي أشار إليه وسمها بالصافات: ﴿وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]، فإن الاصطفاف دال على اتحاد القصد، والملائكة لا قصد لهم إلا الله من غير عائق عن ذلك، فكانوا أحق الخلق بالاصطفاف، مع أن انتظام المدبرات الناشئ عن اصطفافهم في التدبير في طاعة الملك القدير دال على الوحدانية.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أي: الجماعات من الملائكة والمصلين والمجاهدين المكملين أنفسهم بالاصطفاف في الطاعة، فهو صفة لموصوف محذوف مؤنث اللفظ، وعدل عن أن يقول: «الصافين» ليشمل غير الذكور العقلاء من الملائكة والجن والوحش وغيرها، إشارة إلى أنه لا يؤلف بين شيء منها ليتحد قصده إلا واحد قهار، وأنه ما اتحد قصد شيء منها إلا استوت صفته فاتحد زجره فنجح قصده؛ بدليل المشاهدة، وأدلها أن الصحابة لما اتحد قصدهم في إعلاء الدين وهم أضعف الأمم وأقلها عددًا، لم يقم لهم جمع من الناس الذين لا نسبة لهم إليهم في قوة ولا كثرة ولم ينقض صفهم، وكذا غير الآدميين من الحيوانات كما يرى من الفار والجراد، إذا أراد الله تعالى اتحاد قصده في شيء فإنه يغلب فيه من يغالبه، فبان أن الخير كله في الوحدة وأنه لا صلاح بدونها، فبان أن الإلٰه لا يكون متكثّرًا بوجه، فصح ما أريد بالقسم واتحد جدًا بالمقسم عليه ﴿صَفّٗا ١﴾.

ولما كان توحد القصد موجبًا للقوة الزاجرة، وكان تكميل الغير مسبَّبًا عن تكميل النفس، وكان التكميل إنما يعظم أثره مع الهيبة «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد» قال عاطفًا بالفاء: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢﴾ بالمواعظ وغيرها تكميلًا لغيرهم.

ولما كانت الإفاضة مسبَّبة عن حسن التلقي المسبَّب عن تفريغ البال، وكان فيض التلاوة أعظمه قال: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾ إفاضة على غيرهم من روح العلم. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾ أي: فإن التفرق لا يأتي بخير؛ لما يصحبه من العجز الذي لا تكون الإلهية معه أصلًا،

ولو لم يكن واحدًا لاختل أمر هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة وما يترتب عليها، فاختل نظام هذا الوجود.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما تضمنت سورة يس ما يشهد بأن المُلك بجملته لواحد، أتبعها تعالى بالقسم على وحدانيته فقال: ﴿والصافات﴾ إلى ﴿إن إلهكم لواحد﴾ إلى ﴿ورب المشارق﴾ ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته".

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ هذا مع كونه نتيجة ما مضى، يصلح دليلًا عليه لما أشار إليه من انتظام التدبير الذي لا يتهيأ مع التعدد. ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يُفهِم أنهم يتسمعون ولكن لا ينتهي تسمعهم إلى ما ذكر، بما أشار إليه الإدغام ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ﴾ أي: مطرودين صاغرين، فهو تأكيد للقذف بالمعنى أو مفعول له أو حال ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩﴾. ولما كان بعضهم مع هذا قد يسمع ما أراد الله أن يسمعه ليجعله فتنة لمن أراد من عباده، استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ﴾ ودل على قلة ذلك بعد إفراد الضمير بقوله: ﴿ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾.

ولما أثبت قدرته على هذه الأفعال الهائلة، سبب عن ذلك قوله لإثبات الحشر: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١﴾ فدل ابتداء خلقهم وخلق ما هو أشد منهم وأعظم: على القدرة على إعادتهم قطعًا بل بطريق الأولى من غير وجه، وحسّن هذا الاستفتاءَ ختمُ الكلام قبله بمن بلغوا السماء تكبرًا وعلوًا، وسلط عليهم ما يردهم مدحورين، هذا مع ذكره في خلقهم من الطين اللازب الذي من شأنه الرسوب لثقله، كما أن من شأن من ختم بهم ما قبله العلو لخفتهم.

ولما كان من المعلوم قطعًا أن الجواب: ليسوا أشد خلقًا من ذلك فليس بعثهم ممتنعًا قال: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾ من جرأتهم في إنكارهم البعث ﴿وَيَسۡخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣﴾ أي: لا يعملون بموجب التذكير. ولما ذكر إعراضهم عن المسموع، أتبعه إعراضهم عن المرئي فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ﴾ على صدق الرسول ﷺ ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ أي: الذين انمحقت أجزاؤهم بحيث لم يبق لهم أثر ما، زيادةً في الاستبعاد.

﴿قُلۡ نَعَمۡ﴾ أي: تبعثون على كل تقدير قدرتموه. ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ وأصل الزجر الانتهار، وإنما يكون ذلك للمقدور عليه الذي فعل ما يغضب الزاجر، فلذلك سمى الصيحة زجرة ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩﴾ ولعله خص النظر بالذكر لأنه لا يكون إلا مع كمال الحياة، ولذلك قال ﷺ: «إذا قبض الروح تبعه البصر» وأما السمع فقد يكون لغير الحي لأنه ﷺ قال في الكفار من قتلى بدر: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

ولما صوّر حالهم بهذا الفعل المضارع، عطف عليه بصيغة المضي التي معناها الاستقبال، إعلامًا بتحقق الأمر فقال: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾. ودلوا بإعادة اسم الإشارة على ما داخلهم من الهول بقولهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾.

ولبيان سرعة النداء من غير تنفيس أسقط ما يدل عليه وقال: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: أتباعهم الذين استنوا بهم في ذلك الظلم، وأشباههم فيه من الجن وغيرهم، ومن أعانهم ولو بشطر كلمة أو رضي فعلهم، لتصير كل طائفة على حدة، فيبكّت ويشتم بعضهم بعضًا ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ممن رضوا بذلك ولم ينكروا عليهم. ولما كانوا قد سلكوا في الدنيا طريق الشقاء المعنوية، استحقوا أن يسلكوا في القيامة طريقه الحسية، فقال متهكمًا: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾.

وزاد في تأسيفهم وتوبيخهم بقوله: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ أين قولكم: ﴿نحن جميع منتصر﴾ [القمر: ٤٤]؟ ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ﴾ ولم يعطفه بالفاء لأنه ليس مسبَّبًا عما تقدم، بخلاف ما يأتي عن أهل الجنة. ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ﴾ أي: الأتباع لرؤسائهم.

ولما كانوا يستغوونهم بما تقبله عقولهم على ما جرت به عوائدهم بحيث يقطعون بذلك قطْعَ من تطير بالسانح والبارح فرأى ما يحب فأقدم عليه وهو قاطع بحصوله، عبروا بقولهم: ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨﴾ والعرب مطبقة على أن الآتي عن اليمين مبارك، والآتي عن اليسار مشؤوم، وأكثرهم سمى الأول سانحًا، من السُّنح وهو اليمن والبركة، وبعضهم عكس فسمى الأول بارحًا، من البرحة وهي الناقة من خيار الإبل، وسمى الثاني سانحًا من سنحه: صرفه، وسنح به: أخرجه، وعليه: أصابه بشر.

وقال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتابه الزينة: "العيافة والقيافة والزجر نوع من الكهانة إلا أنه أخف في الكراهة، وذلك أن الكاهن كان بمنزلة الحاكم، وكان من الكهان من يُعبد كما يُعبد الصنم، والكهانة والسحر كانا عند المتقدمين نوعًا من العلم، فكان الساحر والكاهن اسمين محمودين، فلما جاء الله بالإسلام صارا مذمومين عند المسلمين، فأما العائف والقائف والزاجر فلم يكن سبيلهم كالكاهن في أنه ربما عبد، والقائف هو الذي يتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل في ولده، وكان قوم من العرب يفتخرون بترك الطيرة ويعدونه شجاعة وإقدامًا، قال بعض شعرائهم:

ولقد غدوتُ وكنتُ لا أغدو على واقٍ وحاتِمْ

فـإذا الأَشـائِمُ كـالأَيـا مِنِ والأيامِنُ كالأشائِمْ

وقيل: العيافة والقيافة: الطرق والخط وهو أيضًا نوع من الكهانة، فهذه الأشياء كلها وما أشبهها قد جاءت فيها الأخبار وكلها حرام، وأكثرها أصولها من الأنبياء عليهم السلام، فإذا استعملت بعد النسخ وبعد ما جاء فيها النهي عن النبي ﷺ كانت حرامًا تدعو إلى الكفر والتعطيل وغير ذلك من الفساد، وما كان من أمر مشركي العرب فقد درس دروسًا لا يعرف ولا يحتاج إلى ذكر كيفيته، ولكن لا يستغني العلماء عن معرفته إذ كان له في القرآن ذكر وكان واجبًا عليهم تعلم ما فيه، والله أعلم".

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩﴾ فلذلك تابعتمونا ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠﴾ أي: مسرفين في المعاصي والظلم ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾ وهو الحكم بالضلال؛ لما في قلوبنا من القابلية له والإباء للإيمان فالحكم بالعذاب ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾ أي: في أصله ثم يتفاوتون في وصفه على قدر كفرهم ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾ ثم علل تعذيبه لهم بقوله مؤكدًا؛ لأن هذه الكلمة لا يصدق عاقل أن أحدًا يستكبر عليها لأنه لا شيء أعدل منها: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ليفردوه بالإلهية كما تفرد بالخالقية كما لا يخفى على من له أدنى مسكة بصفات الكمال ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾.

ثم أعلم بأن ما هم عليه عناد، بسوق تكذيبهم على وجه معلوم التناقض بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ فإن الجنون لا نظام معه، والشعر يحتاج إلى عقل

رصين وقصد قويم. ولما كان مرادهم أن كلامه باطل، فإن أكثر كلام الشاعر غلو وكذب وكلام المجنون تخليط قال: ﴿بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ﴾ ولما كان ما جاء به موافقًا لمن تقرر صدقهم واشتهرت إمامتهم فكان أهلًا للقبول قال: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٧﴾.

ثم استثنى من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٩﴾ قولَه مرغِّبًا لهم في الإيمان مشيرًا إلى أنه لا يحملهم على الثبات على ضلالهم إلا غش الضمائر بالرياء وغيره، فهو استثناء متصل بهذا الاعتبار: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ٤١﴾ وليسوا مثل ما هم عليه في هذه الدار من كدر الأخطار، لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا.

ولما كان أهل الجنة لا يأكلون تقوُّتًا واحتياجًا بل تنعمًا والتذاذًا قال: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٞ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧ *وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٞ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٞ مَّكْنُونٞ ٤٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾.

ولما تشوف السامع إلى سماع شيء منها يكون نموذجًا للباقي قال: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ﴾ مكذبًا بالبعث، يريد أن يختدعني بلطافة قياده إلى سوء اعتقاده: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ٥٢﴾ يوبخني بذلك ويستقصر باعي في النظر استثارة لحميتي، ويكرر الإنكار بقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣﴾ وكأنه أكد إشارة منه إلى أن كل عاقل جدير بأن يكذب بما أقررتَ به، أو إلى أنه مكذب به ولو كان مؤكدًا.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤﴾ ولما كان النافع لنا إنما هو قوله فقط في توبيخ عدوه وتغبيط نفسه، لم يجمع الضمير فقال: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ٥٥﴾ أي: في وسطها، وغمرتها تضطرم عليه بما كان يضرم في قلبه في الدنيا من الحر كلما قال له ذلك، وسمي الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب. ﴿قَالَ﴾ ولما كان مستبعدًا أنه كان يتلفت إلى قوله؛ لبطلانه ولأنه محكوم بأنه من أهل الجنة، أكد إشارة إلى أنه كان يؤثر فيه قوله، بما يزينه به الشيطان وتحسنه النفوس بالشهوات والراحة من الطاعات، وأقسم تنبيهًا على التعجب من سلامته منه فقال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ٥٦﴾ وفي التأكيد غاية الترغيب في الثبات لمن قارب التزلزل، وفي المباعدة لقرناء السوء.

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ في تثبيتي عن اتباعك والتجاوز عني في مخالطتك ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾ كرهًا إلى هذا الموطن الضنك الذي أنت فيه. ولما كان ما هو فيه من النعيم وما قرينه فيه من الجحيم لا يكاد يصدق، قال مسرورًا: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ فإنهم يغتنون غنى لا فقر بعده، بخلاف ما يتنافسون فيه من أمور الدنيا، فإنه مع سرعة زواله منغض بكدره وملاله. ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾ وعادل بين ما لا معادلة بينهما بوجه؛ لأنهم كانوا يرون ما سبّب ذلك من الأعمال خيرًا من أعمال المؤمنين التي سببت لهم النعيم، فسيق كذلك توبيخًا لهم على سوء اختيارهم.

ولما كذبوا بنبات شجرة في النار؛ لأن عدم إيمانهم كان سببًا لضيق عقولهم، قال مؤكدًا: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾ ثم نبه على أن محل الفتنة جعلُها فيما ينكرونه فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ فيما هو مَثلٌ عند المخاطبين فيه وهو القباحة التي بلغت النهاية، وهذا المثل واقع في أتم مواقعه؛ لأن قبح الشياطين وما يتصل بهم في أنهم شر محض مقرر في النفوس، ولهذا كان كل من استقبح منظرَ إنسان أو فِعلَه يقول: كأنه شيطان، كما انطبع في النفوس حسن الملائكة فشبهوا بهم الصور الحسان. ثم قال ردًا لإنكارهم أن يأكلوا مما لا يشتهونه، ومكذبًا لادعائهم المدافعة: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٦٦﴾.

ولما جرت العادة بأن الآكل المتنعم يتفكه بعد أكله بما يبرد غلته، قال مشيرًا لشناعة متفكههم وتلهب عطشهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٦٧﴾ أي: ماء حار كأنه جُمع من عصارات شتى من قيح وصديد ونحوهما، نسأل الله العافية. ولما كان ما ذكر إنما هو النزل الذي يكون في أول القدوم على حين غفلة، بين أن لهم ما هو أشد فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ﴾ بعد خروجهم من دار ضيافتهم الزقومية ﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٨﴾ كما أن حزب الله يتقلبون بين الجنات كما ينقل أكابر أهل الدنيا ضيوفهم بين البساتين.

ولما كان سبب عذابهم: الجمود مع العادة الجارية على غير الحق، والتقيد بما ألفته النفس ومالت إليه الطباع، مما أصّله من يعتقدون أنهم أكبر منهم وأتم عقلًا، علل ذلك تحذيرًا من مثله لأنه كان سبب هلاك أكثر الخلق: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ التي لا تكاد تبين لأحد؛ لخفاء مذاهبها لشدة ضعفها، لا على غيرها ﴿يُهۡرَعُونَ

﴿٧٠﴾ أي: كأنهم يلجئهم ملجئ إلى الإسراع، فهم في غاية المبادرة إلى ذلك من غير توقف على دليل، وذلك ضد توقفهم وجمودهم فيما أتاهم به رسولنا ﷺ مما هو في غاية الوضوح.

ولما كان الضلال مع وجود العقول والرسل كالمحال، قال مؤكدًا: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ ولما كان ربما ظن أنه لعدم الرسل، نفاه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

ولما كان مقصود السورة التنزيه، فكان أنسب الأشياء الإقسام أولها بالملائكة الذين هم أنزه الخلق، وكان أعلى الخلق من جرد نفسه عن الحظوظ بما يؤتيه الله من المجاهدات حتى يلحق بهم فيحوز مع فضلهم معالي الجهاد، فكان أحق الأنبياء بالذكر من كان أكثر تجريدًا لنفسه من الشواغل، قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ بعد أمور عظيمة لقيها منهم من الكروب، ولما أغنت هذه الجملة عن شرح القصة، وكان قد تسبب عن دعائه إجابته قال: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كنا، لمن كان نعم المجيب لنا.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ثناء حسنًا، وحذف المفعول للتعظيم ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ولما كان الضالون ينكرون أن ينجو الدعاة إلى الله وأتباعهم منهم، أخبر مؤكدًا أنه يفعل بكل محسن ما فعل به فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الذين يتجردون من الظلمات النفسانية إلى الأنوار الملكية، بحيث لا يغفلون عن المعبود ولا ينفكون لحظة عن الشهود. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ فعلم أن الإيمان هو المراد الأقصى من الإنسان؛ لأنه علل الإنجاء بالإحسان والإحسان بالإيمان.

ولما قدم ما هو أهل له من مدحه اهتمامًا به وترغيبًا في مثله، أخبر عن أعدائه بأنه أوقع بهم؛ لأنهم لم يتحلوا بما كان سبب سعادته من الإيمان فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: الذين غايروه في الأقوال والأفعال، فاستحقوا أضداد أفعالنا معه، وإنما كان قوم نوح قومًا لا أكثر؛ لأنهم كانوا على لسان واحد، وذلك كما أن العرب يطلق عليهم كلهم على انتشارهم واتساع بلادهم أنهم قوم؛ لاجتماعهم في اللسان مع أنهم قبائل لا يحصيهم العد، وكذا سائر الأمم إنما يفرق بينهم اللسان.

ولما كان إبراهيم عليه السلام شديد التجرد عن النعوت البشرية والعلائق النفسانية، بالمصارحة بالمعارضة لقومه، والإبلاغ فيها بكسر الأوثان، والانفراد عما سوى الله في غمرات النيران، ثم الهجرة عن الأوطان، والخروج عن الأحباب بوضع ابنه وسريته في ذلك المكان الذي ليس به إنس ولا جان، ثم بمعالجة ذبحه بأتم قوة وأقوى جنان، وكان موافقًا لنوح عليه السلام مع ما تقدم في البركة في نسله، أتبعه به فقال:﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ وبيّن ما كانت به المشايعة بقوله: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ أتظنون أنه لا يعذبكم وقد صرفتم نعمه إلى عبادة غيره!

ولما كان أهل تلك البلاد من أشد الناس نظرًا في النجوم والاستدلال بها على أحوال هذا العالم، وكان عليه السلام يريد أن يتخلف عن الذهاب معهم إلى عيدهم ليكسر الأصنام، ويريد إخفاء وقت ذلك قال: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾ موهمًا لهم أنه استدل بتلك النظرة على مرض باطني يحصل له ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ۝٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ۝٩٣﴾ وجعل السياق للمصدر إشارة إلى قوة الهمة بحيث صار كله ضربًا ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾. ولما كان من المعلوم أنهم كلموه في ذلك فطال كلامهم ﴿قَالَ﴾ غير هائب لهم ولا مكترث بهم ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥﴾.

وقال مبينًا أنه تعالى هو وحده خالقهم وخالق أعمالهم التي ما عبدوا في الحقيقة إلا هي، وأنه لا مدخل لمنحوتاتهم في الخلق فلا مدخل لها في العبادة: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: والحال أن الله ﴿خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أي: تدبيرًا يعلي أمرهم ولا يبطل دينهم بما أظهر من عجزهم.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨﴾ وجعلناها عليه بردًا وسلامًا بضد عادتها في العمل، فنفذ عملنا وهو خارق للعادة وبطل عملهم الذي هو على مقتضى العادة، فظهر عجزهم في فعلهم، كما ظهر عجزهم في قولهم بما أظهرناه من الحجة على لسان خليلنا عليه السلام، وإنما فسرتُ الكيد بما ذكرت لأنه المكر والخديعة والتدبير بحق أو باطل والحرب، فكل هذه المعاني تدور على التدبير وإعمال الفكر وإدارة الرأي.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ أي: بوعد مؤكد إلى كل ما فيه تربية لي في أمر الهجرة؛ لأنه أمرني بها وهو لا يأمر بشيء إلا نصب عليه دليلًا يهدي إليه. ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ والحلم لا يكون إلا بعد العلم، ورسوخ العلم سبب لوجود الحلم، وهو اتساع الصدر لمساوئ الخلق، وهذا الولد هو إسماعيل عليه السلام بلا شك؛ لوصفه بالحليم، ووصف إسحاق عليه السلام في سورة الحجر بالعليم، ولأن هذا الدعاء عند الهجرة حيث كان شابًا يرجو الولد، وهو الذي كان بمكة موضع الذبح، فجعلت أفعاله في ذبحه مناسك للحج، كما جعلت أفعال أمه عندما أشرف على الموت من العطش مناسك هناك.

وأما إسحاق عليه السلام فبُشِّر به فجأة وهو لا يرجو الولد لكبره ويأس امرأته ولذلك راجع في أمره، ولم ينقل أنه فارق أمه من بيت المقدس، والرواية التي أشارت إلى أنه الذبيح ضعيفة، بل صرح شيخنا ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف بأن في سندها وضاعًا، ولأن هذه السورة سورة التنزيه، فأحق الناس بالذكر فيها أعرقهم في التجريد، وقد كان كذلك من حين كان حملًا إلى أن عولج ذبحه، ولأنه لما بُشِّر بإسحاق، بشر بأنه يولد له يعقوب، فلا يليق الامتحان به بعد علمه بأنه لا يموت حتى يولد له، وقد قال بكلٍ من القولين الصحابة وغيرهم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ الذي يرضي الأب ويثق عنده بالولد ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ﴾ بالمضارع تصويرًا للحال، لا لتكرار الرؤيا فإنه غير محتاج إليه ولا إلى التروي ﴿فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي: أعالج ذبحك، ولذلك كان كما قال، ولو عبر بالماضي لمضى وتم.

ولما كان الأنبياء عليهم السلام أشفق الناس وأنصحهم، أحب أن يرى ما عنده، فإن كان على ما يحب سر وثبته، وإلا سعى في جعله على ما يحب فيلقى البلاء وهو أهون عليه، ويكون ذلك أعظم لأجره لتمام انقياده فقال: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ أي: كل شيء يأمرك الله به لأني لا أتهمك في شفقتك وحسن نظرك ولا أتهم الله في قضائه ﴿سَتَجِدُنِي﴾ بوعد جازم، ولما كان من أخلاق الكمل عدم القطع في المستقبلات؛ لما يعلمون من قدرة الله تعالى على نقض العزائم بالحيلولة بين المرء وقلبه قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وهو من أعظم ما أريد بقوله: ﴿كان صادق الوعد﴾ [مريم: ٥٤].

وجعْل هذا الأمر العظيم في المنام: دلالة على صدق أحوال الأنبياء نومًا ويقظة، وصدق عزائمهم وانقيادهم لجميع الأوامر في جميع الأحوال، ومن ألطف ما في ذلك أنهم لما كانوا في نهاية التجرد عن علائق الشواغل، جعلت أفعالهم شعائر وشرائع لعبادة الحج التي روحها التجرد للوفود إلى الله تعالى.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: ألقيا بقواهما في يد الأمر ولم يكن عندهما امتناع ولا حديث نفس ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ ودل على السرعة باللام موقع «على» فقال: ﴿لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ وهي هيئة إضجاع ما يذبح، قال في الصحاح: "الجبين: فوق الصدغ، وهو عن يمين الجبهة وشمالها"، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ في أنك تذبحه فما انذبح لأنك لم تر ذلك.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ وهو كبش من الجنة، قيل: إنه الذي قربه هابيل فتقبله الله منه ﴿عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ لأنه مقبول ومستن به ومجعول دينًا إلى آخر الدهر. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الذبيح شيئًا عظيمًا، ولذا ترك المفعول ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ولما عظم الغلام عظّم والده فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ فلا يطمع غير مؤمن في رتبة اتباعه، قال الرازي: "الإيمان المطلق الحقيقي: شهود جلال الله ووحدانيته، والطمأنينة إليه في كل محبوب ومكروه، والانقياد لأمره في جميع أحواله". ثم ذكر ما جازاه به على ذلك فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ زيادة له ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الغلام الحليم، وهذا عندي أولى من إعادة الضمير على إبراهيم عليه السلام لأنه استوفى مدحه ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: أخيه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: الأخوين، وهذا أقرب وأقعد من أن يكون الضمير للأب والابن؛ لأن الابن من جملة المخبر عنه بذرية الأب ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهذا مما يهدم أمر الطبائع، حيث كان البَر يوجد من الفاجر والفاجر يوجد من البر، ولما كانت رتبة الإلهية لا تصل إلى القيام بحقها العوائق البشرية، بين أن الظلم المراد هنا إنما هو التجاوز في الحدود بغاية الشهوة فقال: ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ وأما غير ذلك فمغفور.

ومن جمع بين قصة ذبح إبراهيم لولده في التوراة وبين قصة إسماعيل وإسحاق في القرآن، وجد أنهم قد بدلوها بلا شك؛ وذلك أنه قال في هذه القصة «انطلق بابنك الوحيد إسحاق»

وكرر وصفه بالوحيد في غير موضع، وهو إنما يكون حقيقة لإسماعيل وهو دون البلوغ، وأما إسحاق فلم يكن وحيدًا ساعة من الدهر، بل ولد وإسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة ونيف بشهادة التوراة، وقوله في آخر القصة: «ويتبارك بنسلك جميع الشعوب» لا يلائم غاية الملاءمة إلا لإسماعيل، وأما إسحاق فإنما بورك بنسله الأراضي المقدسة فقط ولم يتبعهم من غيرهم إلا قليل، بل كانوا هم كل قليل يتبعون غيرهم على عبادة أوثانهم بشهادة توراتهم وأسفار أنبيائهم، وأما نسل إسماعيل فتبعهم على الدين الحق من جميع الأمم ما لا يحصى عدده، ولم يتبعوا هم بعد محمد ﷺ أحدًا على عبادة غير الله.

ولما كان من أعظم مقاصد ذكر هؤلاء السادة: المنة على من اتصف بمثل صفاتهم، أتبعهم من ذرية إبراهيم بأمثالهم في التجرد، وبدأ بأول من أظهر لسان الصدق له ولذريته إظهارًا تامًا فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ ولما كانت فائدة النصرة: التمكن من إقامة الدين قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ الذي هو لشدة بيانه طالب لأن يكون بينًا، وجمع هارون معه في الضمير؛ لأنه مثله في تقبل الكتاب والعمل بجميع ما فيه والثبات عليه وإن كان نزوله خاصًا بموسى ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ الذي هو لعظيم تقومه كأنه طالب لأن يكون قويمًا ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ولما كان إلياس عليه السلام أعظم المتجردين من أتباعهما، المجددين لما درس من التوراة، وكان تركها مع ما وصفت به في غاية الضلال، أتبعه بهما فقال: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ وهو من سبط لاوي ومن أولاد هارون عليه السلام ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ وهو صنم كان لهم في بعلبك، فكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها وهم أربعمائة ويعلمونها الناس ﴿وَتَذَرُونَ﴾ ولما كان لا يجوز أن يدعى إلا من يقدر على إعدام ما يشاء وإيجاد ما يريد، قال منبهًا لهم على غلطهم في الفعل والترك: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: لما نريد من العذاب.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ﴾ ولما كان في اسمه لغات للعرب، عبّر بما فيه زيادة في الأحرف تعظيمًا لمدحه فقال: ﴿عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ وقرئ:

﴿آل ياسين﴾ أي: أتباعه، وهو أضخم في حقه، ويجوز أن يقصد بهذه القراءة: الأنبياء المذكورين في هذه السورة، أي: على الأنبياء المذكورين عقب سورة يس، دلالة على ما دعت إليه معانيها من الوحدانية والرسالة والبعث وإذلال العاصي وإعزاز الطائع ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢﴾.

ولما أتم ما أراد سبحانه من أمور المحسنين من ذرية إبراهيم، وقدمهم لأن المنة عليهم منة عليه، والإنسان بابنه أسر منه بقريبه، وهم الذين أظهر الله بهم ما ترك عليه من لسان الصدق في الآخرين، أتبعهم قصة ابن أخيه فقال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٣٣﴾. ولما كان مخالفه كثيرًا وهو غريب بينهم، قال في مظهر العظمة: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ على ما لمخالفيه من الكثرة والقوة، ولم يذكرهم لأنهم أكثر الناس انغماسًا في العلائق البشرية والقاذورات البهيمية التي لا تناسب مراد هذه السورة المنبني على الصفات الملكية.

﴿وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ فجردنا الأرض من قاذوراتهم ونزهنا البلاد المقدسة من أرجاس فعلاتهم، فلم نبق منهم أحدًا ولا احتجنا في إهلاكهم إلى استئذان أحد ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧﴾ أي: في الوقت الذي قلبنا مدائنهم عليهم فيه ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾.

ولما أكمل ما أراد من أمور من كان على أيديهم هلاك في الدنيا أو في الآخرة، ختم بمن آل أمر قومه إلى سلامة وإيمان، فقال مؤكدًا؛ لأن ما يأتي من ذكر الإباق ربما أوهم شيئًا في أمره: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٣٩﴾ ولما كان من أعظم المقاصد التسلية، ذكر من أمره عليه السلام ما يعرف منه صعوبة أمر الرسالة وشدة عنايته سبحانه بالرسل عليهم السلام وأنه ما اختارهم إلا عن علم، فهو لا يقيلهم وإن اجتهدوا في دفع الرسالة؛ ليزدادوا ثباتًا لأعبائها وقوة في القيام بشأنها فقال: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝١٤٢﴾.

ولما وقع له ما وقع فتجرد عن نفسه وغيرها تجردًا لم يكن لأحد مثل مجموعه، زاد في التجرد بالفناء في مقام الوحدانية فلازم التنزيه حتى أنجاه الله تعالى، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝١٤٥﴾ وفيه إشارة إلى حديث: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»

وحث على الذكر وتعظيم له. ﴿۞وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ أي: من الأشجار التي تقطن في الأرض، وتصلح لأن يقطن عندها حتى يصلح حاله، واليقطين: كل ما يمتد وينبسط على وجه الأرض كالبطيخ والقثاء، والمراد به هنا كما قاله ابن عباس: شجرة القرع؛ لعظم ورقها وبرد ظلها ونعومة ملمسها وأن الذباب لا يقربها.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ والجمهور على أنهم الذين أرسل إليهم أولًا، قاله أبو حيان ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

ولما كان الذي سبق ادعاؤه أمرين: أن هؤلاء يسارعون في اقتفاء آثار آبائهم في الضلال، وأن أكثر الأولين ضلوا، وسيقت دليلًا شهوديًا على الثاني هذه القصص الست التي ما اهتدى من أهلها أمةٌ بكمالها إلا قوم يونس عليه السلام، كان ذلك سببًا لإقامة الدليل على ضلالهم بأمر هو في غاية البيان، فقال متهكمًا بهم: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى ما هو دليل عليها، فإن الرسول دال على قدر من أرسله فقال: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ الذي رباك وأحسن إليك بهدايتك والهداية بك وغير ذلك، حتى كنت أكمل الخلق في كل أمر يكون به الكمال والقرب من الله ﴿ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩﴾.

ولما كانت دعواهم لأنوثة الملائكة متضمنة لادعاء العلم بذلك بمشاهدة منهم أو كتاب منه، وأما العقل فإنه لا مدخل له في ذلك، قال معلمًا بأنهم أهل للتبكيت والهزء؛ لأنه لا علم عندهم بإحدى الطريقين، ولا يقدرون أن يدعوا ذلك لئلا يفتضحوا: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ وأعلم بقولهم الذي سبّب هذا الاستفتاء فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ أي: من أجل أن صرفهم الأمور عن وجوهها عادتُهم ﴿لَيَقُولُونَ ١٥١﴾ أي: قولًا هم مستمرون عليه وإن كانوا لا يقدرون على إبرازه في مقام المناظرة.

﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ وأتى بالاسم الأعظم إشارة إلى عظيم تعاليه عن ذلك ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ﴾ اللاتي تستنكفون أنتم من لحوقهن بكم ﴿عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾ فكان حينئذ نظره لنفسه دون نظر أقلكم فضلًا عن أجلّكم! ولذلك عظم حسنًا وتناهى بلاغة قوله: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤﴾ وعبر بالحكم لاشتهاره فيما يبت فيأبى النقض، فكان أعظم في تقريعهم حيث أطلقوه على ما لا أوهى منه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦﴾ ولما كان المراد بهذا: البرهان السمعي قال: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾ وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع، والأساليب التي وردت عليها ناطقة بتسفيه أحلام المدعي لذلك وبجهل نفوسهم، مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مثل ذلك على بال فضلًا عن أن يتخذ معتقدًا.

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾ وهم شر الطوائف ﴿نَسَبًاۚ﴾ بأن قالوا: إنه -جلت سبحات وجهه وعظم تعالى جده- تزوج بنات سروات الجن فأولد منهم الملائكة، ولما كان النسيب لا يهان قال: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨﴾ إليه بالبعث كرهًا؛ ليعاملوا بالعدل مع بقية الخلائق. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩﴾ أي: عما يصفه به جميع الخلائق المحضرون ذلك اليوم. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين يصلحون للإضافة إليه ولذا لم يضمر؛ لأن الضمير يعود على عين الماضي فربما أوهم تقييده بما تقدم ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾ ولأن هذه سورة المتجردين عن علائق العوائق عن السير إليه كرر وصف الإخلاص فيها كثيرًا.

ثم قال مسببًا عن التنزيه، مؤكدًا تكذيبًا لمن يظن أن غير الله يملك شيئًا، مواجهًا لهم بالخطاب لأنه أنكى وأجدر بالإغضاب: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على الله خاصة ﴿بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢﴾ وأما غيره فقد يُفسَد عليه من لا يريد فساده ويعجز عن رد المفسد، ولذا قدّم الجار ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ لحكمه عليه بالشقاوة.

ولما بطل بهذه الجملة قدرتهم وقدرة معبوداتهم التي يدعون لها بعض القدرة، قال مؤكدًا لذلك ومبطلًا لقدرة المخلصين أيضًا(١٣): ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ۝١٦٤﴾ فلا يقدر أحد من الخلق على أن يتجاوز ما أقامه فيه سبحانه نوع مجاوزة ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾. [ولما جاءهم البيان من الله في شأن الملائكة فلم يرجعوا] أعلم بأنهم زادوا على عيب الضلال في نفسه عيبَ الإخلاف للوعد فقال: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ﴾ أي: بذلك الذكر مع زيادته في الشرف على ما طلبوا، فلذا هددهم بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝١٧٠﴾ أي: بوعيد ليس هو من جنس كلامهم، بل هو مما لا خلف فيه بوجه.

---

(١٣) أو يقال: لما تقدم قولهم الباطل في الملائكة ونفي الدليل عليه، أخبر بحقيقة أمرهم على لسانهم في كتابه جمعًا بين الدليلين المتقدم نفيُهما عنهم، إخبارًا يبطل كونَهم بنات الله واستحقاقَهم للعبادة.

ولما كان التقدير كما أرشد إليه التهديد: فلقد سبقت كلمتنا على من خالف رسلنا بالخذلان، عطف عليه: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: الثابت نصرهم في الجدال والجلاد، وإن وقع للكفار عليهم في الثاني ظهور ما. ولما خص بذلك المرسلين، عم فقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ من المرسلين وأتباعهم ﴿لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وإن رئي أنهم مغلوبون لأن العاقبة لهم، إن لم يكن في هذه الدار ففي دار القرار، وسمى هذا كله كلمة لانتظامه معنى واحدًا، ولا يضر انهزامٌ في بعض المواطن من بعضهم ولا وهن قد يقع، وكفى دليلًا على هذا سيرة النبي ﷺ والخلفاء الثلاثة بعده.

ولما ثبت نصره ﷺ وأتباعه، سبب عنه قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾﴾ وهو الوقت الذي عيناه لنصرك في الأزل ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ كيف تؤديهم أحوالهم كلما تقلبوا إلى سفول ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾. ولما كانت عادتهم الاستعجال بما يهدَّدون به استهزاء، أنكر عليهم على وجه هو تهديد آخر فقال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ ثم قال تأكيدًا للتسلية: ﴿وَتَوَلَّ﴾ أي: في ذلك اليوم الذي ينزل بهم العذاب الثاني ﴿عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٨﴾ وَأَبۡصِرۡ﴾ أي: ما تريد من شؤونك، وأما هم فصاروا بحيث لا يبالى بهم ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

ولما تقرر بذلك أن الأمر أمره سبحانه والخلق خلقه، ثبت تنزهه عن كل نقص واتصافه بكل كمال، فكانت النتيجة: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك بإرسالك وإقامة الدليل على صدقك ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ أي: التي هو مختص بها، بما أفهمته الإضافة وأفاد شاهد الوجود وحاكم العقل، وفي إضافة الرب إليه وإلى العزة إشارة إلى اختصاصه ﷺ وكل من وافقه في أمره بالعزة وإن رئي في الظاهر غير ذلك ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

ولما قدم السلام على من خصه في هذه السورة من رسله، عمَّهم فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: الواصفين له بما هو له أهل، الموصوفين بما تقدم أول السورة؛ لأجل ما حكم لهم به سبحانه من العز والنصر ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ فهو حينئذ الواحد المعتال، المنزه عن الأكفاء والأمثال، فتوافق آخرها كما ترى مع أولها.

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقصود منها بيان ما ذكر في آخر الصافات من أن جند الله هم الغالبون، وعلى ذلك دلت تسميتها بـ«ص»، فإن معناه كما روي عن ابن عباس وغيره: الله صادق فيما وعد، أو صدق محمد ﷺ، وقرأ الحسن وغيره بكسر الصاد على أنه أمر من المصاداة وهي المعارضة، أي: عارض بما أنزلناه إليك الخلائقَ وجادلهم فإنك تغلبهم؛ لأن الصدق سيف الله في أرضه، ما وضعه على شيء إلا قطعه، وتسمى سورة داود عليه السلام وحاله أدل أحوال من فيها من الأنبياء على هذا المقصود؛ لما كان فيه من الضعف أولًا والملك آخرًا.

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: الموعظة والتذكير بما يعرف، والشرف والصدق الذي لا ريب فيه عند أحد وإن أظهر الذين كفروا الشك فيه وتنقصوه قولًا فإنهم لا يتنقصونه علمًا ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ﴾ أي: عسر ومغالبة بحمية الجاهلية مظروفون لها، فهي معمية لهم عن الحق لإحاطتها بهم ﴿وَشِقَاقٍ ۝١﴾ أي: امتناع عن قبول الصدق من لسان الحال الذي أفصح به الوجود، والمقال الذي صرح به الذكر.

وقال الإمام ابن الزبير: "لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم في العتو والتكذيب، وكان هذا مظنة لتذكير حال مشركي العرب، بسطه ليعلم أنه لا فرق بينهم في استحقاق العذاب، وقد صرح بذلك في قوله: ﴿كذبت قبلهم﴾ إلى ﴿فحق عقاب﴾ ولما أتبع سبحانه هذا بذكر استعجالهم في قوله: ﴿عجل لنا قطنا﴾ الآية، أمر نبيه ﷺ بالصبر فقال: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ ثم آنسه بذكر الأنبياء".

ولما كان للعلم في هذا الوجود طريقان: حال ومقال، فأما الحال فهو ما تنطق به أحوال الموجودات من علوم، وأما المقال فهو هذا الذكر الذي هو ترجمة عن جميع الوجود، وكان سبحانه قد قدم الذكر لأنه أظهر فأعرضوا عنه، أتبعه ما أفصح به لسان الحال من الإهلاك فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ﴾ بأسباب النجاة من الإيمان والتوبة، أو: من ينقذهم، أو: ذعرًا ودهشة من غير قصد منادى فيكون الفعل لازمًا، ولما كانت التوبة إنما تنفع عند الاختيار لا الاضطرار، قال مؤكدًا لهذا المعنى في جملة حالية: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٢﴾ أي: فرار فضلًا عن النجاة.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ﴾ وكان ينبغي لهم أن لا يعجبوا فإن كون النذير من القوم المنذَرين مع كونه أشرف لهم، أقعد في النذارة؛ لأنهم أعرف به وبصدقه وشفقته وغير ذلك ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا﴾ ولما كان ما يبديه من الفعل والقول جاذبًا للقلوب، قدحوا به في السحر فقالوا: ﴿سَٰحِرٞ﴾ ولم يعبروا بصيغة مبالغة لئلا يكون إيضاحًا جاذبًا للقلوب إليه ﴿كَذَّابٌ ٣﴾ أي: في ادعائه أن ما سحر به حق ليس كسحر السحرة، وأتوا بوقاحة بصيغة المبالغة وقد كانوا قبل ذلك يسمونه الأمين، وهم يعلمون أنه لم يتجدد له شيء إلا إتيانه بأصدق الصدق وأحق الحق.

ولما ذكر قولهم الناشئ عن عجبهم، ذكر سببه ليعلم أن حالهم هو الذي يعجب منه لا حال من أنذرهم، بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ بل العجب ممن يقبل تكثّر الإلٰه! ولذلك أكدوا قولهم، وإعلامًا لضعفائهم تثبيتًا لهم بأنهم على غاية الثقة والاعتقاد لما يقولون، لم يزلزلهم ما رأوا من منذِرهم مما يدل على صدقه من أحوال سموها سحرًا لعجزهم عنها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ﴾ ولما كان ما فعلوه لا يفعله عاقل، فربما ظن السامع أن المنطلق منهم أسقاط من الناس من غيرهم قال: ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي: لا من غيرهم، فكيف بالأسقاط منهم وكيف بغيرهم!

﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ قال القشيري: "وإذا تواصى الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم"، ولما كان كل منهم قد أخذ الذكرُ قلبَه، فهو خائف من صاحبه أن يكون قد استحال عن اعتقاده بما يعرف من تزحزحه في نفسه، أكدوا قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الصبر على عبادة الآلهة ﴿لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾ أي: هو أهل للإرادة فلا ينفك عنه، أو: شيء يريده هو ولا نعلمه نحن على ما لنا من الحذق، فهو شيء لا يعلم في نفسه.

﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وتقييدهم لها يدل على أنهم عالمون به في الملة الأولى، وأنهم عارفون بأن إبراهيم عليه السلام وأولاده الذين هم آباؤهم إلى عمرو بن لحي، كانوا على التوحيد ويعرفون البعث ولكنهم تناسوه، كما قال عبيد بن الأبرص:

أنتَ المليكُ عليهِمُ وهُمُ العبيدُ إلى القيامةْ

وروى البخاري في فتح مكة عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخرج من البيت صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزلام فقال: «قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط»، فبطل ما يقال من أن أهل الفترة جهلوا جهلًا أسقط عنهم اللوم، ويؤيده ما في الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار» ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٦﴾ مع أنه لا ملازمة بين عدم سماعهم فيها وبين كونه اختلاقًا، بل هو قول تعرف معانيه بأدنى تأمل، وفي التفاسير أنهم قالوا: كيف يسع الخلق كلهم إله واحد!

ولما كان مرادهم بهذه التأكيدات الدلالة على ثباتهم على ما كانوا عليه، وأبى الله أن يبقي باطلًا بغير أمارة يقرنه بها تفضحه، أتبع قولهم الذي جعلوه دليلًا على جزمهم: ما يدل على كذبهم، بأن الحامل لهم على تكذيبه إنما هو الحسد فقال: ﴿أَءُنزِلَ﴾ وقدموا ما يدل على اختصاصه ﷺ عنادًا لما يعلمون من أحواله المقتضية لذلك بخلاف ما في القمر، فقالوا: ﴿عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَل﴾ أي: هم ليسوا جازمين بما قالوا وإن أكدوه غاية التأكيد، بل ﴿هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ﴾ ولما كانوا في الحقيقة على ثقة منه وإن كان حالهم حال الشاك قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٧﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ليخصوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف: ٣٢] ولما كان لا يصلح للربوبية إلا الغالب لكل ما سواه، المفيض على من يشاء ما يشاء، قال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٨ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟﴾ إن كان لهم ذلك ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝٩﴾ أي: الطرق الموصلة إلى السماء فيدبروا العالم فيخصوا من شاؤوا بالرسالة؛ ليُعلم أنه لا يسوغ لأحد أن يختص دونهم بشيء.

ولما انتفى عنهم بما مضى وعن كل من يدّعون خصائصُ الإلهية، قال مخبرًا عن مبتدأ حذف لوضوح العلم به: ﴿جُندٌ مَّا﴾ أي: ليسوا في شيء مما مضى، وإنما هم جند حقيرون ﴿هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ أي: له الانهزام صفة ثابتة ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١٠﴾ أي: الذين جرت عادتهم عزة وشقاقًا بالتحزب على الأنبياء، ثم تكون عليهم الدائرة.

وبين الأحزاب الماضية بذكر الأمم التي كان بها من القوة والملك ما ليس لغيرهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١١ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ﴾

ثم عظم أمرهم؛ تهوينًا لأمر قريش وردعًا لهم بالحث على استحضار عذابهم فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: العظماء في التحزب على من يناوونه ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣﴾.

ولما كانوا لما عندهم من العناد وحمية الجاهلية ربما ادعوا أن هلاك هؤلاء إنما هو عادة الدهر، قال مؤكدًا بأنواع التأكيد: ﴿إِن﴾ أي: ما ﴿كُلٌّ﴾ من هذه الفرق كان لهلاكه سبب ﴿إِلَّا﴾ أنه ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٣ وَمَا﴾ ولما كانوا في شدة العناد والاستكبار وتعاطي جميع أسباب العذاب كأنهم ينتظرونه ويستعجلونه قال: ﴿يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً﴾ وحقر أمرهم بالإشارة إلى أن أقل شيء من عذابه كافٍ في إهلاكهم فقال: ﴿وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ١٤﴾ أي: مزيد، قال الصغائي: "والفُواق والفَواق: ما بين الحلبتين من الوقت"، قال في القاموس: "أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع"، فالمعنى: ما لها من رجوع، ففي ذلك تعظيم أقل شيء من عذابه وتحقير أعلى شيء من أمرهم.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ واشتقاقه من القَطّ وهو القطع، فكأنهم قالوا: عجل من ذلك ما يكون مقطوعًا به قاطعًا لنا، فإنا لا نرجع عنه لشيء أصلًا ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٥﴾.

ولما كان مرادهم المبالغة في الاستهزاء بين أن عادته الابتلاء للصالحين رفعة لدرجاتهم، فقال حاثًا على العمل بأعمالهم، آمرًا بالحلم ومحذرًا من العجلة، وبدأ بأهل الشرف لأن السياق لشرف القرآن الذي يلزم منه شرف صاحبه، تعريفًا بأنه لا يلزم من الشرف الراحة في الدنيا، ومنبهًا على أن شرفه مُحوِج بكثرة الأتباع إلى الحكم في الخصومات الذي لا قوام له إلا بالحلم والأناة والصبر: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا﴾ وزاد في الحث عليه بالمضارع فقال: ﴿يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي: القوة العظيمة في تخليص نفسه من علائق الأجسام، فكانت قوته في ذلك سببًا لعروجه إلى المراتب العظام.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٦﴾ أي: رجاع إلى الله كل لحظة بما يكابد من المجاهدات والمحاولات، ليصير إلى ما خلقه عليه من أحسن تقويم. وبين جزاءه على ذلك الجهاد بقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٧ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٨﴾ وأفرد إشارة إلى غاية الطواعية في التأويب حتى كأنها الشيء الواحد. ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ ولما كان أعظم المثبتات للملك المعرفة قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: النبوة التي ينشأ عنها العلم بالأشياء على ما هي عليه، ووضع الأشياء في أحكم مواضعها، فالحكمة العمل بالعلم، ولما كان

تمامه بقطع النزاع قال: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ١٩﴾ أي: ومعرفة الفرق بين المتشابهات بديهة من غير روية، فيفرق بينها ويقف على المفاصل ويضع الشيء في أحكم مبانيه، بحيث لا يدع لبسًا يمكن أن يكون معه نزاع لغير معاند.

ولما كان الظن بمن أوتي فصل الخطاب ألا يقع له لبس في حكم ولا عجلة في أمر، قال مبينًا عواقب العجلة معلمًا أن على من أعطي المعارف ألا يزال ناظرًا إلى من أعطاه ذلك، سائلًا له التفهيم استعجازًا لنفسه، متصورًا لمقام العبودية التي كرر التنبيه عليها في هذه السورة بنحو قوله: ﴿نعم العبد﴾: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ٢٠﴾ جاؤوه في يوم العبادة ومن غير الباب، فخالفوا عادة الناس في الأمرين.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وإنما سألاه ذلك مع العلم بأنه لا يحكم إلا بالعدل؛ ليكون أجدر بالمعاتبة عند أدنى هفوة ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تُبعِد لا في العبارة عن ذلك بحيث يلتبس علينا المراد ولا في غيره، أو: لا تمعن في تتبع مداق الأمور فإني أرضى بالحق على أدنى الوجوه، ولذا أتى به من الرباعي، والثلاثي بمعناه، وفك الإدغام إشارة إلى أن النهي إنما هو عن الشطط الواضح ﴿وَٱهْدِنَا إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢١﴾ فلا يكون ميل إلى الإفراط في تتبع مداق الأمر، أو التفريط في إهمال ذلك. ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى﴾ أي: اشتد وأغلظ بي ﴿فِى ٱلْخِطَابِ ٢٢﴾ إلى أن أملّني فسكتُّ عجزًا عن التمادي معه، ولم يقنع مني بشيء دون مراده.

﴿قَالَ﴾ وذلك أنه لما رأى الخصم قد سكت ولم ينكر، وربما أظهر هيئة تدل على تصديقه، قال ذلك فعوتب وإن كان له مخرج، تدريبًا على التثبت في القضاء وأن لا ينحى نحو القرائن ولا يقنع فيه إلا بمثل الشمس ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ بنفسه أو بغيره نيابة عنه، ولذا لم يقل: بسؤاله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ أي: فكونا منهم ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ بذهابهم قبل فصل الأمر أنه لا خصومة بل ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: اختبرناه، وأنه بادر إلى نسبة المدعى عليه إلى أنه ظلم قبل أن يسمع كلامه ويسأله المدعي الحكم فعاتبه الله على ذلك، والأنبياء عليهم السلام لعلو مقاماتهم يعاتبون على مثل هذا.

وفيه أنه يجوز للشخص أن يقول ما لم يقع إذا انبنى عليه فائدة عظيمة تعيّن ذلك الكلام طريقًا للوصول إليها، أو كان أحسن الطرق مع خلو الأمر عن فساد، وهذا مثل قول سليمان عليه السلام: «ائتوني بالسكين أشقه بينهما» وليس مراده إلا ما يلزم عن ذلك من معرفة الصادقة والكاذبة، وتحقيقه: أنه لا ملازمة بين الكلام وإرادة المعنى المطابقي لمفردات ألفاظه بدليل لغو اليمين، وقولُ النبي ﷺ: «عقرى حلقى» «تربت يمينك» «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد» مشيرٌ إلى أن الكلام قد لا يراد به معناه، ومن هنا كانت ألفاظ الكنايات لا يقع بها شيء إلا إن اقترن بقصد المعنى.

وليس المراد قصة المرأة التي على كل مسلم تنزيه الأنبياء عن مثلها، وقال الزمخشري: "وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علي بن أبي طالب: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء"، وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام لأن عيسى عليه السلام من ذريته فيطعنوا فيه.

ولما ظن هذا، سبب له تحقيق ما وصفه الله من الأوبة فقال: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ من أن يعود للحكم للأول بدون أن يسمع الآخر ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدًا؛ لأن الخرور لا يكون إلا للسقوط على الأرض، ولأن النبي ﷺ سجد في «ص» وقال: «سجدها داود توبة ونسجدها شكرًا»، وعبر بالركوع عن السجود؛ ليُفهِم أنه كان عن قيام وأنه في غاية السرعة لقوة الاهتمام به بحيث إنه وصل إلى السجود في مقدار ما يصل غيره إلى الركوع ﴿وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٣﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ أي: مع الغفران ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٤﴾﴾ فهذا مُعلِم بأن هذه القضية إنما ذكرها للترقية في رتب الكمال.

وأدل دليل على أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم لا بامرأة ولا غيرها، وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر، فكم من باطل مشهور هو عين الزور = قوله تعالى عقبها على هيئة الاستثمار منها: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقوة بمعنى أنه مهما حكم فيها صح، وبالفعل بابنه سليمان عليه السلام، فاستوفى الإطلاق و«ال» إعلامًا بأن كلام القدير كله كذلك وإن لم يظهر في الحالة الراهنة.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ ولما كان أعدى عدو للإنسان نفسه التي بين جنبيه؛ لما لها من الشهوات، وأعظم جناياته وأقبح خطاياه ما تأثر عنها من غير استناد إلى أمر الله، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ﴾ أي: ذلك الاتباع أو الهوى؛ لأن النفس إذا مرنت على ذلك صار لها خلقًا فغلب صاحبها عن ردها عنه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: طريقه التي شرعها للوصول إليه، ولا يوصل إليه بدونها؛ لأن اتباعه يوجب الانهماك في اللذات الجسمانية والإهمال لتكميل القوى الروحانية الموصلة إلى السعادة الأبدية، فإن دواعي البدن والروح متضادتان، فبقدر زيادة إحداهما تنقص الأخرى.

ثم قال معللًا للنهي مؤكدًا؛ لما للنفس من التعلل عند المخالفة بالكرم والمغفرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ ولما عُلم أن سبب الضلال الهوى، ذكر سبب هذا السبب فقال معبرًا بالنسيان، إشارة إلى أنه من شدة ظهوره كما كان **محفوظًا** فنسي: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٥﴾ بالإنكار أو خبث الأعمال، وقال الغزالي في الإحياء: "وكأن التذكر ضربان: **أحدهما** أن يذكر صورة حاضرة في قلبه لكن غابت بعد الوجود، **والآخر** أن يكون عن صورة كانت متضمنة فيه بالفطرة".

ولما كانت العظمة تأبى غير الجد العظيم قال(١٤): ﴿وَمَا خَلَقۡنَا﴾ ولما كان السياق لما وقع من الشقاق عنادًا لا جهلًا ذكر من السماوات ما لا يمكن النزاع فيه فقال: ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ أي: لغير غاية من الفصل والحساب؛ لأنه يكون حينئذ لا حكمة فيه؛ لأن خلقه إما للضر أو النفع أو لا لواحد منهما، والأول باطل لأنه غير لائق بالرحيم، والثالث باطل لأنه في حال العدم كذلك فلا مرجح للإيجاد، فتعين النفع، وهو لا يكون بالدنيا لأن ضرها أكثر، وتحمّل ضر كثير لنفع قليل غير لائق بالحكيم فتعين نفع الآخرة، وعظّم هذا الظن بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ ومن جحد الحكمة فقد سفّه الخالق، فكان إقراره بأنه خالق كلا إقرار، فكان كافرًا به ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٦﴾.

ولما كان يلزم من ترك البعث: التسوية بين ما حقه المفاوتة، وذلك أشد من العبث، أتبعه بقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ

---

(١٤) أو يقال: لما ذكر الذين نسوا يوم الحساب، أقام عليه دليلين: شهودي بالخلق وعقلي بالعدل، والله أعلم.

كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ وهي من الاحتباك: فإنه ذكر ﴿الذين آمنوا﴾ أولًا دليلًا على «الذين أفسدوا» ثانيًا، وذكر ﴿المفسدين﴾ ثانيًا دليلًا على «المؤمنين» أولًا، وأفهم ذلك ذكر «الذين اتقوا» وأضدادهم، وسر ما ذكر وما حذف: أنه ذكر أدنى أسنان الإيمان تنبيهًا على شرفه وأنه سبب السعادة وإن كان على أدنى الوجوه، وذكر أعلى أحوال الفساد إشارة إلى أنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وذكر أعلى أحوال التقوى إيماء إلى أنه لا يوصف بها ويستحق جزاءها إلا الراسخ فيها، ترغيبًا للمؤمن في أن يترقى إلى أوجها.

ولما ثبت بما ذكر من أول السورة إلى هنا شرف هذا الذكر، قال تنبيهًا على أنه القانون الذي يعرف به الصلاح والفساد: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: لينظروا في عواقب كل آية وما تؤدي إليه من المعاني الباطنة التي أشعر بها طول التأمل في الظاهر، فمن رضي بالاقتصار على حفظ حروفه كان كمن له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نتوج لا يستولدها، وكان جديرًا بأن يضيع حدوده فيخسر خسرانًا مبينًا، ولما لم يكن في وسع كل أحد الوصول إلى النهاية في ذلك، قنع منهم بما دونها فأدغم.

ولما كان استحضار ما كان عند الإنسان وغفل عنه لا يشق لظهوره، أظهر التاء حثًا على بذل الجهد في إعمال الفكر والمداومة على ذلك فإنه يفضي إلى اليقين، فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٨﴾﴾ مما عرفه الله لهم في أنفسهم وفي الآفاق، فإنهم يجدون ذلك معلومًا لهم في أنفسهم أو غيرها، لا يخرج شيء مما في القرآن عن النظر إلى شيء معلوم للإنسان لا نزاع له فيه أصلًا، ولكن الله تعالى يبديه لمن يشاء ويخفيه عمن يشاء ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت: ٥٣].

ولما كان الإنسان وإن أطال التدبر وأقبل بكليته على التذكر لا بد له من نسيان وغفلة، وكان الممدوح إنما هو الرجاع قال: ﴿۞وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ ولما كان السياق لسرعة الانتباه من الغفلات، وبيان أن الابتلاء ليس منحصرًا في العقوبات بل قد يكون لرفعة الدرجات، وكان هذا بعيدًا من العادات، قال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٢٩﴾﴾.

ودل على أنه أواب مع ما له من عظمة الملك؛ لأن من لم يكن ذلك له طبعًا لم يقدر على ما فعل فقال: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣٠﴾﴾ فلم تزل تُعرض حتى فاتته صلاة آخر النهار، وكان المفروض على من تقدمنا ركعتين أول النهار وركعتين آخره، فانتبه

في الحال ﴿فَقَالَ﴾ ولما كان اللائق به والمعروف منه أنه لا يؤثر على ذكر الله شيئًا فلا يكاد أحد يظن به ذلك بل يحملونه على ما يليق بما يعرفونه منه، أكد قوله تواضعًا لله، ليعتقدوا أنه يجوز عليه ما يجوز عليهم لولا عصمة الله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣١ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾ أي: قطعًا عظيمًا بالسيف، متقربًا به إلى الله كما نتقرب بالضحايا ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٢﴾.

ولما كانت هذه أوبة عظيمة جدًا، قال مؤكدًا؛ لما طبعت عليه النفوس من ظن أن الأواب لا ينبغي أن يواجه بالعتاب: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ والله أعلم بحقيقة الفتنة، فأسفرت عن رسوخه في مقام الأوبة، فتنبه لما أردنا بها من تدريبه على ما أقمناه فيه كما فعلنا بأبيه داود عليهما السلام، فاقتد بهما في الاستبصار بالبلاء ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾ ولما كانت العبرة إنما هي بالمعاني قال: ﴿جَسَدٗا﴾ وأطلق ليعرّف أنه لا معنى له لا أنه لا روح فيه، بخلاف العجل فإنه قيد بقوله: ﴿له خوار﴾ [طه: ٨٨] ليبين أنه جماد لا روح له.

﴿ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٣ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ حتى أتمكن من كل ما أريد من التقرب إليك وجهاد من عاداك، ويكون أمارة لي على قبول توبتي، ولا تحصل لي فتنة بإلقاء شيء على مكان حكمي ولا غيره، وهذا يشعر بأن الفتنة كانت في الملك، وكذا ذِكر الإلقاء على الكرسي مضافًا إليه من غير أن ينسب إليه عليه السلام شيء، ثم قال مؤكدًا؛ إسقاطًا لما غلب على النفوس من التقيد بالأسباب: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٤ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ عوضًا عن الخيل التي خرج عنها لأجلنا، وكل من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٥ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٦ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٧﴾. ونبه على عظمته بعظم مؤتيه فقال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٨ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٣٩﴾.

ولما كان أيوب عليه السلام في ثروة الملوك وإن لم يكن ملكًا بالفعل، وكان قد قص على نبيه ﷺ من أخبار الأوابين تعليمًا لحسن الأوبة إن وهن الصبر، أتبعه الإخبار عن الصابر الأواب الذي لم يتأوه إلا من وسوسة الشيطان لزوجه، ليزداد بهذه الأخبار صبرًا، اقتداء بإخوانه الذين لم تشغلهم عنه منحة السراء ولا محنة الضراء، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: الذي عرف إحسانه إليه في تربيته ببلائه، كما عرف امتنانه بظاهر

نعمائه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ ونكره تنكير التعظيم استغناءً به عن جمل طوال ودعاء عريض، إعلامًا بأن السيل قد بلغ الزبى.

وذلك أن الله تعالى سلط الشيطان على إهلاك أهله وولده وماله ثم بدنه إلى أن سقط لحمه فصبر على ذلك مددًا طوالًا، ثم تراءى لزوجه رضي الله عنها في زي طبيب وقال لها: أنا أداويه، ولا أريد إلا أن يقول لي إذا عوفي: أنت شفيتني، وقيل: قال لها: لو سجد لي شفيته، فحدثته بذلك فعرّفها أنه الشيطان وحذرها، وخاف غائلته عليها فدعا الله بما تقدم، وشدد النكير لما وسوس لها به بأن حلف ليضربنها مئة ضربة.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ﴾ يبرد حر الظاهر ﴿وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾ يبرد حر الباطن. ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ أي: الذين سُلِّط عليهم الشيطان بأن أحييناهم ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ جددناهم له، ليعلم من يسمع ذلك أنه لا عبرة بشيء من الدنيا، وأنها وكل ما فيها عرض زائل لا ثبات له أصلًا إلا ما كان لنا فإنه من الباقيات الصالحات.

ثم علل سبحانه فعله ذلك بقوله: ﴿رَحۡمَةٗ﴾ ولما كان في مقام الحث على الصبر قال: ﴿مِّنَّا﴾ فإنه أعظم من التعبير في سورة الأنبياء بعندنا، ليكون ذلك أحث على لزوم الصبر، وإذا نظرت إلى ختام الآيتين عرفت تفاوت العبارتين(١٥) ولاح لك أن مقام الصبر لا يساويه شيء؛ لأن الطريق إليه سبحانه لا ينفك شيء منه عن صبر وقهر للنفس، لأنها بالإجماع خلاف ما تدعو إليه الطباع ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣﴾ ليتأسى به كل مبتلى، فإن رحمة الله واسعة وهو عند القلوب المنكسرة، فما بينه وبين الإجابة إلا حسن الإنابة.

ولما كان قد حلف ليضربنها مئة لئلا تعود إلى ذلك فيزلها كما أزل غيرها، أرشده إلى المخلص من ذلك الحلف على أخف وجه؛ لأنها كانت صابرة محسنة فشكر الله لها ذلك، وجعل هذا المخلص بعدها سنة باقية تعظيمًا لأجرها وتطييبًا لذكرها فقال: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ فهذا تخفيف عليهما لصبره، ولعل الكفارة لم تكن فيهم.

ثم قال مستنتجًا مما تقدم، ردًا على من يظن أن الشكوى إليه تنافي الصبر، وإشارة إلى أن السر في التذكير به التأسي في الصبر: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤ وَٱذۡكُرۡ

---

(١٥) ﴿وذكرى للعابدين﴾ الأنبياء: ٨٤.

عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾ أي: القوة الشديدة والأعمال السديدة؛ لأنها أعظم آلاته ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ التي هي حقيقة بالذكر والمدح؛ لقوة إدراكها وعظمة نفوذها فيما هو جدير بأن يراعى من جلال الله ومراقبته، وعبر عن ذلك بالأبصار لأنها أقوى مبادئه. ولما تشوف السامع لما استحقوا به هذا الذكر قال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي: أعمال وبلايا سالمة عن شوبٍ ما، فصاروا بالصبر عليها في غاية الخلوص، ولما كان سبب الإخلاص تذكر يوم الدين وما يبرز فيه من صفات الجلال والجمال قال: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: ذكرهم لها خالص، فهم لا يعملون شيئًا إلا ما يقرب للآخرة.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي: المبالغ في تصفيتهم، وإصابتنا إياهم بالمصائب دليل ذلك لا دليل عكسه، وسر ذكر ﴿أخلصناهم﴾ أولًا و﴿المصطفين﴾ ثانيًا: أن الإخلاص يلزم منه الاصطفاء لا سيما إذا أسنده إليه بخلاف العكس، بدليل: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ [فاطر: ٣٢] ﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٦﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين من الأنبياء ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: العريقين في كل خير، على أن الصبر جامع لجميع الطريق، فهم الذين يجب الاقتداء بهم في الصبر على الدين ولزوم طريق المتقين.

ثم قال مؤكدًا لشرفهم وشرف ما ذُكِروا به، مبينًا ما لهم في الآخرة على ما ذكر من أعمالهم، وما لمن نكب عن طريقهم: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾ أي: شرف وموعظة ﴿وَإِنَّ﴾ وأظهر الوصف الذي أداهم إلى هذا المآب، تعميمًا لكل من اقتدى بهم، حثًا على الاقتداء فقال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٨﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٤٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: كلما أرادوا من غير مانع ولا حاجة إلى قيام ولا قعود يترك به الاتكاء.

﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٠﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: طرفِهن لعفتهن، وطرفِ أزواجهن لحسنهن ﴿أَتْرَابٌ ﴿٥١﴾﴾ على سن واحد مع أزواجهن وهو الشباب، سمي القرين تربًا لمس التراب جلده وجلد قرينه في وقت واحد، لأن التآلف بين الأقران أشد، ولفت الكلام للتلذيذ بالخطاب، تنشيطًا للهمم وإيقاظًا للقلوب فقال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: المشار إليه إشارة الحاضر ﴿لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٣﴾﴾.

ولما كانت النفوس نزاعة للهوى ميالة للردى، فكانت محتاجة إلى مزيد تخويف وشديد تهويل، قال متوعدًا لمن ترك التأسي بهؤلاء: ﴿هَٰذَاۚ﴾ أي: الأمر العظيم الذي هو جدير بأن يجعل نصب العين ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ أي: الذين لم يصبروا على تنزيلهم أنفسَهم في منازلها بالصبر على ما أُمروا به، فرفعوا أنفسهم فوق قدرها ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾ لأن فائدة الفراش تنعيم الجسد، وهذه تذيب الجلد واللحم ثم يعود كلما ذاب، عقوبة لهم ليريهم الله ما كانوا يكذبون به من الإعادة، عكس ما لأهل الجنة من التنعيم بإعادة كل ما قطعوا من فاكهتها وأكلوا من طيرها، لأنهم يعتقدون الإعادة فنالوا هذه السعادة. ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧﴾ ولما كان في النار ما لا يعد من أنواع العقاب، قال عاطفًا على ﴿هذا﴾: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾.

ولما أفهم هذا أنهم أصناف كثيرة، وكانت العادة أن الأصناف إذا اجتمعوا تحاوروا، دل على تقاولهم بأقبحه وهو التخاصم الناشئ عن التباغض والتدابر، الذي من شأنه أن يقع بين الذين دبّروا أمرًا فعاد عليهم بالوبال، في أن كلًا منهم يحيل ما وقع به على صاحبه وذلك أشد لعذابهم، فقال الطاغون لما رأوا جمعًا من الأتباع داخلًا: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ﴾ ولما كانوا يدخلونها من شدة ما تدفعهم الزبانية على هيئة الواثب قال: ﴿مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ ولما كان أهل النار يؤذي بعضهم بعضًا بالزفير والزحام والعويل وما يسيل من القيح والصديد وغير ذلك قالوا: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾.

ولما كانت هيبة المتبوعين تمنع أتباعهم في الدنيا من الجواب عادة، ذكر ما يُعلم منه انقطاع الأسباب هناك فلا يخاف أحد من آخر فقال: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ بما أقحمتمونا فيه من أسبابه وقدمتم في دار الغرور من تزيينه ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٦٠﴾.

ولما علموا أنهم لا يقدرون على الانتقام: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾ معبرين بالظرف لإفهام الضيق الذي تقدم الدعاء به في قولهم: ﴿لا مرحبًا﴾ فهو أبلغ مما في الأعراف[١٦]؛ لأن السياق للطاغين وهناك لمطلق الكافرين. ولما ذكر من حالهم ما دل على خزيهم وحسرتهم، أعلم بما دل على زيادة ذلك بمعرفتهم بنجاة المؤمنين الذين كانوا يهزؤون بهم ويذلونهم فقال: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝٦٢

(١٦) في قوله تعالى: ﴿فآتهم عذابًا ضعفًا من النار﴾ الآية: ٣٨.

﴿ٱتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ وكأنهم إلى تجويز كونهم في النار ولم يروهم أميل فقالوا: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾.

ولما كانت قد جرت عادتهم عند التخويف أن يقولوا: عجل لنا هذا إن كنت صادقًا، ومن المقطوع به أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله، قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ بكل اعتبار ﴿ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥﴾ لغيره على ما يريد؛ لأنه الإلٰه وحده. ودل على ما وصف به نفسه بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجمع لأن المقام للقدرة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الذي يعز الوصول إليه، ويغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، ولما كان موضع قولهم: فما له لا يعجل بالهلاك لمن يخالفه، قال: ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾.

ولما ثبت بهذا وحدانيته وقدرته ولم يزعهم ذلك عن ضلالهم، قال منبهًا لهم على عظيم خطئهم: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ لا يعرض عن مثله إلا غافل. ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ۝٦٨﴾ وقد كان ينبغي لكم الإقبال عليه خاصة والإعراض عما عداه لأن في ذلك السعادة الكاملة، ولو أقبلتم عليه لعلمتم صدق الرسول فبادرتم إلى القبول.

ثم دل على صدقه وعظيم نبئه بقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ في شأن آدم عليه السلام، كما أنه ما كان لي من علم بأهل النار ولا خصم داود عليه السلام، وقد علمت ذلك علمًا مطابقًا للحق بشهادة الكتب القديمة، وأنتم تعلمون أني لم أخالط عالمًا قط، فهذا عَلَمٌ في أني لم أعلمه إلا بالوحي، وعبر بالمضارع وإن كان قد مضى تذكيرًا بذلك الحال، وفي تخاصم أهل النار بالماضي وهو لم يأت تحقيقًا لوقوعه. ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ أي: لا أدع لبسًا فيما أبلغه.

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١﴾ وإن كان في ذلك فساد؛ لأني أريد أن أظهر حلمي ورحمتي وعفوي وغير ذلك من صفاتي التي لا يحسن في الحكمة إظهارها إلا مع الذنوب «لو لم تذنبوا فتستغفروا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»، قال القشيري: "وإخباره للملائكة بذلك يدل على تفخيم شأن آدم عليه السلام؛ لأنه خلق ما خلق ولم يقل في صفة شيء منها ما قاله في صفة آدم وأولاده، ولم يأمر بالسجود لغيره". ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ للتكرمة، ففعلوا ما أمرهم

به سبحانه من غير توقف ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ من الإبلاس وهو انقطاع الرجاء، إشارة إلى أنه كان على كيفية علم منها تأبد الغضب عليه.

ولما كان مبنى السورة على استكبار الكفرة، بين أن المانع له من السجود الكبر تنفيرًا عنه، مقتصرًا عليه وعلى ما يتصل به فقال: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ فكفر وأظهر ما كان مجبولًا عليه، ولذا قال: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ أي: عريقًا في الكفر الذي منشؤه الكبر على الحق المستلزم للذل للباطل، فالآية من الاحتباك: ذكر فعل الاستكبار أولًا دليلًا على فعل الكفر ثانيًا، ووصف الكفر ثانيًا دليلًا على وصف الاستكبار أولًا، وسر ذلك أن ما ذكره أقعد في التحذير بأن من وقع منه كبر جره إلى الكفر.

﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ في تثنيته إشارة إلى أنه ربما أظهر فيه معاني الشمال، وإن كان كل من يديه مباركًا، وقال بيانًا لأنه يلزمه لا محالة -زيادة على ما كفر به- أن يكون على أحد هذين الأمرين: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: طلبت أن تكون أعلى منه وأنت تعلم أنك دونه فأنت بذلك ظالم، فإن من اجترأ على أدناه أوشك أن يصل إلى أعلاه ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ أي: المستحقين للكبر وأنا لا أعلم ذلك فنقصتك من منزلتك فكنت جائرًا في أمري لك بذلك، فلذلك علوت بنفسك فلم تسجد له.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾. ولم يقدح في جوابه؛ لظهور سقوطه بأن المربوب لا اعتراض له على ربه بوجه فقال: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: الجنة محل الطهر عن الأدواء الظاهرة والباطنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾. ولما خُذل بالتمادي في الطغيان، طلب ما يزداد به لعنة فقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ قال القشيري: "ولو عرف عزته لما أقسم بها على مخالفته".

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ۞قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ أي: فبسبب ذلك أقول الحق ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ أي: لا غيره أبدًا ﴿أَقُولُ﴾ وعلى قراءة ﴿فالحقُّ﴾ يكون هو المقسم به، وجواب القسم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾ وهذا الخصام الذي كان بين الملأ الأعلى كشف لهم علومًا كثيرة، وسببه والله أعلم: الاختلاف في مقادير الأعمال الباطنة

التي كان سبب علمهم بها الاختصام في أمر آدم وما نشأ عنه من تفصيل أمور دقيقة مظهرة لأن الفضل ليس بالأمور الظاهرة بل بما يهبه الله من الأمور الباطنة.

ولما تم الدليل على صدقه في نسبة النبأ العظيم إلى الله، وحذّر من اتباع إبليس، أمر بالبراءة من طريقه فقال: ﴿قُلْ مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وعبر بأداة الاستعلاء للاحتراز عن المودة في القربى وحسن الاتباع، فإنهما مسؤولان وهما روح الدين، ولكن سؤالهما ليس مستعليًا على الإبلاغ بحيث ينتفي لو انتفيا ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: المتحلين بما ليسوا من أهله كإبليس، فإذا لم أكن كذلك علم أني مأمور بما أنا فيه من قول وفعل ، فكل من قال أو فعل ما لم يؤمر به فهو متكلف.

ولما أثبت ما يقتضي أنه من عند الله وأزال الموانع، بين حقيقته فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٦﴾﴾ في الدنيا إذا ظهر عبادي عليكم وفي الآخرة مطلقًا، وإنما أخروا إلى حين ليبلغ في الإعذار إليهم وتتناهى ذنوبهم التي يستحقون الأخذ بها، ولقد والله علموا ومن بعدهم ذلك بما بث فيه من العلوم.

فقد أثبتت هذه الآية من كون القرآن ذكرًا ما أثبتته أول آية فيها مع زيادة الوعيد، فانعطف الآخر على الأول، ونظر إلى أول الزمر النظر الأكمل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على أنه تعالى صادق الوعد ويضع الأشياء في أوفق محالها، وعلى ذلك دلت تسميتها «الزمر»؛ لأنها إشارة إلى أنه أنزل كلًا من المحشورين داره بعد الحكم بينهم بما استحقته أعمالهم، عدلًا في أهل النار وفضلًا على المتقين الأبرار، وكذا تسميتها «تنزيل» لمن تأمل آيتها، وكذا «الغرف»؛ لأنها إشارة إلى حكمه سبحانه في أهل الظلل النارية والغرف النورية، تسميةً للشيء بأشرف جزئيه، فالقول فيها كالقول في الزمر سواء.

لما ختم «ص» بأن القرآن ذكر للعالمين، وأن كل ما فيه لا بد أن يرى لأنه واقع لا محالة، علل ذلك بأنه ﴿تَنزِيلُ﴾ أي: بحسب التدريج لموافقة المصالح في أوقاتها ﴿ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ الذي يضع الأشياء في محالها التي هي أوفق لها.

وقال ابن الزبير: "لما بنيت سورة ص على ذكر المشركين وعنادهم، ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم، وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب، ولما حرك تعالى إلى الاعتبار بعظيم هذه الآيات وكانت أوضح شيء وأدل شاهد، عقب ذلك بما يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد وضوح الدلائل".

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ وأظهر موضع الإضمار تفخيمًا بالتنبيه على ما فيه من جمع المعارف فقال: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الجامع لكل خير، متلبسًا ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو مطابقة الواقع لجميع أخباره فالواقع تابع لها ولا حلية له ولا لباس إلا الحق، فلا دليل أدل على كونه من عنده أكثر من ذلك ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ قال الرازي: "قال الجنيد: الإخلاص أصل كل عمل، وهو مربوط بأول الأعمال وهو تصفية النية، ومنوط بأواخرها بأن لا يلتفت إليها".

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ لأنه له الأمر والخلق لا يشركه فيه أحد، فكما تفرد بأن خلقك وخلق كل ما لك فينبغي أن تفرده بالطاعة، ولأنه إذا عبده أحد مخلصًا كفاه كل شيء، وأما غيره فلو أخلص له أحد لم يكفه شيئًا فضلًا عن كل شيء، والدين الذي هو أهل للإخلاص هو الإسلام الكائن في كل ملة، المثبت بالإخلاص المحض، الناشئ من المراقبة في

جميع ما يرضي الشارع للدين أو يسخطه، وإنما استحقه سبحانه دون غيره لأنه هو الذي شرعه ولا أمر لأحد معه، فكيف يشركه من لا أمر له بوجه من الوجوه!

قال ابن بَرَّجان: "وترك الإخلاص مولد عن حب البقاء في الدنيا ونسيان لقاء الله وذلك من الشرك، **وهو ثلاثة أنواع**: شرك في الإلهية وهو أن يرى مع الله إلهًا آخر، **الثاني**: شرك في العبادة بالرياء وإضافة العمل إلى النفس، **والثالث**: الشرك الخفي وهو الشهوة الخفية، وهو أن يخفي العمل ويحب لو اطُّلع عليه ومُدح بأسراره، ومن أحسن العون على الإخلاص: الحياء من الله أن تتزين لغيره بعمل ألهمك إياه وقواك عليه وزعمت تطلب به التقرب إليه.

فاستعن على عبادتك بالستر، فإن عمل السر كالشجرة، إذا ظهرت عروقها ضعف شربها وتعرضت للآفات ولم تحسن فروعها، وإذا غاضت عروقها غابت عن الآفات فكثر شربها فتزايدت فروعها فكثر خيرها وطاب ثمرها، فكذلك العمل إذا كانت له أصول في القلب مستورة زكا في نفسه وكثر خيره وطاب ثوابه، وإذا بدا لم يؤمن عليه من أبصار الناظرين، وإذا خفي لم يبق ما يخاف منه إلا العُجب ومحبة أن يطلع عليه، وهي الشهوة الخفية".

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ولما كان الإنسان لا يلتفت إلى غير الملك إلا بمعالجة النفس بما لها من الهوى والطغيان، عبر بصيغة الافتعال فقال: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: عالجوا عقولهم حتى صرفوها عن الله فأخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ ويدخل فيهم الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله مع اعترافهم بأن الله تفرد بخلقهم ورزقهم ﴿مَا﴾ أي: قائلين لمن أخلصوا له الدين إذا أنكروا عليهم ﴿نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ قال القشيري: "ولم يقولوا هذا من قِبل الله ولا بإذنه، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم، فرد الله عليهم"، وقد خسر لعمري غاية الخسارة قوم تمذهبوا بأقبح المذاهب وجعلوا عذرهم هذه الآية التي ذم الله المعتذر بها، وعلى ذلك فقد راج اعتذارهم بها على كثير من العقول.

ولما كان محط دينهم الهوى، وكان كل من تبع الهوى لا ينفك عن الاضطراب في نفسه، فكيف إذا كان معه غيره، فكيف إذا كانوا كثيرًا، فيكثر الخلاف والنزاع، وإن لم يحصل ذلك بالفعل كان بالقوة، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا﴾ ولما كان تحكيمهم للهوى موفرًا لدواعيهم على الاختلاف، وكان الاتخاذ الذي بني الكلام عليه له نظر عظيم إلى علاج

الباطن بخلاف سورة يونس[١٧]، أثبت الضمير هنا فقال: ﴿هُمْ﴾ أي: بضمائرهم ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ أي: ليس لهم أصل يضبطهم؛ لأنهم مظروفون لذلك العمل الذي مبناه الهوى الذي هو منشأ الاختلاف، فظهر من هذا أن اختلاف الأئمة في فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لقواعد استنبطوها من ذلك لا يخرجون عنها ليس خلافًا بل وفاق؛ لوحدة ما يرجعون إليه من الأصل الصحيح الثابت عن الله.

ولما كان الدين لا يصلح إلا إن انتظم بنظام غير مختل، وكان اعوجاج الدين داعيًا إلى التفرق، فكان عجيبًا أن يُتديَّن به، قال مؤكدًا؛ تكذيبًا لمن ينكر ما تضمنه هذا الإخبار، وإن ظهر لبعض العمي غير ذلك مما يبدو من الكذبة والكفرة من أعمال مزينة وأفكار دقيقة فتظن هدى وإنما هي استدراج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ عريق في الكذب حتى أداه إلى أن يقول على ملك الملوك أن شيئًا يقرّب إليه بغير إذنه، ويخضع بالعبادة التي هي نهاية التعظيم لمن لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

ولما كان من كفر قد ضاعف كفرَه لكثرة دلائل الوحدانية قال: ﴿كَفَّارٌ ۝٤﴾ بصيغة المبالغة، قال القشيري: "والإشارة إلى تهديد من يتعرض لغير مقامه ويدعي شيئًا ليس بصادق فيه، فالله لا يهديه قط إلى ما فيه سداده ورشده، وعقوبته: أن يحرمه ذلك الشيء الذي تصدى له بدعواه قبل تحققه بوجوده وذوقه".

ولما أخبر بالحكم بينهم فكان وافيًا بنفي الشريك؛ لأن المحكوم فيه لا يجوز أن يكون قسيمًا للحاكم، فلم يبق في شيء من ذلك شبهة إلا عند ادعاء الولدية، قال نافيًا لها: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ فلا يكون له صاحبة ولا ولد ﴿ٱلْقَهَّارُ ۝٥﴾ فكل شيء تحت قهره، فصح من غير شك أنه لا يحتاج إلى شيء أصلًا، وجعْل ما لا حاجة إليه ولا داعي عبثٌ ينزه عنه.

ثم دل على ما وصف به نفسه بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى﴾ ولما كان السياق للقهر، وكان القضاء لعلة لا يتخلف عنها المعلول أدل على القهر من ذكر الغاية مجردة عن العلة قال: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٦﴾.

---

(١٧) في قوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ الآية: ١٩.

ولما كان خلق الحيوان أدل على الوحدانية والقهر بما خالف به الجمادات من الحياة التي لا يقدر على الانفكاك عنها قبل أجله، وكان أعجبه خلقًا الإنسان بما له من قوة النطق قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولما كان تنويع الحيوان أدل على القدرة التي هي منشأ القهر قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَامِ﴾ أي: الإبل والبقر والضأن والمعز، واقتصر على ما عند العرب ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وإذا نظرت هذه العبارة مع العبارة عن خلق الإنسان، فهمت أن الأنعام خلق كل ذكرها وأنثاها على انفراده لا أن أحدًا منها من صاحبه، وذلك أدل على إطلاق التصرف وتنويعه مما لو جعل خلقها مثل خلق الآدمي.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولما كان تطوير الخلق داخل البطن حيث لا تصل إليه يد مخلوق، قال دالًا على عظمته ودلالته على تمام القدرة والقهر: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ولما كان الحيوان لا يعرف ما هو إلا في التطوير الرابع وكان الجهل ظلمة قال: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ظلمة البطن والرحم والمشيمة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ٧﴾.

ولما ظهرت الأدلة، بين ما على من غطاها بالإصرار، وما لمن تاب ورجع بالتذكار، فقال نتيجة لما مضى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ﴾ لكم، هكذا كان الأصل بدليل ما سبقه ولحقه، وإنما أظهر ليعم وليذكرهم بما يجدونه في أنفسهم من أن أحدًا منهم لا يرضى لعبده أن يؤدي خرجه إلى غيره بغير إذنه، فقال: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ أي: الذين تفرد بإيجادهم وتربيتهم ﴿ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

ولما كان القهارون يكلفون بعض الناس ببعض؛ لينتظم لهم العلو على الكل لعدم إحاطتهم بكل مخالف لأمرهم، بين أنه سبحانه على غير ذلك فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والإثم المكتوب على الإنسان بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس وزر غيره وإنما هو وزر نفسه، فوزر الفاعل على الفعل، ووزر الساكت على الترك لما لزمه من الأمر والنهي ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٨﴾ أي: بصاحبتها من الخواطر وكلّ ما لم يبرز إلى الخارج، فهو بما برز أعلم.

ثم دلّ على اختصاصه بالملك وحده -مع أنه أوضح من الشمس- بدليل وجداني لكل أحد فقال: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لأن الضر أزال عنه الأهوية، ولما كان

الإنسان لِما جبل عليه من الجزع واليأس، إذا كان في ضر استبعد أن يكشف عنه؛ لتقيده بالجزئيات وتعلقه بالأسباب، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ ولما كان الرخاء محققًا وهو أكثر من الشدة، عبر بأداة التحقق فقال: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أي: أعطاه عطاء متمكنًا ﴿نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ﴾ مع ادعائه أنه يشكر على الإحسان، فعلم أن صلاحه بالضراء ﴿مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾ ثم أشار إلى قلة زمن الدنيا وما فيها في جنب الآخرة فقال: ﴿قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٩﴾.

ولما أرشدت «أم» إلى أن التقدير: أهذا أسدّ طريقة وأقوم قيلًا: ﴿أَمَّنۡ هُوَ﴾ والتقدير على قراءة التخفيف: أمَن هو بهذه الصفة خير أم ذلك الكافر الناسي لمن أحسن إليه ﴿قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا﴾ أي: وراكعًا ﴿وَقَآئِمٗا﴾ أي: وقاعدًا، وفي ذكرهما إيذان بأنهما أعظم الأركان وندب إلى تطويلهما على الركنين الآخرين، ولما كان الإنسان محل الفتور والغفلة والنسيان، وكان لا يمكن صلاحه إلا بالخوف من الملك الديان، قال معللًا أو مستأنفًا: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ ثم أتبعه قرينه الذي لا يصح بدونه فقال: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ الذي لم يزل يتقلب في إنعامه.

ولما كان الحامل على الخوف والرجاء والعمل إنما هو العلم النافع قال: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ إما لجهل وإما لإعراض عن مقتضى العلم، وإلى أنه لا يطلق العلم إلا على العامل: أرشد قول ابن هشام في السيرة: "﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] أن يقول الناس: علماء، وليسوا بأهل علم، لم يحملوهم على هدى ولا حق"، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٠﴾.

ولما كان أعظم حامل على القنوت التقوى، وكانت كثرة المخالف للقانت أعظم مزلزل، وكان الإنسان لما له من النقص محتاجًا إلى التثبيت والتأنيس قال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: الدنية التي لا تطهر الحياة فيها إلا بعبادة الخالق ﴿حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١١﴾ أي: على كثرة لا يمكن حسبانها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكل عمل يمكن عده إلا الصبر فإنه دائم مع الأنفاس، وهو من المعاني الباطنة لا يطلع خلق على مقداره، ويجوز أن يكون المعنى: أن من كمل صبره -بما أشارت إليه لام الكمال- لم يكن عليه حساب.

ولما كان أعظم الصابرين من جاهد نفسه حتى خلص أعمالها من الفتور والشوائب أمره بما يرغبهم في المجاهدة ويكشف لهم عن حلاوة الصبر بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة التي يرجى منه الجزاء عليها ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ وجهة هذا الفعل غير جهة الأول فلذلك عطف عليه؛ لأنه لإحراز قصب السبق، والأول لمطلق الإخلاص في العبادة. ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لأجل إعطاء المقام حقه من ذل العبودية وعز الربوبية ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ لأنهم إن كانوا مثلهم فحالهم في الخسارة سواء، وإن كانوا ناجين فلا اجتماع بينهم، ولما كانت العاقبة هي المقصودة قال: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٤﴾﴾.

ثم فصل خسرانهم بقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ولما أوهم ذلك الراحة أزاله بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو أنكأ مما لو أفهمهم الشر من أول، ولما كان القرار على أي حال فيه نوع راحة بالسكون، بين أنهم معلقون في غمرات الاضطرام، يصعدهم اللهيب تارة ويهبطهم انعكاسه عليهم أخرى، كما يكون الحب في الماء على النار يغلي به صاعدًا وسافلًا لا يقر في الأسفل، بقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ويدل على عدم القرار ما في الصحيح عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في رؤياه التي فيها: «فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع، فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهيب من تحتهم، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت رجعوا» فذكره، وهو طويل عظيم، ثم فسرهم بالزناة ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٥﴾﴾.

ولما ذكر ما لمن عبد الطاغوت عطف عليه أضدادهم ليقترن الوعد بالوعيد فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وهو كل ما عبد من دون الله، وفيه مبالغة بالصيغة من الطغيان، وبجعل الذات عين المعنى ﴿أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: هذا الجنس من كل قائل، ليسوا جفاة عساة إذا أقبلوا على شيء أعرضوا عن غيره بغير دليل ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ ويدخل في هذه الآية دخولًا بينًا: اتباع أهل الكتاب لهذا القرآن العظيم، فإن كتب الله كلها حسنة وهو أحسنها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فبين أن لا وصول إليه إلا به ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٦﴾﴾.

ثم أنكر أن يكون أعلى الخلق ينقذه فعُلم أن غيره من باب الأولى فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٧﴾ ثم قال معبرًا بوصف الإحسان إشارة إلى كرم المتقين بخوفهم مع تذكر الإحسان؛ ليدل على أن خوفهم عند تذكر الانتقام أولى فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ١٨ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ١٩ أَلَمْ تَرَ﴾ مما يدلك على قدرته تعالى على إعادة ما اضمحل:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فعبّر بالجعل مسندًا إليه سبحانه؛ لأن السياق لإظهار القدرة التامة، بخلاف آية الحديد التي عبر فيها بالكون؛ لأن السياق ثَم لأن الدنيا عدم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ على البعث وما يكون بعده، فإن النبات كالإنسان سواء، يكون ماء ثم ينعقد بشرًا يتقلب في أطواره حتى يكون ترابًا مفتتًا في الأرض، ثم يجمعه فيخرجه كما أخرج الماء النبات.

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٠ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فاهتدى لباطن هذا الدليل ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: بيان عظيم بكتاب، به يأخذ وبه يعطي وإليه في كل أمر ينتهي ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كمن جعل صدره ضيقًا حرجًا فكان قلبه قاسيًا فكان في الظلام خابطًا ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ لضيق صدورهم ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن من تبتدئ قسوته مما تطمئن به القلوب وتلين له الجلود، فهو أقسى من الجلمود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢١﴾.

ولما كان من المستبعد جدًا أن يقسو قلبٌ من ذكر الله، بينه الله وصوره في أعظم الذكر فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ولولا أنه هو الذي نزله لما كان الأحسن ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ في البلاغة المعجزة والموعظة الحسنة، مع كونه نزل مفرقًا في نيف وعشرين سنة، وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت ﴿مَّثَانِيَ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام والحكم من غير اختلاف أصلًا في أصل المعنى، مع أن جميع ما فيه أزواج من الشيء وضده، وفائدة التكرير: أن النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها لم يرسخ عندها ولم يعمل عمله.

ولما كان التكرار يمل ذكر أن من خصائص هذا الكتاب أنه يزداد حلاوة مع التكرار ولو ثني آناء الليل وأطراف النهار فقال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ وزاد في مدحهم

بأنهم يخافون المحسن، فهم عند ذكر أوصاف الجلال أشد خوفًا فقال: ﴿رَبَّهُمْ﴾ وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه مر برجل من أهل العراق ساقط من قراءة القرآن وسماع ذكر الله فقال: "إنا لنخشى الله وما نسقط، وإن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله ﷺ".

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ لتراجعهم إلى الرجاء ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ وذكرها دال على تقدير اقشعرارها مع الجلود من شدة الخشية، فإن الخشية لا تكون إلا في القلب، وكأن سر حذف التصريح بذلك: تنزيهها عما قد يفهم القسوة، ولما كان القلب شديد الاضطراب والتقلب، دل على حفظه له بالتعدية بـ«إلى» ليكون المعنى: ساكنة مطمئنة فقال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٢٣﴾.

ولما بين من شرح صدره ومن ضيق، شرع في بيان ما لكل منهما، فقال مشيرًا إلى أن الضلال سبب العذاب، والهدى سبب النعيم: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى﴾ ودل على أن يده التي يتقي بها المخاوف عادةً مغلولةٌ بقوله: ﴿بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ لأنه يرمى به في النار منكوسًا وهو مكبل لا شيء له من أعضائه مطلق يرد به عن وجهه، ويسحب في النار على وجهه، كمن أمن العذاب فهو يتلقى النعيم بقلبه وقالبه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٢٦﴾ لأن الجزئيات لا تنفعهم كما تنفع سائر الحيوانات، فإن الشاة ترى الذئب فتنفر منه؛ إدراكًا لأن بينها وبينه عداوة بما خلق الله في طبعه من أكل أمثالها، وهؤلاء يرون ما حل بأمثالهم من العذاب لتكذيبهم الرسل فلا يفرون منه إلى التصديق.

ولما ذكر حال الأولين للموعظة، عطف بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ ولما كان في سياق المفاضلة بين المتقي وغيره، وكانت العناية في هذا السياق بالمخاطبين أكثر، قدم قوله: ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرْءَانًا﴾ أي: حال كون المضروب جامعًا لكل ما يحتاج إليه، ويجوز أن يكون نصبًا على المدح ﴿عَرَبِيًّا﴾ جاريًا على قوانين لسانهم، ولما كان الشيء قد يكون مستقيمًا بالفعل وهو معوج بالقوة قال: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: ليس بمنسوب إلى شيء منه ولا هو من شأنه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٢٨﴾.

ولما ختم بضرب الأمثال وكانت أبين في المراد قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للرجلين، مع أنه لا يشك عاقل أن المشرك لا يداني المخلص فضلًا عن أن يكون أعظم كما يقوله المشركون ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ في الظاهر من الأصنام، والباطن من الحظوظ والشهوات ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ فهو لا يقدر أن يرضيهم أصلًا ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ فهو أجدر بأن يقدر على رضاه، مع راحته من تجاذب الشركاء، ولما ظهر بذلك حقارة المتشاركين وجلالة المتفرد وهو الله، أنتج قطعًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ لأنهم يعملون بما لا يليق بهذا العلم فيشركون به جليًا أو خفيًا.

ولما أثبت جهلهم، وكان الجاهل ذا حمية وإباء للحق، فكان التفكيرُ في إعراضهم وأذاهم ولا سيما مع كثرتهم مؤسفًا ومقلقًا، وكان لا ينبغي أن يقلق إلا من ظن دوام النكد قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ فمستريح قريبًا عما تقاسي من أنكادهم، وراجع إلى ربك ليجازيك على طاعتك ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٢٩﴾ فمنقطع ما هم فيه من اللدد والرغد، فلا ينبغي أبدًا لمظلوم أن يتوهم دوام نكده، فيقتصر في العمل ويجنح إلى الخوف والوجل، بل عليه أن يفرح بما يجزل ثوابه وييسر حسابه، ولا يشتغل بما لا يكون من تصفية دار الكدر عن الأكدار، وقرارةِ الدنس عن الأقذار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣٠﴾.

ولما أخبر بأنهم جعلوا لله أندادًا وأنهم كذبة في ذلك، قال مسببًا عما مضى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: من غير توقف ولا نظر كما هو دأب المعاند، ولما تقرر كالشمس أنه لا يسوغ في عقل ترك الخلق سدى فكان يوم الدين مقطوعًا به قال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣١﴾ أي: الذين ستروا كذبهم فألبسوه ملابس الصدق، وستروا الصدق الذي كذبوا به.

ثم ذكر أضدادهم فقال: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ وتعريفه يدل على كماله فيشير إلى أنه ديدنه لا يتعمد كذبًا ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: بكل صدق قام عليه الدليل، وليس هو بجموده عدوٌّ ما لم يعلم فيكذب بكل ما لم يسمع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٢ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٣ لِيُكَفِّرَ﴾ أي: جزاء للمحسنين الذين أحسنوا لهذا الغرض ﴿ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ وتابوا عنه بالندم والإقلاع والعزم على عدم العود، وقد علم أنه إذا محي الأكبر انمحى الأصغر؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولما أخبر بالتطهير من أوضار السيئ، أتبعه التنوير بأنوار الحسن فقال: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ﴾ ولما كان مقصود هذه السورة أخص من مقصود سورة النحل، وكانت «الذي» و«من» أقل إبهامًا من «ما» قال: ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٤﴾ فمن كان في هذه الدار محسنًا في وقت ما، يعبد الله كأنه يراه، فهو في الآخرة كل حين يراه.

ولما فهم من قوله: ﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ أن المشركين يكذبونه، وكان من طبع الآدمي الاهتمام بمثل ذلك ولا سيما إذا كان المكذب كثيرًا وقويًا قال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ أي: الخالص له، فينصره عليهم حتى يظهر دينه ويعلي أمره ويغنيه عن أن يحتاج إلى غيره أو يجنح إلى سواه باعتقاد أن في يده شيئًا يستقل به، وهذا لا ينافي السعي في الأسباب مع اعتقاد أنها بيد الله، فإن شاء ربط بها المسببات وإن شاء أعقمها، بل السعي أكمل؛ لأن ترتيب الأسباب بوضع الحكيم، فالسعي في طرحها ينافي الحكمة ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ﴾ أي: غالب لما يريد ﴿ذِي ٱنتِقَامٖ ۝٣٥﴾.

ولما علم بهذه البراهين أنه سبحانه المتصرف في المعاني بتصرفه في القلوب بالهداية والإضلال، بين أنه الخالق للذوات كما أنه المالك للمعاني والصفات، فقال مفسدًا لدينهم باعترافهم بأصلين: القدرة التامة له والعجز الكامل لمعبوداتهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم﴾ ولما كان السائل النصوح ينبغي له أنه ينبه الخصم على محل النكتة لينتبه من غفلته فيرجع عن غلطته، عبر بأداة ما لا يعقل عن معبوداتهم فقال: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ولما كانت العافية أكثر من البلوى أشار إليها بأداة الشك، ونبه على مزيد عظمته سبحانه بإعادة الاسم الأعظم فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾ ولما كان درء المفاسد مقدمًا قال: ﴿بِضُرٍّ﴾ إن أطعتكم فيها خوفًا منها، ودل على سفولها بالتأنيث(١٨) فقال: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ لطاعتي إياه في توحيده ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ لعصياني لهن؟

---

(١٨) الذي تدور مادته على الليونة والرخاوة عكس ما يليق بالإله كما تقدم عند قوله: ﴿إلا إناثًا﴾ النساء: ١١٦.

ولما كان من المعلوم أنهم يسكتون عند هذا السؤال؛ لما يعلمون من لزوم التناقض إن أجابوا بالباطل، ومن بطلان دينهم إن أجابوا بالحق، وكان الجواب قطعًا: لا، سواء نطقوا أو سكتوا، تحرر أنه لا متصرف بوجه إلا الله فقال: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٦ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: حالتكم التي ترتبتم فيها وجمدتم عليها، فعرّض بالعمل الذي مبناه العلم والمكانة التي محطها الجمود بأن أفعالهم ليس فيها ما ينبني على العلم، وإنما هي جزاف لا اعتبار لها ولا وزن لها ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ على كفاية الله لي، وليس لي مكانة ألتزم الجمود عليها، بل أنا واقف على ما يرد من عند الله، إن نقلني انتقلت وإن أمرني بغير ذلك امتثلت، ثم قال إيذانًا بأنه على ثقة من أمره؛ لأن المخبر له به الله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾.

ثم قال معللًا لإتيان ما توعدهم به: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾ ولما أثبت حرف الغاية أول السورة مع الأمر بالعبادة إشارة إلى بداية الحال، فلما حصل التمكن فصار الكتاب خلقًا له ﷺ، عبّر بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: لا يقدر الخلق على أن يزيحوا له معنى عن قصده ولا لفظًا عن حدّه، فلا بد من إتيان ما فيه من وعد ووعيد، ولما تسبب عن علم ذلك وجوبُ المبادرة إلى الإذعان له للفوز، قال مسليًا له ﷺ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ۝٣٨﴾ لتحفظهم عن الضلال، فإن الرسالة لإقامة الحجة لا لقدرة الرسول على الهداية ولا لعجز المرسل عن ذلك.

ولما كانت الوكالة لا تصلح إلا مع القدرة، بين أنه لا يصلح للوكالة غيره فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ فالجامع بينهما عدمُ الإدراكِ والشعورِ والتصرفِ، فكما أنه لا يقدر على الإماتة والإنامة إلا الله، فكذلك لا يقدر على الهداية والإضلال إلا الله، ولما كان النوم منقضيًا دلنا بقرانه بالموت على أن الموت أيضًا منقض ولا بد؛ لأن الفاعل لكل منهما واحد فقال: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ لا تقدر على تصريف جسدها ما دام الموت محيطًا بها، كما أن النائمة كذلك ما دام النوم محيطًا بها ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ لبعث الميتة ولموت النائمة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ على أنه لا يقدر على الإحياء والحفظ غيره، وأنه قادر على البعث وكل ما يريده ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣٩﴾ فيعلمون عظمة الله تعالى، وذلك أن النفس جوهر روحاني له في التعلق بالبدن ثلاث حالات: **إحداها** وقوع ضوئها على البدن ظاهرًا وباطنًا وهو

الحياة مع اليقظة، **وثانيتها** انقطاع ضوئها عن البدن ظاهرًا لا باطنًا وذلك بالنوم، **وثالثها** انقطاعه ظاهرًا وباطنًا وهو بالموت، فالموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام والنوم ناقص، فلا يقدر على إيجاد شيء واحد على نوعين ثم يجعلهما في شيء واحد إلا هو سبحانه، وكما قدر على إنهاء الموتة الصغرى فهو قادر على إنهاء الكبرى.

ولما أنتج هذا أنه لا يقوم شيء مقامه قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بعد وضوح الدلائل ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ مع قيام الأدلة الشهودية عندهم على أنه لا يشفع أحد إلا عند من يصح أن يكافئه بأي وجه ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٠﴾. ولما نفى صلاحية أصنامهم لهذا الأمر، أشار إلى نفيه عما سواه بقصر الأمر عليه فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ فلا يملك أحد سواه منها شيئًا، لكنه يأذن إن شاء فيما يريد منها لمن يشاء، وعلل ذلك بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤١﴾.

ولما كان تحتم الرجوع إليه مقتضيًا لأن تصرف الهمم كلها نحوه، ذكر حالًا من أحوالهم فقال: ﴿۞وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بيانًا للحامل لهم على ذلك ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٢﴾ سواء ذكر معهم الله أو لا، فالاستبشار إنما هو بالأنداد، والاشمئزاز والاستبشار متقابلان؛ لأن الاشمئزاز: امتلاء القلب غمًا وغيظًا فيظهر أثره وهو الانقباض في الوجه، والاستبشار: امتلاء القلب سرورًا فيظهر أثره وهو الانبساط في الوجه، وعبر بالفعل أولًا وبالاسمية ثانيًا ليفيد ذمهم على مطلق الاشمئزاز ولو على أدنى الأحوال، وعلى ثبات الاستبشار تقبيحًا لمطلق الكفر.

ولما نفى صلاحية الوكالة لغيره وأخبر بتعمدهم الباطل، أنتج وجوب اللجأ إليه وحده، فقال معلمًا بذلك ومعلّمًا لما يقال عند مخالفة الداعي باتباع الهوى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: يا الله، وهذا **نداء محض**، ويستعمل أيضًا: **لتمكين** الجواب في النفس، كما قال النبي ﷺ لضمام بن ثعلبة حيث قال: آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ فقال: «اللّٰهُمَّ نعم» لأن ذكر الله في الجواب أبعث على التصديق، **وللدلالة** على قلة الوقوع كقول المصنفين: لا يكون كذا اللّٰهُمَّ إلا إذ كان كذا، كأنه استغفر من جزمه، ذكرهما ابن الخشاب.

﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٤٣ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ

﴿ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ٤٧﴾ من العذاب، وذلك أشق وأروع ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا﴾ ولما كان في سياق الافتداء، وكان الإنسان يبذل عنده النفائس، عبر بالكسب الذي من مدلوله خلاصة الشيء فهو أخص من العمل، ولذا جعله الأشعري مناط الجزاء، فقال مبينًا أن خالص عملهم ساقط فكيف بغيره، وهذا بخلاف ما في الجاثية[١٩]: ﴿كَسَبُواْ﴾ لظنهم نفعه ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٤٨﴾.

وعلل ما ظهر لهم بأنهم كانوا يفعلون ما لم يكن في العادة يتوقع منهم، وهو مجازاة الإحسان بالإساءة وقد كانوا جديرين بضده فقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ وأشار إلى عظمته وطول زمنه بأداة التراخي، فقال مقبحًا عليه مع ذلك نسيانه للضر: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ وبناه للمجهول إشارة إلى أنه لا نظر له في تعرّف المعطي من هو ليشكره، وإنما نظره في عظمة النعمة وعظمة نفسه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾.

ثم قال دالًا على شؤم ذلك المعطى لأنه تسبب في إضلاله: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ وجمع الضمير بعد ما أفرد إشارة إلى أن أكثر الناس في ذلك الخلق كنفس واحدة فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٩﴾ فلو أنهم إذا دعونا وهم في جهنم أجبناهم لكفروا نعمتنا ونسبوها إلى غيرنا كما يفعلون في الدنيا سواء ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ٥١ أَوَلَمْ﴾ ولما كان السياق لنفي العلم عن الأكثر، وكان مقصود السورة بيان أنه صادق الوعد، عبر بالعلم بخلاف ما مضى في الروم[٢٠] فقال: ﴿يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ ومعلوم أنه لولا أن ذلك منه وحده لما كان أحد له قوة وعلم فقيرًا أصلًا.

ولما كانت كثرة الوعيد ربما أيأست ونفرت، قال سبحانه مستعطفًا مترفقًا: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فأبعدوها عن الحضرات الربانية وأركسوها في الدنايا الشيطانية ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ فيمنعكم من التوبة التي هي باب الرحمة، وكرر الاسم الأعظم تعظيمًا للحال وتأكيدًا لمعنى الإحاطة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ﴾ فكما أنه متصف بالانتقام

---

(١٩) في قوله تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما علموا﴾ الآية: ٣٣.

(٢٠) في قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله يبسط الرزق﴾ الآية: ٣٧.

هو متصف بالغفران ﴿ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ ولكنه سبق منه القول أنه يغفر الشرك بالتوبة، وأما غيره فيغفره إن شاء بتوبة وإن شاء بلا توبة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٠﴾.

ولما كان التقدير: فأقلعوا عن ذنوبكم فإنها قاطعة عن الخير، عطف عليه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي: الذي لم تروا إحسانًا إلا وهو منه ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ جميع ما ملّكه لكم من الأعيان والمعاني فإنه لو شاء سلبكموه، ولما كان ذلك شديدًا لأن الكف عما أشرفت النفس على بلوغ الوطر منه في غاية المرارة، قال مهددًا لهم، دالًا بـ«من» على رضاه بإيقاع ما أمر به في اليسير من الزمان؛ لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره باستغراق الزمان في الطاعة وإن كان إبهام الأجل يحدو العاقل على استغراقه فيها: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الذي لا يمكن دفعه ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥١﴾ أي: لا يتجدد لكم نوع نصر أبدًا.

ولما أمر بإسلام القياد كله إليه، أمر بما هو أعلى من ذلك وهو المجاهدة فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ باتباع هذا القرآن الذي هو أحسن ما نزل من كتب الله، وباتباع أحاسن ما فيه، فتصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحسن إلى من ظلمك، هذا في حق الخلائق، ومثله في عبادة الخالق بأن تكون «كأنك تراه» الذي هو أعلى من استحضار «إنه يراك» الذي هو أعلى من أدائها مع الغفلة عن ذلك.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الذي يزيل ما يعذب ويحلو لكم في الدنيا أو في الآخرة، ولما كان الأخذ على غرة أصعب على النفوس قال: ﴿بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾ لا في حال إتيانه ولا قبله لفرط غفلتكم، ليكون أفظع ما يكون على النفس لشدة مخالفته لما هو مستقر فيها وهي متوطنة عليه من ضده.

ولما كان للإنسان عند وقوع الخسران أقوال وأحوال لو تخيلها قبل هجومه لحسب حسابه فباعد أسبابه، علل الأمر بالاتباع بقوله: ﴿أَن تَقُولَ﴾ ولما كان الموقع للإنسان إنما هو حظوظه وشهواته، عبر بقوله: ﴿نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: حقه الذي هو غير مغفول عنه ولا متهاون به ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ لأنه ما كفاني المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة.

ولما كانت النفس إذا وقعت في ورطة لا تدع وجهًا محتملًا حتى تتعلق بأذياله قال: ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾ أي: الذين لا يقدمون على ما لا دليل

عليه. ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ أي: العاملين بالإحسان الذي دعا إليه القرآن.

ولما كان معنى ما تقدم من كذبه وتمنيه أنه ما جاءني بيان ولا كان لي وقت أتمكن فيه من العمل، قال تعالى مكذبًا له: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ﴾ ولفت القول إلى التكلم إعلامًا بتناهي الغضب فقال: ﴿ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾ جرأة على الله وقلة مبالاة بالعواقب ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ أي: عددت نفسك كبيرًا عن قبولها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ فلم يكن لك مانع من الإحسان إلا ذلك، لا عدم البيان ولا عدم الزمان القابل للعمل.

ثم قال تعالى محذرًا من حاله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾ وزاد في تقبيح حالهم في اجترائهم بذكر الاسم الأعظم فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ الحائز لجميع صفات الكمال، بأن وصفوه بما لا يليق به وهو منزه عنه، ويدخل فيه كل من تكلم في الدين بجهل، وكل من كذب في أي شيء كان وهو يعلم أنه كاذب، فإن فعله -من حيث إنه فعل من يظن أن الله لا يعلم كذبه أو لا يقدر على جزائه- كأنه كذب على الله[٢١].

﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ أمارة عليهم ليعرفهم من يراهم بما كذبوا في الدنيا ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ بما له من صفات الكمال ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ فكما وقاهم في الدنيا من المخالفات، حماهم هناك من العقوبات ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ فسرها ابن عباس رضي الله عنه بالأعمال الحسنة لأنها سبب الفوز، ثم ذكر نتيجة التنجية: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ فلا يخافون ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦١﴾ على فائت؛ لأنهم لا يفوت لهم شيء أصلًا.

ولما كان المخوف منه والمحزون عليه جامعَين لكل ما في الكون، فكان لا يقدر على دفعهما إلا المبدع القيوم قال: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي نجاهم لأنه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ وهو لا يخلق ما يتوقعون منه خوفًا، ولا يقع لهم عليه حزن ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾. ولما ذكر الوكالة دل عليها بقوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فلا يمكن أن يكون فيهما شيء، ولا أن يتصرف في شيء منهما ولا فيهما أحد إلا بإذنه، فلا بدع في تنجيته الذين اتقوا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ خاصة ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾ فإنهم خسروا نفوسهم وكل ما ينفعها؛ لأن كفرهم أقبح الكفر من حيث إنه متعلق بأظهر الأشياء.

---

(٢١) وهي دقيقة يدخل فيها كل مخالفة في الظاهر لما يدعى أنه الباطن، والله أعلم.

ولما قامت هذه الدلائل قيام الأعلام، وكان الجهلة قد دعوه ﷺ إلى أن يكف عن آلهتهم، وكان الإقرار عليها عبادة لها قال: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ ولما كان مد الصوت أوكد في معنى الكلام وأهول قال: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ بالإدغام المقتضي للمد في قراءة أكثر القراء ﴿أَعۡبُدُ﴾ ولما كانت عبادة غير الله أجهل الجهل قال: ﴿أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾.

ثم بيّن سبب قوله لهم ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾ بالإفراد؛ لأنه أعظم في النهي وأقعد في الزجر ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فلا يبقى له أثر، أما من جهة القادر فلأنه أشرك به فيه وهو غني لا يقبل إلا الخالص لأنه لا حاجة به إلى شيء، وأما من جهة غيره فلأنه لا يقدر على شيء.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ *وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ حين أشركوا به ودعوك للإشراك ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧﴾ لأنه لو كان له شريك لنازعه هذه القدرة فمنعه شيئًا منها، وهذه معبوداتهم لا قدرة لها على شيء.

ولما دل على عظمته ببعض ما يكون يوم القيامة، أتبعه من أحواله دليلًا آخر فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النفخة الأولى بعد نفختي الموت والبعث المذكورتين في «يس»، والمراد بها -والله أعلم-: إلقاء الرعب والهول في القلوب إظهارًا للعظمة، ليكون أول ما يفجؤهم يوم الدين ما لا تحتمله القوى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان المقام للتهويل أعاد الفاعل فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كان منهم من لا يصعق؛ ليُعرف أنه دائمًا مختار قادر جبار قال: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ فيجعل الشيء الواحد هلاكًا لقوم دون قوم، ويجعل الحياة بما كان مهلكًا.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ وهاتان النفختان هما المرادتان في قوله ﷺ: «يصعق الناس يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور»، والصعق يطلق على الموت فجأة وعلى الغشي، والإفاقة لا تكون إلا عن غشي، فعلم أن الصعقة هنا إنما هي غشي؛ لأن الثانية عنها إفاقة، وأيضًا فمن المحقق أنه لا يموت أحد من أهل البرزخ فكيف بالأنبياء؟ فالصواب حمل الصعقة المذكورة في الحديث على الغشي أو ما يشبهه، ويؤيده التجويز لأن تكون صعقة الطور جزاء عنها.

فتكون حينئذ النفخات أربعًا: **الأولى** لإماتة الأحياء، **الثانية** لإحياء الموتى، وهاتان هما المذكورتان في يس ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ إلى ﴿ونفخ في الصور﴾ [٤٩ - ٥١] الآية، **الثالثة** نفخة فزع وصعق؛ لابتدائهم بعد البعث بالهول الشديد، والذي يدل عليه في هذا الحديث قوله ﷺ في كثير من رواياته: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، وأما صعقة الموت فإنها في دار الدنيا وهي للإنامة لا للإقامة، **الرابعة** إفاقة من ذلك الغشي، فهاتان النفختان المرادتان في هذه السورة.

ويؤيده رواية للبخاري في تفسير الزمر: «إني من أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة» ولو أنهما نفختان كان التعبير بالآخرة قاصرًا عما تفيده الثانية وهو مما لا يظن ببليغ، فكان العدول عن الثانية إلى الآخرة مفيدًا أنها أربع، ولعل ذلك معنى ﴿أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [غافر: ١١] وسميت إماتة لشدة الغشي بها.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ولما ذكر إقامتهم بالحياة التي هي نور البدن، أتبعه إقامتهم بنور جميع الكون، ظاهرًا بالضياء وباطنًا بالعدل الذي هو نور الوجود الظاهري والباطني على الحقيقة، كما أن الظلم ظلامه كذلك فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ ولما كان العلم هو النور في الحقيقة وكان الكتاب أساسه قال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الذي أنزل لكل أمة لتعمل به ﴿وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بأن يطابق الواقعُ من المثوبات والعقوبات ما أخبرت به الرسل، ولما كان المراد كمال الحق بعمومه للأشخاص والأعمال، وكان ربما طرقه احتمال تخصيص، أزاله بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ولما ذكر الكتاب والقضاء الحق، كان ذكر العمل المؤسس على العلم، والوفاء الذي هو الركن الأعظم في الحق أليق فقال: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ ونص على شمول الحكم لكل عمل بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ والعلم والوفاء أوفق لجعل العمل نفسه هو الجزاء بأن يصور بما يستحقه من الصور المليحة إن كان ثوابًا، والقبيحة إن كان عقابًا، والفرق بينه وبين الفعل المؤسس على الشهوة وقوة الداعية ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: من العاملين والشهداء عليهم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: مما عمل به بداعية من النفس، سواء كان مع مراعاة العلم أو لا.

ولما كان الأغلب على هذه المقامات التحذير، قدم في هذه التوفية حال أهل الغضب فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: الدركة التي تلقاهم بالعبوسة كما تلقوا الأوامر

والنواهي والقائمين بها بمثل ذلك، فإنه لازم لتغطية العقل ﴿زُمَرًا﴾ أي: أصنافًا مصنفين، كل شخص مع من يلائمه في الطريقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وأجاب «إذا» بقوله: ﴿فُتِّحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليخرج إليهم ما كان محبوسًا بإغلاقها من الحرارة التي يلقاهم ذكاؤها وشرارها، ولما كان المصاب ربما رجا الرحمة، فإذا وجد من يبكته كان تبكيته أشد عليه مما هو فيه قال: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ﴾.

ولما كان قيام الحجة بالمجانس أقوى قال: ﴿مِّنكُمۡ﴾ وعبر بالتلاوة التي هي أنسب لما يدور عليه مقصد السورة من العبادة؛ لما للنفوس من النقائص الفقيرة إلى متابعة التذكير فقال: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ ولما بكتوهم أنكوهم بالأمر بالدخول، وعبر بالمبني للمفعول إشارة إلى أنهم وصلوا إلى أقصى الذل بحيث إنهم يمتثلون قول كل قائل فقال: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ ولما كان سبب كفرهم بالأدلة هو التكبر، سبب عن الأمر بالدخول قوله بلا تأكيد؛ لأنه يقال في الآخرة ولا تكذيب فيها يقتضيه، ولم يتقدم منهم هنا كذب كالنحل بل اعتراف وتندم: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٩﴾.

﴿وَسِيقَ﴾ وشتان ما بين السوقين! هذا سوق إكرام وذاك سوق إهانة وانتقام، وهذا لعمري من بدائع البديع، وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم، ويأتي بها بعينها في حق الأبرار فتدل على إكرامهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ أهل الصلاة المنقطعين إليها المستكثرين منها على حدة، وأهل الصوم كذلك، إلى غير ذلك من الأعمال التي تظهر آثارها على الوجوه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾.

ولما كان إغلاق الباب عن الآتي يدل على تهاون به، وفي وقوفه إلى أن يفتح له نوع هوان قال: ﴿وَفُتِّحَتۡ﴾ أي: والحال أنها قد فتحت ﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ إكرامًا لهم قبل وصولهم إليها، ولما كانت دارًا لا تصلح إلا للمطهرين قال: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ أي: صلحتم لسكناها، ثم قالوا تنبيهًا على أنها دار الطيب فلا يدخلها إلا مناسب لها: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٠﴾ ولعله حذف جواب «إذا» لتذهب النفس في الإكرام كل مذهب، وتعلم أنه لا يحيط به الوصف.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ﴾ وعدلوا إلى الاسم الأعظم؛ حثًا لأنفسهم على استحضار جميع ما يمكنهم معرفته من الصفات فقالوا: ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ التي لا أرض في الحقيقة غيرها وهي أرض الجنة التي لا كدر فيها، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، بأن جعل حالنا فيها في تمام الملك وعدم التسبب حقيقة حال الوارث الذي لا منازع له ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ لاتساعها، فلا حاجة لمنازعة ﴿فَنِعْمَ﴾ أجرنا، ولكنه قال: ﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ ترغيبًا في الأعمال وحثًا على عدم الاتكال.

ولما ذكر الذين ركب فيهم الشهوات وما وصلوا إليه من المقامات، أتبعهم أهل الكرامات الذين لا شاغل لهم عن العبادات فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ولما تقدم ذكر الحكم بين أهل الشهوات بما برز عليهم من الشهادات، ذكر هنا الحكم بينهم وبين الملائكة الذين فاوضوا في أصل خلقهم بقولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: ٣٠] الآية، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ ولما كان السياق عامًا في الترغيب والترهيب عدلًا وفضلًا، بخلاف سياق سورة يونس عليه السلام[٢٢]، قال: ﴿بِالْحَقِّ﴾ فمن طغى منهم أسكناه لظى بعدلنا، ومن اتقى نعمناه في جنة المأوى بفضلنا، لجهادهم ما فيهم من الشهوات والجهالات حتى ثبتوا على الطاعات، وأما الملائكة فأبقيناهم على حالهم في العبادات ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فقد انطبق آخرها على أولها بأن الكتاب تنزيله؛ لمطابقة كل ما فيه للواقع عندما يأتي تأويله، وبأن الكتاب الحامل على التقوى المسببة للجنة أنزل للإبقاء الأول، فمن اتبعه كان له سببًا للإبقاء الثاني، وهذا الآخر هو عين أول سورة غافر.

---

(٢٢) في قوله تعالى: ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾ الآية: ٤٧.

سورة غافر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفين، وتوفية كلٍّ ما يستحقه بالعدل، بأن الفاعل ذلك له العزة الكاملة والعلم الشامل، وعلى ذلك دلت تسميتها بـ«غافر» فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء لمن يشاء إلا كامل العزة، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمى غافرًا لها إلا بالغ العلم، وكذا «الطَّول» فإنه لا يقدر على التطول المطلق إلا من كان كذلك فإن ناقص العزة قد يمنعه من بعض التطولات مانع، ولن يكون ذلك إلا بنقصان العلم، وكذا «المؤمن» فإن قصته تدل على هذا المقصد ولا سيما أمر القيامة.

لما كان ختام الآية التي قبلها إثبات الكمال لله بصدقه في وعده ووعيده، ثبت أن الكتاب الذي فيه ذلك منه فقال: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولما كان النظر هنا إلى العزة والعلم أكثر؛ لأن المقام لإثبات الصدق وعدًا ووعيدًا قال: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما افتتح سبحانه سورة الزمر بالإخلاص وذكر سببه والحامل بإذن الله عليه وهو الكتاب، وأشارت آيها إلى بعض آثار عزته وقهره، أعقب ذلك بقوله: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ فذكر من أسمائه سبحانه هذين الاسمين العظيمين تنبيهًا على انفراده بموجبهما، ثم قال: ﴿شديد العقاب ذي الطول﴾ ليأخذ المؤمن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، وأشار بقوله: ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ إلى قوله قبل: ﴿وأورثَنا الأرض﴾ وكأنه في تقدير: إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد".

ولما تقدم آخر تلك أن كلمة العذاب حقت على الكافرين، فكان ذلك ربما أيأس من تلبس بكفر من الفلاح قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ولما أفهم تقديمه على التوبة أنه غير متوقف عليها فيما عدا الشرك، رغبهم فيها فقال: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ ولما كان الاقتصار على الترغيب ربما أطمع، حذر المتمادي من سطوته فقال معريًا عن الواو لئلا يؤنس ما يشعر به كل من العطف والصفة المشبهة من التمكن، وذلك إعلامًا بخفي لطفه في أن رحمته سبقت غضبه: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

ثم علل تمكنه في كل شيء من ذلك بوحدانيته فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ أي: في المعنى في الدنيا، وفي الحس والمعنى في الآخرة، ليظهر كل من هذه الصفات ظهورًا تامًا، بحيث لا يبقى في شيء من ذلك لبس، فإنه لا يصح في الحكمة أن يبغي أحد على العباد ثم يموت في عزة من غير نقمة فيضيع ذلك المبغي عليه.

ولما تبين ما للقرآن من البيان، فدل بإزاحته كل علة على ما وصف سبحانه به نفسه من العزة والعلم، أنتج قوله ذمًا لمن يريد إبطاله وإخفاءه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بأن يغش نفسَه بالشك في ذلك لشبه يميل معها، أو غيرَه بالتشكيك له، أو في شيء غير ذلك مما أخبر به تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: غطوا مرائي عقولهم وأنوار بصائرهم؛ لبسًا على أنفسهم وتلبيسًا على غيرهم ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ﴾ بالفوائد والعساكر وإقبال الدنيا عليهم ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾ فتظن لإمهالنا إياهم أنهم على حق أو أن أحدًا يحميهم علينا، وإنما تأخيرهم ليبلغ الكتاب أجله.

ولما نهى عن الاغترار، علله بأن التقلب وما يثمره لا يصح أن يكون معتمدًا فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ ولما كان التكذيب وحده كافيًا في الأذى، دل على أنهم زادوا عليه بالمبالغة في المناصبة بالمعاندة، وقدم قصد الإهلاك لأنه أول ما يريده العدو، فإن عجز عنه نزل إلى ما دونه فقال: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ﴾ من الأحزاب المذكورين ﴿بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ ولما كان سوق الكلام هكذا دالًا على أنهم عجزوا عن الأخذ، ذكر أنهم بذلوا جهدهم في المغالبة بغيره فقال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: الأمر الذي لا حقيقة له ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ أي: ليزلقوا فيزيلوا ﴿بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: الثابت ثباتًا لا حيلة في إزالته، ولما كان من المعلوم لكل ذي لب أن فاعل ذلك مغلوب قال: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾.

ودل على عظمة أخذه بأنه أهل لأن يسأل عن حاله فقال: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالأخذ ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ولما كان السياق للمجادلة بالباطل وهي تغطية للدليل الحق وتلبيس، كان الحال أحق بالتعبير بالكفر الذي معناه التغطية فلذا قال: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كلهم سواء هؤلاء العرب وغيرهم؛ لأن علة الإهلاك واحدة وهي التكذيب ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾.

ولما بين عداوة الكفار للأنبياء، سلّاهم ببيان ولاية الملائكة، أو يقال: لما بين حقوق كلمة العذاب، بين أن النجاة بالإيمان بالتوبة عن الكفران؛ ليكون مُوقعه أهلًا للشفاعة فيه من الملائكة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إشارة إلى أنهم مع أنهم أهل الحضرة، هم من وراء حجاب الكبر وأردية العظمة، لا فرق بينهم وبين من هو في الأرض السفلى؛ لأن الإيمان إنما يكون بالغيب.

ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفًا؛ لأنه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف قال: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ ولما كان الاشتراك في الإيمان أشد من الاتحاد في النسب، قال دالًّا على أن الاتصاف بذلك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٦ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فتغفر لمن شئت من غير وهن ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٧﴾ فكل فعل لك في أتم مواضعه.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ بأن تجعل بينهم وبينها وقاية، بأن تطهرهم من الأخلاق الحاملة عليها بتطهير القلوب، أو بأن تغفرها لهم، وعظموا هذه الطهارة ترغيبًا في حمل النفس على لزومها بقولهم: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨﴾.

ولما أتم حال الذين آمنوا، عرّف ما لأضدادهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ لأن هذا المقتَ منهم لِما دُعوا إليه، الموجبَ لمقت الله لهم، موصلٌ لهم إلى عذاب يمقتون به أنفسهم ﴿إِذۡ﴾ وأشار إلى أن الإيمان لظهور دلائله ينبغي أن يقبل من أي داع، فبنى للمفعول فقال: ﴿تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ٩ ۞ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ واحدة في البطن وأخرى بالبعث بعد الموت، فشاهدنا قدرتك على البعث ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ الحاصلة بسبب إنكار البعث، لأن من لم يخش العاقبة بالغ في متابعة الهوى، فذلك توبة لنا ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١٠﴾؟

ولما كان الجواب قطعًا: لا، علله بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ ولو مرة واحدة من أي داع كان ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ أي: هذا طبعكم دائمًا، رجعتم إلى الدنيا أو لا ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ أي: بالشركاء وتجددوا ذلك غير متحاشين من تجديد الكفر ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ

﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١١﴾ الذي لا يليق الكبر إلا له، فما أسْفه من شقي بالكبراء، فإنهم يلجئون أنفسهم إلى قول ما لا يجديهم ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ولما قصر الحكم عليه دل على ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بإمساكه إلى حين الحكم بنزوله ﴿رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ذلك تذكرًا تامًا، بما أشار إليه الإظهار ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ أي: له أهلية الرجوع إلى الدليل في كل وقت، ما هو بجلف جامد على ما ألفه، لا يصغي إلى قال ولا قيل، ولو قام على خطابه كل دليل.

ولما كان كل من الناس يدعي ملازمته للدليل، وكان كل أحد مأمورًا بالإنابة إلى الله وحده قال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فمن كان يصدّق بالجزاء وبأن ربه غني لا يقبل إلا خالصًا، اجتهد في تصفية أعماله من كل شرك، كما أن معبوده واحد من غير نقص، ولما كانت مخالفة الجنس شديدة لما تدعو إليه من المخاصمة قال: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ فلا يصل إلى حضرته الشماء إلا من علا في معارج العبادات.

﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ فمن أقبل عليه مخلصًا صار ذا روح يحيي الأموات، قال الرازي: "قال ابن عطاء: حياة القلب على حسب ما ألقي إليه من الروح، فمنهم من ألقي إليه روح الرسالة، ومنهم من ألقي إليه روح النبوة، ومنهم من ألقي إليه روح الصديقية والمشاهدة، ومنهم من ألقي إليه روح العلم، ومنهم من ألقي إليه روح العبادة، ومنهم من ألقي إليه روح الحياة فقط، ليس له علم بالله ولا مقام مع الله فهو ميت في الباطن، وله الحياة البهيمية التي يهتدي بها إلى المعاش دون المعاد".

﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ الذي لا يستحق أن يوصف بالتلاقي على الحقيقة غيره؛ لكونه يلتقي فيه الأولون والآخرون وأهل السماوات والأرض، ولا حيلة لأحد منهم في فراق غريمه بغير فصل على وجه العدل. ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾ لأن العلم قد شملهم، والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم، والحكمة قد منعت من إهمال أحد منهم، ولما كان السياق يقتضي النظر في الأسباب قال معبرًا بالباء والكسب: ﴿بِمَا﴾ أي: بسبب ما ﴿كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ فيه ترجية للفريقين وتخويف؛ لأن الظالم يخشى إسراع العذاب، والمؤمن يرجو إسراع الثواب.

ولما كان يوم القيامة له أسماء تدل على أهواله باعتبار أحواله، منها يوم التلاق لما تقدم، ومنها يوم الآزفة لقربه وسرعة أخذه، قال زيادة في بيان هوله إعلامًا بأنه مع ثبوته قريب، تحذيرًا من تزيين إبليس للشهوات وتسويفه بالتوبة: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ يعني أنها زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج، وصارت مواضعها من الأفئدة هواء، وكانت الأفئدة معترضة كالشجا، لا هي ترجع إلى مقارها فيستريحوا، ولا تخرج فيموتوا ﴿كَٰظِمِينَ ١٧﴾ أي: ممتلئين خوفًا وحزنًا ساكتين قد انسدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾.

ولما نفى الشفاعة للظالمين، علله بعلمه أن المشفوع له ليس بأهل لقبول الشفاعة فيه؛ لإحاطة علمه فقال: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي: خيانتها التي هي أخفى أفعال الظاهر، قال أبو حيان: "مِن كسرٍ وغمزٍ ونظرٍ يُفهَم منه ما يراد"، وأتبعه أخفى ما في الباطن فقال: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾. ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصًا لأنه لا حكمة فيه قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فلو قضى بقبول الشفاعة فيمن ليس بأهل لها لنفى الحق وأثبت الباطل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ فضلًا عن أن يقضوا بما يعارض حكمه.

ولما عُلم أن الأمر له وحده علل ذلك بقوله، مرهبًا من الخيانة وكل شر، مرغبًا في كل خير، مؤكدًا؛ لأن أفعالهم تقتضي إنكار ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾ أي: سكانًا للأرض عريقين في عمارتها ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ﴾ ولما كان السياق لمجادلة قريش، أكّد الخبر بأن الأولين أشد منهم بضمير الفصل بقوله: ﴿هُمۡ﴾ ولما كان مرجع المجادلة القوة لا الكثرة قال: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن آثارهم لم يندرس بعضها وقد مضى عليها ألوف من السنين، وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾ يجوز أن تكون «من» الأولى ابتدائية على بابها تنبيهًا على شدة الأخذ؛ لأنه إذا لم تبتدئ من جهته سبحانه لهم وقاية لم

تكن لهم باقية، بخلاف من عاقبه الله عقوبة تأديب فإن عذابه يكون سبب بقائه لما يحصل له منه سبحانه من الوقاية. ولما ذكر سبحانه أخذهم، ذكر سببه بما حاصله أن الاستهانة بالرسول استهانة بمن أرسله في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ ولما كان اجتراؤهم على العظائم فعل منكر للقدرة، قال مؤكدًا؛ لعملهم عمل من لا يخافه: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

ولما كان ذلك عجبًا لأن البينات تمنع من الكفر، عطف عليه تسلية قولَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ولما كان الأكابر أول من يتوجه إليه الأمر لأن بانقيادهم ينقاد غيرهم قال: ﴿وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا﴾ ومن تبعهم، أما من عدا قارون فأولًا وآخرًا بالقوة والفعل، وأما قارون ففِعله آخرًا بين أنه مطبوع على الكفر وإن آمن أولًا، وأن هذا كان قوله وإن لم يقله بالفعل في ذلك الزمان فقد قاله في التيه، فدل ذلك على أنه لم يزل قائلًا به لأنه لم يتب منه ﴿سَاحِرٌ﴾ لعجزهم عن مقاهرته، ولم يقل «سحّار» لئلا يتوهم أحد أنه يمدحه بالبراعة في السحر فيقبلوا عليه، ثم وصفوه بقولهم: ﴿كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ لخوفهم من تصديق الناس له، فبعث تعالى أخص عباده به إلى أخس عباده عنده ليقيم الحجة عليه، وأمهله عندما قابل بالتكذيب حتى أعذر إليه غاية الإعذار.

ولما أجمل أمره كله في هاتين الآيتين شرع في تفصيله فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: خصوهم بذلك واتركوا من عداهم لعلهم يكذبونه ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ ولما كان هذا صادًا عادةً لمن [لم] يؤمن عن الإيمان ورادًا لمن آمن إلى الكفران قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ لأنه ما أفادهم أولًا في الحذر من موسى عليه السلام ولا آخرًا في صد من آمن به بل كان فيه هلاكهم، وكذا أفعال الفجرة مع أولياء الله، ما حفر أحد منهم لأحد منهم حفرة مكر إلا أركبه الله فيها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عندما علم أنه عاجز عن قتله وملأه ما رأى منه خوفًا، دافعًا عن نفسه ما يقال من أنه ما ترك موسى عليه السلام إلا عجزًا عنه، موهمًا أن آله هم الذين يردونه عنه وأنه لولا ذلك لقتله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ثم علل ذلك بقوله مؤكدًا؛ لأنه كان منهم من يوهّي أمره بأنه لا يؤثر شيئًا تقربًا إلى فرعون وإظهارًا للثبات على متابعته ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ فسمى اللعين الصلاح لمخالفته لطريقته الفاسدة فسادًا، كما هو شأن كل مفسد مع المصلحين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ إبطالًا لهذا القول وإزالة لآثاره، مؤكدًا؛ لما استقر في النفوس من قدرة فرعون: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي﴾ ورغبهم في الاعتصام به بقوله: ﴿وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾.

ولما انقضى كلام الرأسين، أخبر عن كلام بعض الأتباع فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ﴾ أي: كامل في رجوليته ﴿مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: وجوههم ورؤسائهم ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ ولما كان فرعون قد نسب موسى عليه السلام -بما زعمه من إرادته إظهار الفساد- إلى الإسراف بعد ما نسبه إليه من الكذب، علل هذا المؤمنُ قولَه بما ينطبق على فرعون منفرًا منه، مع صلاحيته لإرادة موسى على ما زعمه فيه فرعون فقال: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾.

وكأنه رضي الله عنه جوز أن يتأخر شيء مما توعد به فيسموه كذبًا، ولذا قال: ﴿يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ فعلق الأمر بالمبالغة فقال: ﴿كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا﴾ أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر بعد إفراده لهم بالملك إبعادًا للتهمة وحثًّا على قبول النصيحة ﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ ونبه بأداة الشك على أن عذابه لهم أمر ممكن، والعاقل من يجوّز الجائز ويسعى في التدرّع منه فقال: ﴿إِن جَآءَنَا﴾.

وفي قوله هذا تسجيل عليهم بأنهم يعرفون أن الله رب الأرباب، وكذا قول موسى عليه السلام: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض﴾ [الإسراء: ١٠٢] وأن ادعاء فرعون الإلهية إنما هو محض عناد، ولما سمع فرعون ما لا طعن له فيه، فكان بحيث يخاف قومَه إن أفحش في أمر هذا المؤمن، فتشوف السامع لجوابه، أخبر تعالى أنه رد ردًا أبرد من الثلج بقوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أنه الصواب على قدر علمي، أي: ما أظهرته لكم هو ما أبطنه ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾.

ولما ظهر لهذا المؤمن رضي الله عنه أن فرعون ذلّ لكلامه ولم يستطع مصارحته، ارتفع إلى أصرح من الأسلوب الأول، ووصفه تعالى بالفعل الماضي؛ لأنه في مقام الوعظ الذي ينبغي أن يكون من أدنى متصف بالإيمان، بعد أن ذكر عراقته في الوصف؛ لأنه كان في مقام المجاهدة والمدافعة عن الرسول عليه السلام الذي لا يقدم عليه إلا راسخ القدم في الدين

فقال: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾.

ولما كان أكثر الخلق يموت مقهورًا من ظالمه ومكسورًا من حاكمه، فعلم قطعًا أن الموت الذي لا يقدر أحد أن يسلم منه إنما هو سوق إلى دار العرض، قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ أي: أن الخلق فيه لكثرة الجمع ينادُون ويُنادَون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه بتشديد الدال على أنه مصدر تنادّ، من ند البعير إذا هرب ونفر، وهو كقوله: ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾ [عبس: ٣٤] ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ أي: فما لكم من عاصم أصلًا؛ لضلالكم في الدنيا، فإن حالكم في ذلك اليوم مكتسب من أحوالكم فيها، ولذا قال معممًا: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾.

ثم قال مبينًا أنهم مستحقون لما حذّر منه ليشكروا إمهال الله لهم: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ﴾ أي: جاء آباءكم معشر القبط ﴿يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ولكنه عبر بما يدل على تقليدهم إياهم في مذهبهم، ولذا قال: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ﴾ تبعًا لآبائكم ﴿فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ﴾ من عند أنفسكم بغير دليل؛ كراهةً لما جاء به، جهلًا بالله تعالى وحجرًا عليه في عباده وبلاده، وإخبارًا عنه بما ينافي كماله: ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ خارج عن الحدود طالب للارتفاع عن طور البشر ﴿مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ يشك فيما لا يقبل الشك، ويتهم غيره بما لا حظ للتهمة فيه، ديدنه التذبذب في الأمور الدينية فلا يكاد يحقق أمرًا، ولا إسراف ولا ارتياب أعظم من حال المشرك، فإنه منع الحق أهله وبذله لمن لا يستحقه بوجه.

ولما ظهر أن شكهم في رسالة الماضي ونفيهم لرسالة الآتي جدالٌ لا معنى له إلا فتل المحق عما هو عليه من الحق إلى ما عليه المجادل من الضلال قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ ولما كان فاعل هذا لا يكون إلا مظلم القلب قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ وتقديم «كل» نصٌّ في استغراق أفراد القلوب ممن اتصف بهذا الوصف.

ولما ذكر الطبع دل عليه بما ذكر من قول فرعون، فإنه قصد ما لا مطمع في نيله؛ تِيهًا وحماقةً لكثافة قلبه وفساد لبه، فصار به ضحكة لكل من سمعه إن كان ظن أنه يصل إلى ما

أراد، وإن كان قصد التلبيس على قومه للمدافعة عن اتباع موسى عليه السلام فقد نادى عليهم بالجهل والإغراق في قلة الحزم والعقل، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد قول المؤمن هذا، معرضًا عن جوابه لأنه لم يجد فيه مطعنًا ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ وتعليله بالترجي في قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ الذي لا يكون إلا في الممكن، دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق، فإن عاقلًا لا يعد ما رامه في عداد الممكن العادي.

﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ولما كان مما أراد بذلك -مع إيقاف قومه إلى وقت ما عن المتابعة- أن يخيّلهم بأن يقول: طلعت فبحثت عما قال موسى فلم أقف له على صحة، قدم لهم قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ ولما كان عجيبًا أن يخيّل أحد للعقول أنه يصعد إلى السماء، وأن الإلٰه الذي قد كان ولا شيء معه يحده المكان، قال زيادة في التعجيب: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أي: زَيَّن النافذُ الأمرِ وهو الله تعالى بخلقه، والشيطان بالتسبب بالوسوسة التي هي خلق الله ﴿لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ﴾ بنفسه، ومَنَع غيرَه ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ ولما كان قد يظن أن لفرعون نوع تصرف، نفى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾.

ولما كان فساد ما قاله فرعون أظهر من أن يحتاج إلى بيان، أعرض المؤمن عنه مشيرًا بذلك إلى وهيه وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ أي: كلفوا أنفسكم اتباعي لأن السعادة غالبًا تكون في المكروه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨﴾ ولما كان الدواء كله في الإقدام على الباقي والداء كله في الإقبال على الفاني ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ فهي للترفه والانتفاع لمن توسل إلى ذلك بحسن الاتباع، أو للشقاوة والهلاك لمن اجترأ على المحارم واستخف الانتهاك.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ﴾ والكافر لما كان على عزم إدامة الكفر كان عذابه دائمًا، والفاسق لما كان على نية التوبة لاعتقاده أنه في معصية كان عذابه منقطعًا، ولما بين العدل في العقاب بين الفضل في الثواب فقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ والآية من الاحتباك: ذِكر المساواة أولًا عدلًا يدل على المضاعفة ثانيًا فضلًا، وذكر إدخال الجنة ثانيًا يدل على إدخال النار أولًا، وسره أنه ذكر فضله في كل من الشقين.

﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ ۞وَيَٰقَوۡمِ مَا﴾ أي: أيّ شيء من المصالح ﴿لِيٓ﴾ في أني ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَ﴾ مالكم من ذلك في كونكم ﴿تَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي: بصلاحيته للشركة، وإذا لم يكن به علم لم يكن له عزة ولا مغفرة فلم يكن له وجود؛ لأن المُلك لازم الإلهية وهو أشهر الأشياء، فما ادعي له أشهر الأشياء فكان لا يعرف بوجه من الوجوه، كان عدمًا محضًا.

ولما بين أنهم دعوه إلى ذلك في جملة فعليه إشارة إلى بطلان دعوتهم وعدم ثبوتها، قال مشيرًا بالجملة الاسمية إلى ثبوت دعوته وقوتها: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ أصلًا لأنه لا إدراك له إن أريد ما لا يعقل، أو مقبولة إن أريد ما يعقل، فإنه لا دليل عليها بل ولا شبهة ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ﴾ حين لا ينفعكم الذكر في يوم الجمع الأعظم إذا رأيتم الأهوال، قبلتم نصحي أو لا ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ﴾ لأنه لا دعوة لغير الله ﴿أَمۡرِيٓ﴾ فيما تمكرونه بي ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾.

قال صاحب المنازل: "التفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل، فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه، وهو على ثلاث درجات: **الأولى** أن تعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة فلا يأمن من مكر ولا ييأس من معونة ولا يعوّل على نية، **والثانية** معاينة الاضطرار، فلا ترى عملًا منجيًا ولا ذنبًا مهلكًا ولا سببًا حاملًا، **والثالثة** شهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط والتفريق والجمع"(٢٣).

ثم قال مؤكدًا؛ لأن عملهم في مكرهم به عمل من يظن أنه سبحانه لا يبصرهم ولا ينصره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾ فيعلم من يستحق النصرة فينصره لاتصافه بأوصاف الكمال، ويعلم من يمكر فيرد مكره عليه بما له من الإحاطة. ثم قال تعالى مخبرًا أنه صدق ظنه:

---

(٢٣) قال ابن القيم شارحًا: "**الأولى**: أن يتحقق أن استطاعته بيد الله لا بيده، فإن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز، **والثانية**: أن يعاين فقره وضرورته التامة إلى الله، فنجاته إنما هي بالله لا بعمله، وذلك يوجب أن لا يرى ذنبًا مهلكًا، فإن افتقاره إلى الله يمنعه من الهلاك بذنوبه إذ هو لا يصر على ذنوب تهلكه، وأن الحامل له هو الحق تعالى لا الأسباب فإنه وإياها محمولان بالله وحده، **والثالثة**: تتعلق بشهود وصف الله وشأنه، والتي قبلها تتعلق بشهود حال العبد ووصفه" [مدارج السالكين، ٢/ ٤٢٩، بتصرف].

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ فنجاه مع موسى عليه السلام تصديقًا لوعده سبحانه بقوله: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥] ولما كان المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله قال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ وهذه الآية نص في عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ فتكبرتم على الناس بنا، والتبع عند البصريين يكون واحدًا، ولعله عبر به إشارة إلى أنهم كانوا في عظيم الطواعية لهم على قلب رجل واحد، ثم أخبر بجوابهم بصيغة الماضي؛ تأكيدًا لتحقيق وقوعه، ردًا لما قد يتوهمه الضعيف من أن المستكبر له قوة المدافعة وإباء الأنفة فقال: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ فلو قدرنا على شيء لأغنينا عن أنفسنا، ولما كان حكم الله تعالى مانعًا مما كان يُفعل في الدنيا من فك المجرم وإيثاق غيره به، وكان سؤالهم في الإغناء سؤال من يجوّز ذلك قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ۝٤٨﴾ أي: بالعدل.

ولما رأوا بُعدهم من الله علقوا آمالهم بتوسط الملائكة، فأخبر عن ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ الذين من شأنهم تجهّم داخليها؛ ليدل على أنهم لسوء ما هم فيه لا يعقلون، فهم لا يضعون شيئًا في محله كما كانوا في الدنيا ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ﴾ معرّفين لهم بسبب جعلهم في محل الاطراح والسفول عن أن يسمع لهم كلام ﴿أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ الذين هم منكم، فأنتم جديرون بالإقبال عليهم؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل، والإنسان من مثله أقبل ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ ولما كان ذلك موجبًا لأن يظنوا نفعه، أتبعوه بما أيأسهم؛ لأن ذلك أنكأ وأوجع بقولهم: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ أي: ذهاب في غير طريق موصل، كما كانوا هم في الدنيا كذلك، فإن الدنيا مزرعة الآخرة من زرع شيئًا في الدنيا حصده في الآخرة، والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر إلا من جنس ما غرس في الدنيا.

ولما كان حاصل ما مضى أنه تعالى نصر الرسل على أممهم، وكذلك نصر موسى عليه السلام والمؤمن الذي دافع عنه، وكان نصر أهل الله قاطبة خفيًا؛ لأنهم يبتلون ثم تكون لهم

العاقبة، فكان أكثر الجامدين وهم أكثر الناس يظن أنه لا نصرة لهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بإلزامهم طريق الهدى وبالحجة والغلبة، وإن غُلبوا في بعض الأحيان فإن العاقبة تكون لهم، ولو بأن يقيض سبحانه لأعدائهم من يقتص منهم ولو بعد حين، وأقل ذلك أن لا يتمكن أعداؤهم من كل ما يريدون منهم ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لأنهم لا يعتذرون إلا بالكذب ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] أو بالقدر ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ وإذا كان هذا لهم فما ظنك بما هو عليهم، وقد علم من هذا أن لأعدائهم -وهم الرسل وأتباعهم- الكرامة والرحمة وقبول الاعتذار وحسن الدار، فظهرت بذلك أعلام النصرة وتمام القدرة.

﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: في الدين اللازم منه أن تكون له العاقبة وإن تناهت ضخامة من يعانده؛ لأنه ضال عن الهدى، والضال هالك وإن طال المدى ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣﴾ فذكر إيتاء موسى الثمرة وذكر إيراثهم السبب، إشارة إلى أن منهم من جنى ثمرته فاهتدى ومنهم من ضل، وذلك تحذير للأتباع وتشريف للأنبياء ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾.

ولما كان التقدير: ولقد آتيناك الهدى والكتاب كما آتينا موسى، ولننصرنك مثل ما نصرناه، سبب عنه قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي: على أذاهم، فإنا نوقع الأشياء في أتم محالها على ما بنينا عليه هذه الدار من إجراء المسببات على أسبابها، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ قال القشيري: "الصبر في انتظار الموعود من الحق على حسب الإيمان والتصديق، فمن كان تصديقه ويقينه أتم وأقوى كان صبره أكمل وأوفى"، ولما كان من المحتوم أن لزوم القربات يعلي الدرجات فيوصل إلى قوة التصرفات، أمر بالإعراض عن ارتقاب النصر والاشتغال بتهذيب الأحوال، موجهًا الخطاب إلى أعلى الخلق ليكون من دونه من باب الأولى فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾.

ثم قال معللًا للمداومة على الطاعة والإعراض عن الأعداء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ﴾ بصدودهم عن سواء السبيل ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ وآذن

ذكر الصدور دون القلوب بعظم الكِبْر جدًا، بأنه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: ببالغي مقتضاه من إبطال الدين، تكبرًا عن أن يكونوا تحت أوامره ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِۖ﴾ من شر كبرهم كما عاذ به موسى لينجز لك ما وعدك كما أنجز له، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ ثم علل نفيَه لبلوغهم لما قصدوا من الكبر بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

ولما ذكر الظلام والنور الحسيين في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أتبعه المعنويين نشرًا مشوشًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ وعطف البصير بغير «لا» ليكون ظاهر ذلك نفي المساواة بين نوعي الأعمى والبصير، واقتصر على الواو في عطف ﴿الذين آمنوا﴾ لأنه لا ينتظم أن يراد جعل الأعمى والبصير فريقًا، والمؤمن الموصوف فريقًا، وزيدت «لا» في ﴿المسيء﴾ وعبر فيه بالإفراد إشارة إلى أن المراد نفي التساوي بين أفراد كل نوع.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ للحكم بالعدل في المفاوتة بين المسيء والمحسن، ولما وصل الحال في أمرها إلى حد لا خفاء به أصلًا، نفى الإيمان دون العلم فقال تعالى: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ لعناد بعضهم، وقصور نظر الباقين على الحس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ أي: استجيبوا لي بأن تعبدوني وحدي، فتسألوني ما وعدتكم به من النصرة على وجه العبادة، وهذا معنى قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» فقد حصر الدعاء في العبادة سواء كانت بدعاء أو صلاة أو غيرهما، فمن كان عابدًا خاضعًا لله بسؤال أو غيره كانت عبادته دعاء، عن ابن عباس رضي الله عنه: "وحدوني أغفر لكم"، وعن الثوري أنه قيل له: "ادع، فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء".

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ في الدنيا بإيجاد ما دعوتم به أو كشف مثله من الضر أو ادخاره في الآخرة؛ ليظهر الفرق بين من له الدعوة ومن ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تتكلوا على ما سبق به الوعد فكل ميسر لما خلق له ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ودل على أن المراد بالدعاء العبادة بقوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن الاستجابة لها بالمجادلة في آياتي والإعراض عن دعائي في جميع ما ينوبهم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾.

ولما ختم بأمر الساعة، زاد في الدلالة عليه وعلى الحكمة التي لا يسوغ معها إهمال الخلق بعد الإتقان لدار العمل بقوله معللًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ راحة ظاهرية بالنوم الذي هو الموت الأصغر، وحقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولما كان المراد التعميم أظهر ولم يضمر؛ ليتعلق الحكم بالوصف المفهم للنَّوس فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ فينسبون أفعاله سبحانه إلى غيره جهلًا، أو يعملون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك وغيره.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي علم بما ذكر من أفعاله أنه لا يشاركه أحد، ولذلك قال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا رب لكم سواه، ولما كان في سياق الامتنان بالنعم للدلالة على الساعة التي ينكرونها ويجادلون في أمرها، قدم الخلق على التهليل فقال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ولا مانع له من إعادة الثقلين لأنه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بل كان ذلك واجبًا في الحكمة، لأن المنعم عليهم انقسموا إلى شاكر وكافر فوجب الفصل بينهم، وجاء ذلك على ترتيب مطلع السورة، فإن العزيز ناظر إلى كمال القدرة، والعليم هو المتوحد بكمال الذات، فإن إحاطة العلم تستلزم كل كمال، وهذا بخلاف ما مضى في آية الأنعام(٢٤)، فإن السياق هناك لإنكار الشرك وإثبات الوحدانية بما دل عليها من عموم الخلق، طبق ما مضى أيضًا في مطلعها.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: تقلبون عن وجوه الأدلة إلى أقفائها، فتطعنون في الإلهية التي الطعن فيها طعن في وجود هذا الوجود ومكابرة فيه، وذلك مؤد إلى سقوط المتكلم به بكل اعتبار؛ لمكابرته في المشاهَد المحسوس، وفي المعقول المركوز في جميع النفوس ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الصرف الذي لا يقدم عليه عاقل ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فدل هذا على أن كل من تكبر عن حق فأنكره مع علمه به عوقب بمسخ القلب وعكس الفهم، فصار له الصرف عن وجوه الدلائل إلى أقفائها ديدنًا فيموت كافرًا إن لم يرحمه الله.

ثم قال كالمعلل لتسمية هذا الإنكار جحودًا، دالًا بالخافقين بعد الدلالة بما نشأ عنهما من الملوين: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ النافعة الملائمة للطبائع، فلا أدل على تمام العلم وشمول القدرة ووجود الاختيار من هذا التدبير في حفظ المسكن والسقف، وتدبير ما به البقاء على وجه

---

(٢٤) ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾ آية: ١٠٢.

يكفي الساكن من جميع الوجوه، ثم قال على وجه الإنتاج: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤﴾ أي: الذي رباهم هذه التربية، فإنه لا يكون إلا كذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: "من قال: لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين"، ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾.

ولما أمر سبحانه بما دل على استحقاقه إياه، أنتج قطعًا قوله: ﴿۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ ولما أخبر بما يتخلى عنه، أتبعه الأمر بما يتحلى به فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾.

ثم أتبع تلك الأدلة آية أخرى في أنفسهم أظهر مما مضى، فوصل به على طريق العلة؛ لمشاركتهم له ﷺ في الأمر والنهي في التي قبلها قولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

ولما ختم سبحانه الدليل بأن دلالته على البعث لا تحتاج إلى غير العقل، أنتج عنه قوله: ﴿هُوَ﴾ لا غيره ﴿ٱلَّذِي يُحۡيِۦ﴾ كما تشاهدونه، فليست النهاية بأبعد من البداية ﴿وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾.

ولما أنتج ذلك التعجب من حالهم، وكان ذم الجدال بالباطل من أجلّ مقصود هذه السورة قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأشير بأداة الكمال إلى أنه لكماله كأنه لا كتاب غيره؛ لأن من سمعه فكأنما سمعه من النبي ﷺ لإعجازه، فمن كذب بحرف منه فقد كذب بكل كتاب الله، ولما كان التكذيب به تكذيبًا بجميع الرسالات، قال تذكيرًا لهم بأن العمل مع الرسول عمل مع من أرسله: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي: في أعناقهم أيضًا، يقيدهم ذلك عن كل تصرف لكونهم لم يتقيدوا بكتاب ولا رسول، حال كونهم ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ عوض ترفيعهم لأنفسهم عن سحبها بالأدلة الواضحات في كلف العبادات والمجاهدات.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ٧١ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ أي: توقد بهم مكردسين كما يسجر التنور بالحطب، فيملؤونها فتحمى بهم ويشتد اضطرامها؛ لكونهم كانوا في الدنيا وقود المعاصي

والفتن، بهم يشب وقودها ويقوى عودها، لأنهم لم يلقوا أنفسهم في نيران الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومخالفات الشهوات، التي هي في الظاهر نيران وفي الحقيقة جنان.

ثم قال موبخًا لهم ومندمًا: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ ولما دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب، استرسلوا معها فقالوا ملبسين على من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في الدنيا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ عن القصد النافع من حجة وغيرها ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٣﴾ أي: الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها الحق، ثم صار لهم ذلك ديدنًا.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: تبالغون في السرور وتستغرقون فيه للإعراض عن العواقب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ففعلتم فيها ضد ما وضعت له، وزاد ذلك حسنًا قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فأشعر أن السرور لا ينبغي إلا إذا كان مع كمال هذه الحقيقة وهي الثبات دائمًا للمفروح به، وذلك لا يكون إلا في الجنة ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ٧٤﴾.

ولما كان السياق لذم الجدال، وكان الجدال إنما يكون عن الكِبْر، وكان الفرح غير ملازم للكبر، لم يسبب دخول النار عنه بل جعله كالنتيجة لجميع ما مضى فقال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ﴾ ولما كان في النار أنواع من العذاب، دل على تعذيبهم بكل نوع بذكر الأبواب، جزاء على ما كانوا يخوضون بجدالهم في كل نوع من أنواع الأباطيل فقال: ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ٧٥﴾ لكونهم تعاطوا ما لا ينبغي إلا لله «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعنيهما قصمته»، ولم يؤكد جملة «بئس» هنا لأن مقاولتهم هذه بعد علمهم في الآخرة بأحوال النار وما سبّبها، والتأكيد يكون للمنكر ونحوه.

ولما كان في هذا الجزاء أعظم الشماتة بهم، فكان فيه أعظم التسلية لمن جادلوه وتكبروا عليه، سبب عنه قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ارتقابًا لهذه النصرة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن ترى ذلك فيهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٧٦﴾ معنى في الدنيا فنريهم بعد وفاتك من نصر أصحابك عليهم ما نسرك به في برزخك فإنه لا بقاء لجولة باطلهم، وحسًا في القيامة فنريك فيهم فوق ما تؤمل من النصرة المتضمنة لتصديقك وتكذيبهم، وإكرامك وإهانتهم.

ولما قسّم له الله سبحانه الحال إلى إصابتهم أو وفاته ﷺ، وكان أَقرَّ لعينه وأشفى لصدره أن يريهم في حياته آية تلجئهم إلى الإيمان فيزول النزاع بحسن الاتباع كما وقع لقوم يونس عليه السلام، قال معللًا للصبر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فإن لم يأذن رضوا وصبروا واحتبسوا، وإن أذن في شيء جاءهم ما أذن فيه ﴿فَإِذَا جَا أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ولثبات ما أراد ولزومِه عبر عنه بالقضاء، فقال مشعرًا بصيغة المفعول بغاية السهولة: ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٧﴾ أي: المنسوبون إلى إيثار الباطل على الحق، ومن هذه الآية أخذ سبحانه في رد مقطع السورة على مطلعها.

ولما كان المبطلون ليسوا أشد ولا أقوى من بعض الحيوانات العجم، دل على ما أخبر به من نافذ نصرته فيهم بقوله، مذكرًا لهم نعمته مستعطفًا إلى طاعته دالًا على التوحيد بعد تليينهم بالوعيد: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ إشارة إلى أن ذلك هو المقصود منها بالذات، وهو الذي اقتضى تركيبها على ما هي عليه، فنشأ منه بقية المنافع فكانت تابعة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٨ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ونبههم على نقصهم وعظيم نعمته عليهم بقوله: ﴿حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٧٩﴾ وأشار بالبناء للمفعول إلى أنه سخر ذلك تسخيرًا عظيمًا لا يحتاج معه إلى علاج في نفس الحمل ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَاتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨٠﴾.

ولما وضح الأمر إلى حد لا يخفى معه على أحد، لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعقاب المقتضي للترهيب فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ فنبه بالجار على ما تيسر، ولما كان قد تقدم الإنكار عليهم في المجادلة لإدحاض الحق بعدم الاعتبار في الآثار، وأثبت لهم الأشدية وأنها لم تغن عنهم، وكان قد بقي مما قد يتعلل به في المغالبة الكثرة، ذكرها مع الشدة تأكيدًا لمضمون الخبر في أنه لا أمر لأحد مع أمره فقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَا﴾ نفي صريح أو استفهام إنكاري، أي: أيّ شيء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨١﴾ بل كانوا كأمس الذاهب.

ثم شرح حالهم الذي أدى إلى هلاكهم فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ الذي أثّروا به تلك الآثار في الأرض؛ لمعرفة أحوال المعاش وغير ذلك من ظواهر العلوم المؤدية إلى التفاخر والتكاثر، وقوفًا مع الوهم وتقيدًا بالحاضر وقناعة بالفاني، كما قال في التي قبلها: ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾ [الزمر: ٤٩] وكما قال قارون: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨].

وفرحهم به لأنه أداهم إلى التوسع في الدنيا والتلذذ بما فيها، واستهزؤوا بما أتتهم به الرسل من علم الباطن الداعي إلى الإعراض عن الفاني والإقبال على الباقي، والذي حركهم إلى الفرح بما عندهم هو ما هم فيه من الزهرة مع ما يرون من تقلل الرسل وأتباعهم من الدنيا وكثرة ما يعانون من الهموم.

ونصبوا للرسل وأتباعهم المكايد وأحاطوا بهم المكر والغوايل وهمّوا بأخذهم، فأنجينا رسلنا ومن آمن بهم منهم، وأتيناهم بما أزال فرحهم وأطال ترحهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ﴾ ولما كان استهزاؤهم بالحق عظيمًا جدًا عد استهزاءهم بغيره عدمًا، وأشار إلى ذلك بتقديم الجار فقال: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٢﴾ من الوعيد الذي كانوا قاطعين ببطلانه، فعلم قطعًا أنه إنما يفرح من العلم بما يضمن النجاة والسعادة الأبدية، والآية مرشدة إلى أنه لا يتعلم إلا من ظن من نفسه القصور، ولهذا كان أقبل شيء للعلم الصغار.

ولما كانت هذه السورة في بيان العزة التي هي نتيجة كمال العلم وشمول القدرة كرر ذكر المجادلة فيها، وذكر بعض ما اشتد إلفهم له حتى سقطت غرابته عندهم، فنبههم على ما فيه ليكفهم عن الجدال، فلما ثبت عنادهم وغلظتهم حان أن تبرك عليهم أثقال العذاب، فحلت ما أحكموا عقده من شرهم، فقال مبينًا لما أجمل من الحيق مسببًا عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي: عذابنا الشديد على ما له من العظمة التي آذنت بها نسبته إلينا وصدوره عنا.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٣ فَلَمۡ يَكُ﴾ أي: لم يصح بوجه من الوجوه؛ لأنه لا كون يساعد على ذلك ولا بأدنى الدرجات[٢٥] ﴿يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ لأنه إيمان إلجاء واضطرار لا طواعية واختيار ﴿لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ لأن الإيمان لا يتحقق إلا مع الغيب، وأما عند الشهادة فقد كشفت سريرته على أنه قد فاتت حقيقته، فلو ردوا لعادوا، ولو

(٢٥) بما أشار إليه حذف النون.

أتاهم بعد ذلك العذاب لانقادوا ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أن الإيمان بعد كشف الغطاء لا يقبل، وأن كل أمة كذبت الرسل أهلكت ﴿وَخَسِرَ﴾ ولما كان المكان لا ينفك عن الزمان استعير ظرفه له، وليدل على غاية التمكن فقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت العظيم ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٤﴾.

وقد التف آخرها بما بين من كمال العزة وتمام القدرة وشمول العلم مما رتب من أسباب الهداية والإضلال والنجاة والإهلاك = بأولها أيّ التفاف، فسبحان المنزّل.

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الإعلام بأن العلم إنما هو ما اختاره المحيط بكل شيء قدرة وعلمًا من علمه لعباده فجاءتهم به عنه رسله، وهو العلم الحامل على الإيمان والطاعة المقترن بهما كما تقدم في قوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩]، فتكون عاقبته الكشف الكلي حين يكون سبحانه سمْع العالِم «الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» إلى آخر الحديث القدسي الذي معناه أنه يوفقه فلا يفعل إلا ما يرضيه، وعلى ذلك دل اسمها «فصلت» بالإشارة إلى ما في الآية المذكورة فيها هذه الكلمة من الكتاب المفصل، و«السجدة» بالإشارة إلى ما في آيتها من الطاعة له بالسجود الذي هو أقرب مقرب من الله، و«التسبيح» الذي هو المدخل للإيمان.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي لم يرض -لإحاطته بأوصاف الكمال- من جلال العلم إلا ما اقترن بجمال العمل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، ففصل الكتاب وبينه غاية البيان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص العلماء العاملين بسماع الدعوة ونفوذ الكلمة.

ولما ختمت غافر بأن الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الدنيا، وأنهم عند البأس تبرؤوا منه ورجعوا إلى ما جاءت به الرسل فلم يقبل منهم، فعلم أن كل علم لم ينفع عند الشدة فليس بعلم بل الجهل خير منه، افتتح هذه السورة بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وقوة توجب له القيام فيما ينفعه، وأعلم أن الكتاب فصل تفصيلًا لا يضره جدال مجادل فقال: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾.

ولما تشوف السامع إلى بيان هذا التنزيل المفرق بالتدريج بيّن أنه مع ذلك حاوٍ لكل خير، فقال مبدلًا من ﴿تنزيل﴾: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حال كونه ﴿قُرْءَانًا﴾ أي: جامعًا مع التفصيل ومحفوظًا، بما تؤديه مادة «قرا» من معنى الإمساك، وهو مع حفظه وربطه منشور اللواء منتشر المعاني، كلما دقق النظر جل المفهوم، ولذلك قال تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ لأن لسان العرب أوسع الألسن وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعًا، قال الحرالي: "وهو قرآن لجمعه، فرقان لتفصيله، ذِكر لتنبيهه على ما في الفطر، عربي لبيانه عن كل شيء، مبين لمحوه الكفر بما أبان من إحاطة أمر الله".

ولما كان لا يظهر إلا لمن له قابليته ولازم الأبواب، قال معلقًا بـ﴿فصلت﴾ أو ﴿ تنزيل﴾ أو ﴿الرحمن الرحيم﴾: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ أي: فيهم قابلية العلم وتجدد الفهم، بما فيهم من سلامة الطبع وسلاسة الانقياد وفصاحة اللسان، وفي هذا تبكيت لهم في كونهم لا ينظرون محاسنه فيهتدوا بها كما يعتنون بالنظر في القصائد حتى يقضوا لبعضها على بعض.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم، وكان بناؤها على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها، ألا ترى تأنيس نبيه ﷺ بقوله: ﴿فلا يغررك تقبلهم في البلاد﴾ [غافر: ٤] فقد تقدم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الوبيل ﴿كذبت قبلهم﴾ إلى ﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ [غافر: ٥]، ثم ذكر تعالى من حزب المكذبين فرعون وهامان وقارون، وبسط القصة تنبيهًا على سوء عاقبة من عاند وجادل بالباطل وكذب الآيات.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين يجادلون﴾ إلى ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ إذ القوة ليست لهم ﴿فاستعذ بالله﴾ [غافر: ٥٦] من شرهم، ثم أعاد تنبيههم فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ [غافر: ٨٢] إلى ختم السورة، ولم يقع من هذا التنبيه الذي دارت عليه آي هذه السورة في سورة الزمر شيء ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات، فلما بنيت على هذا الغرض أعقبت بذكر الآية العظيمة التي قامت بها حجة الله سبحانه على الخلق.

وتضمنت هذه السورة من بيان عظيم الكتاب وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها، كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة، وقولهم فيها: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته، وتحملت السورة مع هذا بيان هلاك من عاند ممن كان أشد قوة منهم، وهم الذين أجملهم في غافر في آيتي: ﴿أو لم يسيروا﴾ ﴿أفلم يسيروا﴾ [الآيتين: ٢١، ٨٢] فقال تعالى مفصلًا لبعض ذلك الإجمال: ﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ الآيات، فالتحمت السورتان".

ولما كان حال الإنسان إن مال إلى جانب الخوف: الهلع، أو إلى جانب الرجاء: البطر، فكان لا يصلحه إلا الاعتدال، قال واصفًا لـ﴿قرآنًا﴾: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ روى أبو نعيم في الحلية عن علي رضي الله عنه: "وأعجب ما في الإنسان قلبه، وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، إن سنح له الرجاء ادلهمه الطمع، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن سعد بالرضى نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحزن، وإن أصابته

مصيبة قصمه الجزع، وإن أفاد مالًا أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة شغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، فكل تقصير به مضر وكل إفراط به مفسد".

ولما كانت عادتهم دوام الاحتياط في كل بشارة ونذارة بأمر دنيوي، سبب عن هذا مخالفتهم لعادتهم في ذلك فقال: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تجويز شيء من بشائره أو نذائره ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿لَا يَسْمَعُونَ ۝٣﴾ أي: يفعلون فعل من لا يسمع، فهم لا يقبلون شيئًا مما دعا إليه وحث عليه. ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ ولما كان السياق في الكهف للعظمة كان الأنسب له أداة الاستعلاء فقال: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ [الآية: ٥٧]، وعبروا هنا بالظرف إبعادًا لأن يسمعوا ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ أي: مبتدئ من الحد الذي فصلك منا وفصلنا منك ﴿حِجَابٌ﴾ فأفادت «من» أنهم لا يثبتون الحجاب في غير أمور الدين ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٤﴾.

ولما عللوا إعراضهم بعدم فهمهم لما يدعو إليه، أمره بجواب يبين عنادهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فلا وجه لعدم رؤيتي أو إدراك ما أقول، ولما كان ادعاؤهم لعدم المواصلة بينهم قد تضمن شيئين: أحدهما فيه، والآخر فيما يدعو إليه، ونقض الأول، قال في الثاني: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فليس ما أوحي إلي معبرًا عنه بجمل طوال تمل أو تنسى أو تغمض وإنما هو حرف واحد وهو التوحيد، فلا عذر لكم في عدم فهمه ولا سماعه ﴿فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ﴾ ولما كان أعظم المراد من الوحي العلم والعمل، وكان رأس العلم التوحيد فعرّفه، أتبعه رأس العمل وهو ما أنبأ عن الاعتراف بالعجز مع الاجتهاد فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٥﴾.

ولما كانت العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادة في التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وكان أفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بوحدانيته، فكان أخس الأعمال بين العبد وربه: الإخلال بذلك، وبين العبد والخلق: منع ما أوجبه الله في الزكاة، وكان معنى الشرك: الحكم بأن ما لا شيء له ولا يمكن أن يكون له ملك تام على شيء أصلًا، قد شارك من له الكل خلقًا وتصرفًا في ملكه التام الذي لا شوب فيه، وكانت الزكاة إشراك من له ملك غير تام لمثله في جزء يسير من ماله، قال ذامًا لمن أبى أن يشارك الخلائق وأشرك بالخالق: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ولما تضمن إشراكهم وإنكارهم البعث: أنهم أداهم شحهم إلى استغراقهم في الدنيا والإقبال على لذاتها فأنكروا الآخرة قال: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٦﴾ فأقبح بهذه عقولًا وأسفِل بها هممًا، فقد تضمنت الآية أن الويل لمن اتصف بثلاث: الشرك الذي هو ضد التعظيم لأمر الله، والامتناع من الزكاة الذي هو ضد الشفقة على خلق الله، وإنكار القيامة المؤدي إلى الاستغراق فيما أبغض الله، وهو من الاستهانة بأمر الله.

قال الأصبهاني: "وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة: أن الإنسان له ثلاثة أيام: أمس واليوم والغد، فمعرفة كيف كانت أحواله في الأزل هو بمعرفة الخالق، ومعرفة كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر هو بالإحسان إلى الخلائق، ومعرفة الأحوال في اليوم المستقبل بالإقرار بالبعث والقيامة، فإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما آتاهم الله من العلم النافع ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الزكاة وغيرها ليكون عملهم شرعيًا نافعًا، وأسقط الفاء إيذانًا بعظم الجزاء لأن سببه رحمة الرحيم، ولو ذكرها لآذنت أنه على مقدار العمل الذي هو سببه فقال: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٧﴾.

ولما ذكر سبحانه سفههم في كفرهم بالآخرة، شرع في ذكر الأدلة على قدرته، الدال على أنه واحد لا شريك له فقال: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ فتنكرون قدرته على إعادة ما خلقه منها ابتداء، مع اعترافكم بأنه ابتدأ خلقها وخلق ذلك منها ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها قابلة ميسَّرة صالحة بالأقوات والمنافع من الذوات والمعاني المعينة على محاسن الأعمال، الميسِّرة للسير إليه والإقبال عليه، ودالة على صفاته الحسنى وأسمائه العلى، وغير ذلك من المعارف والقوى ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ ومن ذلك أنه خص بعض البلاد بشيء لا يوجد في غيرها لتنظيم عمارة الأرض كلها باحتياج بعضهم إلى بعض، فكان ما أودع فيها لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلًا، وإنما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم إليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه، وفي الأرض أضعاف كفايته.

﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ ولم يفعل ذلك في أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه؛ لأن هذا أدل على الاختيار وأدخل في الاختبار، وجعل مدة خلقها ضعف مدة السماء مع كونها أصغر؛

دلالة على أنها هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين، فذلك دلالة على أن المدة ما هي لأجل القدرة بل لأجل التنبيه على ما في المقدَّر من المقدور وعجائب الأمور، ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لإجراء أمرها على ما نتعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت، تنبيهًا على أنه بنى أمر دارنا هذه على الأسباب، تعليمًا للتأني وتدريبًا على السكينة والبعد من العجلة.

﴿سَوَآءَ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٩ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١٠ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١١﴾ وكما قدر سبحانه ذلك بعزته وعلمه، قضى أنه لا يفيد العزَّ الدائمَ إلا ما شرعه من العلم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم: إن لكم سلفًا في العناد فإن أبيتم ألحقناكم بهم، وهو معنى ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ قال البغوي وابن الجوزي: "الصاعقة: المهلكة من كل شيء"، والحاصل أنه عذاب كأنه في شدة وقعه صاعقة ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الخلف كناية عن الخفاء والقدام عن الجلاء، أو يكون ما بين الأيدي هو من جاءهم لأنهم علموا بمجيئه علم من ينظر من قدامه، وما خلفهم: ما غاب عنهم ممن تقدمهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ أن يرسل إلينا رسولًا ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ لكنه لم ينزل ملائكة فلم يشأ أن يرسل رسولًا، فتسبب عما قالوه من القياس الاستثنائي الذي استنتجوا فيه مِن نقيضِ تاليه نقيضَ مقدَّمِه؛ لما جعلوا بين المقدم والتالي من الملازمة بزعمهم قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤﴾ وقد كذبوا في قياسهم الذي لم يأخذوه عن عقل ولا نقل؛ لأنه لا ملازمة بين الأمرين.

ولما جمعهم فيما اجتمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به، فصل ما اختلفوا فيه فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولما كان الكبر قد يكون بالحق كما على من خالف أمر الله قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمر الذي يطابقه الواقع، وهو إنكار رسالة البشر، فإن الواقع إرسالهم ﴿وَقَالُوا۟﴾ مع استكبارهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ﴾ فنحن نقدر على دفع ما يأتي من العذاب الذي يهددنا به هود ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: يعلموا علمًا كالمشاهدة في ضروريته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ ولما بين كبرهم، عطف عليه من غرائزهم ما هو أصل لكل سوء فقال: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾.

وزاد في تحقيرهم بأن أخبر أنه أهلكهم لأجل ما تعززوا به من قوتهم بما هو من ألطف الأشياء جسمًا وهو الهواء فقال: ﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ ولما تقدم في هذا السياق استكبارهم على الوجه المذكور، اقتضى الحال تحقيرهم في إهلاكهم فقال تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ بجمع القلة وهو أدل عليه من إفراد «اليوم» كما في القمر؛ لأنه قد يراد به زمان يتم فيه أمر ظاهر ولو طالت مدته ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ الذي يهينهم ويفضحهم، بما تعظّموا على كلمة الله التي أتتهم بها رسله، ووصف العذاب بالخزي الذي هو للمعذَّب به مبالغة في إخزائه له.

﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٥ ۞وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بينا لهم طريق الهدى ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ أي: الضلال ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى طلب حبه ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٦ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٧﴾.

ولما ذكر حالهم في الدنيا وأشار إلى حال الآخرة، أتبعه تفصيل ذلك فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٨ حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ وأكد الكلام؛ لإنكارهم مضمونه، بزيادة النافي فقال: ﴿مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ ولما كان حال الكفار دائمًا دائرًا بين غباوة وعناد قالوا: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ والعلم القطعي حاصل عندكم بأنكم كنتم عدمًا ثم نطفًا ثم طوركم في أدوار الأطوار حتى أوصلكم إلى حيز الإدراك ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٠﴾ في كل حين، من أول ما خلقتم إلى ما لا نهاية له.

ولما اعتذروا بما إخبارهم به في الدنيا وعظ وتنبيه، وفي الآخرة توبيخ وتنديم، قالوا مكررين للوعظ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن﴾ إنما كان استتاركم لأنكم ﴿ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١﴾ وهو ما كنتم تعدونه خفيًا، فهذا الذي جرأكم على ما فعلتم، فإن كان هذا ظنكم فهو كفر، وإلا كان عملكم عمل من يظنه فهو قريب من الكفر، والمؤمن حقًا من علم أن الله مطلع على سره وجهره فلم يزل مراقبًا هائبًا.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ وأما معاصي الجوارح مع التوحيد والتنزيه فأمرها أسهل، والحاصل أن كل ظن كان غير مأذون فيه من الشارع فهو يردي صاحبه، ولما كان الصباح محل رجاء الأفراح فكان شر الأتراح ما كان فيه قال: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٢﴾ فالمعنى أنه إذا صار حالكم حال من أصبح كذلك، لم يكن للربح وقت يتدارك فيه، ويوم القيامة لا يوم بعده يسعى فيه للربح، فينبغي للمؤمن أن يكون حال خلوته أشد ما يكون هيبة لله ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٣﴾.

ولما ذكر وعيدهم في الدنيا والآخرة، أتبعه كفرهم الذي هو سببه فقال: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ أي: أشخاصًا أمثالهم في الأخلاق والأوصاف، وهم مع شدة الالتصاق بهم في غاية النحس واللؤم واللجاجة، فيما يكون به ضيق الخير واتساع الشر من غواة الجن والإنس ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: ما يعلمون قبحه حتى حسنوه لهم فارتكبوه ورغِبوا فيه ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: ما يجهلون أمره، ولا يزالون في كل شيء يزينونه ويلحون فيه ويكررونه حتى يقبل، فإن التكرير مقرون بالتأثير.

قال القشيري: "إذا أراد الله بعبد سوءًا قيض له إخوان سوء يحملونه على المخالفات، وإذا أراد الله بعبد خيرًا قيض له قرناء خير يعينونه على الطاعات، ومن ذلك الشيطان، وشر منه النفس وبئس القرين، تدعو اليوم إلى ما فيه الهلاك وتشهد غدًا عليه"، ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ قدم الأقوى لتُفهِم القدرةُ عليه القدرةَ على ما دونه من باب الأولى، فإن الإنس كانوا يعدون أنفسهم دون الجن فيعوذون بهم ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٤﴾ فعلى العاقل أن يجتهد في اختيار أصحابه وأحبابه، فإن العاقبة فيهم حسنة جسيمة أو قبيحة وخيمة.

ولما أخبر بخسرانهم، دل عليه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات حال تلاوته؛ ليقع تاليه في السهو والغلط ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٥﴾ في أن لا يميل إليه أحد، وهذا يدل على أنهم عارفون بأن من سمعه ولا هوى عنده مال إليه وأقبل بكليته عليه، وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها، وذلك لأنهم تحدُّوا به في أن يأتوا بشيء من مثله ليعدوا غالبين، فلم يجدوا إلا الصفير والتصفيق ونحوه من اللغو في معارضة ما علا من أعلى ذرى الكلام.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ولما رأوا أن الذي أوجب لهم هذا السوء: جلودهم بالشهادة عليهم وقرناؤهم بإضلالهم، خصوا القرناء بإرادة الانتقام منهم فقالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَا أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ جامعين بين الأس الذي هو المعرفة والاعتقاد، والبناء الذي هو العمل الصالح، فإن أصل الكمالات النفسانية يقين مصلح وعمل صالح، ورأس المعارف اليقينية معرفة الله، ورأس الأعمال الصالحة الاستقامة على حد الاعتدال ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ امتثالًا لما أمر به أول السورة في قوله: ﴿إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه﴾ [الآية: ٦].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالتأييد، ثم شرح ما يؤيدونهم به وفسره فقال: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على شيء فاتكم، فإن ما حصل لكم أفضل منه، فأوقاتكم الأخراوية كلها روح وراحة، فلا يفوتهم لذلك محبوب ولا يلحقهم مكروه ﴿وَأَبْشِرُواْ﴾ أي: املؤوا صدوركم سرورًا يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه ونعمة الجسد، قال الرازي في اللوامع: "يبشرون في ثلاثة مواضع: عند الموت وفي القبر ويوم البعث"، وهذا محمول على الكلام الحقيقي، وما قبله على أنهم يفعلون معه ما ترجمته ذلك.

﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نجتلب لكم المسرات ونبعد عنكم المضرات ونحملكم على الخيرات، بحيث يكون لكم فيها ما تؤثره العقول بالامتناع مما تهواه النفوس، ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ لأجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ولما كان هذا كله بالنسبة إلى ما يعطون شيئًا يسيرًا، نبه عليه بقوله: ﴿نُزُلًا﴾ أي: هذا كله يكون لكم كما يقدم إلى الضيف عند قدومه إلى أن يتهيأ ما يضاف به ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

فالحاصل أن المفسد يقيض الله له قرناء السوء من الجن والإنس يزيدونه فسادًا، والمصلح ييسر الله له أولياء الخير من الإنس والملائكة يعينونه ويحببونه في جميع الخيرات ويبعدونه ويكرهونه في جميع المضرات، والله يتولى الصالحين.

ولما كان هذا لمن كمّل نفسه أتبعه بمن أكمل غيره، إشارة إلى أن السعادة التامة أن يكمّل الإنسان نفسه بالفضائل، فإذا فرغ اشتغل بتكميل الناقص، وتنويهًا بقدر النفع المتعدي وحثًا على مداومة الدعاء وإن أبوا فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه، وحذف الموصوف لئلا يوهم تقييده بالأعمال الظاهرة، وللإغناء عنها بـ﴿دعا﴾، بخلاف ما كان سياقه للتوبة كآية الفرقان أو اعتقاد الحشر كآية الكهف(٢٦)، فإنه لا بد فيه من إظهار العمل ليكون شاهدًا على صحة الاعتقاد وكمال التوبة، والدعاء هنا مغن عن ذلك ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

ولما لم يكن أحد أحسن قولًا منه، وكان القيام بتكميل الخلق يحتاج إلى جهاد للنفس عظيم من تحمل المشاق والصبر على الأذى، قال ترغيبًا في الحسنات: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي: في نفسها ولا بالنسبة إلى جنس آخر، ولما أنتج هذا الحث على الإقبال على الحسن والإعراض عن السيئ وأفهم تفاوت القسمين، وكان الإنسان لا ينفك عن عوارض تحصل له من الناس ومن نفسه يحتاج إلى دفع بعضها، أنتج عنه قصد الأعلى فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ولما كانت هذه الخصلة أمًا جامعة لجميع مصالح الدين والدنيا، قال منبهًا على أنها مخالفة لجبلة الإنسان حثًا على الرغبة في طلبها من واهبها: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ وكرر إظهار البناء للمفعول للتنبيه على أنه لا قدرة عليها أصلًا إلا بتوفيق الخالق بأمر باطني يقذفه الله في القلب قذفًا وحيًا تظهر ثمرته على سائر البدن، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا﴾ وأفرد هنا بعد جمع الصابر دلالة على ندرة المستقيم على هذه الخصلة ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ في الدنيا والآخرة عند الله وعند الناس.

﴿وَإِمَّا﴾ ولما كانت وسوسة الشيطان تبعث على ما لا ينبغي، وكان العاقل لا يفعل ما لا ينبغي إلا بالإلجاء، شبه المتعاطي له بالمنخوس فقال: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولما كان المقام خطرًا لأن الطبع مساعد للوسواس، جعل النزغ نفسه نازغًا فقال: ﴿نَزْغٌ﴾ أي: وسوسة تبعث إلى الموسوَس من أجله بعثَ المنخوس إلى الجهة التي يوجه إليها ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اطلب منه الدخول في عصمته مبادرًا إلى ذلك، ولا تذر النزغة تتكرر بل ارجع إلى المحيط

---

(٢٦) في قوله تعالى: ﴿وعمل عملًا صالحًا﴾ الفرقان: ٧٠، ﴿فليعمل عملًا صالحًا﴾ الكهف: ١١٠.

علمًا وقدرة في أول الخطرة، فإنك إن لم تخالفها صارت فكرة فيحصل العزم فتقع الزلة فتصير قسوة فيحصل التمادي، نبه عليه القشيري، ولما كانت الاستعاذة هنا من الشيطان، وكان نزغه مما يعلم لا مما يرى، قال مؤكدًا؛ لوقوف الجامدين مع الظواهر: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك وغيرها ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ بنزغه وغيره، فهو القادر على رد كيده.

ولما ذكر أنهم جعلوا له أندادًا، وختم ذلك بأن أحسن الحسن الدعاء إلى الله، أتبعه دلائل التوحيد إعلامًا بأنه يطرد كل سيئ فقال: ﴿۞وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾ ولما كانت الشمس والقمر من آياته المعرِّفة به وكانا مشاهدين، وكان الإنسان قاصر العقل مقيد الوهم بالمشاهدات، أنتج قوله محذرًا من عبادتهما لما يرى لهما من البهاء وفيهما من المنافع: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فإن أشركتم به شيئًا بسجود أو غيره فما خصصتموه بالعبادة، ومن أشرك به لم يعبده وحده، ومن لم يعبده وحده لم يعبده أصلًا؛ لأنه أغنى الأغنياء لا يقبل إلا الخالص.

ثم قال معبرًا بأداة الشك تنبيهًا على بُعد استكبارهم بعد إقامة الأدلة، وصرَف القول إلى الغيبة تحقيرًا لهم: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ولما كان حال الكفار في الإخلاص مختلفًا في الشدة والرخاء، قبّح ذلك منهم بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ أي: يجددونه مستمرين عليه في كل وقت، ولذا قال: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٧﴾﴾.

ولما ذكر بعض آيات السماء لشرفها ولأن بعضها عُبد، أتبعه بعض آيات الأرض، بخلاف ما في يس فإن السياق هناك للبعث وآيات الأرض أدل فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ ولما كان السياق للوحدانية، عبر بما هو أقرب إلى حال العابد بخلاف ما مضى في الحج[٢٧] فقال: ﴿خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ وكذلك القلوب إذا خشعت لِما ألمّت به من الذنوب، أقبل الحق سبحانه عليها فطهرها بمياه المعارف، فظهرت فيها بركات الندم، وأشرقت بحلى الطاعات وزكت بأنواع التجليات ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ولما بين أن الدعوة إلى الله أشرف المراتب، وأنها إنما تحصل ببيان دلائل التوحيد التي من أعظمها البعث، وبينه إلى هذا الحد من الوضوح، قال مهددًا من أعرض عنه، مؤكدًا تنبيهًا

---

(٢٧) في قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ الآية: ٥.

على أن فعلهم فعل من يظن أنه سبحانه لا يطلع على أعماله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ أي: يميلون بصرف المعاني عن القصد وسنن العدل، أو يماحلون باللغو بالمكاء والتصدية وغيرهما من اللغط وكل ما يشمله معنى الميل عما تصح إرادته ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ولما كان العلم بالإساءة مع القدرة سببًا للأخذ قال: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾.

ولما كان الإلحاد سببًا لإلقاء صاحبه في النار قال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فأنتج ذلك قوله، صارفًا القول إلى الخطاب؛ لأنه أدل على الغضب على المتمادي بعد هذا البيان: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ أي: فقد علمتم مصير المسيء والمحسن، فمن أراد شيئًا من الجزاءين فليعمل أعماله ﴿إِنَّهُۥ﴾ وقدم أعمالهم تنبيهًا على الاهتمام بشأنها جدًا فقال: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩﴾.

ولما جعل إليهم الاختيار في العمل [بيّن بعض عملهم الذي استحقوا عليه التهديد] فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ من غير توقف أصلًا، فدل ذلك منهم على غاية العناد ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: والحال أنه ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤٠﴾ فهو يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر، ويُعجِز كل معارض ولا يَعجَز عن إقعاد مناهض. ولما كان من معاني العزة أنه ممتنع من أن يلحقه تغيير ما قال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ سواء كان حكمًا أو خبرًا؛ لأنه في غاية الحقية والصدق ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ أي: لا يأتيه من أي جهة؛ لأن ما قدام أوضح ما يكون، وما خلف أخفى ما يكون، فما بين ذلك من باب الأولى، ثم علل ذلك بقوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ﴾ فهو يضع كل شيء منه في أتم محاله ﴿حَمِيدٖ ٤١﴾ أي: بالغ الإحاطة بأوصاف الكمال، والخبر محذوف وهذا أهول لتذهب النفس كل مذهب.

ولما نفى إمكان لحوق نقص بالذكر، فبطل قولهم ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦] ونحوه، أتبعه التسلية مما يلحق به من الغم؛ ليقع الصبر على جميع أقوالهم وأفعالهم فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ مما يحصل به ضيق صدر أو تشويش فكر ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ ولما كان موضع التوقع أن يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم من عذاب الاستئصال، قال مخوفًا مرجيًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٢﴾ وقد تقدم فعله لكل من الأمرين، أنجى ناسًا وغفر لهم كقوم يونس عليه السلام وعاقب آخرين.

ولما افتتحت السورة بأنه أنزل على أحسن الوجوه وأكملها من التفصيل والجمع والبيان بهذا اللسان العظيم، فقالوا فيه ما وقعت هذه التسلية لأجله من قولهم: ﴿قلوبنا في أكنة﴾ الآية، قال عطفًا على ﴿فصلت آياته قرآنًا عربيًا﴾، فيكون التقدير: جعلناه عربيًا معجزًا وهم أهل العلم باللسان، فأعرضوا عنه وقالوا فيه ما تقدم ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا﴾ ليشهد كل أحد أنه معجز للعجم كما أن هذا معجز للعرب ﴿لَّقَالُواْ﴾ فيه كما يقولون في هذا بغيًا وتعنتًا: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ أي: بينت على طريقة نفهمها بلا كلفة ولا مبيِّن.

ولما تبين قولهم في العربي الصرف وما كانوا سيقولون في الأعجمي الصرف فلم يبق إلا المختلط منهما، قال منكرًا عليهم؛ للعلم بأن ذلك منهم مجرد لدد لا طلبًا للرشد ﴿ءَا۬عۡجَمِيٌّ﴾ أي: أمطلوبكم أعجمي ﴿وَعَرَبِيٌّۗ﴾ مفصل باللسانين!

والأعجمي كما قاله الرازي في اللوامع: "الذي لا يُفصِح ولو كان عربيًا، والعجمي من العجم ولو تفاصح بالعربية"، ولما كان ذلك نزولًا من الرتبة العليا إلى ما دونها، مع أنه لا يجيب إلى المقترحات إلا مريد للعذاب أو عاجز عن إنفاذ ما يريد، بين أن مراده نافذ من غير هذا فقال: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ قال القشيري: "فهو شفاء للعلماء بالراحة من كد الفكرة وتحير الخاطر، ولضيق الصدور بقراءته والتفكر فيه، ولقلوب المشتاقين بلطائف المواعيد، وللعارفين بأنوار التحقيق وآثار خطاب العزيز".

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ لأنهم ردوه أول ما سمعوه فصاروا لا يقدرون على تأمله، فأصمهم الكسل والفشل فعز عليهم فهمه ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ وذلك لما يحصل لهم من الشبه التي هيئت قلوبهم لقبولها، أو يتمادى بهم في الأوهام التي لا يألفون سواها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٣﴾. ثم عطف عليه مسليًا قولَه، مؤكدًا لمن يقول من أهل الكتاب: لو كان نبيًا ما اختلف الناس عليه، ونحوه مما يلبس به: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ لأن الله خلق الخلق للاختلاف، وركب فيهم العقول الداعية إلى الاتفاق ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بإنصاف المظلوم من ظالمه ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي: القضاء يوم الفصل ﴿مُرِيبٖ ٤٤﴾.

ولما تقرر بما مضى أن المطيع ناج والعاصي هالك، كانت النتيجة: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أي: فنفع عمله لها ببركتها به لا يتعداها، والنفس فقيرة إلى التزكية بالأعمال

الصالحة لأنها محل النقائص فلذا عبر بها، وكان قياس العبارة في جانب الصلاح «ومن عمل سيئًا» فأفاد العدول إلى ما عبر به مع ذكر العمل أولًا الذي مبناه العلم: أن الصالح تتوقف صحته على نيته، وأن السيئ يؤاخذ به عامله في الجملة من الله أو الناس ولو وقع خطأ، فلذا قال: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٥﴾.

ولما نفى الظلم، وكان الجزاء على الإساءة والإحسان يوم القيامة يُظهِر لكل أحد ظهورًا بينًا أنه لا ظلم أصلًا قال: ﴿۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ ولما كانوا ينازعون في وقوعها فضلًا عن العلم بها، ذكر ما يدل على شمول علمه لكل حادث في وقته دليلًا على علمه بما يعين وقت الساعة، وذلك على وجه يدل على قدرته عليها وعلى كل مقدور بما لا نزاع لهم فيه فقال: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ ولما ثبت بهذا علمه وقدرته وتقرر أمر الساعة، قال مقررًا لبعض أحوالها ولقدرته وعجز ما ادعوا من الشركاء: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٦﴾ بحيث لا يغيب عن علمه شيء، ولذا لا نعلم أين هم.

ولما قرر جهلهم أتبعه عجزهم فقال: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ وكأنهم كانوا -لما هم عريقون فيه من الجهل وسوء الطبع- يتوقعون أن يظفروا بهم فيشفعوا لهم، فلذا عبر بالظن فقال: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٧﴾.

ولما دل اتباعهم للظن حتى في ذلك اليوم على غاية الجهل والعجز، أتبعه الدليل على أن ذلك طبع الإنسان، فلا يزال متبدل الأحوال متغير المناهج، إن أحس بخير انتفخ وتطاول، وإن مُسَّ ببلاء ضعف وتضاءل، وذلك ضد مقصود السورة الذي هو العلم، بيانًا لأن حاله بعيد من العلم عريق في الجهل والشر إلا من عصمه الله، فقال: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: طلبه طلبًا عظيمًا، وذلك دال مع شرهه على جهله، فإنه لو علم أن الخير يأتيه أو لا يأتيه لخفف عن نفسه من جهده في الدعاء ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٨﴾ أي: مقيم في دارة انقطاع الأمل والخواطر الرديئة، فهو تأكيد للمعنى على أحسن وجه وأتمه، وهذا هو ما طبع عليه الجنس، فمن أراد الله به منهم خيرًا عصمه، ومن أراد به شرًا أجراه مع الطبع فكان كافرًا؛ لأنه لا ييأس من روح الله إلا

القوم الكافرون، قال أبو حيان: "واليأس من صفة القلب وهو أن ينقطع رجاؤه من الخير، والقنوط أن يظهر عليه آثار اليأس فيتضاءل وينكسر"، وبدأ بصفة القلب لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: نعمة عظيمة من جهة لا يرجوها، ولذا عبر بأداة الشك ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ﴾ بمجرد ذوقها، على أنها ربما كانت استدراجًا: ﴿هَٰذَا لِي﴾ أي: خاصة لما لي من الفضل وهو ثابت أبدًا، انتقالًا من اليأس إلى البطر على قرب زمن المحن ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فقطع الرجاء منها، سواء عبر عنه بلسان قاله أو حاله بفعله فِعلَ الشاك فيها، كما كان قطع الرجاء من الخير عند مباشرته للشر ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ ولما كان هذا كفرًا صراحًا لنسيان المنعم وإيجاب الإنعام والشك فيما أخبر تعالى على ألسنة الرسل أنه محط حكمته قال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ وأظهر الوصف للتعميم والتعليل فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٤٩﴾﴾.

ولما بين جهله في حالات مخصوصة، بين حاله عند النعمة مطلقًا، تكريرًا لتقلب أحواله وتناقض أقواله وأفعاله على وجه آخر؛ ليكون داعيًا له إلى عدم الأنفة من الرجوع عن الكفر إلى الإيمان، ومسقطًا عنه خوف السبة بذلك والنسبة إلى الخفة وعدم الثبات، فقال معبرًا بأداة التحقيق دلالة على حاله عند مس نعمة يتوقعها، بعد بيان حاله عند مسها بغتة من غير توقع: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾.

ولما تقدم حال الإنسان عند مس الشر بغتة، بين حاله عند مسه وهو يتوقعه، فقال معبرًا بأداة التحقيق؛ ليدل على أنه لزيادة جهله على الحد يلزم الكبر وإن كان يتوقع الشر، ولا يزال حاله حال الآمن إلى أن يخالطه وحينئذ تنحل عراه وتضمحل قواه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٠﴾﴾ في كشفه، ولا يدعو إلا عند المس، وقد كان ينبغي له أن يشرع في الدعاء عند التوقع بل قبله، تعرفًا إلى الله تعالى في الرخاء ليعرفه في الشدة، وهو خلق شريف لا يعرفه إلا أفراد خصهم الله بلطفه.

ولما ذكر من أحوالهم المندرجة في أحوال هذا النوع ما كشف أنه لا ثبات لهم لا سيما عند الشدائد؛ إعلامًا بجهلهم وعجزهم، دل عليهما بأنهم لا يجوّزون الممكن فيعدون له ما يمنعه على تقدير وقوعه فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن الذي نصبتم لمغالبته،

وليس ذلك منكم عن حجة في أمره أنتم معها على يقين، بل هو عن خفة وعدم تأمل منكم أنه ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان الكفر به على هذا التقدير في غاية البعد، عبر بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي: بعد إمعان النظر فيه والتحقق أنه حق، وآمن غيركم ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ تنبيهًا على أنهم صاروا كذلك.

﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥١ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقد بين سبحانه في هذه من آيات الآفاق في آية: ﴿أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض﴾ [الآية: ٩] وما شاكلها، وفي الأنفس في آيات ﴿فقل أنذرتكم صاعقة﴾ [الآية: ١٣] ونحوها، وآيات ﴿لا يسأم الإنسان﴾ [الآية: ٤٩] إلى آخرها الدالة على أن الإنسان مبني أمره على الجهل والعجز، فأكثر ما يتصوره ليس كما تصوره، فعليه أن يتأمل كتاب ربه ويتدبره، والله أعلم.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فيجتمعوا عليه فلا يأباه في جزيرة العرب إنسان، ثم ينبثون في أرجاء الأرض، فيكون ظهورهم في هذا الوقت وضعف المؤمنين بعد أن كان سببًا لازديادهم من الكفر، عظة توجب الثبات؛ علمًا بأن الله أجرى عادته أن يكون للباطل ريح تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك بهذا البيان المعجز شهادة بأنه من عنده ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٢﴾ وقد شهد لك فيه بإعجازه لجميع الخلق بكل ما تضمنته آياته، ففيه أعظم بشارة بتمام أمر الدين وظهوره على المعتدين، لأن صاحب الحق إذا أنكر حقَّه من هو عليه وكان له من الشهود ما يصل بهم إلى حقه فإنه لا ينزعج بالجحد، علمًا منه بأن حقه لا بد أن يظهر، وفي هذا تأديب لكل من كان على حق ولا يجد من يساعده على ظهوره فإن الله شاهده فلا بد أن يظهر أمره، فتوكل على الله إنك على الحق المبين.

ثم قال مؤكدًا؛ لادعائهم أنهم على جلية من أمرهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٣﴾ فكيف يتصور أن يترك البعث ليوم الفصل الذي هو مدار الحكمة! وقد علم بذلك انطباق آخرها المادح للكتاب المقرر للبعث والحساب، على أولها المفصل للقرآن المفيض لقسمَي الرحمة: العامة والخاصة لأهل الأكوان على ما اقتضاه العدل والإحسان، والله الهادي وعليه التكلان.

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الاجتماع على الدين الذي روح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لكون أهل الدين كلهم فيه سواء، كما أنهم في العبودية لشارعه سواء، وأعظم نافع في ذلك الإنفاق والمواساة فيما في اليد والعفو عن المسيء والإذعان للحق، وذلك الداعي إليه هذا الكتاب الذي هو روح جسد هذا الدين، المعبَّر عما دعا إليه من المحاسن بالصراط المستقيم، وإليه لوح آخر السورة الماضية: ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: ٥٢] فيجتمعوا على هذا الدين، وصرح ما في هذه من قوله: ﴿أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ﴿إلا المودة في القربى﴾ ﴿استجيبوا لربكم﴾ [الآيات: ١٣، ٢٣، ٤٧].

وهذا هو غاية المقصود من أختها سورة مريم، الموافقة لها في الابتداء بالتساوي في عدد الحروف المقطعة، وفي الانتهاء بأن من اختص بمصير الأمور كان المختص بالقدرة على إهلاك القرون(٢٨)، وذلك لأن مقصود تلك اتصافه تعالى بشمول الرحمة، ومقصود هذه رحمة خاصة من آثار تلك الرحمة العامة وهي الاجتماع على هذا الدين، وهذه الرحمة لنسبتها إلى الخلق تالية لتلك العامة ومنشعبة منها.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أحاط بصفات الكمال فنفذ أمره فاستجاب له كل شيء ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي عمت رحمته فهيأت عباده لقبول أمره ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص أولياءه بما ترتضيه الإلهية من رحمته فجمع كلمتهم على دينه.

﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الإيحاء العظيم الذي أخبرك به ربك صريحًا أول فصلت، ولما كان المقصود إفهام أن الإيحاء منه سبحانه عادة مستمرة إلى جميع أنبيائه، عبر بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار فقال: ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾ ولما كان نفوذ الأمر دائرًا على العزة والحكمة قال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين والجاحدين وأعقبت بسورة السجدة بيانًا لأن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، أتبعت

---

(٢٨) ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ الشورى: ٥٣، ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ مريم: ٩٨.

السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ [الشورى: ٨، ٢١، ٢٠]".

ولما أخبر أنه صاحب الوحي بالشرائع قديمًا وحديثًا، علله بأنه صاحب الملك العام فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ لجلالةِ العظمة التي منها كثرةُ الملائكة وشناعةِ الكفر، وبين لها سببًا آخر وهو عظيم قولهم فقال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ولما كانوا لما عندهم من العلم بجلاله يستحيون منه مما يفعل أهل الأرض قال: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لما يرون من شدة تقصيرهم في الوفاء بحق تلك العظمة، أما للمؤمن فمطلقًا، وأما للكافر فبتأخير المعاجلة.

وألطف منه أن تكون كيدودة انفطارهن في حال تسبيح الملائكة واستغفارهم؛ لما يرين فوقهن من العظمة وتحتهن من الذنوب، فلولا ذكرهم لتفطرن وعوجل الخلق بالهلاك وقامت القيامة وقضي الأمر، وإذا كانت كيدودة الانفطار مع هذا التنزيه والاستغفار فما ظنك بما يكون لو خلا الأمر منه؟ ولذا عمّ هنا ولم يخص المؤمنين بالاستغفار كما في غافر؛ لما اقتضاه السياق هنا من العموم.

ولما كانت أفعال أهل الأرض وأقوالهم عظيمة المخالفة لما يرضيه سبحانه فهم يستحقون المعاجلة بها قال؛ ليجمع الكلام التهييب والتهويل في أوله، والبشارة واللطف في آخره: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ أما لأهل الإيمان فواضح، وأما لأهل الكفران ففي الدنيا، فهو يرزقهم ويعافيهم ويملي لهم ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ وكل من اتبع هواه في شيء فقد اتخذ الشيطانَ الآمرَ له به وليًا من دون الله ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾.

ولما كان الإيحاء السابق للبشرى، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال حلاوتها في الأذن، ذكرها بلفظ المضارع الدال على التجدد والاستمرار، ولما كان العاقل يكفيه في النذرى مرة واحدة، قال معبرًا بالماضي الدال على الإمضاء في الإيحاء وفائدتِه الإنذار: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ ولما كان مفعوله الثاني بحسب السياق: ما عذبت به الأمم لتماديهم في اتخاذ الأولياء، عطف عليه: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾

ولما كان الثقلان لنقصهم أهل فرقة وطغيان، ذكر نهايته فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ قال القشيري:"كما أنهم في الدنيا فريقان: فريق في راحات الطاعات وحلاوات العبادات، وفريق في ظلمات الشرك وعقوبات الجحد والشك".

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ ثم صرف القول إلى الخطاب إشارة إلى أنه قرّب كل خير، فما اتفقتم فيه من وحدانيته تعالى فهو الحق، وهذا أصل الدين الذي أطبق عليه الخلائق عند الاضطرار.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ وهو الفروع مطلقًا والأصول عند الرفاهية ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ تجدوه في كتابه لأن فيه تبيان كل شيء، فإن قصرت أفهامكم عن إخراجه منه فاطلبوه في سنة نبيه ﷺ، فإن عز عليكم ففي إجماع أهل دينه، فإن أعوزكم ذلك ففي القياس على شيء من ذلك، قال القشيري: "هذه الأشياء هي قانون الشريعة، وجملتها من كتاب الله، فإنه هو الذي يدل على صحتها".

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝﴾ أي: أرجع بالتوبة إذا قصرت في شيء من فروع شرعه، وأرجع إلى كتابه إذا نابني أمر من الأمور فأعرف منه حكمه، فافعلوا أنتم كذلك، اجعلوه الحكم تفلحوا ولا تعدلوا عنه في شيء من الأشياء تهلكوا.

ولما تقرر بهذا أنه قد ركز في الفطر أنه لا إله غيره، كما يهدي إليه الاضطرار وإن أغفل عنه البطر، دل عليه بقوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ ثم ذكّر بما يوجب الاعتراف بأنه وحده ربهم لا شريك له في ذلك، فيجب التوكل عليه وحده فقال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ﴾ ولما كان الأزواج في غاية المحبة للزواج حتى كان كالمحيط بالقلوب قال: ﴿فِيهِۚ﴾ من «ذراه» خلقه وكثّره وأولعه بالشيء، فيكون لكم في الأزواج من البشر لطفًا وجمالًا وولادة، وفي الأنعام غذاءً وغير ذلك.

ولما كان متقررًا في الأوهام أنه لا يكون شيء إلا بسبب التزاوج، نزه تعالى نفسه عن ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ يزاوجه أو يناسبه، وكل ما اتخذتموه وليًا من دونه فله ما يزاوجه ويماثله، فالمراد بالمثل هنا النفس، قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي: "وقيل: المثل هاهنا الصفة"، وفي القاموس: "المِثْل بالكسر والتحريك وكأمير: الشِّبْه، والمَثَل

محركة: الحجة والحديث والصفة"، وفي شمس العلوم: "والعرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يقول هذا، أي: أنا".

فقد بان أن المثل بالإسكان والتحريك واحد، وأنه في الأصل عبارة عن نفس الشيء وصورته ثم شاع فيما يشابهه، فعلم قطعًا أن معنى الآية ما قلته، وأنه لو قيل: «ليس مثله شيء» من غير كاف لربما قال بعض أهل التعنت: هذا معناه أنه ليس شيئًا! مع أن ظاهر ما نفهمه غير مراد قطعًا؛ لأنه يؤدي إلى محالين يحاشى عن أحدهما فكيف إذا اجتمعا: **أحدهما** أن له مثلًا، **والثاني** أن مثله لا مثل له مع الحكم بأنه مثله، وذلك تناقض ظاهر يتعالى الله عن إرادة مثله علوًا كبيرًا، والله الموفق.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٩﴾ فمن ادعى لأحد مساواته في شيء من صفاته فقد أشرك به في تلك الصفة، وهو أشد ملامة من المشرك بالصنم ونحوه؛ لأن إشراك هذا ظاهر الوهي، وإشراك الأول خفي لا يقدر على حله إلا راسخ، وإن كان كلهما آيلًا إلى ركاكة وهذيان؛ لأنه لا يسوغ في عقل أن يكون أحد شريكًا لأحد في شيء إلا وهو مساو له في حقيقة الذات، وصالح في الجملة لأن يقوم مقامه في جميع الصفات.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ فقطع الأفكار من غيره؛ ليقبل الموفّقون عليه وحده، فإن عبادته هي المقاليد بالحقيقة ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة: ٦٦]، ثم علله بقوله مؤكدًا؛ لأن عمل العاصي غالبًا: عمل من يظن أن الله يخفى عليه عمله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠﴾.

ولما ثبت أن له كل شيء وأنه لا متصرف في الوجود سواه، أنتج أنه لا ناهج لطرق الأديان التي هي أعظم الرزق وأعظم قاسمة له غيرُه، فقال دالًا على ما ختم به التي قبلها من شمول علمه، ومرغبًا في لزوم ما هدى إليه ودل عليه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ولما كانوا لتقليدهم الآباء يرون أن ما كان أقدم كان أعظم وأحكم، ذكر لهم أول الآباء المرسلين إلى المخالفين فقال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ ولما كان الإعجاز خاصًا بنا أبرزه في مظهر العظمة فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ ولما عظمه بالأمر بالاجتماع، زاده بالنهي عن الافتراق فقال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ أي: تفرقًا عظيمًا بما أشار إليه إثبات التاء، فإن التفرق سبب الهلاك والاجتماع سبب النجاة.

ثم علل النهي بقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ من الاجتماع أبدًا على ما اجتمعوا عليه وقت الاضطرار من وحدانية الواحد القهار، فلذا هم يسعون في تفرّقكم عنه، فإن فعلتم كنتم قد تابعتم العدو الحسود وخالفتم الولي الودود، ولما كان ربما قيل بعد الإخبار بكبره: كيف السبيل مع ذلك إلى دخول أحد فيه؟ قال: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى هذا الدين ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١١﴾.

ولما كان المراد بالمشركين مع عباد الأوثان: أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله؛ لقبولهم منهم التحليل والتحريم، وكان ذلك موهمًا لأنهم ما فارقوهم إلا عن جهل، قال نافيًا له: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ أي: أهل الكتاب وغيرهم في أديانهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ ومنه أن الفرقة ضلالة، وأشار الجارّ أيضًا إلى أن التفرق كان مع العلم، لم يكن طال الزمان فتطرق إلى علمهم نسيان، كل ذلك بيانًا لعظيم قدرة الله تعالى في تصرفه في القلوب، ولما كان ترك طريق العلم عجبًا ومستبعدًا، قال مبينًا أن الذي حملهم على ذلك حظوظ الأنفس التي لا نجاة منها إلا بعصمة الله: ﴿بَغۡيَۢا﴾ أي: حال كون تفرقهم عداوة لا شبهة فيها، هي بينة الظلم؛ لأجل حظوظ الأنفس واتباع الأهواء.

ولما كان مطلق البغي منافيًا لمكارم الأخلاق فكان ارتكابه عجبًا، زاده عجبًا ببيان أنه كان خاصًا بجماعتهم فقال: ﴿بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: لهذا الوحي العليّ الرتبة الذي وصينا بمقاصده جميع الرسل، أو: لذلك التصرف المباعد للصواب والشك في أمر الكتاب ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ إلى الاتفاق على ما أمر به الإلٰه من الاجتماع على الملة الحنيفية.

ولما كان الداعي لغيره لا ينفع دعاؤه لذلك الغير ما لم ينفع نفسه قال: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ أي: اطلب القَوَم من ربك على مشاق الدعوة ليعينك عليه، وأوجده على ما يدعو إليه كتابه ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ ولما كان كل ما خالف كتابنا هوى قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ والمقصود من كل أحد أن يفعل ما أمر به لأجل أنه أمر به لا لأجل أنه يهواه، ولما كانوا قد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، أمره بما يخالف حالهم فقال: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ﴾ ولما كان أكمل الناس إيمانًا أكثرهم استحضارًا لأوصاف الكمال، صرف القول إلى الاسم الأعظم إشارة إلى سلوك أعلى المسالك في ذلك فقال: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾.

نقل أبو علي القالي في ذيل الأمالي عن علي رضي الله عنه: "من اشتاق إلى الجنة سلى عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات"، ولما أخبر بالعدل في القوة النظرية، أتبعه ذلك في العملية فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لأن الأمر انكشف على التمام فلا فائدة بعده للمحاجة، فما بقي إلا المجالدة بالسيوف عملًا بفضيلة الشجاعة ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٣﴾.

ولما كان التقدير: فالذين رجعوا إليه بعد هذا البيان وتركوا الجدالَ حجتُهم ثابتة ولهم الرضا والنعيم، عطف عليه قوله[٢٩]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ تشكيكًا في دينه الحق، فيوردون من الشبه ما يسمونه حججًا، ولعل الإدغام يشير إلى أنهم منافقون يلقون شبههم في خفاء، فتتشربها قلوب أمثالهم فتصير أهوية فيضعف أمرها، ويؤيده تقييد الدحوض بما عند الرب ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ ليعيدوا الناس من نور الهدى إلى ظلام الضلال ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: صار الناس كلهم بالبيان مستجيبين بالقوة وإن لم يستجيبوا بالفعل، فإن الأمر قد ظهر غاية الظهور ولم يبق إلا العناد.

ولما كان من خالف ظاهرُه باطنَه ضعيفَ الحجة هلهل النسج قال: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ أي: زالقة فهي ذاهبة غير ثابتة؛ لأنها في معارضة ما ظهوره كالشمس بل أجلى ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ وذكر العندية وصفة الإحسان وإضافتها إلى ضميرهم إشارة إلى وضوح دحوضها؛ لأن ذلك يقتضي مزيد لطف وعطف، فدحوضها معه ظاهر جدًا ولو عوملوا بصفة الإحسان، ولو خصوا بمزيد عطف وبر ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٤﴾.

ثم قال مبينًا ما به يعرف ثبات الحجج ودحوضها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ﴾ وأشار بالتعبير بالإنزال إلى أن المراد جملة الكتاب الذي لا مطعن في شيء منه فقال: ﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ثم قال معبرًا بأقوم المقادير الضابطة، إشارة إلى أن الكتاب أعدل عدالة عند العقل وأبين من الميزان للحس: ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ ولما ثبت أن من جادل فيه كانت حجته داحضة إذا حوسب في الساعة فكان معذبًا قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٥﴾.

---

(٢٩) أو يقال: لما نفى أن تكون حجةٌ بعد ظهور الحق، وكان المشكّكون قد يوردون بعد ذلك ما قد يتوهم أنه حجة، بيّن شأنه فقال: ..، والله أعلم.

ثم شرع في تفصيل الناس في أمرها، فقال مشيرًا إلى أنه ينبغي للعاقل الاستعداد لها؛ لظهور دلائلها، من غير بحث عن قربها أو بعدها فإنه لا بد من كونها: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ إعلامًا بأنهم على بصيرة من أمرها، وقد روي أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحببت»، وهو مشروط بالبراءة من أعداء الله بدليل قصة أبي طالب، فإنه لم ينفعه حب الولي نفعًا تامًا بدون البراءة من العدو ﴿أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

ولما أظهر خوفَ الكافرين في غاية الأمن، وأبطن أمنَ المؤمنين في أزعج خوف، وكان هذا عين اللطف فإنه الوصولُ إلى الشيء بضده، وإيصالُ البر إلى الخلق على وجه يدق إدراكه، وكان أكثر ما يبطئ بالإنسان في أمر الدين اهتمامُه بالرزق أنتج ذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ﴾ وقال الرازي: "هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي"، ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ أما بالمؤمن فواضح، وأما الكافر فأقل لطفه به أنه لا يعاجله في الدنيا ولا يعذبه فوق ما يستحق في الأخرى، ولما كان أظهر ما يكون هذا الوصف في الرزق قال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٧﴾﴾.

ولما بين بهذا أن الرزق ليس إلا في يده، أتبعه ما يزهد في طلب رزق البدن ويرغب في رزق الروح فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ولما كان الحرث من أجلّ أسباب المكاسب، وكانت الجنة قيعانًا غراسها ذكر الله قال: ﴿حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أعمالها التي يستنمي بها الفوائد ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ﴾ بأن نعينه على الأعمال الصالحة بإنارة القلب وتصفية الحال وتهدئة السر ونفوذ البصر فيما يضر وينفع ونضاعف له ثوابها ونعطيه من الدنيا التي أعرض عنها ما قُدِّر له؛ إعانة له على ما أقبل عليه من الآخرة، وطوى ذكر الدنيا هنا تنبيهًا على أنها أحقر من أن تذكر، مع أنه معلوم من آيات أخر.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ولو تهاون به، ولا ينال كل ما يتمناه ولو جهد له، وأما الآخرة فكل ما نواه طالبها من أعمالها حصل له وإن لم يعمله[٣٠]، فالدنيا لخساستها

---

(٣٠) في هامش المخطوط قوله ﷺ: «من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه همه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كان له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة».

تُقبِل على من أعرض عنها، وتبعد عمن أقبل عليها حتى تهلكه، والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضعاف إقباله، وتنادي من أدبر عنها لينتهي عن غيه وضلاله، قال الرازي في اللوامع: "**وعلامة إرادة الدنيا** أن يرضى في زيادة دنياه بنقص دينه، والإعراض عن فقراء المسلمين، وأن تكون حاجاته في الدعاء مقصورة على الدنيا، **وعلامة إرادة الآخرة** بعكس ذلك"، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ١٨﴾.

ولما ختم بالقانون الأعظم في أمر الدارين فكان التقدير: هذا شرع الله الذي ارتضاه لعباده غير ضار بطلب الرزق، عادل ذلك بقوله موبخًا منبهًا على ما هو الأصل في الضلال عن شرائعه المحررة: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ في العبادات والعادات التي تقرر في الأذهان أنه لا بد من الجزاء عليها ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ونسب الشرع إلى الأوثان لأنها سببه، كما كانت سبب الضلال في قوله تعالى: ﴿رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ويضاف الشركاء إليهم تارة لأنهم متخذوها، وتارة إلى الله تعالى لأنهم أشركوهم به، والعبارة تأتي بحسب المقام.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: الذين التزموا شرعه، والذين اتبعوا ما شرعوه لمن سموهم شركاء، ولكنه قد سبق القضاء بمقادير الأشياء وتحديدها على وجوه الحكمة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بشرع ما لم يأذن به الله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٩﴾. ثم قال شارحًا للفصل بينهم في ذلك اليوم: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وهي التي أذن الله فيها، غيرُ خائفين مما كسبوا لأنهم مأذون لهم في فعله ومغفور لهم ما فرطوا فيه ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٢٠ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ﴾.

ولما كانت العادة بأن البشير لا بد له من حباء وإن لم يسأل؛ لأن بشارته قائمة مقام السؤال، كان كأنه قيل: ماذا تطلب على هذه البشارة؟ فأمر بالجواب بقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فإنها بها يتم أمر الدين ويكمل الاجتماع فيه، فمن كان بينه وبين أحد من المسلمين قرابة فهو مسؤول أن يراقب الله فيها، فيصل صاحبها بكل ما تصل قدرته إليه من جميع ما أمره الله به من ثواب أو عقاب، فكيف بقرابة النبي ﷺ؟

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ أي: يعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج ﴿حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ بما لا يدخل تحت الوهم، ومن الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدى به فيها إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيئًا، وهذا من أجر الرسل على إبلاغه إلى الأمم فهم أغنياء عن طلب غيره إن اهتدوا به، وإن لم يهتدوا كان له مثل أجورهم لو اهتدوا، فإن عدم اهتدائهم ليس من تقصيره بل قدر الله وما شاء فعل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ وذكر الوصف الذي هو أساس الزيادة فقال: ﴿شَكُورٌ ٢١﴾.

ولما حصل بذلك القطع بأن هذا الكتاب حق وأنه وحي من عند الله قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ عنادًا ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ فرد عليهم ببيان كذبهم: ببيان ما له ﷺ من نور القلب اللازم عنه استقامة القول بقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾ فيمنعه من قبول روح هذا الوحي كما ختم على قلوبهم من قبول ذلك، فتستوي حينئذ معهم وتصير لو قلت ما يصح نسبته إلى الباطل، لم تقله إلا ومعه الأدلة قائمة على بطلانه، كما أنهم هم كذلك.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وحذفت واو الفعل خطًا في جميع المصاحف مع أنه استئناف غير داخل في الجواب؛ لأنه تعالى يمحو الباطل محوًا لا يدع له عينًا ولا أثرًا، لمن ثبت لصولته وصبر كما أمر لحولته، اعتمادًا على صادق وعد الله، إيمانًا بالغيب وثقة بالرسل عليهم السلام، وفي الحذف أيضًا تشبيه له بفعل الأمر إيماء إلى أن إيقاع هذا المحو أمر لا بد من كونه على أتم الوجوه ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢١﴾ أي: ما هو فيها مما يعلمه صاحبه ومما لا يعلمه، فيبطل باطله ويثبت حقه وإن كره الخلائق ذلك ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨].

ولما أخبر بضلالهم وجزم بإبطال أعمالهم، رغبهم رحمة منه لهم في التوبة التي هي من الحق الذي يحقه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ سئل أبو الحسن البوشنجي عن التوبة فقال: "إذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة في قلبك"، [ولما كان كمال التوبة ونقصانها بحسب ما يقوم في القلب، وكان ذلك لا يعلمه إلا الله قال](٣١): ﴿وَيَعْلَمُ﴾ في كل وقت ﴿مَا يَفْعَلُونَ ٢٣﴾ أي: كل ما يتجدد لهم عمله سواء كان عن علم أو داعية شهوة وطبع، سيئة أو حسنة. [ولما دعى عباده إلى التوبة فانقسموا إلى مستجيب

(٣١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٥٩٤، ط: ابن الجوزي، بتصرف.

ومعاند، بينهما في قوله[٣٣]: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ولما كان المتبادر من الاستجابة: إيجاد كل ما سألوه في الدنيا على ما أرادوه، وكان الواقع غيره قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لصاروا يريدون كل ما يشتهونه فإن لم يفعل سعوا في إنفاذه بكل طريق، فيكثر القتل والسلب ونحوه من أنواع الفساد ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ﴾ وعلل ما أخبر به بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ولما أخبر بذلك [دل عليه بالمشاهد] من الآيات فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي: يئسوا من إنزاله وعلموا أنه لا يقدر عليه غيره؛ ليكون ذلك أدعى لهم إلى الشكر ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ﴾ ولما كان أنكر عليهم اتخاذ ولي من دونه وأثبت أنه هو الولي، وتعرف إليهم بآثاره الحاوية أفانين أنواره، وكانت كلها موجبة للحمد المتواتر قال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ ومن نظر إلى صنائعه سبحانه تيقن وجوده وقدرته واختياره، ثم إذا تدبر عرفه بأسمائه وصفاته، فيحمده بمحامده التي لا نهاية لها ويسبحه بسبحانه، ثم إن أمعن وقف على حكمة ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ ولما ذكرهم سبحانه بنعمه، كان الفكر جديرًا بأن يخطر له ما في الدنيا من الأنكاد، فقال مبينًا ما فيه من نعمته على وجه دال على تمام قدرته وأنه الولي وحده؛ إذ هو هو المتصرف بالعافية والبلاء تمام التصرف: ﴿وَمَا أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق أقله التقصير، فالآية داعية إلى المبادرة عند وقوع المصيبة إلى محاسبة النفس ليعرف من أين جاء تقصيره، فيبادر إلى التوبة عنه والإقبال على الله لينقذ نفسه من الهلكة، ولما ذكر عدله أتبعه فضله فقال: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٢٨﴾﴾ ويدخل فيه ما يصيب الصالحين لنيل درجات وفضائل لا تبلغها أعمالهم، فهي خير واصل من الله لهم.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لو أريد محققكم بالكلية ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ولما كان الكلام في العقوبة في الدنيا ولم يكن أحد يدعي فيها التوصل إلى السماء، لم يدع داع إلى ذكرها، بخلاف ما مضى في العنكبوت ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٩﴾﴾.

ولما كان نفي الشريك لازمًا للوحدانية، دل عليها [وعلى نفي الولي والنصير] بأوضح الآيات في أنفسهم لما لهم من الإخلاص عندها فقال: ﴿۞وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ ثم ذكر ما يخوفهم منها ويعرفهم أن جميع ما أباحهم إياه من شؤونها إنما هو بقدرته واختياره فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٠﴾﴾ وهاتان صفتا المؤمن المخلص الذي وكل همته بالنظر في الآيات فهو يستملي منها العبر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ من الناس الذين في هذه السفن الموبقة. ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ عند النجاة بالعفو، ولما كان مقام العظمة شديد المنافاة للمجادلة، لفت القول إليه فقال: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٢﴾﴾ وإن تأخر في نظركم إيقاع العذاب بهم، فإن عذابه سبحانه منه ما هو باطن وهو الاستدراج بالنعم وهذا لا يدركه إلا المقرّبون، ومنه ما هو ظاهر.

[ولما كان جدالهم بعد النجاة لأجل ما غرّهم من زهرة الدنيا]، قال محقرًا لها بسرعة الذبول والزوال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ في نفسه، وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضة لانقطاع نفعها ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ من الدنيوية لأنه لا بد من نزعها بالموت ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ومن كان كذلك كان الله كافيه كل ملم، فيشاركون أهل الدنيا في نيل نعمها، ويفارقونهم في أن ربهم سبحانه يجعلها على وجه لهم فيها الأجور الموجبة للحبور وكافية لمهماتهم، ويزيدهم الباقيات الصالحات التي يتسبب عنها نعيم الآخرة بعد راحة الدنيا.

ولما كان الإيمان والتوكل أمرًا باطنًا، فكان لا بد من دلائله من ظواهر الأعمال، وكانت تخليات من الرذائل وتحليات بالفضائل، وكانت التخليات لكونها درءًا للمفاسد مقدمة على التحليات التي هي جلب للمصالح قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ أي: يكلفون أنفسهم أن يجانبوا ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: جنس الأفعال الكبار التي لا توجد إلا ضمن أفرادها، ويحصل بها دنس للنفس فيوجب عقابًا لها مع الجسم.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي ما أنكره الشرع والعقل والطبع التي هي آيات الله الثلاث التي نصبها حجة على عباده، وله الحجة البالغة، فاستعظَم الناس أمرها ولو أنها صغائر؛ لدلالتها

على الإخلال بالمروءة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٤﴾ مع القدرة على الانتقام ما لم يكن من الظالم بغي؛ لأنه لا يؤاخذ على مجرد الغضب إلا متكبر، وذلك لأنه لا يغيّب أحلامَهم عند اشتداد الأمر ما يغيّب أحلامَ غيرهم من طيش الجهل وسفاهة الرأي، وفي الصحيح أنه ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله.

ولما أتم ما منه التخلي أتبعه ما به التحلي، وذكر أوصافًا أربعة هي قواعد النصفة، ما انبنى عليها قط رَبْعُها إلا كان الفاعلون لها كالجسد الواحد لا تأخذهم نازلة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ لعلمهم أنه ما دعاهم إليه وهو مربيهم إلا لصلاحهم وسعدهم وفلاحهم؛ لأنه شامل العلم والرحمة لا يتهم بوجه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ولما كانت الاستجابة توجب اتحاد القلوب بالإيمان، والصلاة توجب الاتحاد بالأبدان، ذكر الاتحاد بالأقوال الناشئ عنه عند أولي الكمال الاتحاد في الأفعال، فقال معبرًا بالاسمية حثًا على أن يجعلوا ذلك لهم خلقًا ثابتًا: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ بحيث إنهم لا فرق في حال المشاورة بين كبير منهم وصغير، بل كل ينظر في صحة كلامه وسقمه بتنزيله على الشرع، فلا يستبد أحد منهم برأي ولا يعجلون، وسوق المشورة هكذا دال على عظيم جدواها وجلالة نفعها، ولما كانت المواساة بالأموال أعظم جامع على محاسن الخلال، وأظهر دال على ما ادعي من الاتحاد قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ فواسوا بالمشورة في فضل عقولهم، وبالإنفاق في فضل أموالهم؛ تقوى منهم ومراقبة لله لا شهوة نفس.

ولما كان في العقوبة مصلحة ومفسدة، فندب تعالى إلى المغفرة تقديمًا لدرء المفسدة؛ لأن الإنسان لعدم علمه بالقلوب لا يصح له أن يعاقب بمجرد الغضب؛ لأنه قد يخطئ فيعاقب من لا يستحق أو من يجر عقابه إلى خراب كبير، وكانت إدامة الغفر جالبة للفساد مجرئة على العناد، وكان الانتصار من الفجار ربما أحوج مع قوة الجنان إلى إنفاق المال، عقب الإنفاق بمدح الانتصار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ وهو التمادي على الرمي بالشر.

﴿هُمۡ﴾ أي: بأنفسهم خاصة لما لهم من القوة ﴿يَنتَصِرُونَ ٣٦﴾ لأنفسهم في محله على ما ينبغي من زجر الباغي عن معاودتهم وعن الاجتراء على غيرهم، مكررين لذلك كلما كرر لهم، فيكون ذلك من إصلاح ذات البين، ليسوا بعاجزين ولا في أمر دينهم متوانين، وإسناد هذه الأفعال إلى الجمع إشارة إلى أنه لا يكون تمام التمكن الرادع إلا مع الاجتماع، ومن

كان فيها مفردًا كان همه طويلًا وبثه جليلًا، قال النخعي: "كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق".

ولما كان الإذن في الانتصار في سياقٍ مادح: مرغبًا فيه مع ما للنفس من الداعية إليه، زجر عنه **أولًا** بكفها عن الاسترسال فيه وردها على حد المماثلة، **وثانيًا** بتسميته سيئة وإن كان على طريق المشاكلة، **وثالثًا** بالندب إلى العفو، فصار المحمود منه ما كان لإعلاء كلمة الله لا شائبة فيه للنفس أصلًا فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

وقد دعت هذه الجمل إلى أمهات الفضائل: العلم والعفة والشجاعة، على أحسن الوجوه، فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء إلى **العلم**، وبالنفقة إلى **العفة**، وبالانتصار إلى **الشجاعة**، حتى لا يظن ظان أن إذعانهم لما مضى مجرد ذل، والقصر على المماثلة دعاء إلى فضيلة التقسيط بين الكل وهي **العدل**، وهذه الأخيرة كافلة بالفضائل الثلاث، فإن من علم المماثلة كان عالمًا، ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفًا، ومن قصر نفسه على ذلك كان شجاعًا.

﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ بإسقاط حقه كله أو بالنقص عنه لتتحقق البراءة مما حرم من المجاوزة ﴿وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فهو يعطيه على حسب ما يقتضيه مفهوم هذا الاسم الأعظم، وقال ﷺ: «ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا» ولما بين أن علة العفو: كراهة أن يوضع شيء في غير محله؛ لأنه لا يعلم المماثلة في ذلك إلا الله، قال مؤكدًا؛ لكف النفس؛ لما لها من عظم الاسترسال في الانتصار: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٧﴾.

ولما كان هذا سادًا لباب الانتصار؛ لما يشعر به من أنه ظلم على كل، قال مؤكدًا؛ نفيًا لهذا الإشعار: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ ولما عبر أولًا بالإفراد فكان ربما قُصِر الإذن على الواحد لئلا تعظم الفتنة، جمع إشارة إلى أن الفتنة إنما هي في إقرار الظلم لا في نصر المظلوم، واحدًا كان أو جماعة فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٣٨ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى﴾ وجمع إعلامًا بكثرة المفسدين؛ تجرئةً على الانتصار منهم وإن كانوا كثيرًا فإن الله خاذلهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٩﴾ أي: مؤلم، بما آلموا من ظلموه من عباد الله.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ العزم: الإقدام على الأمر بعد الروية والفكرة، قال أبو علي بن الفراء: "آيات العفو محمولة على الجاني النادم، وآيات مدح الانتصار على المصرّ، وذلك إنما يحمد مع القدرة على تمام النصرة".

ولما أدرج الصابر والعافي والمنتصر كلّهم في دائرة الحق، أتبعه من خرج عنها، فقال مبينًا بلفظ الضلال أن ما شرعه من الطريق في غاية الوضوح لا يزيغ عنه أحد إلا بطرد عظيم: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ ولما كان مبنى أمر الضال على الندم ولو بعد حين، قال عاطفًا على نحو: فترى الظالمين قبل رؤية العذاب في غاية الجبروت: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع «وتراهم» لبيان أن الضال لا يضع شيئًا في موضعه ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۝٤٤﴾.

ولما كان الذل ألوانًا صوّره بأقبح صوره فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ يسارقون النظر مسارقة كما ترى الإنسان ينظر إلى المكاره، فهو بحيث لا يحقق منظورًا إليه، بل ربما تخيله بأعظم مما هو عليه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بما استغرقها من العذاب ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بمفارقتهم لهم، إما في إطباق العذاب إن كانوا مثلهم، أو في دار الثواب إن كانوا من أهل الإيمان، ولما أخبر بخسارتهم بين ظرفها تهويلًا لها فقال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الذي هو يوم فوت التدارك؛ لأنه للجزاء لا للعمل ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ۝٤٥ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾.

ولما كان هذا، أنتج قطعًا قوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ۝٤٧﴾ أي: من إنكار يمكنكم به من النجاة؛ لأن الحفظة يشهدون عليكم.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ ولما بيّن ما أرسله له ﷺ بقوله: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أتبعه ما جبل عليه الإنسان؛ بيانًا لأنه ﷺ لا حكم له على الطباع، فقال إيماء إلى أن الإنسان لغلبة جهله وقلة عقله يجترئ بأدنى تأنيس على من تسجد الجبال لعظمته: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا﴾ ولما كان من يفرح بالنعمة عند انفراده بها مذمومًا، عبر بالجنس الصالح للواحد فما فوقه تنبيهًا على أن الإنسان مطبوع على أنه ليس عليه إلا من نفسه ولو كان

الناس كلهم على غير ذلك فقال: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وأفرد الضمير إشارة إلى مثل ذلك فقال: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ ولو أن الناس كلهم في بؤس وعمى، فأخرجه الفرح عن تأمل ما ينفعه ليشكر، فكان كافرًا للنعمة؛ لأنه توصل بالعافية إلى المخالفة.

ولما كانت المشاركة في الشدائد تهون المصائب، فكان من يزيد غمه بمصيبته عند العموم مذمومًا، نبه على نقص الإنسان بذلك بالجمع فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ولما كان الجواب على نهج الأول: حزنوا فكفروا، عدل عنه إلى ما يدل على أن جنس الإنسان موضع الكفران فقال: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الآنس بنفسه المعرض عن غيره بسبب مسه بضر ﴿كَفُورٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: بليغ الستر للنعم، ينسى بأول صدمة من النقمة جميع ما تقدم له من النعم، ولا يعرف إلا الحالة الراهنة، فإن كان في نعمة أشر وبطر، وإن كان في نقمة أيس وقنط، وهذا حال الجنس من حيث هو، ومن وفقه الله جنبه ذلك كما قال ﷺ: «المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن».

ولما ختم بتصرفه المطلق في الإنسان من إنعام وانتقام، وما له من الطبع المعوج مع ما وهبه له من العقل المقيم في أحسن تقويم، فدل ذلك على أن له التصرف التام ملكًا وملكوتًا خلقًا وأمرًا، أتبعه الدليل على أن تصرفه ذلك على سبيل الملك والقهر إيجادًا وإعدامًا إهانة وإكرامًا فقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ولما أخبر بانفراده بالملك دل عليه بالتصرف في عالم الخلق فقال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ وعبر سبحانه بالهبة؛ لأن الأوهام العادية قد تكتنف العقل فتحجبه عن تأمل محاسن التدبيرات الإلهية، وترمي به في مهاوي الأسباب الدنيوية، فيقع المسلم في مضاهاة الكفار في كراهة البنات، وفي وادي الوأد بتضييعهن أو التقصير في حقوقهن، ولما كان الذَّكر قد ذكَّر به ذِكر الإناث عُرِّف فقال[٣٢]: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(٣٢) ولأنه الجزء الأكمل لديهم فلذلك عرّفه، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وأصفاكم بالبنين﴾ الزخرف: ١٥.

ولما تم القسم الأول مما بني على العلم والقدرة، أتبعه القسم الآخر وهو عالم الأمر فقال: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إما بإلهام أو برؤيا منام أو يخلق فيه ذلك، ومن هذا القسم الأخير: ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ [القصص: ٧] ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ [فصلت: ١٢] ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

ولما كان الوحي روحًا مدبرًا للروح، كما أن الروح تدبر البدن، صرح به فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وشرفه بقوله منكّرًا له تعظيمًا ﴿رُوحًا﴾ أي: من خالطه صار قلبه حيًا، ومن عري عنه كان قلبه ميتًا، وزاد عظمه بقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ أي: بجعله من قسم الأمر وإظهاره في مظهر العظمة ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ وهو ﷺ وإن كان قبل النبوة مقرًا بوحدانية الله تعالى وعظمته، لكنه لم يكن يعلم الرسل على ما هم عليه، ولا شك أن الشهادة له نفسه ﷺ بالرسالة ركن الإيمان ولم يكن له علم بذلك، وكذا الملائكة واليوم الآخر، فيصح نفي المنفي لفواته بفوات جزئه.

وعبر عن الوحي بما يُعلِم أن الخلق كانوا في ظلام لأنهم كانوا -بوضع الأشياء في غير مواضعها- كالماشي في الظلام بقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ﴾ قال ابن بَرَّجان: "فمن رزقه الفرقان الذي يفرق به بين المتشابهات، والنور الذي يمشي به في الظلمات، فذلك الذي أبصر النور المبثوث في العالم المفطور، وعلى قدر إقباله عليه تكون هدايته به".

وقال الغزالي رحمه الله: "للإنسان بصر وبصيرة، **فالبصر** هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان، **والبصيرة** هي القوة العاقلة، وكل واحد من الإدراكين يقتضي نورًا، والإدراك العقلي أكمل وأقوى وأشرف من البصري؛ لأن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا إدراكها ولا آلاتها، والقوة العاقلة تدرك ذلك، والقوة الباصرة لا تدرك إلا السطح الظاهر، والقوة العاقلة تدرك ظاهر الأشياء وباطنها، فكانت القوة العاقلة نورًا بالنسبة إلى الظاهر والباطن، والباصرة ظلمة بالنسبة إلى الباطن.

ومَدرك القوة العاقلة هو الله وصفاته وأفعاله، ومدرك القوة الباصرة هو الألوان والأشكال، [فتكون القوة العاقلة أشرف من الباصرة بشرف متعلقها]، والقوة الباصرة كالخادم والقوة

العاقلة كالأمير، والأمير أشرف من الخادم، وكل واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الذي هو أشرف خواص النور، فكان الإدراك العقلي أولى بكونه نورًا.

والإدراك العقلي قسمان: **واجب** الحصول عند سلامة القوى والآلات وهي التعقلات الفطرية، **ومكتسب** وهي التعقلات النظرية، ولا يكون من لوازم جوهر الإنسان؛ لأنه حال الطفولية لم يكن عالمًا البتة، فهذه الأنوار إنما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب، والفطرة قد يعتريها الزيغ فلا بد من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله وأنبيائه، فتكون منزلة آيات القرآن عند العقل بمنزلة نور الشمس عند العين، فنور القرآن يشبه نور الشمس، ونور العقل يشبه نور العين.

وإذا ثبت أن بيان الرسول ﷺ أقوى من نور الشمس، وجب أن تكون نفسه القدسية أنور من الشمس، كما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها، فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر النفوس، ولا تستفيدها من نفس بشرية، فلذلك وصف الله الشمس بأنها سراج، ووصف محمدًا ﷺ بأنه سراج.

ولمراتب الأنوار في عالم الأرواح مثال: وهو أن ضوء الشمس إذا وصل إلى القمر، ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط، ثم انعكس منه إلى طست مملوء ماء موضوع على الأرض، ثم انعكس منه إلى سقف البيت: فالنور الأعظم في الشمس التي هي المعدن، وثانيها في القمر، وثالثها في المرآة، ورابعها في الماء، وخامسها في السقف، وكل ما كان أقرب إلى المعدن كان أقوى، فكذا الأنوار السماوية لما كانت مترتبة لا جرم كان النور المفيد [لغيره نورًا] أشد إشراقًا.

ثم نقول: إن هذه الأنوار الحسية والعقلية ممكنة لذواتها، والممكن لذاته لا يستحق الوجود لذاته بل وجوده من غيره، والعدم هو الظلمة والوجود هو النور، فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله تعالى، وكذا جميع معارفها: وجودها حاصل من وجود الله تعالى، فإن الحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم، وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت في ظلمات الجهالة، فلا ظهور لشيء إلا بإظهاره تعالى، وعند هذا يظهر أن النور المطلق هو الله سبحانه.

وأضاف النور إلى الخافقين في قوله: ﴿نور السماوات والأرض﴾ [النور: ٣٥] لأنهما مشحونتان بالأنوار العقلية والحسية، وإذا كانت ثمار [الشجرة المباركة] مادة لتزايد أنوار المعارف وبيانها، فبالحري أن لا تُمثَّل بشجرة السفرجل والتفاح بل الزيتون خاصة؛ لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح، وله من بين سائر الأدهان خاصة زيادة الإشراق وقلة الدخان، وإذا كانت شعبُ الأفكار العقلية المحضة مجردةً عن لواحق الأجسام، فبالحري أن لا تكون شرقية ولا غربية.

وقد تبين أن القوى المدرِكة أنوار، ومراتب القوة المدركة الإنسانية خمسة: **القوة الحساسة** وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس، وكأنها أصل الروح الحيواني إذ بها يصير الحيوان حيوانًا، **والقوة الخيالية** وهي التي تحفظ ما أوردته الحواس لتعرضه على القوة العقلية عند الحاجة إليه، **والقوة العقلية** المدركة للحقائق الكلية، **والقوة الفكرية** وهي التي تؤلف من المعارف العقلية ما تستنتج به علمًا بالمجهول، **والقوة القدسية** التي يختص بها الأنبياء وبعض الأولياء، وتنجلي فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت، وإليه أشار قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ الآية، وإذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار إذ بها تظهر أصناف الموجودات"، انتهى كلام الغزالي عن نقل الأصفهاني في تفسيره عنه.

﴿مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ وأكده لإنكارهم ذلك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٩﴾. وأشار إلى جلالته بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ﴾ أي: على الدوام وإن كانت في الظاهر في ملك غيره بحيث يظن الجاهل أن ملكها مستقر له ﴿ٱلۡأُمُورُ ٥٠﴾ أي: كلها من الخلق والأمر معنى وحسًا، خفيًا في الدنيا بما جعل من الأسباب، وجليًا فيما وراءها حيث قطع ذلك جميعه، كما كانت الأمور كلها مبتدئة منه وحده، ومن كان كذلك فهو العزيز الحكيم، فقد رجع آخر السورة على أولها [فإن من آثار عزته وحكمته إيحاء هذا الصراط المستقيم]، والله أعلم.

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها البشارة بإعلاء هذه الأمة بالعلم وما ينشأ عنه؛ لأن هدايتهم هي بهذا الذكر الذي لا بد لهم منه وإن اشتدت نفرتهم منه، وعلى ذلك دلت تسميتها بـ«الزخرف» لما في آيتها من أنه لو أراد أن يعم الكفر جميع الناس لعمهم بسبوغ النعم، ولكنه فاوت بينهم فأفقر بعضهم؛ ليسهل ردهم عن الكفر الذي أدتهم إليه حظوظهم بما يشهدون من قباحة الظلم والعدوان إلى ما يرونه من محاسن الدين والإيمان.

ولما مضى آخر تلك أن الوحي روح وأنه جعله نورًا يهدي به من يشاء، افتتح هذه بتعظيمه بالإقسام به حثًا على تدبره فقال: ﴿حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ وعبر بالجعل دون الإنزال؛ لأنه قد دل عليه جميع السور الماضية فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٣﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما أوضح تعالى عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به، ذكر سعة عفوه وإحسانه ورحمته عبادَه بكتابه مع إسرافهم وقبيح مرتكبهم فقال: ﴿أفنضرب عنكم الذكر﴾ الآية، ولما قدم في الشورى قوله: ﴿لله ملك السماوات والأرض﴾ [الآية: ٣٩] الآية، فأعلم أن ذلك بقدرته وإرادته، عنف في هذه من اعتدى وزاغ فقال: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلًا﴾ الآية".

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ﴾ من بين بني إبراهيم ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: الوعظ المستلزم للشرف ﴿صَفۡحًا﴾ فلا نرسل إليكم رسولًا ولا ننزل معه كتابًا ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٤﴾ في تكذيب الرسول ﷺ والاستهزاء بأمره، فنترك تذكيركم خشية أو رجاء، فنجعل حينئذ المقتضي مانعًا؛ لأن المسرف أجدر بالتذكير. ولما كان المعنى أنا لا نترككم هملًا، [بيّن أن الوعظ والإرسال سنته] فقال مسليًا للنبي ﷺ: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٥ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ أي: من قريش ﴿بَطۡشٗا﴾ فما ظنهم بأنفسهم وهم أضعف منهم إن تمادوا في الاستهزاء! ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٧﴾ أي: وقع إهلاكهم الذي كان مثلًا يتمثل به من بعدهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ عما هو أكبر من ذلك وأدل على القدرة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨﴾ أي: الذي يلزم المعترف بذلك أن يعترف بأنه يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، وأن علمه محيط بكل شيء. ودل على ذلك بقوله، مذكرًا لهم بالإحسان ومفصلًا للقدرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٩ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

ولما كان إنزال الماء وإنبات النبات به دالًا على البعث قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أي: الأصناف المتشاكلة التي لا يكمل شيء منها إلا بالآخر على ما دبره سبحانه في نظم هذا الوجود، ولما كان المتبادر إلى الذهن إطلاقها على ما هو من نوع واحد، دل على أن المراد ما هو أعم، فقال ذاكرًا ما تشاكل في الحمل وتباين في الجسم: ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١١ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾.

ولما أتم النعمة بخلق كل ما تدعو إليه الحاجة، وجعله على وجه دال على ما له من الصفات، ذكر غايتها فقال: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟﴾ بألسنتكم، جمعًا بين القلب واللسان ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٢﴾ أي: طائقين أن نكون له غالبين ضابطين[٣٣]. ولما كان كل راكبٍ شيئًا مستحضرًا أنه ينقلب من أسفاره إلى محل قراره، ذكّرهم أنهم على ظهر هذه الأرض مسافرون، ولكنهم لطول الإلف عنه غافلون فقال: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٣﴾ انقلابًا لا إياب معه إلى هذه الدار، فالآية منبهة بالسير الدنيوي على السير الأخروي.

ولما علم بهذا أن العالم كله متزاوج بتسخير بعضه لبعض فثبت أن خالقه مباين له، كان موضع التعجيب من نسبتهم الولد إليه سبحانه، فقال لافتًا القول عن خطابهم إيذانًا بالغضب: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الذين أبدعهم كما أبدع غيرهم ﴿جُزْءًا﴾ وذلك لقولهم: الملائكة بنات الله، فثبت بذلك طيش عقولهم وسخافة آرائهم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع الذي هم بعضه ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٤﴾ هذا ما يقتضيه طبعه بما هو عليه من النقص بالشهوات والحظوظ، ليبين فضل من حفظه الله لمجاهدته لعدو بين جنبيه، مع ظهور قدرة الله الباهرة بذلك.

(٣٣) قال ابن زيد: "لولا أنت ما قوِينا عليها ولا أطقناها" [جامع البيان: ٢٠/ ٥٦٠].

ثم قال منكرًا عليهم، عائدًا إلى الخطاب لأنه أقعد في التبكيت: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ التي هي أبغض الجزئين إليكم، ونكّر لتخصيصهم اتخاذه ببعض هذا الصنف ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ وهو السيد وأنتم عبيده ﴿بِٱلْبَنِينَ ١٥﴾ الجزء الأكمل لديكم فلذلك عرّفه، ولأنهم ادعوا أن هذا النوع كله خاص بهم، فكان هذا الكفر الثاني أعرق في المحال من الأول؛ للزيادة على مطلق الحاجة بالسفه.

جعلوا ذلك ﴿وَ﴾ والحال أنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ أطلق عليه ذلك تنبيهًا على أنه يسر كالذّكر لأن كلًّا منهما ولد وتارة يسر وتارة يضر ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: الذي لا نعمة إلا وهي منه ﴿مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ فكيف يأنف عاقل من شيء ويرضاه لسيده! ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ١٦﴾ ولما كان الملك لا يأخذ في جنده إلا من يصلح للجندية، نبه على إنكار آخر بأن الإناث لا يصلحن لذلك فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ فيكون كلًا على أبيه ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٧﴾ فلا دفاع عنده بيد ولا لسان.

ثم دل على كذبهم في الوصف المطلق المشار إليه بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ ليدل عليه في المقيد من باب أولى فقال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ فتحققوا ما قالوا سواء كانت شهادة حسية بالعين أو معنوية بالعلم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٨﴾.

ولما كانوا قد عبدوهم مع ادعاء الأنوثة فيهم، قال معجبًا منهم في ذلك وفي جعل قولهم حجة على مذهبهم وهو من أوهى الشبه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ لأن عموم الرحمة يمنع الإقرار على الباطل، فلولا أن عبادتنا لهم حق لعجل لنا العقوبة ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ لأنه لو لزم هذا لكان عموم الرحمة اضطراريًا فيؤدي إلى نقص لا إلى كمال، ولأوجب أن يكون الناس كلهم مرضيًا عنهم لكونهم على حق، وذلك مؤد بلا ريب إلى كون النقيضين معًا حقًا، وهو بديهي الاستحالة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ١٩﴾ فالذي جرأهم على ذلك أنهم يديمون القول بغير تثبت ولا تحر فكان أكثر قولهم كذبًا، فصاروا لذلك يجترئون على تعمد القول بالظن الذي لا يأمن صاحبه من الوقوع في صريح الكذب.

ولما أشار إلى انسلاخهم من العقل أتبعه الانسلاخ من النقل، فقال لافتًا القول إلى العظمة تنبيهًا على أن حكمه تعالى متى برز لم يسع إلا الامتثال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ٢٠ بَلْ قَالُوٓاْ﴾ في جوابهم عن اعتقادهم، مؤكدين إظهارًا -جهلًا أو

تجاهلًا- لأن ذلك لم يعب عليهم إلا لظن أنه لا سلف لهم فيه فإذا ثبت أنه عمن تقدمهم انفصل النزاع: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ فلا اعتراض علينا، هذا قولهم في أصول الدين التي من ضل فيها هلك، ولو ظهر لأحدهم خلل في سعي أبيه الدنيوي ما اقتدى به، ما هذا إلا لمحض الهوى وقصور النظر.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ۞قُلْ أَوَلَوْ﴾ أي: أتقتدون بآبائكم وتعدونهم مهتدين ولو ﴿جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟﴾ مؤكدين؛ ردًا لما قطع به كل عاقل من أنهم يبادرون بعد هذا النظرَ في الدليل والرجوعَ إلى سواء السبيل: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ساترون لما ظهر من ذلك جهدَنا حتى لا يظهر لأحد ولا يتبعكم فيه مخلوق. ولما علم بهذا أن أمرهم وصل إلى العناد المسقط للاحتجاج قال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ولما تحرر أنهم ملازمون للتقليد، ذكّرهم بأعظم آبائهم وأحقهم بالاتباع فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ من غير أن يقلده كما قلدتم آبائكم ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ ولما كانوا لا يتخيلون أن يخالفهم أحد، أكَّد فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وقال مؤكدًا؛ لمن ينكر وصوله إلى حد عمي عنه أسلافه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٦﴾﴾ إلى كل ما يصلحني؛ لتوجهي إليه وتوكلي عليه. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ بَلْ﴾ أي: لم يرجعوا بل استمروا؛ لأظهر قدرتي على القلوب بإقحام أربابها باختيارهم في أقبح الخطوب، ولم أعاجلهم بالعقوبة لأني ﴿مَتَّعْتُ﴾ بإفراد ضميره سبحانه؛ لأن التمتيع يتضمن إطالة العمر التي لا يقدر عليها سواه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: أمره ظاهر في نفسه ومظهر لكل معنى يحتاج إليه.

ولما كان الإنعام عليهم سببًا لبطرهم، وكان البطر سببًا لتماديهم بالنعمة على العصيان قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكامل في حقيته، زادوا على تلك الغفلة التي أدى إليها البطر ما هو شر من ذلك وهو التكذيب بأن ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ مشيرين إلى الحق الذي يطابقه الواقع فلا شيء أثبت منه ﴿سِحْرٌ﴾ وقالوا مؤكدين؛ لمدافعة ما ثبت في النفوس من ذلك: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: عريقون في ستره بخصوصه حتى لا يعرفه أحد ولا يكون له تابع.

ولما أخبر عن طعنهم في القرآن، أخبر عن طعنهم فيمن جاء به؛ تغطية لأمره فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾ لما لم يتهيأ لهم الإصرار على العناد بإنكار أن يكون النبي بشرًا ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣٠﴾ أي: بما به عندهم من العظمة والجاه والمال والسن ونحو ذلك، وهم يعلمون أن الملك المرسِل ندب إلى الزهد فيهما وأنه لا يقرب إليه إلا إخلاص الإقبال عليه، فقد جعلوا لإفراطهم في الجهل الحالة البهيمية شرطًا للوصول إلى الحالة الملكية المضادة لها بكل اعتبار.

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ مع أنها روح الوجود، بحسب شهواتهم، وهم لا يقدرون على قسم المتاع الزائل، ولذا قال: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ فإنه لا بد في انتظام الوجود من تشارك الموجودين وتعاونهم، ففاوتنا بينهم ليقتسموا الصنائع والمعارف ويكون كل ميسر لما خلق له.

ثم علل ذلك بما ثمرته عمارة الأرض فقال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ أي: يستعمله فيما يتعسر عليه مباشرته، ويأخذ الآخر منه من المال ما هو مفتقر إليه؛ ليكمل نظام العالم؛ لأنه لو تساوت المقادير لتعطلت المعايش، فكيف يعترضون في أمر النبوة؟ أيتصور عاقل أن نتولى قَسم الناقص ونكل العالي إلى غيرنا! ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣١﴾ من الحطام الفاني، فإنه وإن تأتّى فيه خير باستعماله في البر فهذا بالنسبة إلى النبوة وما قاربها مما دعا إلى الإعراض عن الدنيا متلاش.

ولما دل ما تقدم على أن بسط الرزق الموجب للعلو مقتض للضلال قال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: أهل التمتع بالأموال ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ في الضلال لاعتقادهم أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا؛ لحبهم الدنيا ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دليلًا على حقارة الدنيا لإعطائها المقوتَ، وعلى أن صفة الرحمة مقتضية لتناهي بسط النعم على الكافر لولا العلة التي ذكرها من الرفق بالمؤمنين ﴿لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ﴾ أي: من فضة، وهي المصاعد من الدرج؛ لأن المشي عليها كمشي الأعرج ﴿عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٢ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٣﴾.

ودل على ما لا يتناهى من غير ذلك بقوله: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ أي: ذهبًا وزينة عامة كاملة، ولما كان لفظ الزخرف دالًا على كون ذلك أمرًا ظاهريًا متلاشيًا، دل عليه بقوله مؤكدًا؛ لما تقرر في

النفوس من أن السعادة في مثل ذلك، وما كان مقررًا عندهم من أن السعيد في الأول سعيد في الآخرة لو كانت: ﴿وَإِن﴾ أي: وما ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر البعيد عن الخير لكونه في الأغلب مبعدًا مما يرضينا، ولأن صاحبه لا يزال فقيرًا؛ لأنه لا بد أن يبقى في نفسه شيء لا تبلغه قدرته ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ولما كان من وسع عليه دنياه اشتغل غالبًا عن ذكر الله فنفرت منه الملائكة ولزمته الشياطين قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي: شخصًا بعيدًا من الرحمة يضيق عليه كقيض البيضة وهو القشر الداخل، فلا يمكنه التخلص منه ما دام كذلك ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٥﴾﴾ يزين له العمى ويخيل إليه أنه الهدى، كما أن من يستبصر بذكر الرحمن يسخر له ملك، فهو له ولي يبشره بكل خير، فذكر الله حصن من الشيطان متى خرج العبد منه أسره العدو كما في الحديث، قال في القاموس: "والعُشوة: ركوب الأمر على غير بيان"، قال ابن جرير: "وأصله: النظر بغير تثبت لعلة في العين".

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولما كانت الحيدة عن السبيل إلى غير سبيل بل إلى معاطب لا يهتدي فيها دليلٌ عجبًا، أتبعه عجبًا آخر فقال: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ مع سيرهم في المهالك؛ لتزيين القرناء بإحضار الشهوات وإبعاد المواعظ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لما يُستدرَجون به من التوسعة عليهم والتضييق على الذاكرين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ ولما علم من الجمع فيما قبل أن المراد الجنس، وكان التوحيد أدل على تناول كل فرد فكان أهول قال: ﴿جَآءَنَا قَالَ﴾ تحسرًا لا انتفاع له به؛ لفوات محله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٧﴾﴾ أي: إني أحسست الآن بما كنت تؤذيني به، فكنت كالذي يحك قروحه حتى يخرج الدم، فهو في أوله يجد له لذة بما هو مؤلم له في نفسه. ولما دل ذلك على أن اشتراكهما في الظلم لم ينفعهما، عطف عليه: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ مشتركين فيه، وكل واحد يقول لصاحبه: نعم القرين أنت ﴿أَنَّكُمْ﴾ غدًا ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

ولما لم ينتفعوا بهذا الزجر الذي يوجب لكل عاقل أن يرجع، قال تخفيفًا عليه ﷺ فيما يقاسي في إبلاغهم وإعراضهم: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾﴾ أنه ضال. ولما كان هذا كالمؤيس منهم، وكان اليأس من صلاح الخصم موجبًا

لتمني الراحة منه بموت أحدهما قال مبينًا أن إملاءهم لا لعجز ولا إخلاف: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤٠﴾ لأن تأخير العذاب عنهم لوجودك بينهم ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤١﴾ وقد أكرم نبيَّنا عن رؤية ما يكره في أمته حتى قبض.

ولما أوقف سبحانه السامع بهاتين الشرطيّتين بين الخوف والرجاء، وأفهم السياق أن الانتقام منهم لا بد منه، وأنه لا قدرة لأحد على ضرهم ولا نفعهم إلا الله، سبب عنه قوله: ﴿۞فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ ولما كان المقام لكثرة المخالف محتاجًا إلى تأكيد يطيّب خواطر الأتباع ويحملهم على حسن الاتباع، علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٢﴾ فإذا فعلت ذلك لم يضرك شيء من نقمتهم.

ولما أثبت حسنه في نفسه عطف عليه نفعه لهم، وأكد؛ لإنكارهم فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾ أي: شرف عظيم وموعظة وبيان، عبر عن الشرف بالذكر للتنبيه على أن سببه الإقبال على الذكر والاستمساك به ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ وسائر من اتبعك ولو من غيرهم؛ لنزوله على واحد منهم وبلسانهم فكان سائر الناس تبعًا لهم، ولإيراثه الطريقة الحسنى والعلوم الواسعة والظهور على جميع الطوائف والإمامة لقريش بالخصوص كما قال ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان ما أقاموا الدين» فمن أقامه كان شريفًا مذكورًا في الملكوت.

﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٣﴾ في سائر أنواع العلم من جميع أهل الأرض عما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم؛ لما يعتقدون من أنه لا يوازيكم أحد في العلم، بعد أن كنتم عندهم أحقر الأمم ضعفًا وجهلًا، وتُسألون عن حقه وأداء شكره وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له، وهذا بوعد صادق لا خلف فيه.

ولما أبطل إلهية غيره التي أدى إليها الجهل، نفى عنها الدليل السمعي فقال: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ ولما كان أتباعهم قد غيروا وبدلوا فلم تكن بهم ثقة قال: ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: بقراءة أتباعهم لكتبهم التي حرفوا بعضها، فالمراد من هذا نحو المراد من آية يونس ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ [الآية: ٩٤] ومن آية الأنبياء ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ [الآية: ٢٤] مع زيادة الإشارة إلى تحريفهم، فإنهم إذا أحضروا كتبهم عُلِمت دلالتُها القطعية على اختصاصه سبحانه بالعبادة، برد المتشابه منها إلى المحكم ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٤﴾.

ولما كان المترفون مولعين بازدراء من جاءهم بالرد عن أغراضهم الفاسدة كما قال كفار قريش: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] أورد قصة موسى شاهدة على ذلك بما قال فرعون له من نحوه، ومن إهلاكه على قوته، وإنجاء بني إسرائيل على ضعفهم، فقال آتيًا بحرف التوقع لما تقدم من الأمر بسؤال الرسل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ ولما كان الإرسال منه تعالى ليس على حسب العظمة في الدنيا، قال مناقضًا لقولهم المتقدم: ﴿مُوسَىٰ﴾ أي: الذي كان فرعون يرى أنه أحق الناس بتعظيمه لأنه رباه وكفله، ولما كان السياق لسؤال النبي ﷺ الرسل عن التوحيد، كانت الآيات كافية فلم يذكر السلطان لأنه للقهر والغلبة فقال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ولما كانوا قد فعلوا من الرد لرسالته والاستهزاء بها ما فعلته قريش، قال مسليًا للنبي ﷺ ومهددًا لهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٦﴾﴾ سخرية واستهزاء. ولما كان ربما يُتوهم أن في الآيات ما يقبل شيئًا من الضحك، بين حالها تعالى بقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ أي: أن كل آية أوضح في الحجة عليهم مما قبلها؛ لأنها دلت على ما دلت عليه وزادت بالمعاضدة، كما أشار إليه ابن جرير ﴿وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالُواْ﴾ أي: فرعون بالمباشرة وأتباعه بالموافقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وهذا تناقضٌ لا يرضاه عاقل، فإن الوصف بالسحر وطلب الدعاء لا يجتمعان.

ولما كان العاقل لا يخبر عن نفسه إلا بصحيحٍ فكيف إذا كان عظيمًا، بين أنهم أسرعوا الخيانة بالكذب فيه من غير استحياء ولا خوف، فقال معبرًا بالفاء دلالة على ذلك: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ زيادة على نكثه ﴿فِي قَوۡمِهِۦ﴾ أي: الذين لهم غاية القيام معه، وأمرهم أن يشيعوا قوله فتكون كالمناداة، إعلامًا باستمرار كفره لئلا يُظن أنه رجع ﴿قَالَ﴾ خوفًا من إيمان القبط لما رأوا من الآيات: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مستعطفًا لهم بإعلامهم بوحدتهم، ومستنهضًا بوصفهم بأنهم ذوو قوة، مقررًا لهم عذرَه في نكثه بقوله: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ لينتج له ذلك أن إخراج بني إسرائيل من يده بغيٌ على من له الملك فتكون فسادًا، فلا بأس عليه إذا خدع من فعل به ذلك بما عاهده عليه عند مس الضر ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فتعلموا أنه لا ينبغي لأحد أن ينازعني، وهذا لعمري قول من ضعفت قواه وانحلت عراه.

﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ﴾ وحقّر الآتي له بالآيات عليه السلام لئلا يسرع الناس إلى اتباعه؛ لأن آياته -لكونها من عند الله- كالشمس بهجة وعلوًا فقال: ﴿مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ ۝٥١﴾ لأنه يتعاطى أموره بنفسه، وليس له مُلْك ولا قوة يُجرِي بها نهرًا ولا ينفذ بها أمرًا ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ للحبسة في لسانه، فلا قوة له بنفسه ولا بلسانه يستجلب بها الأتباع، وقد كذب فقد كان موسى أبلغ أهل زمانه قولًا وفعلًا، ولكنه أسند هذا إلى ما بقي في لسانه من الحبسة؛ تخييلًا لأن موسى ما دعا بإزالة حبسته بل بعقدة منها.

ولما كان عند فرعون ومن كان مثله مطموسَ البصيرة فاقدَ الفهم: أن القرب من الملوك والغلبة على الأمور لا تكون إلا بكثرة الأعراض الدنيوية، سبّب عن ادعائه لرسالته عن ملك الملوك اللازمة للقرب منه قولَه: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ ليدل ذلك على صحة دعواه كما يفعل الملوك عند إنعامهم على من يرسلونه بالمهمات ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ ليجاب إلى ما يطلبه كما يفعل الملوك إذا أرسلوا رسولًا إلى أمر يحتاج إلى دفاع، فكان حاصل أمره أنه تعزز بإجراء المياه فأهلكه الله بها، إيماء إلى أن من تعزز بشيء دون الله أهلكه الله به، أفاده القشيري.

ولما كان كلامه هذا واضحًا له عند المتأمل لا رافعًا، وقد مشى على أتباعه لأنهم مع المظنة دون المئنة، فهم أذل شيء لمن ثبتت له رئاسة دنيوية، تشوف السامع إلى ما يتأثر عنه فقال: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ﴾ بسبب هذه الخدع التي سحرهم بها في هذا الكلام المحقَّر له في الحقيقة ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ الذين لهم قوة، فحملهم بغروره على ما كانوا مهيئين له في خفة الحلم ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾ بأن أقروا بملكه واعترفوا بربوبيته وردوا أمر موسى عليه السلام.

ولما كان موسى قد أتى بما يغني عما قاله من الأسورة وظهور الملائكة، فلم يكن للقبط داع إلى طاعة فرعون بعد ما رأوا الآيات إلا المشاكلة في خباثة الأرواح، علل ذلك بقوله مؤكدًا؛ لمن يناسب أحوالهم فيرتضي أفعالهم وهم الأكثر: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا﴾ أي: عندهم قوة توجب لهم الشماخة إلا عند من يقهرهم بما يألفون من الدنيا ﴿فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ أي: راسخين في الخروج عن طاعة الله إلى معصيته.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفًا﴾ لكل من يهلك بعدهم إهلاك غضب، في الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقدوة لمن يريد العلو في الأرض،

كما قال سبحانه: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ [القصص: ٤١] ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ فيكون حالهم عظة لناس وإضلالًا لآخرين، يقول أحدهم: أُخِذ الفلانيون أَخْذ آلِ فرعون، أي: لم يفلت منهم إنسان، ونحو ذلك من أمثالهم في جميع أحوالهم.

وكذا غير فرعون وقومه من الصالحين والطالحين، فمن أراد به خيرًا يسر له مثل خير احتذى به، ومن أراد به شرًا أضله بمثل سوء اقتدى به، فقد جعل الله عيسى عليه السلام مثلًا لتمام قدرته وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم، فاقتدى به من أراد الله به الخير في مثل ذلك فاهتدى به، وضل به آخرون فضربوه مثلًا لآلهتهم، وذلك قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يضجون ويعلون أصواتهم سرورًا بأنهم ظفروا على زعمهم بتناقض فيعرضون به عن إجابة دعائك.

وذلك أن قريشًا لما سمعوا قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] قالوا: ذلك مقتض أن يكون عيسى كذلك وأن نستوي نحن وآلهتنا به فإنه مما عُبِد ونحن راضون بمساواته لنا. وما رد عليهم سبحانه به من الآية هو من العام الذي أريد به الخصوص، كما هو مقتضى لسانهم في أن الأصل في «ما» لما لا يعقل، وذلك هو المراد من قوله تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: عيسى عليه السلام؟ فنحن راضون بأن نكون معه.

ولما كان قد تقدم الجواب عنه في الأنبياء، قدم عليه هنا أن مرادهم بذلك إنما هو المماحلة والمراوغة فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي: مغالطة، وهم عالمون بأن ما ألزموك به غير لازم ولم يعتقدوا لزومه؛ لأن الكلام ما كان إلا في أصنامهم، ولأن الخصوص في كلامهم شائع، ولأنه قد عقب بما يبينه ويزيل اللبس على تقدير تسليمه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ الآية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فلما جاءهم بالآيات الجلية في كونها حقًا، آمن به من بصره الله بالحق، وقال من أراد الله به الضلال غيرَ ذلك من المحال، فلما جعلوا له أمثال السوء ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة.

وقال ابن برّجان: "خصهم بالذكر لأنهم المسارعون إلى الدجال، وإنما المثل في ذلك متى جاء الدجال بتلك الآيات يدعو إلى نفسه فيعارض ما يأتي به عيسى عليه السلام، فيضل عن

الأمر الواضح من أراد الله فتنته"، والأحسن أن يكون مثلًا: بجعل أمره واضحًا بحيث أنه يمثَّل به فيكون موضحًا لغيره، ولا يحتاج هو إلى مثل يوضحه عند من له أدنى بصيرة.

ولما كانوا قد ادعوا فيه عليه السلام الإلهية، قال دالًا على شمول قدرته وكمال علمه اللازم منه أنه لا إله إلا هو: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: بعد إعدامكم. ولما ذكر الإعدام فرضًا، ذكر تحققه عند إنزال عيسى آخر الزمان أمارة عليه فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: نزوله سبب للعلم بقربها، وكذا كونه يحي ويُبرئ سبب للعلم بها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ﴾.

ولمّا حثهم على سلوك الصراط بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ حذرهم من العدو البعيد المحترق، فقال دالًا على عظيم فتنته بما له من التزيين للمشتهى والأخذ من المأمن والتلبيس للمشكل والتغطية للخوف: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ﴾ ولما كان كأنه قيل: ما له يفعل ذلك؟ ذكر العلة تحذيرًا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

ولما لوّح إلى اختلافهم في قوله: ﴿وجعلناه مثلًا لبني إسرائيل﴾، صرح به حين أبرزه لهم فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ﴾ من المتشابه الذي كفروا بسببه بيانًا يرده إلى المحكم، أو: ما يكون بيانه كافيًا في رد غيره من المتشابه إلى المحكم بالقياس عليه، فإن كل كتاب يجمعهما، فالمحكم ما لا لبس فيه، والمتشابه ما فيه لبس وفيه ما يرده إلى المحكم لكن على طريق الإشارة، فالصادق الراسخ يرده إلى المحكم أو يعجز فيقول: الله أعلم، والكاذب يتبعه ويؤوّل حسب هواه بما لا يوافق قواعد العلم ولا المحكم فيفتتن، ولما كان الحامل على الانتفاع بالرسل التقوى سبب عنه قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ أي: طريق واسع واضح ﴿مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

ولما كان هذا الطريق موجبًا للاجتماع عليه، بيّن أنهم سببوا عنه غير ما يليق به بقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ﴾ وبين أنهم أكثروا الاختلاف بقوله: ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: فكانوا فرقًا كثيرة، ولما كان اختلاف الفرقة الواحدة عجبًا، بين أنهم من هذا فقال: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ﴾ لهم، ولكنه ذكر الوصف الموجب؛ تعميمًا وتعليقًا للحكم به، ولما كان في سياق الحكمة وهو وضع الشيء في أتقن مواضعه، جعل الوصف: الظلم الذي أدى إليه الاختلاف فقال: ﴿لِّلَّذِينَ

ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لا يعلمون من وقتها ولا بما كالشعرة منه.

﴿۞ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ لِما ينكشف لهم من أن تناصرَهم في الدنيا سببُ عذابهم ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ولما أفهم هذا أنهم لا عداوة بينهم بل يتضاعف توادهم؛ لما ظهر لهم من أنه سبب لهم الفوز الدائم، بيّن حال من تواد فيه سبحانه تشريفًا لهم وتسكينًا لأهوال المقام فقال: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ﴾ أي: دائمًا ﴿مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: منقادين للأوامر والنواهي أتم انقياد.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ ولما رغب فيها بهذه المغيبات، أجمل بما لا يتمالك معه عاقل عن المبادرة إلى الدخول فيما يخصها فقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا، ولما كان ما يخص المبصَرات من ذلك أعظم، خصها فقال: ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ من المبصَرات التي أعلاها النظر إلى وجهه الكريم تعالى.

﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ﴾ ولما كان الإرث أمكن للملك قال: ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ ولما كان ما حصله الإنسان بسعيه ألذ في نفسه؛ لسروره بالتمتع به وبالعمل الذي كان من سببه قال: ﴿بِمَا﴾ وبيّن أن عملهم كان لهم كالجبلة، فالمنة لربهم في الحقيقة بما زكى لهم أنفسهم بقوله: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: مواظبين على ذلك لا تفترون. ثم قال تعالى مبينًا أن جميع أكلهم تفكه ليس فيه شيء تقوتًا؛ لأنه لا فناء فيها لقوة ولا غيرها لتحفظ بالأكل: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ولما ذكر ما للمتقين ترغيبًا في التقوى، أتبعه ما لأضدادهم تحذيرًا من مثل أعمالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وبيّن أنه لا يعتريها نقصان كما في عذاب الدنيا؛ لأنهم هم وقودها فقال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ ولما كان انتظار الفرج مما يخفف، نفاه بقوله: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: ساكتون سكوت يأس من النجاة. ولما كان ربما ظن من لا بصيرة له أن هذا العذاب أكثر مما يستحقونه، أجاب بقوله ليزيد عذابهم بلومهم نفوسَهم: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لأنهم بارزوا المنعم عليهم بالعظائم ونووا أنهم لا ينفكون عن ذلك ما بقوا، والأعمال بالنيات.

ولما كان الإنسان إذا وطن نفسه على حالة واحدة ربما خف عنه بعض الألم، أعلم أن سكوتهم ليس دائمًا بل هم مع يأسهم يعلقون آمالهم بالمحال كما يقع للمتمنين للمحالات في الدنيا؛ ليزيدهم ذلك همًا فقال: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ﴾ وقراءة «يا مال» إشارةٌ إلى أن العذاب أوهنهم عن إتمام الكلام، ولذا قالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ٧٧﴾.

ولما شرح بعض أحوال الساعة إلى أن ختم بما دل على انحلال عزائمهم، وكانوا غير مقرين بذلك، قال مؤكدًا: ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم﴾ في هذه السورة خصوصًا وجميع القرآن عمومًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الكامل، ولما كانت حقيته لا تخفى على أحد ولكن شدة البغض والحب تُريان الأشياء على غير ما هي عليه، قال إشارة إلى ذلك: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ٧٨﴾ لما فيه من المنع عن الشهوات، لا لأن في حقيته نوعًا من الخفاء.

ولما كان هذا خبرًا لا جواب فيه لظهور الدلائل وتعالي العظمة إلا الرجوع، وكان من لا يرجع إنما يريد محاربة الإلٰه الأعظم، قال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ في رد أمرنا ومعاداة أوليائنا، ولما كان تعالى مطلعًا بطية أمرهم وغائب سرهم، دل على أنه قد أبرم لإبرامهم قبل كونه ما يزيله، فقال مؤكدًا؛ لإنكارهم أن يغلبوا: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ أي: كلامهم الخفي فيما يعصينا ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: كلامهم المرتفع حتى كأنه على نجوة أي: مكان عال، وقوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾ أوقع في التهديد؛ لأن من علم أن أعماله محصاة مكتوبة تجنب ما يخاف عاقبته.

ولما تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجيب منهم في ادعائهم لله ولدًا، وهددهم وذكر شبههم وجهلهم ونفى أن يكون لهم عليه دليل، أعاد الكلام في إبطال قولهم فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ٨١﴾ أي: لو أن له ولدًا لشاء لي عبادته، فإن عموم رحمته يمنع بزعمكم أن يشقيني وأنا أخلص له، وهذا مما علق بشيء هو بنقيضه أولى، وعن ابن عباس أن «أن» نافية بمعنى «ما» أي: ما كان له ولد، فإني أول من عبده رتبة وما علمت له ولدًا، ولو كان له ولد لعلمته فعبدته تقربًا إليه. ولما كان الموضعُ للتنزيه عما نسبوه إليه سبحانه من الباطل قال: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢﴾.

ولما حصحص الحق، عرف أنهم فاعلون بوضع الأشياء في غير مواضعها فعل الخائض اللاعب فقال مسببًا عن ذلك: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي: يفعلوا فعل اللاعب في انهماكه في فعل ما ينقصه ولا يزيده ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ولما دل على تنزهه عن الولد بملكه، دل على أنه هو الإله لا غيره في الكونين، وقدم السماء لأن الأرض تبع لها في غالب الأمور فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ أي: معبود واحد ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ توجه الرغبات إليه في جميع الأحوال، ويخلص له في جميع أوقات الاضطرار، فقد أجمع من في السماء والأرض على إلهيته فثبت بطلان عبادة غيره ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ وكل من ادُّعي فيه أنه شريك له، لا يقدر من أشرك به أن يدّعي له الإجماعَ على ألوهيته وكمالَ علمه وحكمه.

﴿وَتَبَارَكَ﴾ ثم وصفه بما يبين تباركه واختصاصه بالإلهية فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [ولما أثبت إلهيته بالملك، أثبت علمه وحكمته بأعظم آثارهما وهو قيام الساعة فقال]: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ سائقًا له مساق ما هو معلوم؛ لأن من ثبت اختصاصه بالملك وجب قبول أخباره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإنه يكون أهلًا لأن يشفع ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: على بصيرة مما شهدوا به، فلا يعملون بخلاف ما شهدوا به جهلًا منهم بتحقيق معنى التوحيد، وكأنه أفرد أولًا إشارة إلى أن التوحيد فرض عين على كل أحد وإن خالفه كل غير، وجمع ثانيًا إيذانًا بالأمر بالمعروف ليجتمع الكل على العلم، والتوحيد هو الأساس الذي لا تصح عبادة إلا به، وتحقيقه هو العلم الذي لا علم يعدله.

ثم قال مقررًا لإلهيته في الأرض بالاجتماع: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أجابوا بما يدل على عمى القلب الحقيقي ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ﴾ بعد أن أثبتوا له ذلك ﴿يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ولما [دل جوابهم على] عنادهم، أسف الرسول ﷺ وأشفق عليهم فصار يشكو أمرهم إلى ربه شكوى المضطر؛ إرادةَ التيسير والتهوين، فقال عاطفًا على سرهم المقدر بعد ﴿بلى﴾ في قوله: ﴿أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾(٣٤) أو يكون معطوفًا على محل الساعة أي: ويعلم قيلَه، قاله الزجاج، وهو على قراءة الجر ظاهر في تعلقه بذلك لعطفه على لفظ

---

(٣٤) أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم ونسمع قيلَه، والله أعلم.

﴿الساعة﴾؛ تعظيمًا لما أوصله إلى هذا القيل من أذاهم ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ لم يضفهم إلى نفسه بأن يقول: قومي ونحو ذلك، ولا سماهم باسم قبيلتهم؛ لما ساءه من حالهم بل قال: ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ولما كان هذا قولًا دالا على غاية ما يكون من بلوغ الجهد، سرّه بإيمانهم وبلوغهم ما كان مترجًّى لهم أول السورة من العلم فقال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فلا تلتفت إليهم بغير التبليغ ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ فهذا ظاهره التهديد وباطنه بشارة بأنهم يصيرون علماء بما أفهمه أول السورة، فلله دره من آخر عانق الأول.

سورة الدخان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الإنذار من الهلكة لمن لم يقبل ما في الذكر الكريم الحكيم من الخير والبركة، وعلى ذلك دل اسمها «الدخان» إذا تؤملت آياته.

ولما ختم الزخرف بالبشارة بعلم العرب وكان مستبعدًا، افتتح هذه بمثل ذلك فقال: ﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ فلذلك يتأثر عنه من التأثيرات ما لم تحط به الأفهام في الدين والدنيا، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: "وسماها مباركة؛ لأنها ليلة افتتاح الوصلة، وأشدُّ الليالي بركةً ليلةٌ يكون العبد فيها حاضرًا بقلبه مشاهدًا لربه، يتنعم فيها بأنوار الوصلة ويجد فيها نسيم القربة"، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

وقال ابن الزبير: "لما أعلم في فصلت والشورى وغافر بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنًا عربيًا إلى ما ذكر من خصائصه إلى قوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ [الزخرف: ٤٤]، افتتح هذه بما يكمل ذلك الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ثم ذكر فضلها فقال: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا، وتقدم الأهم من ذلك في السورتين قبل، وتأخر التعريف بوقت إنزاله إليها إذ ليس في التأكيد كالمتقدم.

ثم وقع إثر هذا تفصيل وعيد قد أجمل في قوله تعالى: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٩] وقوله: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ [الزخرف: ٨٠]، فقال: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾، ثم ذكر شأن غيرهم ليشعروا أن لا فارق إن هم اعتبروا، ثم أتبع بذكر حال المتقين جريًا على المطرد من شفع الترهيب بالترغيب؛ ليبين حال الفريقين وينتج العلم بالطريقين، ثم قال: ﴿فارتقب﴾ وعدك ووعيدهم ﴿إنهم مرتقبون﴾".

ولما وصف ليلة إنزال هذا القرآن بالبركة، وأعلم أن من أعظم بركتها النذارة، وكانت النذارة موجبة لفرقان ما بين المحاسن والمساوئ من الأعمال، قائدة إلى كل خير، قال معللًا لبركتها: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ أي: محكم لا يستطاع أن يطعن فيه بوجه، ولما أخبر عن حال الفرقان بقوله: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ تعظيمًا له، علله بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ

﴿٤﴾ والإرسال لمصالح العباد لا بد فيه من الفرقان حتى لا يكون لبس، فلا يكون لأحد على الله حجة بعد الرسل. ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ فإن رسالات الأنبياء كانت لبث الأنوار وتمهيد الشرائع حتى استنارت القلوب واطمأنت النفوس، ولما كانت الرسالة لا بد فيها من السمع والعلم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥﴾.

ولما علل الإنزال على تلك الحال العظيمة بالإرسال، دل عليه بالتدبير المحكم الذي اقتضته التربية فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٦﴾ أي: فأنتم تعلمون أنه لا بد لهذه الأجرام الكثيفة من رب، وأنه لا يكون وهي على هذا النظام إلا وهو كامل العلم والقدرة، مختار في تدبيره، حكيم في جميع تقديره، وأنه لا يجوز في الحكمة أن يدع من فيه هملًا يبغي بعضهم على بعض من غير رسول معلم بأوامره وزواجره.

ولما ثبتت بهذا وحدانيته صرّح بها فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وإلا لنازعه في أمرِهما أو بعضِه منازع أو أمكن ذلك، ولما ثبت أنه لا مدبر غيره ثبت قوله: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ لأن ذلك من أجلّ ما فيهما من التدبير، وهو تنبيه على تمام دليل الوحدانية؛ لأنه لا شيء فيهما يبقى لِيُحالَ التدبير عليه، فهما جملتان: الأولى نافية لما أثبتوه من الشركة، والثانية مثبتة لما نفوه من البعث، فأنتج هذا البرهان قوله: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧﴾ ولما كان أكثرهم منكرًا له عنادًا وإن كان باطنه على غير ذلك قال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ لأنهم لا يجردون أنفسهم من المكدّرات لصفاء العلم ﴿يَلۡعَبُونَ ٨﴾ أي: يفعلون دائمًا فعلَ التارك لما هو فيه من الجد إلى اللعب الذي لا فائدة فيه، بعد فعل الشاك بالإعراض.

ثم قال مسليًا له ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾ **فيما يخيل** للعين من شدة الجوع إن كان المراد المجاعة التي دعا بها عليهم ﷺ في قوله: «اللّٰهُمَّ أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، **وفي الواقع** إن كان المراد عند الساعة، فإنه ورد أنه يأتي إذ ذاك فيغشى الناسَ ويحصل للمؤمن منه كالزكام، وقد أن يراد أعم من ذلك، وأوله وقت القحط وكان آية على ما بعده، ومنه القحط الذي يحصل قبل خروج الدجال، أو غيره كما قال ﷺ لابن صياد: «قد خبأت لك خبأً فما هو؟» قال: الدخ، ففسر بالدخان، فلذلك قال: ﴿مُّبِينٖ ٩﴾ أي: واضح ومبين لما سواه من الآيات للفطن.

﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ أي: المهددين بهذا، وهم الذين رضوا عن الثبات بحضيض النوس والاضطراب، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًا: الدجال والدخان ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم» ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١١﴾ يصح أن يراد به بعد طلوع الشمس من مغربها، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها» ثم قرأ الآية، وإن كان المراد ما حصل من القحط كان هذا وعدًا.

ولما كان إظهار العذاب لا يفيد في الدلالة على الحق أكثر مما أفاده الرسول بل إفادة الرسول أعظم، قال معرضًا عن خطابهم إيذانًا بدوام مصابهم؛ لئلا يظن أن كشف عنهم العذاب لظن أنهم صادقون: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣﴾.

ولما كانت الفطر الأولى داعية إلى الإقبال على الحق إلا بجهد في النفور وعلاج دواعي الثبور، أشار إلى ذلك بصيغة التفعل فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي: أطاعوا ما دعاهم إلى الإدبار عنه من دواعي الهوى ونوازع الحظوظ ﴿وَقَالُواْ﴾ زيادة على التولي: ﴿مُعَلَّمٞ﴾ أي: علمه بشر ﴿مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ فلم يبالوا بالتناقض البيّن، وهذا يدل على أن من لا يبالي بعِرضه ولا حياء له: لا طِبَّ لدائه لأنه لا وجود لدوائه، وأنه إذا مُسَّ بما يلينه ويهينه، لا يؤمَنُ من رجوعه إلى سوئه عند كشف الضر عنه.

﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ بدعاء رسولكم، على القول بأن الدخان ما كانوا يرونه بسبب الجوع ﴿قَلِيلًاۚ﴾ إقامة للحجة عليكم، ولما كانوا قد أكدوا الإخبار بإيمانهم وهو باطل، أكد سبحانه الإخبار بكذبهم ومن أصدق منه قيلًا، فقال تحقيقًا لقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨]: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ وإن كان هذا آخر الزمان فلا بدع أن يكون الخطاب لهم على حقيقته؛ إقامة للحجة عليهم وتعليمًا لنا. ثم أبدل من يوم الدخان قوله تهديدًا: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ سواء كان يوم بدر أو غيره، فيخسر من كشف الابتلاءُ عن طغيانه.

ولما أسفر ذلك عن أن إرساله ﷺ كان فتنة لهم، عطف عليه محذرًا لقريش ومسليًا للنبي ﷺ قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ ولما كان من المعلوم أن قوم فرعون لم يستغرقوا الزمان ولا كانوا

أقرب الناس زمانًا لقريش نزع الجارّ لعدم الإلباس، أو أنه لعظم فتنتهم جعلها كالمستغرقة لجميع الزمان فقال: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم وعظة.

ولما كان فرعون من أقوى من جاءه رسول قبلهم، وكان الرسول الذي أتاه من أكثر من صُرِّفت على يديه الآيات، وكانوا إذا أتتهم الآية قالوا: ﴿يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون﴾ [الزخرف: ٤٩] فإذا كشف عنهم عادوا إلى ما كانوا عليه كما أخبر تعالى عن هؤلاء، إلى غير ذلك مما شابهوهم فيه، خصهم بالذكر من بين المفتونين قبل فقال: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: معه؛ لأن ما كان فتنة لقومه كان فتنة له؛ لأن الكبير أرسخ في الفتنة بما أحاط به من الدنيا ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧﴾ أي: يعلمون شرفه، ثم زاد بيان كرمه بما ظهر لله به من العناية.

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ﴾ ولما كان بين موسى عليه السلام وبين تصرفه في قومه حائل كثيف من ظلم فرعون وقومه، أشار إليه بحرف الغاية فقال: ﴿إِلَيَّ﴾ ونبهه على أنه لا حكم له عليهم بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ ولما كان الإنسان لا يأتمن على السياسة إلا ثقة كافيًا، قال واصفًا لنفسه بما يزيل عذرهم ويقيم الحجة عليهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨﴾ أي: بالغ الأمانة؛ لأن الملك الديان لا يرسل إلا من كان كذلك.

ولما قال: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾ نبه على آية أخرى دالة عليه، فقال مؤكدًا؛ تكذيبًا لظنهم أنه في قبضتهم: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ﴾ الذي أعاذني من قتلكم لي على جبروتكم وقوة مكنتكم ﴿أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١﴾ ولما لم يؤمنوا به بل بغوا له الغوائل وآذوا قومه وطال البلاء، سبب عنه قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢﴾ أي: عريقون في قطع ما أمرت به أن يوصل، وذلك متضمن وصل ما أمرت به أن يقطع.

ولما كان ممن يستجيب دعاه ويكرم نداه قال: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ ولما كانت هذه أسبابًا لدخول آل فرعون فيه، علل بما يكون عنها تسكينًا لقلوبهم، فقال مؤكدًا؛ لاستبعاد بني إسرائيل مضمونَ الخبر؛ لأنه من الخوارق، مع ما لفرعون وآله في قلوبهم من الهيبة الموجبة لذلك: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾.

ولما أرشد السياق إلى تقدير: فأسرى موسى بهم فتبعهم آل فرعون فأغرقهم الله، عبر عن هذا كله بقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٤ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٥﴾ ودل على أن ذلك كان بكدّ غيرهم وهم في غاية الترف، وهذا الذي حملهم على اتباع من كان يكفيهم ذلك حتى أداهم إلى الغرق فقال: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٦ كَذَٰلِكَۖ﴾ أي: الأمر كما أخبرنا به من تنعيمهم وإخراجهم مما كانوا فيه وإغراقهم دون أن يغني عنهم ذلك شيئًا، ولما أفهم سوق الكلام هكذا إغراقهم كلهم، زاده إيضاحًا بالتعبير بالإرث الذي حقيقته الأخذ عن الميت أخذًا لا منازع فيه فقال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٧﴾.

ولما كان الإهلاك يوجب أسفًا على المهلَكين ولو من بعض الناس ولا سيما إذا كانوا جمعًا وأهل مملكة، أخبر بأنهم كانوا لهوانهم عنده على خلاف ذلك فقال: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وإذا لم يبك السكن فما ظنك بالساكن ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٨﴾ ولما كان هذا خبرًا عنهم بعد مضيّهم، لم يقيد بـ«إذًا» بخلاف ما في الحجر[٣٥] فإن تقييد عدم الإنظار بذلك الوقت؛ لرد السامعين عن طلب إنزال الملائكة.

﴿۞وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٢٩ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣٠﴾ ولما كانت قريش تفتخر بظواهر الزينة والغرور وتعده تعظيمًا من الله، قال مؤكدًا لاستبعادهم أن يختار من قل حظه من الدنيا: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ ظهر من آثاره أنكم صرتم تسألونهم وأنتم ولد إسماعيل عليه السلام وتضربون إليهم أكباد الإبل، وهكذا يصير كل من اتبع رسولكم ﷺ ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣١ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ٣٢﴾ وما أنسب هذا الختم لقوله أول قصتهم: ﴿ولد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾.

ولما ثبت بما مضى أنه تعالى المحيي والمميت، وكان لا يستطيع أحد يثبت الإلٰه أن ينكره إلا عنادًا، وكان الإقرار به في بعض وإنكاره في بعض تحكمًا، قال معجّبًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٣﴾. ولما كانوا يزعمون أن دعوى الإحياء لا تصح إلا إذا شاهدوا ميتًا يعرفونه حيًا قالوا: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾.

ولما كانوا بذلك كأنهم يدعون خصوصيةً ينجون بها من مساواة من قبلهم في ذلك، قال منكرًا عليهم: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ الذين ملك بهم الأرض وحيّر الحيرة وبنى قصر

---

(٣٥) في قوله تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحقّ وما كانوا إذًا منظرين﴾ الآية: ٨.

سمرقند وكان مؤمنًا، وقومه حمير أقرب المهلكين إلى قريش زمانًا ومكانًا ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وعلل الإهلاك تحذيرًا للعرب بقوله مؤكدًا؛ لظنهم أن هلاكهم إنما هو على عادة الدهر: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما كان التقدير للاستدلال على الجزاء: فإنا ما خلقناهم عبثًا يبغون ولا يؤاخذون عطف عليه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ﴾ وجمعها لأن العمل كلما زاد كان أبعد من العبث، ووحّد في الأنبياء تخصيصًا بما يتحقق المكذبون بالبعث رؤيته ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ ولو تركنا الناس يبغون على بعض كما تشاهدون ثم لا نأخذ لضعيفهم من قويهم لكان خلقنا لهم لعبًا بل أشد ولم نكن آنئذ مستحقين للقدوسية، فإنه «لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها بالحق من قويها غير متعتع».

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ من الحكم بين من فيهما، فمن عمل الباطل عاقبناه، ومن عمل الحق أثبناه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أنا خلقنا الخلق لإقامة الحق، فلذا يجترئون على المعاصي ويفسدون في الأرض، لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولو تذكروا ما في جبلاتهم لعلموا أنه الحق، كما يتولى حكامهم المناصب؛ للحكم بين رعاياهم، ويشرطون الحكم بالحق، ويؤكدون أنهم لا يتجاوزونه.

ولما كان أكثر المظلومين يموت مقهورًا والظالم ظافرًا، بين وقت هذا الحق، فقال مؤكدًا؛ لتكذيبهم: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾﴾. ووصفه بما يحمل على الخوف والرجاء فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ ولما دل ما تقدم على تمام القدرة في الإكرام والانتقام قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

ولما كان السياق للانتقام، أخبر عن حال الفجار فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ من الزقم، أي: اللقم الشديد والشوب، قال ابن برجان: "وهي في النار في مقابلة شجرة طوبى في الجنة"، ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: المبالغ في اكتساب الآثام حتى صارت به إلى الكفر ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال النبي ﷺ: «كعكر الزيت، فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه» ﴿تَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ولما كان للتذكير بما يُعرَف شأن عظيم من الإقبال أو التنفير وإن كان دون ما شبه به قال: ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾. ولما كان كأنه قيل: ما للأثيم يأكل هذا! أجيب بأنه مقهور عليه بأن يقال للزبانية: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ

مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٥﴾ ولما عُلم بهذا أنه وصل إلى غاية الهوان، دل عليه بالتهكم بما كان يظن في نفسه من العظمة التي يترفع بها في الدنيا على أوامر الله فقال: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٦ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٤٧﴾.

ولما وصف ما للمبالغ في المساوئ، عرّف بما لأضدادهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٤٨﴾ أي: يأمن صاحبه فيه من كل ما لا يعجبه ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٤٩ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٠ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥١﴾. ولما كان الإنسان في الدنيا يخشى كلفة النفقات، وصف ما هنالك من سعة الخيرات فقال: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٢﴾. ولما ذكر الأمان، وكان أخوف ما يخاف أهل الدنيا الموت قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: لا يتجدد لهم أوائل استطعامه، فكيف بما وراء ذلك؟ ولما كان الاستثناء معيار العموم، وكان من المعلوم أن ما كان في الدنيا من ذوق الموت قد استحال عوده قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٣﴾.

قال ابن برجان: "الدنيا إذا تحققت في حق المؤمن المتقي وتتبع النظر فيها، فإنها جنة صغرى لتوليه سبحانه إياهم فيها وقربه منهم ونظره إليهم وذكرهم له وعبادتهم إياه وشغلهم به، وهو معهم أينما كانوا". ولما كان السياق للمتقين، فربما ظُن أن هذا حق لهم، بيّن أنه سبحانه لو لم يعاملهم بفضله لهلكوا فقال: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾ قال الرازي في اللوامع: "أصل الإيمان: رؤية الفضل في جميع الأحوال"، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٤﴾.

ولما قدم سبحانه في هذه السورة ما للقرآن من البركة، سبب عنه فذلكة للسورة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٥﴾ أن هذا القرآن شاهد بإعجازه بصحة ما فيه، وإلا لقدروا وهم أفصح الناس على معارضته، وأنه عزيز بإهلاكه حكيم بتأييد أنبيائه، فعلموا أنه لا بد من البعث، ولذا قال: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ ولما كانوا يظهرون تجلدًا ولددًا أنهم لا يعبؤون بشيء من القرآن، أخبر عما يبطنون من خوفهم وانتظارهم لما يهددهم به، مؤكدًا؛ لظن من حمل تجلدهم على أنه جلد فقال: ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٦﴾ فقد انطبق آخر السورة على أولها، بذكر الكتاب والارتقاب لأنواع العذاب، والله الهادي إلى الصواب.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الدلالة على عزة منزِّل هذا الكتاب وحكمته؛ لأنه لم يضع شيئًا إلا في أحكم مواضعه، فوضع شرعًا هو في غاية الاستقامة لا تستقل العقول بإدراكه ولا يخرج شيء منه عنها، فمن المكلفين من حكّم عقله وجانب هواه فشهد جلالَه فأطاع، ومنهم من تبع هواه فضل عن نور العقل فأضاع، فاقتضت الحكمة أن يجمع سبحانه الخلق ليوم الفصل، وعلى ذلك دل اسمها «الشريعة» و«الجاثية» إذا تؤمل كل من آيتهما، والله الهادي.

لما تقدم في الدخان ما أفهم إنزاله من أم الكتاب جملة إلى بيت العزة، ابتدأ هذه بالإعلام بإنزاله منجمًا بحسب الوقائع مرتبًا لما أنزل منه ترتيبًا يُفهِم علومًا وأسرارًا مهمة فقال: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

ودل بآثار الصنعة من نسخة هذا الكتاب على الصفتين وعلى وحدانيته فيهما اللازم منه تفرده المطلق، فقال مؤكدًا؛ لأجل من ينكر ذلك ولو بالعمل، وترغيبًا في تدقيق النظر: ﴿إِنَّ فِي﴾ ولما كانت الحواميم كما روي عن ابن عباس: لباب القرآن، حذف ما ذكر في البقرة من قوله: ﴿خلق﴾ [الآية: ١٦٤] ليكون ما هنا أشمل فقال: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ لأنهم برسوخهم فيه أهل للنظر؛ لأن ربهم يهديهم بإيمانهم، ولعله أشار بالتعبير بالوصف إلى أنه لا بد في رد شبه أهل الطبائع من تقدُّم الإيمان، وأن من لم يكن راسخ الإيمان لم يخلص من الشكوك.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما تضمنت السورة المتقدمة إيضاح أمر الكتاب وصفاتِه، أتبع ذلك تنبيهًا إلى ما قد نصبه من الدلائل سواه، مما صد المعرضَ عن الاعتبار بها أو ببعضها مجردُ هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، فقال تعالى بعد القسَم بالكتاب: ﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ أي: لو لم تجئهم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة أعظم تبيان ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [الروم: ٨].

ثم قال: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ أبعد شاهِد الكتاب وما تضمنه السماوات والأرض وما فيهما من العجائب؟ فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك فبماذا يعتبر! ثم أردف

تعالى بتوبيخهم في تصميمهم مع وضوح الأمر فقال: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ الآيات، ثم قال: ﴿هذا هدى﴾ أي: الكتاب، وجعله نفس الهدى لتحمله جميع أسبابه وجهاته".

ولما ذكّر بالنظر في آيات الآفاق أتبعها آيات الأنفس فقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ قال الحرالي في تفسير ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ [البقرة: ٢٥٩]: "آية النفس منبهة على آية الحس، وآية الحس منبهة على آية النفس، إلا أن آية النفس أعلق فهي لذلك أهدى، غاية آية الآفاق الإيمان، وغاية آية النفس اليقين".

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ولما كان المطر أدل مما مضى على البعث والعزة؛ لأن الشيء كلما قل الإلف له كان أمكن للتأمل فيه، أولاه إياه فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولما كانت منافع السماء غير منحصرة في الماء قال: ﴿مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ولم يذكر الفُلْك والسحاب كما في البقرة؛ لاقتضاء اللبابية المسماة بها الحواميم ذلك؛ لأنهما من منافع التصريف ﴿ءَايَٰتٌ﴾ ظاهرة الدلالة على القدرة والاختيار بما في التصريف من الاختلاف.

والماء بما يحدث عنه من الإنبات أوضح دلالة على البعث، ولذلك ناط الأمر فيها بالعقل فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ وقال القالي: "المعنى أن المنصفين لما نظروا في السماوات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمنوا، فإذا نظروا في خلق أنفسهم ازدادوا إيمانًا فأيقنوا، فإذا نظروا في الحوادث عقلوا واستحكم علمهم".

ولما أشار إلى تباين رتب هذه الآيات في الخفاء والجلاء بفواصلها، قال مشيرًا إلى علوها بأداة البعد: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ التي لا شيء أظهر منها ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ مرئية أو مسموعة ﴿بِالْحَقِّ﴾ فتسبب عنه الإنكار عليهم وعلى من يطلب إجابتهم إلى المقترحات طمعًا في إيمانهم في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ واستغرق كل حديث [بإسقاط الجارّ] فقال: ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥﴾.

ولما كان لا يبقى على الكفر بعد هذا البيان إلا من يستحق النكال لمجاهرته بالعناد قال مستنتجًا مهددًا: ﴿وَيْلٌ﴾ أي: مكان معروف في جهنم ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٦ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ﴾ عالية ﴿عَلَيْهِ﴾ بجميع ما فيها من سهولة فهمها وعذوبة ألفاظها وجلالة مقاصدها مع الإعجاز ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ ولما كان جائزًا أن يكون سماعه لها قد

خفّف من كفره، بيّن أنها لم تؤثر فيه شيئًا فقال: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾ وقد علم بهذا أن كل من لم ترده آيات الله كان مبالغًا في الإثم والإفك فكان له الويل، ولما كان الإصرار معناه الدوام لم يذكر الوقر الذي هو من الأمراض الثابتة كما ذكره في سورة لقمان(٣٦).

ولما أخبر بإصراره سبب عنه تهديده في أسلوب دال بما فيه من التهكم على شدة الغضب، وعلى أنه إن كان له بشارة فهي العذاب، فلا بشارة له أصلًا فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ على هذا الفعل الخبيث ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ ويحسّن التعبير بالوراء: أن الكلام في الأفاك وهو انصراف الأمور عن أوجهها إلى أقفائها، فهو ماش أبدًا إلى ورائه، فهو ماش إلى النار بظهره.

ولما كانوا يظهرون الركون إلى ما بأيديهم من الأعراض الفانية قال: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ أي: حصلوا من الأمور التي أفادتهم العز الذي أورثهم الاستهزاء ﴿شَيۡـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾.

ولما أخبر عما لمن أعرض بأجلّ موعظة قال: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾ أي: عقاب قذر جدًا، قال القزاز: "الرجز والرجس واحد"، ﴿أَلِيمٌ ١١﴾.

ولما كان آخر الآيات التي قدمها الرياح، ذكر ما يتصرف بتسييرها فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ ولو كانت موقرة بأثقال الحديد الذي يغوص فيه أخف شيء منه كالإبرة وما دونها ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأكد بإعادة الموصول؛ لأن السياق للدلالة على عزته وحكمته فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال الرازي في اللوامع: "قال أبو يعقوب النهرجوري: سخّر لك الكل؛ لئلا يسخرك منها شيء، وتكونَ مسخَّرًا لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى، فإنه يقبح بالمخدوم أن يخدم خادمه"، ﴿جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾.

ولما علمت دلائل التوحيد فعلمت الأخلاق الفاضلة، وكان على المقبل عليه التخلقَ بأوصافه قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ فإن مؤاخذة المسيء تقدح في كمال الإقبال عليه، مع أن من كان يريد هو تعالى الانتقام منه فهو يكفي أمره، ومن لم يرد ذلك منه فلا

(٣٦) في قوله تعالى: ﴿كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرًا﴾ الآية: ٧.

حيلة في كفه بوجه فالاشتغال به عبث ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ وفيه أعظم ترغيب في الغفران للموافق في الدين، وتنبيه على أنه لا يسيء إلى عبيده إلا من أعرض عنه، كالآيس من جزائه تعالى للمسيء والمحسن، وعبر بالاسم الشريف تنبيهًا على ما له من الجلال والجمال في معاملة كل منهما.

قال ابن برجان: "وهذه الآية وشبهها من النسأ المذكور في قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾ [البقرة: ١٠٦] وليس بنسخ بل هو حكم يجيء ويذهب بحسب القدرة على الانتصار، وكان ينزل مثل هذا بمكة والمسلمون في ضعف، ونزل بعد الهجرة آية الجهاد والأمر بالمعروف، وتركت هذه وأمثالها في القرآن لما عسى أن يدور من دوائر أيام الله، ومن أيامه إزالة أهل الكفر تنبيهًا للمسلمين ليراجعوا أمرهم ويصلحوا ما بينهم وبين ربهم".

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وحاصل المعنى: أعرض عمن ظلمك وكِل أمره إليّ فإني لا أظلم أحدًا، فأجزيك على صبرك وأجزيه على بغيه وأنا قادر، وعن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، وما ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزًا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله باب فقر -أو كلمة نحوها-».

ثم قال شارحًا للجزاء: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ وذلك في غاية الظهور؛ لأنه لا يسوغ في عقل أن ملكًا يدع عبيده من غير جزاء ولا سيما إذا كان حكيمًا، وإن كانت نقائص النفوس قد غطت على كثير من العقول ذلك، ومن جزائه أنه يديل المسيء على المحسن لهفوة وقعت له؛ ليراجع حاله بالتوبة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ولما علم بهذه الحكم ما افتتحت به السورة من أن منزل هذا الكتاب عزيز حكيم، فكان التقدير فذلكة لذلك: فلقد آتيناك الكتاب والحكم والنبوة وأرسلناك لتنبه الناس، وكان قومه -بعد ائتلافهم على الضلال- قد اختلفوا بهذا الكتاب الذي كان ينبغي لهم أن يشتد اجتماعهم واستبصارهم به، عطف عليه مسليًا قوله: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: العلم والعمل الثابتين ثبات الأحكام بحيث لا يتطرق إليهما فساد، بما للعلم من الزينة بالعمل، وللعمل من الإتقان بالعلم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ أي: من الأدلة والأحكام والمواعظ

ومن صفات الأنبياء الآتين بعدهم وغير ذلك، وذلك أمر يقتضي الاجتماع، وقد كانوا متفقين في زمن الضلال.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فكان ما هو سبب الاجتماع سببًا لهم في الافتراق، ولما كان هذا عجبًا بيّن علته محذرًا من مثلها فقال: ﴿بَغْيًۢا﴾ أي: الذي اقتضاه لهم طلبُ الرئاسة والحسد وغيرهما من نقائص النفوس، ولما كان البغي على البعيد مذمومًا، زاده عجبًا بقوله: ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ لم يَعْدُهم إلى غيرهم، وقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاجتماع على الرضا بالذل، ولذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٦﴾.

ثم قال مصرحًا بما اقتضاه سوق الكلام وغيره من التهديد منبهًا على علو الشريعة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي هو وحينا، وهو حياة الأرواح كما أنها حياة الأشباح ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ ولما كان الإعراض عنها إلى غيرها إنما هو هوى قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٧﴾ أي: لا علم لهم، أو لهم علم ولكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم.

ثم قال مؤكدًا؛ تنبيهًا على أن من خالف أمر الله لأجل أحد كان عمله عمل من يظن أنه يحميه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ كما أنهم لن يؤذوك إن خالفتهم، ولما كان التقدير: فإنهم ظلمة لا يضعون شيئًا في موضعه ومن اتبعهم فهو منهم، عطف عليه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ﴾ فكانت أعمالهم كلها باطلة لبنائها على غير أساس، خلافًا لمن يظن بها غير ذلك تقيدًا بالظواهر ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٨﴾.

ولما وصل إلى حد من البيان فائت لقوى الإنسان، قال مترجمًا عنه: ﴿هَٰذَا﴾ ولما كان بيانه عظيمًا جعله نفس البصيرة كما جعله روحًا فقال: ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ الذين هم في أدنى المراتب يبصّرهم بما يضرهم وما ينفعهم فما ظنك بمن فوقهم؟ ثم بين ما لأهل العلو فقال تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١٩﴾.

ولما لم يدع هذا البيان لبسًا في الحساب، وكانت الحكمة أن يحاسب عبيده قال: ﴿أَمْ﴾ قال الأصبهاني: "قال الإمام: كلمة وضعت للاستفهام عن شيء معطوفٍ على آخر، سواء كان المعطوف مذكورًا أو مضمرًا"، وكان الأصل: حسبوا، ولكنه عدل عنه للتنبيه على أن ارتكاب السوء مُعمٍ للبصيرة مضعفٌ للعقل، كما أفاده التعبير بالحسبان فقال: ﴿حَسِبَ

﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ﴾ أي: فعلوا بغاية جهدهم ونزوع شهواتهم ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢٠﴾ لنسبتهم الحكيم الذي لا حكيم في الحقيقة غيره إلى ما لا يفعله أقل الناس فيمن تحت يده.

ثم قال دالًّا على إنكار التسوية وسوء حكمهم بها: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فلا يطابق الواقع فيهما أبدًا شيئًا باطلًا، فمتى وجد سبب الشيء وانتفى مانعه وجد ومتى لا فلا، ولذلك طابق خلْقَهما الواقعُ الذي هو جميع ما لله من صفات الكمال التي دل خلقُهما عليها فإذا كان الظرف على هذا الإحكام فما الظن بالمظروف الذي ما خلق الظرف إلا من أجله؟ ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾ ولما كان السياق لعموم المحسن والمسيء، عبر بالكسب الذي هو أخص من العمل فقال: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢١﴾.

ولما بين غاية البيان أنه الإلٰه وحده وأنه لا بد من جمع الخلائق ليوم الفصل، وحقر الهوى ونهى عن اتباعه، وكانوا هم قد عظموه بحيث جعلوه معبودًا، فلزم من ذلك تحقيرهم الإلٰه، تسبب عنه التعجيب ممن يظن أنه يقدر على رد أحد منهم عن غيه فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: حوّل وصف الإلٰه حتى صار هوًى لنفسه فهو تابع لهواه ليس غير، فهو سائر على غير سنن فهو معرّض لكل بلاء فخسر أكثر من ربحه، ولو قدم الهوى لكان المعنى أنه حول الهوى إلى الألوهية فاضمحل فصار لا يتحرك إلا بما يأمره به الإلٰه، فيفيد التركيب آنئذ تعظيمه، ولو كان التقديم بحسب السياق من غير اختلاف المعنى لقدم الهوى لأن السياق له ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾.

ولما كان الضال أحوج إلى سماع صوت الهادي منه إلى غيره قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ ولما كان الأصم قد يفهم بالإشارة قال: ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾ ولما كان المجنون الأصم قد يبصر مضاره ومنافعه فيباشرها مباشرة البهائم قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ ولما صار هذا الإنسان دون رتبة الحيوان قال: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾ أي: ما دام هواه موجودًا، وعن ابن عباس: "ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه"، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ فمن كان هذا حاله فلا سبيل لمخلوق مثله إلى هدايته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ ومعنى الهوى: أنه يهوي بصاحبه في الهواء الممدود وهو الفضاء، فهو في سفول ما دام تابعًا له؛ لأنه بحيث لا قرار ولا تمكن فلذا هو يوجب الهوان، قال الأصبهاني: "سئل ابن المقفع عن الهوى، فقال: هوانٌ سُرِقت نونُه"، فنظمه من قال:

نونُ الهوانِ مِن الهوى مسروقةٌ　　　وأسيرُ كلِّ هوى أسيرُ هوانِ

ثم دل على الختم على مشاعرهم بقوله [حاكيًا عنهم بعض نتيجته]: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فأسلخوا أنفسهم بهذا القول من الإنسانية إلى البهيمية؛ لوقوفهم مع الجزئيات ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ بغلبته علينا بنزول المكروه بنا ﴿وَمَا﴾ أي: قالوه والحال أنه ما ﴿لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٣﴾.

ثم بيّن أنه لم يكفهم القول بالجهل حتى ردّوا البينات فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٤﴾. ولما كان الإيمان إنما يُقبل بالغيب، لم يجبهم إلى إحياء آبائهم؛ إكرامًا لهذه الأمة لشرف نبيها ﷺ؛ لأن سنته الإلهية جرت بأن من لم يؤمن بعد كشف الأمر بإيجاد المقترحات أهلكه، فرفعهم عن الحس إلى التدريب على الحجج العقلية فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ بما ركبنا فيهم من الحظوظ والشهوات التي غلبت على العقل فرُدّوا بها أسفل سافلين ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥﴾ فهم واقفون مع المحسوسات، لا يلوح لهم ذلك مع ما له من الظهور.

ولما دل على قدرته على الإعادة بهذا الدليل الخاص، عطف عليه دليلًا آخر جامعًا فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ ومن تصرف في ملكه بشيء كان قادرًا على مثله ما دام ملكًا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: تتحقق تحقق القائم الذي هو على كمال تمكنه ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٢٦﴾ أي: الداخلون في الباطل العريقون فيه، الذين لم يرضوا قضائي فاستعجلوا إلى مخالفة أمري فوصلوا إلى مرادهم في الوقت الذي قدرته فظنوا أنهم وصلوا بسعيهم وأنهم لو تركوا لما وصلوا.

﴿۞وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ﴾ أي: مجتمعةً لا يخلطها غيرها وباركةً على الركب رعبًا واستيفازًا ينتظرون القضاء الحاتم ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: الذي أنزل إليها وتعبدها الله به، والذي نسخته الحفظة من أعمالها؛ ليطبق أحدهما بالآخر، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا، ومن خالفه هلك ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾.

ثم بين كيفية ما به يطبق بين كتاب الإنزال وكتاب الأعمال فقال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ﴾ بأن يقول: من عمل كذا فهو عاص ومن عمل كذا فهو مطيع ونحو ذلك،

فيطبق على ما عملتموه، وأما نطقه لكم فالفضل: الحسنة بعشر أمثالها إلى ما فوق ذلك ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ ولما كان السياق لغباوتهم قال: ﴿ٱلْمُبِينُ ۝٢٩﴾ الذي لا يخفى على أحد، بخلاف ما كان من أسبابه في الدنيا، فإنها مع كونها فوزًا كانت خفية على غير الموقنين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ولو عملوا جميع الصالحات غير الإيمان ﴿أَفَلَمْ﴾ أي: فيقال لهم ألم ﴿تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ ولما كانت هذه الآيات توجب لعظمتها الإيمان بمجرد تلاوتها، بنى للمفعول قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾ أي: تواصل قراءتها من أي تال فكيف إذا كانت بواسطة الرسل، تلاوة مستعلية ﴿عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣٠﴾ أي: عريقين في قطع ما يستحق الوصل، وذلك هو الخسران المبين.

﴿وَإِذَا﴾ أي: وكنتم إذا ﴿قِيلَ﴾ من أي قائل كان ولو على سبيل التأكيد: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾ وهي محط الحكمة، فهي أعظم ما تعلق به الوعد ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم﴾ راضين لأنفسكم بحضيض الجهل: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ولو بذلنا جهدنا في محاولة الوصول إليه، ولما كان أمرها مركوزًا في الفطر لا يحتاج إلى كبير نظر، فمتى نبه عليها نوع تنبيه سبق إلى القلب علمها، سموا ذلك ظنًا؛ عنادًا واستكبارًا فقالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ وأما وصوله إلى درجة العلم فلا.

ولما كان الظن الأول بمعنى الاعتقاد، عطفوا عليه قولهم؛ تصريحًا بالمراد لأن الظن قد يطلق على العلم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣١﴾ في أمرها ولا بطالبين لليقين، وهذا لا ينافي آية ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ لأن آخرها مثبت للظن، فكأنهم كانوا تارةً يقوى عندهم ما في فطرهم من أمرها فيظنونها، وتارةً الحظوظُ مع الشبه فيظنون عدمها فيقطعون به؛ لميل النفس إليه، أو كانوا فرقتين، والله أعلم.

ولم يزالوا يقولون ذلك إلى أن بدت لهم الساعة: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط على حال القهر، قال أبو حيان: "ولا يستعمل إلا في المكروه".

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٢ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ﴾ عبر في فعله بالمضارع ليدل على الاستمرار، وفي فعلهم بالماضي ليدل على أن من وقع منه ذلك وقتًا ما وإن قلّ كان

على خطر عظيم بتعريض نفسه لاستمرار الإعراض عنه ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ونحن قد جعلناكم في عداد المنسي، فلا يكون من قبلنا لكم فرج ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٣ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ أي: جعلتموها عين ما أنزلت للإبعاد منه ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾ لضعف عقولكم ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فآثرتموها لحضورها، وأنتم كالبهائم لا يعدو نظركم المحسوس، فقلتم: لا حياة غيرها ولا بعث ولا حساب ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٤﴾.

ولما ثبتت بما تقدّم آياته تعالى وإعزازُه أولياءه وإذلالُه أعداءه، تسبب عن ذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان السياق لإثبات الاختصاص بالكمال أعاد ذكر الرب تأكيدًا وإعلامًا أن له في كل واحد من الخافقين أسرارًا غير ما له في الآخر، فالتربية متفاوتة بحسب ذلك، وأثبت العاطف إعلامًا بأن كمال قدرته في ربوبيته للأعلى والأسفل على حد سواء؛ دفعًا لتوهم أن حكمه في الأعلى أمكن لتوهم الاحتياج إلى مسافة فقال: ﴿وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ولما خص الخافقين عمَّ فقال مسقطًا العاطف لعدم الاحتياج إليه بعد إثبات استواء الكونين: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٥﴾ تنبيهًا على أصنافه وتصريحًا بها وإعلامًا بأنه أريد به مدلوله المطابقي لا البعض بدلالة التضمن، وأعاد ذكر الرب تنبيهًا على أن حفظه للخلق وتربيته لهم ذو ألوان. ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٣٦﴾ الذي لا يضع شيئًا إلا في أتقن مواضعه، كما أحكم شرعه ونظم هذا القرآن.

فانطبق آخرها على أولها بهاتين الصفتين، وبالحث على الاعتبار بآيات الخافقين، والتصريح بما لزم ذلك من الكبرياء المقتضية لإذلال الأعداء وإعزاز الأولياء.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها إنذار الكافرين بالدلالة على صدق الوعد في قيام الساعة بما وقع الصدق فيه بإهلاك المكذبين بما يضاد حال بلادهم وأنه لا يمنع من ذلك مانع؛ لأن فاعله لا شريك له فهو المستحق للإفراد بالعبادة، وعلى ذلك دلت تسميتها بـ«الأحقاف» الدالة على هدوء الريح وسكون الجو، بما دلت عليه قصة قوم هود عليه السلام من التوحيد والإنذار.

لما بنيت الجاثية على النظر في آيات الخافقين استدلالًا على يوم الفصل، فأنتجت العلم بأن الكبرياء لخالقهما، وبينت أن الكتاب منزل نجومًا؛ لبيان ما يجادلون به، مدحض لحجتهم بعزته وحكمته فثبت الحشر، ذكّر بما ثبت من ذلك كله؛ تأكيدًا لأمر البعث وتحقيقًا له فقال: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾.

ولما ثبت في الجاثية مضمون قوله في الدخان: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ [الآية: ٣٨] بما ذكر فيهما من الآيات والمنافع، أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل، فقال دالًا على عزته وحكمته: ﴿مَّا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فخلْقُ الباطلِ بالحق؛ لأنه للابتلاء للمجازاة بالعدل والمن بالفضل، وغيره من الحكم التي لا يعلمها سواه ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ②﴾.

وقال أبو جعفر بن الزبير رحمه الله: "لما ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به وجليل بيانه، وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماء والأرض ما كل قسم منها كافٍ في الدلالة، ومع ذلك فلم يُجْدِ عليهم إلا التمادي على ضلالهم والانهماك في سوء حالهم، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلًا لسوء مرتكبهم، وإعلامًا بأليم منقلبهم".

ولما كان لا يقدر على دفع المتوعّد إلا من يساويه أو يزيد عليه بشركة أو غيرها، وكانوا يدعون في أصنامهم أنها شركاء، نبههم على سفههم بأنهم أعرضوا عما قد يضرهم، دالًا على عدم إلهيتها بعدم الدليل عليه؛ لأن منصب الإلهية لا يمكن أن يثبت -وله من الشرف ما هو معلوم- بغير دليل قاطع فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟

﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليصح ادعاء أنهم شركاء فيها، فالآية من الاحتباك: ذكر الخلق أولًا دليلًا على حذفه ثانيًا، والشركة ثانية دليلًا على حذفها أولًا.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ ولما ذكر الأعلى الذي لا يجب التكليف إلا به وهو النقل، سهل عليهم فنزل إلى ما منه العقل، وأقنع منه ببقية واحدة ولو أثرًا لا عينًا فقال: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ﴾ أي: بقية رسم صالح للاحتجاج ﴿مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ ولو ظنًا يدل على ما ادعيتم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣﴾.

ولما أبطل قولهم في الأصنام بعدم قدرتها، أتبعه إبطاله بعدم علمها ليُعلم أنهم أضل الناس حيث ارتبطوا في أجلّ الأشياء بما لا دليل عليه، فقال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن﴾ يدّعي أعظم الأشياء بغير دليل، فهو ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لأنه لا أهلية له لذلك، ولما كان من لا يستجيب قد يكون له علم بطاعة الإنسان له ترجى معه إجابته يومًا ما، نفى ذلك بقوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٤﴾.

ولما غيّى سبحانه بيوم القيامة فأفهم أنهم يستجيبون لهم فيه، بين ما يحاورونهم به إذ ذاك فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٥﴾ لأنهم كانوا عنها غافلين كما قال في سورة يونس: ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ [الآية: ٢٨].

ولما بين سفههم في عبادة ما لا دليل عليه، بين غباوتهم بإنكار ما لا أبين منه فقال: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٦﴾ فدل قولهم هذا -بمبادرتهم إليه من غير تأمل، وبكونه أبعد الأشياء عن حقيقة ما قيل فيه- على أنهم أعند الناس وأجرؤهم على الكذب، وهم يدعون أنهم أعرق الناس في الإنصاف.

ولما دلت الآيات على أن ما يدينون به أوهى من الخيال، وأن هذا الكتاب أثبت من الجبال، فكان موضع الإقرار بصدق نسبته إلى الله، عجّب من قولهم بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ يرد عني انتقامه لو كنت افتريته لنصيحتكم، فأي حامل لي على افترائه والمقصود به لا ينفعني والمكذوب عليه لا يتركني! ثم علل وجوب الانتقام بقوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ فلو أنه كما تقولون ما ناظرني فضلًا عن أنه يؤيدني، وفيه على ذلك تهديد لهم وتسلية له ﷺ.

ولما كان الإملاء وحده ليس قاطعًا في دعوى الصدق، وكانت شهادة الملك أعظم الأدلة لأنه الأعلم قال: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وقد شهد بصدقي بعجزكم عن معارضة شيء من هذا الكتاب فثبت أنه كلامه؛ لأني لا أقدر على ما لا تقدرون عليه وأنتم عرب مثلي، وفيكم الكتبة والذين خالطوا العلماء وضربوا البلاد ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٧﴾ وفي هذا الختام ترغيب لهم في التوبة، ومنع من استعجال العقوبة: بأنه يجوز أن يمهل الكاذب، وأما أنه يؤيده بما يشد به كذبه فلا يجوز، لأن ذلك قادح في الحكمة والملك.

ولما كان من أعظم الضلال أن يُكذِّب الإنسان من غير دليل، في شيء قد تقدمه بمثله ناس ثبت صدقهم في مثل ذلك ومضت عليه الأزمان وتقرر غاية التقرر، قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بل قد تقدمني رسل كثيرون دعوا إلى مثل ما دعوت إليه، وصدقهم الله بمثل ما صدقني به، فثبتت رسالاتهم، وسعد بهم من صدقهم وشقي بهم من كذبهم، فانظروا إلى آثارهم واسألوا عن سيرهم من أتباعهم.

قال القزاز: "والبدعة: الاسم لما ابتدع، وضدها السنة؛ لأن السنة ما تقدم له إمام، والبدعة ما اخترع على غير مثال، وفي الحديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» معناه والله أعلم: أن يبتدع ما يخالف السنة، إذ كانت البدعة ضد السنة، ولم يدخل تحت هذا ما يخترع الإنسان من أفعال البر إن كان له نظير في الأصول وهو الحض على كل أفعال البر، فإن أحدث محدث من ذلك شيئًا فكأنه زيادة فيما تقدم من البر وليس بضد لما تقدمه من السنة"، وقال في القاموس: "والبدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال، أو ما استحدث بعده ﷺ من الأهواء والأعمال".

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ومع ذلك فأحكم بمغيَّبات لا تتخلف مع التكرار، ولا ريب أني لا أقدر على ذلك بنفسي فعلم أنه من الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ولما نسبوه إلى الافتراء تارة والجنون أخرى قال على سبيل القصر القلبي: ﴿وَمَا أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٨﴾. ولما أثبت أنه من عند الله بشهادة الله بعجزهم عن المعارضة، قبح عليهم إصرارهم على تقدير شهادة أحد ممن يثقون بهم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان مقصود السورة إنذار الكافرين الذين لا ينظرون في علم بل شأنهم تغطية المعارف، عطف بالواو الدالة على مطلق الجمع فيدل على الإسراع في الكفر من غير تأمل فقال: ﴿وَكَفَرْتُم

بِهِۦ﴾ على هذا التقدير ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الذين اعتدتم أن تستفتوهم وتثقوا بهم ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾ بهذا القرآن لما علم أنه الكتاب الذي بشرت به كتبهم.

ولما كان الحامل لهم بعد الأدلة على التمادي على الكفر إنما هو الشماخة قال: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ ولما كان من رد شهادة الخالق والخلق شديد الظلم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩﴾ فلذلك لا يهديكم لرسوخكم في الظلم الذي أضلكم، أما العالِم منكم فواضح، وأما الجاهل فهو كالعالم؛ لعدم تدبره الأدلةَ التي ما بين العالِم بلسان العرب وبين كشفها له إلا تدبرها مع ترك الهوى.

ثم دل على استكبارهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ لكنه ليس بخير فلذلك سبقوا إليه؛ فنحن أشرف منهم وأكثر أموالًا وأولادًا وأعلم بتحصيل السؤدد الذي هو مناط الخير، وهم لم يسبقونا إلى شيء من هذه الخيرات، فكان حالهم فيه: حالهم فيما هو محسوس من أمورهم في المال والجاه، ولما أخبر عما قالوا حين سبقهم غيرهم، أخبر عما يقولون عند تعمد الإعراض عنه فقال: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ يقولون عنادًا وتكبرًا: لو كان هدًى لأبصرناه، ولم يعلموا أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ولما كان التقدير: فإن قيل لهم: فما هو إذًا؟ أجاب بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بوعد لا خلف فيه؛ لأن الناس أعداء ما جهلوا، ولأنهم لم يجدوا على دعواهم دليلًا: ﴿هَٰذَآ﴾ الذي سبقتم إليه ﴿إِفۡكٌ قَدِيمٌ ١٠﴾. قالوا ذلك ﴿وَ﴾ الحال أنه كان ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةًۚ﴾ الذي قد سلموا لأهله أنهم أهل العلم ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ له ولغيره من كتب الله، فأنى يكون إفكًا! إنما الإفك ما كذّب كتبَ الله التي أتت بها أنبياؤه وتوارثها أولياؤه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١١﴾.

ولما بين حاله للمحسنين، شرح أمرهم وبشراهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ لا غيره، ولما كانت الاستقامة -وهي الثبات على كل ما يرضي الله مع ترتبها على التوحيد- عزيزة عليّة، وكانت في الغالب لا تنال إلا بعد مجاهدات طويلة، أشار إلى بعدها وعلو رتبتها بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ ولما كان الوصف لرؤوس المؤمنين، عدّ أعمالهم أسبابًا فقال: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: خوف يقلق النفس، وأما الخوف منه سبحانه فيحصل للإنسان

به إخبات وطمأنينة ووقار وسكينة يزيده في نفسه جلالًا ورفعة وكمالًا ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾.

ولما تفضل تعالى على الإنسان بعدِّ الأعمال التي أقدره عليها أسبابًا، قرن بالوصية بطاعته الوصيةَ بالوالدين لكونه جعله سبب الإيجاد، فقال في هذا السياق الذي عدّ فيه الأعمال -لكونه سياق الإحسان- التي أفضلها الصلاة على ميقاتها ثم بر الوالدين كما في الصحيح، وعلى هذا المنوال جرت عادة القرآن، يوصي بطاعة الوالدين بعد الأمر بعبادته: ﴿۞وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ﴾ فدل هذا مع وجوب حق الأم: على أن الأمر في تكوينه لله وحده ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ وعبر بالفصال لإرادة النهاية؛ لأن الفطام قد يكون قبل النهاية لغرضٍ ﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾.

ثم قسم الموصى إلى مطيع وعاص، فقال في الأول إرشادًا إلى أن المعنى: واستمر كَلًّا على أبويه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ولما كانت أيام الصبا -وإن كانت صفوة عمر الإنسان- شر عمره غالبًا؛ لغلبة الأنفس الخبيثة عليه: البهيمية والسبعية؛ لما يحملانه عليه من نتائج الشهوات ونوازع الغضب والبطالات، عبّر بما يدل على القحط والشؤم تنبيهًا على ذلك فقال: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ فاجتمع أشده وتم جده، وزالت عنه شرة الشباب ورعونة الجهل.

﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ بالتوحيد في العبادة ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ لوجوب ذلك علي؛ لخصوصه بي ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ لأن النعمة عليهما نعمة علي ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ والتنكير إشارة إلى العجز عن بلوغ الغاية، فإنه لن يُقدِر اللهَ حقَّ قدرِه أحدٌ، ثم لقنه تعالى الدعاء لفروعه، حثًا على رعاية حقوقهم لئلا يسلطهم على عقوقه فقال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ والمراد بقصر الفعل وجعلهم ظرفًا له: أن يكون راسخًا فيهم وهم محيطون به فيكونوا صالحين، ولما استحضر أن ما مضى من العمر كان أغلبه ضائعًا فدعاء، وكان من شرط قبول الدعاء التوبة، علله بقوله: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ وأكده إعلامًا بأن حاله في الإقبال على الشهوات حال من يبعد منه الإقلاع، وكذا قوله: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٥﴾.

ولما وصف هذا المؤمن وكان المراد الجنس، قال مادحًا له بالجمع، منبهًا على أن قبول الطاعات مشروط ببر الوالدين؛ لأن ما ظهر دليل ما بطن، ومن لا يشكر أقرب الناس إليه لا سيما وهو السبب في إيجاده، لم يشكر الله كما في الحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر

الناس»، ومن صلح ما بينه وبين الله صلح ما بينه وبين الناس عامة، لا سيما الأقارب نسبًا أو مكانًا، لا سيما الوالدين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُواْ وَيُتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ولما بدأ بوصف المؤمن لكونه في سياق الإحسان، أتبعه المسيء المناسب لمقصود السورة، المذكور صريحًا في مطلعها فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ كليهما، كافرًا لنعمهما نابذًا لوصيتنا بهما، فكان كافرًا بنعمة أعظم منعم محسوس بعد الكفر بنعم أعظم منعم مطلقًا، والتثنية مشيرة إلى أنه أغلظ الناس كبدًا ﴿أُفٍّ﴾ وقد تقدم في الإسراء أن التأفيف أنهى الأذى وأشده ﴿لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فأنا مع الأغلب، وتأيد ذلك بأنه لم يرجع أحد منهم.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أن يعينهما بإلهامه قبول كلامهما، قائلين لولدهما مجتهدين بالنصيحة له بعد الاجتهاد بالدعاء: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: خرافات كتبها الأوائل وتناقلتها الأجيال حتى ظن الضعفاء صحتها، هذا والعجب أنه بتصديقه لا يلزمه فساد على أي تقدير، بل يحمله على محاسن الأعمال ومعالي الأخلاق، وتكذيبه يجره إلى أفعال الشر ودنايا الأخلاق، مع احتمال الهلاك الذي يخوفانه به، وهو لا ينفي أنه محتمل وإن استبعده.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: البعداء من العقل والمروءة وكل خير ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ فكانوا قدوتهم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ بدأ بهم لأن العرب تستعظمهم وتستجير بهم؛ لأنهم يتظاهرون لهم ويؤذونهم، ولم يقطع ذلك عنهم إلا القرآن، وقال مؤكدًا؛ تكذيبًا لظن هذا القسم أن الصواب مع الأكثر: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ولما قسمهم في الأعمال، جمعهم في العدل والإفضال فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ ثم ذكر بعض ما يبكت به المجرمون يوم البعث ويكون فيه توفية الجزاء فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مقولًا لهم تنديمًا وتوبيخًا؛ لأنهم لم يذكروا الله عند شهواتهم، بل نالوها مع مخالفة أمره ونهيه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ولما هددهم سبحانه بالأمور الأخروية، عطف عليه تهديهم بالأمور المحسوسة لأنهم متقيدون بها فقال: ﴿۞وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ﴾ قال ابن زيد: "هو ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ الجبل"، وهذه الهيئة لا تكون في بلادٍ الريحُ بها غالبة؛ لأنه لو كان ذلك لنسفت الرمل، بخلاف بلاد الجبال كمكة، فينبغي أن يكون أهلها أشد من ذلك حذرًا ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: الذين أتوا من بعده، فما كنت أنت بدعًا منهم، ولما أشار إلى كثرة الرسل ذكر وحدتهم في أصل الدعاء فقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولما تضمن قولهم هذا نسبةَ نبيهم إلى ما لا دلالة لكلامه عليه، وهو ادعاء العلم بعذابهم والقدرة عليه، وتكذيبَه في كل منهما، اللازم منه ادعاؤهم العلم بأنهم لا يعذبون ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ ولم يذكر الغايةَ لأن ما أُرسل به صالحٌ لهم ولغيرهم، ولما كان المعنى أنه ليس علي إلا ذلك قال: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا﴾ غلاظًا شدادًا ومع ذلك ﴿تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ والجهل: الغلظة في غير موضعها مع قلة العلم.

واستمروا على جهلهم وعادتهم في الأمن واستبعاد الانتقام، وكأن إتيانه كان قريبًا من استعجالهم به فلذا أتى بالفاء في قوله، مسببًا عن تكذيبهم، مبينًا لعظيم جهلهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ﴾ أي: سحاب معترض في السماء ﴿مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ لأنهم رأوه أسود فظنوه ممتلئًا ماء يغاثون به بعد طول القحط وإرسال رسلهم إلى مكة ليدعوا اللهَ الذي استخفوا به، غافلين عن ذنوبهم، فلذلك قال مضربًا عن كلامهم، والظاهر أنه حكاية لقول هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ﴾.

ولما وصف عذابهم نبّه على زبدة المراد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن﴾ أي: في الذي ما ﴿مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ وجعل النافي «إن» لأنها أبلغ من «ما»؛ لأن «ما» تنفي تمام الفوت لتركبها من الميم والألف التي حقيقة إدراكها فوت تمام الإدراك، و«إن» تنفي أدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه، مع ما في ذلك من عذوبة اللفظ وصونه عن ثقل التكرار ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ منبهًا على ما في الآيات المرئيات من المواعظ

﴿وَأَبۡصَٰرٗا﴾ منبهة على ما فيها من مطابقة واقعها لأخبار السمع ﴿وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ وختم بها لأنها الغاية التي ليس بعد الإدراك بها منتهى.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ وإن قلّ، لا في دفع العذاب ولا في معرفة الصواب، بل علقوا هممهم فيما لا ينبغي من أمور الدنيا حتى فاقوا في ذلك الأمم وعملوا أعمال من يخلد، ولما نفى الإغناء ذكر ظرفه على وجه يفهم التعليل فقال: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٥ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ولما كان تصريفها لكل أحد، لم يقيدها بهم، وذكر العلة الشاملة لغيرهم فقال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٦﴾.

ولما كانوا يعدّون شركاءهم سببَ التقارب بينهم، ويدّعون أنهم يشفعون فيهم فيقربونهم إلى الله ويمنعونهم من العذاب، قال موبخًا: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ وقتَ بروك النقمة وقرع المثلة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الضلال الذي تحصّل من هذه القصة من إخلاف ما كانوا يدّعون في آلهتهم ﴿إِفۡكُهُمۡ﴾ ويجوز أن تكون الإشارة إلى العذاب، أي: وهذا العذاب جزاؤهم في مقابلة إفكهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٧﴾.

ولما كان ما ذكر من البعد من الإيمان مع تصريف الآيات يكاد أن يؤيس السامع من إيمان هؤلاء، ذكّر بإيمان من هم أعتى منهم وأشد نفرة، فقال بشارةً للمنزل عليه ﷺ وتوبيخًا لمن تأخر عن إجابته: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بوادي نخلة عند انصرافك من الطائف حين عرضت نفسك الشريفة عليهم بعد موت النصيرَين، فردوك ردًا تكاد تنشق منه المرائر، وتسيل من تذكاره النواظر، ولما كان استعطاف من جُبل على النفرة أعظم في النعمة، عبر بما يدل على ذلك فقال: ﴿نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ فيه تأدب مع العلم في تعلمه وأيضًا مع معلمه.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٨ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾ ولما كانوا كالقاطعين بأنه لا ينزل كتاب يناظر التوراة في الأحكام أكدوا قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ وأشاروا إلى أنه لم ينزل بعد التوراة شيء جامع لما يراد منه، مغن عن جميع الكتب غير هذا، وبذلك عرفوا أنه ناسخ لجميع الشرائع فقالوا: ﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ فلم يعتدوا بما أُنزل بينهما؛ لأنها لا تساوي التوراة في الجمع، ولا تعشر هذا الكتاب في الحكم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ

﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ فهو يوصل بغاية السرعة فيختصر به السالك فيه طريقًا يكون وَتَرًا لما تقوس منه.

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ولما كان المجيب قد يجيب في شيء دون شيء كما كان أبو طالب عم النبي ﷺ قالوا: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ وأدخلوا «مِن» إعلامًا بأن مظالم العباد لا تغفر إلا بإرضاء أهلها، وكذا ما يجازى به صاحبه في الدنيا بالعقوبات والنكبات والهموم ونحوها مما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ وعبر عن عذابه بما دل على تحتمه فقال: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ ولما كان الخلاص لا يختلف سواء كان العاصي واحدًا أو أكثر، أنتج قوله معبرًا بالجمع لأنه أدل على القدرة، ودلالة على أن العصاة كثير؛ لملاءمة المعاصي لأكثر الطبائع: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾.

ولما ختم بضلال من لم يجب الداعي، نبه على أن أوضح الأدلة على إحاطته سبحانه وقدرته على الأجل الذي خلق الخلق لأجله: ما جلى به مطلع السورة من إبداع الخافقين وما فيهما، فقال ردًا لمقطع السورة بتقرير المعاد على مطلعها المقرر للبدء: ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ﴾ يقال: عيي بالأمر، إذ لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق إحكامه ﴿بِخَلۡقِهِنَّ﴾ أي: بسببه، فإنه لو حصل له شيء من ذلك لأدى إلى نقصانٍ فيهما أو في إحداهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ﴾ أي: قد علموا ذلك علمًا هو في إتقانه كالرؤية، ولكنهم عنه غافلون لأنهم عنه معرضون ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾.

ولما ثبت البعث، ذكّر ببعض أهواله تحذيرًا منه فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عرضًا لو قُدِّر أن أحدًا يموت من ذلك لماتوا من معاينته ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ أي: الجد في الأمر والحزم في الجد والإرادة الجازمة والثبات، الذين مضوا في أمر الله مضيًّا كأنهم أقسموا عليه ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ و«من» للتبعيض، والمراد بهم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها، ولما أمره بالصبر الذي هو من أعلى

الفضائل، نهاه عن العجلة التي هي من أمهات الرذائل ليصح التحلي بفضيلة الصبر فقال: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾.

ولما تكفل ما ذكر في هذه السورة ببيان مقصودها بحيث لم يبق فيه لبس، وكان آيلًا إلى سورة إبراهيم وهو التوحيد، ختمت بما ختمت به، ولأن الحواميم لباب حذف المبتدأ ومتعلق الخبر وقيل: ﴿بَلَٰغٞۚ﴾ أي: هذا الذي ذُكر ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٤﴾ أي: العريقون في إدامة الخروج مما يدعو إليه هادي العقل والفطرة الأولى.

فهذا الآخر نتيجة قوله أولها: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾، فقد التحم بذاك الأول أي التحام، والتأم بأول التي تليها أحسن التئام.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها حفظ المؤمنين لحظيرة الدين بالجهاد للكفار حتى يلزموهم الصغار، أو يبطلوا ضلالهم كما أضل الله أعمالهم، والتزامه حتى تضع الحرب أوزارها بإسلام كل الناس بنزول عيسى عليه السلام، وعلى هذا دل اسمها «الذين كفروا»؛ لأن من صدك عن سبيلك قاتلته، وإن لم تقاتله كنت مثله، و«محمد» لأن الجهاد كان خلقه ﷺ إلى أن توفاه الله، وهو نبي الرحمة بالملحمة؛ لأنه لا يكون حمد وثم نوع ذم، ومتى كان كفٌّ عن أعداء الله كان الذم، وأوضح أسمائها في هذا المقصد «القتال» فإن من المعلوم أنه لأهل الضلال.

لما أقام سبحانه الأدلة وختم بأنه لا يهلك إلا القوم الفاسقون، افتتح هذه بالتعريف بهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنفسَهم وغيرَهم لعراقتهم في الكفر ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾ التي هي أرواحهم المعنوية بعد أن وفر سيئاتهم وأفسد بالهم، فبطلت منفعتها فصارت باطلة، فأذهبوا أنتم أرواحهم الحسية بأن تبطلوا أشباحهم، فإن ربهم قد أبطلهم وأذن لكم في إبطالهم، فإنه قد علم أن لا صلاح لهم، والمؤذي طبعًا يُقتل شرعًا، فمن قدرتم على قتله فهو محكوم بكفره وخسره.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما ختم الأحقاف بذكر هلاكهم في قوله: ﴿فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾ افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك".

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباعه ﷺ، خصهم بقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ولما كان هذا معلمًا بأن كل إيمان لم يقترن بالإيمان به ﷺ لم يعتد به، اعترض بين المبتدأ وجوابه بما يفهم علته، حثًا عليه وتأكيدًا له فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ المحسن إليهم بإرساله، أما إحسانه إلى أمته فواضح، وأما سائر الأمم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة، وأمته هي الشاهدة لهم.

ثم بين ما أثمر لهم ذلك فقال: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ ولما كان لا عيشة لخائف قال: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ أي: موضع فكرهم، بالأمن والسداد وقوة الفهم والرشاد لما يوفقهم له من محاسن الأعمال وطيب الذكر، قال ابن برجان: "وإذا أصلح ذلك من العبد صلح ما

يدخل إليه وما يخرج عنه وما يثبت فيه، وإذا فسد فبالضد من ذلك"، ولذلك إذا اشتغل البال لم ينتفع من صفات الباطن بشيء.

ولما كان الجزاء من جنس العمل، علل ما تقدم من فعله بالفريقين بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ من العمل الذي لا حقيقة له في الخارج يطابقه، وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ولو كانوا في أقل درجات الإيمان ﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الذي له واقع يطابقه، وذلك هو الحكمة، وهي العمل بموافقة العلم، وهو معرفة المعلوم على ما هو عليه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

ولما كان المَثل: إدراك حقائق المحسوسات وذلك هو وجه الشبه، علم أن مَثل كل من الفريقين ما علم من باطن حاله، فمثل الأول الباطل والثاني الحق، فلذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ وأمثال جميع ما يحتاجون إلى بيان أمثاله، فقد علم من هذا المثل أن من اتبع الباطل أضل الله عمله ووفر سيئاته وأفسد باله، ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك، وهو غاية الحث على طلب العلم في الكتاب والسنة والعمل بهما.

ولما تحرر أن الكفار أحق الخلق بالعدم لأن الباطل مثَلهم وحقيقة حالهم، سبب عنه قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولما كان المراد القتل المحقَّق، اختصر بذكر المصدر الدال على الفعل مصورًا له بأشنع صوره، مع ما فيه من الغلظة على الكفار فقال: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ من غير مهلة، فإن ذلك انتهاز للفرصة وعمل بالأحوط ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ فجعل ذلك شرطًا للأسر كما قال تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: ٦٧] ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ﴾ أي: بعد الأسر باستبقائهم، إما مع الاسترقاق أو الإطلاق، ثم الإطلاق إما مجانًا.

﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وأعلم جعل الفداء قسيمًا للمنّ أن المراد به الإبقاء مع عدم أخذ الفداء، فدخل فيه الإطلاق مجانًا والاسترقاق؛ لأنه إنعام بالنسبة إلى القتل، وأفهم التعبير بالمنّ جواز القتل؛ لأن الإنعام مخير فيه، ولو كان واجبًا كان حقًا لا نعمة، وكل هذا على ما يراه الإمام أو نائبه مصلحة ﴿حَتَّىٰ﴾ أي: افعلوا ما أمرتكم به إلى أن ﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۝٤﴾ وذلك لا يكون وفي الأرض كافر وذلك على زمن عيسى عليه السلام وتكون الملة واحدة وهي الإسلام.

﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: بنفسه ﴿وَلَٰكِن﴾ أوجب ذلك عليكم ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾ ولما كان الابتلاء عامًا للفريقين؛ لأنه يكشف عن أهل المحاسن والمساوئ من كل منهم، قال: ﴿بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ وهذه أكثر ترغيبًا، وقرئ: ﴿قاتلوا﴾ وهي أعظم ترجية ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأجل تسهيله ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ أي: يضيع ويبطل ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ٥﴾ لكونها غير تابعة لدليل، بل يبصرهم بالأدلة ويوفقهم لاتباعها.

وهو معنى قوله تعليلًا: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٦﴾ أي: موضع فكرهم، فيجعله مهيأ لكل خير، بعيدًا عن كل شر، آمنًا من المخاوف، مطمئنًا بالإيمان بما فيه من السكينة، فإذا قتل أحد في سبيله تولى سبحانه ورثته بأحسن من تولي المقتول لو كان حيًا. ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٧﴾ أي: بتعريف الأعمال الموصلة إليها والتوفيق لهم إليها في الدنيا وبالتبصير بالمنازل في الآخرة، حتى إن أحدهم يصير أعرف بمنزله فيها منه بمنزله في الدنيا، وطيَّب رائحتها وجعل موضعها عاليًا، وفي هذه الآية بشرى عظيمة لمن جاهد ساعة ما: بأن الله يميته على الإسلام المستلزم لئلا يضيع له عمل.

ولما ذكر القتال، تشوف السامع إلى حال المقاتل من النصر والخذلان، فأجاب بما يعرّف بشرط النصر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بتبيين أدلته وتوهية شبه أهل الباطل وقتالهم، ويكون ذلك خالصًا له لا لنية معلولة بطلب الدنيا أو الشهرة بالشجاعة والعلم وطيب الذكر والغضب للأهل وغيرها ﴿يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٨﴾ فتكونوا عالين قاهرين طيبي النفوس منشرحي الصدور؛ ثقةً بالله واعتزازًا به، وإن تمالأ عليكم أهل الأرض. ولما ذكر أهل الإيمان بين ما لأهل الكفران فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ وإن كانت ظاهرة الإتقان؛ لتضييع الأساس بالإيمان.

ولما بين ما صنع بهم ليجترئ به حزبه عليهم، بين سببه ليجتنب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الذي لا نعمة إلا منه، وما أنزله من القرآن والسنة الذي هو روح الوجود، فلما كرهوا الروح الأعظم بطلت أرواحهم فتبعتها أشباحهم، وهو معنى قوله بيانًا لمعنى إضلال أعمالهم: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١٠﴾ لأنهم أفسدوها بنياتهم فصارت وإن كانت صورها صالحة: ليس لها أرواح، لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذي لا يقبل من العمل إلا ما حده، وهذا وعيد للأمة بأنها إن تخلت عن نصر الله والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر: وكلها إلى نفسها وسلط عليها عدوها، ولقد وُجد بعض ذلك مِن تسلط الفسقة، لمّا وجد التهاون في بعض ذلك والتواكل فيه.

ولما كان يكفي في الصد عن الأمرين: وقائعه تعالى بالأمم الخالية لتكذيب رسله ومناصبة أوليائه وتعدي حدوده، قال منكرًا عليهم: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: التي فيها آثار الوقائع، فإنها هي الأرض في الحقيقة؛ لما لها من زيادة التعريف بالله ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١١﴾.

ولما بين أنه يعلي أولياءه ويذل أعداءه، بين علته فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال القشيري: "ويصح أن يقال: أرجى آية في كتاب الله هذه الآية؛ لأنه لم يقل: الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد" يعني بل ذكر أدنى أسنان أهل الإيمان ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١٢﴾ لأنهم بعيدون من الله، فلا ينفعهم قرب قريب.

ولما أخبر بالولاية عرّف بآثارها فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فتمتعوا بما رزقهم الله من الملاذّ لا على وجه أنها ملاذ بل على وجه أنها مأذون فيها وهي بلاغ إلى الآخرة ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ناسين ما أمر الله، معرضين عن لقائه بل عن الموت، بل يحثهم ذكر الموت على الانهماك في اللذات مسابقةً له، جهلًا منهم بالله ﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أكل التذاذ ومرح من أيّ موضع كان وكيف كان في سبعة أمعاء، أي: في جميع بطونهم من غير تمييز للحرام من غيره ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٣﴾ تنسيهم أولَ انغماسهم فيها كلَّ نعيم كانوا فيه.

ولما وعد سبحانه أنه ينصر من ينصره لأنه مولاه ويدخله دار نعمته، دل على ذلك بقوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ ولما كانت قوة قريش في الحقيقة ببلدهم، وكان الإسناد إليها أدل على تمالؤ أهلها واتفاقهم قال: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أي: أهلها متفقين في أسبابه حتى كأن قلوبهم قلب واحد، فكأنها هي المخرجة.

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٤ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فبصر سوء عمله فاجتنبه مخالفًا لهواه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ ولما أفرد الضمير، جمع إشارةً إلى أن القبيح يكون أولًا قليلًا فمتى غفل عنه فلم تحسم مادته انتشر، فقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٥﴾

والآية من الاحتباك: ذكر البينة أولًا دليلًا على ضدها ثانيًا، والتزيين واتباع الهوى ثانيًا دليلًا على ضدهما أولًا، وسره أنه ذكر الأصل الجامع للخير ترغيبًا، والجامع للشر ترهيبًا.

ولما قسم الناس إلى أولياء مهتدين وأعداء ضالين، أتبعه وصف دار أوليائه ودار أعدائه فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: الذين حملتهم تقواهم على أن استمعوا منك فانتفعوا، حتى انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: مقبل بكليته فهو متبع، ومعرض جملة، ومستمع غير منتفع ﴿فِيهَا أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وإن أقام مدى الدهر، وهذا يفهم أنهم لو أرادوا تغييره لشهوة اشتهوها تغير، وقد حصل بهذه الآية غاية التشويق إلى الجنة بالتمثيل بما يستلذ به من أشربة الدنيا لأنه غاية ما نعلم من ذلك، مجردًا عما ينقصه أو ينغصه، مع الوصف بالغزارة والاستمرار ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

وقال أبو حيان في حكمة ترتيبها: "بدئ بالماء الذي لا يستغنى عنه في المشروبات، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعومات، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري تشوفت النفس إلى ما يتلذذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء مما يعرض من المطعوم والمشروب"، ولما أرشد السياق إلى أن التقدير: أفمن هو في هذا النعيم المقيم، بنى عليه قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ﴾ أي: عوض ما ذكر من شراب أهل الجنة ﴿مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: بغاية جهده ليجد مطعنًا يشكك به.

ولما أفرد نظرًا للفظ «من» إشارة لقلة المستمع، جمع نظرًا لمعناه إشارة لكثرة المعرضين فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ﴾ ولما كان مجرد حصول العلم النافع مسعدًا، عظمه ببنائه للمجهول فقال: ﴿لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ لتهيئة الله لهم بما آتاهم من صفاء الأفهام لتجردهم عن النفوس ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ قال مقاتل: "وذلك أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا سألوا استهزاء: ماذا قال؟".

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ولما ضلوا حتى صاروا كالبهائم، عطف عليه ما هو من أفعالها فقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ باستماعهم منك، بالصدق في الإيمان والإذعان بأنواع المجاهدات ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ بأن شرح صدورهم ونورها فصارت

أوعية للحكمة ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٨﴾ أي: بين لهم ما هو أهل لأن يحذر ووفقهم لاجتنابه، ومعنى الإضافة أنه آتى كلًا منهم منها بحسب ما يقتضيه حاله.

ولما كان أشد ما يتقى القيامة، سبب عن اتباعهم الهوى قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ بلا شعور ولا استعداد، ثم قال معللًا للبغتة: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ وما بعد مقدمات الشيء إلا حضوره ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ﴾ الساعة وأشراطها المعيّنة لها كطلوع الشمس من مغربها ﴿ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٩﴾ لأنهم في أشغل الشغل، ولو فرغوا لما تذكروا فعملوا ما أفاد؛ لفوات وقت الأعمال، وهكذا ساعة الإنسان وهي موته، وأشراطها الحاثة على الذكرى وهي المرض والشيب ونحوه، ومن أشراطها المعيّنة لها التي لا ينفع معها العمل الغرغرة.

ثم أخبر بالعلم الذي هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع العمل وإلا فهو جهل صرف، ولما كانت حروفها حلقيًا ولسانيًا، كان في ذلك إشارة إلى أنه لا يكفي في أمرها إلا إذعان الباطن ومطابقة الظاهر الذي هو اللسان فهو ترجمان القلب، ولم يجعل فيها شيئًا شفهيًا؛ لتمكن ملازمتها، لكونها أعظم مقرب إلى الله وأقرب موصل إليه.

ثم قال معلمًا أنه يجب على العبد بعد تكميل نفسه السعي في تكميل غيره؛ ليحصل التعاون على ما خلق العباد له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ بعد العلم بأنه لا كفؤ له، بالدعاء له والاجتهاد في الصالحات، ولما كان تكميل النفس مرقيًا إلى تكميل الغير ليكون له مثل أجره، قال معبرًا بالإيمان والوصف إيذانًا بأن أعلى الأمة محتاج إلى ذلك، لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ٢٠﴾.

ولما كان أدل دليل على إحاطة العلم: علم ما أبطنه الإنسان ولا سيما إن خالفه بظاهره، قال دالًا عليه بإظهار أسرار المنافقين: ﴿۞وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دالين على صدق إيمانهم بالحث على طلب الخير بتجدد الوحي ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ﴾ على التدريج ﴿سُورَةٞۖ﴾ أيًا كانت لنسر بها ونتعبد بتلاوتها ونعمل بما فيها كائنًا ما كان.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ تدريجًا أو جملة، وزادت على مطلوبهم بأنها ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي: مبينة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ قال البغوي: "وكل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين"، ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: ضعف في الدين أو نفاق

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ كراهة لما نزل عليك بعد أن حرضوا على طلبه ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ ولما كان للغشي أسباب، بين أن هذا أشدها فقال: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ فهو شاخص لا يطرف كراهة للقتال من الجبن والخور، ولما كان هذا منابذًا للإنسانية لأنه مباعد للدين والمروءة، سبب عنه أعلى التهديد فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ٢١﴾ أي: أشد ميل موقع لهم في الهلكة، وذلك أن مادة «ولى» تدور على الميل.

ولما دعى عليهم لِما تقدم من سوء أدبهم، أعلم بما ينبغي لهم فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ بالتسليم وحسن الانقياد، خيرٌ لهم مما أظهروا من المحبة في الطاعة، وما كشف حالهم عنه من الكراهة ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ٢٢﴾ أي: من تعللهم وتسللهم عنه لواذًا، ويجوز أن يكون «خير» مفهمًا أن كذبهم شر لهم.

ولما بكّتهم لفتورهم، بيّن ما يحصل عنه من عظيم الفساد وخراب البلاد وشتات العباد فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ إذا شرع لكم الرحيم ما هو أصلح لكم وهو الجهاد ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الجهاد ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بقتال يكرهه الله وتكونوا جرآء عليه، فإن الذي رحمكم بإنزال ما أنزل حكم بأن من جبن عما يرضيه رغبة في الآخرة، اجترأ على ما يسخطه حبًا في الدنيا، كما كنتم عليه في الجاهلية ﴿وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ٢٣﴾ فتكونوا أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين.

وأقل ما في إعراضكم: خذلان المجاهدين بما قد يُظهِر الكافرين عليهم، فتكونوا جمعتم بين قطيعة أرحامهم وفقدكم لما كان يصل إليكم من منافعهم، فإن كففتم بعدهم عن قتلهم كنتم أجبن الناس وأرضاهم بالعار، وإن تعاطيتم الأخذ بثأرهم كنتم كمن أخذ في فعل ما أمر به بعد فواته، وأنى له ذلك! وقد علم من هذا أن من أمر بالمعروف وجاهد أهل المنكر: أمن الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم، ومن تركه وقع فيهما، ويمكن أن يكون ﴿توليتم﴾ من ولاية الأمر، فتكون الآية مشيرةً إلى ولاية الفجرة، ومنذرةً بذلك إن أُضيع الأمر بالمعروف، وقد وقع ذلك وشوهد ما ابتنى عليه من الفساد والقطيعة.

ولما بين ما يكون ممن تثاقل عن أمر الله، بين حالهم الذي أنتج لهم ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادهم وتقطيعهم، ثم سبب عن لعنهم قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الانتفاع بما يسمعون ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ٢٤﴾ عن الارتفاق بما يبصرون.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتفكرون في الكتاب الجامع لكل خير، الفارق بين كل ملبس، تفكُّرَ من ينظر في أدبار الأمور وماذا يلزم من عواقبها؟ ليعلموا أنه لا عون على الإصلاح في الأرض وصلة الأرحام والإخلاص لله مثل الأمر بالمعروف من الجهاد بالسيف وما دونه، وربما دل إظهار التاء على أن ذلك من أظهر ما في القرآن من المعاني فلا يحتاج في العثور عليه إلى كبير تدبر، والله أعلم.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٥﴾﴾ فلهذا لا تزداد إلا غباوة وعنادًا؛ لأنها لا تقدر على التدبر، قال القشيري: "فلا تدخلها زواجر التنبيه ولا ينبسط عليها شعاع العلم فلا يحصل لهم فهم الخطاب، والباب إذا كان مقفلًا فكما لا يدخل فيه شيء فلا يخرج ما فيه، فلا كفرهم يخرج ولا الإيمان الذي يُدعَون إليه يدخل"، وفي الآية أعظم حاث على قبول أوامر الله لا سيما الجهاد، وأشد زاجر عن الإعراض؛ لأنه لعن فيها من أعرض لكونه لا يتدبر القرآن مع وضوحه ويسره فيعلم فوائد الجهاد الداعية إليه المحببة فيه، فكان كأن قلبه مقفل.

ولما أخبر بأقفال قلوبهم، بين منشأ ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل التي أغنى ظهورها عن بيان مبين ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ بتزيينه الذي أرخى عزائمهم وفتر هممهم، فطال أملهم وكثر زللهم وأمانيهم من الشهوات والعلل ﴿وَأُمْلِيَ لَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أمهلهم الله تعالى بإطالة العمر وإسباغ النعم وتسهيل الأماني والحِلم عن المعاجلة بالنقم حتى اغتروا، وأما على قراءة ﴿أَملَى﴾ فالمراد أن الشيطان أطال فيه ووسع بتكراره حتى نسوا المواعظ وأعرضوا عن الذكر.

ولما بين تسليطه الشيطانَ عليهم بين سببه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ بعد ما تقدم من الآيات البينات ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ بوعد صادق لا خلف فيه ﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وهو القتال في سبيل الله، فأنتم في أمان من أن نقاتلكم أبدًا، فإنا إنما أسلمنا للأمان على دمائنا وأموالنا، والذي نحبه مما ينزل هو التأمين لمن أقرّ بكلمة الإسلام، والوعد العام بالتبسط في البلاد والأرزاق، فكانوا بذلك كفرة فإن الدين لا يتجزأ، فمن أضاع من أصوله شيئًا فقد أضاعه كله.

والتقييد بالبعض يفهم أنهم لا يطيعونهم في الآخَر وهو إظهار الإسلام والمسالمة، فاستحقوا -لاختيارهم طاعة العدو مع جهلهم بالعواقب- أن يسلط عليهم؛ ليكون أخذهم في

الظاهر ممن أطاعوه في الباطن، ولو أنهم استمسكوا بدينهم وكانوا مع أهله يدًا على من سواهم لم يقدر عليهم عدو، ولما كان من له أدنى عقل لا يخون إلا إذا ظن أن خيانته تخفى ليأمن عاقبتها، صور قباحة ما ارتكبوه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ۝٢٧﴾ وغيره مما في ضمائرهم ولعلهم لم يعلموه هم، فضلًا عن أقوالهم التي تحدثت بها ألسنتهم، فبان بذلك أنه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروءات.

ولما بين إحاطة علمه بهم أتبعه إحاطة قدرته، فقال معبرًا بالاستفهام تنبيهًا على أن جزاءهم فيه من البشاعة ما يحق السؤال عنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فلم ينفعهم تقاعدهم عن الجهاد في تأخير آجالهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ وهي أشرف جوارحهم التي جبنوا عن الحرب صيانة لها عن الضرب، ولما كان جبنهم مقتضيًا لضرب الأقفاء قال: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٨﴾ التي ضربها أدل ما يكون على هوان المضروب، ثم تتصل بعد ذلك آلامهم وهوانهم إلى ما لا آخر له.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ لما كان فعل ما يسخط قد يكون مع الغفلة عن أنه يسخط، بين أنهم ليسوا كذلك فقال: ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ بكراهتهم أعظم أسبابه وهو الإيمان، فهم لما دونه بالقعود عن سائر الطاعات أكره ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٩﴾.

ولما صور ما أثرته خيانتهم بأقبح صوره، أنتج قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم﴾ التي إذا فسدت فسدت جميع أجسادهم ﴿مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٣٠﴾ من اعوجاجهم الدال على أحقادهم، وهي أنهم كاتمون عداوة مصرون عليها، يترقبون الدوائر لانتهاز فرصتها، ليس الأمر كما توهموا بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسهم.

﴿وَلَوْ﴾ أي: أم حسبوا ذلك والحال أنا لو ﴿نَشَآءُ﴾ ولما كانوا لشدة جهلهم لا يتصورون أن سرائرهم كلها معلومة، أكد قوله: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ ولم يذكرهم بأسمائهم إبقاء على قراباتهم المخلصين من الفتن، ولما انقضى ما علق بالمشيئة عطف عليه ما نجّزه له، فقال مؤكدًا؛ لاستبعاد من يستبعده منهم أو ممن شاركهم في مرض القلب: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ قال ابن برجان: "هو ما تميل إليه بلسانك ليفطن لك صاحبك، وتخفيه على من لا عهد له بمرادك، فلحن القول ما يبدو من غرض الكلام وخفيات الخطاب وسياق اللفظ وهيئة السحنة حال القول وإن لم يرد المتكلم أن يظهره، ولكنه على الأغلب يغلبه

حالًا فلا يقدر على كل كتمه، وإن كان في تكليمه معتمدًا على ذلك"، وقال أبو حيان: "كانوا اصطلحوا على ألفاظ يخاطبون بها الرسول ﷺ مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح"، ومثّل ابن عباس رضي الله عنه بقولهم: ما لنا إن أطعنا من الثواب؟ قال: "ولا يقولون: ما لنا إن عصينا من العقاب"، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣١﴾.

ولما أخبر أنه يعرّفهم لنبيه، أخبر بأنه يعرفهم لكافة المؤمنين أيضًا، فقال مؤكدًا؛ لظنهم أن عندهم من الملكة والعقل ما يخفون به أمورهم: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ بأن نخالطكم بالمصائب والأحكام الشديدة خلطة مميلة محيلة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ مما لا تعلمونه حق علمه ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ في القتال وغيره امتثالًا ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على شدائد الجهاد وغيره من الأنكاد.

ولما نصب معيارًا للعلم بالذوات، أتبعه مسبارًا للمعرفة للأخبار فقال: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣٢﴾ أي: نخالطها بأن نسلط عليها من يحرفها فيجعل حسنها قبيحًا وقبيحها مليحًا؛ ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان، فإن العامل لله إذا سُمي قبيحه حسنًا علم أنه إحسان من الله إليه فيستحيي منه ويرجع إليه، وإذا سُمي حسنه قبيحًا علم أنه لطف من الله به كيلا يدركه العجب أو الرياء فيزيد في إحسانه، والعامل للشيطان يزداد في القبائح؛ لأن شهرته عند الناس محط نظره.

ولما كانت العادة أن الإنسان لا يهدد إلا من ضره قال مؤكدًا؛ لظنهم أنهم الغالبون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان أكثر السياق للمساترين بكفرهم، أدغم في قوله: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: الرسول ﴿شَيۡـٔٗا﴾ بما تجمعوا عليه من الكفر والصد، ولما كان التقدير: إنما ضروا أنفسهم ناجزًا بإتعابها بما لم يغن عنهم شيئًا، عطف عليه: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٣﴾ لبنائها من المنافق على غير أساس ثابت فهو إنما يرائي بها، ومن المجاهر على غير أساس أصلًا، فلا ينفعهم شيء منها ومن المكائد التي يريدون بها توهين الإسلام، ونجعل تدميرهم بها في تدبيرهم وإن تناهوا في إحكامها، فلا تثمر لهم إلا عكس مرادهم.

ولما حدى ما تقدم إلى الإخلاص [وأخبر بإحباط عمل الكافرين، أقبل على المؤمنين بالأمر بما يُنجِح سعيهم فقال]: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لتحققوا أنفسكم وأعمالكم كما مضى أول السورة، ولما كانت الطاعة قد تحمل على إقامة الصورة

الظاهرة، قال منبهًا على الإخلاص: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٤﴾ بمعصيتهما، فإن الأعمال الصالحة إذا نُويَ بها ما لا يرضيهما بطلت وإن حسنت صورتها، فكانت صورة بلا معنى هباءً منثورًا، كما فعل أولئك المظهرون للإيمان، المبطنون للمشاقة بالمعاصي والنفاق.

ولما دل ما أخبر به أولًا عن المشاقين على أنهم خاسرون في الدنيا والآخرة، علل ما أمر به المؤمنون هنا من الطاعة ونهوا عنه من إبطال الأعمال بالمعصية، زيادة في حثهم عليه بعلتين كل منهما مستقل بامتثال أمره واجتناب نهيه: إحداهما عدم المغفرة، والثانية بطلان الأعمال والأموال بكون الدنيا لا حقيقة لها، وقدم الأولى لأن الثانية كالعلة لها، ومن حسن التعليم بيان الحكم ثم تعليله بأقرب ما يحمل عليه أو يصد عنه، فكأنه قيل: لا تبطلوها بالصدِّ عن سبيل الله، الحاملِ عليه الإقبالُ على الدنيا التي هي لعب باطل، فإنكم إن فعلتم فاتتكم المغفرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتماديهم على باطلهم وأذاهم لمن خالفهم ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ٣٥﴾.

ولما قدم أنه يبطل أعمال الكفرة في الدنيا في الحرب وغيرها، وكان ذلك موجبًا للاجتراء عليهم، سبب عنه قوله مرغبًا لهم في لزوم الجهاد محذرًا من تركه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: تضعفوا ضعفًا يؤدي بكم إلى الهوان والذل ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ أعداءكم ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة وهي الصلح ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكريم مع غيره، ومن علم أن سيده معه وأنه قادر على ما يريد لم يبال بشيء.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٦﴾ فيجعلكم وترًا منها بإبطالها كما يفعل مع أعدائكم في إحباط أعمالهم فيصيرون مفردين عنها؛ لأنكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم، فلا يجوز لإمام المسلمين أن يجيب إلى مسالمة الكفار وبه قوة على مدافعتهم، ولا يحل له ترك الجهاد إلا لمعنى يظهر فيه النظر للمسلمين، ومتى لم يجاهد في سبيل الله انصرف بأسه إلى المسلمين.

ولما أتم العلة الأولى، أقبل على الثانيةِ الصادةِ عن الطاعة، القائدةِ إلى المعصية، الملائمةِ للشهوة، المبطلةِ للأعمال، الموجبةِ للتهاون المؤدي إلى عدم المغفرة، فقال مرغبًا في طاعته الموجبة للفوز الدائم ببيان قصر أيام المحنة: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ﴾ وأشار إلى دناءتها تنفيرًا عنها بقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ ولما كان العلو موجبًا للذة، فكيف إذا كان بالدين الضامن لدوامها، موصولًا

دنيويُّها بأخرويِّها، وكان اللعب ناشئًا من زيادة البسط ويتقضّى بسرعة مع دلالته على الخفة كالرقص، قدمه إشارة إلى أن العاقل من يسعى في زيادة بسط يحمل على الرزانة ويدوم.

وأتبعه اللهوَ لأنه ما يستجلب به السرور كالغناء، إشارة إلى أنه إن كان المراد بالدنيا زيادة بسطها فهو ينقضي بسرعة مع ما فيه من الرعونة، وإن كان المراد أصل البسط والسرور فعندكم منه بالعلو الحاصل لكم بالجهاد ما هو في غاية العظمة والجد والثبات، فلا سفه أعظم من العدول عنه إلى ما إن سرَّ: حمَل على الطيش وانقضى بسرعة، فقال: ﴿لَعِبٌ﴾ أي: أعمال ضائعة تزيد في السرور ما يسرع اضمحلاله فيبطل من غير ثمرة ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: مشغلة يطلب بها إثارة اللذة كالغناء، فإن تتبعوها تكفروا وتبطروا وتجترئوا على الله، وإن تفعلوه تبطل أجوركم فتبطل أعمالكم.

ولما صور الدنيا بما حاصله أنها استجلاب سرور سريع الانصرام، بخلاف ثمرة الاجتماع على الدين من سرور العلو بالإسلام فإنه دائم، [رغّب فيما يحققه فقال]: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تخافوا فتجعلوا بينكم وبين غضبه سبحانه وقاية من جهاد أعدائه والأمر بالمعروف وإنفاق الأموال في ذلك فتكونوا جادين فتتركوا اللهو واللعب القائدين للكفر.

﴿يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ على كل أعمالكم؛ لبنائها على الأساس ولأنه غني لا ينقصه الإعطاء، ولما كان الملعوبُ به الملهوُّ منه يسأل اللاعبَ اللاهي من ماله فيضيّع أعمالَه وأموالَه، بين أن المعبود بخلاف ذلك فقال: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٧﴾ وهذا مفهم لأنهم إن لم يتقوا بما ذكر سلط عليه من يأخذ أموالهم بما يخرج أضغانهم، قال ابن برجان: "ومتى سئلوا أموالهم بخلوا، فإن أُكرهوا أَشحنوا ضغائن وحقائد، ولم يكن من الإمام لهم نصيحة ولا منهم له ولا لبعضهم، وكان الخلاف وفي ذلك الحالقة، وهو إنذار منه سبحانه بما يكون بعد، وما أنذر شيئًا إلا كان منه ما شاء الله".

ولما كان الإنسان لنقصه قد يهلك جميع أمواله لهوًا ولعبًا ولا ينهاه ذلك بل يزيده، ولو سئل جميع ماله في الطاعة لبخل، قال تعالى تنبيهًا على ذلك وإيماء إلى حلمه عنهم وتحببه إليه معللًا ما قبله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٨﴾ ودل إضافة الأضغان إلى ضميرهم أن كل إنسان ينطوي بما له من النقصان على ما جبل عليه من الأضغان، إلا من عصم الرحمن، قال الرازي: "وهذا دليل على أن العبد إذا منع في مواسم

الخيرات سوى الزكاة لم يخرج من البخل، فحد البخل: منع ما يرتضيه الشرع والمروءة، فلا بد من مراعاة المروءة ورفع قبح الأحدوثة، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فإن قدم المادة مهما ظهر له أن فائدة البذل أعظم من فائدة الإمساك ثم يشق عليه البذل فهو بخيل محب للمال، والمال لا ينبغي أن يحب لذاته بل لفائدته، وحفظ المروءة أعظم وأفضل وأقوى من التنعم بالأكل الكثير مثلًا".

ولما أخبر ببخلهم لو سئلوا أموالهم أو أكثرها، دل عليه بمن يبخل منهم باليسير فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ﴾ إلى ربكم الذي لا يريد بذلك إلا نفعكم ﴿لِتُنفِقُواْ﴾ شيئًا يسيرًا من الزكاة ونفقة الغزو وقد يحصل من الغنيمة أضعافها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ وحذف القسم الآخر وهو من يجود؛ لأن المراد الاستدلال على ما قبله من البخل.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ التي هي منبع الدنايا فلا تنفس ولا تنافس إلا في الخسيس ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ فإنه لم يسألكم لحاجته بل لحاجتكم إلى الثواب، وهو قد بنى هذه الدار كما اقتضته الحكمة على الأسباب ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ لأن العطاء ينفعكم والمنع يضركم، فمن افتقر منكم إلى فقير مثله ذل وهان ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ فلا تسمحوا بذلك الجزء اليسير من الجهاد في سبيله والقيام بطاعته ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ غير متولين، ولما كان الناسُ متقاربين في الجبلات والمالُ محبوب، كان من المستبعد أن يكون هذا البدل على غير ما هم عليه، فقال مشيرًا إلى ذلك بحرف التراخي: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد علو الهمة في مجاوزة جميع عقبات النفس والشيطان ﴿لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٩﴾.

فثبت أنه سبحانه لو شاء لانتصر من الكفار، إما بإهلاكهم وإما بناس غيركم، فرجع بذلك آخر السورة على أولها، وعلم أن معنى الآخر والأول: أنه سبحانه لا بد من إذلاله للكافرين وإعزازه للمؤمنين؛ لأنهم إن أقبلوا على ما يرضيه فجاهدوا نصرهم نصرًا عزيزًا بما ضمنه قوله: ﴿إن تنصروا الله ينصركم وثبت أقدامكم﴾ وإن تتولوا أتى بقوم غيركم يقبلون عليه فيصدقهم وعده.

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقصودها مدلول اسمها الذي يعم فتح مكة وما تقدمه من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما، وما تفرع منه من إسلام العرب وفتوح البلاد، الذي يجمعه كله إظهار الدين على الدين كله، وهذا ظاهر جدًا في قوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ إلى ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ أي: بالفتح الأعظم وما دونه من الفتوحات.

لما كانت السورتان بشارةً للمجاهدين من المسلمين بالظفر على كل من كفر -كما سيأتي من إيلاء سورة النصر لسورة الكافرون- فأخبرت القتال بما اقتضى سفول الكفر وعلو الإيمان حتمًا وذلك هو الفتح المبين، افتتح هذه بنتيجة ذلك فقال مؤكدًا؛ إعلامًا بأنه لا بد منه، ولتكذيب من في قلبه مرض وهم أغلب الناس في ذلك الوقت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ لكل متعلق بإتقان الأسباب المنتجة له من غير شك، ولذا عبر عنه بالماضي.

ولما كانت منفعة ذلك له ﷺ لأن إعلاء كلمة الله يكون به فلا يعمل منهم أحد حسنة إلا كان له مثل أجرها قال: ﴿لَكَ﴾ قال الأزهري: "لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم، فرأوا ما لا أعدل منه ولا أحسن، فاستولى الإسلام على قلوبهم وتمكن منهم، فأسلم منهم في ثلاث سنين خلق كثير".

﴿فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ يعلم كل ذي عقل به أنك ظاهر على جميع أهل الأرض؛ لأنك كنت وحدك، وكان عند أهل الكفر أنك في أيديهم، وأن أمرك لا يعدو فمك.

وقال أبو جعفر بن الزبير: "ارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح من جهات، **منها** أن سورة القتال لما أُمروا فيها بقتال عدوهم، وأُشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ [محمد: ٧] تشوفت النفوس إلى العاقبة، فعُرِّفوا ذلك في هذه السورة فقال: ﴿إنا فتحنا لك﴾ الآيات، فعرف نبيه ﷺ بعظيم صنعه له، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة فقال: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ الآيات، **ووجه آخر** وهو أنه لما قال في آخر سورة القتال: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ [محمد: ٣٥] الآية، كان هذا إجمالًا في عظيم ما منحهم، فتضمنت سورة الفتح تفسير هذا الإجمال وبسطه.

ووجه آخر قد يغمض وهو أن قوله: ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم﴾ [محمد: ٣٨] الآية، إشارةٌ إلى من يسلم من العجم عند تولي العرب، وأشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» فعبر بالفتح، وذكر ابن العربي تفاوت درجاتهم ثم قال: "وأمضاهم في النظر عزيمة وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان، العجم أنسابًا وبلدانًا والعرب عقائد وإيمانًا، الذين ملّكهم الله مقاليد التحقيق حين أعرضت العرب عن العلوم وتولت عنها، وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها"".

ولما أخبر بالفتح عقب سورة القتال بشارة بظهور أهل هذا الدين وإدبار الكافرين، علله بالمغفرة وما بعدها رمزًا إلى وفاة النبي ﷺ فعند حصول الفتح تم المراد، كما كانت سورة النصر الوالية للكافرين رامزة إلى ذلك، فالفتح هو أحد العلامات الثلاث المذكورة في سورة النصر، فقال: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

[قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف جعل الفتح علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك، ليجمع لك عز الدارين"][(٣٧)]، ولما كان تمام النعمة يتحقق بإظهار الدين ومرافقة النبيين قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ أي: موصلًا إلى المراد من كتاب لا عوج فيه بوجه. ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ أي: يغلب المنصورُ به كلَّ من ناواه ولا يغلبه شيء؛ لأن الأمة المتصفة به لا يظهر عليها أحد، والدين الذي قضاه لأجله لا ينسخه شيء.

ولما أخبر ﷺ المؤمنين برؤياه أنه يطوف بالكعبة، وعزم على العمرة عام الحديبية، فصدهم المشركون وصالحهم على أن يرجع ويعتمر من القابل، وكان ذلك مزلزلًا للاعتقاد، مطرّقًا للشيطان الوسوسةَ، قال سبحانه دالًا على النصر بتثبيت المؤمنين في هذا المحل الضنك، إظهارًا لتمام قدرته ولطيف حكمته: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ يوم الحديبية ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: الثبات على الدين، قال الرازي: "والسكينة: الثقة بوعد الله والصبر على حكم الله، وأثرها: الوقار والخشوع والحزم في الأمور".

---

(٣٧) من حاشية المخطوط.

﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُومِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ بالتصديق بالغيب من أن صلحهم للكفار ورجوعهم من غير بلوغ قصدهم هو الفتح كما كشف عنه الوجود بعد ذلك، ليقيسوا عليه غيره من الأوامر ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ ولما كان ربما ظن شقي من أخذ الأمور بالتدريج شيئًا في القدرة قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ومنها السكينة، يدبرهم بلطيف صنعه وعجيب تدبيره، فلو شاء لنصر الآن بجنودٍ من جنوده أو بغير سبب، لكنه فعل ذلك لأن الدار دار البلاء والبناء على الأسباب على وجهٍ الأغلبُ فيه الحكمة لا القهر، فاسمه الباطن هو الظاهر في هذه الدار، فلذلك تستتر المسببات بأسبابها.

ولما كان مبنى ما مضى كله على القدرة بأمور خفية يظهر منها من الضعف غير ما كشف عنه الزمان من القوة قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ فدبّر أمر الصلح ليدخل الناس في الإسلام، وأدخل خزاعة في صلح النبي ﷺ وبني بكر وهم أعداؤهم في صلح قريش؛ ليبغوا عليهم فتعينَهم قريش فينتقض الصلح بعد أن كثرت جنود الله فيفتح الله بهم مكة.

وعلل ما دل عليه ملك الجنود من تدبيرهم وتدبير الأكوان بهم بقوله زيادة في السكينة: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُومِنِينَ وَٱلۡمُومِنَٰتِ﴾ بجهاد بعضهم وإسلام بعضهم بالجهاد، ولو أهلكهم بجنوده من أول الأمر أو دمر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فأي موضع أردت أن تجري منه نهرًا قدرت؛ لأن الماء قريب من وجه الأرض مع صلابتها وحسنها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [وقدم دخول الجنات على تكفير السيئات مع أنه المقدَّم في الوجود لأنه الأهم في حقهم، وتكفير السيئات يختص بأهل الجنة، فقصد الإعلام أنهم منهم أولًا، ولأن المقصود التشريف بذكر أنواع النعم، فذكرت على الترتيب الطبيعي](٣٨).

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ أي: يزيل كل ما لهم من العذوبة بما غاظهم من ازدياد الإيمان ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ بصدهم الذي كان سببًا لقوة أهل الإسلام بما تأثر عنه من كثرة الداخلين فيه الذي كان سببًا لتدميرهم، ولما أخبر بعذابهم وصفهم بما سببه لهم فقال: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ من أنه لا يفي بوعده فينصر رسوله ﷺ وأتباعه، أو أنه لا يعذبهم لمخالفة رسوله ومشاقة أتباعه، وفسر عذابهم بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾

---

(٣٨) مختصر من حاشية المخطوط.

التي دبروها للمسلمين فهم مخذولون في كل موطن خذلانًا ظاهرًا وباطنًا يدركه أرباب البصائر ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ فهو يسلط ما يشاء منها على من يشاء.

ولما كانت السورة من أولها حضرة إقبال فلم يدعُ أمر إلى نداء، قال تقريرًا لما ختم به من صفتي العزة والحكمة: ﴿۞إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا﴾ ولما كانت النذارة كريهة لا يقدم عليها إلا من كمل عرفانه بمنافعها الموجبة لتجشم مرارتها، أتى بصيغة المبالغة فقال: ﴿وَنَذِيرٗا ۝٨﴾. ولما ذكر حال الرسالة ذكر علتها فقال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولما كان الإيمان باطنًا فلا يقبل إلا بدليل قال: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: ينصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ أي: يجتهدوا في حسن اتباعه في تبجيله وإجلاله ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: ينزهوه عن كل إخلاف للوعد بدخول مكة ونحو ذلك، والأفعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله عز وجل.

ولما دل قوله: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾ على أنه لا يرضى مِن ذلك إلا بالمداومة، قال مرغباً في اتباع رسوله ﷺ ومرهبًا لأتباعه عن أدنى توان فيما دخلوا فيه من الإيمان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ على ما جئت به من الرسالة التي تتقاضى الشدائد التي عمادها الثبات والصبر، وسميت مبايعةً لأنهم بايعوا أنفسهم فيها من الله بالجنة وهذا معنى الإسلام ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ﴾ أي: في وقت من الأوقات ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾ وعبر بالمضارع إشارة إلى أن من فعل النكث فهو في كل لحظة ناكثٌ نكثًا جديدًا ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ لا على غيرها فإنه بمرأى من الله ومسمع.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾ والآية من الاحتباك: ذكر أولًا أن النكث عليه دليلًا على أن الوفاء له ثانيًا، وإيتاء الأجر ثانيًا دليلًا على إحلال العقاب أولًا، وسره أنه بين أن ما يريده الناكث من الأذى لغيره إنما هو واقع به، لأن ذلك أعظم في الترهيب، وذكر الأجر للموفي لأنه أعظم في الترغيب.

ولما ذكر أهل بيعة الرضوان ذكر من أبطأ عنها فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ لأنهم يعلمون أنك ألطف الخلق عشرة وأعظمهم شفقة على عباد لله، فهم يطمعون في قبولك من فساد عذرهم ما لا يطمعون فيه من غيرك ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلفهم الله عنك فجعلهم كالشيء التافه الذي يُخلّف لأنه لا فائدة فيه، وذلك أنه ﷺ لما أراد الاعتمار ندب من الأعراب

حول المدينة من أقر بالإسلام، فلم يرد الله حضورهم لأن إسلامهم لم يكن خالصًا، فلو حضروا لفسد بهم الحال ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ لأنا لو تركناها ضاعت، وأنت قد نهيت عن إضاعة المال والتفريط في العيال ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾.

ولما كان هذا ربما يغتر به من لا خبرة له، رده تعالى بقوله، منبهًا على أن من صدق مع الله لم يشغله عنه شاغل، ومن شغله عنه شيء كان شؤمًا عليه: ﴿يَقُولُونَ﴾ وعبر بالمضارع إشارة إلى أن هذا ديدن لهم ﴿بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ أي: أنه قول ظاهري، وأكده بقوله: ﴿مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ لأنهم لم يكن لهم شغل ولا كانت لهم نية في سؤال الاستغفار.

ولما ظنوا بهذا أنهم يدفعون عن أنفسهم المكروه ويحصلون المحبوب قال: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ فأهلك الأموال والأهلين وأنتم محتاطون في حفظها فلا ينفعها حضوركم، أو أهلككم ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ بحفظها به مع غيبتكم فلا يضرها بعدكم، ويحفظكم في أنفسكم، وقد علم من تصنيف حالهم إلى صنفين مع الإبهام أنه يكون لبعضهم الضر لأن منهم من ارتد، ولبعضهم النفع لأنه ثبت.

ولما كان من المعلوم قطعًا أنه لا أحد يملك منه سبحانه لهم شيئًا من ذلك، وكان فعلهم فعل من يظن أنه لا يقدر عليهم ولا يعلم كذبهم قال: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١ بَلۡ﴾ أي: ليس تخلفكم لما أخبرتم به من الاشتغال بل ﴿ظَنَنتُمۡ﴾ وأنتم واقفون مع الظنون الظاهرة ليس لكم نفوذ إلى البواطن ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ لِما في قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين، وأشار بالبناء للمفعول إلى أن ما حوته قلوبهم من الظن مما ينبغي أن ينزه سبحانه عن نسبته إليه وإن كان هو الفاعل له في الحقيقة فقال: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا﴾ أي: مع قوتكم على ما تحاولونه ﴿بُورٗا ١٢﴾ أي: في غاية الهلاك والكساد والفساد.

ولما كان ذلك لأنهم لم يؤمنوا، قال معممًا: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾. ولما كان الملك قد لا يقدر على عذاب من أراد أو لا يقدر على كل ما يريد لنقص ملكه، قال عاطفًا على آية الجنود: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وذكر نتيجة التفرد فيه بما يقتضيه الحال من الترغيب والترهيب فقال: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ ولما كان من يغفر في وقت قد لا يستمر عليه قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤﴾.

ولما وعد سبحانه أهل الحديبية فتح خيبر وذمّ المخلفين، [أخبر عن قولهم حينها] فقال: ﴿سَيَقُولُ﴾ ولما كان النبي ﷺ لا مطمع لأحد في الظفر منه بشيء من خلاف أمر الله، أسقط ما عبر به في ذكرهم أولًا من خطابه وقال: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: لمن يطمعون فيه من الصحابة أن يسعى في تمكينهم من المسير في جيشه، ولم يقيدهم بالأعراب ليعم كل من تخلف من غيرهم ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ من خيبر ﴿ذَرُونَا﴾ أي: على أي حالة شئتم من الأحوال الدنية ﴿نَتَّبِعْكُمْۖ﴾.

ولما كان في تمكينهم من ذلك إخلاف وعد الله بأنها تخص أهل الحديبية قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ ليشككوا أهل الإسلام فيه، والمراد أن فعلهم فعل من يريد ذلك، ولا يبعد أن يكونوا صنفين: منهم من يريده، ومنهم من فعله فعل من يريده ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي لا يكون إلا ما يريد، وليس هو كالملوك الذين لا قدرة لهم على الغفران والعقاب لمن شاؤوا ﴿مِن قَبْلُۖ﴾.

ولما كانوا منافقين لا يعتقدون أن الله قال ذلك بل يظنون أنها حيل على التوصل إلى المرادات الدنيوية، سبب عنه قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ ليس الأمر كما ذكر أنه قول الله ﴿بَلْ﴾ إنما ذلكم لأنكم ﴿تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ في دنياهم، ومن ذلك إقرارهم بالإيمان لأجلها، وأما أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيئًا.

ثم أخبر بأنهم سيمتحنون بأمر شاق يميّز الله به بين الخلص وغيرهم فقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ ويجوز أن يكون القيد للاحتراز إشارة إلى أن المخلفين من أهل المدينة لمثل ما اعتل به الأعراب لا صلاح لهم ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ بأمر إمامكم ﴿أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾ ليكون أحد الأمرين المظهرين لأن كلمة الله هي العليا، فإن أسلموا لم يكن قتال؛ لأن الإمام لا غرض له إلا إعلاء كلمة الله، ولا يكون شيء غيرهما كجزية أو مصالحة ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ وذلك في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾.

وهذا الداعي هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه والقوم بنو حنيفة وغيرهم من أهل الردة، وأما القول بأنهم ثقيف فضعيف؛ لأن الدعاء لم يكن إليهم إنما كان المقصود بالذات فتح مكة، وكذا القول بأنهم فارس والروم، فإن كلًّا منهم تقبل منه الجزية، وتأويله بأنه إسلام

لغوي لا داع له مع إمكان الحقيقة. وقد كان ما أشار إليه التقسيم فإنهم لما دعوا إليهم انقسموا إلى مجيب وهم الأكثر، ومرتد وهم قليل وقد أذاقهم الله العذاب في الدنيا بالقتل، وهو يذيقهم في الآخرة أعظم النكال.

ولما كان أهل الأعذار لا تتيسر لهم إجابته وكان الدين مبنيًا على الحنيفية السمحة، استأنف قوله مسكّنًا لما استثاره الوعيد: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ولتأكيد المعنى تسكينًا للمؤمن كرر النافي والحرج في كل جملة فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وذكر هكذا دون استثناء، إيذانًا بأنهم لم يدخلوا في الوعيد أصلًا حتى يخرجوا منه، ولما كانت إجابة المعذورين جائزة بل أرفع من قعودهم، ولذلك لم ينف إجابتهم إنما نفى الحرج، قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفًا، المانع منها من يشاء وإن كان قويًا ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ندبا إليه، من أي طاعة كانت إجابته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

ولما ذكر الوعد دل عليه بثواب محسوس يجذب النفوس القاصرة عن النفوذ في عالم الغيب فقال: ﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ﴾ وصور حالهم إعلامًا بشدة الرضى فقال: ﴿يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من مطابقته لألسنتهم في البيعة، وأن ما حصل لبعضهم من الاضطراب في قبول الصلح والكآبة منه إنما هو لمحبة الله ورسوله ﷺ وما يريده من إعلاء دينه لا عن شك ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بثبات القلوب وطمأنينتها في كل حالة ترضي الله ورسوله، ودل على عظمها بحيث إنها تغلب الخوف وإن عظم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فلم يخافوا عاقبة القتال لمّا نُدبوا إليه، وإن كانوا في كثرة الكفار كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ بجزاء يملأ مواضع احتياجهم.

﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي خيبر، ولما كان ذلك مستبعدًا؛ لكثرة الكفار وقلة المؤمنين، بين سببه فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ فيما يأتي من البلدان ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ﴾ منها ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أي: الصلح فإنه سبب ذلك كله، أو: الذي فتحه عليكم من خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ من أهل خيبر وحلفائهم أسد وغطفان، أن يعينوهم أو يغيروا على عيالاتكم بعد ما همّوا بذلك.

ولما كان ذلك رحمة لهم لتقواهم قال: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على جميع ما يخبر الله به، على ما وقع التدريب عليه في هذا التدبير من أنه لطيف يوصل إلى العظائم بأضداد أسبابها فيما يرى الناس، فلا يرتع مؤمن لكثرة المخالفين وقوتهم، فإن الله علق النصر على الإيمان الذي هو عماد الاتباع بالإحسان، فحيث ما وجد وجد النصر بأسباب جلية أو خفية، وهذا من أعلام النبوة فإنه لم يزغ أحد من المخاطبين بهذه وهم أهل الحديبية، وأكثر تفاصيل هذه السورة كذلك فإنه أُخبر به قبل وقوعه ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠﴾.

ولما بشّرهم بذلك دلّ على أنه لا مطمع لهم فيه لولا معونته فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ فكانت بمنزلة ما أدير عليه سور مانع من أن يفلت منها شيء أو يقدر غيركم عليه، ولذلك وللتعميم ختم بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾.

ولما قدم أنه كف أيدي الناس عنكم أجمعين، ذكر حكمهم لو وقع قتال فقال: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾. ولما كانت هذه عادة مع أولياء الله حيثما كانوا من الرسل وأتباعهم ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ١٧٣] قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾ وأكد الجار أن القتال ما وقع في الزمان الماضي إلا بعد نزول التوراة فقال: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ وأما قبل ذلك فإنما كان يحصل الهلاك بأمر من عند الله بغير أيدي المؤمنين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾.

ولما تقرر أن الكفار مغلوبون وإن قاتلوا وكان ذلك من خوارق العادات مع كثرتهم دائمًا وقلة المؤمنين، عطف عليه عجبًا آخر وهو عدم نفير أهل مكة في هذه العمرة للقتال بعد تعاهدهم عليه مع ما لهم من القوة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: الكفار ﴿بَصِيرًا ٢٤﴾ فهو يجريه على أوثق الأسباب في نصركم.

ثم بيّن سبب كفهم مع استحقاقهم للبوار فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي: أولى موضع لنحره ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾ أي: عريقون في الإيمان فكانوا أهلًا للوصف بالرجولية ﴿وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ استضعفهم الكفار فمنعوهم الهجرة، وهو شامل لمن علم الله إيمانه وإن كان آنذاك مشركًا ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لتميزوهم عن المشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أي: تؤذوهم بالقتل أو ما يقاربه ظنًا

أنهم مشركون ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: مكروه وإثم وخيانة وتأسف وتعيير ممن لا علم له ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ بأنهم مؤمنون، ودل السياق على أن جواب «لولا»: لسلطكم عليهم ولكنه علم ذلك فمنّ عليكم برفع حرج إصابتهم، وسبّب لكم أسباب الفتح الذي كان يتوقع بسبب تسليطكم عليهم بأمر سهل.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ أي: تفرقوا فزال أحد الفريقين عن الآخر زوالًا عظيمًا، وفي منع الله لهم من التسليط عليهم لِما ذكر: حثٌّ للعبد على أن لا يتهم الله في قضائه، فربما عسّر عليه أمرًا يظنه السعادة وهو سم قاتل، فيكون منع الله له منه رحمة، فالزم التسليم مع الاجتهاد في الخير وإياك والاعتراض، وفيها أيضًا أن الله قد يدفع عن الكافر لأجل المؤمن ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾.

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بيّن وقته وفيه بيان لعلته فقال: ﴿۞إِذْ﴾ أي: حين ﴿جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي: المنع الشديد والأنفة والإباء، ولما كان مثل هذه الحمية قد تكون موجبة للرحمة بأن تكون لله، قال مبينًا معظمًا لجرمها: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي مدارها مطلق المنع بحق أو بباطل، ومبناها التشفي على مقتضى الغضب لغير الله، فتوجب تخطي حدود الشرع، فأنتجت لهم أن تكبروا على كلمة التقوى وطاشوا وخفوا إلى الشرك الذي هو أبطل الباطل.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بسبب حميتهم ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: الشيء اللائق إضافته إليه سبحانه من الفهم عنه والروح الموجب لسكون القلب، المؤثّر للإقدام والنصر ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم أتباع رسوله وأنصار دينه ولم يدخلهم ما دخل الكفار من الحمية ليقاتلوا غضبًا لأنفسهم فيتعدوا حدود الشرع.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي كل قول أو فعل ناشئ عنها وإعلاء «لا إله إلا الله» التي هي أحق الحق، يقتضي التحقق بمدلولها من أنه لا فاعل إلا الله: الثبات على كل ما أخبر به رسوله في ذلك المقام الدحض، ويجمع الحامل على التقوى اعتقاد أن لا إله إلا الله، وهذا من أعلام النبوة فإن أهل الحديبية الذين أُلزِموها ماتوا كلهم مسلمين ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ من كل الخلق، وللتعميم حذف المفضَّل عليه ﴿وَأَهْلَهَاۚ﴾ ولما كان الحكم بذلك لا يكون إلا لعالم قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾.

ولما ختم بإحاطة علمه، أنتج الإخبار عن الرؤيا التي أقلقهم أمرها فقال: ﴿لَّقَد صَّدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾ التي هي من الوحي؛ لأنه تعالى يرى الواقع ويعلم مطابقتها ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فإنك إذا نسبتها للواقع طابقته فكان صدقًا، وإذا نسبت الواقع إليها طابقها فكانت حقًّا ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تأديب لهم(٣٩) ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ﴾ ثم عطف على ﴿صدق﴾ معللًا قولَه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ من فتح خيبر ووضع الحرب بهذا الصلح واختلاط الناس الموجب لإسلام بشر كثير تتقوّون بهم.

ولما أخبر بهذه الأمور الجليلة المبنية على إحاطة العلم، عللها وبين الصدق فيها بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: الكامل الذي يقتضي استقامة الناس، ولو أنه أخبر بشيء يكون فيه أدنى مقال لم يكن الإرسال بالهدى ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ فلذلك هو يدبر أمره بمثل هذه الأمور التي توجب علوه ونصره، مع الرفق بقومه وأتباعه، فلا بد أن تروا من الفتوح ما تعرفون به قدرته ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ يشهد بكل ما أخبر به رسوله ﷺ في هذه السورة خصوصًا وفي غيرها عمومًا.

ثم عيّن الرسول [الذي أرسله ليظهره على الدين كله] فقال(٤٠): ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ لأن الله أمرهم باللين للمؤمنين، وبين الحامل عليه بقوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ أي: دائمي الخضوع، فأكثر أوقاتهم صلاة، فكانت آمرة لهم بالخير، مصفّية عن كل ضير ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الذي أعطاهم الغلظةَ على الكفار بما وهبهم من جلاله، والرقةَ على أوليائه بما أعطاهم من رحمته التي هيأهم بها للإحسان، فنزعوا الهوى من صدورهم، فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن إليهم ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾.

(٣٩) وتذكيرٌ بأن كلَّ شيء طوعُ قدرته ومشيئته، كما امتلأت أرجاء السورة بالإشارة إليه.

(٤٠) أو يقال: لما انطوى ما مضى على فضل محمد ﷺ وأتباعه بما لهم من حسن الامتثال وقوة الصبر والإيمان، ختم السورة بما يجمع أهم الأسباب التي جعلتهم في تلك المكانة من الظفر والرضوان، فقال:.. ، والله أعلم.

ولما ذكر إخلاصهم في عبادتهم دل على كثرتها بقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فهي نور يوم القيامة، هذا مع ما لهم من مثل ذلك في الدنيا من أثر الخشوع والهيبة، ولا يظن أن من السيما ما يصنعه بعض المرائين من هيئة أثر سجود في جبهته فإن ذلك من سيما الخوارج، وفي نهاية ابن الأثير في تفسير الثفن: "ومنه حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: رأى رجلًا بين عينيه مثل ثفنة العنز، فقال: لو لم يكن هذا لكان خيرًا"، وإنما كرهها خوفًا من الرياء بها.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فإنه قال فيها: «أتانا ربنا من سيناء، وأشرق لنا من جبل ساعير، وظهر لنا من جبل فاران، معه ربوات الأطهار» وفاران جبال مكة باتفاقهم، ولم يأت منها بالنبوة غيره ﷺ بعد التوارة، وربوات الأطهار إشارة لكثرة أمته، هذا ما وجدته بعد تبديلهم وإخفائهم -كما قال الله- لكثير، وهذا على أن المثل الوصف، وقد يكون على حقيقته ويكون ما ترجمته: «هم على أعدائهم كقرن الحديد، وفيما بينهم في النفع والتواصل كالماء والصعيد، ولربهم كخامة الزرع مع الريح والصديق النصيح، وفي الإقبال على الآخرة كالمسافر الشاحب والباكي الناحب».

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ مع معرفتهم بمعايبه فكان لغيرهم أعجب، ومثّل لأنهم يكونون قليلين ثم يكثرون مع البهجة والرونق؛ لما لهم من نور الإيمان وثبات الاطمئنان وموافقة الإخوان وإبعاد ذوي العدوان، وذكر الثمرة في جعلهم كذلك فقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ لأنهم لما كانوا أولًا قليلًا كان الكفار طامعين في أن لا يتم لهم أمر، فكلما ازدادوا كثرة زاد غيظ الكفار منهم، فكيف إذا رأوا مع الزيادة والقوة حسنًا ورونقًا وبهجة؟ فمن أبغض صحابيًا خيف عليه الكفر لأنهم أول مراد بالآية، ومن أبغضهم كلهم كان كافرًا، وإذا حملناه على غيرهم كان دليلًا على كفر مخالف الإجماع، قاله القشيري.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولما كان الكلام في الذين معه ﷺ فلم يكن الاهتمام بالتقييد بـ«منهم» هنا كالاهتمام به في سورة النور[٤١]، أخره وقدم العمل لأن العناية به هنا أكثر لأنه من سيماهم المذكورة فقال: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان الخلل فيمن بعدهم كثيرًا، قيد

(٤١) في قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ الآية: ٥٥.

بقوله: ﴿مِنْهُم﴾ أي: من الذين معه ﷺ، سواء كانوا من أصل الزرع أو فراخه، وهم التابعون لهم بإحسان، ولما كان الإنسان وإن اجتهد مقصرًا عن بلوغ ما يحق له من العبادة، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾.

وافتتح الآية بميم ﴿محمد﴾ وهي مضمومة وختمها بميم ﴿عظيمًا﴾ المنصوبة إشارة بما للميم من الختام بمخرجها: إلى أن تمام الأمر قد دنا، وبما في أولها من الضم: إلى رفعة دائمة في حمد كثير، وأومأ تدويرها إلى أنه أمر لا انتهاء له بل كلما ختم ابتدأ.

وقد ظهر مما في الآية من القوة المعزة للمؤمنين المذلة للكافرين: ردُّ مقطعها على مطلعها بالفتح للنبي ﷺ والتسكين العظيم لأصحابه.

وهذا آخر القسم الأول من القرآن وهو المطول، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

سورة الحجرات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الإرشاد إلى مكارم الأخلاق بتوقير النبي ﷺ بالأدب معه في نفسه وفي أمته، واسمها «الحجرات» واضح الدلالة على ذلك بما دلت عليه آيته.

ولما نوه سبحانه في القتال بذكر النبي ﷺ في ابتدائها وسمى السورة به، وملأ سورة **محمد** بتعظيمه وختمها باسمه ومدح أتباعه لأجله، افتتح هذه باشتراط الأدب معه في القول والفعل للعد من حزبه، ومدار ذلك معالي الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسوله ﷺ أو مع غيرهما وإن كان كل قسم لا يخلو عن لحظ الآخر، وغيرهما إما أن يكون مؤمنًا أو فاسقًا، والمؤمن إما أن يكون حاضرًا أو غائبًا، فهذه خمسة أقسام فصّل النداء بسببها خمس مرات كل مرة لقسم منها، وافتتح بالله؛ لأن الأدب معه هو الأصل الجامع للكل، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه، أو لعدم القصد إليه بل النهي موجهٌ إلى نفس التقدمة ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان مقتضى الرسالة إنفاذ الأوامر والنواهي عن الملك من غير أن يكون من المرسل إليهم اعتراض، عبر بالرسول دون النبي فقال: ﴿وَرَسُولِهِۦۖ﴾ فإن الله يقول الحق ويهدي السبيل، ورسوله يبلغ عنه لا ينطق عن الهوى، فعلى الغير الاقتداء والاتباع لا الابتداء والابتداع، سواء كان النبي ﷺ غائبًا أو حاضرًا بموت أو غيره فإن آثاره كعينه، فمن بذل الجهد فيها هدي للأصلح ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ فإن التقوى مانعة من أن تضعيوا حقه وتخالفوا أمره وتقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه، وقال مؤكدًا؛ لأن أفعال العاصي أفعال من ينكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٞ ١﴾ بأعمالكم.

وقال ابن الزبير: "لما وصف صحابة نبيه ﷺ في آخر الفتح، وجرت على واضح قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية، ناسب هذا طلبهم بتوفية الشعب الإيمانية ظاهرًا وباطنًا، فطلبوا بآداب تناسب عليّ إيمانهم، فكأن قد قيل لهم: قابلوا ما منح

لكم في التوراة والإنجيل بتنزيه أعمالكم عما يوهم غفلة عن الخطاب أو سوء قصد في الجواب، ولينبئ علنكم بسليم سرائركم ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾".

ولما ثبت إعظام الرسول بأن لا يفتات عليه، وكان يوحى إليه بما قد يشوّش رفعُ الصوت في حسن تلقيه مع ما فيه من قلة الاحترام، وربما أنساه ذلك ما أراد تبليغه «إنه بينت لي ليلة القدر فخرجت لأخبركم بها فتلاحى رجلان فأنسيتها»، قال ذاكرًا للقسم الثاني وهو ما كان النظر فيه أولًا إلى مقامه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الذي تلقيه عن الله متوقع في كل وقت، وهذا يدل على أن أذى العلماء الذين هيأهم الله لتلقي فهم دينه عنه شديد، فإنه يمنعهم عن كثير من ذلك.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ ولما نهى عن ذلك بين ضرره، فقال مبينًا أن من الأعمال ما يحبط ولا يدرى أنه محبط: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ بأنها حبطت، فإن ذلك إذا اجترأ الإنسان عليه استخف به، وإذا استخف به واظب عليه، وإذا واظب عليه أوشك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لا يشعر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ فأخلصها ﴿لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ أي: الخوف المؤدي إلى إقامة صاحبه ما يقيه المكروه، والامتحان: اختبار بليغ يؤدي إلى خبر، فالمعنى أنه طهر قلوبهم كما يمتحن الصائغُ الذهبَ بالإذابة للتنقية من كل غش، لإظهار ما بطن فيها من التقوى، وهو حقيقة التوحيد، فإن التقوى لا تظهر إلا عند المحن والشدائد بالتكليف وغيره، ولا تثبت إلا بالطاعة في المنشط والمكره، ثم قال من غير فاء السبب إشارة إلى أن ذلك بمحض إحسانه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ وأتبع ذلك على سبيل النتيجة وصف من أخل به فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ بل فعلوا معه ﷺ كما يفعل بعضهم مع من يماثله، والعقل يمنع من مثل ذلك لمن اتصف بالرئاسة فكيف إذا كانت رئاسة النبوة(٤٢).

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ والصبر حبس بشدة، وصبر عن كذا: محذوف المفعول لكثرة دوره، أي: نفسَه ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ﴾ من تلقاء نفسك عند فراغ ما أنت فيه من واردات الحق ومصالح

---

(٤٢) سبب نزولها أن بني تميم جاؤوا إلى النبي ﷺ فنادوا على الباب: يا محمد اخرج إلينا [أسباب نزول القرآن للواحدي: ٤٠٩].

الخلق، ولما كان الخروج قد يكون إلى مصلحة غيرهم فلا يسوغ أن تقطع عليه قال: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ ولما كان العرب أهل معال فهم لا يرضون إلا الأحسن قال: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ ولما تابوا أعتبهم الله في غلظتهم على خير خلقه أن جعلهم أغلظ الناس على شر الناس: الدجال، كما في الحديث ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

ولما كان مِن أذى الرسول ﷺ أذاه في أمته، وكان أعظم الأذى فيهم ما أثار حربًا، قال منبهًا على ما في القسم الثالث من مكارم الأخلاق، من ترك العجز بالاعتماد على أخبار الفسقة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وعبر بأداة الشك إيذانًا بقلة الفاسق فيهم وقلة مجيئه إليهم بخبر له وقع فقال: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ أي: خبر عظيم أيًا كان ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: عالجوا البيان وهو فصل الخطأ من الصواب، وهذه القراءة غاية لقراءة حمزة والكسائي ﴿فتثبتوا﴾ والسياق مرشد إلى أن خبر الفاسق كالنمام كما أنه لا يقبل فكذلك لا يرد حتى يمتحن، وإلى أن خبر العدل لا وقفة فيه، فالتثبت معلل بالفسق، فإذا انتفى ولم توجد علة أخرى توجب التثبت وجب القبول، والتبين إما بمراجعة النبي ﷺ إن كان حاضرًا أو آثاره من كتاب الله وسنته إن كان غائبًا، فإنه لا تكون أبدًا كائنة إلا وفيهما المخرج منها.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا﴾ هم مع قوتهم النافعة لأهل الإسلام برآء مما نسب إليهم ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: مع الجهل باستحقاقهم ذلك، ولما كان الإنسان إذا وضع شيئًا في غير موضعه جديرًا بالندم، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾ أي: تصيروا، ولكنه عبر بذلك لأن أشنع الندم ما استقبل الإنسانَ صباحًا وقت انتباهه وإقباله على لذاته ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ أي: عريقين في الأسف على ما فات مما يوقع الله في نفوسكم من أمور ترجف القلوب وتخور الطباع، وتلك سنته في كل باطل، فإنه لكونه مزلزلًا في نفسه لا ينشأ عنه إلا الزلزال والندم على ما وقع من تمني أنه لم يقع.

والندم غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام، بما تدور مادته عليه «مدن» و«دمن»، وهو ينشأ من تضييع الأسباب التي أمر الإنسان بالسعي فيها، كما أشار إليه حديث: «احرص على ما ينفعك ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

ولما كان إقدامهم من غير مشاورة لمن أرسله الله رحمة لعباده، والإعراض عنه حيًا وعن بذل الجهد في استخراج الأمور من شريعته بعد موته أمرًا مفسدًا للبين، أخبرهم به منزلًا لهم منزلة من لا يعلم أنه معه مشيرًا إلى أن من أخل بمراعاة ذلك كان من الغافلين فقال: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ﴾ أي: على وجه الاختصاص لكم، ويا له من شرف! ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي تريدونه، ليكون فعله معكم فعل المطاوع لغيره التابع له فينقلب حينئذ الحال ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لأثمتم وهلكتم، ومن أراد دائمًا أن يكون أمر الرسول ﷺ تابعًا لأمره فقد زين له الشيطان الكفران فأولئك هم الغاوون، والتقييد بالكثير معلم بأنهم يصيبون وجه الرشاد في الكثير.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فلزمتم طاعته، ولما كان الإنسان قد يحب شيئًا وهو يعلم فيه عيبًا فيكون جديرًا بأن يتزلزل فيه، نفى ذلك بقوله: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فلا شيء عندكم أحسن منه ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وهو تغطية الحق بالجحود ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ وهو المروق من ربقة الدين ولو من غير تغطية بل بغير تأمل ﴿وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾وهو الامتناع من الانقياد، ومُدحوا لفعل الله بهم؛ لأنهم الفاعلون في الظاهر، وللحث على الشكر والانسلاخ من العجب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ قال الأصبهاني: "الرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه".

والذي أنتج الرشاد متابعة الحق، فإن الله تكفل لمن تعمد الخير وجاهد نفسه عليه بإصابة الصواب وإحكام المساعي المنافي للندم ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقد دل السياق على أن بعضهم صدّق خبر الوليد وأراد غزوة بني المصطلق وبعضهم توقف، وأن كلهم سلم آخر الأمر لرسول الله ﷺ فهدوا. ﴿فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ فلذلك وضع نعمته من الرسالة والإيمان على حسب علمه وحكمته.

ولما كانت النميمة ونقل الأخبار الذميمة ربما جرت فتنًا وأوصلت إلى القتال، وكان العليم الحكيم لا ينصب سببًا إلا ذكر مسببه ودواءه، وكان لا يُنهى عن الشيء إلا من كانت جبلته متهيئة له، قال معلمًا لنا طريق الحكمة في دفع ما جرّت إليه تلك الأخبار من القتال، معبرًا بأداة الشك إشارة إلى أن ما في حيزها لا ينبغي أن يقع: ﴿۞وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ﴾ ولما كان الفساد في قتال الجماعة أكثر، عبر بالجمع تقبيحًا له فقال: ﴿إِقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ﴾ ولما

كانت العبرة في الصلح ما يسكن به الشر وإن تخلف من لا يعبأ به، عبر بالتثنية فقال: ﴿بَيْنَهُمَاۖ﴾ ولا تظنوا أن الباغي غير مؤمن فتتجاوزوا فيه أمر الله.

ولما كان البغي من أشنع الأمور فكان ينبغي أن لا يلم به أحد، عبر بأداة الشك فقال: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي: ترجع من القطيعة التي كحر الشمس إلى ما هو كالظل، وهو معنى قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ ولما كان الخصام يجر غالبًا ما يورث للمصلح إحنة على بعض المتخاصمين فيميل عليهم قال: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ ولما كان العدل في ذلك شديدًا على النفوس لما تحملت من الضغائن قال: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ﴾ أي: وأزيلوا القَسط وهو الجور، بأن تفعلوا القِسط وهو العدل العظيم الذي لا جور فيه، في ذلك وفي جميع أموركم، وقال مؤكدًا؛ ردًا على من لعله يقول: إنه لا يُلزِم نفسَه الوقوفَ عند العدل إلا ضعيف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾.

ولما كان الباغي ربما كان أقرب إلى المصلح فروعي، وكان القتال شاقًا ربما حمل على ترك الإصلاح، علل ذلك بما قدم فيه قرابة الدين على قرابة النسب، وكشف عن أنه لا يسوغ له تركه؛ لما يؤدي إليه من تفريق الشمل الموهن للإسلام وأهله، فيظهر الباطل فيؤدي إلى فساد عظيم لا تدارك له، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ المختلفين بقتال أو غيره، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، بل إن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الإصلاح بينهما بالقتال وغيره، لا تفعلوا ما صورته إصلاح وباطنه إفساد ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

وقد دلت الآية على أن الفسق بغير الكفر لا يخرج عن الإيمان، وأن الإصلاح من أعظم الطاعات، وعلى وجوب نصر المظلوم؛ لأن القتال لا يباح بدون الوجوب، قال القشيري: "وهو يدل على عظم وزر الواشي والنمام والمضرب في إفساد ذات البين"، وقال: "من شرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك".

ولما نهى عن الإيقاع بمجرد سماع ما يوجب النزاع، نهى عن أخبار الشر التي تسبب الضغائن الموجبة له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ﴾ ولما كانت السخرية بحضرة الناس، قال مُفهِمًا أن من شارك أو رضي أو سكت وهو قادر فهو مشارك للقائل: ﴿قَوْمٌ﴾

أي: فيهم قوة المحاولة، وفي التعبير بذلك هز إلى قيام الإنسان على نفسه وكفها عن النقائص شكرًا لما أعطاه الله من القوة ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ فإنه يوجب الشر؛ لأن أضعف الناس إذا حُرِّك للانتقاص، قوي بما يثور عنده من حظ النفس ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾.

ولما كانت السخرية تتضمن العيب وكان اللمز العيب نفسه، رقى الأمر إليه فقال: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ﴾ أي: تعيبوا خفية ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: بعضكم بإشارة أو نحوها فكيف إذا كان ظاهرًا؟ أو يعمل الإنسان ما يعاب به فيكون قد لمز نفسه، أو يلمز غيره فيلمزَه ذلك الغير فيكون هو الذي لمز نفسه ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ بأن يدعو المرء صاحبه بلقب يسوؤه سواء كان هو المخترِع له أو لا، ولما كان الإيمان قيدًا لأوابد العصيان، وكان النبز والسخرية قطعًا لذلك القيد، علل بما يؤذن بأنه فسق فقال: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ ترك الجار إيذانًا بأن من وقع في ذلك أوشك أن يلازمه فيستغرق زمانه فيه؛ فإن النفس عشاقة للنقائص ولا سيما ما فيه استعلاء ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

ولما كان الإنسان ربما دعا صاحبه بلقب له سيئٍ غيرَ قاصد عيبَه، أو فعل ما يتنزل على الهزء غير قاصد له، نهى عن المبادرة إلى الظن من غير تثبت؛ لأنه من وضع الأشياء في غير مواضعها وهو الظلم، فقال خاتمًا بالقسم الخامس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ في الناس وغيرهم، ولا تمادوا معه فتقدموا على شر إلا بعد التبين لحقه من باطله بأمارة صحيحة وسبب ظاهر، والبحثُ عن الذي أوجب الظن ليس بمنهي عنه كما فتش النبي ﷺ في قصة الإفك حتى جاءه اليقين من الله، وأفهم هذا أن كثيرًا منه غير مجتنب كما في الاجتهاد حيث لا قاطع وفي ظن الخير بالله، بل قد يجب كما قال تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا﴾ [النور: ١٢].

وقد أفاد التنكير شياع النهي في كل ظن، فكان بمعنى «بعض» مع الكفالة بأن كثيرًا منه منهي عنه إلا بعد تبين أمره، ولو عرّف لأفهم أنه لا يجتنب إلا عند الكثرة، قال القشيري: "والنفس لا تصدق والقلب لا يكذب، والتمييز بينهما مشكل، ومن بقيت عليه من حظوظه بقية فليس له أن يدعي بيان القلب، بل هو بنفسه ما دام عليه شيء من بقيته، ويجب عليه أن يتهم نفسه في كل ما يقع له من نقصان غيره"، ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ ولما نهى عن اتباع الظن أتبعه ما يتفرع عنه فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: تمعنوا في البحث عن

العورات، ولا يكون هذا إلا في المستورين ﴿وَلَا يَغْتَب﴾ قال القشيري: "وليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق"، ﴿بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾.

ولما كان تمزيق عرض الإنسان كتمزيق لحمه؛ لأنه ساتر عظمه الذي به قوامه كما أن عرضه ساتر عليه، وكونه لا يرد عن نفسه لغيبته هو كموته، وكان هذا غاية النفرة ولكنه لخفائه يغفل عنه، جلاه له في قوله معبرًا بالحب عما هو في غاية الكراهة؛ لما للمغتاب من الشهوة فيها، ليكون التصوير رادًا عنها: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ولما كان الجواب قطعًا: لا، قال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ طبعًا، فأولى أن تكرهوا الغيبة عقلًا لأن داعي العقل بصير عالم وداعي الطبع أعمى جاهل. ثم عطف عليه ما دل على العلة العظمى وهي خوف الله فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَۚ﴾ بترك ذلك وإصلاح ذات البين ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ وإن كرر الذنب، فلا ييأسْ أحد ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وقد رتب سبحانه هذه الحكم أبدع ترتيب، فأمر بالتثبت ولما كان ربما أحدث ضغينة نهى عن العمل بموجبه من السخرية واللمز والنبز والتمادي مع ما ينشره ذلك من الظنون، فإن أبت النفس إلا التمادي فلا يصل إلى التجسس، فإن حصل الاطلاع عليها كف عن ذكرها وسعى في سترها، وفعل ذلك كله لخوف الله لا شيء غيره، فإن وقع في شيء من ذلك بادر المتاب رجاء الثواب.

ولما ذكر الأخوة الدينية، ونهى عن أمور يجر إليها الإعجاب بالنفس لعلوّ النسب، أسقطه مبينًا أن لا نسب إلا ما يثمره الإيمان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ لا مزية لأحد منكم في ذلك على آخر، واقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ لأنهما أقصى ما يسهل معرفته، فما دونه من العمائر فالبطون فالأفخاذ فالفصائل فالعشائر أولى، ثم ذكر علة التشعب ليوقف عندها فقال: ﴿لِتَعَارَفُواۚ﴾ فيصل الإنسان من رحمه ما يحق له، لا لتواصفوا وتفاخروا.

ولما كانت فائدة التفاخر بالتواصف عندهم الإكرام لمن كان أفخر، قال مؤكدًا؛ لما عندهم من أن الكرم إنما هو بالنسب: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْۚ﴾ وهذا معنى قوله ﷺ: «خياركم في الجاهلية: خياركم في الإسلام إذا فقهوا»، والأتقى لا يفتخر على غيره لأنه لا يعتقد أنه أتقى، قال الرازي في اللوامع: "أكرم الكرم التقوى وهو مجمع الفضائل، وألأم اللؤم

الفجور، وذلك أن الكرم اسم للأفعال المحمودة، وهي إنما تُحمد إذا كانت عن علم وقصد بها الله وهذا هو التقوى، فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة"، ثم علل إخباره بالأكرم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ وقال ﷺ: «إنما الناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله» ثم تلا الآية.

ودل على الصفتين بقوله مشيرًا إلى أنه لا يعتد بشيء إلا مع الإخلاص: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ قال ابن برجان: "هم قوم شهدوا الحق ولا يعلمون ما شهدوا به، غير أن أنفسهم لا تنازعهم إلى التكذيب"، ﴿ءَامَنَّا﴾ مع ما لنا من النسب فنحن أشرف ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ أي: لم تصدق قلوبكم ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ﴾ إذ أسلمتم للدنيا ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي: أظهرنا الانقياد فأمنا من أن نكون حربًا للمؤمنين وعونًا للمشركين، يقال: أسلم الرجل إذا دخل في السلم، ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ لما فيه من الشهادة لهم بالإسلام الملازم للإيمان المنفي عنهم، فيكون تناقضًا.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فلا يعد إقرار اللسان إيمانًا إلا بمواطأة القلب، والتعبير بـ«لما» يفهم إيمانهم بعد ذلك، أو أن المراد نفي التمكن في القلب لا مطلق الدخول ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فتؤمن قلوبكم ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ فلا حاجة إلى إخباركم عن إيمانكم بغير ما يدل عليه من الأقوال والأفعال، قال ابن برجان: "فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين، فإن تعلّموا علم ما شهدوا وعقدوا عليه علمًا ويقينًا فهم المؤمنون"، ولما كان الإنسان لنقصانه لو وكل إلى عمله هلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾.

ولما نفى عنهم الإيمان، وكان ربما غلط شخص فظنه نفسه مؤمنًا وليس كذلك، أخبر بالمؤمن على سبيل الحصر، ذاكرًا أمارته الظاهرة والباطنة، وهي أمهات الفضائل: العلم والعفة والشجاعة، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهذا هو المعرفة التي هي العلم، وغايتها الحكمة، ولما كان الثبات على هذا عظيمًا وهو عين الحكمة، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي: ينازعوا الفطرة في التسبب إلى الشك، ولم يوقعوا الشك في أي وقت بعد الإيمان، فلا يزالون على تطاول الأزمنة وحصول الفتن كذلك، ولعله عبر بالافتعال إشارة إلى العفو عن حديث النفس الذي لا يستطيع الإنسان دفع أصله ويكرهه ويجتهد في دفعه، فإن المذمومَ المشيُ معه حتى يستحكم.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وذلك هو العفة ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ أعم من النية وغيرها، وذلك هو الشجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ بقتال الكفار وغيره من سائر العبادات المحتاجة إلى المال والنفس، لا الذين يتخلفون ويقولون: شغلتنا أموالنا وأهلونا، قال القشيري: "جعل الله الإيمان مشروطًا بخصال ذكرها بلفظ «إنما» وهي للتحقيق، تقتضي الطرد والعكس، فمن أفرد الإيمان عنها فمردود عليه قوله، والإيمان للعبد الأمان، فإيمان لا يوجب الأمان لصاحبه فخلافه أولى به"، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾.

ولما كانوا كأنهم يقولون: نحن كذلك، دل على إحاطة علمه الذي تميز به الصادق من غيره فقال: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان في سياق الرد عليهم، أكّد فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾.

ولما كان قولهم في صورة المنة قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ ولما كان المن هو القطع من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء قال: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ﴾ معبرًا بما من المنّ إشارة إلى أن الإسلام لا يطلب جزاؤه إلا من الله، فلا ينبغي عده صنيعة على أحد فإن ذلك يفسده ﴿عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ﴾ الذي له المنة على كل موجود ولا منة لأحد عليه ﴿يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ والتعبير عن هذا بالمن أحق مواضعه، فإنه سبحانه غير محتاج إلى عمل وإنما طلبه لنفع العاملين أنفسَهم.

ولما كان المراد بهذا تجهيلهم وتعليمهم حقائق الأمور لا الشهادة لهم بالهداية قال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ من ظاهر إسلامكم وباطن إيمانكم في كل وقت، قال القشيري: "ومن وقف هنا تكدر عليه العيش إذ ليس يدري ما غيبه فيه".

وفي ذلك أعظم زجر وترهيب لمن قدم بين يدي الله ورسوله ولو في سره، فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم، فقد رجع هذا الآخر إلى الأول.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الدلالة على إحاطة القدرة التي هي نتيجة آخر الحجرات من إحاطة العلم؛ لبيان أنه لا بد من البعث لتنكشف هذه الإحاطة بما يجعل من الفضل بين العباد بالعدل، وعلى ذلك دل اسمها «ق» لما في آياته من إثبات المجد لهذا الكتاب وذلك لا يكون إلا مع صدقه في جميع ما أتى به، وسميت «الباسقات» لما انفردت به النخل عن باقي النبات بالطول وكثرة المنافع ومعرفة العرب بها، وأدل ما فيها الطول مع أنه ليس لعروقها من الامتداد في الأرض ما لغيرها، ولذلك سميت الباسقات لا النخل.

﴿قٓ﴾ قال الحرالي في سر افتتاح المفصل بهذا الحرف: "اعلم أن القرآن منزل مثاني، ضُمِّن ما عدا المفصلَ منه وفاتحتَه: ما يختص بالعلماء من مبسوطات الحكم والأحكام والقصص والمتشابهات، ولطوله ثنّى سبحانه الخطاب في سور كثيرة العدد يسيرة الآي، ذكر فيها من أطراف ذلك ما يليق بالعامة ليسهل عليهم ويأخذوا بحظ مما أخذه الخاصة، وليتكرر على أسماعهم في الصلوات التي لا مندوحة لهم عنها: ما يكون لهم خلفًا عما يفوتهم من مضمون المطولات، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم حرف «ق» الذي هو وتر الآحاد.

وبهذه السور المفتتحة بالحروف ظهر اختصاص القرآن وتميزه عن سائر الكتب؛ لتضمنها الإحاطة التي لا تكون إلا بما للخاتم الجامع، واقترن بها من التفصيل في سورها ما يليق بإحاطتها، ولإحاطة معانيها كان كل ما فسرت به مما يرجع إلى مقتضاها = فهو صحيح، ولم يلزمها معنى خاص ولا إعراب خاص لمّا لم يكن لها انتظام لأنها مستقلات محيطات، وإنما ينتظم ما يتم معناه بحصول الانتظام، وذلك يختص من الكلم بما قصر عن إحاطة مضمون الحروف حتى أنه متى وقع استقلال وإحاطة في كلمة لم يقع فيها انتظام"(٤٣).

---

(٤٣) يشبه قول شيخ المفسرين: "قول الله جل ثناؤه: ﴿ألم﴾ و﴿ألر﴾ و﴿ألمص﴾ وما أشبه ذلك من فواتح أوائل السور، كل حرف منها دالّ على معانٍ شتى؛ لأنه لو أراد الدلالةَ على معنًى واحد مما يحتمله ذلك، لأبان ذلك لهم رسول الله ﷺ، وفي تركه ذلك أوضحُ الدليل على أنه مُرادٌ به جميعُ وجوهه التي هو لها محتمل" [جامع البيان: ١/ ٢٢٤ - ٢٢٥، بتصرف].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ الذي له العلو والشرف والكرم والعظمة على كل كلام، ومن أحاط علمًا بمعانيه وعمل بما فيه، مجد عند الله وعند الناس، والجواب: إنهم ليعلمون ما اشتمل عليه من المجد بإعجازه.

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما انطوت الحجرات على جملة من الألطاف التي خص الله بها المؤمنين، وأخبرهم أن استجابتهم لما أمرهم ليست بحولهم بل بفضله فقال: ﴿ولكن الله حبب إليك الإيمان﴾ [الآية: ٧] الآيتين، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ [الآية: ١٧] الآية، أراهم حال من قضى عليه الكفر ولم يحبب إليه الإيمان ولا زينه في قلبه، مع التماثل في الخلق والأدوات فقال: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ الآيات، ثم ذكر وضوح الأدلة ﴿أفلم ينظروا إلى السماء﴾ الآيات؛ ليتأدب المؤمن بآداب الله، ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه".

﴿بَلۡ﴾ أي: أن تكذيبهم ليس لإنكار مجده ولا صدقِك الذي هو من مجده، بل لأنهم ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لأن العادة عند الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك، وهؤلاء خالفوا العادة في تعجبهم من كون النذير خص بالرسالة دونهم، فحطهم عجبهم إلى السفه؛ لأنهم عجبوا أن كان الرسول بشرًا، وأوجبوا أن يكون الإله حجرًا، وعجبوا من أن يعادوا من تراب ثبتت له الحياة، ولم يعجبوا أن يبتدؤوا من تراب ولم يكن له أصل في الحياة.

ولذلك قال: ﴿فَقَالَ﴾ أي: بسبب إنذاره ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فأظهر في موضع الإضمار إيذانًا بأنهم لم يخف عليهم شيء من أمره، ولكنهم ستروا عقولهَم تعديًا ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾ أي: بليغ في الخروج عن عادة أشكاله، وقد كذبوا في ذلك، أما من جهة النذير فإن أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا إليهم، وأما من جهة البعث فإن أكثر ما في الكون مثل ذلك كإعادة الملوين وإحياء الأرض.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ ولما كان العامل في الظرف ما تقديره: نرجع، دل عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ لأنه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب. ﴿قَدۡ﴾ أي: بل نحن على ذلك قادرون لأنا قد ﴿عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: من أجزائهم المتحللة من أبدانهم بعد الموت وقبله، فإنه لو زاد الإنسان بكل طعام يأكله ولم ينقص صار كالجبل، بل نحن

دائمًا في إيجاد وإعدام تلك الأجزاء ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ لا يشذ عنه شيء، فكيف يستبعدون قدرتنا على تمييز ترابهم.

ولما كانوا لا ينكرون عظمة الله تعالى لأنهم معترفون له بما هو أعظم، أضرب بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لِما غلبهم من حظوظ النفوس والهوى من غير تأمل لقولهم فقالوا ما لا يعقل، ولما تسبب عن انتشابهم في هذا القول الواهي اضطرابُهم في الرأي قال: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ أي: مضطرب مختلط، والاضطراب موجب للاختلاف وذلك دليل الإبطال، كما أن الثبات والخلوص موجب للاتفاق وذلك دليل الحقية، قال الحسن: "ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم"، وكذا قال قتادة وزاد: "والتبس عليهم دينهم".

ثم بيّن فساد إنكارهم بقوله، مسبّبًا عن عجلتهم إلى الباطل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ فالذي أحكم ذلك بما فيه من المنافع لا يعجزه شيء، وأفرد السماء؛ لأن بناءها على ما ذكر وإن كانت واحدة يدل على كمال القدرة، فإن البناء المجوف لا يمكن بانيه إن كان داخله أن يحفظ خارجه وكذا العكس، وهذا الكون محفوظ من ظاهره وباطنه فعلم كمال صانعه، وأخر آية الأرض؛ لأن السماء أدل على المجد الذي هذا سياقه، لأنها أعجب صنعة وأعظم أثرًا، ولأن الأرض لكثرة الملابسة لها يغفل الإنسان عن دلالتها فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾.

ثم علل هذه الصنائع الباهرة بقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي: لتنظروها بأبصاركم ثم تتفكروا ببصائركم فتعبروا منها إلى صانعها فتعلموا ما له من العظمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: ولتتذكروا بها تذكرًا عظيمًا، فتعلموا بعجزكم عن كل ذلك أن صانعها لا يعجزه شيء، لو ألم بجنابه شائبة نقص لما فاض عنه هذا الصنع البديع، ولما كان من لا ينتفع بالشيء كالعادم له، قصر الأمر على المنتفع فقال: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ﴾ يتذكر بما له من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه، ولما كان الإنسان لما له من النقصان لا يزال كلما أعلاه عقله أسفله طبعه فربما ظن أنه لا يقبل إذا رجع، رغبه بقوله: ﴿مُّنِيبٍ ۝٨﴾ أي: رجاع عما حطه عنه طبعه إلى ما يعليه إليه عقله.

[ولما كان الماء آية مشتركة بين السماء والأرض] أتبعها بهما فقال: ﴿۞وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾. ولما كان النخل من أعجب ما يتكون منه مع ما له من المنافع التي لا يساويه فيها شجر قال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ أي: عاليات على جميع الأشجار المثمرة، ذوات أثمار طيبة ﴿لَّهَا﴾ مع يبس ساقها ﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ وهي محيطة المنافع بالتفكه على عدة أنواع والاقتيات وغير ذلك، وطلعها مخالف لعادة أكثر الأشجار فإن ثمارها مفردة، كل حبة منفردة عن أختها.

ولما ذكر سبحانه بعض ما له في الماء من العظمة، ذكر له علة هي غاية في المنة على الخلق فقال: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ﴾ ثم أتبعه ما له من التذكير بالبعث بخصوصه فقال: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ الذي هو لعظمته كأنه مختص بهذا المعنى، وهو بعث الموتى من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا، قال أبو حيان: "ذكر الله في السماء ثلاثة: البناء والتزيين ونفي الفروج، وفي الأرض ثلاثة: المد وإلقاء الرواسي والإنبات، قابل المد بالبناء لأن المد وضع والبناء رفع، وإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاز كل واحد منهما على سطح ما هو فيه، والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا شق فيها".

ولما انجلى الأمر فصح أنهم يعلمون ذلك ولم يحملهم على التكذيب به إلا غلبة الهوى، قال مسليًا للنبي ﷺ؛ لأن المصيبة إذا عمت هانت، مبينًا لمجد القرآن تحقيقًا للإنذار: ﴿كَذَّبَتْ﴾ ولما كان هؤلاء الأحزاب لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل الأرض قاطبة، أسقط الجار فقال: ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ بالماء ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ أي: البئر التي تقوضت بهم فخسفت مع ما حولها فذهبت بهم وبما لهم، ولما كانت آية قوم صالح من أعظم الدلالات على البعث قال: ﴿وَثَمُودُ ۝١٢﴾. ولما كان لكل من عاد وقوم فرعون من ضخامة الملك ما هو مشهور قدم أشدهما؛ لأن إهلاكهم أدل على القدرة، وأشبههما بهلاك ثمود فقال: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ نص عليه لأنه استخفهم فأطاعوه، فيعلم كفرهم طاعة له.

ولما كان هلاك المؤتفكات جامعًا في الشبه بهلاك جميع من تقدم بالخسف وغمر الماء بعد القلب في الهواء أتبعهم به، معبرًا بالأخوة لأنه أدخل في التسلية فقال: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣﴾ أي: أصهاره. ولما كان الشجر مظنة الهواء البارد والروح، وكان أصحابه قد عذبوا بضد ذلك

قال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ بالنار النازلة من ظلمة السحاب.[٤٤] ولما لم يكن هنا ما يقتضي التأكيد مما مر بيانه في ص، قال معريًا منه: ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ فأهلكناهم كنفس واحدة على أنحاء مختلفة، وأتبعناه ما في البرزخ، وأخرنا ما في القيامة إلى البعث، فثبت أن لنا الإحاطة البالغة.

ولما ثبت صدق الرسل وقدرته سبحانه على كل ما يريد، أنكر عليهم التكذيب تقريرًا لحقوق الوعيد فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ حين ابتدأناه، وفي إعدامه بعد خلقه، جملة كهذه الأمم أو تدريجًا كغيرهم، ليظنوا عجزنا عن الإعادة ثانيًا؟ يقال: عيي بالأمر إذا لم يهتد له، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ وشبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥ وَلَقَدۡ﴾ أي: والحال أنّا قد ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وهو أعجب خلقًا بما فيه من الأنس والطغيان، والذكر والنسيان، والجهل والعرفان، والطاعة والعصيان، وغير ذلك من عجيب الشان، ووكلنا به من يضبط جميع أحواله.

﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ من الخواطر حتى أنه ربما عجز عن ضبطها، فنحن نعلم أن قلوبهم عالمة بقدرتنا وبصحة القرآن وصدق الرسول به وامتيازه، وإنما حملهم الحسد والنفاسة والكبر على الإنكار باللسان حتى صار ذلك لهم خلقًا، وتمادوا فيه حتى غطى على عقولهم، فصاروا في لبس محيط بهم من جميع الجوانب.

ولما كان العالم بالشيء كلما كان قريبًا منه كان علمه به أثبت وأمكن قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾ قرب علم وشهود، قال القشيري: "وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم"، ﴿مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ وهما ملكان عظيمان ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾ أي: رصَد وجليس مُقاعِد لذلك الإنسان لإقامة الحجة بهما ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾.

ولما كان ذلك حتى آن الرحيل، قال معبرًا بالماضي تنبيهًا على أن الموت مع أنه لا بد منه قريب جدًا: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: الأمر الثابت، فلا حيلة في الاحتراس منه، وقيل للميت بلسان الحال أو القال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ﴾ بحفظ الصحة ودواء الأدواء في

---

(٤٤) أو يقال: لما منّ على عباده بالسماء والأرض والماء نبّههم على أنها مع ذلك محل للعذاب فذكر من المكذبين من كان عذابه بها، تحقيقًا لقوله: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾.

الغاية ﴿مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾. ولما كان التقدير: فأُخذ ذلك الإنسان بالقهر من بين الأهل والإخوان، وضم إلى عسكر الموتى وهم بالبرزخ نزول، ولانتظار بقيتهم حلول، ولم يزالوا كذلك حتى تكامل القادمون عليهم، عطف عليه قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، وهو عليه السلام التقم الصور من حين بعث النبي ﷺ وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر، فيا لها من عظمة ما أغفلنا عنها وآمننا منها ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ أي: الذي يقع فيه ما وقع الإيعاد به.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يسوقها إلى ما هي كارهة للقائه لعلمها بما قدمت من النقائص ﴿وَشَهِيدٞ ٢١﴾ يشهد عليها بما عملت، ويقال حينئذ للمفرّط: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: من تصور هذا اليوم على ما هو عليه؛ لأنه على شدة جلائه: خفي على من اتبع الشهوات ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي كان يحجبك عن رؤيته، من الغفلة بالآمال في الجاه والأموال وسائر الحظوظ والشهوات، وعن الواسطي: "من كشف عنه غطاء الغفلة، أبصر الأشياء كلها في أسر القدرة، وانكشف له حقائق الأشياء بأسرها"، وهذا عبارة عن العلم بأحوال القيامة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطان الذي سلط على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد، نقله الكرماني عن ابن عباس ﴿هَٰذَا﴾ أي: الإنسان الذي قرنتني به، ولما كان الأمر في كل من الطائع والعاصي عجيبًا، لأن الطائع ينابذ هواه مع أنه مطبوع على النقائص والحظوظ التي يرى أنها حياته وراحته، والعاصي طوع يدي الشيطان يصرفه في أغراضه كيف يشاء، فيطيعه بغاية الشهوة ويترك الخير المحض وهو عالم بأن في ذلك هلاكه، وكان ذلك منابذًا للعقل، أشار إلى المنابذة بقوله: ﴿مَا﴾ وإلى العجب بقوله: ﴿لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ أي: حاضر مهيأ لما يراد منه.

ثم وصل به ما هو نتيجته، وبدأ بالعاصي لأن المقام له، فقال دالًا على أنه لا وزن له فلا وقفة في عذابه، مثنيًا لضميره تثنية للأمر كأنه قال: ألق ألق، تأكيدًا له وتهويلًا: ﴿أَلۡقِيَا﴾ وقيل: بل هو تثنية، وأصل ذلك أن الرفقة أدنى ما يكون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبه، ألا ترى أن الشعراء أكثر قيلهم: يا صاحبيّ يا خليليّ؟ والسر فيه إذا كان المخاطب واحدًا: إفهامه أنه يراد منه الفعل بجد عظيم تكون قوته فيه معادلة لقوة اثنين ﴿فِي جَهَنَّمَ

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ أي: مبالغ في ستر الحق والمعاداة لأهله من غير حجة، نظرًا إلى استحسان وتكبرًا على ما عند غيره.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥﴾ أي: داخل في الريب والتهمة في أمر الدين، وموقع غيره فيه، ثم قال بيانًا لمبالغته في الكفر الذي أوجب له كل شر: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ كفرًا مضاعفًا وعنادًا ومنعًا للخير وتجاوزًا للحدود، دخولًا في الشك وإدخالًا لغيره فيه ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال، فليس أمره خفيًا عن كل ذي عقل ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مأخوذ من التأخر الناظر إلى الرداءة والسقوط عن الاعتبار، ولما كان هذا قد جحد ما يجب لله لذاته ثم لربوبيته ثم لإحسانه، وعاند في ذلك وفي إثباته للغير ما لا يصح له بوجه، سبب عنه قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾.

ثم قال معللًا للأمر بإلقائهما، وكان هذا يقتضي أن تقول النفس عند ذلك: ربنا هو أطغاني، أجاب بقوله: ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فإنه لا سلطان لي عليه ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ۝٢٧﴾ فكان يبادر إلى كل ما يغضبك بلا حاجة لتحريكٍ وإن حركتُه ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨﴾ حين كان الإيمان به نافعًا ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾. ثم صور ذلك التقاول بما يزيد في الهول، فقال ما معناه: يكون هذا كله ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ إخبارًا بأنها لم تمتلئ؛ لأن النار من شأنها أنها كلما زيدت حطبًا زادت لهبًا، ولا تزال كذلك كما ورد في الحديث «حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول: قط قط وعزتك».

ولما ذكر النار وقدمها لأن المقام للإنذار أتبعها دار الأبرار، فقال سارًا لهم بإسقاط مؤنة السير: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأما غيرهم من أهل الإيمان فقد يكون لهم على غير هذا الوصف، فيساق إليها الذين اتقوا كما في الزمر(٤٥) ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ أي: إزلافًا لا يصح وصفه ببعد. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ إلى الاستقامة بتقوى القلب إن اعوج ظاهره، فنبه على أنه من فضله لم يشترط في التقوى دوام الاستقامة ﴿حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ أي: مبالغ في حفظ الحدود والعهود، بدوام الاستقامة والرجوع بعد الزلة.

---

(٤٥) في قوله تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا﴾ الآية: ٧٣.

﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ قال القشيري: "التعبير بذلك للإشارة إلى أنها خشية مقرونة بالأنس"، يعني الرجاء كما هو المشروع، قال: "ويقال: الخشية ألطف من الخوف، فكأنها قريبة من الهيبة"، ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: مصاحبًا له من غير أن يطلب ما يصير به إلى حد المكاشفة، ولما كان النافع من الطاعة الدائم إلى الموت قال: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾ وقال إنهاء للسرور إلى الغاية: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾ أي: الإقامة التي لا آخر لها ولا نفاد للذاتها، ولذلك قال مبينًا وجه خلودهم: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾.

ولما تقدمت التسلية والتهديد بهلاك الأمم السابقة، عطف عليه ما هو أعم بشموله الزمان الماضي وأدل على القدرة فقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ بأن فتحوا فيها الأبواب وخرقوا في أرجائها ما لم يقدر غيرهم عليه، ولما كانوا مع ذلك لم يسلموا من الإهلاك، قال منبهًا للغافل ومبكتًا للمعاند الجاهل: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ ليكون لهؤلاء وجه ما في رد أمرنا؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ من العظات التي صرفناها على هذه الأساليب العجيبة ﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ إن رأى شيئًا من ذلك فهو يفهمه، ولما بدأ بالناظر لأنه أقرب إلى الاعتبار، ثنى بمن نقلت إليه الأخبار فقال: ﴿أَوۡ أَلۡقَى﴾ بغاية إصغائه حتى كأنه يلقي بشيء ثقيل ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ أي: الكامل الذي قد جرده عن الشواغل ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ أي: حاضر بكليته، فهو في الغاية من تصويب الفكر وجمع الخاطر، ومن سمع شيئًا ولم يحضر له ذهنه فهو غائب. ولما دل على تمام علمه وقدرته بخلق الإنسان إثر ما ذكره من جميع الأكوان، ذكّر بخلق ما هو أكبر منه على وجه آخر [مثبت للحكمة مع القدرة] فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾.

ولما كان علم الحبيب القادر بما يفعل العدو أعظم نذارة للعدو وبشارة للولي قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ولما كانت أقوالهم لا تليق بالجناب الأقدس قال: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ في جميع ما ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ ولما ذكر ما هو أدل على حب المعبود لأنه وقت الانتشار، أتبعه ما يكون وقت السكون والراحة فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: في بعضه ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ لأنه وقت الخلوات وهي ألذ المناجاة ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

قال الرازي: "واعلم أن ثواب الكلمات بقدر صدورها عن جنان المعرفة والحكمة، وأن تكون عينُ قلبه تدور دوران لسانه ويلاحظ حقائقها ومعانيها، فالتسبيح تنزيه من كل ما يتصور، والحمد يكشف عن المنة وأنه المتفرد بالنعم"، ومعناه أن هذا هو الحقيقة، فإذا انطبعت في الجنان قامت باللسان والأركان، وحمل على الصلاة لأنها أفضل العبادات، وهي جامعة لوجهي الذكر: التنزيه والتحميد، والمعنى والله أعلم: أن الاشتغال استمطار النصر من المحمود المسبَّح، وأن الصلاة أعظم ترياق للنصر وإزالة الهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

ولما سلاه بالإقبال على حضرته والانتظار لنصرته، أتبعه تعزيةً البشارةُ فيها أظهر بما صوره يوم مصيبتهم، فقال تحذيرًا لهم وبشرى لأوليائه بتمام تأييده عليهم ونصره لهم في الدنيا والآخرة: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ ما يقال لهم ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾ أي: يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب، ولما عظم المقام بما كساه من الإجمال، أبدل منه إيضاحًا قوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمر الثابت الذي كانوا يسمونه سحرًا ويعدونه خيالًا ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾.

ولما تحقق أمر البعث، صور خروجهم فيه فقال: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ فكيف يتوقف عاقل فيه فضلًا عن أن ينكره! وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه. ثم وصل بذلك تسلية للنبي ﷺ ما هو أعظم التهديد فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ إنما أنت منذر، ولذا قال معبرًا بالتذكير الذي يكون عن نسيان؛ لأن كل ما في القرآن من وعظ إذا تأمله الإنسان وجده شاهدًا في نفسه أو فيما يعرفه من الآفاق: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ وهذا هو المجد للقرآن ولمن أنزله ولمن أتى به، فقد انعطف هذا الآخر على ذلك الأول.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة «ق» تصريحًا وبشرت به تلويحًا، واسمها «الذاريات» ظاهر في ذلك بملاحظة جواب القسم، والتعبير عن الرياح بالذاريات أتم إشارة إلى ذلك، والريح من شأنها الذرء وهو التفريق، فإذا أراد الله جُمعت فكان ما أراد.

لما ختم سبحانه «ق» بالتذكير بالوعيد، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ أي: الرياح التي تفرق وتُذهِب، وأكد ذلك بقوله: ﴿ذَرۡوٗا ١﴾ أي: بما تصرفها فيه الملائكة. ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾ من السحب التي فرقت الريح أصلها وهو الأبخرة، ثم جمعته فانعقد سحابًا ﴿وِقۡرٗا ٢﴾ أي: ثقيلًا، وقد كان قبل ذلك لا يرى شيء منه، فتحققوا قدرة الله على كل ما يريد وإن لم تروا أسبابه.

ولما كان سير الغمام في باحة الأفق من غير ممسك يُرى أدل على القدرة قال: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾ ولما كان تفريق محمولها هو غاية الجري المترتب على الحمل المترتب على الذرو قال: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾ من السحبِ وكلِّ أمر تصرفه الملائكة، ولما كان المحمول مختلفًا قال جامعًا لذلك: ﴿أَمۡرًا ٤﴾ أي: من الرحمة أو العذاب، قال الرازي في اللوامع: "وهذه أقسام يقسم الله بها ولا يقسم بها الخلق؛ لأن قسم الخلق استشهاد على صحة قولهم بمن يعلم السر كالعلانية وهو الله، وقسم الخالق إرادة تأكيد الخبر في نفوسهم، فيقسم ببعض بدائع خلقه على وجه يوجب الاعتبار ويدل على توحيده".

ولما كانوا يكذبون بالوعيد، أكد الجواب بعد التأكيد بالقسم فقال: ﴿إِنَّمَا﴾ أي: الذي ﴿تُوعَدُونَ﴾ للطائع والعاصي ﴿لَصَادِقٞ ٥﴾ أي: مطابق خبره للواقع وسترون، قال ابن برجان: "واعلم أن الله تعالى ما أقسم بقسم إلا مطابقًا معناه لمعانٍ في المقسم من أجله بسراج منير يهدي به الله تعالى من يشاء، وإنما يُعمي عن رؤية ذلك ظواهرُ المحسوسات، ويصم عن إسماع ندائها ضوضاءُ المشاهدات، ولولا ذلك لنودوا بها من مكان قريب"، وقال البيضاوي: "كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة على اقتداره على البعث". ولما كان أجلّ وعيدهم: ما يتعلق بالجزاء يوم القيامة وكانوا ينكرونه قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾.

وقال ابن الزبير: "لما ذكر سبحانه المواعيد الأخروية في سورة ق وعظيم تلك الأحوال من قوله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ إلى آخر السورة، أتبع ذلك بالقسم على وقوعه وصدقه فقال: ﴿والذاريات ذروًا﴾ إلى ﴿وإن الدين لواقع﴾ والدين الجزاء، ولما أقسم على صدق وعده ووقوع الجزاء، عقب ذلك بتكذيبهم به وازدرائهم فقال: ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾.

ثم ذكر حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ فوبخ من لم يُعمِل فكره ولا بسط نظره فيما أودع في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشارات إلى أحوال الأمم وما أعقبهم تكذيبهم تنبيهًا لبسط النظر، وعجّب من جريهم على التكذيب في مضمار واحد فقال: ﴿أتواصوا به﴾ ثم قال: ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي: أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها".

ولما أخبر سبحانه عن ثبات خبره، أتبعه الإخبار عن وهي كلامهم، فقال مقسِمًا بفعله الجميل وصنعه الجليل، إشارة إلى أنهم لم يتخلقوا من أخلاقه الحسنى بقول ولا فعل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧﴾ وأصل الحبك: الإحكام في امتداد واطراد، قاله الرازي.

﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨﴾ كاختلاف هذه الأشياء المقسم بها وغاياتها، لكنه مع ذلك متدافع وإن كنتم تجتهدون في تزيينه وتقريبه، فإنه لا يكاد إذا عرضه الناقد على الفكر النافذ ينضبط بضابط. ﴿ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾ أي: يُصرف عن هذا القول مجاوزًا لما يلزمه من عاره فهو لأجل ذلك يقوله ﴿مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ فصار لا يصدر عنه قول ولا فعل إلا كان مقلوبًا وجهه إلى قفاه، لا يمكن أن يأتي منه بشيء على وجهه.

ولما كان الكذب: الإخبار بما لا حقيقة له وتعمد الافتراء، وكان الخرص: الكذب والاختلاق وكلّ قولٍ بالظن قال: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ أي: المتقولين بالظن المقتطعين للكلام من أصل لا يصلح، من الخرص وهو القطع، وهم الذين يقولون عن غير سند من كتاب أو سنة أو أثارة من علم، وهو دعاء وخبر لأنه مجاب. ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ﴾ أي: أعماق من العمى والضلال، ولذلك هم مضطربون اضطراب من يمشي في معظم البحر، فهو لا يكاد ينتظم له أمر ﴿سَاهُونَ ۝١١﴾ والسهو: النسيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب إلى غير ما يهمه.

ولما حكم بسهوهم دل عليه بقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفسهم أنه لا أحد يترك عبيده أو أجراءه بلا حساب، فكيف يترك أحكم

الحاكمين الذي خلقهم على هذا النظام المحكم سدًى ويوجدهم عبثًا! [ولما كان سؤالهم للاستعجال والاستهزاء، قابله بالإيعاد على هيئة الجواب فقال][٤٦]: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

ولما أخبر لما لهم في ذلك اليوم وهم يستعجلون، أعلم بما لأضدادهم من المتقين وهم خائفون، فقال تكميلًا للأقسام[٤٧]: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وعلل هذا الأمر العظيم بقوله مؤكدًا؛ لنسبة الكفار لهم إلى الإساءة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في دار العمل ﴿مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ وفسر إحسانهم معبرًا عنه بما هو في غاية المبالغة بقوله: ﴿كَانُوا۟﴾ لما عندهم من الإجلال له والحب فيه حتى كأنهم مطبوعون عليه ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وهو وقت الراحات وقضاء الشهوات ﴿مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ والهجوع: النوم الخفيف فما ظنك بما فوقه؟ فالمعنى أنهم يحيون أكثر الليل وينامون أقله.

ولما كان المحسن لا يرى نفسه إلا مقصرًا، قال دالًا على ذلك وعلى أن تهجدهم يتصل بآخر الليل: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ أي: يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسَهم مذنبين ويسألون الغفران؛ لعلمهم بالله وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وإن اجتهدوا؛ لقول سيد الخلق: «لا أحصي ثناء عليك»، وإبراز الضمير دال على أن غيرهم لو فعل هذا ليلة لأعجب بنفسه، واستغفارهم ذلك على بصيرة؛ لأنهم نظروا ما له سبحانه من العظمة فعلموا أنه أهل لأن يطاع ويخشى فاجتهدوا وتركوا الهجوع، ثم قابلوا ذلك بنعمه فإذا الأعمال في غاية التقصير، فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه لا يمكن أن يُقْدَر حقَّ قدره.

ولما ذكر معاملتهم للخالق، أتبعه المعاملة للخلائق تكميلًا لحقيقة الإحسان فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ ولما كان السياق للإحسان، ترك وصفه بالمعلومية[٤٨] فقال: ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ وهو المتكفف الذي ينبه على حاجته بسؤال الناس ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ وهو المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصدق عليه.

---

(٤٦) مفاتيح الغيب ١٤/ ٤٥٩، بتصرف.

(٤٧) ساقط من المطبوع، والمختصر من المخطوط.

(٤٨) المذكورة في قوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق معلوم﴾ المعارج : ٢٤.

ولما دلت أقسامه أول السورة على ما له في العلويات من الآيات عطف عليها قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ فهم لذلك يتفطنون لرؤيتها. ولما أشار إلى آيات الآفاق أتبعها آيات الأنفس فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ فالموقنون لا يزالون ينظرون في أمثال هذا بعيون باصرة وأفهام نافذة، فكلما رأوا آية اعتبروا بها فازدادوا إيمانًا، وأول نظرهم فيما أُودعوا من الآيات: الحاجة، فمن تأملها علم أنه عبد، ومتى علم ذلك علم أن له ربًا غير محتاج، ومن أبصر ذلك أبصر جميع الصفات فنفذ فهمه في شفاف الكائنات فارتقى إلى أعلى الدرجات.

ولما دخل في قوله: ﴿فالمقسّمات أمرًا﴾ ما في العلوّ من موجبات النعمة والعذاب قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جهة العلو ﴿رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ من جميع ما أتتكم به الرسل، وموجبات النكال والرحمة وكل ما تتعلق به الآمال، فكما أنه لا مرية في إظهار غيب الأرزاق فلا لبس في إظهار غيب الحساب، ومن المعنى أيضًا: أنك لا تشتغل برزقٍ، فإنه في السماء ولا سبيل لك إليها، واشتغل بما كلفته من الخدمة للرزاق فإنه في السماء وإليها يرفع العمل، فإن أردت أن ينزل إليك رزقك فأصعِد الصالح من عملك، ولهذا قالوا: الصلاة قرع باب الرزق ﴿واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك﴾ [طه : ١٣٢].

ولما علم أن في خزائنه سبحانه كل ما أخبرت عنه به الرسل من وعد ووعيد، سبب عنه قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ﴾ أي: الذي توعدونه وتقدم الإقسام عليه أنه صادق ﴿لَحَقّٞ﴾ أي: ثابت يطابقه الواقع، فقد جمع الحق مع الصدق ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ أي: إن ذلك لحق مثل ما أن هذا حق، فالذي جعل لكم قوة النطق من بين ما في الأرض قادر على الإتيان بوعده من الرزق وغيره.

ولما أقسم على حقيته دل عليه بأحوال الأمم، وبدأ برأس المحسنين لأن السياق لهم، فقال مفخمًا للقصة بالاستفهام، وفائدتُه كما قال أبو حيان: "تقرير لتجتمع نفس المخاطب ويستطعمك الحديث": ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ ففيه آية بينة على ما بين في هذه السورة من قدرة الله تعالى وصدق وعده ووعيده.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ أي: نُحدِث ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي: ثابت دائم، فهو أحسن من تحيتهم، وقوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ متأخر عن إحضار الأكل؛ لأنهم لم يأكلوا، وقدّمه لأن

السياق لخفاء الأسباب على الآدمي وبُعدها وإن كانت ظاهرة قريبة، وهذا القول كان في نفسه ولم يواجههم به. ﴿فَرَاغَ﴾ أي: ذهب في خفية وخفة كما هو من آداب الضيافة، لئلا يمنعوه أو يكدر عليهم الانتظار.

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لما كان كأنه قيل: فلم يأكلوا، سبب عنه قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ فإنهم لما لم يأكلوا ذهب وهمه في سبب إتيانهم إليه كل مذهب ﴿قَالُواْ﴾ مؤنسين له ﴿لَا تَخَفۖ﴾ وأعلموه بأنهم رسل الله ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ وهو إسحاق عليه السلام، ولما كان السياق لخفاء الأسباب وصفه بقوله: ﴿عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾. ودل على أن خفاء الأسباب لا يؤثر في وجود المسببات بقوله: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ قال البغوي: "وأصل الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض"، ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ ولما كان محط تعجبها أن ذلك كان بأيام شبابها أولى، عللوا إخبارهم تأكيدًا له، مؤكدين؛ لأن قولها وفعلها فعل المنكر وإن كانت ما أرادت به إلا الاستثبات: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ فهو لذلك لا يعجزه شيء.

ولما كان الخليل أعلم أهل زمانه بالأمور الإلهية، علم أن اجتماع الملائكة على تلك الهيئة ليس لهذه البشارة فقط، فلذا: ﴿۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: في غاية القوة فصرفوا ما أنعم الله به عليهم منها في قطع ما يحق وصله ووصل ما يحق قطعه ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من السماء التي فيها الوعد والوعيد ﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك بهذه البشارة وغيرها ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ بعد أن ذهبت رسلنا إليهم ووقعت بينهم وبين لوط محاولات معروفة في أمرهم، وهم لا يعرفون أنهم سبب عذابهم، ولما كان القلب عماد البدن بدأ به فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: المصدقين بقلوبهم؛ لأنا لا نسويهم بالمجرمين.

﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ﴾ وهو بيت لوط ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فكان صادقًا عليه الإيمان الذي هو التصديق، والإسلام الذي هو الانقياد. ولما كان إبقاء آثار المهلكين أدل على القدرة قال: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ﴾ بما أوقعنا من العذاب الذي ناسب مبدؤه فعلَ الذاريات بالسحاب، فإنا أصعدنا قراهم هم في الجو ولم يشعروا ثم قلبت وأتبعت الحجارة ثم خسف

بها وغمرت بالماء الذي لا يشبهه ماء، كما أن خباثتهم لم تشبه خباثة أحد ممن تقدمهم، وما ادخر لهم في الآخرة أعظم ﴿ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٣٧﴾.

ولما قدم أدل القصص على ما أقسم عليه بما فيها من خفاء الأسباب مع وجودها ثم إنزال ما به الوعيد، أتبعها قصة من كان سبب هلاك القبط وهم لا يشعرون به فقال: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آية كذلك ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ أي: بسبب ما يركن إليه من القوة ﴿وَقَالَ﴾ معلمًا بعجزه عما أتاه به وهو لا يشعر ﴿سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝٤٠﴾ أي: آتٍ بما هو بالغ في استحقاقه الملامة، ولا يضر يونس عليه السلام أن يعبَّر في حقه بنحو هذه العبارة، فإن أسباب اللوم تختلف، كما أن أسباب المعاصي تختلف في قوله: ﴿وعصوا رسله﴾ [هود: ٥٩] ﴿وعصى آدم ربه﴾ [طه: ١٢١] وبحسب ذلك يكون اختلاف نفس اللوم ونفس المعاصي.

ثم أتبعه قصة من أتاهم بذاريات لم يوجد قط مثلها، وكان أصلها موجودًا بينهم وهم لا يشعرون، بل قاربتهم وهم يظنون نفعها فقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ أي: التي لا ثمرة لها، فلا تلقح شجرًا ولا تحمل مطرًا ولا رحمة فيها ولا بركة، ثم بين عقمها وإعقامها بقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾.

ثم أتبعهم قصة من أهلكوا بما تحمله الريح من الصيحة فقال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ﴾ بلبن الناقة وغيره ولا تطغوا ﴿حَتَّىٰ حِينٖ ۝٤٣ فَعَتَوۡاْ﴾ بسبب إحساننا إليهم، فعقروا الناقة وأرادوا قتل نبيه عليه السلام ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ بعد مجيئها بأن عاجلتهم بإهلاكها ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ أي: لم يكن فيهم أهلية للانتصار بوجه، لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم.

ولما أتم قصة من أهلكوا بما شأنه الإهلاك وهو الصاعقة، أتبعهم قصة من أهلكوا بما شأنه الإحياء وهو الماء، وقد كان موجودًا في الأرض والسماء وأسبابه مهيأة وهم لا يحسون، فقال مغيرًا للأسلوب؛ تنبيهًا على العظمة لأنه إهلاك بما شأنه الإحياء: ﴿وَ﴾ تركنا في ﴿قَوۡمَ نُوحٖ﴾ آية، فيكون معطوفًا على قوله: ﴿وتركنا فيها آية﴾ وعلى قراءة النصب: وأهلكنا قومَ نوحٍ ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ هذه الأمم كلها، ثم علل إهلاكهم بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٤٦﴾.

ولما كان إهلاكهم بالماء الذي نزل من السماء، قال دالًا [على أن ذلك فعله] وعلى وحدانيته؛ لتمام القدرة الدالة على ما تقدم من أمر البعث: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ أي: أغنياء قادرون ذوو سعة لا تتناهى، ومطيقون لأمثال ذلك ولما هو أعظم منه، ومحيطون بكل شيء قدرة وعلمًا ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾.

ولما كان خلق الأشياء المتضادة من الشيء الواحد أدل على القدرة قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: مثله شيئين، كل منهما يزاوج الآخر من وجه ولا يتم نفع أحدهما إلا بآخر، ويدخل فيه الأضداد من الغنى والفقر، والحياة والموت، والضياء والظلام، والبر والبحر ونحو ذلك، ولما دل على أن كلًا منهما يحتاج إلى الآخر وأنه لا بد أن ينتهي الأمر إلى واحد لا مثل له قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾.

ولما كان كل ما سواه لا بد له من ضد أو قرين، وثبت أنه أهلك القرون بكفرهم، فثبت أن في الوراء عذابًا يحق الفرار منه، وأن كل شيء غيره محتاج، وأنه لا كفاية عنده في كل شيء، وجب أن لا يفزع إلا إلى الغني فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ ولما كانت العبادة لا تخلص إلا إن علقت بالذات ذكر الاسم فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ الذي لا كفؤ له وله الكمال كله، فلا يفر أحد لمحتاج مثله فإنه لا غنى عنده، ولا يفر إليه تعالى إلا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية إلى أوج صفاته الروحانية، فهو من باب: «لا ملجأ منك إلا إليك» «أعوذ بك منك».

﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ من أن يفر أحد إلى غيره فإنه لا يحصل له قصده، والفرار من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا، ومن الكسل إلى التشمير حذرًا وحزمًا، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء، وهو بكمال المتابعة ليس غير ﴿مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾ وكرر الاسم الأعظم تعيينًا للمراد، وتنبيهًا على الكمال، وتعميمًا لوجوه المقاصد، قوله: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ من الهلاك إن فعلتم ﴿مُّبِينٌ ۝٥١﴾ أي: لا أقول شيئًا إلا ودليله ظاهر.

ولما كان من قولهم المختلف تكذيب الرسول والإشراك مع اعترافهم بأنه لا خالق إلا الله، قال مسليًا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل قولهم المختلف وقع لمن قبلهم، ودل على هذا المقدر بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ لأنه يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم الناشئة عن أهوائهم، والهوى هو الذي أوجب لهم هذا التناقض الظاهر.

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ﴾ اجتمعوا في وصف أداهم إلى ذلك وهو أنهم ﴿قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣﴾ أي: عالون في الكفر مسرفون في الظلم والمعاصي. ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ﴾ بسبب الإعراض بعد الإنذار ﴿بِمَلُومٖ ٥٤﴾ فإني حكمت بذلك لأني قسمتهم إلى مؤمن تنفعه الذكرى وطاغ لا ينفعه شيء. ولذلك قال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ ولا بد من إكثار التذكير؛ ليغلب ما عندهم من نوازع الحظوظ وصوارف الشهوات وجبلّة النسيان.

[ولما أمره بالتذكير بين سببه فقال]: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ فمن أطاع عقله عبدني عبادةً شرعية يثاب عليها، ومن أطاع الهوى عبدني عبادة إرادية يعاقب بها، وكلُّ تابعٍ لهواه إذا نظرَ علم أن الخير في غير ما هو مرتكبه، ولا يصده ذلك تحقيقًا لإرادتي. ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾ وهذا تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يحضرون لها الأكل فتأكله الكلاب وتبول عليه ولا يصدهم. [ولما نزه نفسه عن الحاجة للرزق، أخبر أنه المختص به]، ولما كان الاهتمام بالرزق وقد ضمنه سبحانه شاغلًا عن كثير من العبادة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾.

ولما ختم بقوته التي لا حد لها، سبب عن ذلك إيقاعه بالمتوعَّدين فقال(٤٩): ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ الذين تقدم ظلمهم بتكذيب الرسل، وهو في مشابهته له كالدلو الذي يساجل به دلو آخر، وذلك دليل واضح على أن ما يوعدون صادق وأن الدين واقع ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ٥٩﴾ فإني لا أخاف الفوت، ولا بد أن أوقعه بهم في الوقت الذي قضيت به في الأزل؛ لأنه أحق الأوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ﴾ أضافه إليهم لأنه خاص بهم دون المؤمنين ﴿ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٦٠﴾ وقد انطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد.

(٤٩) أو يقال: لما كان المقصود من سياقه إبطال عبادة غير الله، ألح إلى ما تقدم من ذكر ما عوقبت به الأمم السالفة أنهم إذا ماثلوهم في الظلم ماثلوهم في الحظ من العذاب، فقال: .. [التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٠، بتصرف].

سورة الطور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها تحقيق وقوع العذاب الذي أقسم عليه في الذاريات، فإن وقوعه أثبت من الجبال التي أخبر بسيرها، ومن الكتاب في أثبت أوضاعه، ومن البيت الذي يمكن إخرابه، والسقف الذي يمكن وضعه، والبحر الذي يمكن من سجره أن يرسله، وقد بان أن اسمها أدل ما يكون على ذلك بملاحظة القسم وجوابه.

لما ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد، افتتحت هذه بإثبات العذاب الذي هو روحه، فقال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ أقسم بالجبل الذي هو أثبت الأرض وأشدها، وعبر عنه بالطور الذي هو مشترك بين مطلق الجبل وبين المضاف إلى سيناء الذي كان فيه نبوة موسى عليه السلام، والطور كل جبل ينبت، وإنبات الجبل عجيب فإن الأرض كلما علت بعدت عن الماء، والجبال أبعدها منه.

ولما كانت الأرض لوح السماء التي منها الوعيد وكانت الجبال أشدها فذكر أعظمها آية، وكانت الكتب الإلهية أثبت الكتب، وكان طور سيناء قد نزل فيه كتاب إلهي قال: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝١ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٢﴾ أي: مهيأ للقراءة والاتعاظ بما فيه، قال الرازي: "لما كان الطور محلًا للتجلي خلقًا، والكتاب محلًا للتجلي أمرًا، أجراهما في قرن"، ويجوز أن يكون أراد به سبحانه صحيفة الظلم التي كتبوها بما تعاقدوا عليه من مقاطعة بني هاشم حتى يُسْلِموا إليهم رسولَ ﷺ. ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٣﴾ الذي هو قيام للناس إن أراد به الكعبة التي علقوا فيها صحيفة الظلم. ولما كان البيت لا بد فيه من السقف قال:

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٤﴾ يريد سقف الكعبة إشارة إلى أنه محكم البناء مغلق الباب، ومع ذلك سلط على الصحيفة ما أفسدها، وقد يراد به مع ذلك السماء التي فيها ما توعدون. ولما كان الماء أقوى مما تقدم ختم به فقال: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٥﴾ أي: المملوء ماءً وهو مانعه، ولو أراد خلاه فاندفق فأهلك ما مر عليه من جبل وكتاب وبيت.

ولما أقسم بما يدل على نبوة موسى عليه السلام، وثلث بما أشار إلى نبوة محمد ﷺ، وثنى بما هو مشترك بينهما، وكان الأول دالًا على استقرار الأرض، والثالث على صلاحيتها للسكنى،

والثاني على الحافظ في ذلك، وربّع بما كمّل المنافع، أجاب القسم بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ كما أنه لو أراد لقلب الأرض التي ثبّتها، وأوقع السقف الذي رفعه، وأطلق البحر الذي سجره.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٧﴾ لأنه لا شريك لمُوقعه؛ لما دلت عليه هذه الأقسام من كمال قدرته وجلال حكمته وضبط أعمال العباد للمجازاة، سواء قلنا: إن الكتاب هو الذي يكتبه الحفظة أو الذي يضبط الدين، قال البغوي: "قال جبير بن مطعم رضي الله عنه: قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فسمعته يقرأ ﴿والطور﴾ إلى ﴿ما له من دافع﴾ فكأنما صدع قلبي حين سمعته، فأسلمت خوفًا من نزول العذاب، ما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب".

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما توعد من كذب الرسول ﷺ أنهم سيصيبهم ما أصاب غيرهم، أقسم على صحة ذلك ووقوعه فقال: ﴿والطور﴾ إلى ﴿ما له من دافع﴾ ثم أومأ إلى مستحقيه فقال: ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم ذكر ما يعنفون به من نسبته ﷺ إلى السحر فقال: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ ثم ذكر حال المستجيبين، ثم عصمته ﷺ مما يقول المفترون، فقال إثر إعلامه بحال الفريقين: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ثم جرت الآي على توبيخهم وبيان كذبهم، وأسقط ما بأيديهم بقوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾".

ولما أثبت وقوع العذاب فتشوف الموقن إلى وقته، أخبر بصفته فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ التي هي سقف بيتكم الأرض ﴿مَوْرًا ۝٨ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ ۝٩﴾ من أمكنتها سير السحاب، فتصير هباء منثورًا، وتكون الأرض قاعًا صفصفًا.

ولما حقق العذاب، بين أهله بقوله مسببًا عن ذلك: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ وهم من مات على نسبة الصادقين إلى الكذب. ولما كان التكذيب قد يكون في محله، بين أنهم كذبوا ما هو صدق فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ أي: أعمالهم وأقوالهم أعمال الخائض في ماء، فهو لا يدري أين يضع رجله ﴿يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل: الخوض واللعب، فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل في موضعه، فلا يؤسس على بيان أو حجة. ثم بين ويلهم ببيان ظرفه وما يفعل فيه فقال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم﴾ ولما كان تكذيبهم بها سببًا لكل تكذيبٍ كان كأنه مقصور عليه، فقال مقدمًا للظرف إشارة إلى ذلك: ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾.

ولما كانوا يقولون عنادًا: إن القرآن بما فيه من الوعيد سحر، قال موبخًا متهكمًا: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ أي: الذي أنتم فيه من العذاب ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ بالقلوب كما قلتم في الدنيا ﴿قلوبنا في أكنة﴾ ولا بالأعين كما قلتم: ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ [فصلت : ٥]، ولما كان جوابهم قطعًا: ما هو بسحر ولا خيال، قال مخزيًا لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب، أتبعه ما لأضدادهم من الثواب فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾ دائمًا، في الدنيا حكمًا وفي الآخرة حقيقة ﴿وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ﴾ أي: معجبين متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ الذي تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات إلى أن أوصلهم إلى هذا النعيم ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ قبل ذلك ﴿رَبُّهُمۡ﴾ المربي لهم بالكف عن المعاصي والقاذورات ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾. ولما كان من باشر النعمة وجانب النقمة في هناء عظيم قال مترجمًا: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ أي: هنئتم بمعنى أن كل ما تتناولونه مأمون العاقبة من السقم ونحوه ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾.

ولما وصف حال المتقين، أتبعهم من هو أدنى منهم حالًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أقروا بالإيمان ولم يبدلوا ولا بالغوا في الأعمال الصالحة، ولما كان منهم من لم تتبعه ذريته في إيمانه لأنه ارتد، قال احترازًا عنه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ ولو كان في أدنى درجاته، ولكنهم ثبتوا عليه حتى ماتوا ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة؛ لقول النبي ﷺ: «المرء مع من أحب» ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ ولما ذكر اتباع الأدنى للأعلى في الخير فضلًا، أشفقت النفس من أن يكون اتباع في الشر، فأجاب بأنه لا يفعل بقوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾.

قال الرازي في اللوامع: "اعلم أن الذوات بقاؤها ودوامها ببقاء صورها، فحيث ما كانت الصورة المقومة لها أدوم، كانت الذوات بها أقوم، وأن النفوس الإنسانية ذوات، وصورها: علومها وأخلاقها، فحيث ما كانت العلوم حق اليقين ثم عين اليقين، والأخلاق مقومة على نهج الشرع المبين، كانت النفوس دائمة بدوامها غير مستحيلة، إذ لا تتطرق الاستحالة إلى

اليقين والعمل الحق، وأما إذا كانت الصور مستحيلة بأن كانت جهلًا وباطلًا، كانت ذات النفس لا تفنى بل تبقى على حال لا يموت فيها ولا يحيي، فإنها لو فنيت لاستراحت ولو بقيت لاستطابت، فهي على استحالة بين الموت والحياة، وهذه الاستحالة لا تكون إلا في أجساد ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها﴾ [النساء : ٥٦]".

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾ ليس فيه شيء منه مما لا يعجبهم غاية الإعجاب. ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ لأنها لا تذهب بعقولهم ولا يتكلمون إلا بالجميل ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ وهذا حال الخادم فما ظنك بالمخدوم.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ عن السبب الموصل إلى هذا النعيم. ﴿قَالُوٓاْ﴾ مؤكدين؛ استلذاذًا بما أداهم إلى ما هم فيه، مسقطين الجار إشارة إلى دوام خوفهم، تنبيهًا على أن الخوف الحامل على الكف عن المعاصي يشترط فيه الدوام، بخلاف الرجاء الحامل على الطاعات فإنه يكفي فيه ما تيسر، كما سيشير إليه إثبات الجار: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ على ما لنا بهم من دواعي اللذة اللعب ﴿مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ لا يلهينا عنه شيء مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته؛ لعلمنا بأنا لا نقدره -لما له من العظمة والجلال- حق قدره.

ولما أثبتوا لأنفسهم عملًا فكان بحيث يظن أنهم رأوه السبب لما وصلوا إليه، قالوا مبينين أن ما هم فيه إنما هو ابتداء تفضل من الله لأن إشفاقهم هو منه تعالى؛ لكيلا يعتمد الإنسان على عمله، فلا يزال معظمًا لربه خائفًا منه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا﴾ وأثبت الجار مع إسقاطه قبل، إشارة إلى أن التحلي بالفضائل يرضى منه باليسير، والتخلي عن الرذائل يكون في كل قليل وكثير فقيل: ﴿مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ ثم عللوا دعاءهم له مؤكدين؛ لأن إنعامه عليهم مع تقصيرهم لا يكاد يفعله غيره: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ الواسع الجود الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه، فيختار ما هو خير له ليوسع له في العقبى، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شيء من قضائه ﴿ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ بإقامته عبدَه فيما يرضاه من طاعته، ثم بإفضاله عليه وإن قصر في خدمته.

ولما كان هذا وعظًا يرقق القلوب ويجلي الكروب، سبب عنه قوله: ﴿۞فَذَكِّرۡ﴾ وسماه تذكيرًا لأنه مما يعلمه الإنسان إذا أمعن النظر من نفسه أو من الآفاق، وعلله بقوله: ﴿فَمَآ أَنتَ

بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ﴾ أي: تقول سجعًا متكلفًا، أكثره فارغ وتحكم على المغيبات ﴿وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾ أي: تقول كلامًا لا نظام له.

ولما كان التقدير: أيقولون هذا! عطف عليه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ ونقل البغوي عن الخليل أنه قال: "ما في سورة الطور من ذكر «أم» كله استفهام وليس بعطف"، ﴿شَاعِرٞ﴾ يقول كلامًا موزونًا بالقصد، يلزمه التكلف لذلك حتى يجعل اللفظ هو الأصل والمعنى تابعًا له ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم﴾ وأكده؛ لأن كثرتهم وقوتهم عندهم مانعة من مثل هذا التربص، قال القشيري: "جاء في التفسير أن جميع الذين تربصوا به ماتوا، ولا ينبغي لأحد أن يؤمّل نَفاق سوقه بموت أحد، فقلّ من تكون هذه صفته إلا سبقته المنية، ولا يدرك ما تمناه من الأمنية"، ﴿مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾.

ولما كان جمعُ ذلك في شخص واحد على غاية من التناقض، أتبعه التهكمَ على عقولهم فقال: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ التي يزعمون أنهم اختصوا بجودتها ﴿بِهَٰذَآۚ﴾ على ما فيه من الفساد بالتناقض، وهو توبيخ عظيم بالإشارة إلى أنه ليست لهم عقول أصلًا؛ لقولهم هذا، فإن الكاهن في غاية المعرفة عندهم حتى أنهم يحكّمونه وربما عبدوه، والمجنون لا يصلح لصالحة، والشاعر بعيدٌ بوزن الكلام وكثرته من سجع الكاهن وكلام المجنون ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢﴾ فهم لذلك لا يبالون بالعناد الظاهر في مخالفته لما تأمر به الأحلام والنهى.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ ما هو أفحش من التناقض: ﴿تَقَوَّلَهُۥۚ﴾ وهم على كثرتهم وعلمهم يعجزون عن مثل شيء منه ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ أي: لا يقرون بالحق مع علمهم ببطلان قولهم.

ولما كان كذبهم في ذلك قد يخفى، أتبعه دليله بالعجز عن المعارضة ولينفصل النزاع، فقال تكذيبًا لهم في قولهم الذي قالوه يوقفون به غيرهم عن الخير: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ ولما كان المقصود هنا مطلق التعجيز لا بقيد الاجتماع؛ لأن هذه من أوائل ما نزل، أعراه عن تظاهرهم بالاجتماع ودعاء المستطاع إلهابًا إلى المعارضة فقال: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ لأن العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساو لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة والشعر ومخالطة العلماء، وقد علم من هذا ونحوِه مما تقدم في السور أن المتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى، والله الهادي.

ولما قسّم ما رموا به الرسول، وكان على تقدير إقرارهم بالله وتكذيبه ﷺ، أتبعهم ما ألزمهم به في المرسِل، ولما كان النقص إما بالتعطيل أو لا، والتعطيل أشد بدأ به فقال: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ ولما كان النقص بلا تعطيل إما مع الشركة أو لا، وشركة المكذِّب أقعد في التكذيب بدأ به، ولما كان ذلك إما في الخلق أو لا، والخلق إما للنفس أو الغير، والشركة بخلق النفس ألصق بدأ بها فقال: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٣﴾ وهو مثل القِسم الذي قبله في عدم الاستناد إلى شيء يوجب لهم ثقتهم بقولهم والتكثرَ عليك.

ثم أتبع بالشركة في خلق الغير فقال: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ فهم لذلك عالمون بما فيها فعلموا أنك تقولته ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٤﴾ فيسكنوا إلى شيء واحد لكونه الحق. ثم أتبع بالشركة في غير الخلق فقال: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ﴾ ولما كان ذكر الرحمة لا يقتضيه مقصود السورة الذي هو العذاب لم تذكر، فقيل: ﴿رَبِّكَ﴾ فيعلموا أن الذي أتيت به ليس من قوله، وحينئذ يلزمهم فضائح لا آخر لها، منها أن يأتوا بحديث مثله بل أحسن منه من تلك الخزائن ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٥﴾ ليكونوا ضابطين للأشياء كلها كما هو شأن كتّاب السر عند الملوك، فيعلموا أنك تقولت هذا الذكر لأنهم لم يكتبوا به إليك.

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٦﴾ أي: من السماء على صحة ما يرمونك به. ولما كان ما مضى على تقدير وجود الإله مع الشركة، وكان ادعاؤهم الولد عظيمًا؛ لدلالته على حاجته وضعفه، وكان جعله بنات أعظم؛ لضعفهن قال: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٧﴾ لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رسوله ﷺ، ولما كان كل قسم أشد مما بعده رتبه هكذا. ولما انتهى ما يرجع إلى التكذيب، أتبعه الرد لا للتكذيب بل لأمر آخر، ولما كان ذلك الأمر إما من الآتي أو من المأتي إليه أو من غيرهما، وكان ما من الآتي ألصق بدأ به فقال: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٣٨﴾ فهم يكذبونك ليستريحوا منه.

ولما كان ما من المأتي إليه إما لحسد أو غيره، وكان الحسد أشد بدأ به فقال: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ وهو الأنباء التي يكون بها الفخر والرئاسة، فهم لانفرادهم بعلمه يحسدون من يدّعي مشاركتهم فيه ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٣٩ أَمۡ يُرِيدُونَ﴾ بهذا القول الذي يرمونك به ﴿كَيۡدٗاۖ﴾ يطفئون به نور الله بزعمهم، مع علمهم بأنك صادق فيه ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ستروا الأدلة، تارة عنادًا وتارة بالإعراض عن تأملها ﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٠﴾.

ولما كان ما من غيرهما هو الشريك قال: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ﴾ يمنعهم من التصديق بكتابنا، أو يأمنون به عذابنا ﴿غَيْرُ ٱللَّهِۚ﴾ الذي له الكمال كله فلا يمكن بوجه أن يكون معه إله، ولذلك وصل به قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ وأخر هذا القِسم وهو من الشركة؛ لأنه على تقدير التصديق للرسول، ولأنه دينهم الذي أوقفهم عن الهدى؛ ليختم بنفسه والتنزيه عن الأقسام فيحصل به غاية المرام، وقد تضمن من الإعجاز في ترتيبه وتهذيبه ما يكاد له أثبت القلوب يهيم فيطير، فكان ذلك كما قال جبير بن مطعم: "كاد قلبي أن يطير".

ولما كانوا مع ذلك لا يؤمنون، وأعماهم الله فهم لا يعلمون أنهم المكيدون، عطف بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ﴾ لددًا وتجلّدًا في البغي وتعلقًا بما أمكنهم من الشبه؛ تخييلًا على العقول وإيقافًا لها، دأب الأصيل في نصر الباطل ومكابرة الحق لِما لهم من العراقة في العمى ﴿سَحَابٌ﴾ فإن قيل لهم: هو مخالف للسحاب بصلابته، قالوا: ﴿مَّرْكُومٌ ﴿٤٢﴾﴾ أي: تراكم بعضه على بعض فتصلب.

فسبّب عن هذا الحال الدال على أنهم وصلوا في عمى البصائر إلى أنه لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون = قولَه: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بالموت، كما صعق بنو إسرائيل في الطور، ولكنّا لا نقيمهم كأولئك إلا عند البعث لنحشرهم إلى الحساب الذي يكذبون به، والظاهر أن هذا اليوم يوم بدر فإنهم كانوا قاطعين بالنصرة فيه، فما أغنى أحدٌ منهم عن أحدٍ شيئًا، كما قال أبو سفيان: "ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا". ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولما كان الإصعاق من أشد العذاب، عطف عليه قوله مؤكدًا؛ لإنكارهم: ﴿وَإِنَّ﴾ وكان الأصل «لهم»، ولكنه أظهر تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف فقال: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: أوقعوا الأشياء في غير مواقعها، كقولهم في القرآن، وفعلهم للعصيان، واعتقادهم للشرك والبهتان ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ إن كان المراد بالصعق ما يكون بعد البعث فبعذاب القبور، وإن كان الموت فما يلقونه في الدنيا من الحرب والقحط ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لِما يرون من حسن حالهم في الدنيا ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ولما كان علم الملك القاهر أعظم مسلٍ للولي ومخيفٍ للعدو، قال عاطفًا على ﴿فذرهم﴾: ﴿وَاصْبِرْ﴾ وعبر بما يذكّر بحسن التربية زيادة في التعزية فقال: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فإنه هو المريد لذلك، ولو لم يرده لم يكن شيء منه، فهو إحسان منه إليك، وتدريب لك وترقية في معارج الحكم، وسبّب عن ذلك قوله؛ لما يغلب على الطبع البشري في بعض أوقات الامتحان من النسيان: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

ولما كانت الطاعة أعظم ناصر ومعزٍّ وكانت الصلاة أعظمها قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فأثبت له كل كمال مع تنزيهه عن كل نقص، فلا يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يريد إلا ما هو حكمة بالغة ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٦﴾﴾ أي: في جميع الأوقات التي هي مظنة القيام على الأمور الدنيوية والأشغال النفسانية وهي أوقات النهار.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ الذي هو محل السكون والراحة ﴿فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٧﴾﴾ وذلك من آخر الليل في نصفه الثاني، وكلما قارب الفجر كان أعلى وبالإجابة أولى، وذلك بصلاة الفجر سنةً وفرضًا أحق وأولى؛ لأنه وقت إدبارها حقيقة، فصارت عبادة الصبح محثوثًا عليها مرتين تعظيمًا لقدرها، فإن ذلك ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع.

وقد رجع آخرها على أولها، بحلول العذاب على الظالم وبعده عن الطائع السالم، والله الموفق.

سورة النجم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها ذم الهوى؛ لإنتاجه الضلال والعمى بالإخلاد إلى الدنيا التي هي دار البلاء والفناء، ومدح العلم؛ لإثماره الهدى في الإقبال على الأخرى؛ لأنها دار البقاء في السعادة أو الشقاء، والحث على اتباع النبي ﷺ؛ لأن علمه هو العلم؛ لأنه لا ينطق إلا عن الله.

ولما ختمت الطور بأمره ﷺ بالتسبيح والتحميد بعد تقسيمهم القول فيه، افتتحت هذه بالحث على الاهتداء بهديه، ولما كان منه: تسبيحه في إدبار النجوم، أقسم أول هذه بالنجم على وجه أعم فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ أي: نزل للأفول أو لرجم الشياطين.

﴿مَا ضَلَّ﴾ يومًا، فمتى تقوّل القرآن! وأما ﴿ووجدك ضالًا﴾ [الضحى: ٧] فالمراد غير عالم، وعبّر بما يدل على أنهم يعرفونه فقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ فلا وجه في اتهامه، ولما كان الهدى قد يصحبه ميل لا يضر بالوصول وإن أخلّ في القرب قال: ﴿وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ فإنه محروس من أسبابه. ولما كان ذلك قد يكون مع الهوى مصادفة قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٣﴾ ولما كان ذلك مظنة السؤال عن أصل ما يقوله قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ ويجوز أن يجتهد ﷺ، فإذا استقر اجتهاده على شيء أوحي [إليه أنك قد أصبت، مع أنه أذن له سبحانه في الاجتهاد بالوحي](٥٠)، مع أن من يردّ ما يجتهد فيه إلى ما أوحي إليه بريء من الهوى.

وقال ابن الزبير: "لما قطع سبحانه تعلّقهم بقوله: ساحر وشاعر ومجنون، إلى ما هذو به مما علموا أنه لا يقوم على ساق، ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح إلى ما أمكنه وإن لم يغن عنه، أعقب الله سبحانه بقسمه على تنزيه نبيه عما تقوّله وتوهّمه الضعفاء".

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حزم في قوة وقدرة على تنفيذ ما أمره الله به لا التفات له بوجه إلى غيره، وإليه أشار بما سبب عن هذا من قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ٦﴾ أي: فاستقام واعتدل على أكمل حالاته. ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ٧﴾ وذلك حين رآه النبي ﷺ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق.

---

(٥٠) سقط من المطبوع.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام من الجناب الأقدس، والقرب منه تعالى -مع أنه منزه عن المسافة- على وجهين: قرب خلقه فهو أقرب إلى كل موجود من نفسه، وقرب ولاية حتى يكون سَمْع الموجود وبصره. فأخَذ الوحي الذي أذن له في أخذه ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ من الله رسولًا إلى صاحبكم ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ بمعنى أن الناظر منكم لو رآه لتردد وقال ذلك؛ لشدة قربه منه ﷺ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: عبد الله، وإضماره من غير تقدم ذكره صريحًا؛ لما هو معلوم مما في آخر الشورى أن كلام الله يكون وحيًا بواسطة رسول، والمقام يناسب الإضمار؛ لأن الوحي الكلام الخفي، وعبّر بالعبد؛ لأنه لم يتعبد قط لأحدٍ غيرِ الله، وكل من عداه حصل منه تعبد لغيره في الجملة، فكان أحق الخلق بهذا الوصف، وأشار إلى عظمة ما أنزل بقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾.

هذا الذي ذكر من تفسير الضمائر ظاهر العبارة، ويمكن أن يكون ضمير ﴿دنا﴾ وما بعده لله تعالى، روى البخاري عن أنس: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبارُ ربُّ العزةِ فتدلّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى»، فيكون المعنى أنه ﷺ لما وصل إلى حد لا يمكن المخلوق الصعود عنه، تنزل له الخالق سبحانه تنزلًا لا يمكن الاطلاع على كنه رتبته في العلو والعظمة، ولذلك عبّر بـ﴿ثم﴾، وقرّبه ﷺ تقريبًا يليق به سبحانه، وعبّر بالتدلي لإفهام العلو.

وأرجع القاضي عياض في الشفاء تلك الضمائر إلى النبي ﷺ، فيكون المعنى: فتسبب عن تعليم جبريل له: استواؤه واعتدال علمه إلى غاية لم يصلها غيره، وتدليه كناية عن وصوله بسبب عظيم، ومنه: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، وإبراز الكلام في هذه الضمائر المحتملة من غير ظاهر يعيّن المراد: مناسب لتلك الحالة فإنها حالة غيبٍ وخفاءٍ والعلم فيها واسع، وسوق الضمائر هكذا يكثّر الوجوه فيتسع العلم، مع أنه ليس فيها وجه يؤدي إلى لبس في الدين ولا ركاكة في معنى ولا نظم ولا محال للعلم، والله أعلم.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: القلب الذي هو في غاية الذكاء والاتقاد ﴿مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ البصر، أي: أنه كان حاضر القلب لا أنها رؤية بصر فقط يمكن فيها لغياب القلب النسبةُ إلى الغلط، وقال القشيري: "ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره، بل رآه على الوصف الذي علمه قبل أن رآه، فكان علمه حق اليقين"، وفي صحيح مسلم عن مسروق أنه قال لعائشة لما أنكرت الرؤية: ألم يقل الله تعالى ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾؟ فقالت: أنا

أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين».

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أي: تستخرجون منه بجدالكم له فيما أخبركم به شكًا فيه، وعبر بالمفاعلة إشارة إلى اجتهادهم فيه، من مَرَى الشيء: استخرجه، والمِرية: الشك والجدل ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ وذلك مما لا يُشك فيه ولا يقبل الجدال، وزاد الأمر وضوحًا بالتعبير بالمضارع إشارة إلى أنه كأنه ينظر الآن.

ولما كان ما يحس بالبصر أقوى، فإذا وافقه حضور القلب زاد، فإذا تكرر انقطعت الأطماع عن التعلق بالمجادلة فيه، قال مؤكدًا: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ الضمير المستتر المرفوع للنبي ﷺ، وأما البارز المنصوب ففيه خلاف، قيل: هو عائد إلى الله، وقيل: إلى جبريل][51]، وجعل ابن برّجان الإسراء مرتين: الأولى بالفؤاد مقدمة، وهذه بالعين ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [أي: مرة أخرى لأن الفَعلة اسم للمرة من الفعل فكان في حكمها]؛ ليكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد، وأخرى في المحل الأنزه الأعلى، [قال أبو البقاء: "أو رؤية أخرى، فقد كان للنبي ﷺ عرجات في تلك الليلة لما استحط ربه من أعداد الصلوات"][53].

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ أي: الشجرة التي ينتهي إليها علم الخلائق وما يعرج من تحت وما ينزل من فوق فيلتقي هنالك، وعظّمها بقوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ وزاد في تعظيمها بقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [أي: بصر النبي ﷺ] ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [أي: البصر] مع أن ذلك العالم غريب عن بني آدم، وفيه من العجائب ما يحيّر الناظر، [وكما أن معنى الآية وصف أدب النبي ﷺ، فهي متضمنة تحقيق الأمر ونفي الريب عنه، ثم أقسم فقال][53] مؤكدًا للإسراء الذي أنكروه على وجه يعم غيره: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ بسبب ما أهّلناه له من الرسالة ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

ولما أخبر من استقامة طريق نبيه ﷺ مما ثبتت به رسالته، وأراه من آياته ما ظهر بها استحقاقه الإلهية متفردًا بها، أنكر عليهم عبادة معبوداتهم على وجه دال على أنها لا تصلح لصالحة فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ أي: إنه ما كفاهم خرق سياج العقل في تعديد الإلٰه حتى أقروا بتأخر رتبة الثالث، فكان الإلٰه عندهم

---

(٥١) ما بين المعقوفات مختصر من هامش المخطوط، وكذا ما يأتي بنفس الرقم.

قد يكون سافلًا، ولا شك عند أيّ فصيح أن هذا الاستفهام الإنكاري والتعبير بما من شأنهم كراهته لأنفسهم بالولادة لا يوافقه أن يقال بعده مدح، فتبين بطلان ما نقل نقلًا واهيًا من أنه قيل حين قرئ هذا المحل: تلك الغرانيق العلا. ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ أي: جائرة ناقصة، حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له إلى دفنه حيًا.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [أي: سميتم بها، أو: وضعتموها وليس ثمة مسمى][٥٣]، واجتث قولهم من أصله فقال: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: لا غير بمجرد الهوى ﴿مَّآ﴾ ونفى هنا «الإفعال» النافي لأصل الفعل سواء كان بالتدريج أو غيره؛ لأن المفصل لباب القرآن فهو للمقاصد، وذلك كاف في ذم الهوى الذي هو مقصود السورة فقال: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: وهي غاية أمرهم لمن يحسن الظن بهم، فالظن ترجيح أحد الجائزين على زعم الظان، ولما كان الظن قد يوافق الحق قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ [أي: تشتهيه ويزينه لها الشيطان، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على بطلان دينهم.

وأتى في الظن بالمصدر وفي الهوى بالفعل؛ ليدل على أن الذي عندهم الآن ظن، وأنهم مهما هوته أنفسهم اتبعوه، وقيل: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ إشارة إلى العقائد ﴿وما تهوى الأنفس﴾ إلى الأعمال ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ تعجيب من ضلالهم مع ذلك][٥٣]، والرأي يقتضي أن من رأى الهدى تبعه ولو أتاه به عدوه، فكيف إذا أتاه به من هو أفضل منه، من عند من إحسانه لم ينقطع عنه قط.

﴿أَمْ﴾ لهم، هذا الأصل، ولكنه ذكر الأصل الموجب لاتباع الهوى فقال: ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤﴾ من اتباع ما يشتهي وقولِه: ﴿لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠]، ولما كان المعنى: ليس له، وكان ذلك دليلًا قطعيًا على أنه مربوب مقهور ممن له الأمر كله، سبب عنه قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ فهو لا يعطي الأماني فيها إلا لمن تبع هداه وخالف هواه ﴿وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾ فهو لا يعطي جميع الأماني فيها لأحد أصلًا كما هو مشاهد، فمن ترك هواه فيها نال أمانيه في الآخرة. [وحقق ذلك بقوله] مظهرًا ضخامة ملكه: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [وهي رد على ادعاء قريش شفاعة أوثانهم، فكأنه يقول: هذه حال الكرام فكيف بأوثانكم!][٥٣].

ولما أخبر باتباعهم للهوى دل عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ بأن قالوا: هي بنات الله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ ولما نفى علمهم تشوف السامع إلى الحامل لهم على ذلك فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: الأمر الثابت الذي هو حقيقة الشيء بحيث يكون الظن بدله، والظن لا يؤدي إلى الجزم وإنما يعتبر في العمليات لا العلميات ولا سيما الأصولية، لكن بشرطه وهو رده إلى الأصول؛ لعجز الإنسان عن القطع في جميع الفروع ﴿شَيۡـًٔا﴾.

ولما كانوا بعد الهدى قد أصروا على الهوى قال: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ الذي أنزلناه فلم يقبله ولم يتدبره، فلا تلتفت إلى علمه فإنه مطموس على قلبه ولو دقّ ذهنه فإنه لا يؤول إلا إلى شر، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنه ما عليك إلا البلاغ، ولما كان المعرض في وقت قد يقبل في آخر، دل على دوامه بقوله: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ﴾ في كل وقت ﴿إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٨﴾﴾ أي: الحاضرة لتقيده بالمحسوسات كالبهائم مع العمى عن دناءتها.

ثم ترجم جملتي الإعراض والإرادة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فلا تعلق أملك بأن يصل علمه إلى ما وراء الدنيا، وعبر بالرب إشارة إلى أن ضلال هذا من الإحسان إليه ﷺ لأنه لو دخل في دنيه لأفسد أكثر مما يصلح، كما قال تعالى: ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾ [التوبة: ٤٧] ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٢٩﴾﴾.

ولما أمره بالإعراض أعلمه أن الكل في ملكه، فلو شاء لهداهم ورفع النزاع، ولكنه له في ذلك حكم عظيمة فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ﴾ فإن الحكم نتيجة الملك ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ على ثباتهم وصبرهم على الدين وعلى أذى أعدائهم ﴿بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣٠﴾﴾ ووصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: ما عظم الشارع إثمه بالوعيد والحد ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ وهي ما يكرهه الطبع ويستخسّه العقل ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ معفوٌ فمن خالطه لا يخرج عمن أحسن، فهو استثناء منقطع، ولعله وضع فيه «إلا» موضع «لكن» إشارة إلى أن الصغير قد يكبر باستهانته مثلًا، كما قال تعالى: ﴿وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم﴾ [النور: ١٥].

واللمم: هو صغار الذنوب، والمراد هنا ما يحصل منها في الأحيان كأنها فلتة بغير اختيار صاحبه، لا ما يتخذ عادة أو يكثر حتى يصير كالعادة، قال الرازي في اللوامع: "وأصله: مقاربة الذنب ثم الامتناع منه قبل الفعل"، قال ذو النون: "ذِكر الفاحشة من العارف كفعلها من غيره"، يقال: ألم بالمكان إذا قلّ لبثه فيه، قال السدي: "قال أبو صالح أنه سئل عن اللمم فقال: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده، قال: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم"، وعلى هذا يصح أن يكون الاستثناء متصلًا.

ولما كان غفران الذنوب وإن تكررت عظيمًا، علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ فهو يغفر الصغائر حقًا أوجبه على نفسه والكبائرَ إن شاء بخلاف غيره، ولما كان ربما قطع من عمل بصفات المحسنين أنه محسن قال(٥٢): ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ فهو يعلم إذ ذاك ما أنتم صائرون إليه من خير وشر وإن عملتم مدة بخلافه، وأنتم لا تعلمون ما في أنفسكم إلا حال كونه ولا تحيطون به، ولما كان الإنسان مبنيًا على محبة الفخر بما أحسن، وكان حاله قد يتبدل فيسبق عليه الكتاب فيشقى، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣١﴾﴾.

ولما أمره بالإعراض عمن تولى ونهى عن التزكية للجهل بالعواقب، وكان قد ارتد ناس لما أخبر الرسول ﷺ عن الإسراء، وكان لمّا نزلت عليه سجدة النجم وسجد فيها الجن والإنس ولم يظن أحد انقلابهم على أدبارهم، سبّب عن ذلك قولَه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي: قطع عطاءه على قلته وأفسده فصار كالحافر الذي وصل إلى كدية أي: صفاة شديدة، وقد كان إذا صادف التراب اللين ظن أنه لا يمنعه مانع مما يريد.

فهذا دليل خبري شهودي على أنه لا علم لأحد بما حباه الله في نفسه فضلًا عن غيره، فلا ينبغي لأحد أن يزكي نفسه ولا غيره، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، أسلم ثم ارتد لتعيير بعض المشركين له، وهي تصلح لكل من ارتد ظاهرًا أو نافق أو انهمك في المعاصي بعد إيمانه معرضًا عن الأعمال الصالحة.

---

(٥٢) أو يقال: إنه تعليل للمغفرة، والمعنى: هو أعلم بأنه أنشأكم على حالٍ لا تنفك عن الإثم ولذا كان واسع المغفرة، فلا تزكوا أنفسكم فكل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون، والله أعلم، قال السعدي: "أي: هو تعالى أعلم بما جبلكم عليه من الضعف حين أنشاكم من الأرض وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، فلذلك تغمدكم بمغفرته" [تيسير الكريم الرحمن ص ١٧٣٦، ابن الجوزي، بتصرف].

ولما كان هذا قد وقع في خطر عظيم من إفساد العمل في الماضي وتركه في المستقبل، قال تعالى موبخًا له: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٤﴾ فيعلم أن هذا القليل الذي أعطاه قد قبل وأمن به من العطب فاكتفى به؟ ولما كان الغبي قد يظن أن عمل غيره ينفعه قال: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٥ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٦﴾ أي: أتم ما أمر به، وخص هذين النبيين لأن المدعوين من بني إسرائيل يدعون متابعة موسى عليه السلام، ومن العرب يدعون متابعة إبراهيم عليه السلام.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ۝٣٧﴾ [وأما قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالًا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: ١٣] وقوله ﷺ: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فإنما حملوا أثقالًا وأوزارًا تسببوا فيها، وسمي وزر غيره مجازًا][٥٣]. ولما نفى أن يضره إثم غيره، نفى أن ينفعه سعي غيره فقال: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٨ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٣٩ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ۝٤٠ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤١﴾ برجوع الخلق حسًا بالبعث، ومعنى بالعمل والعلم وإسناد الأمور وإرسال الآمال، كما كان منه المبتدأ.

ولما ذكر الأمور الاختيارية ذكر الاضطرارية إكمالًا للدليل على أنه وحده يعلم ما في النفوس وأنه إليه المنتهى فقال: ﴿۞وَأَنَّهُۥ﴾ ولما كانت التأثيرات الإدراكية تحال على أسبابها، أكد فقال: ﴿هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٢﴾ ولا يعلم أحد قبل وقت الضحك أو البكاء أنه يضحك أو يبكي، ولا أنه يأتيه ما يعجبه أو يحزنه. ولما كانت الإماتة والإحياء أعظم تنافيًا مما مضى، فكانت القدرة على إيجادها في الشخص الواحد أعظم ما يكون، أكد فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ۝٤٣﴾. ولما ذكر الإحياء وكان تنويع الولد ظاهرًا في أنه لا يقدر عليه غيره، أعراه عن مثل التأكيد في الذي قبله فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٤﴾.

ثم ذكر ما يُظهِر -ولا بد- أنه من صنعه؛ لأن مادة الاثنين واحدة وهو الماء الذي هو أشد الأشياء امتزاجًا فقال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٥﴾ [وحذف «هو» لأنه لا يتوهم أحد ولم يدّعِ كافر ولا مجنون المشاركة في ذلك، وأثبتها في الإضحاك والإبكاء ردًا على من يتوهم أنه يفعلها بنفسه، وفي الإماتة والإحياء والإغناء والإقناء ردًا على من يدعي ذلك بالتسبب، وفي أنه رب الشعرى لأنها عُبدت من دونه][٥٣]. ولما دل على إحاطة علمه وختم بالنشأة الأولى، دل على تمام قدرته بقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٦﴾.

ولما كان الغنى والفقر متوسطًا بين الاختيار والاضطرار، وكان الغنى الحقيقي إنما هو في تلك الدار قال: ﴿وَأَنَّه هُوَ أَغْنَىٰ﴾ ولما كان الغنى غنى النفس وهو رضاها بما قسم لها، وإنما سمي ذو المال غنيًا لأن المال بحيث تطمئن معه النفس، قال: ﴿وَأَقْنَىٰ ۝٤٧﴾ أي: أمكن من المال وأرضى بجميع الأحوال، وقال الأخفش: "أقنى: أفقر"، فتكون الهمزة للإزالة.

ولما كانت الشعرى لأنها تقطع السماء عرضًا: أدل النجوم على تمام القدرة، مع دخولها في المقسم به أول السورة، وهي لمرورها على جميع منازل المطر قد عبدها أبو كبشة الخزاعي، قال تعالى دالًا على سفاهة من عبدها: ﴿وَأَنَّه هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٨﴾ وأهل علم النجوم يقولون: إن الأحكام النجومية المنسوبة إليها أصح ما ينسب إلى العالم العلوي.

ولما دل على كمال علمه وقدرته بأمور الخافقين، فكان داعيًا إلى الإقبال على ما يرضيه، وناهيًا عن الإلمام بما يسخطه، هدد من وقف عن ذلك بما وقع في مصارع الأولين من عجائب قدرته فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٤٩﴾ أي: القدماء جدًا لأنه المتصرف في جميع الأزمنة، وقدمهم لأن الشر أتاهم من حيث ظنوه خيرًا وجزموا بأنه من الأنواء النافعة وقيل: إن عادًا قبيلتان: الأولى قوم هود، والأخرى إرم ذات العماد.

﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥٠ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥١ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: المدن التي نتقها الله من الأرض ففتقها ثم دفعها إلى عنان السماء ثم قلبها وأتبعها حجارة النار الكبريتية وغمرها بالماء الذي لا يشبهه شيء من مياه الدنيا، ولذا قال: ﴿أَهْوَىٰ ۝٥٢﴾ وأشار إلى الحجارة والماء بقوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ وهولها بقوله: ﴿مَا غَشَّىٰ ۝٥٣﴾ أي: أمرًا عظيمًا لا يسع العقول وصفه. ولما كان كل ما تقدم في السورة من النعم والنقم؛ لكونه كان أتم أوجه الحكم: نعمة على كل مؤمن؛ لما فيها من الترغيب والترهيب، قال مسببًا عما مضى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٤﴾.

ولما تم الكلام على هذا المنهاج البديع والنمط الرفيع، أنتج قوله خاتمًا السورة بما بدأها به من ذكره ﷺ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ ولما كان قد أخبر عن إهلاك من كذب الرسل وإنجاء من صدقهم قال: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٥﴾ يجب له ما وجب لهم، وأنتم كالمنذَرين الأولين. ولما كان كل آتٍ قريب وكان مما أنذر بإتيانه القيامة، قال محققًا لوقوعها بالماضي وباشتقاق الفاعل مما منه الفعل: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٦ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٧﴾.

وسبب عما تقدم قوله منكرًا موبخًا: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٨﴾ إنكارًا، وهو في غاية ما يكون من ترقيق القلوب. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ ۝٥٩﴾ كما هو حق من يسمعه. ولما كان البكاء قد يكون على التقصير بيّن أن الأمر أخطر فقال: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦٠﴾ أي: دائبون في العمل فلذلك تبكون[٥٣]، وإنما قلت ذلك لأن «سمد» معناه دأب في العمل، ورفع رأسه تكبرًا، وقام متحيرًا، وحزن وسر وغفل ولها، فالمادة كما ترى تدور على الدأب في العمل، فتارة بذكر مبدئه الباعث عليه وتارة الناشئ عنه وتارة ما بينهما وهو الجد في العمل، فالقصد باعث، وكذا الاهتمام والقيام ورفع الرأس ناشئان عنهما وذلك أوله، فتبيّن أن تفسير السمود بذلك أولى، وأن كون الجملة حالًا أقرب من جعلها معطوفة على ﴿تضحكون﴾، والله أعلم.

ولما حث على السمود فسره فقال: ﴿فَٱسْجُدُواْ﴾ أي: اخضعوا كثيرًا بالسجود في الصلاة ﴿لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩ ۝٦١﴾ أي: بكل أنواع العبادة فإنه ﴿ما ضل صاحبكم﴾ عن الأمر بذلك ﴿وما غوى﴾، ولو كان السمود بمعنى اللهو، كان الأنسب تقديمه على ﴿تبكون﴾ والله أعلم، وقد ظهر أن آخرها نتيجة أولها.

(٥٣) فيشبه والله أعلم: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: ٦٠].

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها بيان آخر النجم في أمر الساعة من تحققها وشدة قربها(٥٤) واسمها «القمر» أدل ما فيها على ذلك؛ لأنه محل الآية، ولأنه يدل بسرعة سيره وكثرة تقلبه على الاقتراب.

لما ختمت النجم بالتهديد باقتراب القيامة التي ينكرونها بعد أن فتحها بالإقسام بالتأثير في النجم الذي هو أعم من القمر، افتتح هذه بذلك مع الدلالة عليه بالتأثير في أعظم آيات الليل؛ ليقطع العباد عن الفساد، ويستعدوا لها قبل مجيئها أحسن استعداد، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ولما كان الإخبار باقترابها يحتاج عند المعاند إلى آية دالة عليه، وكانت الآيات السماوية أعظم قال: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ آية للرسول المنذر لكم بها.

وانشقاق القمر على حقيقته في زمان النبي ﷺ أمر شهير جدًا، وإجماع أهل التفسير عليه كما قاله القشيري، وذلك أن قريشًا سألوه أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر، كما رواه الشيخان عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما، ومعلوم أن الأمة تلقت كتابيهما بالقبول فهو يكاد يلحق بالمتواتر، وقد أيده القرآن فلم يبق فيه شك، [وإنما اختُلف في تأويل الآية، فالجمهور نزلوه على الانشقاق في زمنه ﷺ، وبعضهم نزله على غيره](٥٥)، ومن قال: المراد سينشق، يحتاج في صرف الماضي عن حقيقته إلى المستقبل إلى صارف، وأنى له ذلك ولا سيما وقد تأيدت الحقيقة بالسنة الصحيحة الشهيرة.

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: "لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى وأن عليه النشأة الأخرى وإذ ذاك تجزى كل نفس بما أسلفت، أعلمهم بقرب ذلك ليزدجر من وفقه فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ثم إن سورة ص تضمنت من عناد المشركين وتوبيخهم ما لا يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها، وانبنت السور بعدها على تمهيد ما تضمنته، فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم.

---

(٥٤) وتفصيل هلاك المكذِّبين تهديدًا، وإثبات نبوة محمد ﷺ بعد إثبات نزاهته في النجم، بآية عظيمة يُثبِت تكذيبهم بها -لا سيما وهم الذين سألوها- أنهم إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس.

(٥٥) ما بين المعقوفتين مختصر من هامش المخطوط.

وكذلك سورة القتال فإنها تضمنت الأمر بقتلهم وأسرهم وتعجيل حربهم، وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد عليهم من كل ما قرعوا به، وكذا الحجرات لتضمنها من إجلال النبي ﷺ ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد وما فيها من ائتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم، فلما انتهى ما قصد من تقريعهم وبلغت الآي في هذه السورة من ذلك أقصى غاية ولم يحيروا جوابًا، عرض عليهم في القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم؛ ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم، وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم.

ولذلك افتتح هذه بعد انقطاع حجتهم بما تقدم بقوله: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنِ النذر﴾ وذكر لهم هلاك كل أمة عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل إيراد، وتخلل القصص بقوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وهي رفع لعذر من تعلق باستصعاب الوقوف على مواعظه، وهذا فيما تتوقف عليه الاستجابة، وأما المتشابه فحَسْبُ عموم المؤمنين الإيمان بجميعه والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله فهم ذلك على من شرفه به بحسب ما يشرح صدره.

ثم تعقب هذا كله بصرف الكلام إلى مشركي العرب في قوله: ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾، وكأن قد قيل لهم: أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم وتظنوا فوزكم؟ ولم يكن ذلك على هذه الصفة في شيء من السور المذكورة فيها قصص على هذا الاستيفاء، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ، فكان يستلطف أولًا في دعائهم، حتى إذا تكررت الموعظة فلم تقبل حل الغضب وشدة الوعيد.

وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف وأميل إلى التعنيف، فتأمل تعقيب القصص في الأعراف بقوله تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ [الآية: ١٧٤] وقوله بعد موعظة بالغة بذكر الذي أخلد إلى الأرض: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الآية: ١٧٦].

وقال بعد قصص هود: ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ [الآية: ١٠٢] الآية، وقال: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ إلى ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ [هود: ١٠٩]، وقال في قصص آخر سورة المؤمنين: ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ إلى ﴿لا يشعرون﴾ [الآيات: ٥٤ - ٥٦] ثم قال: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ [الآية: ٦٤]، واستمرت الآي على شدة الوعيد يتلو بعضها بعضًا، وقال في آخر قصص الظلة: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ إلى ﴿وسيعلم

الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ٢٢٧]، ثم إنه وقع عقب كل قصة فيها قوله: ﴿إن في ذلك لآية﴾ وفيه تهديد ووعيد، وفي آخر الصافات: ﴿فاستفتهم ألربك البنات﴾ إلى ﴿وإنهم لكاذبون﴾ [الآيات: ١٤٩ - ١٥٢].

فلما أُخذوا بكل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم، قال هنا: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنِ النذر﴾ ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فتول عنهم﴾ بعد أخذهم بكل طريق، ثم صرف إليهم بما تقدم قولَه: ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾ فبلغ ذلك أعظم مبلغ في البيان والإعذار، ثم قال: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾، وانقضى ذكر القصص فلم يتعرض لها مستوفاة على هذا المساق إلى آخر الكتاب، فسبحان من رحم به عباده، وقطع به عناد الجاحدين وغائلة المعتدين، وجعله بيانًا كافيًا ونورًا هاديًا وواعظًا شافيًا، جعلنا الله ممن اهتدى واعتلق بسببه، إنه أهل الاستجابة والعفو والمغفرة".

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً﴾ أيّ آية ﴿يُعْرِضُواْ﴾ كما أعرضوا عن هذه ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ لأنه فارق السحر بأنه لا ينكشف ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ ولما كان التكذيب قد يكون حقًا، قال مبينًا أنه باطل: ﴿وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قال القشيري:" إذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب؛ لأن الله يلبّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد، واتباع الرضى مقرون بالتصديق؛ لأن الله ببركات الاتباع للحق: يفتح عين البصيرة فيأتي بالتصديق".

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ أي: ثابت انتهاؤه إلى غاية تظهر فيها حقيقته، فلا بد أن ينتهي الحق إلى نهايته فيثبت ثبوتًا لا زوال له، وينتهي الباطل إلى غايته فيتلاشى تلاشيًا لا ثبات له، وقرأ أبو جعفر بالجر صفة لـ«أمر» فيكون ﴿كل﴾ معطوفًا على الساعة، أي: واقترب كلُّ أمرٍ مستقرٍّ، أي: ثابت وهو الحق، أي: اقترب ظهوره وثباته، وذلك يكون عند فوات الباطل.

ثم قال معلمًا أنه عالم بأمرهم من قبل الإجابة إلى شق القمر، وأنه ما شقه لطمع في إيمانهم بل للإعلام بخذلانهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ قبل الانشقاق ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ أي: موضع للزجر من شأنه أن يكون لهم به انزجار عظيم. ولما كان ذلك قد لا يكون محكمًا قال: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [يجوز أن تكون «ما» نافية بمعنى: فليست تغن؛ لِما عُلم من عتوّهم ولذلك أتى بالمضارع، أو استفهامية للإنكار والتوبيخ فيكون المعنى: فأي شيء تغنه إذا لم يؤمنوا!][٥٧].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ ولما بين اقتراب الساعة بالإجابة إلى بعض مقترحاتهم القائمة مقامها بدلالته على القدرة عليها، وصفها فقال: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ﴾ يجوز أن يكون الناصب له «تول»؛ لأنهم لما أعرضوا حين دعاهم، كان جزاؤهم أن يعرض عنهم يوم حاجتهم إليه؛ لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

ولما بين دعاءه بما هال أمره، بين حال المدعوين زيادة في الهول فقال: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [من ذلة أصحابها، ونسب الفعل إليها لأن كثيرًا من أحوال النفس تظهر في العينين](٥٨). ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧﴾ أي: منبث متفرق حيران مطاوع لمن نشره لا جهة له في الحقيقة يقصدها لو خلي ونفسه. ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي: مسرعين خائفين مقبلين بأبصارهم عليه مادّين أعناقهم نحوه، ولما بين حال الكل حصر حال المبطلين فقال: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: الذين كانوا في الدنيا عريقين في ستر الأدلة وإظهار الأباطيل المضلة ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾.

ثم تمم ذلك التهديد بعذاب الدنيا؛ ردعًا لأهل الغلظة الموكلين بالمحسوسات، فقال مهددًا لقريش بجعل القصة مثلًا لهم في إهلاكهم: ﴿۞كَذَّبَتۡ﴾ التكذيب العظيم الذي عمّوا به جميع الرسالات والرسل ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ أي: في جميع ما سلف، بعضه بالفعل وبعضه بالقوة؛ لقوة العزم ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ فلذلك قال: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾ وبشّع إعراضهم بالبناء للمجهول فقال: ﴿وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ بغاية ما يكون من الغلظة كفًا له عن الرسالة. ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ لما أيس منهم ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ وأكده لأنه من يأتي عن الله يكون مظنة النصرة، وإبلاغًا في الشكاية إظهارًا للعبودية.

﴿فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١﴾ أي: منصبٍّ بأبلغ ما يكون، ولذا لم يقل: بمطر؛ لأنه خارج عن عادته. ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ [قال الفراء: "لا يجوز الالتقاء إلا لاثنين فما زاد، وإنما جاز في الماء لأنه يكون جمعًا وواحدًا"، وفيه إشارة إلى نبع الماء وقوته كانصباب السماء وكثرته، وقرئ: «الماءان» أي: ماء السماء وماء الأرض](٥٧) ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢﴾ فلم يستطع أن يزيد قطرة ولا أن يهلك غير من أمرناه بإهلاكه، وأشار بالتخفيف إلى غاية السهولة عليه سبحانه ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣﴾ لعله عبر عن السفينة بذلك تنبيهًا على قدرته على ما يريد.

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ﴾ لنوح عليه السلام، ولكنه عبر بما يُفهِم العلة ليحذر السامع وقوع مثل ذلك له إن وقع منه مثل فعل قومه فقال: ﴿لِّمَن﴾ وعبر عن طول زمان كفرهم بقوله: ﴿كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَا﴾ أي: هذه الفعلة العظيمة من جري السفينة على هذا الوجه وإبقاء نوعها ﴿ءَايَةٗ﴾ دالة على ما لنا من العظمة ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ لما يحق على الخلق من شكر الخالق بما هدت إليه رسله، قال القشيري: "في هذا قوة لرجاء أهل الدين إذا جحد غيرهم ما آتاه الله، أن يهلكه عن قريب ويورثهم ما كان إليهم، وكذلك سنة الله في جميع أهل الضلال". ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾.

ولما كان هذا التفصيل مما أنزل أولًا تيسيرًا على الأمة، نبه على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ والآية ناظرة بالعطف والمعنى إلى ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ الآيتين، أي: خاطبناهم بأعلى البلاغة مع تيسير فهمه للذكي والغبي فكان فيه إعجازان، ولما كان القرآن ترجمة لأفعاله تعالى في الوجود، قال منبهًا بالتعبير بما هو من الذكر: على أنه المحفوظ للإنسان بما هيأ له من تيسير أمره: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ ومن ذل لسانه بالقرآن ظاهرًا، صحت حواسه الظاهرة ونورت له الباطنة، ومن أبى عذب بسبب الباطنة فتفسد الظاهرة.

وقد تكررت هذه الموعظة أربع مرات، وكررت ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ في الرحمن إحدى وثلاثين؛ لأنه لما تقدم من المفصل ما لله على الإنسان من النعم في نفسه وفي الآفاق، كان كأنه قيل: هل مدكر بهذا القرآن فيعلمَ أن نعم الله محيطة به على وجه لا يكون إلا للمحيط بجميع صفات الكمال التي أعظمها -لكونها أساسًا يبنى عليه- الوحدانية فيخشى من معصيته أن يسلبه نعمة فلا يجد من يقوم بها غيره، أو يعذبه فلا يجد من يرد عنه؟

والتكرير أيضًا لتأكيد التقرير؛ دلالة على اشتداد الغضب، وقال في الكشاف: "فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ ادكارًا ويستأنفوا استيقاظًا؛ لئلا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكريرات، لتكون العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة في كل أوان"، ولمثل ما مضى أو قريب منه كرر التهويل بالعذاب ست مرات، أربع منها ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ واثنان ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾.

ولما كان تكبر عاد بقوتهم، وكانت قريش قريبة من ذلك لقولهم إنهم أمنع العرب، كرر الاستخبار في قصتهم زيادة في تذكيرهم وتحذيرهم فقال: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي

﴿وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ أي: شديد البرد والصوت ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ أي: قوي في نحوسته ماضٍ فيما أمر به، مستحكم المرارة دائمها إلى إنفاذ المراد.

﴿تَنزِعُ﴾ بعضَهم من وجهها وبعضهم من حفر حفروها لتمنعهم من العذاب ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين هم صور لا ثبات لهم بأرواح التقوى، فتطيرهم وتقطع رؤوسهم وتسوّد ألوانهم، ولذا قال: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ أي: أصول ﴿نَخۡلٖ﴾ قطعت رؤوسها ﴿مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ أي: منقصف من أسفله، وهو يشير إلى أنهم طوال قد قطعت رؤوسهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ﴾ والتفت إلى الإفراد تنبيهًا على التوحيد فقال: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١﴾.

ولما أتم التحذير من مثل حالهم، قال مؤكدًا؛ لما لأكثر السامعين من التكذيب بالقال أو بالحال، معلمًا أنه سهّل طريق الفرار من مثل هذه الفتن إليه، ويسر طريق الاعتماد عليه، عائدًا إلى مظهر العظمة إيذانًا بأن تيسير القرآن مع إعجازه لا يكون إلا لعظمة تفوت قوى البشر: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ يتذكر جميع ما تصرف فيه من الأقوال، وينزلها على نفسه وما لها من الأحوال.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا﴾ إنكارًا لرسالة هذا النوع، وأعظموه بقولهم، مقدمين عدم انفراده عنهم بخصوصية: ﴿مِّنَّا﴾ وزادوه تأكيدًا فقالوا: ﴿وَٰحِدٗا﴾ أي: ليس معه من يؤيده حتى يوثق به ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ ونحن أكثر الناس وأقواهم وأفهمهم، ثم استنتجوا عن هذا الإنكار قولهم مؤكدين؛ لاستشعارهم بأن كلامهم أهل لأن يُكذَّب: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤﴾ أي: تكون عاقبتنا الكون في أوائل أمر لا ندري عاقبته فإنه لم يجربه أحد قبلنا، فيجرنا ذلك إلى جنون وجوع ونار كمن يتوه في القفار.

واستدلوا على تكذيبهم له بأمر آخر فقالوا: ﴿أَءُلۡقِيَ﴾ أي: أنزل بغتة في سرعة، لأنهم لم يتوسموا فيه قبل إشارته به شيئًا منه بل أتاهم به بغتة في غاية الإسراع، ولما كان الإلقاء للأجسام غالبًا، قدم «الذكر» لدفع هذا الوهم بخلاف ما في ص[٥٦] فقالوا: ﴿ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ أي: وبيننا من هو أولى، ولما كان هذا الاستفهام لكونه إنكاريًا بمعنى النفي، أضربوا عنه بقولهم على وجه النتيجة: ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥﴾ أي: مرح غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه فهو يريد الترفّع.

---

(٥٦) في قوله تعالى: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ الآية: ٨.

ولما كان هذا غاية الذم لمن يستحق غاية المدح، أجاب تعالى عنه موعظة لعباده لئلا يتقولوا ما يعلمون بطلانه أو يقولوا ما لا يعلمون صحته بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي احتقار الناس والاستكبار على ما أبدوه من الحق مختص به، فكان معيّنًا لهم بهذا الإبهام المنصف الذي فيه من هز النفس ما لا يعلمه إلا الله، وكلما كان الإنسان أسلم طبعًا وأكثر علمًا كان له أعظم ذوقًا.

ولما علم من هذا أنه تعالى فصل الأمر بينهم، قال مبينًا له دالًا بأنهم طالبوه بآية على صدقه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: موجدوها كما اقترحوا من حجر خصصناه بذلك كما خصصنا صالحًا عليه السلام بالإرسال، فقالوا له: نعرف المحق منا بأن ندعو آلهتنا وتدعو إلهك فمن أجابه إلهه علم أنه المحق، فدعوا أوثانهم فلم تجبهم، فقالوا: ادع أنت، فقال: فما تريدون؟ قالوا: تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة تبعر عشراء، فأجابهم إلى ذلك بشرط الإيمان فوعدوه بذلك، فكذبوا بعد ما كذبوا في أن آلهتهم تجيبهم، وصدق هو في كل ما قال.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظرهم فيما يجزون به انتظارَ من يحرسهم وهو عال عليهم، فإنهم واصلون بأعمالهم إلى الداهية، ودل بالافتعال على أنه يكون له منهم أذى بالغ قبل انفصال النزاع فقال: ﴿وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْۖ﴾ أي: لهم يوم لا تشاركهم فيه في الماء، ولها يوم تشربه كله وتوسعهم بدله لبنًا ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: أهل لما فيه من العجائب أن يُحضَر حضورًا عظيمًا متكلّفًا؛ لأنه صار في كثرته وحسنه كماء الحاضرة للبادية. ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف الذي انتدبوه أشرًا لقتل الناقة، وكذبًا في وعدهم الإيمان وإكرامها بالإحسان ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ التعاطيَ الذي لا تعاطي مثله، فتناول ما لا يحق له تناوله وهو سيفه ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

فلما وقع كذبهم حقق الله صدقه في توعدهم، ونبه على عظمه بالاستفهام فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾ وحقرهم بالنسبة إلى عظمة عذابه بقوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾ فلم يكن لهم بها طاقة، وتلاشى عندها صياحهم لعقر الناقة ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: محطّمين كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فتدوسه ثم يصير يتحطم. ولما كان في هذه القصة الموعظة البالغة، قال مؤكدًا؛ لأجل من يعرض عن القرآن مدعيًا صعوبته: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: الحفظ والتذكير

وحصول النباهة به والشرف في الدارين ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢﴾ أي: ناظر فيه بسبب قولنا هذا بعين الإنصاف والتجرد عن الهوى، ليرى كل ما أخبرنا به فنعينه عليه.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ ودل على هوانهم وبلوغ أمره كل ما يراد به بقوله: ﴿حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا ترمي بحجارة هي دون ملء الكف فكانت مهلكة لهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ﴾ وهم من آمن به وكان بحيث إذا رأيته فكأنك رأيت لوطًا عليه السلام؛ لما يلوح عليه من أفعاله والمشي على منواله.

﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ فآمن وأطاع لا سيما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كائنًا من كان من سوقة أو سلطان، شجاع أو جبان، فإننا ننعم عليه بالإنجاء بعد هلاك عدوه، قال القشيري: "والشكر على نعم الدفع أتم من الشكر على نعم النفع، ولا يعرف ذلك إلا كل موفق كيس". وأومأ إلى مزيد شكره بدعائهم إلى الله، صرفًا لنعمة الرسالة في أتم مواضعها، بقوله مؤكدًا؛ لأن إقامة المحذَّر من العذاب في ما يوجبه لا يكاد يصدق: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا﴾ ووحد إشارة إلى أنه لا يستهان بشيء من عذابه سبحانه بل الأخذة الواحدة كافية ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦﴾.

ولما كان ترك الاحتياط في الخلاص من الإنذار عريق في السفه، دل على أنهم تجاوزوه إلى انتهاك حرمة النذير فقال: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ فسويناها مع سائر الوجوه، وذلك بصفقة صفقها لهم جبريل، فانطلقوا إلى الباب يصادمون الجدران خوفًا مما هو أعظم، وهم يقولون: عند لوط أسحر الناس، ولم يؤمنوا فينجوا مما حل بهم، قال القشيري: "وكذلك أجرى الله سنته في أوليائه، بأن يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذونهم، ويخلصهم من كيدهم"، ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾.

ولما كان بقاؤهم بعد هذا على كفرهم عجبًا، قال مقسمًا: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨﴾ أي: ثابت ليس بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس، فإنه اتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بعذاب النار، فقال لهم لسان الحال إن لم ينطق لسان القال: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩﴾ وكرر الأمر بالذوق لأنهم عذبوا بما يردع من كان له قلب بالطمس، فلما لم ينفعهم ذلك أتاهم أكبر منه فكانوا كأمس الدابر، فلكل مرة من العذاب مرة من الأمر بالذوق، وخصوا بالذوق لما في فاحشتهم الخبيثة مما يستلذونه.

ولما بلغت هذه المواعظ النهاية لمن كان له قلب، قال مذكرًا بالنعمة التي لا عدل لها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾ مفتكٍّ لنفسه من مثل هذا الذي أوقع فيه هؤلاء أنفسهم، ظنًّا منهم أن الأمر لا يصل إلى ذلك، جهلًا وعدم اكتراث بالعواقب.

ولما كان ينبغي للآخر أن يحذر ما وقع للأول، وكان قوم فرعون قد أُهلكوا بعدهم فكان ربما ظُنَّ أنهم لم ينذَروا، قال مُقسِمًا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ملك القبط بمصر وأشرافه الذين إذا رُؤوا كان كأنه رُئي فيهم؛ لشدة قربهم منه وتخلقهم بأخلاقه ﴿ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغلبه شيء ويغلب كل شيء ﴿مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ لا يعجل بالأخذ لأنه لا يخاف الفوت ولا يخشى معقّبًا لحكمه.

ولما بلغت هذه المواعظ المنتهى ولم يثنِ ذلك كفار قريش، اقتضى الحال أن يقال لهم إلزامًا بالحجة: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ لتأمنوا العذاب مع جامع التكذيب؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ﴾ من العذاب من الله ﴿فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ أي: جمع واحد مبالغ في اجتماعه ﴿مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ على كل من يناويه لاجتماعهم.

﴿سَيُهْزَمُ﴾ بأيسر أمر من أي هازم بوعد لا خلف فيه ﴿ٱلْجَمْعُ﴾ المبالغ فيه، فصدق الله وهُزموا في بدر وغيرِه في الدنيا عن قريب، وهي من دلائل النبوة البينة ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ وكل من إفراد الدبر والمنتصر وجمع المولين أبلغ مما لو وضع غيره موضعه. ولما كان ربما ظن ظان أن ذلك النهاية، كان كأنه قيل: لا ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الأعظم ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ من كل ما يفرض وقوعه في الدنيا ﴿وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

ولما أخبر عن الساعة بهذا الإخبار الهائل، علله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عمى عن القصد وعن الوصول إلى شيء من مقاصدهم ﴿وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ لأنهم في غاية الذل جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله، مقولًا لهم من أيّ قائل اتفق: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ أي: ألم مباشرة الطبقة النارية التي تلوح الجسم وتذيبه.

ولما أخبر بقيام الساعة وما لهم فيها جزاءً لأعمالهم التي قدرها عليهم فرضوا بها لاتباع الشهوات، علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ أي: قضاء وحكم وقياس مضبوط تقيسه الملائكة بجميع أنواع الأقيسة فلا يخرم عنه مثقال ذرة، فهذا العذاب

بقدرتنا ومشيئتنا، ولو كان الخلق لا يبعثون للقصاص لكان القياس جزافًا لا بقدر وعدل؛ لأن المشاهد أن الفساد في هذه الدار من المكلفين أكثر من الصلاح أضعافًا مضاعفة.

ولما بين أن كل شيء بفعله، بين يسره عليه فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه، فكذا الأفعال كلها عندنا بل أيسر.

ولما كان إهلاك وإنجاء من ذكر نحوًا مما ذكر من أمر الساعة في السهولة والسرعة، ذكّر بهم جملةً لأنه أوعظ وأزجر فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ أن قدرته تعالى عليه كقدرته عليهم. ولما دل على إحاطة القدرة، أخبر بأن أفعالهم كلها مكتوبة محفوظة فقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾. ولما خصهم عم بقوله محذرًا بأن كل شيء محفوظ فمعروض: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ منهم ومن غيرهم ﴿مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾.

ولما أخبر عن أحوال الكفرة، ختم بأحوال القسم الآخر بشارة للسالك في أحسن المسالك فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: العريقين في الخوف من الله تعالى، فأداهم إلى أن لا يفعلوا شيئًا إلا بدليل ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾ وأفرد؛ لكثرة الأنهار وقرب بعضها من بعض واتصال منابعها حتى كأنها شيء واحد، لا للفاصلة فقط.

ولما كانت البساتين لا تسكن في الدنيا لأنه ليس فيها كل ما يُحتاج، بين أن تلك غير فقال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ لأهل الصدق فقط ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ فهو يوصلهم إلى كل خير ويدفع عنهم كل ضير، وكما أن لهم في الآخرة عندية الإشهاد، فلهم في الدنيا عندية الإمداد، ولهذا الاسم الشريف سر في الانتصار على الظالمين.

ولقد ختمت السورة كما ابتدئت به من أمر الساعة، وكانت البداية للبداية والنهاية للنهاية، وزادت ببيان السبب الموجب لها وهو القدرة والملك المقتضي للسطوة التامة والإكرام البالغ، للإعلام بأن تصريفه سبحانه لأحوال الآخرة هو كما قصه في هذه السورة من تصريفه لأحوال الدنيا من إهلاك الأعداء وإنجاء الأولياء.

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الدلالة على ما ختمت به سورة القمر من عظيم الملك وتمام الاقتدار، بعموم رحمته وسبقها لغضبه، المدلول عليه بتفصيل عجائب مخلوقاته في أسلوب التذكير بنعمائه، فمقصودها بالذات إثبات عموم الرحمة ترغيبًا في إحسانه، وترهيبًا من انتقامه، وعلى ذلك دل اسمها «الرحمن» لأنه العام الامتنان واسمها «عروس القرآن» واضح البيان في ذلك؛ لأن العروس مجمع النعم والجمال.

ولما ختم القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه على تعداد نعمه في الدارين وذلك من آثار الملك، وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة، وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة براعة للاستهلال، وموازنة لما حصل بالملك والاقتدار، مفتتحًا لها بأعظم النعم وهو تعليم الذكر الذي هزّ في القمر إلى الإقبال عليه بقوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ تحقيقًا للرحمة، بعد أن أبقى من آثار الجبروت: الإعجاز عن النظم، فقال جوابًا لمن كأنه قال: من هذا المليك المقتدر؟: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ومن مقتضى هذا الاسم انبثت جميع النعم، ولذا ذكر في هذه السورة أمهات النعم في الدارين.

ولما كان لا شيء من الرحمة أبلغ ولا أدل على القدرة من إيصال بعض صفات الخالق إلى المخلوق قال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝١﴾ وقدمه على جميع النعم؛ لأن أجل النعم نعمة الدين التي تتبعها نعمة الدنيا والآخرة، وهو سنام الكتب السماوية والمعيار عليها، وفائدته الإيصال إلى مقعد الصدق؛ لأنه بين ما يرضي الله وما يسخطه.

وقال ابن الزبير: "من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آيه كلها باهرة، وسوره في بديع النظم قاهرة، فبعضها أوضح من بعض في تبين إعجازها وسرعة حصول الأفهام على بلاغتها دون كبير تأمل وذلك كسورة القمر، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها؟ فلما كان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسره لتدبر القرآن، أردفه بالتنبيه على هذه النعمة فقال: ﴿الرحمن . علم القرآن﴾ وخص هذا الاسم إشعارًا برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه به، ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها خاصًا ببني

آدم بل بمشركي العرب منهم فقط، فأتبعت بسورة الرحمن تنبيهًا للثقلين وتقريرًا على ما أودع من العجائب والبراهين، فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ خطابًا للثقلين وإعذارًا، فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان".

ثم قال معللًا لتعليم القرآن: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٢﴾ وهو القوة الناطقة وهي الإدراك والحكم على الحاضر والغائب بقياسه على الحاضر، مع التمييز بين الحسن والقبيح وغير ذلك مما أودعه له تعالى، مع تعبيره عما في ضميره، فصار ذا قدرة على الكمال في نفسه والتكميل لغيره، فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن.

ودل على البيان بذكر البينات، وعددها على سبيل الامتنان، بادئًا بالكوكب الأكبر جرمًا والأعم نفعًا ليكون خضوعه أدل على خضوع غيره، بيانًا لحكمته في تدبيره وقوته في تقديره فقال: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٣﴾ عظيم جدًا في دقته وما يتفرع عليه، ومن عظمه الذي أفادته صيغة الفُعلان: أنه على نهج واحد تعلم به الأعوام والشهور والأيام والساعات والدقائق والفصول على مرّ الدهور لا يختل ذرة، دلالة على أن صانعه قيوم لا يغفل.

ثم أتبعهما خضوع ما هو للأرض كالكواكب للسماء في الزينة والنفع من النبات، مقدمًا صغاره لعموم نفعه بأن منه أكثر الأقوات، معبرًا بما يصلح لبقية الكواكب فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ أي: وجميع الكواكب وكل نبت لا ساق له ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ وهو كل ما له ساق ﴿يَسۡجُدَانِ ۝٤﴾ أي: يخضعان وينقادان لما يراد منهما، لا يعلو النجم إلى رتبة الشجر ولا الشجر يسفل إلى وهدة النجم.

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين، فكان ربما ضل فيهما خلق كما ضل أهل الوحدة أهل الجمود والاغترار، قال مسندًا التأثير فيهما إليه بعد أن أعرى ما قبلهما من مثله لإغناء الدلالة بالتغير عنه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ **حسًا** بعد أن كانت ملتصقة بالأرض ففتقها منها، وقدمها على الفعل تنبيهًا على التفكر فيما فيها من العجائب، **ومعنى** بأنه جعلها متنزل أحكامه ومسكن ملائكته، ولما كانت السماءُ مع علوها الدال على عزة موجدها، دالةً على عدله باعتدال أحوالها، أخبر أنه شرع لنا مثل ذلك العدل؛ لتقوم أحوالنا بما قام به الخافقان فقال: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٥﴾.

ولما ذكر القرآن الذي هو ميزان المعلومات، وذكّر بنعمة الميزان للمحسوسات، أقبل بالخطاب تنشيطًا إلى الامتثال، فقال معللًا: ﴿أَن﴾ أي: لأن ﴿لَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ أي: الأشياء الموزونة، والعلم والعمل المقدرّ أحدهما بالآخر، فالميزان الثاني عام لميزان المعلومات والمحسوسات. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: جميع الأفعال التي تقاس بها الأشياء ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ الذي هو آلة العدل فتخسروا ميزان أعمالكم يوم القيامة، وقد علم بتكرير الميزان ما أريد من التأكيد في الأمر به لضخامته، سواء كان معناه واحدًا أو مختلفًا.

ثم ذكر مقابل السماء، بعد أن وسط بينهما ما قامتا به من العدل اعتناءً به فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ بعد أن وضع لهم الميزان الذي لا تقوم إلا به. ولما كانت الفواكه برقتها ولطافتها منافية للأرض في يبسها وكثافتها، فكان كونها فيها عجبًا دالًا على عظيم قدرته، بدأ بها فقال: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أي: الورق والبقل الذي إذا زال عنه ثقل الحب كان مما تعصفه الرياح ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾.

ولما مضى ذكر الثقلين في قوله: «الأنام»، قال إشارة إلى أنهم المقصودون بالوعظ، منكرًا موبخًا من أنكر شيئًا من نعمه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ فمخاطبتهما بهذا دليل على أن هذه الأشياء نعم على الجن والإنس وأن لهم من ذلك ما لهم.

وكرر هذه الآية من هنا بعد كل آية؛ لأن المنكر إذا تكرر إنكاره جدًا حسن سرد ما أنكره عليه، وكلما ذكّر بفرد منه قيل له: لم تنكره؟ سواء أقر أو استمر على العناد، فالتكرار حينئذ يفيد التعريف بأن إنكاره تجاوز الحد، ولاختلاف النعم وتعددها حسن تكرير التوقيف عليها واحدة واحدة تنبيهًا على جلالتها، فإن كانت نعمة فواضح، وإن كانت نقمة فالنعمة دفعها أو تأخيرها، وكان ترتيبها في غاية الحسن، ذُكرت النعم أولًا ترغيبًا في الشكر، ثم الأهوال ترهيبًا ودرءًا للعصيان والكفر، ثم النعم الباقية لجلب المصالح، وبدأ بأشرفها وهي ذكر الجنة العليا.

ولما تقدم الامتنان بخلق الإنسان وذكر أصول النعم عليه، أتبعه تفصيلًا لما أجمل فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وعبر بما هو في غاية البعد عن قابلية البيان فقال: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ أي: طين يابس ﴿كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤﴾ الذي إذا نقر عليه صوّت صوتًا يعلم منه هل فيه عيب أم لا،

كما أن الآدمي بكلامه يعرف حاله ومآله. ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ ولما كان الجن يطلق على الملائكة لاستتارهم، بين أنهم لم يرادوا هنا فقال: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي: شيء خالص شديد الاضطراب والاختلاط، قال البغوي: "وهو الصافي من اللهب الذي لا دخان فيه"، ﴿مِّن نَّارٍ ١٣﴾ فتعين المراد؛ لأن الملائكة من نور وليس عندهم مروج ولا اضطراب بل هم في غاية الثبات على الطاعة، وقد عَرف بهذا كلُّ مضطربٍ قدرَه لئلا يتعدى طوره.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٤﴾ من خلقكم على هذا النمط الغريب، وإيداعكم ما أودعكم من القوى، وجعلكم خلاصة مخلوقاته، ومنع أحد قبيليكم عن الآخر، وتيسيره لكم الأرزاق، وحملكم على الحنيفية السمحة.

ولما ذكر هذين اللذين أحدهما ظاهر والآخر مستتر، وكان صلاح محلهما بما دبر سبحانه فيه من منازل الشروق الذي هو سبب الأنوار والظهور، والغروب الذي هو منشأ الظلمة والخفاء قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ من تسخير الشمس والقمر دائبين دائرين لإدارة الزمان وتجديد الأيام واعتدال الهواء واختلاف الأحوال، على منهاج محفوظ لا يزيغ.

ولما كان البحر لجري المراكب كالسماء لسير الكواكب، أتبعه به فقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والعذب ﴿يَلْتَقِيَانِ ١٧﴾ فجعل الحلو آية على مياه الجنة، والملح آية على بعض شراب أهل النار، لا يروي شاربه ولا يغنيه بل يحرق بطنه ويعييه. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ قال ابن برجان: "البرزخ ما ليس بصريح هذا ولا هذا، فكذلك السهل والجبل بينهما برزخ يسمى الخيف، والليل والنهار بينهما الغبشان، وبين الدنيا والآخرة برزخ ليس من أحدهما ولا هو خارج عنهما، جعل بين كل صنفين من الموجودات برزخًا ليس من هذا ولا من هذا"، ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ١٨﴾ أي: لا يتجاوزان ما حده لهما خالقهما، وهما جمادان لا إدراك لهما، فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء!

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٩﴾ فهلا اعتبرتم بهذه البرازخ فصدقتم بالآخرة لعلمكم أن موتتكم هذه برزخ بين الدنيا والآخرة؟ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١﴾ من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها وإخراج الحلي الغريبة وغيرها. ولما ذكر الخارج من البحر ذكر السائر عليه فقال: ﴿وَلَهُ﴾ أي: لا

لغيره، فلا تغتروا بالأسباب الظاهرة فتسندوا شيئًا من ذلك إليها، كما وقف أهل الاغترار بالشاهد الذين هم أجمد أهل الأرض أذهانًا فقالوا بالاتحاد والوحدة ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ من الأسفار في محل الأخطار والإنجاء عند الاضطرار وخلق مواد السفن وتعليم صنعتها وتسخيرها.

ولما أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما فيهما من المنافع، دل على أنه المتفرد بذلك بهلاك الخلق فقال: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾﴾ أي: هالك بالفعل، إذ ليس له من ذاته إلا العدم، وإن كان موجودًا فوجوده بين عدمين، أولهما أنه لم يكن، وثانيهما أنه يزول، ثم هو فيما بين ذلك يتعاوره الإيجاد والإفناء في أحواله وقواه، وأسباب الهلاك محيطة به وهو لا يراها. ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ وكل عمل أريد به وجهه خالصًا ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ﴾ أي: العظمة التي لا ترام، وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الإحسان العام، وهو صفة فعله.

ولما كان في الموت نعم لا تنكر، وكان موت ناس نعمة على ناس، مع ما ختم به الآية من وصفه بالإنعام قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾. ولما كان أدل دليل على العدم الحاجة، وعلى دوام الوجود الغنى، قال دليلًا على ما قبله: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ﴾ أي: وقت ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾﴾ من إحداث أعيان وتجديد معان أو إعدام ذلك، وذلك التعبير أدل دليل على صفات الكمال له وصفات النقص للمتغيرات وأنها عدم في نفسها، ولأنها نعم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

ولما انقضى عد النعم العظام، وكان تغير سائر الممكنات غير الثقلين على نظام واحد، وأما هما فأحوالهما؛ لتنازع العقل والشهوات لا تكاد تنضبط، بل يتغير حال الواحد منهم في اللحظة الواحدة إلى ألوان كثيرة؛ لما فيهم من المكر والبغي والاستئثار بالأمر والنهي، وكان أكثرهم يموت بناره من غير أخذ ثاره، فاقتضت الحكمة أنه لا بد لهم من يوم يفصل فيه بينهم على ميزان العدل، خصهما بالذكر فقال، آتيًا في النهاية بالوعيد؛ لأنه ليس للعصاة بعد الإنعام والبيان إلا التهديد:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ فتنتهي الآجال والأرزاق، فلا يكون لملائكتنا عمل إلا جمعكم ليقضى بينكم ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ والثقل ما يكون به قوام صاحبه، فكأنهما سميا بذلك

إشارة إلى أنهما المقصودان بالذات من الخلائق، وهذا كما قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي» وقال جعفر الصادق: "سميا بذلك لأنهما مثقلان بالذنوب". ولما كان هذا من أجلّ النعم؛ لأن بالتهديد تنزجر النفس عما يضر، فكيف بالتهديد بيوم الفصل قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠﴾.

ولما كان التهديد بالفراغ ربما أوهم العجزَ الآن عنهم، بيّن أنهم في القبضة لا فعل لأحد منهم، بدليل أنهم لا يصلون إلى جميع مرادهم مما هو في مقدورهم، فقال بيانًا للثقلين: ﴿يَٰمَعْشَرَ﴾ أي: يا جماعة فيهم العشرة والتصادق ﴿ٱلْجِنِّ﴾ قدمهم لمزيد نفوذهم وقدرتهم على الخفاء والتشكل بما ظُن عموم قدرتهم ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ أي: المستأنسين المبني أمرهم على الاجتماع، ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ لهرب من الله أو عصيان عليه في قبول أحكامه وجري مراداته أو غير ذلك.

ولما كان نفوذهم في ذاته ممكنًا ولكنه منعهم منه، بيّن ذلك بقوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ٣١﴾ أي: بتسليط عظيم منه سبحانه، وأنى لكم بالقدرة على ذلك! وهذا دليل على أنه قادر على ما يريد منهم، فلو شاء أهلكهم ولكنه يؤخرهم إلى آجالهم حلمًا منه وعفوًا منه عنهم، ولذلك قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢﴾.

ولما سلب عنهم القدرة على النفوذ المذكور تنبيهًا على أن ما يقدرون عليه إنما هو بتقديره لهم نعمة منه عليهم، أثبت ذلك بقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ٣٣ وَنُحَاسٌ﴾ قال ابن عباس: "حين تخرجون من القبور بسوقكم إلى المحشر"، فهم عارفون بأنهم لو وقعوا في مثل ذلك لم يتخلصوا منه بوجه، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٤﴾. ولما كان التهديد بهذا لطفًا بهم فهو نعمة عليهم وكذا العفو عن المعاجلة بإرساله قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ المربي لكما بدفع البلايا وجلب المنافع ﴿تُكَذِّبَانِ ٣٥﴾.

ولما كان هذا مما لم تجر عادة بعمومه بيّن لهم وقته بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ من هوله وعظمته ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: حمراء مشرقة من شدة لهيبه ﴿كَٱلدِّهَانِ ٣٦﴾ أي: ذائبة صافية، وجواب «إذا» محذوف تقديره: علمتم ذلك شهادةً أو: فما أعظم الهول، أو شيئًا دلت عليه الآيات الآتية نحو: فلا يسأل أحد عن ذنبه، وحذفه أفخم ليذهب الوهم فيه كل مذهب. ولما كان حفظ السماء عن مثل ذلك وجعلها محل الروح والرزق من أعظم

الفواصل قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ وليس شيء مما أخبرتكم به في لآخرة إلا قد أقمت لكم في الدنيا ما تهتدون به إلى العلم به.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ سؤال استعلام بل سؤال ملام، على أنه يوم طويل وشديد وهو ذو ألوان، تارة يسأل فيه وتارة لا، وكل لون منها يسمى يومًا، فإن اليوم وقت يمتد إلى انقضاء أمر مقدر فيه، ولما كان علم أحوال الشيء الظاهر أسهل قدم الإنس فقال: ﴿إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٨﴾ ولما كان هذا التمييز من أجلّ النعم لئلا يؤدي الإلباس إلى ترويع بعض المطيعين قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٩﴾.

ولما كان نفي السؤال عامًا عرّف أنه خاص بتعرف المجرم فقال معللًا له: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وهي زرقة العيون وسواد الوجوه والمشي عليها ونحو ذلك، كما يعرف المحسنون بسيماهم من بياض الوجوه وإشراقها والغرة والتحجيل ونحو ذلك، وسبب عن هذه المعرفة قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ٤٠﴾ بعد أن يجمع بينهما، كما أنهم كانوا هم يجمعون ما أمر الله به أن يفرق، ويفرقون ما أمر الله به أن يجمع، فيسحبون بها من كل ساحب أقامه الله لذلك، فيلقون في النار. ولما كان ذلك نعمة لأن كل أحد ينتفي من الإجرام ويود للمجرمين عظيم الانتقام قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤١﴾ من الجزاء في الآخرة لكل شخص بما كان يعمل في الدنيا، أو غير ذلك من الفضل.

ولما كان أخذهم على هذا الوجه مؤذنًا بخزي عظيم لهم صرح به في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ﴾ أي: ماضيًا وحالًا ومآلًا استهانةً، ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا بعد إدخالهم إياها ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٤٢﴾ أي: العريقون في قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله به ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ٤٣﴾ أي: بالغ حره الغاية، قال الرازي في اللوامع: "وقيل: حاضر، و«الآن» ليس بثابت طرفة عين؛ لأنه الجزء المشترك بين زمانين، فهم دائمًا يترددون بين عذابي النار المذيبة للظاهر، والماء المقطّع بحره للباطن الذي لا يزال حاضرًا لهم". ولما كان عذاب المجرم نعمة قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أي: المحسن إليكما أيها الثقلان بإهلاك المجرم وإنجاء المسلم؛ لطفًا بالمهددين ليرتدعوا عما يهلكهم ﴿تُكَذِّبَانِ ٤٤﴾.

ولما قدم ما للمجرم لما اقتضاه مقام التكذيب من الترهيب، عطف بما للذي أداه خوفه إلى الطاعة فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: قيامه عليه بالتدبير فهو رقيب عليه، فكيف إذا ذكر مقام المنتقم الجبار المتكبر فترك ما يغضبه وفعل ما يرضيه ﴿جَنَّتَانِ ﴿٤٥﴾﴾ عن يمين وشمال، واحدة للعلم وأخرى للعمل، ويمكن أن يراد بالتثنية المبالغة إفهامًا لكثرة الجنان وتكررها، مثل ﴿ألقيا في جهنم﴾ [ق: ٢٤] ونحو ذلك. ولما كانت هذه نعمة جامعة قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

ولما كانت البساتين لا تكمل إلا بكثرة الألوان والأغصان قال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٧﴾﴾ قال عطاء: "في كل غصن فنون من الفاكهة"، ولهذا سبب عنه قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٨﴾﴾. ولما كانت الجنان لا تقوم إلا بالأنهار قال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٤٩﴾﴾ أي: في كل مكان شاء صاحبهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾﴾. ولما كان بالمياه حياة النبات وزكاؤه قال ذاكرًا أفضله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٢﴾﴾ من وصف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله في الدنيا ما تعتبرون به.

ولما كان التفكه لا يكمل حسنه إلا مع طيب الفرش قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ وهو يدل على تمام التنعم بصحة الجسم وفراغ البال ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا﴾ فما ظنك بظواهرها ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ولما كان المتكئ قد يشق عليه القيام لتناول ما يريد قال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: مجنيهما، اسم بمعنى المفعول، كأنه عبر به ليفهم سهولة الاجتناء ﴿دَانٍ ﴿٥٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٤﴾﴾ من قدرته على عطف الأغصان وتقريب الثمار.

ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته إلا بالنسوان الحسان؛ لما بهن من عظيم اللذة الأنس قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قد قصرن طرفهن وهممهن على أزواجهن، ولهن من الجمال ما قصرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن، جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم. ولما كان الاختصاص بالشيء من أعظم الملذات قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٦﴾﴾.

ولما دل ما تقدم على نفاستهن، زاده بما أفاد أنه يكون بهن غاية سكون النفس وقوة القلب واعتدال الدم وغير ذلك من خواص ما شبههن به فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٧﴾﴾ قال أبو حيان: "شبههن بهما فيما يحسن التشبيه به، فالياقوت في إملاسه

وشفوفه، والمرجان في إملاسه وجمال منظره". ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٨﴾ مما جعله مثالًا لما ذكر من وصفهن من تشبيه شيء بشيئين؛ لبلوغ الأمر في الحسن إلى حد لا يساويه فيه شيء واحد ليشبه به.

ولما كان ألذ ما أفاده الإنسان من النعم ما كان بسبب منه، قال سارًّا لهم بذلك: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٥٩﴾ في الثواب، فهذا من المواضع التي أعيدت فيها المعرفة والمعنى مختلف. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٠﴾ مما جعله مثالًا في أن من أحسن قوبل بمثل إحسانه.

ولما عُلم مما ذكر أن هؤلاء محسنون وكان العاملون طبقات، كل طبقة أجرها على مقدار أعمالها، بين ما أعد لمن دونهم فقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ وهم أصحاب اليمين. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٢ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٣﴾ أي: خضراوان تضربان من شدة الري إلى السواد، من الدهمة، قال الأصبهاني: "الغالب على هاتين النبات المنبسط على الأرض، وفي الأوليين الأشجار والفواكه". ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أي: المحسن إلى العالي منكما ومن دونه بسابغ نعمته وسعة رحمته ﴿تُكَذِّبَانِ ۝٦٤﴾.

ولما ذكر ما يدل على ريهما، حققه بقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٥﴾ أي: تفوران بشدة، ولم يذكر جريهما، فكأنهما يرويان جنتهما ولا يبلغان الجري، والنضخ دون الجري وفوق النضح. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٦﴾ مما جعله مثالًا لذلك من الأعين التي تفور بحيث تروق ناظرها؛ لصعودها بقوة نبعها وترشيشها. ولما ذكر الري وسببه، ذكر ما ينشأ عنه فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٨﴾.

ولما كان ما ذكر لا تكمل لذته إلا بالأنيس قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ أي: نساء بليغ ما فيهن من الخير، أصله خيِّر؛ لأن خيْر الذي للتفضيل لا يجمع جمع سلامة، ولعله خفف لخفتهن في وجودهن وجميع شأنهن ﴿حِسَانٌ ۝٦٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٠﴾.

وبيّنهن بقوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾ أي: على أزواجهن، ومحبوسات صيانة عن التبذل ﴿فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧١﴾ جزاء لمن قصر نفسه على الله فكف جوارحه عن الزلات وصان قلبه عن الغفلات ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٢ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٤﴾.

ولما كان الأخضر أبهج الألوان قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ﴾ قال في القاموس: "وهو الكامل من كل شيء، والسيد، والذي ليس فوقه شيء"، وقال الخليل: "كل جليل نفيس فاخر"، ومنه قول النبي ﷺ: «فلم أرَ عبقريًا من الناس يفري فري عمر»، ﴿حِسَانٍ ۝٧٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٦﴾.

ولما دل ما ذكر في هذه السورة من النعم على إحاطة مبدعها بأوصاف الكمال، كانت ترجمة ذلك قوله في ختام نعم الآخرة، مناظرة لما تقدم من ختام نعم الدنيا، معبرًا هناك بالبقاء لما ذكر قبله من الفناء، وهذا بما من البركة إشارة إلى أن نعمه لا انقضاء لها: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ قال ابن برجان: "«تفاعل» من البركة، ولا يكاد يذكره جل ذكره إلا عند أمر معجب"، ﴿ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٧﴾ أي: الإحسان الذي لا يحاط به، فهو المتصف بالجمال الأقدس المقتضي لفيض الرحمة على أوليائه.

وقد انعطف آخر السورة على أولها على وجه أعم، فيشمل الإكرام بتعليم القرآن وغيره، والانتقام بإدخال النيران وغيرها.

سورة الواقعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها شرح أحوال الأقسام الثلاثة المذكورة في الرحمن للدلالة على ما خُتمت به من الجمال والجلال، ولو استوى الناس لم يكن ذلك من بليغ الحكمة، واسمها «الواقعة» دال على ذلك بتأمل آياته وما يتعلق الظرف به.

لما صنف سبحانه الناس في تلك إلى ثلاثة أصناف: مجرمين وسابقين ولاحقين، وعلل ذلك بأنه ذو الانتقام والإكرام، شرح أحوالهم في هذه السورة، وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه فقال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١﴾ وهي النفخة الثانية التي يكون عنها البعث الأكبر، ويجوز أن يكون «إذا» منصوبًا بالمحذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب فيكون أهول، أي: إذا وقعت كانت أمورًا عظيمة.

﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ﴾ لمن يشاء الله خفضه من عظماء أهل النار وغيرهم ﴿رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ لمن يشاء الله من ضعفاء أهل الجنة وغيرهم. ثم قال مبدلًا من الظرف الأول بعض ما يدخل في الخفض والرفع: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي: فتت ﴿بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ﴾ بسبب ذلك ﴿هَبَآءٗ﴾ غبارًا شديد الانمحاق ﴿مُّنۢبَثّٗا ۝٦﴾ أي: منتشرًا متفرقًا بنفسه، فهو كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل في كوة.

﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: أصنافًا لا تكمل حكمة صنف منها إلا بكونها قسمين: أعلى ودونه ﴿ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨﴾ أي: جهة اليمين وأعمالها، ثم فخم أمرهم بالتعجيب فقال: ﴿مَا﴾ وهو مبتدأ ثان ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٩﴾ والجملة خبر عن الأولى، والرابط تكرار المبتدأ بلفظه، قال أبو حيان: "وأكثر ما يكون ذلك في التهويل والتعظيم".

وقال ابن الزبير: "لما تقدم الإعذار في السورتين المتقدمتين، وأعلمهم في هذه بانقسامهم الأخروي، تجردت للتعريف بأحوالهم، فقال في آخر القصص الأخراوية فيها: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء، وقد قدم حالهم الدنياوي في السورتين قبل".

ولما ذكر الناجين أتبعهم أضدادهم فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٠﴾ أي: جهة الشؤم وموضعها وأعمالها، ثم عظم ذنبهم فقال: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١١﴾. ولما ذكر القسمين

وكان كل منهما قسمين، ذكر أعلى أهل القسم الأول ترغيبًا في حالهم، ولم يقسم أهل المشأمة ترهيبًا من سوء مآلهم فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أي: إلى أعمال الطاعة أصحاب الجنتين الأوليين في الرحمن ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ أي: هم المستحقون للوصف بالسبق لا غيرهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١﴾ قال الرازي في اللوامع: "المقربون تخلصوا من نفوسهم، فأعمالهم كلها لله دينًا ودنيا"، ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ أي: الذي لا نعيم غيره لأنه لا كدر فيه بوجه ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾ وهم الأنبياء الماضون عليهم السلام ومن آمن بهم من غير واسطة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ١٤﴾ وهم من آمن بمحمد ﷺ بغير واسطة، فالصحابة كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم بإحسان إلى القرن الثالث، ثم تناقص الأمر إلى أن صار السابق أقل من القليل؛ لرجوع الإسلام إلى ما بدأ عليه من الغربة «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء».

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١﴾ بحيث يجدون لآخره من اللذة ما لأوله ﴿وَحُورٌ عِينٌ ٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: شيئًا مما لا ينفع ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ما يحصل به الإثم أو النسبة إليه، بل حركاتهم وسكناتهم كلها رضى الله، وما قطع قلوب السائرين إلى الله إلا هاتان الخصلتان.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧﴾ عبر عنهم بما أفهم أنهم أولو القوة في الأعمال والبركة في الأحوال ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨﴾ أي: لا شوك له مع انثناء أغصانه، من خضد الشوكَ: قطعه، والغصنَ: ثناه، وفي ذكر هذا تنبيه على أن كل ما لا نفع فيه أو فيه نوع أذى، له في الجنة وجود كريم لأنها إنما خلقت للنعيم ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ٣١﴾ أي: جارٍ في منازلهم من غير أخدود ولا يحتاجون إلى جلبه ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٣٨﴾.

ولما أنهى وصف ما فيه أهل هذا الصنف على أنهى ما يكون لأهل البادية، بعد أن وصف ما للسابقين بأعلى ما يمكن لأهل الحاضرة، وكان قد قايس في السابقين بين الأولين والآخرين، فعل هنا كذلك فقال: ﴿۞ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٤١﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم أتبعهم أضدادهم فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤٣﴾ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤٤﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَظِلّٖ﴾ سماه ظلًا لترتاح النفس إليه، ثم نفى عنه نفع الظل وبركته لينضم حرق اليأس بعد الرجاء إلى حرق اليحموم، فتصير الغصة غصتين فقال: ﴿مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٦﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٧﴾﴾. وعلله بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أكده وإن كان فيهم أهل الضر؛ لاجتماعهم في الاسترواح إلى منابذة الدين باتباع الشهوات ﴿كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: في سعة من العيش، منهمكين في الشهوات مستمتعين بها متمكنين فيها لترامي طباعهم إليها، فأعقبهم الإخلادُ إلى الترف عدمَ الاعتبار في الدنيا والتكبرَ على الدعاة إلى الله، وفي الآخرة شدةَ الألم لرقة أجسامهم المهيأة للترف بتعودها بالراحة ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٩﴾﴾.

ولما وصفهم بالترف والإصرار على السرف، وكان ذلك يلازم البطالة، وكان يلزم عنها الغباوة والفساد الموجب للشقاوة، ذكر إنكارهم لما لا أبين منه فقال: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ولما كانت أفهامهم واقفة مع المحسوسات لجمودهم قالوا: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٢﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥٤﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٥﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٦﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٧﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي: الإبل العطاش لأن بها الهيام وهو داء، كما قال القزاز: "يصيب الإبل فتشرب ولا تروى". ثم قال تهكمًا ونكاية: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ﴾ أي: ما يعد لهم أول قدومهم، كنزل الضيف كرامة له ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٩﴾﴾ أي: الجزاء الذي هو حكمة القيامة، وإذا كان هذا نزلهم فما ظنك بما يأتي بعده؟

ولما ختم ذكر الواقعة على وجه بين فيه حكمتها وكانوا ينكرونها، دل عليها بقوله: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أنا خلقناكم فتصدقوا بمثله وهو الإعادة. ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٦١﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٦٢﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فقصرنا عمر هذا وربما كان في غاية صحة البدن فلو اجتمع الخلق كلهم على إطالته ما قدروا، وأطلنا

عمر هذا وقد يكون في غاية ضعف البدن ولو تمالؤوا على تقصيره لعجزوا، وأنتم معترفون بأنه تعالى رتب أفعاله على مقتضى الحكمة، فلو كان الموت لمجرد القهر لكان نقصًا لكونه يعم الظالم والمظلوم، ولكان جعل الإنسان مخلدًا أولى، ففائدته غير هذا وهي الحمل على إحسان العمل للقاهر، خوفًا من العرض عليه والمحاسبة بين يديه.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٣﴾ بالموت ولا عاجزين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ أي: بمسخ صوركم، ومن قدر عليه قدر على الإعادة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الترابية لأبيكم آدم واللحمية لأمكم حواء والنطفية لكم، وكلها تحويل من شيء إلى غيره ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٥﴾.

ولما كانوا أعلم بالنبات الذي هو الآية العظمى للبعث قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٦ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: تنبتونه بعد البذر وتحفظونه حتى ينمو ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٧﴾.

ثم قال موضحًا لأنه ما زرعه غيره: بأن الفاعل الكامل من يحفظ ما صنعه، وإذا أراد إفساده لم يمنعه أحد: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٨﴾ قال ابن برجان: "الفكِه هو المتردد في القول الذاهب فيه كل مذهب"، فتركتم أشغالكم التي محلها النهار، وأقمتم تندمون على إنفاقكم أو معاصيكم التي سببته ولم تعرجوا على غيره، كما تفعلون عند المسرات، قال الكسائي: "هو من الأضداد، تقول العرب: تفكهت أي: تنعمت، وتفكهت أي: حزنت"، ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٩﴾ ونبه بإضرابهم على شدة اضطرابهم من ذلك، فهم تارة يجزمون باليأس والشر، وتارة ينسبونه إلى سوء تصرفهم فقال: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٧٠﴾.

ولما وقفهم على قدرته في الزرع، أتبعه التوقيف عليها في سببه الذي هو الماء الذي لا سبب لهم في شيء منه فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ ولما كان منه ما لا يشرب، وكانت النعمة في المشروب أعظم قال: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٧٢ لَوْ نَشَآءُ﴾ ولما كانت تحول الماء ملحًا أكثر من تحول النبت حطامًا لم يؤكد، وللتنبيه على أن السامع لما مضى صار في حيز المعترف فقال: ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى في طاعة الذي أوجده لكم ومكنكم منه وجعله ملائمًا لطباعكم مشتهى لنفوسكم نافعًا لكم.

ولما لم يكن لمخلوق سبب في إنزال الماء من العلو، أتبعه ما لا سبب لمخلوق فيه في السفل فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ﴾ ولما كان المراد نارًا مخصوصة توقفهم على تمام قدرته بإيجاد الأشياء من أضدادها قال: ﴿ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧٤﴾﴾ بعد أن كانت خفية في الزند لا يظن أن فيه نارًا، فكان مثل التورية التي يظهر فيها شيء ويراد غيره، ثم صار بعد ذلك الخفاء إلى ظهور عظيم، وذلك أنهم يقطعون غصنًا من شجر المرخ وآخر من العفار ويحكّونهما فتنقدح منهما النار، على أنه في كل شجر وإنما خُصّا لسهولة القدح منهما، وقد قالوا: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٥﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ لما أخبرنا به من البعث والنار وما ينشأ فيها من شجر الزقوم وغيره ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: الجياع الذي أقوت بطونهم من النازلين بالأرض القواء، وكلُّ آدمي مهيأً للقواء -أي: الفقر- فهو وصفه وإن لم يكن في الحال كذلك، وقال الرازي: "والنار من أعظم الدلائل على البعث، إذ فيها انتقال من شيء إلى شيء، وإحداث شيء من شيء، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه".

﴿فَسَبِّحْ﴾ ولما كان تعظيم الاسم أقعد في تعظيم المسمى قال: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك بهذا البيان، ولم يحذفوا ألف الوصل هنا كما حذفوه في البسملة لكثرة دورها، وإثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾﴾.

ولما وصلت الدلالة إلى غاية الوضوح، مع إعجاز الخلائق على أن يأتوا بمثله، **أما من جهة الجواب** عن شبههم فلكونه يطابق ذلك تمام المطابقة، ويزيد بما شاء الله من المعارف من غير أن يدع لبسًا، **وأما من جهة المفردات** فلكونها النهاية في جلالة الألفاظ وجمع المعاني، **وأما من جهة التركيب** فلكون كل كلمة أحق في مواضعها حتى لو قدم شيء منها أو أخر لاختل المراد، **وأما من جهة الترتيب** فلكون كل جملة منتظمة بما قبلها انتظام الدر اليتيم في العقد النظيم، فثبت أن الله تعالى أرسل الآتي بهذا القرآن ﷺ بالهدى وبالحق، فلذلك سبب عنه قوله: ﴿۞فَلَآ أُقْسِمُ﴾.

ولما كان نزول القرآن نجومًا قال: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ وأقسم لنا على ذلك ونحن أقل قدرًا وأضعف أمرًا، إعلامًا برحمته التي من عظمها أنه لا يتركنا سدى، كل ذلك ليصلحنا باتباع أمره والوقوف عند زجره ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٨٠﴾﴾

ظهرت فيه أفانين إنعامه تعالى، ومن كرمه أنه من الملك الأعلى إلى خير الخلق بسفارة روح القدس وبأفصح الألسن وعلى وجه أعجز العرب ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٨١﴾ أي: مصون لنفاسته في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٨٢﴾ وهم رؤوس الملائكة. ولما ذكر كرمه أتبعه شرفه بشرف منزله فقال: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٣﴾.

ولما قدّم للكتاب العظيم هذه الأوصاف العالية قال منكرًا معجّبًا: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨٤﴾ أي: تظهرون بسببه غير ما تبطنون، تظهرون أنه كذب وأنتم تعلمون صدقه بعجزكم عن معارضته، أو: تلاينون أيها المؤمنون من يكذب به أو يتوصل ولو على وجه خفي إلى الطعن فيه، قال الرازي: "والفرق بين المداراة والمداهنة يرجع إلى القصد، فما قصد به غرض سوى الله فهو المداهنة، وما قصد به أمر يتعلق بالدين فهو المداراة"، فهو على هذا إنكار على من سمع أحدًا يتكلم في القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة.

وأهل الاتحاد أول من صوّبتْ إليه هذه الآية، فإنهم تكلموا في القرآن على وجه يبطل الدين أصلًا ورأسًا، ومن يأوّل لهم أو ينافح عنهم ويعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالفةً لإجماع الأمة، أخس حالًا منهم، فإن مراده إبقاء كلامهم الذي لا أفسد للإسلام منه، من غير أن يكون لإبقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه.

﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾ أي: ما تنتفعون به من الكتاب وهو نفعكم كله ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٥﴾ وقال ابن برجان: "وتجعلون مكان الشكر على رزقي إياكم من القرآن والإيمان وبركات السماء: التكذيب". ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٦ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٧﴾ أي: ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر، ولم يقل: تبصرون، لئلا يظن أن لهم إدراكًا بالبصر لشيء من البواطن ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ على شدة قربكم منه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٨﴾ مع تحديقكم إليه. ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ﴾ أيها المكذبون ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٩﴾ أي: مقهورين مملوكين محاسبين ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٠﴾ في أنكم غير مقهورين على الإحضار على الملك وأنه ليس لغيركم أمركم.

وهذا إلزام لهم بالبعث حاصله: أنه تعالى إن كان لا يعيدكم فليس هو الذي قدّر الموت، وإن لم يقدره فما لكم لا ترفعونه عنه؟ وإن قلتم: إنه مقدّر لا يمكن علاجه، فالبعث

كذلك، فأنكروا كليهما أو أقروا بهما وإلا فليس إلا العناد، فإن قلتم: نحن لا نعلم أنه قدّره، فاعلموا أنه لو لم يكن بتقديره لأمكنت مقاومته لا سيما والنفوس تكرهه.

ولما كان ذلك لجمع الخلائق ثم بعثهم ليجازوا وينقسموا إلى أزواج ثلاثة قال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٩١﴾ الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله راحة ورحمة وما ينعشه من نسيم، ومعنى قراءة يعقوب بالضم: طمأنينة وحياة لا موت بعدها ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: رزق عظيم ونبات حسن وأزاهير طيبة الرائحة، ولما ذكر هذه اللذاذة ذكر ما يجمعها وغيرَها فقال: ﴿وَجَنَّتُ﴾ ولما كانت جنان الدنيا قد يكون فيها نكد قال: ﴿نَعِيمٍ ۝٩٢﴾ بالإضافة؛ إعلامًا بأنها لا تنفك عنه.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٣ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٤ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٥﴾ أي: الذين وُجِّهوا وجهة هدى فزاغوا عنها لتهاونهم في البحث. ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٦﴾ أي: ماء متناه في الحرارة بعد ما نالوا من العطش.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٧ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في هذه السورة من البعث والأدلة عليه ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٨﴾ قال الأصبهاني: "قال قتادة: إن الله تعالى ليس تاركًا أحدًا حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك، وأما المنافق فأيقن يوم القيامة حيث لا ينفعه". ولما تحقق له هذا اليقين سبب عنه أمره بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٩﴾.

وقد انطبق آخر السورة على أولها في الإخبار بالبعث وتصنيف الخلائق فيه إلى الأصناف المذكورة في أولها، وزاد الآخر بأن اعتنق بدليله واتفق مع أول التي بعدها.

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها بيان أن عموم الرسالة مناسب لعموم الإلهية تحقيقًا لأنه سبحانه مختص بجميع صفات الكمال، المقتضي لجهاد من عصى رسول الله ﷺ بالسيف وما ترتب عليه من النفقة، ردًا لهم عن النقائص الجسمانية وإعلاء إلى الكلمات الروحانية التي دعا إليها الكتاب، حذرًا من سوء الحساب.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أحاطت إلهيته بكل موجود ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي وسعهم جوده ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص أهل ولا يته بما يرضيه من العبادات.

ولما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث، جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه بالبرهان والسنان، فقال تعالى كالتعليل لآخر الواقعة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾.

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير العاصمي في برهانه: "لما أشار في الواقعة إلى قبائح مرتكباتهم، أعقب ذلك تنزيهه تعالى عنها فقال: ﴿فسبح باسم ربك﴾ [الواقعة: ٦٩] أي: نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترائهم، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿سبح لله ما في السماوات والأرض﴾ أي: سبح باسم ربك، فهي سنة العالم بأسرهم".

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ودل على ذلك بما لا مطمع فيه لغيره فقال: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ﴾ أي: بالأحدية للعقل بأدلته الظاهرة ﴿وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ بالصمدية، والعطف للدلالة على تمكن الوصف وإحاطته وأنه واقع بكل اعتبار؛ لأنها لما كانت متضادة كانت لو أعريت عن الواو لربما ظن أنها مقيدة بحيثية مثلًا، ولما جمعت الأوصاف إحاطة العلم والقدرة أعلم نتيجة ذلك فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سنًا للتأني ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ قال أحمد بن حنبل: "بعلمه".

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾ حسًّا بالبعث ومعنى بالإبداء والإفناء، ودل عليهما بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ ولما كان في هذا إظهار أخفى الأشياء، أتبعه علم ما هو عند الناس أخفى ما يكون فقال: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ أي: ما يصحبها فتخفيه.

ولما قامت الأدلة على تنزيهه سبحانه عن كل شائبة نقص، وختم بالعلم بالضمائر التي أجلها الإيمان، قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾ في إظهار دينه، ورغبهم في ذلك بطلب اليسير مما أعطاهم، وزهدهم فيه بقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ بما يرضي من استخلفكم في تمهيد سبيله، وخافوا من عزلكم من الخلافة بانتزاعها من أيديكم بتولية غيركم أمرها، ولما أمر بالإنفاق ووصفه بما سهله رغب فيه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ أي: الذي أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمة هذه النبي الكريم ﷺ وشرفكم به ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾.

ولما وصفه بالربوبية دل عليها بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ التي أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والغفلة الحاملة على تراكم الجهل، فمن آتاه سبحانه العلم والإيمان فقد أخرجه منها ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩﴾. ولما أمرهم بالإيمان والإنفاق وبدأ بالإيمان لأنه الأساس، ورغب بالإشارة بالرأفة إلى أن من توصل إليه بشيء زاده من فضله، عطف عليه الترغيب في التوصل إليه بالإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لتكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التي هي أعظم الرحمة، فإنه ما بخل أحد عن وجه خير إلا سلط الله عليه غرامة في وجه شر ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جميعًا، يزول عن المنتفع به ويبقى لله بقاء الإرث، ومن تأمل أنه زائل هو وكل ما في يده هان عليه الجود بنفسه وماله.

﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ﴾ ماله وجميع قواه وما يقدر عليه ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ لما نال المنفقَ إذ ذاك من كثرة المشاق لضيق المال، وذلك مستلزم لكون المنفق أنفذ بصيرة ونفقته أشد نفعًا، وفيه دليل على فضل أبي بكر فإنه أول من أنفق، ولما كان المراد بالإيمان خدمة الرحمن، وكان الإنفاق لا يكمل تصديقه للإيمان إلا ببذل النفس قال: ﴿وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً﴾ وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ ولما كان المراد التفضيل على من أنفق وقاتل بعد ذلك لا على من استغرق كل زمان بعده به، أدخل الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ ولما كان التفضيل مفهمًا اشتراك الكل في الفضل، صرح به ترغيبًا في الإنفاق على كل حال فقال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ ولما كان التفضيل مناط العلم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠﴾ فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيات.

ولما توفرت الدواعي على البذل، أثمر قوله مسميًا الصدقة قرضًا الذي هو إخراج بعوض، ترغيبًا فيها لما أعد عليها من الجزاء المحقق، فكيف إذا كان مضاعفًا: ﴿مَّن﴾ وأكد بالإشارة بقوله: ﴿ذَا﴾ لأجل ما للنفوس من الشح ﴿ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ عطاء من ماله هو على صورة القرض لرجائه الثواب ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾.

وعظم هذا الأجر الكريم ببيان ما لأهله في وقته فقال: ﴿يَوۡمَ تَرَى﴾ وأشار إلى أن المحبوب من المال لا يخرج عنه ولا سيما مع الإقتار إلا من وقر الدين في قلبه بتعبيره بالوصف فقال: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ الذي يوجب إبصارهم لجميع ما ينفعهم فيأخذوه وما يضرهم فيتركوه وذلك بقدر أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها بنور العلم ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: حيث ما توجهوا ولذلك حذف الجار ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ لأنهما أشرف جهاتهم ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ولما كان النعيم لا يتم مع خوف الانقطاع قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ لأن الله أورثكم ما لا يورث عنكم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾.

وزاده تعظيمًا ببيان ما لأضدادهم من النكال، فقال مبدلًا من الظرف الأول: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا﴾ وكأن الفعل جرد في قراءة الجماعة لاقتضاء الحال الإيجازَ خوفَ الفوت؛ لأن المسؤولين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف، وقد حققت المعنى قراءة حمزة: ﴿أنظِرونا﴾ أي: أخرونا في المشي وأمهلوا علينا ﴿نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ هذا الذي نراه لكم ولا يلحقنا منه شيء، كما كنا في الدنيا نرى إيمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشيء جزاء وفاقًا.

وسبب هذا أنهم يعطون مع المؤمنين نورًا خديعة لهم بما خادعوا في الدنيا لتعظم عليهم المشقة بفقده، لأنه لا يلبث أن يبعث الله عليهم ريحًا وظلمة فتطفئه، وإلى ذلك ينظر قول المؤمنين: ﴿أتمم لنا نورنا﴾ أي: لا تطفئه كالمنافقين ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ كما كنتم في

الدنيا لا تزالون مرتدين على أعقابكم عما يستحق الإقبال ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾ ويصح أن يراد بالوراء الدنيا؛ لأن هذا النور إنما هو بسبب ما عملوا فيها ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ عكس ما أرادوا من حفظ ظواهرهم في الدنيا مع فساد بواطنهم.

﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ﴾ أي: كنتم بما كان لكم من الذبذبة تختبرون ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ فتخالطونها باختبار أحوال الدين حتى يظهر لكم فيه أمور محسوسة لتخلصوا فيه من الشكوك، وتبعتم أيضًا الأمور التي كنتم تفتنون بها من الشهوات ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ فأمهلتم لتروا الأمر عيانًا ولم تفعلوا كما فعلنا من الإيمان بالغيب، وانتظرتم أيضًا الدوائر بأهل الإيمان لتظهروا النفاق.

﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ بتكليف أنفسكم الشك بذلك التربص ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي: ما تتمنون من الأطماع الفارغة التي لا سبب لها غير شهوة النفس ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٣﴾ وهو الشيطان، فإنه ينوع لكم بغروره التسويف، فلا يزال حتى يوقع الإنسان، فإذا أوقعه واصل عليه مثل ذلك حتى يتمادى، فإذا تمادى صار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾.

ولما كان هذا وعظًا شافيًا للقلوب، أنتج قوله حاثًا على الإقبال على كتابه الذي رحم به عباده، زاجرًا هذا الزجر العظيم لئلا يظن ظان أن القرآن غير كاف، مخوفًا لهم بما وقع لأهل الكتاب من الإعراض عن كتابهم: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ أي: الزمان الذي ضربناه لشرفهم من أول إيتائهم الكتاب الذي من شأنه ترقيق القلوب.

﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ حتى كانت لا تنفعل للطاعات، فكانوا كل قليل في تعنت على أنبيائهم، فانجروا إلى الهلاك باتباع الشهوات، قال القشيري: "وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة، فإن الشهوة والصفوة لا تجتمعان"، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٥﴾ أي: عريقون في الخروج من دائرة الحق التي حدها لهم الكتاب.

ولما كان الموجب الأعظم للقسوة إنكار البعث، وكان العرب يزيدون على أهل الكتاب من موجبات القسوة به، وكان عمل العامل بما يدل على القسوة: عمل من ينكره، قال مهددًا لهم به: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ فكذلك يحيي الأموات بجمع أجسامهم وإفاضة الأرواح عليها ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٦﴾.

ثم أنتج مما مضى ما يعرّف أن من أعظم ما دل على الخشوع الصدقة بالإنفاق، وأكده لأجل من ينكر بركة الصدقة عاجلًا أو آجلًا تقيّدًا بالمحسوسات فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ على الضعفاء الذين إعطاؤهم يدل على الصدق في الإيمان؛ لكون المعطى لا يرجى منه نفع دنيوي، وعبّر بـ«التفعل» الدال على التكلف، حثًا على حمل النفس على التطبع بذلك حتى يصير لها خلقًا في غاية الخفة عليها ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٧﴾.

وبين الحامل عليها ترغيبًا فيها، فقال عاطفًا بالواو إشارة إلى التمكن في جميع هذه الصفات: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ أي: الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما حقه أن يُصدَّق، وقال القشيري: "الصدّيق من استوى ظاهره وباطنه، ويقال: هو الذي يحمل الأمر على الأشق ولا ينزل إلى الرخص ولا يحتاج للتأويلات"، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ وزاد الأمر عظمًا بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾.

ولما ذكر حال الفريقين فتقرر أمر الآخرة فعلموا أنها الحيوان الذي لا انقضاء له من إكرام أو هوان، وكان الموجب للهوان فيها هو الإقبال على الدنيا ونسيان الآخرة، قال منتجًا مما مضى، مبينًا لحقيقة ما يرغب فيه المركب على الشهوة من العاجلة بما يزهّد فيه، مصدّرًا له بما يوجب غاية اليقظة: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ وأكد بزيادة «ما» لما للناس من الغفلة عنه فقال: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ﴾ ولما كان ذلك مختصًا بأهل الشهوات قال: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: يجر إلى الترفع الجار إلى الحسد والبغضاء ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾.

ولما كان بعض الناس يتنبه فيشكر وبعضهم يعمى فيكفر، وكان القسم الثاني أكثر لأن حضورها وإقبالها يعمي أكثر القلوب عن حقارتها، ضرب لذلك مثلًا فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ﴾ أي: كونًا كأنه مطبوع عليه،

وأبلغ تعالى في تقرير اضمحلاله بالإتيان مع فعل الكون ببناء المبالغة؛ لأن السياق لتقرير أن الدنيا عدم وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال فقال: ﴿حُطَٰمٗاۖ﴾ ولما ذكر الظل الزائل ذكر أثره الدائم فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ فهو تقسيم للدنيا على الحقيقة؛ لئلا يُظن مِن حصرها فيما ذكر أنها لا تكون إلا كذلك، بل المذكور أولًا هو أغلب أحوالها وعاقبته النار، وما كان منها من إيمان وطاعة تؤدي إلى أخذها تزودًا ونظرها اعتبارًا وتعبدًا، فهو آخرة لا دنيا ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٩﴾.

ولما بين أن الدنيا زوال والآخرة بقاء أنتج قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي: افعلوا فعل من يسابق شخصًا فهو يجتهد الغاية في سبقه، وربما كان قرينه بطيئًا فسار هو الهوينا، وأما المسارعة فتكون بالسرعة من الجانبين، فآية آل عمران(٥٧) الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا﴾ فما ظنك بطولها؟ ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فآية آل عمران تحتمل الطول وجميع السماوات والأرض على هيئتها، وظاهر هذه عرض سماء واحدة وأرض واحدة.

﴿أُعِدَّتۡ﴾ وهذا يدل على أن الجنة موجودة الآن في آيات كثيرة، فهذه الجنة غير التي في آل عمران، وتلك أبلغ؛ للتصريح بالجمع وعدم التصريح بالعرض؛ لكونها في سياق صرح فيه بالجهاد، وقد جرت السنة الإلهية بإعظام المواعيد للمجاهدين؛ لشدة الخطر في أمر النفس وصعوبة الخروج عنها وعن جميع المألوفات ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٠﴾.

ولما كانت الدنيا كما أنها منزل رخاء هي دار بلاء، وكان قد اقتصر سبحانه في الآية السالفة على الأول، وجعل المسابقة إلى السعادة نتيجة الزهد فيها، تحركت النفس إلى السؤال عما يعوق عن الخير من البلاء، فقال مسليًا عنه؛ لأن النفوس أشد تأثرًا بالمكاره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا﴾ هي كائنة ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ أي: مكتوب لأنه مقدر مفروغ من تقديره من القدم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢١﴾.

أعلمناكم بذلك: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ فإنه قد فُرغ منه فلا يتصور فيه تغيير؛ لأن الحزن لا يدفعه ولا السرور يجلبه، والقراءة بالمد تدل على أن

---

(٥٧) يعني: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض﴾ الآية: ١٣٣.

النعم لا بد في إيجادها وإبقائها من حافظ، وأنها لو خليت ونفسها لفاتت لأنه ليس لها من ذاتها إلا العدم، وقد بين سبحانه أن في تقديره هذا من السر أن من وطن نفسه على فقد ما لديه، قبِل تأثُّرَه بالعدم والوجدان، فلم يفتره ذلك عن المسابقة المذكورة، فالمنهي عنه التمادي مع الحزن حتى يخرج عن الصبر، ومع الفرح حتى يلهي عن الشكر، لا أصل المعنى لأنه ليس من الأفعال الاختيارية.

ولقد عزى الله المؤمنين رحمة لهم في مصائبهم وزهدهم في رغائبهم بأنّ أَسَفهم على فوت المطلوب لا يعيده، وفرحَهم بحصول المحبوب لا يفيده، وأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بادخاره عند الله، وذلك بأن يقول في المصيبة: قدر الله وما شاء فعل، وفي النعمة: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ [النمل: ٤٠]، فلا يزال خائفًا عند النقمة راجيًا أثر النعمة قائلًا في الحالين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأكمل من هذا أن يكون مسرورًا بذكر ربه له في كلتا الحالتين.

ولما كان الإمعان في استجلاب الأسى إنما هو من اليأس ونسيان النعم، وزيادةُ الفرح الموصل للمرح إنما يجره الكبر والبذخ، قال مبينًا أن المنهي عنه التمادي مع الجبلة في الحزن والفرح: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ قال القشيري: "الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها، والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر".

ولما تقدم الحث على الإنفاق، وكانت لذة الفخار والاختيال التي أوصل إليها المال حاملة على البخل خوفًا من الإقتار الموجب عند أهل الدنيا للصغار، قال تعالى واصفًا للمختال أو لـ«كل»: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كل من يعرفونه ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾ إرادة أن يكون لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة فيحامون عنهم، أو أنهم يوجبون بأعمالهم من التكبر والبطر في الأموال بُخلَ غيرهم؛ لأنه إذا رآهم عظموا بالمال بخل ليكثر ماله ويعظم، وذلك كله نتيجة فرحهم بالموجود وبطرهم عند إصابته، فكانوا آمرين بالبخل لكونهم أسبابًا له ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾.

ولما ظهرت الأدلة ولم يبق لأحد علة، وكان فيما تقدم أن الآدمي إذا خلي ونفسه ارتكب ما لا يليق من التفاخر ونحوه وترك ما يراد به من الخير، جهلًا منه وانقيادًا مع طبعه، قال معلمًا أن من أعرض كُلِّف الإقبال بالسيف، فإن الحكيم العظيم يأبى أن يُخْلي المعرض عن

بينة ترده عما يطغيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل والحكمة، ولعله كل ما يقع به التقدير حسًا أو معنى، وهو أقرب الأشياء إلى الكتاب في العلم بمطابقة الواقع لما يراد، وتعقيبه به إشارة إلى أن عدم زيغه لعدم حظ ونحوه، فمن حكّم الكتاب خاليًا عن حظ نفس وصل إلى المقصود ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

ولما كان الإعراض بعد الإبلاغ في الإيضاح موجبًا للرد عن الفساد بأنواع الجهاد، قال مهددًا وممتنًا: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ولما كان التقدير: ليعلم الله من يعصيه ويخذل أولياءه بوضع بأسه في غير ما أمر به نصرة لشيطانه وهواه، عطف عليه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ عِلم شهادة لإقامة الحجة، فيكون الجزاء على العمل لا العلم ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: يقبل مجردًا على الاستمرار على نصر دينه ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ بالذب عنهم والدعاء إليهم، كائنًا ذلك النصر ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بسبب تصديقه لما غاب عنه من الوعد والوعيد، أو غائبًا عن كل ما أوجب له النصرة.

فلم يدَع سبحانه في هذه الآية لأحد عذرًا: بالرسل الذين هم الجنس مع تأييدهم بما ينفي عنهم اللبس، والكتاب المعجز، والعقل الذي عرف العدل، والسلاح الذي يرد أولي الجهل، فبيان الشرائع بالكتاب، وتقويم أبواب العدل بالميزان، وتنفيذ هذه المعاني بالسيف، فإن مصالح الدين من غير هيبة السلطان لا يمكن رعايتها، فالملك والدين توأمان، فالدين بلا ملك ضائع، والملك من غير دين باطل، ومن خرج عن الكتاب والميزان فله الحديد وهو السيف؛ لأن تشويش الدين منه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ولما لم يكن هنا داع إلى أكثر من هذا التأكيد، بخلاف ما أشير إليه من الإخراج من الديار المذكورة في الحج(٥٨) ونحوه قال: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾﴾ فهو غير مفتقر إلى نصر أحد، وإنما دعا عباده إلى نصر دينه ليقيم الحجة عليهم، فيرحم من امتثل المأمور، ويعذب من ارتكب المنهي، لبنائه هذه الدار على الأسباب.

ولما عم الرسل في البينات فتوقع السامع التعيين، خص من بينهم من أولي العزم أبوين جامعين في الذرية والرسالة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدلٍ إليهما بأمتن الأسباب ﴿فَمِنْهُم﴾ أي:

---

(٥٨) يعني: ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم﴾ إلى قوله: ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ الآية: ٤٠.

ذرية هذين الصنفين ﴿مُّهۡتَدٍۖ﴾ وهو من لزم طريق الأصفياء ولم يزغ وإن كان من أولاد الأعداء، ونبه بتغيير السياق على أن الأغلب الضلال فقال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٥﴾ وهم من خالف الأولياء بمنابذة أو ابتداع وإن كانوا أولاد الأصفياء.

﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: الأبوين ومن قبلهما من الرسل، ولا يعود الضمير على الذرية؛ لأنها باقية مع الرسل وبعدهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ لا تُنسى آثار الأول منهم حتى نرسل الذي بعده في قفاه، فكل رسول مقفٍ للذي قبله؛ لأن الأول ذاهب إلى الله والثاني تابع له، فنبينا ﷺ أعرق الناس في هذا الوصف لأنه لا نبي بعده، ولهذا كان هذا الوصف أحد أسمائه ﴿وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ﴾ أي: أشد رقة على من يتسبب إلى الاتصال بهم ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ أي: رقة وعطفًا على من لم يتسبب في الصلة بهم.

﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ أي: ليس لهم فيها سلف ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا﴾ أي: لكن ﴿ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ ففي هذا تنفير عن البدع، وحث على لزوم الشرع، وتحذير من التشديد فإنه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه، وهو أكبر جارٍّ إلى البدعة، ولهذا كثر في أهل الرهبانية المروق بالاتحاد والحلول وغيرهما، ولو ظهر أن التشديد خير؛ لأن الشارع العليم نهى عنه، وقد أفادت التجربة أنه قد يضر؛ لأن هؤلاء ابتدعوا ما أرادوا به الخير فكان مهلكًا لكثير منهم، وفيه أيضًا حث على المداومة على ما اعتيد من الصالحات، كان عمله ﷺ ديمة، وكان ينهى عن التعمق ويأمر بالقصد.

ولما كانت متابعة النفس في التقصير بالإفراط والتفريط قد توصل إلى المروق من الدين، أشار إليه بقوله: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ أي: استمروا على الإيمان الكامل، ولما كانت متابعة الأهواء تكسب صفات ذميمة تصير ملكات راسخة، أشار إليه بالعدول عن النهج الأول فقال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: هؤلاء المبتدعين ﴿فَٰسِقُونَ ٢٦﴾ أي: عريقون في الخروج عن الحدود التي حدها الله، والرهبانيةُ التي لا تأباها قواعد الدين هي ما كان عليه أمره ﷺ وهو كل ما كان مقررًا بقواعد شرعه، ومهما لم يكن مقررًا بها فهو مما ليس عليه أمره فهو رد، فهذا فرق بين البدع الحسنة والبدع القبيحة، والله الموفق.

ولما قرر سبحانه أن الرسل دعاة للحق طوعًا أو كرهًا، وقرر أن البدع لا تأتي بخير وإن زين الشيطان أمرها، وأن من قبلنا ابتدعوا بدعة حسنة فوكلوا إليها ففسق أكثرهم، فاقتضى

ذلك إرسال نبي لا نبي بعده فنهى عن البدع نهيًا لم يتقدمه أحد إلى مثله، أنتج ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا﴾ مجازيًا في الأولى من العلوم والمعارف القلبية، وحسيًا في الآخرة بسبب العمل ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ مجازًا في الأولى بالتوفيق للعمل، وحقيقة في الآخرة بسبب العمل ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾.

ولما كان أهل الكتاب قد تابعوا أهويتهم على بغض الأميين، وأشربت قلوبهم أن النبوة مختصة بهم لأنهم أولاد إبراهيم من ابنة عمه والعرب أولاده من الأمة، وما دروا أن كونهم من أولاده مرشح لنبوة بعضهم، وكونهم من الأَمة مهيئ لعموم الرسالة لعموم النسب، قال دالًا على جهلهم: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ أي: ليعلم علمًا عظيمًا يثبت مضمون خبره وينتفي ضده بما أفاده زيادة النافي ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا﴾ أي: أنهم لا ﴿يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراةِ التوراةَ فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتي أهل الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأُعطينا قيراطين قيراطين».

وقد أخذ بعض العلماء منه أن قوم نوح وإبراهيم كان لهم الليل، فكان قوم نوح في أوله لم يلح لهم شيء من أمارات الصبح مع إخبار نوح فما آمن معه إلا قليل، وأما قوم إبراهيم فكأنهم في أواخر الليل قد لاحت لهم تباشير الصباح فآمنت زوجته وأولاده ولوط حتى جاء موسى فكان وقته كما بين الصبح والظهر، فكان قومه تارة يروغون فيكونون كمن دخل كهفًا ثم يخرجون فيرجعون إلى الضياء فكانت غلطاتهم كبارًا وصغارًا، وأما قوم عيسى فكانوا كمن هو في الظهيرة في شدة الضياء، فالغلط منه لا يكون إلا عن عمى عظيم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٨﴾ فلذلك يخص من يشاء بما يشاء، وذلك تنزيه كل شيء له التنزيه الأعظم، فقد انطبق كما ترى آخرها على أولها، والله الهادي.

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الإعلام بإيقاع البأس الشديد الذي أشارت إليه الحديد بمن حادّ الله ورسوله ﷺ، وعلى ذلك دلت تسميتها بالمجادلة بأول قصتها وآخرها.

لما ختمت الحديد بعظيم الفضل له سبحانه، وكان سماع جميع الأصوات من غير أن يشغله صوت عن صوت من الفضل العظيم، وكان قد تقدم ابتداع رهبانية بما لم يؤذن لهم فيه فكان سببًا للتضييع، وكان الظهار من الرهبانية لأنه من تحريم ما أحل الله من الطيبات، وكان بعض الصحابة قد ظاهر مطلقًا فشكت امرأته إلى رسول الله ﷺ، وكان علمه سبحانه بشكايتها وإزالة ضررها برخصة عامة للمسلمين إلى يوم القيامة معلمًا بأنه ذو الفضل العظيم، وكان قد أمر بالإيمان به وبرسوله ووعد على ذلك بالنور، بيّن النورَ في الرهبانية التي ابتدعت في هذه الأمة فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾.

وذلك أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة فشكت إلى النبي ﷺ فقال: «ما أراك إلا قد حرمت عليه» فقالت: يا رسول الله لا تقل ذاك والله ما ذكر طلاقًا، فجعل كلما قال لها ذلك قالت: أشكو إلى الله، حتى نزلت الآية، وقد حصل من هذا أن كثيرًا من الأشياء ظاهرُ العلم يحكم فيه بشيء ثم الضرورة تغيره لصاحبها.

ولما أخبر عن إحاطة العلم بيّن حكم الأمر المجادل بسببه فقال ذامًا للظهار: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ولما كان الظهار منكرًا لكونه كذبًا، عبّر بالتفعّل فقال: ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ ولما كان خاصًا بالعرب نبه على ذلك تقبيحًا لعادتهم فيه، تنبيهًا على أن اللائق بهم أن يكونوا أبعد الناس منه؛ لأن الكذب لم يزل مستهجنًا في الجاهلية ثم ما زاده الإسلام إلا استهجانًا فقال: ﴿مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ لأنهم لما كانوا يعتقدون أنه طلاق بلا رجعة، جُعلوا معتقدين أن المرأة أم؛ لأن الحرمة المؤبدة من خصائص الأم، فخوطبوا بذلك تقريعًا لهم.

ولما كان هذا الحكم قد استقر في أنفسهم في الجاهلية استقرارًا لا يزول إلا بغاية التأكيد قال: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ ونساؤهم لم تلدهم، ولا هن ألحقن بالأمهات بوجه

يصح كأزواج النبي ﷺ، فإن لهن من الإكرام ما لم يكن لغيرهن؛ لأن النبي ﷺ أعظم في أبوة الدين من أب النسب، وكذلك المرضعات لما لهن من الإرضاع الذي هو وظيفة الأم بالأصالة، وأما الزوجة فمباينة لجميع ذلك"، ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾.

وقال ابن الأثير في النهاية: "ظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها: أنت علي كظهر أمي، وكان في الجاهلية طلاقًا، وقيل: إنهم أرادوا: كبطنها، أي: كجماعها، فكنوا بالظهر عن البطن للمجاورة، وقيل: إن إتيانَ المرأة وظهرُها إلى السماء كان حرامًا عندهم وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيتها كذلك جاء الولد أحول، فلقصد المطلّق التغليظ في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم بظهر أمه، وعدي الظهار بـ«من» لأنهم كانوا يتجنبون المظاهَر منها كتجنبهم المطلقة ويحترزون منها، فكأن قوله: ظاهر من امرأته، أي: بعد واحترز منها، لما ضمن معنى التباعد عدي بها".

ثم قال مؤكدًا؛ لما يعتقدون من غلظه وأنه لا رجعة فيه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾.

ولما هجن الظهار وأكد تحريمه، وكان ما مضت عليه العوائد لا بد أن يبقى منه بقايا، أتبع ذلك بيان حكم هذه الواقعة ونظائرها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ﴾ وأسقط التقييد إعلامًا بعمومه؛ لئلا يتوهم أنه يخص العرب ﴿مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ بالفعل بأن يعاد هذا القول مرة أخرى، أو بالقوة بأن يمسكوا المقول ذلك لها من غير مفارقة فيكون هذا القول ممكنًا في ذلك الزمن؛ لأن العادة قاضية بأن من قال قولًا ولم يمضه فإنه يعود إليه أخرى، هذا في الظهار المطلق، وأما الموقت فمجرد إمساكها ليس بعود؛ لحِلها بعده.

﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي: مؤمنة، حملًا على ما قيدت به في كفارة القتل، ولأن معاوية بن الحكم كانت له جارية فقال للنبي ﷺ: علي رقبة أفأعتقها؟ فسألها رسول الله ﷺ فصدّقت إيمانها فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، فعلل الإجزاء بالإيمان ولم يسأله عن سبب الوجوب، فدل على أنه لا فرق بين واجب وواجب.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ سواء كان الابتداء منه أو منها، بما أفادته صيغة «التفاعل»، وهو حرام قبل التكفير، وأما مقدماته فلا تحرم على الأظهر كالحائض، فإن جامع عصى ولم تجب كفارة أخرى؛ لقوله ﷺ في المظاهر يواقع قبل أن يكفر: «كفارة واحدة»، قال القشيري:

"الظهار وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ولا بتصحيحه نطق ولا له شرع، لم يخل الله ذلك من بيان ساق إليه شرعه، فقضى فيه بما انتظم فيه الجواب ارتفاع شكواها".

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ فإن جامع ليلًا عصى ولم ينقطع التتابع ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ وحذف قيد المماسة لذكره في الأولين، ولأن هذا يمكن أن يفعل في لحظة لا مشقة للصبر فيها عن المماسة، هذا إذا عاد، فإن وصل الظهار بالطلاق أو مات أحدهما قبل إمكان الطلاق فلا كفارة، قال البغوي: "لأن العود في القول هو المخالفة"، وفسر ابن عباس العود بالندم، وهذا يدل على قول الشافعي: "فإن ظاهر عن الرجعية انعقد ظهاره، فإن راجعها لزمته الكفارة؛ لأن الرجعة عود".

﴿ذَٰلِكَ﴾ الترخيص لكم والرفق والبيان الشافي ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ﴾ فتطيعوه بالانسلاخ من فعل الجاهلية ﴿وَرَسُولِهِۦۚ﴾ المبعوث بملة إبراهيم عليهما السلام، فلو ترك هذا الحكم الشديد على ما كان عليه في الجاهلية لكان مشكِّكًا في البعث بتلك الملة السمحة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ التي يجب التقيد بها لترعى حق رعايتها، فقفوا عندها ولا تعتدوها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ بما آلموا المؤمنين به من الاعتداء.

ولما ذكر حدوده وهدد متجاوزيها، فصل عذابهم الذي منه بشارة المؤمنين بالنصر عليهم، فقال مؤكدًا؛ لإنكارهم أن يغلبوا على كثرتهم وقوتهم وضعف حزبه وقلتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يغالبونه على حدوده ليجعلوا حدودًا غيرها، بأي محادة كانت ولو خفية، بما أشار إليه الإدغام، كمحادة أهل الاتحاد الذين يتبعون المتشابه فيَحُلون به المحكم لتنحل الشريعة بأسرها، فإن كثيرًا من هذه السورة نزل في المنافقين واليهود والمهادنين.

﴿وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ أي: كبوا لوجوههم وذُلّوا، ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ قال القشيري: "ومن ضيع لرسول الله ﷺ سنة وأحدث في دينه بدعة، وقع في هذا الذل"، ولما استوفى المقام

حظه بيانًا وترغيبًا وترهيبًا، عطف على أول السورة قوله[٥٩]: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥﴾ يذهب عزّهم ويتركون به محادتهم.

ولما ذكر عذابهم، ذكر وقته على وجه مقرر لما مضى من كمال علمه وقدرته فقال: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ إخزاء لهم وإقامة للحجة عليهم ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ أي: كلهم مجتمعين؛ لخروجه عن الحد في الكثرة، فكيف بكل واحد على انفراده، ونسوا ما فيه من المعاصي تهاونًا بها وهو عين التهاون بالله، فسبيل المسلم ألا يخالف أمر مولاه ولا يحوم حول مخالفته، فإن وقع في التقصير فليكن من زلته على بال، وليتضرع إلى الله بحسن الابتهال ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

وقال ابن الزبير: "لما نزه سبحانه نفسه في سورة الحديد، ثم صرف الخطاب إلى المؤمنين إلى آخر السورة، جرت سورة المجادلة على هذا القصد، واستمرت معظم السور بعدُ إلى آخر الكتاب على هذا الغرض؛ لانقضاء ما قصد من التعريف بأخبار الأمم الماضية، وتقريع من عاند، وذكر مثال الخلق الأخراوي، وتفاصيل التكاليف والجزاء عليها، فلما كمل ذلك صرف الكلام إلى ما يخص المؤمنين في أحكامهم وتعريفهم بما فيه من خلاصهم".

ولما أخبر عن إحاطة علمه دل عليه بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ بعلمه وقدرته كما يكون كل من المتناجيين عالمًا بنجوى الآخر ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ ولما علم بالتكرير أن ما ذكر للتمثيل لا لمعنى يخصه في العلم، عم بقوله: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

ثم دل عليه أيضًا بأمر جزئي فقال: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ ولما كان الناهي هو الله، فكان المنهي أهلًا لأن يبعد منه، عبر بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ باستمرار ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي: من غير أن يعدوا لما يتوقع من ضرر الناهي عدة ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ﴾

---

(٥٩) أو: "أنها معترضة بين جملة ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ وجملة ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي: لا عذر لهم في محادة الله ورسوله، فإن مع الرسول ﷺ آيات بينة على صدقه" [التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤، بتصرف].

أي: بالشيء الذي يكتب عليهم به الإثم، ولما ذكر المطلق أتبعه المقيد بالشدة فقال: ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي: مجاوزة الحدود بما هو نهاية في قصد الشر.

ولما كان ذلك شرًا في نفسه، أشار إلى أن الشيء يتغير وصفه بالنسبة إلى من يفعل معه فيكبر بكبر المعصي فقال: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ﴾ الذي جاءهم من الملك الأعلى، وهو كامل الرسلية لأنه مرسل إلى الكل فلا نبي بعده، فهو يستحق غاية الإكرام ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ﴾ بقولهم: السام عليك ونحوه، وعم كل لفظ بقوله: ﴿بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

ولما كانوا يخفون ذلك جهدهم قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ عند الاستدراج بالإملاء مواظبين عليه ﴿لَوۡلَا﴾ أي: لمَ لا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ مواظبين عليه إن كان يكرهه كما يقول محمد ﷺ! ﴿حَسۡبُهُمۡ﴾ أي: كفايتهم في الانتقام منهم وفي عذابهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ فإن حصل لهم في الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية، فاستعجالهم بالعذاب محض رعونة ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٨﴾ وسبب ذلك أن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون إلى المؤمنين، يوهمونهم أنهم يتناجون فيما يسوؤهم، فيظنون أنه بلغهم شيء من إخوانهم الذين خرجوا في السرايا من قتل أو هزيمة فيحزنهم ذلك، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن التناجي على هذه الحالة فلم ينتهوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾ كتناجي المنافقين ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ فإن ذلك يشوش فكره فلا يدعه يبلغ رسالات ربه وهو منشرح الصدر طيب النفس ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ ولما كانت التقوى أم المحاسن أكدها بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولما كانت ذكرى الآخرة هي مجمع المخاوف قال: ﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾.

ولما كانت النجوى لا يفعلها إلا أهل النفاق فربما ظن ظان أنه يحدث عنها ضرر لأهل الدين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي: المعهودة وهي المنهي عنها، وهي ما كره صاحبه أن يطلع عليه رسول الله ﷺ، وقيل: ما خيله الشيطان للإنسان مما يكرهه ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يوهمهم أنها سبب شيء وقع مما يؤذيهم، والحزن: همّ غليظ وتوجع يرق له القلب، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه».

ولما كان ربما خيل هذا من في قلبه مرض أن في يد الشيطان شيئًا قال: ﴿وَلَيْسَ﴾ الشيطان وما حمل عليه من التناجي ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ ولما عُلم بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ أنه لا ينبغي أن يُخشى أحد غير الله؛ لأنه لا ينفذ إلا ما أراده أنتج: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٠﴾ فإنه القادر وحده على إصلاح أمورهم وإفسادها، ولا يحزنوا من أحد أن يكيدهم، فإنهم إذا توكلوا عليه وفوضوا أمورهم إليه لم يأذن في حزنهم، وإن لم يفعلوا أحزنهم.

ولما ذكر ما يحزن الجليس من الاختصاص بالمقال، أتبعه الاختصاص بالمجلس اللازم له من الظن ما ينشأ عنه الحزن، معلمًا لهم بكمال رحمته بمراعاة الأدب بينهم وإن كان من أمور العادة دون العبادة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ أي: من أي قائل كان، فإن الخير يرغب فيه لذاته: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ أي: جنس المكان الذي هم ماكثون به في صلاة أو غيرها، لأجل من يأتي فلا يجد مجلسًا يجلس فيه، وقراءة عاصم بالجمع موضحة لإرادة الجنس ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾ أي: وسعوا فيه عن سعة صدر ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾ في كل ما تكرهون ضيقه من الدارين.

ولما كانت التوسعة قد تحتاج إلى القيام قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي: من أي قائل كان إذا كان يريد الإصلاح ﴿ٱنشِزُواْ﴾ أي: ارتفعوا وانهضوا للتوسعة أو غيرها من الأوامر كالصلاة والجهاد ﴿فَٱنشِزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وإن كانوا غير علماء ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المأمورون بالتفسح المبادرون إلى الأوامر، في الدنيا والآخرة بالنصر وحسن الذكر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ولما كان العلم في نفسه معليًا من غير نظر إلى مؤت معين، بنى للمفعول قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: وهم مؤمنون ﴿دَرَجَٰتٖۚ﴾ درجة بالامتثال وأخرى بالإيمان، ودرجة بفضل علمهم وسابقتهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ فتكون الرفعة بحسب العمل بالعلم، وقدم الجار ومدخوله لمزيد الاعتناء بالأعمال؛ لأن المقام لنزول الإنسان عن مكانه ولا يخفى ما فيه من حظ النفس فكان جديرًا بمزيد الترهيب، وكان ﷺ يقول: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»، وهي دالة على أن الصالح إن كره مجاورة فاسق منع من مجاورته لأنه يؤذيه ويشغله، وقد قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

ولما نهى عما يحزن من المقال والمقام، وكان منهم من يناجي النبي ﷺ للترفع بها، أمر من أراد أن يناجيه بالتصدق ليكون أمارة على الصدق في الإيمان فيحصل الانتفاع بالمناجاة،

وليخفف عنه ﷺ ما أكثروا عليه منها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في دينكم من الإمساك عن الصدقة ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ والتعبير بـ«أفعل» لأنهم مطهرون قبله بالإيمان ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ فهو يغفر ويرحم تارة بعدم العقاب وتارة بالتوسعة بالنسخ إلى الأخف.

ولما دل ختم الآية على التخفيف، قال موبخًا لمن يشح بالمال، نادبًا إلى الخروج عنه من غير إيجاب: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ أي: خفتم من العيلة لِما يعدكم به الشيطان من الفقر ﴿أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ ولما كان من قبلنا إذا كلفوا الأمر الشاق فخالفوا عوقبوا بيّن فضل هذه الأمة بأنه خفف عنهم فقال: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ﴾ بسبب العفو عنكم، شكرًا على هذا الكرم والحلم ﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فالصلاة نور تهدي إلى المقاصد وتعين على النوائب، والصدقة برهان على صحة القصد في الصلاة، ولما خص أشرف العبادات، عمَّ فقال حاثًا على زيادة النور والبرهان: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ ولما كان قد عفا عن أمر أشعر السياق بأنه وقع فيه تفريط، رهب من جنابه بإحاطة العلم فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

ولما أخبر بإحاطة علمه ردعًا لمن يغتر بطول حلمه، دل على ذلك باطلاعه على نفاق المنافقين الذي هو أبطن الأشياء فقال: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ والأولون هم المنافقون تولوا اليهود، وزاد في الشناعة عليهم بقوله: ﴿مَّا هُم﴾ أي: اليهود ﴿مِّنكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ليوالوهم خوفًا من السيف ورغبة في السلم ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ أي: المنافقين فتكون موالاتهم لهم لمحبة وقرابة، بل هم مذبذبون فهم مع المؤمنين بأقوالهم ومع الكفار بقلوبهم، فما تولوهم إلا عتقًا في النفاق لمقاربة ما بينهم فيه، أو يكون المعنى: ما المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، وزاد في الشناعة عليهم بأقبح الأشياء الحامل على كل رذيلة فقال: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ ولما كان الكذب قد يطلق في اللغة على ما يخالف الواقع وإن كان عن غير تعمد قال: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾.

ولما أخبر عن حالهم أتبعه الإخبار عن مآلهم، فقال دالًا كما قال القشيري: "على أن من وافق مغضوبًا عليه، أشرك نفسه في استحقاق غضب من هو غضبان عليه": ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ يعلم من رآه ورآهم أن ذواتهم متداعية إليه ضعيفة عنه ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا

﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾ أي: مستمرين عليه من غشهم المؤمنين ونصحهم الكافرين وعيبهم للإسلام وأهله واجترائهم على الأيمان الكاذبة، وأصروا على ذلك حتى زادهم التمرن عليه جرأة على جميع المعاصي.

ولما دل هذا على سوء أعمالهم ومداومتهم عليها، أكده بقوله: ﴿إِتَّخَذُوٓاْ﴾ أي: كلفوا فطرهم الأولى لعراقتهم في اعوجاج الطبع والمحبة للأذى ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أي: سترة من كل ما يفضحهم من النفاق، أو يوجب قتلهم من الكفران، ولما كان علمهم بأنه يُرضى منهم بالظاهر وتُصدَّق أيمانهم هو الذي جرأهم على العظائم، فكانوا يرغّبون الناس في النفاق بعاجل الشهوات، ويثبطونهم عن الدين بما فيه من عاجل الكلف وآجل الثواب، سبب عن قبول إيمانهم قوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإنهم كانوا يثبطون عن الدخول في الإسلام ويحقرون أمره، ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بأيمانهم الحانثة ودرت عليهم الأرزاق استدراجًا وارتفعوا عند الناس بما يُرضُونهم من أقوالهم المؤكدة بالأيمان = غره ذلك فاتبع سنتهم، معرضًا عما توعدهم الله عليه ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾ جزاء بما طلبوا بذلك الصد إعزاز أنفسهم وإهانة أهل الإسلام.

ولما كان لهم أموال وأولاد يتعززون بها، قال دالًا على أن من استتر بجنة دون طاعته لتسلم دنياه وراءه، تكشف لسهام التقدير من حيث لا يشعر، ثم لا دينه يبقى ولا دنياه تسلم: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ ولما انتفى الإغناء المبتدئ من الله فانتفى كل إغناء، أنتج قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ﴾ أي: خاصة لاضمحلال عذاب غيرهم في جنب عذابهم لكونهم في الهاوية ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾.

ولما كان الإنسان يبعث على ما مات عليه؛ لأن ذلك جبلته التي لا ينفك عنها، قال ذاكرًا ظرف الخلود: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ لا يترك أحدًا إلا أعاده إلى ما كان عليه قبل موته ﴿فَيَحۡلِفُونَ﴾ بسبب معاينة ما كانوا يكذبون به من البعث والنار ﴿لَهُۥ﴾ أنهم مسلمون ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ﴾ في الدنيا ﴿لَكُمۡ﴾ لكونكم لا تعلمون الغيب، مع توقعهم أن الله يفضحهم كما فعل لهم ذلك مرارًا.

ولما كان الحامل لهم على الإقدام على ذلك ضعف عقولهم ومرودهم على النفاق حتى بعثوا على مثل ذلك، عبر بالحسبان فقال دالًا على جهلهم: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ ولما أفهم

ذلك أن أمورهم لا حقائق لها لا في إخباراتهم ولا أيمانهم ولا حسبانهم، قال مؤكدًا لتكذيب حسبانهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾.

ولما كان مما يُتعجب منه انهماك العاقل فيما لا يغني، أخبر عن الحامل لهم عليه فقال: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ وملكهم ملكًا لم يبق لهم معه اختيار فصاروا رعيته، من قولهم: حذت الإبل أي: استوليت عليها، والحوذ: السوق السريع، ومنه الأحوذي: الخفيف في المشي لحذقه ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ ولما كان ذلك أنتج ولا بد قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ والمتحيزون إليه لدفع ما حزبه أي: نابه، مع أنه كله نقائص وهم مطبوعون على بغضه، وتركوا من له الكمال كله وحبه مركوز في فطرهم، فكانت ترجمة هذا ونتيجته: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾.

ولما بين ما أوصلهم إليه نسيان الذكر من الخسار، بين أنه أوقعهم في العداوة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ ولعل الإدغام لسترهم ذلك بالإيمان، ويفهم منه الحكم على من جاهر بطريق الأولى ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ولما كانوا لا يفعلون ذلك إلا لكثرة أعوانهم فيظن من رآهم أنهم الأعزاء قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ أي: الذين يوصف كل منهم بأنه الأذل من غير مفضل عليه وذلك في الدنيا والآخرة، سواء كانوا فارس والروم أو أعظم منهم، ملوكًا كفرة أو فسقة، كما قال الحسن: "إن للمعصية في قلوبهم لذلًا وإن طقطقت بهم اللجم".

ولما أنزلهم بالحضيض، علله بما يدل على أنه تعالى لا شريك له بإتمام كلماته بنصر أوليائه على ضعفهم وخذلان أعدائه على قوتهم فقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ بقوة الجدال وشدة الجلاد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ فهو يفيض من قوته ما تظهر به قدرة أوليائه، فإنه لا اقتدار من الخلق إلا بالاستناد إلى القوة بالله، والقوي من يستقل بالأمر ويحميه ولو ضوعف عليه ما ضوعف، فلذلك كان بالحقيقة لا قوي إلا هو ﴿عَزِيزٞ ٢١﴾.

ولما ظهر بهذا كالشمس أن من والاه تعالى كان فائزًا ومن عاداه كان خاسرًا، أنتج التحذير من موالاة أعداء الله فقال: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ بعد هذا البيان ﴿قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يجددونه ويديمونه ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ لا ظاهرًا ولا باطنًا، بما أشار إليه الإدغام، وأقله الموافقة في المظاهرة ﴿مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ فالمحادة لا تخفى وإن كانت باطنة؛ لأن الظاهر عنوان

الباطن والأفعال دليل الأقوال، وهذا حامل على زيادة النفرة منهم ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ فإن من حاده فقد حاد الذي أرسله، بل لا تجدهم إلا يحادونهم لا أنهم يوادونهم.

﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ الذين أوجب الله على الأبناء طاعتهم بالمعروف، وذلك كما قتل أبو عبيدة أباه عبدَ الله يوم أحد ﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ كما دعا أبو بكر ابنه يوم بدر إلى المبارزة ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾ كما قتل مصعب بن عمير أخاه عبيدًا يوم أحد وخرق سعد بن أبي وقاص الصفوف يومئذ على أخيه عتبة غير مرة ليقتله فراغ عنه، وقتل محمدُ بن مسلمة الأنصاريُّ أخاه من الرضاع كعبَ بن الأشرف ﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ كما قتل عمر خاله العاصي بن هشام يوم بدر، وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا يوم بدر بني عمهم عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليدَ بن عتبة.

ولما كان لا يحمل على البراءة من هؤلاء إلا صريح الإيمان أنتج قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ فجعلها أوعية له فأثمر ذلك نور الباطن واستقامة الظاهر ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ﴾ أي: نور شريف يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة رسوله ﷺ من الكنوز، فهو لقلوبهم كالروح للأبدان، وزاد هذا التأييد شرفًا بقوله: ﴿مِّنۡهُۖ﴾ فأثمر لهم استقامة المناهج فظهروا بالسيف والحجج، فلا شيء أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، ومن جنح إلى منحرف عن دينه أو داهن مبتدعًا في عقده، نزع الله نور التوحيد من قلبه ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾.

ولما تبين مما أعد لهم ولأضدادهم أنهم المختصون بكل خير، قال مستنتجًا: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ خصهم بذلك؛ لأن له العزة والقوة والعلم والحكمة، فلذلك سمع المجادلة ورحمها لأنها من حزبه، وحرم الظهار إكرامًا لها بحكمته؛ لأنه منابذ للحكمة؛ لأنه تشبيه خارج عن قاعدة التشبيهات، وختم آيها بأن من عاود أحوال الجاهلية فهو محاد له فهو من حزب الشيطان، فعاد آخرها إلى أولها على أحسن سبيل؛ لأن هذا القرآن العظيم أشرف قيل، وهذا مقصود التي بعدها، ولا شك أنه موجب للتنزيه.

سورة الحشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها بيان ما دل عليه آخر المجادلة من التنزه عن شوائب النقص بإثبات القدرة الشاملة بدليل شهودي، المستلزم للحشر الكاشف لجميع صفات الكمال، وأدل ما فيها على ذلك قصة بني النضير بأول الحشر المؤذن بالحشر الحقيقي، والمثبت بظهور دينه على كل دين: صدقَه في كل ما جاء به.

لما ختمت المجادلة بأنه معز أهل طاعته ومذل أهل محادته، علله بتنزهه عن النقائص تأييدًا للوعد بنصرهم فقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان الكلام في النهي عن موادة المحادين وكان ذلك لمن دون الخلص، أكد بإعادة النافي لاحتياجهم للتأكيد فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾ فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلًا.

وقال ابن الزبير: "لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آي سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قومًا غضب الله عليهم﴾ إنما يراد به يهود؟ فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم، ثم قال في آخر السورة: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ [الآية: ٢٢] فحصل من هذا كله تنفير المؤمنين عنهم، وإعلامهم بأن بغضهم إيمان وودهم نفاق؛ لقبيح ما ارتكبوا، فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر أتبعت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من هوانهم وتمكين المسلمين منهم.

وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم ، إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وهو عصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب، فبين تعالى أن لعنته إياهم إنما ترتبت على عصيانهم، فلما كان الغضب مشيرًا إلى ما ذكر من عظيم الشرك، أتبعه سبحانه تنزيه نفسه، وإنما يرد مثله من التنزيه إثر جريمة تقع من العباد وعظيمة يرتكبونها، وتأمل ذلك حيث وقع".

ولما نزه نفسه، دل عليه وعلى العزة والحكمة بدليل شهودي من أنه أنفذ ما كتب أنه يغلب هو ورسله، وأنه كبت الذين حادوه وخيب ظن الذين نافقوا فتولوا اليهود ليعتزوا بهم، فأذل اليهود والمنافقين الذين اعتمدوا عليهم ووادوهم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ ولما كان منهم من جلا من المدينة إلى خيبر وهم آل أبي الحقيق

وآل حيي بن أخطب، لوح إلى فتحها فقال: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ وسمي أولًا لأنهم أول من أجلي من اليهود من جزيرة العرب، والحشر الثاني لهم من خيبر على زمن عمر رضي الله عنه.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ﴾ لما كان لكم من الضعف ولهم من القوةِ وقربِ بني قريظة وأهل خيبر منهم فكانوا بصدد مظاهرتِهم وكلُّهم أهل ملتهم والمنافقون أنصارهم، فخابت ظنونهم وسلط عليهم المؤمنون على قلتهم وضعفهم، وإذا أراد الله نصر عبد استأسد أرنبه، وإذا أراد قهر عدو استنوق أسده ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم﴾ ودل على قوة ظنهم وثباته بالجملة الاسمية فقال: ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ قالوا: وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، ودل على ضعف عقولهم بأن عبر باسمه الأعظم فقال: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي لا عز إلا له ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما صور لهم من حقارة أنفسهم التي اضطرتهم إلى الجلاء ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ﴾ وهي جهة خذلان المنافقين لهم، بعد أن كان الشيطان زين لهم غير ذلك، وملأ قلوبهم من الأطماع الفارغة حتى قطعوا بها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾ ثم بين حالهم عند ذلك أو فسر قذف الرعب بقوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: يهدموها ليأخذوا ما استحسنوا منها، وحسدًا للمسلمين أن يسكنوها بعدهم، لأن النبي ﷺ أمرهم أن يخلوا البلد، ولهم ما حملت إبلهم ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فكان المؤمنون يخربون ما ضيق عليهم لأجل القتال.

ولما كان غريبًا أن يفعل الإنسان في نفسه كما يفعل فيه عدوه قال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾ قال القشيري: "الاعتبار أحد قوانين الشرع، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره"، واحتج بالآية مثبتو القياس، فإنه مجاوزة من الأصل إلى الفرع وذلك اعتبار، وهو مأمور به فهو واجب ﴿يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ بأن لا تعدوا لكم ناصرًا ولا تعتمدوا على غير الله كما اعتمد هؤلاء على المنافقين، فإن من اعتمد على مخلوق أسلمه إلى صغاره، ولا تلموا بغدر كما أرادوا أن يغدروا برسول الله ﷺ فيطرحوا عليه الرحى ليقتلوه، ولا تفعلوا شيئًا من قبيح أفعالهم؛ لئلا يحصل لكم مثل نكالهم.

ولما دل هذا على غاية وهنهم، بين أن السبب في ذلك أمره الباهر وعزه القاهر حثًا على الاعتبار فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: الخروج من ديارهم فأما معظمهم فأجلاهم بختنصر من الشام إلى العراق، وأما هؤلاء فحماهم الله بمهاجر رسول الله ﷺ من

ذلك الجلاء وجعله على يديه ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بالسيف كما سيفعل بإخوانهم بني قريظة الذين كتب عليهم العذاب دون الجلاء من قتل المقاتلة وسبي الذرية ﴿وَلَهُمۡ﴾ على كل حال ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فعله بهم في الدنيا والآخرة ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ فكانوا في غير شقه بأن صاروا في شق الأعداء ﴿وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ وأدغم لأنهم ما أظهروا معاداة وإنما مكروا مساترة، وأظهر في الأنفال لقوة أمر المجاهرين، ولم يعد ذكر الرسول إفهامًا لأن مشاقته مشاقة لله، وإشارة إلى أنهم بالغوا في إخفاء مشاقتهم فلم يظهر عليها غير الله، فلم تكن مفاعلة بينهم وبين النبي ﷺ فإنه جاهرهم حين أعلمه الله بمكرهم، بخلاف ما تقدم في الأنفال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤﴾ كما فعل ببني قريظة بعد هذا حيث نقضوا عهدهم وأظهروا المشاقة في غزوة الأحزاب.

ولما دل على عزته وحكمته بما فعل ببني النضير الذين يقولون إنهم أشجع الناس والمصطفون على العالمين، بيّن ما عاقبهم به فقال: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ وهي ضرب من النخل، قال البغوي: "يغيب فيها الضرس، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم"، ﴿أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ فيفضحهم ببيان كذبهم في دعواهم العز والشجاعة والتأييد من الله لأنهم على الدين الحق وأنه لا ينسخ، وروى أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه أنه قال: رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا أو فيما تركنا؟ فأنزل الله الآية"، وكان ناس من المؤمنين مالوا إلى الكف عن القطع لما سموه اليهود فسادًا، وطائفة أشاروا بالاستمرار لأنه يغيظهم، فصوب سبحانه في الآية من أمر بالكف وحلل من أشاروا بالاستمرار بالقطع من الإثم، فدلت الآية على جواز إفساد أموال أهل الحرب لإخزائهم بذلك.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ فصيره في يده بعد أن كان خروجه عنها بوضع أيدي الكفار عليه ظلمًا وعدوانًا، كما دل عليه التعبير بالفيء الذي هو عود الظل إلى الناحية التي ابتدأ منها ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ فلم تحصل لكم كبير مشقة في حوز أموالهم؛ لأن قريتهم قريبة ولم تقاتلوا قتالًا بعد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾ في كل زمن ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ فهو الذي ألقى في روع رسوله ﷺ أن يسألهم الإعانة في دية العامريين اللذين قُتلا خطأ، فلما جلس إلى جانب بيت من بيوتهم -وكانوا موادعين له-

رحبوا به ووعدوه الإعانة وأمروا أحدهم أن يرمي عليه من فوق السطح صخرة لتقتله، فأعلمه الله بهذا فذهب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⁦٦⁩﴾.

وهذا بعد ما ندب حُييٌّ قريشًا إلى حرب النبي ﷺ وعاقدهم أن يكون معهم عليه، وأعلم الله بذلك رسوله ﷺ فأرسل إليهم: «أنكم قد خنتم الله ورسوله فأردتم أن تفعلوا كذا، وإن الأرض لله ورسوله فاخرجوا منها، وقد أجّلتكم عشرًا»، فتجهزوا أيامًا، ودس إليهم ابن أبي ومن معه أنهم معهم في الشدة والرخاء، فطمع حيي بن أخطب في ذلك فأرسل: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فقصدهم رسول الله ﷺ في المؤمنين وتربصوا نصر ابن أبي ومن معه على ما قالوا فلم يفوا لهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم فأرسلوا بالإجابة، فقال: «لا إلا أن يكون لي سلاحكم وما لم تقدروا على حمله على إبلكم من أموالكم».

فجعل الله أموال من لم يسلم منهم فيئًا لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، وعن عمر: "كانت أموال بني النضير للنبي ﷺ خالصًا دون المسلمين، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي عدة في سبيل الله".

وقسم أموالهم بعد ما تركه لنفسه بين المهاجرين، لم يعط الأنصار شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة شديدة: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة، وكان لسيف ابن أبي الحقيق عندهم ذكر فنفله سعد بن معاذ، وقال الأصبهاني: "إن الفيء كان يقسم على عهد رسول الله ﷺ على خمسة وعشرين سهمًا، عشرون لرسول الله ﷺ، والباقي على ما يقسم عليه خمس الغنيمة، فلما توفي كانت إلى إمام المسلمين، فوليه أبو بكر ثم عمر، فكانا يفعلان فيها ما فعله ﷺ".

ولما بين مصرف ذلك الفيء، بيّن عموم الحكم لكل فيء بعده فقال: ﴿۞مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وهذان يتراءى أنهما قسمان وليس كذلك، ولكنه ذكر تعالى نفسه تعظيمًا لرسوله ﷺ إعلامًا بأنه لا هوى له في الدنيا وإنما رضاه رضا مولاه، وسهمه ﷺ يصرف بعده لمصالح المسلمين كالسلاح والثغور والعلماء والقضاة والأئمة، ثم أتبعه تعظيمًا آخر بتعظيم أقاربه لأجله ﷺ فقال: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ثم أتبعه أهل الضعف جبرًا لوهنهم فقال: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ لأن مبنى الدين على التخلق بأخلاق الله التي من أجلّها تقوية الضعيف وجبر الكسير ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قال الشافعي في الأم: "الغنيمة والفيء يجتمعان في أن فيهما الخمس من جميعهما لمن سماه الله، ومن سماه في الآيتين معًا سواءٌ مجتمعين غير مفترقين، ثم يفترق الحكم في الأربعة الأخماس بما بين الله على لسان نبيه ﷺ وفي فعله فإنه قسم أربعة أخماس الغنيمة والفيء، فكانت سنته ﷺ أن أربعة أخماسها لرسول الله خاصة دون المسلمين، يضعه رسول الله حيث أراه الله"، ثم ذكر حديث عمر المتقدم ثم قال: "وفيه دلالة على أن عمر إنما حكى أن أبا بكر وهو أمضيا ما بقي من هذه الأموال التي كانت بيد رسول الله ﷺ على وجه ما رأياه يعمل به فيها، وأنهما لم يكن لهما من الفيء ما كان له ﷺ، وأنهما إنما كانا فيه أسوة للمسلمين، وذلك سيرتهما وسيرة من بعدهما، والأمر الذي لم يختلف فيه أحد من أهل العلم عندنا علمته: أنه ليس لأحد ما كان لرسول الله ﷺ من صَفِي الغنيمة ولا من أربعة أخماس ما لم يوجف عليه منها".

ولما حكم هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الأغنياء به، بين علته المظهرة لعظمته تعالى وحسن تدبيره ورحمته فقال: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ يتداولونه بينهم، ومنه قال الحسن: "اتخذوا عباد الله خولًا ومال الله دولًا"، ﴿وَمَا﴾ أي: وكل شيء ﴿ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من هذا وغيره ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ ولما كان الكف عما ألفته النفوس صعبًا، ولا سيما ما هو تمتع بالمال على وجه الرئاسة قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

ولما بين مصرف الفيء من القرى، بين المصرف في فيء بني النضير بعد كفايته ﷺ، فقال مبدلًا من ﴿فلله وللرسول﴾: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أي: الذي كان الإنسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد، بعد أن كان له من الأموال ما يسعه ويفضل منه ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ﴾ أي: أُخرجوا حال كونهم يطلبون مجتهدين ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لأنه المختص بجميع صفات الكمال، فيغنيهم بفضله عمن سواه ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ يوفقهم لما يرضيه عنهم.

ولما وصفهم بتعليق بواطنهم به، وصفهم ببذل ظواهرهم له فقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ بأنفسهم وأموالهم ليضمحل حزب الشيطان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ وهذا يدل على أن مبنى الدين على إقامة البينات بالثبات عند الابتلاءات، وعلى أن العون يأتي على قدر البلاء؛ لأن الله خص المهاجرين مما أذن فيه من أموال بني النضير.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ أي: جعلوا بغاية جهدهم ﴿ٱلدَّارَ﴾ محل إقامتهم، ولما كان المراد الإبلاغ في مدحهم، قال مضمنًا «تبوؤا» معنى «لازَم»: ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ويجوز أن يكون المعنى: ومحل الإيمان، إشارة لأنهم إنما أقاموا محبة في الإيمان ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ لأن القصد إلى الإنسان يوجب حقه عليه، والدليل على تلك المحبة أنهم شاطروا المهاجرين في أموالهم وعرضوا عليهم المشاطرة في نسائهم على شدة غيرتهم، فأبوا النساء وقبلوا الأموال.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: المهاجرون، وإذا لم يجدوا حاجة تدعوهم إلى الطلب فلأن لا يجدوا حسدًا من باب الأولى، فهذه الآية أعظم حاث على حسن الإخاء ومحذر من الحسد ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ أي: فقر وخلل محيط بهم، من خصائص البناء وهي فرجه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ أي: يحصل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار إليها بالنفس وقاية تحول بينه وبينها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾.

وشرح الآية أن الأنصار لما قدم عليهم المهاجرون قسموا دورهم وأموالهم بينهم، فلما أفاء الله على رسوله أموال بني النضير قال: «إن أحببتم قسمته بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم»، قالوا: اقسم فيها هذه خاصة واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ الآية، وقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار» وقال أبو بكر: جزاكم الله خيرًا يا معشر الأنصار، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال العنزي:

جزى اللهُ عنّا جعفرًا حين أزلقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّتِ
أبَوْا أن يَملونا ولو أنَّ أُمَّنا ... تُلاقي الذي يلقَون مِنا لَمَلَّتِ

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وهم من آمن بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد إيمان الأنصار إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ أي: أيها المحسن إلينا بإيجاد من مهد الدين قبلنا ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ وأفهم قوله: ﴿فِي قُلُوبِنَا﴾ أن رذائل النفس قل أن تنفك وأنها إن كانت مع صحة القلب أوشك أن لا تؤثر ﴿غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أقروا بالإيمان وإن كانوا في أدنى درجاته، فقد أفادت هذه الآية أن من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة فليس ممن عنى الله بها ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾.

ولما دل هذا الثناء للصادقين على إخراج المنافقين وأفهم أنهم لا يفعلون ذلك، دل على نفاقهم بقوله، معجبًا من حالهم مع ما يرون من الآيات وإسباغ الرحمة على المؤمنين بتسهيل الأمور والنصرة والاجتهاد في الدين الذي هو وحده داع إلى الإيمان ومرقق للقلوب ومبين للحقائق غاية البيان: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ في الموالاة بالضلالة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وعينهم بما أبلغ في ذمهم من حيث إنهم ضلوا على علم فقال: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النضير.

وبكتهم بكذبهم فيما وعدوا به -لأنه منكر أن يبارزوا قومهم وهم لا يقدرون على المجاهرة بكفرهم- في قولهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ فقدموا في معونتهم ما كان فألًا وكل بمنطقهم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في خذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ وبمثل هذا العزم استحق الكافر الخلود في العذاب ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ولما كان قولهم هذا مما يصدَّق من حيث كونه مؤكدًا ابتداء من غير سؤال فيه، بين حاله سبحانه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١١﴾ تشجيعًا للمؤمنين على قتالهم.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وصدق الله وكذبوا في الأمرين القتال والإخراج، فكان ذلك من أعلام النبوة ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: المنافقون في أي وقت ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ أي: المنافقون ومن ينصرونه ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وبين أنهم لا كرة لهم بعد هذه الفرة فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢﴾ وصدق سبحانه، لم يزل المنافقون واليهود في الذل ولا يزالون.

ولما كان ربما قيل: إن تركهم لنصرهم إنما هو لخوف الله أو غيره مما يحسن، علل بما ينفي ذلك ويظهر أن محط نظرهم المحسوسات فقال مؤكدًا؛ لإنكار المنافقين ومن قاربهم: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ﴾ الأمر الغريب وهو خوفهم الثابت من مخلوق مثلهم ضعيف لرؤيتهم له، وعدم خوفهم من الخالق على عظمته ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ أي: على قوتهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ ١٣﴾ أي: لا يتجدد لهم بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم فهمٌ فيدركوا به أن الله هو الذي ينبغي أن يخشى لا غيره.

ولما أخبر برهبتهم دل عليها بقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ وقد أخرج بهذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كاليسير ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن يبارز ونحو ذلك فإنه لم يكن عن اجتماع، أو يكون هذا خاصًا ببني

النضير في هذه الكرة ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ لما هم فيه من اجتماع الدفاع وعنه نشأت الشدة ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ أي: مفترقة أشد افتراق وعنه نشأت الرهبة، وموجب هذا الشتات اختلاف الأهواء التي لا جامع لها من نظام العقل وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحق، كاجتماع البهائم في الهرب من الذئب، قال القشيري: "اجتماع النفوس مع تنافر القلوب أصل كل فساد وموجب كل تخاذل ومقتضٍ لتجاسر العدو، واتفاق القلوب والاشتراك في الهمة والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة".

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ فلا دين لهم يجمعهم لعلمهم أنهم على الباطل فهم أسرى الأهوية، والأهوية في غاية الاختلاف، فالعقل مدار الاجتماع كما كان الصحابة في زمن النبي ﷺ، كما أن الهوى مدار الاختلاف.

ولما كان الإخبار بعدم عقلهم دعوى، دل عليها بأمر مشاهد فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ﴾ وهم كما قال ابن عباس: بنو قينقاع، أظهروا بأسًا شديدًا عندما قصدهم النبي ﷺ وقالوا: والله لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، ثم أرادوا مسلمةً على كشف وجهها فأبت فعقدوا طرف ثوبها من تحت خمارها، فلما قامت كُشفت سوأتها فصاحت، فغار لها صحابي فقتل الذي عقده فقتلوه فانتقض عهدهم، فأنزل النبي ﷺ بساحتهم جنود الله، فأذلهم الله ونزلوا على حكمه، وقد كانوا حلفاء ابن أبي ولم يغن عنهم شيئًا، غير أنه ألح على النبي ﷺ أن لا يقتلهم ففعل، فذهبوا عن المدينة بأنفسهم من غير حشر لهم بالإلزام بالجلاء ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾.

ولما شبه أمرهم في طاعتهم لابن أبي ومن معه بأمر بني قينقاع، شبه قصة الكل بقصة الشيطان ومن أطاعه فقال: ﴿كَمَثَلِ﴾ أي: مثل الكل، الواعدين بالنصر والمغترين بوعدهم مع علمهم بأن الله كتب في الذكر ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١]، في إخلافهم الوعد وإسلامهم إياهم عندما حق الأمر، يشبه مثل ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ أي: بالله، بما زين له من اتباع الشهوات القائم مقام الأمر.

ولما كان الإنسان بما يساعد تزيينَ الشيطان عليه من شهواته وحظوظه يطيع أمره غالبًا قال: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ وهذا كناية عن أنه فعل معه من الإعراض عنه وإهماله فِعلَ من أكد البراءة منه، وذلك كما فعل المنافقون باليهود، جرؤوهم على أمر يحبونه وهو

الإقامة في بلدهم، فلما نصبوا الحرب طمعًا في نصرهم، فَعل المنافقون بتباطؤهم عنهم فِعل المتبرئ منهم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيئًا إلا بإذنه. وكان هذا كمثل ما يجد الإنسان بعد الوقوع في المعصية من الندم والحيرة، فإذا وجد ذلك وهم بالتوبة، صعّبها عليه وزين له المعصية وجرأه عليها أو على ما هو أكبر منها، ولا يزال كذلك حتى يتعذر عليه الرجوع فيتحقق هلاكه وهلاك من أوقعه، فلذلك سبب عنه قوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

ولما أبلغ تعالى في المواعظ في هذه السورة قولًا وفعلًا، وكانت الإيقاعات فيها مسببة عن الخيانات ممن كان له عهد فنقضه، أو ممن كان أظهر الإيمان فأبان فعلُه كذبَه، قال استنتاجًا عن ذلك وعظًا للمؤمنين؛ لأن الوعظ بعد المصائب أوقع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ﴾ أي: كل نفس تنظر إلى نفاستها وتريد العلو على أقرانها ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ أي: من الزاد الذي يكون به صلاح المنزل الذي من لم يصلحه لم يكن له راحة، هل يرضي الملك ما قدمته فينجيها؟ أو يغضبه فيرديها؟

ولما كان الأجل مبهمًا فكان لقاء الله في كل لحظة ممكنًا مع كونه على الإطلاق محققًا، قال مشيرًا بتنكيره وإبهامه إلى تهويله: ﴿لِغَدٖۖ﴾ أي: يوم القيامة الذي هو في غاية القرب؛ لأن هذه الدنيا كلها يوم واحد والموت أو الآخرة غده لا بد من كل منهما، وكل ما لا بد منه فهو في غاية القرب لا سيما إن كان دائمًا، وكل من نظر لغده أحسن مراعاة يومه، وتنوينه للتعظيم من جهات لا تحصى.

ولما أمر بتقواه خوفًا من سطواته، أمر بها لأجل مراقبته حياء منه، تأكيدًا للأمر؛ لأن مدار النجاة على التقوى؛ لأن مكايد الشيطان دقيقة، فمن لم يبالغ في محاسبة نفسه وتفقّد ما يمكن أن يكون من الخلل في أعماله أوشك أن يحبطها الشيطان فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ حياء منه، فالتقوى الأولى لإيجاد صور الأعمال وهذه لتصفيتها، ولذلك علل بقوله مرغبًا مرهبًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

ولما كان الإنسان لنسيانه أحوج إلى التحذير قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ لما استغواهم به من أمره الشيطان ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ فلم يقدموا لها ما ينفعها، وإن قدموا شيئًا كان مشوبًا بالمفسدات من الرياء والعجب، فكانوا ممن قال فيه تعالى: ﴿وجوه يومئذ

خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارًا حامية﴾ [الغاشية: ٢ - ٤] لأنهم لم يدعوا بابًا من أبواب الفسق، فإن رأس الفسق الجهل بالله، ورأس العلم معرفة النفس، فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه «من عرف نفسه عرف ربه» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١٩﴾.

ولما تم الدليل على فلاح حزب الله وخسران حزب الشيطان، وكان المغرور بعد هذا بالدنيا الغافل عن الآخرة لأجل شهوات فانية، عاملًا عمل من يعتقد أنه لا فرق بين الشقي بالنار والسعيد بالجنة، قال إيقاظًا لهم من غفلتهم: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾ وأصحاب النار هم الهالكون في الدارين، كما وقع في هذه الغزوة لفريقي المؤمنين وبني النضير ومن والاهم من المنافقين.

ولما مر في هذه السورة وغيرها من حكمة القرآن وإعجازه بمطابقته لما نزل بسببه وصدقه فيما أخبر، رتب على ذلك قوله، مبينًا أن سبب افتراق الفريقين في العقبى افتراقهم في القرآن في الأولى تمثيلًا للقلوب في قسوتها أو لينها عند سماعه: ﴿۞لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ حذرًا أن لا يكون مؤديًا ما افترض عليه من تعظيم القرآن، فما لابن لآدم وقد آتاه الله العقل يستخف بحقه ويعرض عنه! ثم قال تبكيتًا وتوبيخًا لمن لم يرق له: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ أن كل ما فيه من شيء ففيه شاهد منه، متطابق له كتاب الخلق وكتاب الأمر.

ولما فتح السورة بالتنزيه ونزل لعباده في الأسباب حتى أوصلهم إلى محسوس الأمثال فتأهلوا للفناء في ذاته، رقاهم إلى التفكر في تفصيل ما افتتح به فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ وتوحيد اسم الإله فرض وهو أساس كل فريضة، وتوحيد سائر الأسماء نفل وهو أساس كل نافلة، فمن وحد في الكل كمل دينه وإلا كان من الذين آمنوا، فإن كان قولًا عصم بدنه في الدنيا، وإن كان علمًا تخلص من الهلع فيها، وهو الجزع عند الشر والمنع عند الخير.

ولن يشهد التوحيد في هذه الكلمة التي مضمونها توحيد اسم الإله إحسانًا، إلا بعد إحصاء جميع الأسماء علمًا، قال الحرالي: "وكل من عبد ما أحاط به عينه، فقد خذل عقله عن تصحيح معنى الإله الذي يجب أن يكون غيبًا، فكان تصحيح معنى الإله: أنه غيب قائم مستحق للعبادة والتذلل؛ لأجل قيامه والاستغناء به".

ولما أخبر بتفرده دل عليه بآية استحقاقه له فقال مقدمًا لما تقدم في الوجود: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال الحرالي: "والرحمة إجراء الخلق على ما يلائم خَلقهم وخُلقهم، فإذا اختص كان رحيمية، وإذا استغرق كان رحمانية"، ولما كانت الرحيمية خاصة بما ترضاه الإلهية قال: ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ قال: "الرحمة من الرحيم: اختصاص من شملته الرحمانية بمزية ما أوثر به من الرحمة".

ولما كان المُلْكُ كمالُ استيلاءٍ على الخلق، كان لا ملك في الحقيقة إلا الله، ولكنه تعالى لما كان قد أولى الخلق من رفعه بعضهم فوق بعض: ما أجرى عليهم اسم الملك فتنة لهم، فضلّ بسبب ذلك قوم ادعوا الملك الحقيقي، فغلط خلق فيهم فضلوا بهم، أعاد التهليل مع اسمه الملك، ولذلك أيضًا قال النبي ﷺ في حديث الذي تسمى ملك الملوك: «لا ملك إلا الله»، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ لأنه لا يحتاج إلى شيء، فإنه مهما أراد كان.

ولما كان المُلك أصل ما لحِق الخلق من الآفات؛ لأنه باب الترف الملازم لمخالفة كتاب الله، أما في الأعمال فيكون فتنة، وأما في الرأي فيكون علوًا وكفرًا، فإن أمر الله في بني آدم على ما هو نبوة، ثم ينزل فيصير خلافة، ثم ينتهي نزوله فيكون ملكًا، ثم تتداعى الأحداث، فلمكان تداعي المُلك لموجبات الذم قال عقبه: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾.

ولما كان تعالى يضع الأمور في أحكم مواضعها بما لا يدركه غيره حق إدراكه فاحتيج إلى ما يؤمّن من ضرٍّ في غير موضعه، قال مؤمّنًا للعاصي من المعاجلة وللمطيع من سوء المعاملة: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فهو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادة أسبابه ومنع أسباب المخاوف، فلا أمن في الوجود ولا أمان إلا وهو مستفاد من جهته.

ولما كان تحقيق السلم والأمن خفيًا يفتقر لمزيد علم قال: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ فإن الهيمنة شهادةٌ وإحاطة بكلية ظاهر الأمر وباطنه بحيث لا يخفى منه خافية، ولا مهيمن على هذا المعنى مع الأمانة والحفظ والرعاية فيكون قائمًا على كل شيء بكل ما له من رزق وعمل وأجل إلا هو، ولذلك كان القرآن الذي هو صفته سبحانه مهيمنًا على جميع الكتب التي قبله، مصدقًا لما يستحق التصديق منها، مكذبًا لما يستحق التكذيب، فمن كان به أمهر كان بذلك أعلم.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال الغزالي: "وهو الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه"، ولما كان العز قد لا يظهر لكل أحد قال: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ وهو الذي يصلح أمور من يريد من

الخلق ويقهرهم على ما يريد، ولِما فيه من الإلجاء كان هو الاسم الذي يلجئ النار لقصرها على مراده منها «فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع الجبار فيها قدمه».

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ ولسواء الخلق في عام حصر القدْر: شملهم الصغر فلم يصح منهم كِبر ولا شرع لهم تكبّر، فلم يكن للخلق منه حظ ولا لبس، فاختص بهذا الاسم؛ لاستيلائه على الظواهر بإظهار الكبر بعدم الحاجة إلى شيء وباحتياج غيره إليه، وإذلال جبابرتهم وغير ذلك، ولما تقرر بما ذكر من عظمته استيلاؤه على الظواهر والبواطن باللطف والعنف، أنتج ذلك تعاليه عن كل نقص فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣﴾.

ولما تم دليل الوحدانية فأنتج هذه الخاتمة، ابتدأ دليلًا أوضح فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ أي: الذي يصلح ما قدّره لقبول الصورة على أتم حال ﴿ٱلْمُصَوِّرُۖ﴾ والتصوير: إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإحكام أعضائه، ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾.

ولما أخبر أول السورة أن الكائنات سبحته خضوعًا لعزته وحكمته ودل عليه بما تقدم، دل على دوام اتصافه به بالمضارع فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان هذا المنزّه الذي استحلى التنزيه من الأسماء الحسنى قد أشرقت أنفاسه حتى صار علويًا فرأى الأرض عالية كالسماء؛ لما شاركتها به في الدلالة على الكمال قال: ﴿وَٱلْأَرْضِۖ﴾ فمن تأمل الوجود مجملًا ومفصلًا علم تسبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصاف الجلال والجمال.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٤﴾ قال الحرالي: "**الحكم**: المنع عما يترامى إليه المحكوم إيالة عليه، وحمله على ما يمتنع منه نظرًا له، ففي ظاهره الجهد وفي باطنه الرفق، وفي عاجله الكره وفي آجله الرَّوح، فهو دواء في الأبدان، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والعلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم من قوام أمر عاجلته وحسن العقبى في آجلته من **الحكمة**.

فالحكم مباح التعليم للناس عامة، بل واجب أن يتعلم كل امرئ من الأحكام ما يخصه، وأن تندب طائفة لعلم ما يعم جميع الناس ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية، والحكمة مشروطة التعليم بالتزكية ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢] فما يعلمهم الحكمة إلا بعد التزكية، فمن تزكى فهو من أهلها، ومن لم يتزكَّ فليس من أهلها، فالحكمة تحلي مرارة جهد

العمل بالأحكام، والحكم ضيق الأمر للنفس، كما أن السجن ضيق الخلق للبدن، والحكمة توطد محل ضيق الحكم لأنها تؤول إلى سعة الواسع، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم".

وجاء ترتيب الأسماء هكذا؛ لأن كل اسم منها شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للازمه وموضح لما ألاح أنه من مضمونه، وقد انعطف على افتتاحها ختامها، وزاد من الإرشاد إلى سبيل الرشاد، فسبحان من أنزله رحمة للعباد وهاديًا إلى السداد.

سورة الممتحنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها براءة من أقر بالإيمان ممن اتسم بالعدوان دلالة على صحة مدعاه، كما أن الكفار تبرؤوا من المؤمنين وكذبوا بما جاءهم من الحق؛ لئلا يكونوا على باطلهم أحرص من المؤمنين على حقهم، وتسميتها بـ«الممتحنة» أوضح شيء فيها على ذلك؛ لأن الصهر أعظم الوصل بعد الدين، فإذا مُنع دل على أعظم المقاطعة.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الكافي من لجأ إليه، فمن تولاه أغناه عمن سواه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولما كان التأديب عقب الإنعام جديرًا بالقبول، وكانت سورة الحشر مذكرة بالنعمة في فتح بني النضير ومعلمة بأنه لا ولي إلا الله وأن أولياءه هم المفلحون وأن أعداءه هم الخاسرون، وكان الحب في الله والبغض فيه أوثق عرى الإيمان، ولذلك ذم من والى أعداءه، وسماهم مع التكلم بكلمة الإسلام منافقين، أنتج ذلك قطعًا وجوب البراءة من أعدائه والإقبال على خدمته وولائه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ولما تقدم في المجادلة النهي عن إظهار مطلق الموادة للكفار، وفي الحشر الزجر عن إبطانها، فتكفلت السورتان بالمنع من مصاحبة ودهم ظاهرًا أو باطنًا، وبّخ هنا من اتصف بالإيمان على السعي في موادتهم فإنه قادح في اعتقاد تفرده تعالى بالعزة والحكمة، فعبر لذلك بالافتعال فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي﴾ ووحّد إشارة إلى أنهم في العداوة على قلب واحد، فأهل الحق أولى بذلك في الولاية ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أي: العريق في عداوتكم ما دمتم على مخالفته في الدين ﴿أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ﴾ أي: جميع ما بحوزتكم ﴿إِلَيۡهِم﴾ على بعدهم منكم.

ثم قال مهيجًا إلى عداوتهم بالتذكير بمخالفتهم إياهم في الاعتقاد الذي هو أشد المخالفة: ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ مذكرًا لهم بالحال الماضية زيادة في التنفير، ومصورًا لها بما يدل على الإصرار ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ وعبر بالمضارع إشارة إلى دوام أذاهم لمن آمن، ثم علل الإخراج بما يحقق معنى الكفر والعداوة فقال: ﴿أَن﴾ أي: لأجل أن ﴿تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ولما عبر بما أبان أنه مستحق للإيمان لذاته، أردفه بما يقتضي وجوب ذلك لإحسانه فقال: ﴿رَبِّكُمۡ﴾.

ولما ألهبهم بما فعلوا بهم، ألهبهم بما فعلوه هم لئلا يضيعوه، فقال معلمًا أن ولايته تعالى لا تصح إلا بالإيمان، ولا يثبت الإيمان إلا بالأعمال، ولا تصح الأعمال إلا بالإخلاص، ولا يكون الإخلاص إلا بمباينة الأعداء: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ﴾ ولما كان التقدير: فلا تتخذوهم أولياء، بنى عليه قوله، إعلامًا بأن الإسرار لأحد بما فيه نفعه لا يكون إلا توددًا: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: بسببها أو بسبب الإعلام بأخبار تراد بها أو تلزم منها، ولما كان المراد بالإسرار الستر على من يكره ذلك قال: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "افتتحت هذه السورة بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم وأمرهم بالتبرؤ منهم، وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [الآية: ٢٢]، فبنيت هذه على طلب الوفاء افتتاحًا واختتامًا؛ لينزه المؤمن عن حال من ذكره في اللتين قبلها".

ولما كان طول كفهم عن الأذى من سنة خمس إلى ثمان ربما شكك في عدواتهم، بين أنه لعجزهم، ولو حصل لهم ما هو للمسلمين الآن من القوة لبادروا إلى إظهار العداوة مع أنه في نصر الشيطان، فأولياء الرحمن أولى باتباع ما آتاهم من الإيمان فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يجدوكم وهم يطمعون في أخذكم بكونهم أقوى أو أعرف بشيء يوصل إلى الغلبة.

﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: يعدّون إلى أذاكم كل عدو يمكنهم وإن وادتموهم، ثم عرف أنهم لشدة غيظهم لا يقتصرون على ذلك فقال: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب إن استطاعوا ﴿وَأَلْسِنَتَهُم﴾ بالشتم مع الضرب ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بكل ما يسوء، ولما كان أعدى الأعداء من تمنى أن يفوتك أعز ما لديك قال: ﴿وَوَدُّوا۟﴾ أي: قبل هذا؛ لأن مصيبة الدين أعظم فهم إليها أسرع لأن دأب العدو القصد إلى أعظم ضرر يراه لعدوه ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ وقدم الأول لأنه أبين في العداوة وإن كان الثاني أنكأ.

ولما كانت عداوتهم معروفة وإنما غطاها محبة القرابات؛ لأن الحب للشيء يعمي ويصم، زهد فيها فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قراباتكم الحاملة لكم على رحمتهم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ﴾ الذين هم أخص أرحامكم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾.

ولما كانت عادته سبحانه التربية بالماضين قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ قال القشيري: "وممن آمن به في زمانه كابن أخيه لوط عليهما السلام، وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة"، ﴿إِذْ قَالُوا﴾ وهم أقل منكم وأضعف ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾ الكفرة، وهم أكثر من عدوكم وأقوى، ولما كان ضعفهم وقوة قومهم مبعدًا لأن يبارزوهم، أكدوا قولهم فقالوا: ﴿إِنَّا﴾ أي: من غير وقفة ولا شك ﴿بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ ثم أتبعوه سبب العداوة فقالوا: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ كائنًا من كان لا نخاف شيئًا من ذلك؛ لأن إلهنا لا يقاويه شيء، ولا تقدرون أنتم مع إشراككم به على البراءة منه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

ولما كانت البراءة على أنحاء كثيرة، بينوا أنها براءة الدين الجامعة لكل براءة فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ﴾ وهي المباينة في الأفعال بأن يعدو كل على الآخر، فهي مما يمتد فتكون مالئة لظرفها، قال التفتازاني: "الفعل المنسوب إلى ظرف الزمان بتقدير «في» يقتضي كون الظرف غير زائد عليه، مثل: صمت الشهر، يدل على صوم جميع أيامه بخلاف: صمت في الشهر، فإذا امتد الفعل امتد الظرف، وإذا لم يمتد الفعل -كوقوع الطلاق- لم يمتد الظرف؛ لأن الممتد لا يكون حاويًا لغير الممتد".

ولما كان ذلك قد يكون لغير البغض بل لتأديب ونحوه قالوا: ﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾ وهي المباينة بالقلوب بالبغض العظيم، ولما كان ذلك قد يسرع زواله قالوا: ﴿أَبَدًا﴾ ولما كان ذلك قد يكون لحظ نفس، بينوا غايته على وجه عُرفت به علته بقولهم: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: فلا تأسي لكم به ﴿لِأَبِيهِ﴾ واعدًا له قبل أن يَبين له أنه ثابت العداوة لله ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ لأنه استغفار لكافر ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

ولما اعترض بما لا ينبغي التأسي فيه للاهتمام بالتنفير منه، أتم ما يؤتسى فيه، فقال مبينًا أنهم ما أقدموا على مجافاتهم إلا وقد قرروا جميع ما يقولونه ورضوا به دون موادتهم وانقطعوا إلى الله وحده انقطاعًا تامًا، يفعل بهم ما يشاء من تسليطهم عليهم أو حمايتهم منهم لكنهم سألوا الحماية لئلا يزيد ذلك أعداءهم ضلالًا ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنا نعلم أنك تكفي كل ملم، وأنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، ورضينا بكل ما يحصل لنا منهم، غير أن عافيتك هي أوسع لنا.

﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ بالتسليط علينا ﴿فِتۡنَةً﴾ أي: موضع اختبار ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأن يعذبونا بعذاب يميلنا ويميلهم فيزيدهم ذلك طغيانًا ظنًا منهم أنهم على الحق وأنا على الباطل ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ ومن كان كذلك فهو حقيق بأن يعطي من أمّله فوق ما طلب. ثم أعاد التأسية تأكيدًا لها، فقال مصدرًا بما دل على القسم، إشارة إلى أن من فعل غير هذا كان كالمنكر لحسنه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ إِسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ بإخلاده إلى الدنيا ولم يرج اليوم الآخر، أعرض الله عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾.

وقد بينت الآية أدب العشرة لما هيجت على المفارقة للعصاة والتبرئ منهم حسًا ومعنى، وإظهار ذلك لهم قولًا وفعلًا إلى أن تحصل التوبة، ومن لم يفعل ذلك كان شريكًا في الفعل فيكون شريكًا في الجزاء كما ورد، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على ألسنة الأنبياء، ومن فعل ما أمره الله به كان فعله جديرًا بأن يكون سبب الوصله والقرب والمودة.

ولما كان ذلك شاقًا لما جبل عليه البشر من حب ذوي الأرحام والعطف عليهم، بيّن كيف يكون الخلاص من مثل هذه الواقعة فقال: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ وقد جعل ذلك عام الفتح تحقيقًا لما رجّاه، وأجرى سنته الإلهية بأن من عاديته فيه جعل عاقبة ذلك إلى ولاية عظيمة، ومن تهاونت في مقاطعته فيه سبحانه أقامه لك ضدًا ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ﴾ على تقليب القلوب وتيسير العسير ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾.

ثم قال مشيرًا إلى الاقتصاد في الولاية والعداوة: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: بحيث يكونون مظروفين له ليس شيئًا من أحوالهم خارجًا عنه، فأخرج ذلك القتال لحق دنيوي لا تعلق له بالدين، ومن لم يقاتل أصلًا كأهل الذمة، بل الإحسان إليهم من محاسن الأخلاق لأنهم جيران ﴿وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ بالبر الظاهر فإن ذلك غير صريح في قصد الموادة ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ لتكون العداوة في الله ﴿وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ فتصرحوا بأنهم أولياؤكم وتناصروهم ولو على أدنى الوجوه، بما أشار إليه إسقاط التاء ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾.

ولما كان نزول هذه الآيات حين قصد النبي ﷺ سنة ثمان مكة؛ لنقضهم عهده في صلح الحديبية، وكان من الصلح أن من جاء إلى النبي ﷺ من قريش وحلفائهم رده إليهم، ومن جاءهم ممن كان معه ﷺ لم يردوه إليه، وكان دخول النساء تحت لفظ «من» إما عريًا عن القرينة، أو أن القرينة القتال الذي وقع الصلح عليه بسببه صارفة عنه، وكان قد نهى عن تولي الكفار، وكانت المصاهرة من أعظم التولي، وصل بذلك من لا يحل رده إلى الكفار فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ﴾.

ولما كان لا يهجر داره وعشيرته لكفرهم إلا راسخ في الإيمان قال: ﴿ٱلْمُومِنَٰتُ﴾ ودل على إيمانهم بالهجرة فقال: ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ تأكيدًا لما دلت عليه الهجرة من الإيمان بالتحليف بأنهن ما خرجن إلا حبًا لله ورسوله ورغبة في دين الإسلام، ولما كان الاختبار ربما دل على أن إيمانهن لا يعلم إلا به نفى ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ومن الدليل على أن هذا ظاهر في المراد وأن القرائن موضحة له: أنه ﷺ لما أبى أن يرد إليهم من جاءه من النساء لم يعب أحد من الكفار ذلك، ولولا أن ذلك كذلك لملؤوا الأرض تشغيبًا، وقد دلت الأخبار الصحيحة على أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل أن ينفصل الأمر ويستقر، ودعوى النسخ ليست بشيء؛ لأن الله لا يأمر بإخلاف الوعد فكيف بنقض العهد؟

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ ثم قال مؤكدًا لقطع العلاقة من كل جانب: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقال البيضاوي: "الأولى لحصول الفرقة، والثانية للمنع من الاستئناف"، ثم أمر بما قدم من الإقساط إليهم فقال: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أي: الأزواج ﴿مَّا أَنفَقُواْ﴾ عليهن من المهور فإن المهر في نظير أصل العشرة ودوامها، وأما الكسوة والنفقة فإنها لما يتجدد من الزمان.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لأن الإسلام فرق بينهم، فإنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا، ولما أمر برد مهور الكفار فكان ربما ظن أنه مغن عن تجديد مهر لهن إذا نكحهن المسلم، نفى ذلك بقوله: ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولما قطع ما بين الكفار والمسلمات، قطع ما بين المؤمنين والكافرات فقال: ﴿وَلَا﴾ ولما كان إمساك المرأة مع عداوتها لمخالفتها في الدين دليلًا على غاية الرغبة فيها، دل على ذلك إشارة إلى التوبيخ بالتضعيف في قراءة البصريين فقال: ﴿تُمَسِّكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَا أَنفَقْتُمْ﴾.

ولما أمر برد مهور المؤمنين إلى الكفار وأذن للمؤمنين في المطالبة بمهور أزواجهم أذن للكفار في مثل ذلك إيقاعًا للقسط بين عباده مسلمهم وكافرهم، معبرًا بالغيبة إعراضًا عنهم، إعلامًا بشدة كراهته سبحانه للظلم، وأنه يستوي فيه الكافر مع عداوته بالمؤمن مع ولايته فقال: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ وهل هذا الحكم باق؟ قال قوم: نعم، وقال عطاء ومجاهد وقتادة: نُسخ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الحكم العليّ عن كل سفه ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ وبشر بتجديد أمثاله لهم بقوله: ﴿يَحۡكُمُ﴾ ودل على استغراقه لجميع ما يعرض بين العباد بإعراء الجار من قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡۖ﴾ وذلك لأجل الهدنة بين النبي ﷺ وبينهم، وأما قبل الحديبية فكان ﷺ يمسك النساء ولا يرد الصداق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾.

ولما كان الظن بالكفار عدم العدل فلا يعطون المؤمنين مهور نسائهم الكافرات، قال مداويًا لذلك: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ أي: تمكنتم من المعاقبة بأن فات الكفارَ شيءٌ من أزواجهم بالهجرة أو الغنيمة ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم﴾ أي: منكم إن اختاروا الأخذ ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ على الكافرة الفائتة إلى الكفار مما غنمتم منهم، أو بأن تدفعوا إليهم مثل مهر أزواجهم، ولما كان المعامَل هنا عدوًا في الدين فلا يحمل على العدل فيه إلا خالص التقوى قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

ولما وقع الامتحان للمهاجرات وعُرف الإيمان، أمر النبيَّ ﷺ بعد الحكم بإيمانهن بمبايعتهن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ سواء في ذلك كونه من زنى أو لا ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ﴾ وهو أن تقذفَ ولدًا على زوجها ليس منه ﴿يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ﴾ أي: بالحمل في البطون ﴿وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ أي: بالوضع من الفروج.

ولما حقق هذه الكبائر تعظيمًا لأمرها لعسر الاحتراز منها، وأكد النهي عن الزنى مطابقة وإلزامًا؛ لما يجر إليه من الشرور: القتل فما دونه، وغلظ أمر النسب لما يتفرع عليه من إيقاع الشبهات وانتهاك الحرمات، عم في النهي فقال: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ وفي ذكره مع العلم بأنه ﷺ لا يأمر إلا به، إشعار بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقدم المنهيات على المأمورات المستفادة من المعروف؛ لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التحلي بالفضائل ﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾.

ولما عُلم أن تولي النساء مع أنه لا ضرر فيهن بقتال ونحوه، لا يسوغ إلا بعد العلم بإيمانهن، كرر الأمر بالبراءة من كل عدو ردًا للمقطع على المطلع تأكيدًا للإعراض عنهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا، فهو عام في كل من اتصف بذلك، ويتناول اليهود تناولًا أوليًا.

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: من أن ينالهم منها خير ما؛ لإحاطة معاصيهم بهم، أو لعدم اعتقادهم لقيامها، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فيوشك من والاهم أن يكتب منهم فيحل به الغضب ﴿كَمَا يَئِسَ﴾ من نيل الخير منها ﴿ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾ فإن الكفار منهم قد علموا يأسهم من حصول الخير منها علمًا قطعيًا.

ويجوز أن تكون ﴿من﴾ ابتدائية فيكون المعنى: كما يئس عباد الأوثان من لقاء من مات، فدفن باعتقاد أنه لا اجتماع بينهم؛ لأنه لا يمكن بعثه، لا سيما إن كان مدفونًا في قبر، وعلى هذا يكون الظاهر وضع موضع المضمر للدلالة على أن الذي أيأسهم: تغطية الدلائل مع وضوحها لو أنصفوا.

فلا تتولوا من هذه صفته فإن توليهم ضرر لا نفع فيه، فإن من غضب عليه الملك لا يفلح هو ولا من تولاه، وأقل ما في ولايته من الضرر أنها تنقطع المشاركة فيها بالموت، وإن كان بعده مشاركة ففي العذاب الدائم والخزي اللازم، وقد علم أن هذا الآخر هو أولها، فسبحانه من أنزله كتابًا معجزًا حكيمًا.

سورة الصف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الحث على الاجتهاد في الاجتماع على قلب واحد في جهاد من دعت الممتحنة إلى البراءة منهم، تنزيهًا للملك الأعلى عن الشرك، ودلالة على الصدق في البراءة منهم والعداوة لهم، وأدل ما فيها على هذا المقصد «الصف» بتأمل آيته، وتدبر ما له من جليل النفع في أوله وأثنائه وغايته، وكذا «الحواريون».

لما ختمت الممتحنة بالأمر بتنزيهه سبحانه عن تولي من يخالف أمره بالتولي عنهم افتتحت الصف بما هو كالعلة لذلك فقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بامتثال جميع ما يراد منه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله: ﴿لا تتولوا قومًا غضب الله عليهم﴾ وهم اليهود، وقد تقدم الإيماء إلى ما استوجبوا به هذا، فأتبع بالأمر بالوفاء الذي حد لهم في الممتحنة؛ ليتنزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فقيل للمؤمنين: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق اللعنة والغضب".

ولما كان فعلُ من ناصح الكفار ممن آمن بلسانه وأذعن بجنانه وهاجر بأركانه نوعَ مناصحة فعلَ من يقول ما لا يفعل في منابذتهم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ وخلف الوعد في نفسه قبيح ومع الخالق أقبح ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ وكل ما ذكروه في سببها صالح للسببية، ومنه قول بعضهم: لو ندري أحب الأعمال إلى الله لاجتهدنا فيه. ثم ولوا يوم أحد، وتوانى بعضهم في الجهاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ حتى كأنهم في اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا في الاصطفاف كالبدن الواحد ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ فإن من كان هكذا جدير بأن لا تخالف أفعالُه أقوالَه، فالرص إشارة إلى اتحاد القلوب والنيات في موالاة الله

ومعاداة من عاداه، المنتج لتسوية الصفوف في الصلاة التي هي محاربة الشيطان، والحرب التي هي مقارعة حزبه، والأفعال التي هي ثمرات الأبدان.

ولما كان التخلف عن أمر الله وترك ما يؤدي تركه إلى الإخلال به، موجبًا للكون في صف الشيطان، فيوجب ذلك الشقاء كله لأنه جدير بأن يجر إلى أن تحيط الخطايا فتبيح الرزايا، وكان للتذكير بالمشاهدات ما ليس لغيره في التأديب، رهّب من مثل ما كان لبني إسرائيل حين تقاعسوا عن فتح بيت المقدس، فسماهم الله فاسقين وضربهم بالتيه أربعين سنة أمات فيها كل من توانى فلم يدخلها منهم أحد، فحرموا البلاد التي هي بعد مكة والمدينة خير بلاد الله فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالتواني في أمر الله والتقاعد عن فتح بيت المقدس مع قولي عن الله أنكم فاتحوها إن أطعتموه.

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لا أقول لكم شيئًا إلا عنه فعصياني عصيانه ﴿إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ أي: الذين لهم قوة المحاولة، فلم يحملهم على الفسق ضعف.

ولما كان أذى النبي بمخالفة أمره تارة يكون مع الإقرار برسالته وتارة مع الإنكار، وقدم العتاب على ما كان منه على تقدير التصديق، أتبعه ما يكون منه عند فرض الإنكار مع كونه دليلًا على إزاغة قلوبهم جزاء على زيغهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا﴾ أي: حال تصديقي للتوراة، ليكون في ذلك إشارة إلى أن البشارة به في التوراة والإنجيل، ولما كانت رسالته ﷺ عامة لجميع الخلق لم يذكر حرف الغاية كما ذكر في الرسالتين قبله فقال: ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

قال ابن إسحاق: "وقد كان فيما بلغني عما وضع عيسى عليه السلام فيما جاءه من الله تعالى في الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ أنه قال: «ولكن لا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس أنهم أبغضوني مجانًا -أي: باطلًا- فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس، هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد عليّ وأنتم أيضًا؛ لأنكم قديمًا كنتم معي في هذا، قلت لكم لكي لا تشكوا»، فالمنحمنا بالسريانية محمد ﷺ وهو بالرومية البارقليطس".

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: عيسى أو محمد عليهما السلام، بني إسرائيل وغيرَهم ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ العظيمة التي لا يسوغ لعاقل إلا التسليم لها ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾.

ولما كانوا بذلك أظلم الناس قال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ وعم كل من اتصف بوصفهم فقال: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ الذي هو أحسن الأشياء، فيكفي في الدعاء إليه أدنى تنبيه؛ لأنه الاعتراف بالحق لمن هو له، فيجعل مكان الإجابة افتراء الكذب في تلك الحالة الحسنى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ وعلل ردهم للرسالة بقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: بما يقولون من الكذب الذي لا منشأ له غير الأفواه؛ لأنه لا اعتقاد له في القلوب لكونه لا يتخيله عاقل، وأفاد قصر الفعل أن إرادتهم كلها مصروفة لهذا الغرض، فهو أبلغ مما في براءة(٦٠) لأن هذه نتيجتها.

﴿وَٱللَّهُ﴾ ولما كانت هذه السورة نتيجة سورة براءة التي أخبر فيها بأنه يأبى إلا إتمام نوره، أخبر في هذه بنتيجة ذلك وهي ثبات تمام النور ودوامه فقال: ﴿مُتِمُّ﴾ ولما كان النور لإظهار الأشياء بعد انطماسها سببًا لوضعها في أتقن مواضعها، وكان ما أتى من عند الله من العلم كذلك، جعله عينه فأطلق عليه اسمه فقال: ﴿نُورِهِۦ﴾ فلا يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا إرادة إطفائه ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾.

ثم علل ذلك بما هو شأن كل ملك فكيف بالواحد في ملكه فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: البيان الشافي ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: الملك الذي ثباته لا يدانيه ثبات، فثبات هذا الدين بثباته، ويجوز أن يكون المعنى: والدين الذي هو كامل في الحقية، فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته إشارة إلى شدة التباسه بها.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ وأعظم مراد بهذا أهل العناد ببدعة الاتحاد، فإنهم ما تركوا شيئًا حتى أشركوه به، لكنهم على كثرتهم في غاية الذل ولله الحمد، لا عز لهم إلا بإظهار الاتباع للكتاب والسنة، وهم يعلمون أنهم يكذبون في هذا لأنهم في غاية المخالفة لهما، ثم لا يردهم علمهم بذلهم وأنهم لا عز لهم إلا بحمى الشريعة عن ضلالهم، فاعجب لذلك واسأل الله العافية، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، وضربهم بالذل مع كثرتهم في غاية الدلالة على الله سبحانه.

---

(٦٠) يعني قوله تعالى: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ التوبة: ١٣٣.

ولما أنتج هذا كله نصر رسول الله ﷺ، أنتج أن الجهاد معه متجر رابح؛ لأن النصر مضمون والموت محتوم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ والآية أيضًا نتيجة ما مضى؛ لأنه لما وبخ على انحلال العزائم وأمر بالقتال، كان موضع الاستباق في طاعته فذكر ثمرته ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُومِنُونَ﴾ أي: آمنوا بشرط تجديد الإيمان على سبيل الاستمرار ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ بيانًا لصحة إيمانكم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بحيث يكون ظرفًا لكم في جميع هذا الفعل، فلا يخرج منه شيء عنه؛ ليكون خالصًا فتكونوا ممن يصدق فعله قوله ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾.

وعظّمه بمدحه قبل ذكر جزائه فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَّكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ولم يحتج إلى ذكر الخلود لإغناء ما بعده عنه ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢﴾.

ولما ذكر ما أنعم عليهم به في الأخرى لأنه أهم لدوامها، ذكر ما جعل لهم في الدنيا فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ أعظمه فتح مكة الذي كتب حاطب بسببه، وفيه شهادة له بأنه يحب نصرة النبي ﷺ والفتح عليه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُومِنِينَ ۝١٣﴾ بالفتح، وأول ذلك مكة المشرفة، ولا يحوجهم أن يدرؤوا عن عشائرهم وأموالهم، ولا أن يخالف شيء من أفعالهم شيئًا من أقوالهم.

ولما تهيأت النفوس بذلك للجهاد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ ولما كان التقدير: ثم دعوا من خالفهم من بني إسرائيل وبارزوهم، سبب عنه قوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ ولما كان الظفر بالمحبوب أحب ما يكون إذا كان أول النهار قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ بعد ما كانوا فيه من الذل ﴿ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ لا يخافون أحدًا إلا الله، ولا يستخفون منه.

فقد رجع آخر السورة كما ترى، بما وقع من التنزه عما يوهمه علو الكفرة من النقص، بنصر أوليائه وقسر أعدائه، ومن الأمر بما أخبر أولها أنه يحبه من القتال في سبيله = على أولها، والله الموفق للصواب.

سورة الجمعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها بيان مسمى الصف بدليل هو أوضح شرائع الدين وأوثق عرى الإسلام وهو الجمعة التي اسمها مبين للمراد منها من فرضية الاجتماع فيها والتجرد عن غيرها، واسمها «الجمعة» أنسب شيء فيها لهذا المقصد بتدبر آياته الحاثة على قوة التواصل والاجتماع، والحاملة على دوام الإقبال على المزكي والاتباع.

ولما ختمت الصف بتأييد من أقبل من بني إسرائيل على من زاغ، فثبت أن له تمام القدرة المستلزم لشمول العلم، وكان سبحانه قد ذكر التسبيح بلفظ الماضي في افتتاح ثلاث سور وذلك نهاية الإثبات المؤكد، فثبت أنه نزهه كل ناطق وصامت، أخبر أول هذه أن ذلك التنزيه على وجه التجديد والاستمرار بالتعبير بالمضارع؛ لاستمرار ملكه فقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ وأكده بما في التغابن، وجعل بين كل مسبحتين سورة خالية منه؛ ليكون آكد من حيث شدة الاعتناء بالذكر وإن وقع فصل.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: الذي ثبتت له جميع الكمالات، فهو ينصر من يشاء ولو كان ذليلًا فيصبح ظاهرًا ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ الذي انتفت عنه جميع النقائص، فلا يكون شيء إلا بإذنه ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، فلو أراد لجعل العقلاء كلهم مع تسبيحهم بالجري تحت مراده، مسبحين بالموافقة لأمره ﴿ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ الذي يوقع كل ما أراده في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في استجابتهم، أتبع بذكر هذه الأمة والثناء عليها فقال: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم﴾ ثم أعلم بطائفة لاح لهم نور الهدى فعميت عنه ولم تزدد بما حملت إلا ضلالة فقال: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ الآية، وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه؛ لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم مثل أولئك الممتحنين".

ولما كان قد أسلف عن بني إسرائيل أنهم لم يقبلوا التزكية بل زاغوا، دل على ما وصف به نفسه فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: العرب لأنهم كانوا لا يكتبون بل هم على

الخلقة الأولى حين الخروج من بطن الأم، ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض؛ لأن بعثه ﷺ كان حين ذهب العلم من الناس ﴿رَسُولًا﴾ ولما كان تقويم الشيء بمثله أعجب قال: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ لئلا يتوهم الافتقار إلى الكتب؛ لأن مشاكلته لمن بعث فيهم أقرب إلى مساواتهم له لو أمكنهم، فيكون عدم إمكان المساواة أدل على الإعجاز، وذكر بعثه منهم إن خص الوصف بالعرب لا ينفي بعثه إلى غيرهم ولا سيما مع ما ورد فيه من الصرائح، فذكر موضع البعث وابتداءه فتكون الغاية: إلى عامة الخلق.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولما كان المقام للتنزيه وتأديب من وقع في موادة الكفار ونحوه، قدم التزكية فقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ ولما كانوا بعد التزكية التي هي تخلية عن الرذائل أحوج ما يكون إلى التحلية بالفضائل قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن﴾ أي: والحال أنهم ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ باعتقاد الأباطيل وظنهم أنهم على شيء والرضا بالجهل وعيبهم من يميل إلى التعلم والتبصر كما وقع لهم مع زيد بن عمرو بن نفيل وغيره، فوصفهم بهذا غاية في نفي التعلم من مخلوق عن نبيهم؛ إعظامًا لما جاء به من الإعجاز، وتقريرًا لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم إلى الهدى.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ أي: وبعثه في آخرين ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في الأمية لا في العربية ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ في صفة من الصفات بل هم أجلف الناس كعوام المجوس والبرابر ونحوهم، وسيلحقهم الله بهم في العلم والتزكية ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فهو يزكي من يشاء ويعلمه ما أراد من أي طائفة كان ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ فهو إذا أراد شيئًا موافقًا لشرعه وأمره جعله على أتقن الوجوه وأوثقها فلا يستطاع نقضه، ويؤيد أن المراد بهم العجم: أن رجلًا سأل عنهم لما نزلت السورة فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان وقال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء».
﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾.

ولما دل على فضله العظيم بتعليم الجاهل، دل على عقابه الأليم بتجهيل العالم بإزاغة قلبه؛ لغضبه عليه، تحذيرًا من الوقوع بما يوجب الإضلال بعد العلم، فقال محذرًا من يُزكَّى فلا يتزكى، ويُحمَّل الكتاب فيحمله غير عالم به: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ بأن علمهم الله إياها وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان، ومعانيها عن التحريف والتلبيس، وحدودها عن الإهمال والتضييع ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ بأن حفظوا ألفاظها ولم يعملوا بها، فهي ضارة لهم بشهادتها عليهم، قاذفة لهم في النار من غير نفع.

﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾ الذي هو مثل في الغباوة، حال كونه ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَاۢ﴾ ولما كان وجه الشبه: شخصًا مثقلًا بشيء لا نفع له به، فهو ضرر عليه صرف لا يدرك مما هو حامله غير أنه متعب، قال ترهيبًا للأميين من التهاون بشيء من أحكام القرآن فيكونوا أسوأ مثلًا من أهل الكتاب فيكونوا دون الحمار؛ لأن رسولهم ﷺ أعظم وكتابهم أعلى: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: الذين لهم قوة على ما يريدونه، فلم يؤتَوا من عجز يعذرون به ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا المثل وإن كان في اليهود فهو لجميع قرّاء السوء من كل ملة؛ لاشتراكهم في وجه الشبه، كمثل الكلب في الأعراف ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ﴾ أي: لا يخلق الهداية في قلوب الأقوياء الذين تعمدوا الزيغ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ بمنابذة الهدى.

ولما كان قولهم أنهم أولياء الله وأحباؤه بعيدًا من هذا المثل، دل على صحة المثل بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦﴾ فإن من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب، ومن كان في كدر وله ولي قد وعده عند الوصول إليه الراحة التي لا يشوبها ضرر، فإنه قطعًا يتمنى النقلة إليه.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ واكتفى بهذا في التعبير؛ لأن المذكور من دعواهم هنا أنهم أولياء لا كل الأولياء، فهي دون دعوى الاختصاص بالآخرة(٦١)، وعرّف أن سببه معرفتهم بأنهم أعداء الله فقال: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ﴾ بهم، هذا الأصل، ولكنه قال: ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ تعميمًا وتعليقًا بالوصف لا بالذات، فهو يجازيهم على ظلمهم وهم يعلمون ذلك وأنهم يصيرون إلى النار، والعرب يظنون أنهم لا يبعثون فهم لا يخافون ما بعد الموت، وهم شجعان يقدمون عليه كما قال عنترة:

بكرَتْ تخوّفني الحتوفَ كأنني ... أصبحتُ عن غَرضِ الحتوفِ بمَعزِلِ
فأجبتُها إنّ المنيَّةَ مَنهلٌ ... لا بد أن أُسقى بذاك المنهلِ
فاقني حياءكِ لا أبا لكِ واعلمي ... أني امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقتَلِ

(٦١) في قوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدًا﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٥].

ولما كان ذلك فعل من يعتقد أن التمني يقدمه عن أجله وعدمه يؤخره، فصاروا بين التكذيب والبلادة، نبههم على بلادتهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وربَطه بالفاء جعلًا لفرارهم كالسبب له، فإن الجبن من أسباب الموت، مع ما يُكسِب من العار ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ في كل وجه سلكتموه بالظاهر أو الباطن ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم قال مستنتجًا مما مضى، نادبًا إلى التزكية التي هي ثمرة الرسالة بما حاصله الإقبال بالكلية على الله، خاصًا أعظم تسبيح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: الذي عرض على من قبلنا فأبوه فكانوا كمثل الحمار يحمل أسفارًا، ووفقنا الله لقبوله فكانوا لنا تبعًا مع تأخرنا عنهم في الزمان، سمي بذلك لوجوب الاجتماع فيه للصلاة، ومِن جمعِه أن فيه اجتمع خلق آدم عليه السلام فاجتمع به جميع الخلق، وهو مذكر بيوم البعث كما قال ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة» إلى أن قال: «وفيه تقوم الساعة».

وكان النداء في زمن النبي ﷺ عند باب المسجد إذا صعد على المنبر، وكذا في زمن أبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل وقلت الهمم زاد مؤذنًا آخر، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن ثانيًا الأذان الذي كان على زمن النبي ﷺ، ولم يعب أحد عليه ذلك لعلمهم أنه من السنة، بما جعل إليه النبي ﷺ حين قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي».

ولمّا أمر بالمبادرة إلى تجارة الآخرة بقوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وكان طلب الأرباح لحضورها أعظم مانع عنها لغيابها، قال ناهيًا عن تجارة الدنيا وكل ما يعوق عن الجمعة، معبرًا بالبيع عنها لأنه أعظمها: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ ووقت التحريم من الزوال إلى فراغ الصلاة، فإن خالف وباع صح العقد مع عصيانه، فإن النهي ليس لعينه ولا لما هو داخل فيه ولا لما هو لازم له، بل لأمر مقارن بطريق الاتفاق وهو ما فيه من الذهول عن الواجب ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الذي أمركم به له الأمر كله وهو يريد تطهيركم، وبيده إسعادكم وإشقاؤكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ولما أرشد إلى أن وقت الصلاة متى طلب فيه شيء من الدنيا محقت بركته مع ما اكتسب من الإثم، بين وقت المعاش فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن

﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان السعي في طلب الرزق ملهيًا عن الذكر، بين أنه أعظم السعي فيه وأن من غفل عنه لم ينجح له مقصد فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولما كان العبد مطلوبًا بالعبادة في كل حال لأنه مجبول على النسيان، فمهما فتر عن نفسه استولت عليها الغفلة فمرنت على البطالة فهلكت، قال: ﴿كَثِيرًا﴾ ولما كان مراد الإنسان من جميع تصرفاته الفوز بمراداته، قال معللًا لهذا الأمر: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾.

ولما قدّم بهذه الأوامر الشريفة والتفضّلات الكريمة، قال معجّبًا: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ وأنث الضمير للدلالة على أنه إذا ذم قاصد التجارة مع ما فيها من النفع، كان الذم لقصد اللهو من باب الأولى ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ﴾ لهم ترغيبًا في الرجوع إلى ما كانوا عليه من طلب الخير من معدنه ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من بوادر الحقيقة الحاصلة من سماع الخطبة، الآمر بكل خير الناهي عن كل شر، المفيد لتزكية الباطن وتقويم الظاهر.

﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ لأنه يرزق متاع الدنيا لسفوله البرَّ والفاجر، وأما المعارف الإلهية والأعمال الدينية فلا يؤتيها إلا الأبرار، فلا تظنوا أن الغنى في البيع والتجارة، إنما هو في متابعة أمر من أحل البيع وشرع ما هو خير منه، فأقبلوا على متابعة رسوله ﷺ تنالوا خيري الدارين.

فقد رجع آخر السورة على أولها بما هو من شأن الملك القدوس من الرزق، وتبكيت من أعرض عن خطبته ﷺ اللازم منه دوام الإقبال عليه؛ لأنه لا يدعوهم إلا لما يحييهم.

سورة المنافقون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها التحذير مما يثلم الإيمان من الأعمال الباطنة بمخالفة الفعل للقول فإنه نفاق في الجملة فيوشك أن يجر إلى كماله؛ ليكون هذا التحذير سببًا في صدق الأقوال ثم الأعمال، فصدق القول أن لا يقول القائل إلا عن برهان، وصدق العمل أن لا يكون للبدعة عليه سلطان، وتسميتها بـ«المنافقين» واضحة في ذلك.

لما نهى في الممتحنة عن اتخاذ عدوه وليًا، وذم في الصف على المخالفة بين القول والفعل، وحذر آخر الجمعة من الإعراض عن النبي ﷺ على أيّ حال ولو مع الوفاق؛ لأن صورة ذلك كله نفاق، قبح في أول هذه حال من أقبل عليه على حال النفاق؛ لأنه يكون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، واستمر في ذمهم ليكون زاجرًا عن كل ما ظاهره نفاق فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم، وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ سواء شهدوا بذلك أم لا، وتوسط هذا بين شهادتهم وتكذيبهم لئلا يتوهم أن شهادتهم بالرسالة كذب ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ أي: في إخبارهم عن أنفسهم أنهم يشهدون؛ لأنهم لا يعتقدون ذلك.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما ذكر حال من لم ينتفع بما حمل، وكان في ذلك من المواعظ ما ينتفع به من سبقت له السعادة، أتبع بما هو أوقع في الغرض، وهو ذكر طائفة بين أظهر من قدم الثناء عليهم، ومعلوم أن اتعاظ الإنسان بالقريب إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاظه بمن بعد، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظًا للمؤمنين بحال أهل النفاق، وبسط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه".

ثم بيّن الحامل لهم على الكذب القبيح فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ أي: وقاية من المكاره الدنيوية ﴿فَصَدُّواْ﴾ أي: أعرضوا بأنفسهم، وحملوا غيرهم عليه؛ لما يرى من مشي حالهم بتلك الظواهر مع بقائهم على ما ألفوه من الكفر الذي يزينه الشيطان ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ﴾ وأكده لأن حالهم يعجبهم وكثيرًا ممن قاربهم ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾ ولما كانت المعاصي تعمي القلب فكيف بأعظمها؟ علله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾ أي: أقروا بألسنتهم من غير مطابقة لقلوبهم ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ سرًا فهابوا الناس ولم يهابوا الله ﴿فَطُبِعَ

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لاجترائهم على أكبر الكبائر على وجه النفاق حتى مرنوا على الكفر، وكذلك من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونًا بها ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾.

ولما وصف بواطنهم بما زهد فيهم، وكانت لهم أشكال تغر ناظرها؛ لأن العرب كانت تقول: جمال المنظر يدل على حسن المخبر، قال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ فإن غايتهم كلها بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم، ولما كان قول العرب: المرء بأصغريه قلبه ولسانه، مشروطًا بمطابقة اللسان للقلب، قال معبرًا بأداة الشك إشارة إلى أنهم لا يكلمونه ﷺ إلا اضطرارًا لأنهم لا يحبون مكالمته ولا باعث لهم عليها لمرض قلوبهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لأنه يكون بحيث يلذ السمع ويروق الفكر؛ لما فيه من الادهان مع الفصاحة.

ولما أخبر عن ظاهرهم، دل على أنه لا حقيقة له فقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وعدم الانتفاع بهم في فهم أو ثبات ﴿خُشُبٞ﴾ جمعُ كثْرة لخشبة دليلًا على كثرتهم ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ قد قطعت وقشرت وأسندت إلى الجدر لئلا يفسدها التراب، فهي بِيض تعجب ناظرها، ولا ثبات لها ولا باطن بثمرة ولا سقي، فلا مدد سماوي يزكيها، فقد فقدت روح الإنبات الذي به كمالها، كما فقد المنافق روح الإيمان الذي به كمال الناطق وبقاؤه.

ولما كان من يقول ما لا يفعل يصير متهمًا؛ لأنه لإخلافه لمن يكلمه قد صار عدوه فيتوهم الناس كلهم أعداء له فيجبن أشد الجبن فلذلك يحسّن قوله قال: ﴿يَحۡسِبُونَ﴾ أي: لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم؛ لكثرة ما يسوء من أعمالهم ﴿كُلَّ صَيۡحَةٍ﴾ من نداء مناد في انفلات دابة أو إنشاد ضالة ونحو ذلك ﴿عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ وعبّر بالمفرد إشارة إلى أنهم في شدة عداوتهم للإسلام وأهله على قلب واحد وإن أظهروا التودد في الكلام إلى أهل الإسلام ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ أي: يصرفون عن إدراك قبح ما هم عليه؛ ليرجعوا عنه إلى الأنس بالدين وإدراك بركته.

ولما كان هذا أمرًا عظيمًا يحتاج فاعله إلى التطهير بسؤال النبي ﷺ ولم يفعلوه، دل على سوء بواطنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ﴾ بعين البصيرة ﴿يَصُدُّونَ﴾ مجددين للصد كلما دعوا إليه ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥﴾ ولما كان النبي ﷺ يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم، قال منبهًا على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار

لأنهم لا يؤمنون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ لأنه لا أثر له عندهم، ولهذا كانت نتيجته عقوبة لهم: ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾.

ولما أخبر بفسقهم، بيّن الأمر الذي فسقوا به فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ﴾ أيها المخلصون في النصرة ﴿عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهم فقراء المهاجرين، وزادوا غباءً بقول ما دل على أنهم ظنوا أن أبواب الرزق تغلق إذا امتنع المنفقون من الناس عن إنفاقهم فقالوا: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله غيرهم للإنفاق ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو يعطي من يشاء منها ما يشاء حتى من أيديهم، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك، لا مما في يده ولا مما في يد غيره.

ولما كان ما يساق إلى الخلق من الأرزاق يظن كثير منهم أنهم حصلوه بقوتهم، عبر بالفقه الأخص من العلم فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾ أي: لا يتجدد لهم فهم أصلًا؛ لأن البهائم إذا رأت شيئًا ينفعها يومًا ما في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرة البركات على يد رسول الله ﷺ فلم ينفعهم ذلك، فمن رأى أن رزقه بيد الخلق فألهاه ذلك عن الله حتى ضيع حقوقه وداهن في دينه فقد برئ من القرآن.

ودل على عدم فقههم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ من غزاتنا هذه، التي قد رأوا فيها من نصرة النبي ﷺ ما يعجز الوصف وهي غزوة بني المصطلق، وفيها تكلم ابن أبي بالإفك ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وهم كاذبون لكنهم ظنوا لغباوتهم أن العزة لهم وأنهم يقدرون على إخراج المؤمنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ لأن عزته من عزته بعز النبوة، وكذلك العزة لمن أطاعه لقوله: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأن عزتهم بعزة الولاية، ونصر الله إياهم عزة لرسولهم ﷺ، ومن تعزز بالله لم يلحقه ذل، ولما كان جهلهم في هذا أشد؛ لكثرة ما رأوا من نصرة الله لرسوله ﷺ والمؤمنين قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ ولما كانت الدلائل على عزة الله لا تخفى، ختم الآية بالعلم الأعم من الفقه فقال: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾.

ولما كان فعل المنافقين هذا عجيبًا، نبه على أن العلةَ الموجبةَ له طمسُ البصيرة، وأن العلة في طمسها: الإقبال بالكلية على الدنيا، رجوعًا على إيضاح ما تقدم في نتيجة الجمعة من الإذن في طلب الرزق، والتحذير من مثل فعل حاطب رضي الله عنه ومن انصرف عن الخطبة لتلك العير، فإن كلمة الشح كما قيل مطاعة، ولذلك قال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾

سواء في إصلاحها أو التمتع بها ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ فإن العبد إذا كان ذاكرًا له بقلبه دائمًا لم يقل كقول المنافقين؛ لعلمه أن الأمر كله لله ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ وذلك ضد ما أرادوا بتوفير النظر إليهم والإقبال عليهم.

وفي إفهامه أن من شغله أمر دينه الذي أمره تعالى به ونهاه عن إضاعته، كفاه دنياه التي ضمنها له ونهاه أن يجعلها أكبر همه، فما ذكره إلا من وجده في جميع أموره دينًا ودنيا، وأقبل عليه بكل همومه، واتخذه وكيلًا فاستراح من المخاوف، ولم يمل إلى المطامع، فصار حرًا.

ولما حذر من الإقبال على الدنيا رغب في بذلها مخالفة للمنافقين فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ قال الغزالي في الإحياء: "قال بعض العارفين: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة، فيبدو للعبد من الحسرة ما لو كانت له الدنيا لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين: **أحدهما** أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينًا وطبعًا فلا يقبل المحو، **الثاني** أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو فيأتي اللهَ تعالى بقلب غير سليم، والقلب أمانة الله عند عبده".

﴿وَأَكُن﴾ والقراءة بالجزم عطفًا على الجواب الذي قدره السياق، وهو معنى ما حكاه سيبويه عن الخليل: أن الجزم على توهم الشرط الذي دل عليه التمني، ومعنى ما قال غيره: أن «لولا» لكونها تحضيضية: متضمنة معنى الأمر والشرط، فكأنه قيل: أخرني، فيكون جوابه المقرون بالفاء مجزومًا محلًا، ونصب أبو عمرو عطفًا على اللفظ لأنه جواب التمني، وإجماع المصاحف على حذف الواو لا يضره لأنه قال: إنها للاختصار، وهو ظاهر لمناسبته الحال، ومن هنا تعرف جلالة القراء ومرادهم إن شاء الله بقولهم في الضابط المشهور: وأن توافق الرسم ولو احتمالًا ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

وعطف عليه حاثًا على المسارعة إلى الخروج عن عهدة الطاعات ومحذرًا من الإخلال قولَه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ ولذلك علم كذب المنافقين وجميع ما قص من أخبارهم، [فحذّرهم بهذه الموعظة لعلمه بشدة ما هو آت كما تدل عليه التي بعدها؛ ليتداركوا بواطنهم قبل أن يُغبَنوا] والله أعلم.

سورة التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الإبلاغ في التحذير مما حذرت منه المنافقون بإقامة الدليل على أنه لا بد من الدينونة، واسمها «التغابن» هو أدل ما فيها على ذلك، فلذلك سميت به.

لما ختمت تلك بنفوذ الأمر وإحاطة العلم، افتتح هذه بإحاطة الحمد ودوام التنزه، إرشادًا إلى النظر في أفعاله ومصنوعاته؛ لأنه طريق معرفته فقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يريد منه شيئًا إلا كان كما أراد وذلك تسبيح الكون له، وقد تقدم أن موافقة العاقل للأمر كموافقة غيره للإرادة، فليهذب نفسه في طاعة الأوامر كطاعة غير العاقل فيما يراد منه. ولما دل على كمال نزاهته علله بقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: كله، فدوام التسبيح الذي اقتضاه الملك هنا أعظم مما في الجمعة، ولما أتبعه في الجمعة التنزيه عن النقص، أتبعه هنا الوصف بالكمال فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما بسط في السورتين قبل حال من حمل التوراة ثم لم يحملها وحال المنافقين، وأوهم ذكر اتصافهم بمتحد أوصافهم خصوصَهم في الكفر، تناول غيرهم من أحزاب الكفار، فأنبأ عن أن الخلق بجملتهم وإن تشعبت الفرق: راجعون بحكم السوابق إلى طريقين فقال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾".

ولما كان أعظم الدلائل عليه تعالى آيات الآفاق والأنفس وقدم الأول لوضوحه، أتبعه الثاني دليلًا على عموم قدرته؛ لتمام ملكه فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وقدم العدو تلويحًا إلى أنه الأكثر، ومع كثرته هو الأضعف؛ لأن الله ليس معه بمعونته وإلا لأعدم الصنف الآخر فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢﴾.

وقد علم من هذه القسمة أن أحدهما مخالف للملك، ومن المعلوم أنه لا بد أن يحكم بين رعيته وينصفَ المظلوم من ظالمه، والمشاهد أن بعضهم يموت على كفرانه أو إيمانه من غير نقص يلحقه، فعلم أن هذه ليست دار الفصل إنما هو بعد الموت، وهذا مركوز في الطبائع ولكن الخلق أعرضوا عنه بما هم فيه من القواطع فصار مما لا يخطر بأفكارهم، ولكنهم إذا ذكروا به وجردوا النفس عن الحظوظ والمألوف عدوه من الضروريات.

ولما ذكر المظروف، ذكر ظرفه دالًا على تمام إحاطته فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الذي طابق الواقعُ منها لما أراد، لا كما يريد أحدنا الشيء ثم لا يكون على وفق مراده، وبسبب إظهار الحق وإبطال الباطل فهو خالق الدنيا والآخرة ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ على صور ليس فيها متفق من كل وجه ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فجعلها أحسن صور الحيوان ووضعها أحسن الأوضاع، والقبيح فهو بالنسبة إلى أحسن منه، ولذا قال الحكماء: "شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان"، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

ولما تقرر بما مضى إحاطة قدرته، دل على أنه لشمول علمه فقال(٦٢): ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ من الخواطر التي لم تبرز إلى الخارج، سواء كان صاحب الصدر قد علمها أو لا، فراقبوه في الإخلاصِ وغيرِهِ مراقبةَ من يعلم أنه بعينه لا يغيب عنه، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد.

ولما أشار بانقسام عبيده إلى مؤمن وكافر إلى أنه لا بد من الأخذ على يد الظالم قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ لتعلموا أنه شامل العلم محيط القدرة ينتقم من المسيء ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ﴾ أي: الوبال الشنيع الدال على أن الكفر أبطل الباطل ويغضب الخالق، ولما لم يكن مقصودها كمقصود غافر من تصنيف الناس، وإنما حصل تصنيفهم هنا بالعرض للدلالة على الساعة، اكتفى بضمير الشأن فقال: ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

ولما كان سبحانه قد أودع الإنسان حب العزة والكبر والعلو، فمن وضعها موضعها بالتكبر على من أمر الله بالتكبر عليه وهم من عصاه نجا، ومن تكبر على أولياء الله هلك، بين أن الكفار وضعوها في غير موضعها فقال: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟﴾ حسدًا للرسل، فارتكبوا أقبح الأمور وهو استبعاد كون النبي بشرًا مع الإقرار بأن يكون الإلٰه حجرًا ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ ولما كان هذا كله إنما هو لمصالح الخلق لا يعود على الله بنفع ولا ضر، نبه عليه بقوله: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ فأعرض عنهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن الخلق كلهم ﴿حَمِيدٌ ۝٦﴾ أي: محيط بجميع أوصاف الكمال.

---

(٦٢) أو يقال: لما كانوا ينفون الحشر لتفرق الأجزاء فلا يمكن جمعها ولا يحاط بها، رد عليهم بأن الذي يعلم ذلك قادرٌ على جمع الأجزاء وعالمٌ بها من باب الأولى [التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٦٦، بتصرف].

ثم عين الموجب الأعظم لكفرهم بقوله، معبرًا بما أكثر إطلاقه على ما يشك فيه وعلى الباطل، إشارة إلى أنهم شاكون وإن كانوا جازمين؛ لكونهم لا دليل لهم، وإلى أنهم مبطلون: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ لحصول القدرة التي أثبتها فيما مضى.

ولما كان في رد قولهم مع الإقسام من غير استدلال: إشارة إلى تأمل ما تقدم من الأدلة، سبب عنه قوله فذلكة لما مضى منها: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولما كانت المعجزات موجبات للعلم كانت أحق الأشياء باسم النور، وكان أعظمها القرآن الذي هو مع إعجازه: بيان لكل شيء، قال: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهذا الوصف صالح لشمول كل ما أوحاه الله إلى رسله، ومن المعلوم أن أعظمه القرآن، فمن آمن به أدخل الله قلبه من أنوار الفهوم والسكينة ما يضيء الأقطار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾.

ولما أقسم على البعث وأشار لدليله وما ينجي في يومه، ذكر يومه وما فيه ليحذر فقال: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ الذي لا تغابن غيره؛ لعظمه ودوامه، والغبن: ظهور النقصان الناشئ عن خفاء؛ لأنه يجمع فيه كل الخلق ويقوى السمع والإبصار، فإذا فضح أحد افتضح عند الكل، وما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة، فيغبن الكافر بكفره والمؤمن بتقصيره، فقد بعث ذكره على هذا الوجه على التقوى أتم بعث؛ لئلا يحصل الغبن بفوات النعيم أو نقصانه.

[ثم ذكر ما يكون به الفوز والغبن]، فقال تفصيلًا لآثار ذلك الغبن بإصلاح الحامل على التقوى وهو أمور منها القوة العلمية: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ولما كان توقع النزوح عن مثل هذا محزنًا، قال جامعًا ليُعلم استواء الجميع في الخلد: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ لأنه جامع لجميع المصالح مع دفع المضار وجلب المسار.

ولما ذكر الفائز بلزوم التقوى ترغيبًا، أتبعه الخائب لإفساده القوتين الحاملتين على التقوى: العلمية والعملية ترهيبًا، فقال بادئًا بالعلمية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثم أتبعه العملية فقال: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فلم يعملوا شيئًا، ثم قال معريًا من الفاء طرحًا للأسباب؛ لأن نظر هذه

السورة إلى الجبلات بقوله: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾.

ولما ذكر الإيمان بالله ورسوله، قال متممًا ما مضى من خلال الأعمال، بالإيمان بالقدر خيره وشره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أيَّ مصيبة كانت، دينية أو دنيوية، من كفر أو غيره ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بتقدير الملك الأعظم وتمكينه، فلا ينبغي لمؤمن أن يعوقه شيء من ذلك عن التقوى النافعة في يوم التغابن.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ أي: يزده بالتوفيق كلَّ وقت حتى يرسخ إيمانه فتنزاح عنه كل مصيبة، فإنه يتذكر أنها من الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلِّم فيخِفَّ عليه فتطيبَ حياته بالعافية في الدينيات والكونيات فتطيب الآخرة والدنيا، وذلك بأن يصير عمله صوابًا في سرائه وضرائه، فيترك كلَّ فاحشة دينية والهلعَ في المصائب الكونية؛ لأنه بصلاح القلب ينصلح البدن ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ فإذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح كل اعتقاد باطل.

ولما كان الاشتغال بالمصائب قد يقطع عن النجاة، قال محذرًا من ذلك، دالًا على تعلم الدين من معادنه، مشيرًا إلى أن العبادة لا تقبل إلا بالاتباع: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فافعلوا في كل مصيبة ونائبة ما شرعه لكم، وأكد بإعادة العامل إشارة إلى صعوبة الوقوف عند الحدود ولا سيما عند المصائب فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ فمهما كانت الأفعال مع طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ كانت معتدلة سواء كانت شهوانية أو غضبية، ومتى لم تكن كذلك كانت منحرفة إلى أعلى وإلى أسفل ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾.

فإن الله ركب في الإنسان قوة غضبية دافعة لما يؤذيه، وشهوانية جالبة لما ينميه، فاعتدال الغضبية شجاعة ونقصها جبن وزيادتها تهور، واعتدال الشهوانية عفة ونقصها زهادة وزيادتها شره، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وميزان العدل متابعة الرسول ﷺ فيما شرعه، فبذلك تنزاح الفتن الظاهرة والباطنة، ولا طريق إلى الله إلا بما شرعه، وكل طريق لم يشرعه: ضلال، من الكفر إلى ما دونه.

ولما أمر بقسم الدين الأول وهو العبادة، أمر بالآخر وهو الاستعانة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ فقانون العدل في الموجود الطاعة، وفي المفقود التوكل.

ولما كانت أوامر الدين تارة باعتبار الأمر الديني، وتارة التكويني بواسطة مال أو أهل أو ولد وأتم الأول، شرع في الثاني لأنه قد تنشأ عنه فتنة في الدين والدنيا، ولما كان المأمور بالتوكل ربما رأى أن تسليم قياده لكل أحد لا يقدح فيه، أشار إلى أن قانون الأسباب مانع من ذلك فأمر بنحو: «اعقلها وتوكل» «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» الحديث، وهو كالعلة لآخر المنافقون فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ لشغلهم لكم عن الدين، والتهاون بالنهي عن المنكر فإن الولد مجبنة، وغير ذلك ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ بأن تتقوا الله فيهم وتعدلوا، ولا يحملنكم حبهم على غير ذلك فيفتنكم في الدين، إما بالردة أو بالشغل عن الطاعة أو بالإقحام في المعصية ومخالفة السنة.

﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ بأن لا تعاقبوهم على ذنوبهم فإنه لا فائدة فيه؛ لأن من طبع على شيء لا يرجع، ولما كان الرجوع عن الحظوظ صعبا جدًا، أكد فقال: ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ بالإعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ بالتجاوز، فلا تشتغلون بعداوتهم ولا ما قد يجرها عما ينفع من الطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ فتخلقوا بأخلاقه يزدكم من فضله.

ولما حكم على البعض قال جامعًا ضامًا المال الذي به قيام ذلك، وقدمه لأنه أعظم فتنة: ﴿إِنَّمَآ﴾ وأسقط الجار لأن ذلك لا يخلو عن شغل القلب فقال: ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ أي: اختبار من الله؛ ليظهر في عالم الشهادة من يُميله ذلك فيكون عليه نقمة ممن لا يميله فيكون له نعمة، فربما رام الإنسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه ولم يصلح ماله ولا ولده، وذلك أنه من شأنه أن يحمل على كسب الحرام ومنع الحق والإيقاع في الإثم، وكأنه سبحانه ترك ذكر الأزواج في الفتنة؛ لأن منهن من تكون صلاحًا وعونًا على الآخرة.

ولما كانت النفس عند ترك مشتهياتها قد تنفر، قال مهونًا له بالإشارة إلى كونه فانيًا وقد وعد عليه بما لا نسبة له منه مع بقائه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ لمن ائتمر بأوامره التي إنما نفعها لصاحبها، فلم يقدّم على رضاه مالًا ولا ولدًا، وذلك الأجر أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم على وجه ينقص من الطاعة.

ثم قال فذلكة لكل ما تقدم منها: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ما دمتم مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف، والتقوى فيما وقع: بالندم والإقلاع مع العزم على ترك العود، وفيما لم يقع: بتجنب أسبابه، وبذلُ الإنسان جميعَ جهده: هو الاتقاء حق التقاة فلا نسخ

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ سماع إذعان وتسليم ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أي: وصدقوا ذلك الإذعان بالقيام بأمر الله والشفقة على خلق الله، وحذف المتعلق ليصدق الأمر بكل طاعة، ولما كان الإنفاق شديدًا أكده بتخصيصه بالذكر فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾.

ولما كان الحامل على الشح ما يخطر من الضرورات التي أعزها النفس رغب فيه بما ينصرف إليه أولًا ويعم جميع ما تقدم فقال: ﴿خَيۡرٗا﴾ أي: يكن ذلك أعظم خير ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ فلا يغرنكم عاجل ذلك فإنما هو زخرف وغرور، ولما ذكر ما في الإنفاق من الخير عم في جميع الأوامر فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ والشح: خلق باطن هو الداء العضال رأس كل فتنة، والبخل: فعل ظاهر ينشأ عنه، والنفس تارة تشح بترك المعاصي فتفعلها، وتارة بفعل الطاعات فتتركها، وتارة بإنفاق المال، ومن فعل ما فرض عليه خرج عن الشح.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ فرغب فيه تأكيدًا له؛ لما فيه من الصعوبة لا سيما في زمان النبي ﷺ فإن المال كان في غاية العزة، ولا سيما في لوازم النساء اللاتي افتتح الأمر بأن منهن أعداء، ولا سيما في حال العداوة، فقال مشيرًا إلى مخالفته الطبعَ بأداة الشك: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرف المال وجميع قواكم في طاعاته ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ أي: على صفة الإخلاص والمبادرة ووضعه في أحسن مواضعه ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ أقل ما يكون للواحد عشرًا إلى ما لا يتناهى على حسب النيات ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ فتضمنت الجملتان جلب السرور ودفع الشرور وذلك هو السعادة ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ لمن يعطي لأجله ولو قليلًا ﴿حَلِيمٌ ١٧﴾ لا يعاجل بالعقوبة بل يمهل طويلًا ليتذكر العبد الإحسان مع العصيان فيتوب.

ولما كان الحليم قد يتهم في حلمه بأن ينسب إلى الجهل بالذنب أو بمقداره قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهذا الوصف داع إلى الإحسان؛ لأنه يوجب للمؤمن ترك ظاهر الإثم وباطنه وكلَّ قصور وفتور وغفلة فيعبدَ الله كأنه يراه، فلما لم يبق إلا أن يتوهم أن تأخير العقوبة للعجز قال: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ ولما كان ذلك قد يكون لأمر لا يمدح عليه قال: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ أي: أنه ما أخره إلا لحكمة بالغة.

وقد أحاط أول الجمعة بهذه فجاءت شارحة له على وجه أفخم؛ لأن مقصود هذه نتيجة مقصد تلك، وقد رجع بالتنزيه ختامها على افتتاحها.

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها تقدير حسن التدبير في المفارقة بتهذيب الأخلاق، واسمها «الطلاق» أجمع ما يكون لذلك فلذا سميت به، وكذا «النساء القصرى» لأن العدل في الفراق بعض مطلق العدل الذي هو مقصود سورة النساء.

لما ختمت التغابن بأنه شكور حليم عزيز حكيم بعد التحذير من النساء بالعداوة، وكانت العداوة تجر إلى الفراق، افتتح هذه بزم الأنفس عند ثوران الحظوظ بزمام التقوى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ذاكرًا الوصف الذي هو سبب التلقي للعلوم، ولما علم من توجيه الخطاب إليه ﷺ والتعبير في النداء بأداة التوسط التي لا تذكر إلا في أمر مهم، أن القصد التنبيه لعظمة هذه الأحكام فإنها مبنية على الأسماء الأربعة، أقبل على الأمة حين انتبهوا وألقوا أسماعهم فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

والحكم عام له ﷺ، لكن لما كان للإنسان مع نسائه حالان أحدهما: المشاحة، كان غيره أولى بالخطاب فيه، وثانيهما: الجود والمصالحة، فكان هو ﷺ أولى بذلك، فجاءت له سورة التحريم ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: في وقت أو عند استقبالها، أي: استقبال طهر يحسب منها، فإن الطلاق في الحيض تطويل للعدة؛ لأنه غير محسوب، ولا بد أن يكون الطهر لم يجامع فيه؛ لأنها إذا جومعت ربما حملت فطالت العدة.

وهذه اللام للوقت، مثل: كُتِب هذا لخمس بقين من شهر كذا، واختير التعبير بها لأنها تُفهِم مع ذلك العلة، فكأنه قيل: طلقوا لأجل العدة، وإذا كان لأجلها علم أن المراد تخفيفها على المرأة بحسب الطاقة؛ لأن مبنى الدين على اليسر، وذلك دال على أن العدة بالأطهار وأن الطلاق في الحيض حرام؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، وعلم أن من عدتها بغير الأقراء لا سنة في طلاقها ولا بدعة كالمخالعة؛ لأن النبي ﷺ أذن لثابت بن قيس في الخلع من غير استفصال عن حال امرأته؛ لأنه إنما يكون في الغالب عن تشاجر وتساؤل من المرأة.

ولما كان نظر الشارع للعدة شديدًا؛ لما فيها من الحِكَم بالتأني لاحتمال الندم، وبالظن لبراءة الرحم احتياطًا للأنساب، وبقطع المنازعات، وقد أفهمه التعبير باللام، صرح به بصيغة الأمر فقال: ﴿وَأَحْصُواْ﴾ أي: اضبطوا ضبطًا كأنه في إتقانه محسوس بعدّ الحصي

﴿ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ لتكملوها ثلاثة أقراء؛ ليعرف زمان النفقة والرجعة والسكنى وحل النكاح ونحو ذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الزمن والإحصاء؛ لأن في ذلك ما هو حقه ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾ أي: لإحسانه في حملكم على الحنيفية السمحة ودفع الآصار.

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ حالَ العدة ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وكأنه عبر بذلك إشارة إلى أن استحقاقها لإيفاء العدة به كاستحقاق المالك، ولأنها كانت في حال العصمة كالمالكة له، فليس من المروءة إظهار الجفاء بمنعها منه، ولما كان ربما ظُن أنه لحقهن فقط، نفاه بقوله: ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ أي: بأنفسهن، فعلم تحتم استكمال العدة في موضع السكنى، وأن الإسكان على الزوج، وتخرج لضرورة بيع الغزل وجذاذ النخل ونحوه.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ أي: خصلة محرمة شديدة القباحة ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ كالبذاءة على الزوج أو أقاربه، فإنه كالنشوز يسقط حق السكنى، فله إخراجها لقطع الشر، وهو معنى قراءة أبيّ: إلا أن يفحشن عليكم، وكالزنا فتخرج للحد، وغير ذلك.

﴿وَتِلۡكَ﴾ أي: الأحكام العالية جدًا بما فيها من الجلالة وبانتسابها إلى الملك الأعلى ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ بأن مشاها في الظلام فصارت تضع الأشياء في غير مواضعها فصار بمعرض الهلاك بالعقاب، كما أن الماشي في الظلام معرّض له، ومثال ذلك: الحكيمُ إذا وصف دواءً بقانون معلوم فخولف، لم يضر المخالفُ ذلك الحكيمَ وإنما ضر نفسه.

﴿لَا تَدۡرِي﴾ أيها النبي الكريم ما يكون عن ذلك من الأمور التي يحدثها الله لتشير على المطلق بشيء مما يصلحه، فغيرك من باب الأولى ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ كالرغبة في الزوجة فلا يتأتى ذلك إما بأن كان الضرار بالطلاق الثلاث أو بأن أثرت فيها الإساءة وفيمن ينتصر لها فمنعت نفسها منه.

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما تقدم قوله: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ [المنافقون: ٩] وقوله: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا﴾ إلى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [التغابن: ١٤ - ١٥] والمؤمن قد يضطر إلى فراقهم، نبهت هذه على الحكم فيه، وأن العداوة وإن استحكمت لا توجب قطع المعروف ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا﴾ فذكر الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق، ولما كان الأولاد غير مفترقين إلى ما سوى

الترك بخلاف المرأة، لم يحتج إلى ما احتيج إليه في حقهن، فقد وضح وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع".

ولما حد ما يفعل في العدة، أتبعه ما يفعل عند انقضائها فقال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ولما كان الإنسان لنقصه لا يقدر على كمال الإحسان، قال منكّرًا: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: حسن عشرة لا للمضارة بطلاق آخر ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحق مع حسن الكلام وكلِّ أمر عرّفه الشرع وحسنه.

ولما كان الخلاف في كل من المرافقة والمفارقة خطيرًا وكان الإشهاد أقطع للنزاع، قال حاثًا على الكيس واليقظة والبعد عن أفعال المغفلين العجزة: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ولما كان أداء الشهادة يعسر، وكان للعدل في الأداء عوائق أيضًا، حث على الأداء على وجه العدل بقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ بأدائها على أكمل أحوالها، كما يفعل من يريد إقامة شيء ليصير واقفًا بنفسه غير محتاج إلى ما يدعمه ﴿لِلَّهِۚ﴾ لا لأجل المشهود له ولا المشهود عليه ولا شيء سوى وجه الله.

ولما كانت أحكامه تعالى مقرونة بعللها وفيها عند التأمل رقائق ودقائق قال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ولما كان كلام الله كله مختصًا من بين كلام الناس بترقيق القلوب لكونه روحًا لِما فيه العدل الذي تهواه النفوس والألباب وقامت به الأرض والسماوات: سمي وعظًا، وبني للمجهول إشارة إلى أن الوعظ بنفسه نافع ولو لم يعرف قائله فقال: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۚ﴾ فإنه المحط الأعظم للترقيق، أما من لم يكن متصفًا بذلك فكأنه لقساوة قلبه ما وعظ به لأنه لم ينتفع به.

ولما كانت العبادة لا تكون إلا بالإعانة، قال اعتراضًا بين هذه الأحكام للترغيب في الإعانة المترتبة على التقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب ما نهى عنه من الطلاق وغيره ظاهرًا وباطنًا وذلك صلاح قوى العلم، لأن التقوى إذا انفردت في القرآن عمت الأمر والنهي، وإذا قرنت بغيرها كالإحسان والرضوان خصت المناهي ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ بدفع المضار من كل ضيق، في نظير ما اجتنب من المناهي.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ بحوله وقوته بجلب المسار، في نظير ما اجتلب من فعل الأوامر ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ وأعظم الوعد في هذا لأن تعلقه بما تقدم أقوى، والنظر فيما تقدم إلى حقوق

العباد أكثر والمضايقة فيها أشد، ولما كان الإنسان مجبولًا على القلق عطف على ذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فقد جمع الأركان التي لا يصلح التوكيل إلا بها، وهي العلم المحيط والقدرة التامة والرحمة بالمتوكل.

والتوكل يكون مع الأسباب وهو مقام عظيم، وإلا كان اتكالًا وخسة همة لا مقامًا؛ لأنه إبطال حكمة الله في الأسباب، قاله الملوي، وفي الحديث: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: جميع ما يريده، فلا بد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا.

ولما كان ضرب المقادير من القادر موجبًا لانضباطها، علل ذلك بما اقتضى تحتم الوعد والتوكل فقال: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ مطلقًا بلا قيد ﴿لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ لا يتعداه وإن اجتهد الخلائق في أن يتعداه، فمن توكل استفاد الأجر وتخفيف الألم وقذف في قلبه السكينة، ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك وزاد ألمه وطال غمه بشدة سعيه وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها المنجحة، ومن توكل على غير الله ضاع؛ لأنه لا يعلم المصالح، وإن علمها لم يعلم مقادير استعمالها، وهو سبحانه المتفرد بعلم ذلك كله، والآية تفهم أن من لم يتق الله يقتّر عليه، وأن من لم يتوكل لم يُكْف شيئًا.

ولما تم هذا الوعظ، بيّن مقادير العدة بما أبان عن أن ما مضى كان في الحوائض الرجعيات فقال: ﴿۞وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ في حملهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَۚ﴾ وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ مخصّص لآية: ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ لأن عموم الموصول بالذات، وعموم ﴿أزواجًا﴾ بالعرض؛ لأنه بدلي لا يتناول الجميع في حال واحد، والحكم معلل هنا بالحمل بخلاف ذاك، ولأن سبيعة وضعت حملها بعد وفاة زوجها بليال فأذن لها النبي ﷺ أن تتزوج، ولأن هذه الآية متأخرة النزول عن آية البقرة، فتقديمها على تلك تخصيص.

ولما كانت أمور النساء في المعاشرة والمفارقة من المعاسرة والمياسرة في غاية المشقة فلا يحمل على العدل فيها والعفة إلا خوف الله، كرر الحث على التقوى، فقال عاطفًا على ما تقديره: فمن لم يحفظ هذه الحدود عسر الله عليه أموره: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ مستمرًا عليه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ﴾ جعلًا مستمرًا باستمرار التقوى ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ كله في النكاح وغيره ﴿يُسْرًا ۝٤﴾ وذلك

أعظم من مطلق المخرج المتقدم. ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ولما كان الإنسان محل النقصان، أنّسه بأنه إذا زل فراجعه بالتقوى لطف به فيه جزاء على تقواه فقال: ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ ولما كان الكريم لا يرضى لمن أقبل إليه بالعفو فقط قال: ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٤﴾ وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم.

ولما تقدم إيجاب ترك المطلقة في منزل الطلاق، قال آمرًا بعد النهي: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ أي: سعتكم بإجارة أو ملك أو إعارة حتى تنقضي العدة، ولما كان الإسكان قد يكون مع الشنآن قال: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ ولما كانت المضارة قد تكون لمقصد حسن كالتأديب لأمر بمعروف ليتوصل بشر قليل إلى خير كثير قال: ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ حتى يلجأن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ أي: من الأزواج كيف ما كان سبب العدة ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ وهذه الشرطية تدل على اختصاص الحوامل من بين المعتدات البوائن بوجوب النفقة.

ولما غيّي وجوب الإنفاق بالوضع، وكانت قد تريد إرضاع ولدها، وكان اشتغالها به يفوت عليها كثيرًا من مقاصدها، جبرها بقوله: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ بعد انقطاع النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، ولما كان ما يتعلق بالنساء من مثل ذلك موضع المشاجرة، وكان الخطر في أمر الرضاع شديدًا، وكان الله قد رحم هذه الأمة بأنه يحرك لكل متشاححين من يأمرهما بخير لا سيما في أمر الولد رحمة له، قال مشيرًا إليه: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ أي: طلب كل منكم العسر على الآخر، فطلبت المرأةُ الأجرةَ والزوجُ إرضاعَها مجانًا، فليس له أن يكرهها.

ولما كان الله قد تكفل بأرزاق عباده وقدرها قبل إيجادهم قال: ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾ وصرف الخطاب إلى الغيبة إيذانًا بأن الأب قد ترك الأولى به من المياسرة استنانًا بالنبي ﷺ في أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا أو قطعية رحم فقال: ﴿لَهُۥٓ﴾ أي: الأب ﴿أُخۡرَىٰ ٥﴾ غير الأم ويغني الله عنهما، وهذا الحكم للمنكوحة كذلك، ولا يكرهها إلا إذا لم يقبل ثدي غيرها.

ولما كانت المعاسرة غالبًا في ترك السماح وكان تركه من خوف الإعدام، نبه على أن ذلك ليس بعذر، بتقسيم الناس إلى موسع عليه وغيره فقال: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن

﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ لأمر من الأمور التي يظهر الله بها عجز العباد رحمةً لهم ليهذب به نفوسهم، وبناه للمفعول تعليمًا للأدب معه تعالى ﴿فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ ومن ملك ما يكفيه للوقت ثم اهتم للزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرحوم وصاحبه غير معان، وفي هذا إرشاد إلى الاقتداء بالنبي ﷺ في اليسر في كل أمر ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٍ﴾ أي: من الأمور المتعسرة، لا أنه يجعل ذلك بعد كل عسر ﴿يُسۡرًا ٦﴾ لا بد من ذلك، ولا يوجد أحد يستمر التقتير عليه طول عمره في جميع أحواله، وصِدق الآية دائمٌ، غير أنه كان في الصحابة أبين؛ لأن إيمانهم أتم.

ولما بلغ الأمر النهاية في الأحكام والمواعظ وترغيب من أطاع، فلم يبق إلا تهديد من عصى، وكان التقدير: فكأين من ناس كانوا في غاية الضيق فأطاعوا فجعلناهم في غاية السعة، عطف عليه تزهيدًا في الرفاهية بأنها تطغي غالبًا: ﴿۞وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ ولما كانت محاسبة هؤلاء للإهلاك قال: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾ بالمجازاة على كل فعل بما يليق به ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾ هو المناقشة، وأما اليسير فهو عرض الأعمال فقط ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾ في الدنيا ﴿عَذَابًا نُّكۡرًا ٧﴾ لأنه يحيّر العقل؛ لأنه لم ير مثله ليعتبره به، وأزال ذكرُ الكثرة شبهةَ أن الإهلاك وقع اتفاقًا.

﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ ولما كان المقهور يسلي نفسه بانتظار الفرج ورجاء العاقبة، أيأس من ذلك فقال: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا﴾ في جميع عملها ﴿خُسۡرًا ٨﴾ فكلما امتد الأمر وجدوه أمامهم، فإن من زرع الشوك -كما قال القشيري- لا يجني الورد، ومن أضاع حق الله لا يطاع في حظ نفسه.

ثم فسر الخسر فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ ولما تمت الأحكام، كانت فذلكتها وثمرتها قوله تنبيهًا على ما يطيّب الحياة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ وعلله بما أزال العذر، فقال تنبيهًا على ما من علينا به من مراسلة ملك الملوك حثًا على شكره: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرًا ١٠﴾ فيه غاية الشرف لكل من يقبله؛ لأن فيه تبيان كل شيء، فمن استضاء بنوره اهتدى.

ولما كان الرسولُ ﷺ ظاهرَ القرآن والقرآنُ باطنَه لأنه خلقه فكان كأنه هو، أبدل منه قوله: ﴿رَّسُولًا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ ولما علم ما في هذه المراسلة من الشرف، بيّن

شرفًا آخر ببيان الثمرة فقال: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ النفسانية والأخلاقية المؤدية إلى ظلمة الجوارح بالظلم والانتشار في سبل الشيطان ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ الخالص بسلوك صراط الله الذي هو واحد لا شتات فيه، وبيّن لا لبس فيه ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وذلك بأن يتخلقوا بالقرآن ليكونوا مظهرًا له.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بأن لا يزال في ترق في معارج معارفه ﴿وَيَعۡمَلۡ﴾ باستمرار ﴿صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ولما أفرد الشرط والجزاء إجراء على لفظ «مَن» إشارة إلى أنه لا يشترط فيهما المشاركة، جمع إشارة لكثرة الداخلين، وأن الداخلَ دارَ الكرامة لا يهون بعد ذلك فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ ولما أعلم أن الخلود للجميع، أفرد تنصيصًا على كل فرد؛ تعظيمًا لهذا الجزاء بقوله نتيجة لذلك، منبهًا على أنه من حقها أن يتوقعها كل من سمع هذه البشرى: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾.

ولما تقدم أن فائدة الذكر النقل من خُلق إلى خلق، وكان تحويل جبل من مكانه أيسر من تحويل شخص عن خلقه، وكان ذلك يحتاج إلى قدرة تامة، دل على قدرته سبحانه عليه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الذي يجود به الرحمن من التدبير من أمر الدين والتكوين ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ بالوحي من السماء السابعة العليا إلى الأرض السابعة السفلى وأنتم ترونهن بلا فروج.

وأوّلها بعضهم بأنها سبعة أقاليم، وهو مردود بعد القاعدة في أن التأويل بغير دليل لعب، بما يأتي من صريح الحديث، والضابط فيما يؤوّل وما لا يؤول: أن النقليات أربعة أقسام: قطعي السند والدلالة، ظنيهما، ظني السند قطعي الدلالة، عكسه، فالأول يجب اعتقاد ظاهره ومن خالفه كفر، والبقية يجب اعتقاد ظواهرها ما لم تعارض، فإن عورضت بقطعي وجب العدول عن الظاهر إجماعًا، فمن اعتقده كفر.

ثم إن العلماء يختلفون في بعض الأدلة فبعضهم يجريها على الظاهر وبعضهم يؤول، وذلك للاختلاف في المعارض هل هو قطعي الدلالة أم لا؟ وهذا الموضع منه؛ لأن ظواهر الوحي تدل على أن الأرضين كعدد السماوات، فأكثر العلماء على أن المعارض -وهو ما قاله أهل الهيئة من الأدلة على كونها واحدة- ليس بقطعي.

وقد رأيت في التعدد حديثًا صريحًا لكن لا أدري حاله: أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما تحت هذه الأرض؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ماء، أتدرون ما تحت ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هواء» حتى عد سبع أرضين.

ولما ذكر الصنعة تنبيهًا على التفكر فيها ذكر أن ثمرتها العلم بصفاته فقال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ بهذا العالم الذي أوجده على هذا المنهاج البديع ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من غير هذا العالم مما يدخل تحت المشيئة ﴿قَدِيرٞ﴾ وإياك أن تلتفت إلى من قال: إنه ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، فإنه مذهب فلسفي خبيث والآية تبطله، وإن نسبه بعضهم إلى الغزالي فإني لا أشك أنه مدسوس عليه؛ بشهادة ما وجد من عقائده.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ فله العلم التام بمصالح ما يأمر به ومفاسده، واعلموا أنه لإحاطة علمه رقيب عليكم، فإذا طلقتم فافعلوا ما أمركم به، فقد عانق آخرها أولها، والله أعلم.

سورة التحريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الحثُّ على الأدبِ مع الله ورسوله ﷺ وسائر العباد، وحسنِ المعاشرة لا سيما للنساء اقتداء به ﷺ، وبيانُ أن الأدب الشرعي تارة يكون باللين وأخرى بالسوط، واسماها «التحريم» و«النبي ﷺ» موضح لذلك(٦٣).

لما ختم الطلاق بإحاطة علمه وتنزل أمره، دل عليه أول هذه بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسائه اللاتي هن من خير النساء، واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به منه، فأظهره تعالى عتابًا لهن في صورة عتابه رفقًا به لشدة شفقته على أمته حتى امتنع عن بعض ما أبيح له حفظًا لخاطر الغير فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مخاطبة بالوصف الذي يعلم بالعصمة ويلائمه خلو البال وانشراح الصدر لأنه للتلقي عن الله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ بمنع نفسك ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ لإحسان العشرة مع نسائك رضي الله عنهن؟ وذلك أنه ﷺ كان يشرب عسلًا عند حفصة أو زينب فيحتبس عندها، فوصت عائشة صواحباتها فنفرنه منه، وخلا بمارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة فتوجعت منه فقال: «هي علي حرام ولا تذكري ذلك لأحد» وبشرها بخلافة أبيها بعد أبي بكر وقال: «لا تخبري بذلك أحدًا» وأخبرته عائشة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ وهن أولى بأن تبتغين رضاك وكذا جميع الخلق لتفرغ لما يوحى إليك، لكنه للزوجات آكد، تفعل ذلك ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿ٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ أي: محاء ستور لما يشق على خلص عباده مكرم لهم.

ثم علل أو بين بقوله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ وعبر بالفرض حثًا على قبول الرخصة إشارة إلى أنه لا يقدح في الورع ولا يخل بحرمة اسم الله؛ لأن أهل الهمم لا يحبون النقلة من عزيمة إلى رخصة ﴿لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ بالاستثناء أو الكفارة، قال مقاتل: "فأعتق ﷺ رقبة"، وهذا

(٦٣) أو يقال: مقصودها التمثيل لما تقدم في سورة الطلاق، بدءًا بالنبي ﷺ ببيان الإمساك بالمعروف والفرج والرزق واليسر عند التقوى، ثم امرأتي نوح ولوط عليهما السلام في العداوة وسوء العشرة والعتوّ والأخذ بذلك، ثم امرأة فرعون إذ آمنت فأحسن الله لها رزقًا، ومريمَ وما أعقبته لها التقوى من الرزق من حيث لا تحتسب ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] الآية.

يدل على أن قوله: أنت علي حرام، كاليمين إذا لم يرد طلاقًا للزوجة ولا إعتاقًا للأمة، وقيل: إن تحريمه كان بحلف، فلا يكون فيه حجة ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي: يفعل معكم فعل القريب الصديق ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: البالغ العلم بمصالحكم ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ أي: الذي يضع كل ما يصدر عنه لكم في أتقن محاله.

وقال ابن الزبير: "هذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأشبه بسورة الأنفال وبراءة؛ لتقارب المعاني والتحام المقاصد".

ثم قال تشريفًا له ﷺ بالمعاتبة عليه وبإظهار ما هو حامل له من ثقل هذا السر تخفيفًا عنه: ﴿وَإِذۡ﴾ أي: واذكروا كريم أخلاقه ﷺ في عشرتهن حين ﴿أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها، كنى عنها صيانة لهن؛ لأن حرمتهن من حرمته ﷺ ﴿حَدِيثٗا﴾ ليس هو من شأن الرسالة وإلا لأعلنه، وهو تحريم مارية رضي الله عنها ووعده بترك العسل وبشارته بولاية أبي بكر وعمر، ولم يبين الحديث حفظًا لسره ﷺ وإن كنا اطلعنا عليه بعد ذلك لنتأسى بما فيه من الأحكام.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ وساقه على الحكاية لأنه أستر لحرمه ﷺ فلم يقل: فنبأت به ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي: الحديث بأنه قد أفشي ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ وهو أمر الخلافة عتابًا لها عليه لأنه كان أوصاها أن لا تظهره، والكف عن بعض العتب أبعث على حياء المعتوب وأعون على توبته ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ وهو أمر السُّرِّيةِ والعسلِ تكرّمًا منه ﷺ أن يستقصي في العتاب وحسنَ عشرة، قال الحسن: "ما استقصى كريم قط"، وإنما عاتب على أمر الخلافة خوفًا من أن ينتشر في الناس فيثير حسدًا من بعض المنافقين فيجر إلى مفسدة لا نعلمها.

وأشار إلى مبادرته بتعريفها ذلك لئلا ينتشر ما يكرهه منه بقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ روي أنها قالت: قلت لعائشة سرًا وأنا أعلم أنها لا تظهره، قاله الملوي، وهو معنى قوله: ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ ظنًا أنها عائشة ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ﴾ وحذف المتعلق إشارة إلى أنه أخبره بجميع ما دار بينهما ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾ فهو أهل لأن يحذر فلا يتكلم سرًا ولا جهرًا إلا بما يرضيه.

ثم قال تشريفًا آخر له ﷺ بعتاب نسائه لأجله، قيامًا عنه بما ربما أزعجه لو باشره: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ يا عائشة وحفصة مما صنعته حفصة بالإفشاء وعائشة بالاحتيال على المنع من العسل والتحليف على مارية ﴿إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ﴾ ولما كانتا قد اتسعت قلوبهما بإظهار هذا

السر والعتاب عليه من الحياء، فصارتا متأهلتين بالمبادرة إلى التوبة، قال جامعًا: ﴿قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ وكل من له وعي يعلم كفايته سبحانه في ذلك ﴿وَجِبۡرِيلُ﴾ لأنه من أعظم الأسباب التي يقيمها الله.

ولما كان الحامل على مظاهرته ﷺ: الإيمان، فكلما كان الإنسان فيه أمكن كان له أشد مظاهرة وأعون قال: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ وأبواهما رضي الله عنهما أعظم مراد بهذا، ويدخل فيه جبريل ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ومنهم جبريل، فهو مذكور خصوصًا وعمومًا ثلاث مرات؛ لشدة موالاته للنبي ﷺ، ولما كان المراد التعميم في الزمان والمكان بعد التعميم في الصالحين، قال من غير جار معظمًا لنصرة الملائكة ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ أخبر عن الجمع باسم الجنس إشارة إلى أنهم على كلمة واحدة.

ثم زاد في التحذير ما يقطع القلوب؛ لأن أشد ما على المرأة أن تطلق، ثم إذا طلقت أن يستبدل بها، ثم أن يكون البدل خيرًا منها، فقال مبينًا لأدنى أنواع المظاهرة: ﴿۞عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ وهذا على سبيل الفرض، فلا يقتضي وجود من هو خير منهن مطلقًا، وإن قيل بوجوده في خديجة رضي الله عنها؛ لتحاملها على نفسها في حقه ﷺ وبلوغها في حبه والأدب معه النهاية القصوى.

والكلام معلق بالطلاق وقد علم تعالى أنه لا يقع، ولو وقع أبدله من هو بالصفات المذكورة المقتضية للإخلاص في طاعته كما أشار إليه ﴿قانتات﴾ ولا شك أن من لازم طاعته وقيد الاتصال به في الدارين كان خيرًا من غيره، وتعليق تطليق الكل لا يدل على أنه لم يطلق حفصة فقد روي أنه طلقها، فكان فضلًا لها؛ لأن الله أمره بأن يراجعها لأنها صوامة قوامة.

﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ أي: ملقيات لجميع قيادهن لله ولرسوله ﴿مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ أي: راسخات في القوة العلمية بتصديق الباطن ﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾ أي: مخلصات في ذلك مبادرات إلى امتثال أمره ﷺ في المنشط والمكره، ولما كان الإنسان مجبولًا على النقصان قال: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي: راجعات سريعًا إن زللن، ولما كان تجديد التوبة مصححًا للعبادة مسهلًا لدوامها قال: ﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾ ولما كان دوام العبادة مسهلًا للخروج عن الدنيا قال: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ لأن من كان هكذا لم يكن له مراد فكان تابعًا لربه دائمًا، ويصير لطيف الذات حلو الشمائل، وسوق هذه الأوصاف هكذا

في عتاب من هو متصف بها: معرِّفٌ أن المراد التمام لا سيما وأن الرسوخ في أحدها مستلزم لسائرها، فلذلك لم يعطف بالواو، ولأنه أدل على إرادة اجتماعها.

ولما أتم الصفات الدينية النافعة في العشرة، وكان تنويع الصفات الكونية إلى عارفة بالعشرة وغير عارفة أحبّ قال:﴿ثَيِّبَٰتٖ﴾ قدمهن للخبرة بالعشرة التي هذا سياقها ﴿وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾.

ولما علم رسوخهن في هذه الصفات، وكان ذلك بحسن تأديب أوليائهن لهن وبحسن عشرته ﷺ وتأدبهن بكريم أخلاقه، أثمر ذلك أمر الأمة بالتأسي به وبأوليائهن في ذلك ليعرفن حق الله وحق الأزواج فيحصل صلاح ذات البين المثمر للخير كله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بالتأسي به ﷺ في أدبه مع الخلق والخالق في لينه لمن يستحق اللين، ولما كان الإنسان راعيًا لأهل بيته ومسؤولًا عن رعيته قال: ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ بالنصح والتأديب؛ ليكونوا متخلقين بأخلاق أهل النبي ﷺ، كما روي عن سعيد بن العاص رفعه: «ما نحل والد ولدًا أفضل من أدب حسن».

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي: ألين شيء وأصلبه، فما بينهما بطريق الأولى، ولما كان معنى قوله: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أنهم يوقعونه بالعصاة على قدر استحقاقهم بين ذلك بما يخلع القلوب لكونه بأمر الله فقال: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ ولما كان المطيع منا قد يخل بالمأمور به بنقص أو ما في معناه بوسوسة أو حديث نفس، قال نافيًا لذلك عنهم: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ في أي وقت من غير نقص. ولما كان الإخلال بالأدب مع النبي ﷺ مؤديًا للإخلال بالأدب مع الله ومع سائر خلقه فكان كفرًا[٦٤]، كان التقدير: يقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فإنه يوم الجزاء لا الاعتذار ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

ولما أفهم الأمر بالوقاية والمدح للملائكة أن المأمورين بها مقصرون، قال مرشدًا إلى داوئه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال القرطبي: "النصوح مجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان"، ولما أمر بالتوبة عللها بما يفيد الإطماع من الإقامة بين الرجاء والخوف؛ إعلامًا بأن هذا المقام هو المنجي لأنه اعتقاد الكمال له تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ

(٦٤) أو يقال: لما هوّل النار بما وصفها، زاده تهويلًا بما يقال لأهلها، حثًا على الوقاية.

عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وإذا كان التائب على خطر فما ظنك بالمصر على ذنوبه؟

ولما ذكر الغفران والإكرام ذكر وقته، فقال مبشرًا لأهله معرّضًا بغيرهم: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ونساؤه رضي الله عنهن أحق أن يكن أول راغب في الكون معه ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أو يكون ﴿الذين﴾ مبتدأ خبره: ﴿نورهم﴾، أو يكون الخبر: ﴿معه﴾ إشارة إلى أن جميع الأنبياء والصالحين تحت لوائه، والإيمان المقيد بمعيته غير الإيمان المطلق، فلا مانع من أن يدخل غيرهم من المؤمنين النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين.

ولما كان دوام التعبد للملك أشرف صفات العبد قال: ﴿يَقُولُونَ﴾ مجددين دائمًا، قال سهل: "لا يسقط الافتقار إلى الله عن المؤمنين في الدنيا ولا في الآخرة"، ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ ولا تجعلنا كالمنافقين الذين أطفأت أنوارهم، ولما كان كل من حسن أدبه يعتقد في نفسه النقص قالوا: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾.

وهذا النور هو صورة أعمالهم في الدنيا؛ لأن في الآخرة تظهر الحقائق، وهو شرع الله، وهو الصراط الذي يضرب على جهنم؛ لأن كل فضيلة متوسطة بين إفراط وتفريط، فالفضيلة هي الصراط المستقيم، والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله، فمن كان يمشي في الدنيا على ما أمر به بغير إفراط ولا تفريط كان نوره تامًا، ومن أمالته الشهوات طفئ نوره وقتًا، واختطفته كلاليب هي صور الشهوات، فتميل به في النار بقدر ميله إليها، والمنافق يظهر له نور إقراره بالتوحيد، فإذا مشى طفئ؛ لأن إقراره لا حقيقة له، فنوره لا حقيقة له.

ولما ذكر لينَه ﷺ وأدبه وكريمَ عشرته، وختم بما للمؤمنين من الشرف ولله من تمام القدرة، أنتج القطع بإذلال أعدائهم، فقال جامعًا في طاعته بين المتضادات من اللين والشدة وغيرهما فيكون أدل على التعبد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: المجاهرين بكل ما يجهدهم فيكفهم ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: المساترين بالحجة حال المساترة، والسيف إن أبدوا مظاهرة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه من اللين لله، كما أن اللين لأهل الله من خشية الله، وقد أمره تعالى باللين لهم أولًا لإزالة أعذارهم وبيان إصرارهم، فلما بلغ مداه جازه إلى الغلظة وتعداه ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾.

ولما افتتح السورة بعتاب النساء وختم بهلاك المخالف وكان للكفار قرابات بالمسلمين يظنون نفعها، وللمسلمين قرابات بهم ربما ظنوا ضرها قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في عدم انتفاعهم بصلتهم بالمؤمنين، فيغلظ عليهم من غير محاباة لأحد وإن جل مقامه؛ لأن الكفر قاطع للعلائق بين الكافر والمسلم ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا﴾.

وأظهر الوصف بالعبودية والصلاح ليكون أوعظ فقال: ﴿تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالمخالفة في الدين لا بالخيانة في الفرش فقد صان الله الأنبياء من ذلك، فلم تقل واحدة منهما: رب اجعلني مع نبيك في الجنة، وهذا خالع لقلوب من ابتدأ بتأديبهن رضي الله عنهن ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾.

ولما أتم مثل النذارة، أتبعه مثل البشارة فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي﴾ ولما كان الجار مطلوبًا قبل الدار، طلبت خير جار فقالت: ﴿عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ولما سألت ما حيزها إلى جناب الله، سألت ما يباعدها في الدارين من أعدائه فقالت: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ فلا أكون عنده ولا تسلطه علي بما يضرني عندك ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: أن أعمل بشيء منه ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ فاستجاب الله دعاءها، وذلك أن موسى عليه السلام لما غلب السحرة آمنت به فعذبها فرعون فماتت بعد أن أراها الله بيتها في الجنة.

ولما أتم المثل بمن أساءتا الأدب فلم تنفعهما الوصلة بالأولياء، وبمن أحسنت الأدب فلم تضرها الوصلة بالأعداء، ضرب مثلًا بقرينتها في قوله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم» فقال: ﴿وَ﴾ ضرب مثلًا لأهل العزلة: ﴿مَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: عفت عن السوء عفةً كالحصن، ولما اغتنت بأنسها بالله عن الأنس بالناس، وهبها ما أخبر عنه بقوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: كتابه الذي أنزل على ولدها وغيره من كتب الله، كما دل على ذلك القراءة بالجمع ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾.

ولما كانت هذه السورة لتشريف النبي ﷺ وتكميل نسائه في الدنيا والآخرة وأتم الأمثال في الآداب، انعطف آخرها على أولها، وزاد ذلك حسنًا كونها في النساء، وفي ختامها بالقنوت الذي هو خلاصة الأوصاف الماضية في الأبدال المذكورات.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الخضوع لله لاتصافه بكمال الملك؛ لينتج العلم بتحتم البعث لدينونة العباد، واسمها «الملك» واضح في ذلك لأن الملك محل الخضوع، وكذا «تبارك» لأن من كان كذلك كان له تمام الثبات والبقاء، وكذا «المانعة» و«الواقية» و«المنجية» لأنها تردّ السؤال عمن لازم عليها، وهذا من أهم الأمور.

لما ختمت تلك بأن من أعرض عن الله أهلكه ولم ينفعه أحد، ومن أقبل عليه رفعه ولم يضره أحد، وكان لا يقدر على مثله إلا من لا كفؤ له لأنه ملك الملك قال: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي: تقدس وتعالى وثبت ثباتًا لا مثل له، مع اليمن والبركة ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

وقال ابن الزبير: "ورود ما افتتحت به من التنزيه إنما يكون عقيب إيراد عجائب من صنعه كورود قوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤] عقب تفصيل أطوار الإنسان، ولما كان ذكر في آخر التحريم قصتين حصل في أحدهما تقديم سبب رحمة حُرِم التمسكَ به أولى الناس في الظاهر، وسبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه، ثم أعقب بقصة عريت عن ذلك وهو ذكر مريم ابنة عمران؛ ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب.

أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ الآية، وإذا كان تعالى بيده الملك، فهو الذي يؤتي الملك والفضل من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، كما صرحت به الآية في آل عمران، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها، ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل".

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ولما كان الخوف من المؤلم أدعى إلى الخضوع لأنه أدل على الملك مع أن الأصل في الأشياء العدم، قدم قوله: ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ وهو زوال الحياة عن الحي الذي هو في غاية الاقتدار على التقلب بجعله جمادًا كأن لم يكن به حركة ﴿وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ وقال ابن عباس: "الموت خلقه الله على صورة كبش أملح لا يجد ريحه شيء إلا مات، والحياة على صورة فرس

بلقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها، فلا يجد ريحها شيء إلا حيي، وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فصار الحليُّ عجلًا".

ثم أتبع ذلك غايته وهو الحكم الذي هو خاصة الملوك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ وإسناد الحسن إلى الإنسان يدل على أن من كان عمله أحسن كان هو أحسن ولو أنه أبشع الناس منظرًا، ومن كان عمله أسوأ كان بخلافه، والحسن والقبح إنما يدركان بالشرع، وكان ذلك مفيدًا للقيام بالطاعة؛ لأن من تفكر في حاله علم أنه ما باين بقية الحيوانات إلا بفعل قادرٍ مختار، فيجتهد في رضاه إن كان عاقلًا، فهذه الآية مشتملة على وجود المقتضي للسعادة، وانتفاء المانع منها.

ومن تأمل الآية ثارت إرادته لما خلق له، تارة بالنظر إلى جمال ربه من حسن وإحسان، وأخرى إلى جلاله من قدرة وإمكان، وتارة بالشفقة على نفسه من الحرمان، فيجتهد في رضا ربه وصلاح نفسه خوفًا من هذه البلوى، وقال مبينًا سبب إمهاله للعصاة مرغبًا في التوبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ فهو بليغ المحو للذنوب عينًا وأثرًا، ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلق كما قال في الحديث القدسي: «ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

ولما أثبت له سبحانه صفتي العز والغفر على أبلغ ما يكون، دل على ذلك بقوله دالًا على كمال تفرده بعد آيات الأنفس بآيات الآفاق، إرشادًا إلى معالي الأخلاق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ وهي لا تكون كذلك إلا بأن تكون الأرض كرة والسماء الدنيا محيطة بها من جميع الجوانب، والثانية محيطة بالدنيا وهكذا إلى أن يحيط العرش بالكل، والكرسي الذي هو أقربها إليه بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة.

وأحاط سبحانه بالأرضِ منافعَها من جميع الجوانب، وجعل المركز بحيث تكون رجلا الحيوان إلى الأرض ورأسه إلى السماء كيفما مشى؛ لتكون السماء في رأيه دائمًا أعلى والأرض أسفل، فسبحان اللطيف الخبير، ولا شك أن من تفكر في هذه العظمة مع ما لطف بنا فيما هيأه فيها لنا من المنافع، آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد، فانقطع باللجأ إليه ولم يعول إلا عليه، وسارع في مراضيه.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى﴾ خلقها، ولكنه دل على عزته وعظمته بقوله: ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ أي: عدم تناسب كأن بعضها يفوت بعضًا ولا يلائمه، أو منافرًا له في مقتضى الحكمة والدلالة

للخالق على كمال القدرة وللمخلوق على الحدوث، بل لا توجد المخالفة إلا نادرًا ليعلم أن المشاكلة هي المقصود بالذات، وأنه إنما أريد به الدلالة على أن الفاعل هو القادر المختار لا الطبيعة، ولما كان العلم الناشئ عن الحس أجلى العلوم، دل على بديع ما ذكره بمشاهدته كذلك فقال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ ولما كان السؤال عن الشيء يدل على شدة الاهتمام به قال: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ لتغاير ما هي عليه مما يدل على عزة بانيها وبليغ غفرانه؟

ولما كان في سياق المجازاة التي دل عدم الانتصاف من الظالمين في هذه الدار على أنها بعد البعث، وكانت العزة مقتضية له، وكان خلقه على هذا النظام مثبتًا لها، قال معبرًا بأداة التراخي دالًّا على جلاله بإدامة التكرير: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أي: مرتين أخريين، هذا مدلولها لغة، وبالنظر إلى السياق فالمراد مرة بعد مرة لا إلى نهاية، كما أن «لبيك» مراد به إجابة إلى غير غاية ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ أي: صاغرًا بعيدًا عن الإصابة ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه ﴿حَسِيرٞ ۝٤﴾ أي: كليل من طول العود وتدقيق النظر، وإذا كان هذا الحال في بعض المصنوع فكيف بالصانع؟

ولما أخبر عن بديع هذا الخلق، كان متوقعًا الإخبار عن الزينة التي رصعت بها قال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا﴾ دلالة أخرى على العظمة ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ التي تشاهدونها دائمًا ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي الكواكب التي تنور الأرض بالليل إنارة السرج التي تزينون بها سقوف دوركم، ولما كانت لولا هي لما انتفع أحد في ليل انتفاعًا تامًا، أخبر بما فيها من دفع المضار فقال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ بيانًا لعظمتنا وحراسةً للسماء الدنيا التي هي محل تنزل قضائنا ووحينا؛ لئلا يفسدوا باستراق السمع منها على الناس دينَهم الحقَّ ويخلطونه عليهم بالباطل.

ويحتمل مع ذلك أن يراد: ظنونًا لشياطين الإنس وهم المنجّمون، يتكلمون بها رجمًا بالغيب في أشياء هي من عظيم الابتلاء؛ ليتبين الموقن من المزلزل، قال قتادة: "خلقت النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به"، ولما كان التقدير: ورجمناهم عذابًا لهم في الدنيا، عطف عليه قوله ترهيبًا من جلاله بعد ما رغب في جماله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ ففيها بشارة لأهل السمع والبصر والعقل.

ولما أخبر عن تهيئته العذاب لهم، أخبر عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه يشملهم، فقال حاثًا على التفكر في عظيم انتقامه الخارج عن العادة في عدم الانطفاء ولا للمعذب منه خلاص، بل كلما طال الزمان تلقاه بالشدة والامتداد: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وصرف القول إلى صفة الإحسان تنبيهًا لعظيم الكفران فقال: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ كفرًا منهم بما شاهدوا من إبداعه ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾.

ولما ذمها بذلك قالًا معللًا له، دالًا بالإلقاء على حقارتهم: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ لشدة توقدها أو: لأهلها، على حذف مضاف ﴿وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ أي: تغلي بهم كغلي المرجل بما فيه. ولما وصفها بالفوران بين سببه فقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: ينفصل بعضها من بعض ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ﴾ عليهم لغضب سيدها، وتقاد إلى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ بدفع الزبانية الذين هم أغيظ عليهم من النار ﴿فَوْجٌ﴾ أي: جماعة موجفين مضطربي الأجواف من شدة السوق.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ موبخين لهم محتجين عليهم في استحقاقهم العذاب زيادةً في عذابهم بتعذيب أرواحهم بعد تعذيب أشباحهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ۝٩ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾ زيادة في التكذيب والنكاية له ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وأغرقنا في النفي فقلنا: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ ثم قلنا مؤكدين: ﴿إِنْ﴾ ولما كان تكذيبهم برسول واحد تكذيبًا للجميع، قالوا عنادًا: ﴿أَنتُمْ﴾ وفي خطاب الجمع إشارة أيضًا إلى أن جواب الكل للكل كان متحدًا مع افتراقهم في الزمان حتى كأنهم كانوا على ميعاد ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝١٠﴾.

ولما حكى ما قالوه للخزنة تحسرًا، حكى ما قالوه فيما بينهم زيادة في التحزن ومقتًا لأنفسهم بأنفسهم فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا﴾ ولما كان السمع أعظم مدارك العقل الذي هو محل التكليف قالوا: ﴿نَسْمَعُ﴾ سماعًا ينفع بقبول الحق ورد الباطل ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقلًا ينجي وإن لم نسمع، وقصروا الفعلين إشارة إلى أن ما كان لهم منهما عدم؛ لأنه لم يدفع عنهم هذا البلاء ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ التي هي في غاية الحر والتوقد حتى كأن بها جنونًا.

ولما كان هذا الإقرار ضارًا لهم، وإنما ينفع لو كان في دار العمل قال: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟﴾ ولما كان الذي أهلكهم هو الكفر الذي تفرعت عنه جميع المعاصي، أفرد فقال: ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أو أنه أفرد إشارة إلى أنهم كانوا في التكذيب على حد واحد، كما قال: ﴿كذلك ما أتى الذين من

قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]، أو أنه أشد في التحذير من كثير الذنوب وقليلها ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾.

ولما ذكر أهل المعاملة بصفة العزة، أتبعهم أضدادهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ أي: يخافون حتى لا يقر لهم قرار، فوقوا أنفسهم أن تفور بهم النار، وعدل عن سياق الجلالة تنبيهًا على أنهم غلب عليهم النظر إلى الإحسان فقادهم إلى الشكر فقال: ﴿رَبَّهُم﴾ وإذا كانوا يخشونه مع إحسانه فما ظنك بهم عند النظر إلى صفات انتقامه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: حال كونهم غائبين عنه ووعيده غائبًا عنهم، وهم غائبون عن أعين الناس، وقد ملأ الخوف ما غاب عنهم عن الناس وهي قلوبهم، ولا يكون لهم هذا إلا برياضة عظيمة؛ لما عند الناس من القوى الموجبة للطغيان، ولما كانت الخشية مشيرة إلى الذنوب فكان أهم ما إليهم الإراحة منها قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾.

قال بعض العارفين: "في الإنسان خواص تستدعي العلو فتنشأ المنازعة في الكبرياء، فالقلب يستدعي التفرد بالأمر والنهي، فكل أحد مستبطن قول فرعون ولكن لا يجد له مجالًا كما وجد، والعقل يعتقد أنه لو مُكّن لأحسن تدبير الوجود، ولذا يقول: لو كان كذا لكان كذا، والنفس تتخيل من قدرتها أنها لو أرادت إخراب مدن وبناءها فعلت، فليحذر الإنسان فإن أعدى عدوه نفسه التي بين جنبيه فمهما تركها انتشرت، قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى﴾ وينسى ما بعدها: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ [العلق: ٦ - ٨]".

ولما كانت الخشية باطنة وكان كل أحد يدعيها، قال مخوفًا لهم بعلمه نادبًا إلى مراقبته لئلا يغتروا بحلمه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ فإنه يعلمه ويجازيكم به لأن علمه لا يحتاج سببًا ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ ودل عليه بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ وحذف المفعول للتعميم، ثم ذكر الفاعل فقال: ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾ ويجوز وهو أحسن: أن يكون «من» مفعولًا والفاعلُ مستترًا، أي: ألا يعلم اللهُ مخلوقَه على الإطلاق وله صفتا اللطف والخبر اللتان شأنهما إدراك البواطن؛ لأن الغرض إثبات العلم لما أسروه لظنهم أنه يخفى، لا إثبات مطلق العلم فإنهم لم ينكروه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الذي يعلم ما بثه في القلوب لأنه يصل إلى الأشياء بأضدادها فكيف بغير ذلك؟ ﴿ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ وهو أعظم تهديد فإن من علم أن من يعصيه عالم به وهو قادر عليه، لا يعصيه أبدًا.

ودل على ذلك بنعمة مشاهدة بها قوامهم، أبدعها بلطفه وأتقنها بخبرته فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: منقادة لكم ولو شاء لجعلها كلها سبخة أو حزنة أو بحورًا فلا يمكن الانتفاع بها، فما قسّمها إلى ماترون إلا لحكمة بالغة وقدرة باهرة.

ثم سبب عن التذليل قوله تمثيلًا لفرطه؛ لأن منكبي البعير أدق شيء وأنباه عن أن يطأه الراكب: ﴿فَٱمْشُواْ﴾ من غير صعوبة توجب وثبًا أو حبوًا ﴿فِى مَنَاكِبِهَا﴾ وقال ابن عباس أنها الجبال؛ لأن تذليلها أدل على غيرها ﴿وَكُلُواْ﴾ ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله: ﴿مِن رِّزْقِهِۦ﴾ الذي أودعه فيها وأمكنكم من إخراجه بضد ما تعرفون فإن الدفن مما يفسد المدفون كالمقبور، ومع ذلك فأنتم تدفنون الحب فيخرجه على أحسن ما تريدون ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٦﴾﴾ كما أخرج تلك الأرزاق.

ولما لم يكن بعد الاستعطاف إلا الإنذار، قال مهددًا للمكذبين، منكرًا عليهم الأمان بعد إثبات أن بيده الملك، مقررًا بعد تقرير حاجة الإنسان وعجزه: أنه لا مانع له من عذاب الله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون وغيره ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٧﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ كما وقع لقوم لوط وأصحاب الفيل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي: عن قريب حتمًا، ولما كان العلم بكيفية الشيء أعظم من العلم بمطلقه؛ لأنه يلزم من العلم بها العلم به قال: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنذاري البليغ. ثم قال مصورًا ما توعدهم في أمر محسوس: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولما كان تعالى قد أملى لهم ثم أخذهم أخذًا بقيت آثاره، قال منبهًا على استحضاره ولو بالسؤال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنكاري، فجمع إلى التسلية غاية التهديد.

ولما ذكّر بمصارع الأولين أتبعه ما يذكّر قريشًا بما حصب به أصحاب الفيل من الطير الأبابيل، وتقريرًا لملكه وتدبيره حيث جبر الطير لضعفها بالطيران ليكمل معاشها فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: باسطات أجنحتها، ولما عبر بالاسم لأنه الأصل، عبر عن التحريك بالفعل فقال: ﴿وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الحالين عن السقوط على خلاف الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: الملك العام الرحمة، وكذا العالم لو أمسك عنه حفظَه طرفة عين لفسد بتهافت الأفلاك وتداعي الجبال، ثم نبه على أن هذا التقدير العظيم ليس خاصًا بالطير فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم قال منبهًا على أن رفع المضار وجمع المسار ليس إلا بيده؛ لأنه الملك وحده، ومعرّفًا بأنهم لجهلهم اعتقدوا أن لهم جندًا ينصرهم وإلا لما أمنوا مع كفرهم: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ ونبه على ظهوره تعالى فوق كل شي بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إن أرسل عذابه، وأظهره لاستحضار شمول رحمته، ثم قال مستنتجًا: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢١﴾﴾ لأنهم يعتمدون على غير معتمد.

ولما قدم الرحمة بما يوجب البقاء أتبعه ما يتم به فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ مع التجدد والدوام والوسع ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ فوضع أحدكم اللقمة في فمه فمنعه الله الازدراد وعجز الخلق أن يسوِّغوها، ولما دل بهذا على قدرته وعلمه، قال لافتًا الكلام إلى الغيبة إعراضًا عنهم، تنبيهًا على غبائهم وغفلتهم: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: تمادوا سفاهة لا شجاعة، قال الرازي: "واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه"، ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: مظروفين للعناد ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢٢﴾﴾ عن حسن النظر والاستماع، مع أنهم عاجزون عن النفع والضر، والداعي إلى ذلك الشهوة والغضب.

ولما كان هذا فعل من لا بصر له ولا بصيرة، قال ممثلًا للموحد والمشرك بسالكين ولدينيهما بمسلكين: ﴿أَفَمَن يَمْشِى﴾ باستمرار ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وهو كناية عن السير على رسم مجهول، فهو كل حين يعثر فيخر على وجهه؛ لأنه لعدم نظره يمشي في أصعب الأماكن؛ لإمالة الهوى له وغلبة الجهل عليه، فتكرار المشاق عليه لا يزجره عن المُوقِع له فيه، ولم يسم ممشاه طريقًا لأنه لا يستحقه، ولما كان ربما صادف السهل اتفاقًا قال: ﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ قائمًا رافعًا رأسه ناصبًا وجهه سالمًا من العثار؛ لأنه لانتصابه يبصر ما حوله.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا مثل من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا، والأول مثل الكافر، حاله في سيره إلى الله حالُ المكبِّ نفسَه بغاية الشهوة، لا يرى ما حوله من الآيات ولا يشعر بما أحاط به، فهو اليوم شيء باطن يظهر يوم القيامة فيحشر على وجهه لرضاه بحالته هذه في هذه الدار، والمؤمن بخلاف ذلك فيهما.

﴿قُلْ﴾ مذكرًا لهم بما دفع عنهم الملكُ من الضر وجمع لهم من النفع؛ ليمشي كل منهم سويًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ ووحده لقلة التفاوت فيه؛ ليظهر تصرفه تعالى في القلوب بغاية المفاوتة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ التي هي في غاية التوقد بإدراك ما لا يدركه

بقية الحيوان، وجمعهما لكثرة التفاوت فيهما، وهو تنبيه على إكمال هذه القوى بتلطيف السر لتدقيق الفكر، ولما كانوا قد مشوا مشي المكب فلم يستعملوها فيما خلقت له، كانت ترجمته: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ولما دل على بعدهم عن الهداية والشكر مع فخرهم بهما، دل على قدرته على حشرهم بمعنى يجدونه في أنفسهم، فقال مستأنفًا بيانًا لأنه دليل برأسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أي: نشركم بعد ما كنتم كالذر وأسكنكم اللجاج الحامل على الولوع بما تثيره الطباع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي ذللها لكم ورزقكم منها النبات الذي هو دليل البعث ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ تدريجًا إلى البرزخ، ودَفعة يوم البعث كرهًا، كما أنكم في الدنيا لم يكن أحب إليكم من الدعة والسكون، فاضطركم سبحانه إلى السعي في الرزق كرهًا، فكما قدر على ذلك في الابتداء فهو يقدر على مثله في الانتهاء.

ولما أبلغ في وعظهم ذكر حالهم عنده فقال إعلامًا ببلادتهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ولو كان لهم ثبات الصبر واليقين لما طاشوا هذا الطيش. ولما كان قولهم هذا متضمنًا لإيهام أنها مما يطلع الخلق على وقته، نفى ذلك بيانًا لعظمتها بعظمة من أمرُها بيده فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ به وبغيره، ولإظهار فضل العلم ذكر الاسم الأعظم فقيل: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال وعظمته تقتضي الاستئثار بالأمور العظام ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ ولما كان النذير قد لا يقدر على إقامة الدليل على ما ينذر به، بين أنه ليس كذلك فقال: ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ولما كان ما ينذر به لا بد واقع، عبر بالفاء والماضي فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: بليغ القرب، بالتعبير بالمصدر والتاء ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولما كان لا أوجع من التبكيت عند إحاطة المكروه قال: ﴿وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ وصرف القول إلى الخطاب لأنه أنكأ فقال: ﴿تَدَّعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ هو افتعال من دعا بالشيء إذا طلبه.

ولما كانوا يسعون في هلاك النذير ﷺ، وكان هلاكه إنما ينفع المنذَر لو نجى، نفاه بقوله مكررًا للأمر بالقول تنبيهًا على أن كل جملة صدرت به دالة على مقصود السورة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ وأسند الإهلاك إلى الله إعلامًا بقطعه بأنه لا شيء في أيديهم فهو لا يخافهم فقال:

﴿إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي له من الجلال والإكرام ما يعصم به وليه ويقصم عدوه ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ فلا يبقى من يكدّر عليكم اتباع الهوى ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ بالنصر.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره ﴿مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٩﴾ يصيبهم به من بيده ملك كل شيء، وإلا لنجى أحد من الموت الذي خلقه، فإذا كان لا ينجيهم من عذابه شيء سواء متنا أو بقينا، فالذي ينبغي لهم السعي فيما ينجي منه، لا السعي في إهلاك من هو ساع في خلاصهم من العذاب ولا يقدرون على إهلاكه أصلًا إلا بتقدير الذي أمره بإنذارهم.

ولما كان التذكير بالنعم أشد استعطافًا، قال لعلمهم بأنه لا نعمة إلا منه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بأنه لا يكافئه شيء، فهو كاف في الإيمان به ﴿وَعَلَيۡهِ﴾ أي: وحده ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ لأنه لا شيء في يد غيره، وقد أقررنا له بالتفرد بالألوهية والربوبية فلا نجنح إلى معوّق عن ذكره ولو كان نفيسًا في الدنيا أو مخوفًا فإنه لا خوف معه سبحانه، فالتوكل عليه منجاة من كل هلكة، مجلبة لكل ملكة، ولما أبان هذا الصوابَ وكان لا بد من الانقلاب، سبب عنه قوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾.

ولما افتتح السورة ببركته وقدرته وملكه، ودل عليه بتفرده بالإماتة والإحياء، ختم بمثل ذلك بالماء الذي وجوده سبب للحياة وعدمه سبب للموت فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ﴾ أي: الذي تعدونه في أيديكم، بما نبهت عليه الإضافة، ولما كان المقصود المبالغة عبّر بالمصدر فقال: ﴿غَوۡرٗا﴾ فلا يمكن لكم نيله بأيّ حيلة ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ ٣١﴾ فقد رجع ذلك الآخر كما ترى على ذلك الأول (٦٥).

---

(٦٥) أو يقال: لما افتتح دلائل ملكه بجلال السماء، ختم بما فيها من الرحمة بالماء النازل منها مما يتناوله البصر وغيره، ويُعرف ميقاته بالمصابيح التي هي علامات ورجوم للشياطين، فبدأ بأول أمر السماء وهو الخلق، ووسط بوسطه وهو الطير والحاصب، وختم بنهايته وهو الماء النازل، مع مشابهته لقوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولًا﴾ إلى ﴿تمور﴾، والله أعلم.

سورة القلم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها تعيين المهتدي المبهم في آية: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ [الملك: ٣٠] الذي برهن على هدايته، وأدل ما فيها على هذا «ن» و«القلم» فلذا سميت بكل منهما؛ لأن النون مبين محيط في بيانه، وأما القلم فإبانته للمعارف لا تنكر.

لما ختم الملك بأنه لا يقدر على الإتيان بذلك الماء إلا تام القدرة، وكان لا يقدر على كل ما يريده إلا كامل العلم، دل عليهما بما أفاده على النبي الأمي من العلوم فقال: ﴿نٓۚ﴾ وهذه حرف من حروف المعجم، وهي اسم لما به ظهور الأشياء وإدراكها، كما دل عليه موقعه في اسم النور والنار والنيل والنمو وغيره، وقال الصدّيق: "لكل كتاب سر، وسر القرآن هذه الحروف، ولا يعلم ما هي إلا واضعها سبحانه".

ولما كان هذا الحرف آية الكشف، كان مخرجه أمكن المخارج وأوسعها، وهو مما كرر مسماه في اسمه فانتهى إلى حيث ابتدأ، واختص بكون عمادِه الحرفَ ذا العلو وهو الواو، وهو حرف لا يستقر على حال فيقع زائدًا وأصلًا، كما أن العلم لا يستقر بل مهما وسعته اتسع ومهما تركته اضمحل، وهو يبدل من غيره ولا يُبدل غيره منه، كما أن العلم يتبعه غيرُه ولا يتبع هو غيرَه، وهو حرف صحيح والعلمُ جدير بهذا الوصف، فقد انطبق بمخرجه وصفاته على العلم الذي هو مقصود السورة فتبين أنه مقصودها، وأما بيان القلم للعلم فظاهر.

ولما كان هذا الحرف اسمًا لما به ظهور أمر، لم يختص بمُظهَرٍ دون آخر، ولصدقه على كل مُظهَر فسره ابن عباس بالدواة، ففسره بما يستمد منه القلم، كما أن الاستيلاء على القلوب في الدنيا إنما يكون بالعلم الذي هو حقيقة نون، والاستيلاء على الأجسام في ظاهر الدنيا إنما يكون بالقدرة التي هي حقيقة قاف، على ما يظهر من إيالتي العلماء في النون الأبطن، والملوك في القاف الأظهر، ولذا أقيم المفصل من القرآن بحرفَي قاف ونون، وقال بعض السلف: "كل عز لم يوطّده علم فإلى ذل يؤول".

﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ أي: قلم القدرة الذي هو أول ما أبدعه الله ثم قال له: «اكتب»، فخط جميع الكائنات إلى يوم القيامة، فأظهر جميع العلوم ثم ختم على فيه إلى يوم القيامة، والذي

يكتب فيه الخلق ما نولهم الله من تلك المعارف، وذلك هو قوام أمور الدنيا ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾. ولما كان المخاطَب ﷺ لم يتجدد له ما يستحق به أن يصفوه بالجنون الذي ينشأ عنه الضلال المذكور آخر الملك إلا النعمة التي ما نال أحد مثلها، قال رادًا عليهم وشارحًا لصدره: ﴿مَا أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ بالقرآن الذي هو جامع لكل علم وحكمة ﴿بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾.

وقال ابن الزبير: "لما تضمنت سورة الملك أعظم البراهين، وجيء بالظاهر في قوله: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [الملك: ٣] ولم يقل: ما ترى فيه؛ ليشعر أن جميع المخلوقات على هذا، كل شكل يناسب شكله، كما أشعر ذكر الرحمن بما في هذه الأدلة من الرحمة للخلائق، وأمر برجوع البصر ليحصل استجمامه واستعداده حتى لا يقنع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، وهذا الاعتبار جار في كل المخلوقات، فشهادته بنبوة الآتي به واضحة، فأنى يصدر بعض ذلك من متصف بما هزؤوا به في قولهم: مجنون وساحر وشاعر وكذاب؟

فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين أتبعت بتنزيه الآتي بها فقال: ﴿ن﴾ إلى ﴿بمجنون﴾ وأنى يصح من مجنون تصور بعض تلك البراهين؟ فكيف ببسطها في نظم معجز وعبارة فائقة تستوضح سبلها فلا تسلك؟ فقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ جواب لقوله في آخر السورة: ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾.

وتقدمُ الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم؛ ليكون أبلغ في إجلاله ﷺ وأبسط لحاله، ولهذا قدم مدحه ﷺ بالخلق العظيم، ولا موضع أليق بذكر تنزيهه ﷺ بما وصف مما أعقب به ذلك، إذ بعض ما تضمنته سورة الملك: شاهد لكل منصف بصحة نبوته ﷺ، فقد تبين موقع هذه السورة هنا".

ولما كان المجنون لا عمل له ينتظم ولا قول يرتبط، فلا يستعمله أحد في شيء ليكون له عليه أجر، أثبت له الأجر المستلزم للعقل فقال[٦٦]: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾ والأجر لا يكون إلا على العمل الصالح، والعمل رشح الأخلاق فصالحه نتيجة الأخلاق الحسنة، ولذا قال: ﴿وَإِنَّكَ﴾ وزاد في التأكيد لزيادتهم في المكابرة فقال: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ

---

(٦٦) أو يقال: لما كان ﷺ يؤذى بالرمي بالجنون وغيره سلّاه بأنه مأجور على صبره، فإن قوله: ﴿غير ممنون﴾ يشبه: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠]، والله أعلم.

﴿٤﴾ وهو الإسلام الذي دعا إليه القرآن، لا يحرفه بلاء ولا يصرفه عطاء، لأن خُلقه بشهادة أعرف الناس به عائشة رضي الله عنها: القرآن، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمره ونهيه، فهذا الخلق نتيجة الهدى.

وقال الواسطي: "اعلم أن الخَلق والخُلق صورتان: الخَلق صورة الظاهر، والخُلق صورة الباطن، فيعبَّر عن تناسب الأعضاء الظاهرة بالخَلق الحسن، وعن تناسب المعاني الباطنة بالخُلق الحسن، ثم يكون تارة مع الله بالتعظيم والإجلال، وتارة مع حكمه بالصبر في الضراء والشكر في الرخاء وامتثال الأوامر وترك النواهي عن طيب قلب، وتارة مع الخلق بالنصفة في المعاملة وحسن المجاملة في العشرة".

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: تعلمون علمًا محققًا كالمبصر بالحس. ولما كان ﷺ ومن معه فريقًا والأعداءُ فريقًا، وقد أبهم آخرَ المُلكِ الضالَّ منهما قال: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ أي: في أي فريقيكم ﴿ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ أي: الفتنة بالجنون وغيره، قال الرازي: "مصدر مثل الفتون وهو الجنون بلغة قريش، كقولهم: ما له معقول، أي: عقل". ولما أخبر بجنونهم المستلزم لضلالهم، وكان مثله قد يقع في المحاورات بالظن، أعلم بأنه عن علم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

ولما كان الحليم إذا اشتد الأذى ربما داهن، [قال محذرًا أو معللًا لعلمه بالعواقب]، واصفًا الضال ليُعلَم المهتدي: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ ثم علل ذلك بما يدل على استمرارهم عليه منذ أمد بقوله: ﴿وَدُّواْ﴾ وأشار إلى إفسادهم القوة النطقية وخلق الشجاعة بقوله: ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ أي: تلاين فتوافق على بعض، ولما كانوا يلينون له ﷺ بعض الأوقات خداعًا، قال معرفًا بذلك: ﴿فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ بسبب ودهم ذلك، فهو عطف على «ودوا» لا جواب «لو»؛ لتنبيهه ﷺ على أن لينهم للفساد، وقد أخروا الإدهان وإن ودوه قديمًا؛ لتبدأ به فيظهروه، قال القشيري: "من أصبح عليلًا تمنى أن يكون الناس كلهم مرضى".

ولما نهاه عن طاعة المكذب وكان من الناس من يخفي تكذيبه، قال ناصبًا علاماته: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: مبالغ في الاجتراء على الأيمان وإن لم يُظهر تكذيبَه، وليس المراد النهي عن العموم بل عموم النهي، ثم ذكر أوصافًا متفرخة من الكذب، فكثرة الحلف دالة على فساد العلم، فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق، فلذلك يحلف صادقًا وكاذبًا كيفما اتفق

فقال: ﴿مَّهِينٍ ١٠﴾ أي: ضعيف سافل الهمة والمروءة والرأي؛ لأن الإنسان لا يكثر الحلف إلا وهو يتصور أنه لا يصدَّق إلا به، لأنه ليس له من المهابة ما يصدَّق بسببه، وهو مؤثر للبطالة لما فيها من موافقة طبعه.

ولما كان المتصف بِدنيّة يحب أن يشاركه الناس فيها؛ ليسلم من العيب ولأن الشيء لما داناه آلف قال: ﴿هَمَّازٍ﴾ أي: عيّاب للناس في غيبتهم، واللمز في مواجهتهم، ولما كانت النميمة أشد الهمز، أفاد أنه يفعله وبسعيٍ فقال: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ١١﴾.

ولما كان مثل هذا يريد إعلاء نفسه بهضم الناس وكان المنع للاستئثار بالممنوع ليكون الغير محتاجًا إليه؛ لأنه لا يرتبط إلا طمعًا لا شكرًا = بضد الجواد فإنه يجود ظنًا أن الناس كذلك، قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ﴾ من مال وإيمان وغيرهما من نفسه ومن غيره من الدين والدنيا إلى غير ذلك، ولما كان من يفعل هذه المخازي لئيمًا، بين أنه بذل ما يزيد لؤمَه فقال: ﴿مُعۡتَدٍ﴾ أي: متجاوز للحد في ذلك ﴿أَثِيمٍ ١٢﴾ أي: مبالغ في أسبابه، فيترك الطاعة والطيبات، ويأخذ المعاصي والخبائث.

ولما كان من يتصف بهذه الدنايا يسعى في سترها إن كان عاقلًا بلين وخداع، بين أنه على غير هذا فقال: ﴿عُتُلِّۭ﴾ أي: أكول شديد الخصومة كأنه قطعة من جبل لا ينجر إلى خير إلا بعسر وعنف، مِن عتله: إذا قاده بغلظة، فهو في غاية اليبس ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ الخلق الذي تجمع من هذه القبائح حتى صارت كأنها خلق واحد ثابت.

﴿زَنِيمٍ ١٣﴾ أي: له علامة سوء وثناء قبيح يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها، وقيل: هو الذي يتشبه بقوم وليس منهم، ولا يخلو التعبير به من إشارة إلى أنه دعيّ ليس بثابت النسب؛ ليكون منقطعًا عن كل خير وإن نُسب إلى آباء كرام.

وهذه الأفعال تنافي الشجاعة المقتضية إحسانَ صاحبها إلى كل أحد وأن لا يوصل إليه أذى إلا بعد ظهور شره فيعامله بحسب العدل بما لا يرزئ بالمروءة، والمشار إليه بهذا مع إرادة العموم قيل: الوليد بن المغيرة، وقيل غيره.

ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضًا فانيًا وظلًا زائلًا لا يفتخر به بل ولا يلتفت إليه إلا من كان بهذه الأوصاف، فإذا كان أكبرَ همه ومبلغَ علمه: أداه للترفع على الحقوق والتكبر

على العباد، قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ أي: مذكور بالكثرة ﴿وَبَنِينَ ١٤﴾ أنعمنا عليه بهما فصار يطاع لأجلهما، فكان يجب عليه شكرنا بسببهما.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ﴾ أي: فجأة بلا تأمل، فـ﴿أن﴾ مع جاره متعلق بما دل عليه نحو: كذب لأنه متمكن، ولا يتعلق بـ﴿قال﴾ لأن ما في حيز الشرط لا يعمل فيما قبله، أو أنه متعلق بـ﴿لا تطع﴾ أي: لا تطعه لأجل أن كان كذا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٥﴾ فحمله دنيء طبعه على تكبره فكذب بأعظم شيء ولم يستح من ظهور كذبه، فجعل الكفر موضع الشكر، فكان هذا دليلًا على تلك الصفات مع التعليل بالاستناد إلى ما هو أوهى من بيت العنكبوت، وذلك وحده كاف في الرسوخ في الدناءة.

ولما أغرق هذا في الشر، قال معلمًا بأنه يجزيه بخزي يشتهر به: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ ولما كان الوسم منكئًا، وجعلُه في موضع ظاهر أنكأ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان، وأظهرُ ما فيه الأنف، ولذا جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة، قال: ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾ أي: الأنف الطويل، والتعبير بهذا للاستهانة.

ولما ذكر في أول الملك أنه خلق الموت والحياة للابتلاء، وعاب هنا المغترَّ بالمال والبنين والموتُ وراءه، أعاد ذكر الابتلاء فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ بالسعة لنختبرهم فظنوا أنهم أحباب، فيوشك أن نأخذهم بغتة كما فعلنا بأصحاب الجنة، فكل من سمع بالرسول ولم يؤمن فأعماله كهذه الجنة، يظنها شيئًا فتخونه أحوج ما يكون إليها ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ عرّفها لشهرتها، كان صاحبها ينادي الفقراء وقت الصرام، فلما مات شح بنوه ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧﴾ أي: قبل الشمس حتى لا يأتي الفقراء إلا بعد فراغهم ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨﴾ شيئًا منها لا يمنعونه.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ أي: عذاب يسيرٌ عند الله، عظيمٌ عندها لأنه لم يدع منها شيئًا، ولما كان هذا مقتًا في الصورة أخبر أنه لطف في المعنى بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فأدبهم بما أوجب توبتهم، وهو الجدير بتربية العباد ليهتدوا بك ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتْ﴾ بعد هذا الطائف الذي أرسله القادر الذي لا يغفل ولا ينام على مال من لا يزال أسير العجز والنوم، أن صارت جنتهم وقت اجتنائهم لها وسرورهم بها ﴿كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ ليس بها ثمرة؛ لأنهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق.

﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١﴾ أي: أول دخولهم في الإصباح ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢﴾ أي: جاذّين لكيلا يشاركـكم أحد، أو جازمين بما عزمتم عليه. وعبر عن إسراعهم بقوله: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ وأكدوه لبُعد هذه الوقاحة وأن يخلو جذاذ من سائل. فقال لهم أوسطهم سنًا وأعدلهم طبعًا: لا تفعلوا واصنعوا كما كان أبوكم، وكأنه طواه؛ لأنه مع الدلالة عليه بما يأتي: لم يؤثر شيئًا ﴿ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ وهو القصد وشدة الغضب مع الجزم واللجاج والسرعة والنكد بالمنع وقلة الخير ﴿قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦﴾ عن جنتنا لأن هذه لا تشبهها.

ولما زال ما أدهشهم قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾ بعزمنا حرمانَ المساكين؛ لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ ألّا تفعلوا، ولما كان منع الخير ولا سيما في مثل هذا مستلزمًا لظن النقص في الله بأنه لا يخلف ما تُصُدق به أو لا يقدر على إهلاك ما شُحَّ به، قال مستأنفًا: ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨﴾ اللهَ عما أوهمه فعلكم، وأقله الاستثناء عند الإقسام شكًا في قدرة الإنسان وإثباتًا لقدرة الله.

﴿قَالُواْ﴾ بلا تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أن يكون ظلمنا بما فعل، وأكدوا قباحة فعلهم هضمًا لأنفسهم وخضوعًا لربهم وتحقيقًا لتوبتهم؛ لأن ما كانوا عليه يقتضي استبعاد رجوعهم، بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ دأبَ المغلوبين. وبين بعضه فقال: ﴿قَالُواْ﴾ منادين لما شغلهم قربه: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ هذا وقتك، والويل: الهلاك والإشراف عليه، ولما كان أهل الرذالة ينكرون طغيان من يمنع الفقراء، أكدوا قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾.

ولما قدموا ما هو أنفع لهم من اللوم المقتضي لتوبتهم قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ﴾ وإنما تعلق رجاؤنا بسبب توبتنا، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولما أقبلوا على الله قالوا معللين: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ وقد قيل إنه تعالى قبل رجوعهم وأخلف عليهم، ولكن لما كان المقام لترهيب من ركن إلى ماله واحتقر الضعفاء طواه.

ثم ذكر ما أنتج هذا الكلامُ من مساواة حال قريش وهؤلاء في الإحسان وطول الحلم مع احتقار أوليائه والتقوي عليهم بنعمائه، فقال مرهبًا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الذي بلونا به أصحاب الجنة ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ الذي نحذرهم منه في الدنيا، فإذا تم الأجل الذي قدرناه

أخذناهم غير مستعجلين ولا مفرطين، لأنه لا يعجل إلا ناقص يخاف الفوت، ولما كان إنكارهم لأمور الآخرة أشد أكد قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ في كل ما يتوهمونه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لرجعوا عما يكون سبب العذاب.

ثم ذكر أضدادهم فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الملوي: "وأصلها أن الفرس الواقي وهو الموجوع الحافي، لا يضع حافره حتى يرى هل الموضع لين يناسب؟ وكذا المتقي لا يتحرك ولا يسكن إلا على بصيرة من رضا الله، فلا يفعل أحد منهم شيئًا من تلك الخبائث التي تقدمت للمكذبين، فحازوا الكمال بصلاح العمل الناشئ عن صلاح العلم"، وزاد في الترغيب بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: المحسن إليهم في موضع ندم أولئك وخيبة آمالهم ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ لا شيء فيها غيره أصلًا، بما أفادته الإضافة.

ولما كان عدم إيراث كل فريق دارَه لا يليق بالحكيم، قال منكرًا عليهم ظنهم أن يكونوا في الآخرة -لو كانت على زعمهم- أحسن حالًا من المسلمين لرغدهم في الدنيا، بانيًا على ما تقديره: ولا يكون لغير المتقين ذلك: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: الراسخين في قطع ما أمرنا أن يوصل، وأنتم لا تقرون ذلك بل من عاندكم قاطعتموه ولو بالقتل. ولما كشف هذا الدليل الشبه، قال معجِّبًا منهم، منبهًا على ما هم فيه من اعوجاج الفطر وفساد الفكر، منكرًا عليهم: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ولما نبههم على أنه ليس لهم في مثل هذه الأحكام ما ينفع، وكان العاقل إذا علم ذلك بعد منه، أنكر عليهم حال أحكامهم هذه؛ لأن نفي أحوالها أشد لنفيها فقال: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ولما نفى حكمهم هذا بإنكار جميع كيفياته التي يمكن أن يصح معها، وكان الحكم الصحيح لابد أن يستند إلى عقل أو نقل، زاد بطلانه وضوحًا بنفيهما فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ثم ذكر المدروس فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾. ولما بقي أن الإنسان ربما عاهد غيره على شيء فيلزمه الوفاء به وإن كان خارجًا عما يدعو إليه العقل والنقل، نفى ذلك بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم تهكم بما هو أعلى مما تقدم فقال: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ من المعاهدة والدليل النقلي والعقلي ﴿زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: كفيل لتُلزِمه في ادعائه صحة ذلك ما تدعه به ضحكة للعباد،

فلم يجسر -لما يعلمون من حقية القرآن وبطلان أقوالهم- أحد منهم أن يبرز لذلك. ولما نفى أن يكون لهم منه دليل أو عهد، أتبعه ما يكون من عند غيره إن كان ثمَّ غيرٌ فقال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ أي: شرعوا لهم أمرًا ووعدوهم بشيء أقاموا عليه من الأدلة ما أقمنا لنبينا ﷺ ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾.

ولما نفى جميع شبههم التي يمكن أن يتشبثوا بها، فأوصلهم من وضوح الأمر إلى حد لم يبق معه إلا العناد، أتبع ذلك تهديدهم فقال: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾ وهو كناية عن تفاقم الأمور ﴿عَن سَاقٍ﴾ أي: يشتد فيه الأمر غاية الشدة؛ لأن من اشتد عليه الأمر شمر عن ساقه، كما نُقل عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وكناية عن انكشاف جميع الحقائق، كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه.

ولما كان كشف الشبه في القرآن لأجل العبادة وهي الخضوع الذي يعبر عنه بالسجود فيأتونها قادرين، ذكّرهم يومًا يريدونها فلا يتأتى لهم؛ لأن ظهورهم تكون طبقًا واحدًا كلما أرادوا أن يسجدوا انقلبوا على أقفائهم فقال: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخًا على تركه وتنديمًا لا تعبدًا، فيريدونه ليفتدوا ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ لأن المرء يبعث على ما مات عليه ويحشر على ما بعث عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ولما كان ربما ظُن أن المانع لهم الكبر كما في الدنيا قال: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ لأن ما في القلب يعرف في العين، ولما كان الخاشع قد يخشع لخير عنده مع العز قال: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ لأنهم استعملوا الأعضاء التي أعطاهموها ليتقربوا بها إليه: فيما يبعد منه ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ فهم مستطيعون وإنما يمنعهم الكبر.

ولما كان النبي ﷺ يجد من تكذيبهم -مع إتيانه بما لا يحتمله- من المشقة ما لا يعلم مقداره إلا الله، وكان علمُ المغموم بأن له منقذًا مقتدرًا أقر لعينه، سبب عن كمال اقتداره قوله مخففًا عنه: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ وأفرد الضمير نصًا على تهديد كل واحد منهم ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ أي: كِل أمرهم إلي ولا تكترث به، ثم بين ما يفعله بهم بقوله جامعًا الضمير ليكون الواحد مهددًا من باب الأولى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٤﴾ بالإمهال ولا نعاجلهم بالعقاب كما يتفق لمن يراد به الخير فيستيقظ، وبالإنعام ظاهرًا حتى يزول عنهم التذكر، فيظنون كذب الوعيد لرؤيتهم أنهم كلما أحدثوا معصية تجددت نعمة.

ولما كان الاستدراج يكون بأسباب كثيرة، فأبرزه بالنون المشتركة بين الاستتباع والعظمة، وكان تأخير الأجل لا يكون إلا لله بغير واسطة شيء قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ وعلله بقوله مسميًا إنعامه كيدًا: ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ أي: ستري لأسباب الهلاك عمن أريد إهلاكه وإبدائي ذلك له في ملابس الإحسان ﴿مَتِينٌ ۝٤٥﴾ أي: في غاية القوة حيث كان حاملًا للإنسان على إهلاك نفسه باختياره.

ولما كان القرآن أعظم إحسان، فكان تكذيبهم به وأذى الآتي به سببًا لأخذهم، قال منكرًا عليهم، مبينًا أنه لا شهوة لهم في تكذيبه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦﴾ فلهذا كذبوا. ولما نفى الشهوة، نفى الشبهة وأن يكونوا على ثقة بسلامة العاقبة فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾ فيطّلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله أو أنهم لا درك عليهم في التكذيب به، فعلم بهذا أن تكذيبهم إنما هو مجرد خبث طباع وظلمة نفوس وأماني فارغة وأطماع.

ولما أخبر بإهلاكهم، كان ذلك حاملًا على الصبر إلى وقت الفرج فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما يقع منهم ومن غيره من مر القضاء ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: الذي قدره المحسن إليك، ولما كان يونس عليه السلام استثقل الرسالة؛ لما فيها من الشدائد من معالجة الخلق فامتُحن فكان سببًا لكرامته وإسلام قومه، أشار بقصته إلى أنه يراد إعلاؤه ﷺ وأمتَه بما يحتاج صبرًا فقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ أي: مملوء كربًا، محمول على السكوت، ومحبوس عن التصرف، من الكظم: وهو السكوت عن امتلاء وتجرع للمرارات، ومن هذا: كظمتُ السقاءَ أي: شددته وملأته.

﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾ ومن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجرًا من أجره، وأنت كذلك فأنت أشرف العاملين والعالمين ﴿فَاجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾.

ولما نهاه ﷺ عن طاعة المكذبين وحذره إدهانهم وختم بقصة يونس للتدريب على الصبر، فكان التقدير تسبيبًا عما فيها من النهي: فإنهم إنما يبالغون في أذاك لتضجر فتترك ما أنت فيه، قال عاطفًا عليه مخبرًا له بما في صدورهم من الإحن والضغائن له؛ ليشتد حذره من إدهانهم، مؤكدًا؛ لأن من يرى إدهانهم يظن إذعانهم: ﴿وَإِن يَكَادُ﴾ وأظهر موضع الإضمار

تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: يزلّونك عما أنت فيه زلَلَ من هو في دحض؛ لما يتراءى في عيونهم من الحنق، وقيل: يهلكونك بالعين، وللشيخين عن النبي ﷺ: «العين حق» ولأحمد: «يحضر بها الشيطان وحسد ابن آدم».

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ حسدًا على ما آتاك من الشرف، ولما كانوا لا يزدادون مع الزمان إلا حنقًا قال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بتجدد، ولما كان ﷺ في غاية البعد عما يشين، أكدوا قولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾ حيرة في أمرك وتنفيرًا عنك؛ لما يعلمون من كذبهم وحسن ما جئت به. ﴿وَ﴾ الحال أن هذا القرآن أو الرسول ﴿مَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: موعظة وشرف ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

فقد رجعت خاتمتها على فاتحتها بالنون والقلم وما يسطرون من هذا الذكر، وسلب ما قالوا فيه من الجنون، والإقسام على الخلق العظيم الذي هو هذا الذكر الحكيم، ونبه كونه ذكرًا لجميع الخلق بما فيه من الوعد والوعيد: على أنه لا بد من الحاقة ليظهر فيها تأويله، والله الهادي إلى الصواب.

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها إظهار العدل بين سائر المخلوقات؛ ليميز المسلم من المجرم، وتسميتها بـ«الحاقة» أدل ما فيها عليه.

لما قدم في «ن» ذكر القيامة وبينها بكشف الساق، وختم بأن القرآن شرف وتذكير، وكان تأويل ذلك إنما يظهر ظهورًا تامًا في القيامة، وكان إنزال القرآن للتذكير بها، قال واصفًا لها ولليوم الذي يكشف فيه عن ساق: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: الساعة التي هي أثبت الأشياء فلا بد من حقوقها وإحضار الأمور فيها بحقائقها والمجازاة عليها بالحق، فهي فاعلة بمعنى مفعول فيها، وفاعلة أيضًا فهي تحق الحق فتدمغ الباطل، وكل ما فيها دائر على الثبات والبيان؛ لأن ذلك مقتضى الحكمة.

وأعلم أن هذا الأمر مما يحق الاستفهام عنه فقال: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾ فـ«ما» مبتدأ خبره الحاقة، وهما خبر عن الأولى، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه، وأكثر ما يكون ذلك إذا أريد معنى التعظيم والتهويل. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾ لأنها لا يعلم كنهها أحد وكيف ما قدرت حالها فهي أعظم، فلا تعلم حق العلم إلا بالعيان.

وقال ابن الزبير: "لما بنيت سورة القلم على تقريع المشركين وتنزيهه ﷺ، أتبعت بسورة الحاقة وعدًا لهم وبيانًا أن حالهم قد سُبق إليه: ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾، ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ [يونس: ١٠٢] فسورة الحاقة جارية مجرى نحو هذه الآية، ولما ذكر هلاك الأمم السالفة أتبعه الوعيد الأخراوي ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾، ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة القلم من تنزيهه ﷺ مقسمًا على ذلك ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ الآيات".

ولما كان إنكار الساعة لظن نقص القدرة أو العلم، قال دالًا على تمامهما، محذرًا من أنكرها بتعجيل الانتقام، بادئًا بأشد القبائل تكذيبًا بالبعث؛ لأن ناقتهم أدل دليل على القدرة عليه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾ ولأن بلادهم أقرب إلى قريش، وواعظ القرب أكبر، وإهلاكهم بالصيحة وهي أشبه بصيحة النفخ في الصور ﴿وَعَادُۢ﴾ وأبدل الضمير بوصف

زادها عظمًا فقال: ﴿بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٣﴾ أي: التي تدق وتضرب ضربًا قويًا شديدًا للأسماع بانفطار السماوات وتناثر النيرات ونسف الراسيات، فلا يثبت شيء.

ولما جمعهم في التكذيب فصلهم في التعذيب فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ ولما كان الهائل لهم -لتقيدهم بالمحسوسات- إنما هو العذاب لا كونه من معين، بنى للمجهول قوله: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٤﴾ أي: الصيحة التي جاوزت الحد في الشدة.

ولما ذكر المهلكين بالصيحة، أتبعه المهلكين بما هو سبب لإنفاذها وتقويتها دلالة على تمام القدرة على كل نوع من العذاب فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾ أي: شديدة البرد والصوت، كأنهما كررا فيها حتى صار البرد محرقًا والصوت مصمًا، وقال الملوي: "أصله: صر، وهو البرد الشديد أو الحر الشديد"، ﴿عَاتِيَةٖ ۝٥﴾ أي: مجاوزة للحد من شدة عصفها وقصفها، تفعل أفعال المستكبر الذي لا يبالي بشيء، فكانت تنزعهم من مصانعهم التي أتقنوها فتهلكهم.

ولما وصفها بذلك دل على أنه هو الذي أوجدها لا الطبيعة فقال: ﴿سَخَّرَهَا﴾ والتسخير استعمال الشيء بالاقتدار، ودل على أنه تسخير تعذيب لا رحمة بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ولما كانت هذه السورة لتحقيق الأمور، حقق فيها زمن عذابهم فذكر الأيام والليالي فقال: ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وقد لزم من زيادة عدد الأيام أن الابتداء كان بها، فتأمله ﴿حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٦﴾ أي: متآكلة الأجواف، قالوا: كانت تدخل أفواهَهم فتخرج ما بأجوافهم من أدبارهم، فالوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيعها لهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم.

ولما كان هذا أمرًا رائعًا وكان الاستفهام يزيد الروعة، قال مسببًا عن استئصالهم: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٧﴾ أي: بقاء أو نفس موصوفة به، وأنجى الله صالحًا ومن آمن به من بين ثمود ولم تضرهم الطاغية، وهودًا ومن آمن به من بين عاد ولم يهلك منهم أحد، فدل على أن له سبحانه تمام العلم وعلى قدرته واختياره وحكمته، فلا يجعل المسلم كالمجرم ولا المسيء كالمحسن.

[ولما كانت عاد وثمود أطغى أهل الأرض، أتبعه أقرب أمثالهم إليهم في ذلك فقال]: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قِبَلَهُۥ﴾ في السير بسيرته من العلو بغير الحق والعتو في الكفر، ولما كان قوم

لوط قد جمعوا أنواعًا من الفسوق لم يشاركهم فيها أحد، فاشتمل عذابهم على ما لم يكن مثله، نص عليهم من بين من قبله فقال: ﴿وَٱلْمُوتَفِكَٰتُ﴾ أي: أهل المدائن المنقلبات بأهلها حتى صاروا نفس الانقلاب ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٨﴾ أي: الخطأ أو الأفعال ذات الخطأ التي تتخطى منها إلى نفس الفعل القبيح.

ولما كان الرسل كالفرد؛ لاتفاق مقاصدهم في الدعاء إلى الله قال موحدًا: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ اغترارًا بإحسانه، ولم يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع لأنه الضار النافع، فللتنبيه على مثل ذلك لا يجوز فصل أحد الاسمين عن الآخر ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً﴾ لم يبق من أمة منهم أحدًا، لا كالناصر من الآدميين لا بد أن يفوته كثير من العدو وإن اجتهد في الطلب، وذاك لتمام علمه تعالى وقدرته ﴿رَّابِيَةً ۝١٠﴾ أي: عالية عليهم، عليّة في البطش، زائدة بقدر قبح أعمالهم.

فمن ذلك أنه أغرق كل من كذب نوحًا عليه السلام إلا من ركب معه السفينة، ولذا قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١٠﴾ ونوح أول من صنع السفينة، وإنما صنعها بوحي الله تعالى وبحفظه له من أن يزل في صنعتها. ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: هذه الفعلات العظيمة وكذا السفينة ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ على كمال قدرته تعالى وتمام علمه وعظمة رحمته وقهره.

﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي: تحفظها حفظًا ثابتًا كأنه محوي في وعاء، ولما كان المنتفع بما يسمع الحافظ له قليلًا جدًا، وحد فقال: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١١﴾ أي: من شأنها أن تحفظ ما ينبغي حفظه من الأقوال والأفعال الإلهية؛ لنفع عباد الله كما كان نوح ومن معه وهم قليل سببًا لإدامة النسل والبركة فيه، والوعي: الحفظ في النفس، والإيعاء: الحفظ في الوعاء، وفي ذلك توبيخ للناس بقلة الواعي منهم، ودلالة على أن الأذن الواحدة إذا عقلت عن الله فهي السواد الأعظم وما سواها لا يبالي بهم الله بالة، قاله الأصبهاني والزمخشري وغيرهما.

ولما ذكر القيامة ودل على قدرته وحكمته، قال شرحًا لها: ﴿۞فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ وهي الثانية التي للبعث، وخراب ما ذكر بعد قيامهم أنسب لأنه لهم أهيب، على إحدى الروايتين عن ابن عباس. ثم ذكر تأثيرها، وبدأ بالسفليات لملابستها للإنسان فعبرته بها أكثر فقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ فصارتا كثيبًا مهيلًا فلم يميز شيء منهما من الآخر، قال أبو حيان: "والدك فيه تفرق الأجزاء، والدق فيه اختلاطها".

ثم سبب عن النفخ قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٤﴾﴾ فكانت كثقيلٍ ليس له ممسك فما له من ذاته غير السقوط، وهي القيامة والحاقة والقارعة، نوّع أسماءها تهويلًا.

ولما ذكر تأثير العالم السفلي ذكر العلوي فقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٥﴾ وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: هذا النوع الذي يصدق على الواحد فما فوقه، والجمع لا يصدق على ما دونه، فهذا أشمل ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي: نواحي ما لم يتشقق منها، وقيل: أرجاء الأرض، فيحيطون بالثقلين فيحشرونهم ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ﴾ ولما كان هذا أمرًا هائلًا، قال مؤنسًا للمنزل عليه ﷺ مؤمّنًا له: ﴿رَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك لا سيما في ذلك اليوم.

﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ أهل السماوات السبع والكرسي، وهم خلق لا يحصيهم إلا الله، وهو أوفق لإظهار العظمة، أو: ثمانية أفراد، ويكون حملهم له أظهر في العظمة بإقدارهم على حمله، وهو أظهر معاني الأحاديث، واختيار هذا العدد أوفق للوجه الذي قبله؛ لأنه يزيد على العدد الموضوع للمبالغة وهو السبع بواحدة، إشارة إلى أنه أبلغ من عدة المبالغة وزائد عليها بما هو أول العدد، وذلك إشارة إلى عدم الانتهاء.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ عبر عن الحساب بالعرض الذي هو جزؤه، فالمحسن لا يكون له غير ذلك والمسيء يناقش ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ﴾ على أحد ﴿خَافِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ لا من الأعمال ولا الأنفس لأنه يوم الظهور التام، ليكون ذلك أجلّ لسعادة السعيد وأقبح لشقاوة الشقي، قال أبو موسى رضي الله عنه: "هي ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعندها تتطاير الصحف، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله".

ولما كانوا قسمين: محسن ومسيء، قال مفصّلًا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ إظهارًا لنعمة ربه؛ لأن الإنسان مطبوع على أن يظهر ما آتاه من خير تكميلًا للذته بكبت أعدائه وتفريح أوليائه ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٨﴾﴾ وهاؤه للسكت، كأنها إشارة إلى شدة الكرب في ذلك اليوم؛ لأن السعيد إذا كان يسكت للاستراحة فما الظن بغيره؟ وتشير أيضًا إلى فراغ الأمر والوثوق بأنه لا يغير.

ولما كان الإنسان كلما كان أعلى كان استشعاره النقص من نفسه أكثر، وكان من نوقش الحساب عُذّب، قال مؤكدًا؛ لأن من يرى حاله وكتابه ينكر أن يكون له ذنب أو تقصير: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ اليوم خوفًا من سوء أعمالي التي أعرفها من نفسي ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾

فحقق الله رجائي وأمّن خوفي، فلم أناقش الحساب وإنما عُرِضَت أعمالي فلم أجاز على سيئها وأُثِبت على حسنها رحمة وفضلًا.

ويجوز أن يكون الظن في الدنيا، عبر به عن اليقين إشارة إلى أنه يكفي العاقل ظن الخطر، وفيه إشعار بهضم النفس لأن الإنسان لا ينفك عن خطرات من الشبه، وإيذان بأن مثل ذلك لا يقدح في الجزم بالاعتقاد، وفيه تبكيت للكفار بأنهم لم يصلوا في هذا الأمر المحقق إلى مرتبة الظن، فكيف بالعلم؟

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢٠ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢١﴾ في المكان والمكانة وكل اعتبار. ولما كان من شأن العالي عسر الوصول إليه قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٢﴾ ولما أفرد الضمائر باعتبار لفظها تنصيصًا على كل فرد، جمع باعتبار المعنى إعلامًا باشتراك جميع أهلها في النعم حال الاجتماع والانفراد فقال(٦٧): ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ وحذف المفعول تعميمًا، ولما كانت المآكل والمشارب في الدنيا تورث الأمراض وفيها ما لا يلذ قال مؤمّنًا من ذلك: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ ولما شوّق إلى المسبَّباتِ حضهم على أسبابها والمسابقةِ فيها والمداومة عليها فقال: ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٣﴾ أي: التي انقضت واسترحتم من تعبها.

ولما بدأ بالمقبول تشويقًا إلى حاله، أتبعه المردود تنفيرًا عن أعماله بعلمِ قبائح أحواله فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ۝٢٤ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبائحه ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾ بل استمريت جاهلًا كما في الدنيا. ثم بين مراده بالتمني فقال؛ لأنه رأى أن ما يستقبله شر مما كان في البرزخ: ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ تلك الموتة ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ بدوامه حتى لا أبعث. ولما كان التمني مفهمًا لأنه كان له ضد ما تمناه، وكان يدعي التخلص منه -لو كان- بماله وجاهه، قال معللًا لتمنيه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي﴾ أو مستفهمًا للإنكار على نفسه ﴿مَالِيَهْ ۝٢٨﴾ والنفي مفهوم على كل من التقديرين. ثم قال شارحًا لعدم إغنائه: ﴿هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ أي: تسلطي على الدعاة إلى الله بالشبه الباطلة.

ثم ذكر ما يقال له تعذيبًا لروحه: بالتوبيخ والأمر بالتعذيب على رؤوس الأشهاد فقال: ﴿خُذُوهُ﴾ أيها الزبانية الذين كان يستهين بهم ﴿فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾. ولما كان الغلّ لما بعده من العقاب، قال مهولًا بأداة التراخي: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ أي: بالغوا وكرروا تصليته.

(٦٧) ولأن في الأكل والشرب حال الاجتماع من الأنس والمتعة ما ليس فيهما عند الانفراد.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ﴾ أي: عظيمة ﴿ذَرۡعُهَا﴾ من طول أو عرض ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ يحتمل أن يكون هذا العدد حقيقة أو مبالغة، ويدل عليه قوله ﷺ: «لو أن رصاصة مثل هذه -وأشار إلى مثل الجمجمة- وأرسلت من السماء إلى الأرض -وهي مسيرة خمسمائة سنة- لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها»، وأشار تعالى إلى ضيقها على ما تحيط به من بدنه بقوله: ﴿فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ بحيث يكون كأنه السلك الذي يدخل في ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب، وهذا تعذيب القالب؛ لأنه أفسد القلب بعدم الإيمان، والقالب بعدم الأعمال.

ولما أجمل عقابه أتبعه أسبابه، فقال بادئًا بأعظمها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾ ولما بين إفساده للقوة العلمية، بين ما يوجبه الكفر من احتقاره للضعفاء إفسادًا للقوة العملية، وبيانًا لأن عناده لرداءة طبعه لا لعلو همته، فقال معظمًا لهذا الذنب لجعله في سياق الكفر، ومشيرًا بالحض إلى أنه شديد الحب للدنيا؛ لأنه لا يمنعه من حث غيره على الخير إلا ادخاره لنفسه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾ فكيف بالبذل من عنده؟ فإن ذلك لا يحمل عليه إلا الإيمان لخلوه عن حظ.

والتقييد بالمسكين يفهم أنه يحث على خدمة الأكابر الجبابرة ويعكف على أبوابهم، فدل على أنه مع كفره الذي هو أشنع صفات الباطن: في غاية الشح والقساوة وعدم المروءة؛ للإعراض عن أسباب التمدح وعن التنزه عن قبيح الذكر وذلك أشنع الرذائل، فلذلك خص هذين الأمرين، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحض على طعامهم ويقول: "خلعنا نصف السلسة بالإيمان أفلا نخلع الآخر؟"، وذمه على الاستهانة بالمساكين يفهم من هم دونهم ممن هو أسوأ حالًا منهم بطريق الأولى.

ثم سبب عن إفساده القوّتين قوله: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾ أي: صديق يحترق له ويحميه من العذاب. ولما نفى عنه الجاه لكفره بالملك، أتبعه المقصود بالمال الذي تنشأ عنه جميع الاستمتاعات؛ لإعراضه عن الأمر بمواساة عيال الملك في المال الذي وهبه فقال: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾ أي: غسالة أهل النار من قيحهم وصديدهم، ويلزم منه أن يكون تحت غيره ليسيل ماء غسالته إليه.

ولما حصر طعامهم، حصر من يتناوله معبرًا بالوصف الذي أوجب لهم أكله فقال: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ﴾ وفرّغ الاستثناء تنبيهًا على أن المقصود المستثنى حتى كأنه لا مستثنى منه فقال: ﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾ أي: المتعمدون للخطايا، وهو من خطِئ إذا تعمد الذنب، وأما المخطئ فهو من قصد الخير فلم يصبه ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ [الأحزاب: ٥]، وهذا الطعام يغسل ما فيهم من الأعيان والمعاني التي بها قوام صاحبها، وهو بمنزلة ما كانوا يشحون به من أموالهم ويدخرون.

ولما دل بما تقدم على آخر سورة «ن»، عاد إلى تقريره بوجه آخر حين وضح الأمر إلى النهاية فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩﴾ لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى إقسام. ولما كان ذلك تأكيدًا بعدم التأكيد، أخبر عنه بأداة التأكيد؛ ليجمع التأكيدَ بالنفي والإثبات فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الذي ختمت به سورة «ن» ودل على الساعة ﴿لَقَوْلُ﴾ أي: تلاوة ﴿رَسُولٍ﴾ أي: أنا أرسلته ﴿كَرِيمٍ ٤٠﴾ أي: في غاية البعد عن المساوئ، وكرم الشيء: اجتماع الكمالات اللائقة به فيه.

ولما أثبت أنه قوله سبحانه لأنه قول رسوله ﷺ وهولا ينطق عن الهوى، نفى عنه ما يتقولونه عليه فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾ ولما كانت مخالفة القرآن للشعر لا يعرفها إلا الشعراء وهم قليل، ختم الآية بالإيمان الذي هو التصديق بالغيب فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١﴾ وهو إيمان لغوي لا شرعي.

ولما كان من يعرف الشعر يعرف النثر فهو أعلى فقدمه، أتبعه النثر فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾ ولما كانت مباينة القرآن للسجع خفية؛ لما فيه من الفواصل، وكانت مباينة النبي ﷺ للكهنة ظاهرة جدًا، فإن الكاهن يصدق تارة ويكذب كثيرًا، ويأخذ الجعل على ذلك، ويقتصر على من يسأله، قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ أن النبي ﷺ مخالف لهم في كل ذلك، فمباينته للكهان لا تحتاج إلى غير تذكر قليل.

ولما نفى ما قد يلبس، وصفه بما يحقق ما أريد من نسبته إليه ﷺ فقال: ﴿تَنزِيلٌ﴾ وأشار إلى إرساله إلى جميع الخلق بقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٣﴾ أي: موجدهم ومدبرهم بالإحسان إليهم بهذا الذكر الذي سهله عليهم تسهيلًا يكفي في هدايته البيانية، بخلاف الشعر والكهانة فإنه لا يفهمها إلا قليل من الناس.

ولما كان قد بقي مما كانوا يتقولونه: الافتراء بانتحال الكتب السابقة قال(٦٨): ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا﴾ وأكده للإعلام بشدة الغضب من الكذب وشدة قبحه ﴿مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥﴾ منه، التي هي العضو الأقوى وبها بطشه فنذهبه ببطشنا، أو: منا، كناية عن الأخذ بغاية القوة، فإن قوة كل شيء في ميامنه. ولما صور مبدأ الإهلاك بأفظع صورة، أتمه فقال: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ وفي القاموس: "عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه"، وعبّر به لأن مادته بهذا الترتيب تدور على المتانة والدوام.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ أي: يكون حاجزًا مانعًا من الوصول إليه، فلا غرض لعاقل -أن ينصح بما ينفع المنصوح وحده- في الكذب على ملك لا يقدر المنصوح أن يحميه من عقوبته، واختار الإخبار بالجمع لأنه يدل على عدم حجز الفرد من باب الأولى، وهذا كله كناية على أبلغ الوجوه عن أن هذا الذكر كلام الله لا شبهة فيه. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن بعد أن كان ذكرًا للعالمين ﴿لَتَذۡكِرَةٞ﴾ أي: مذكر عظيم جدًا ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ لأنهم المنتفعون به لإقبالهم عليه إقبال مستفيد.

ثم صرح بالقسم الآخر فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ فلذلك وجب في الحكمة أن نبعث العباد لنحكم بينهم بما يظهر العدل. [ثم أخبر بمآل التكذيب فقال]: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَسۡرَةٌ﴾ بما يرى من تأويله في الدنيا والآخرة ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾.

[ولما كانوا يكذبون بالقرآن وينكرون الجزاء قال:] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن أو الجزاء في يوم الجزاء ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾ أي: اليقين المؤكد بالحق، من إضافة الصفة إلى الموصوف وهو فوق علم اليقين، وفيه إشارة إلى أن العبد ينبغي أن يتحقق معرفة الحق فيكون مشاهِدًا للغيوب كمشاهدة المرئيات، فأمر البعث يشاهد في الليل والنهار وفي النبات وغير ذلك. ولما كان البعث لهذا المقصد من أعظم الكمالِ وعدمُه نقصًا قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ﴾ أي: بسبب علمك بصفات ﴿رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

فرجع آخر السورة على أولها بإحقاق الحاقة؛ لنفي مواقع النقص ومظنات اللبس، فيثبت الحق وينفي الباطل، فيفرق بين المحسن والمسيء، والله الهادي.

---

(٦٨) أو أنه رد على قول فريق منهم افتراه، قال تعالى: ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون﴾ [الطور: ٣٣] فبين لهم أنه لو افترى على الله لما أقره على ذلك [التحرير والتنوير ٢٩/ ١٤٥، بتصرف].

سورة المعارج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إثبات القيامة وإنذار من كفر بها وتصوير عظمتها، ودل على وجوب وقوعها سابقًا بتسميتها بالحاقة، ودل على ذلك بالقدرة في أولها والعلم في أثنائها والتنزه عما في إهمالها من النقص في آخرها، وعلى هذا المقصد دل اسمها «سأل» و«المعارج».

ولا خفاء بما أخبر من أنه أرسل جميع رسله بالتحذير منها، فأرسل أولهم نوحًا كما في سورته فافترقوا إلى مصدق ومكذب، فعلم أن من بعده أولى بذلك لقربهم منها، وأتبع ذلك الإعلام أنه دعا إليها الجن الذين افترقوا فيها كالآدميين، وأتبعها بإرسال آخرهم زمانًا في المزمل، ثم الإنذار بها، فلما تقررت نبوته جعل سورة القيامة كلها لها إعلامًا بعظمة الأمر.

ثم أتبع ذلك الإنسان دلالة على أنه المقصود من الأكوان، فليس من الحكمة أن يجعله سدى، ثم أقسم في المرسلات على حقيتها، ثم عجب في عمّ من تساؤلهم عنها، وأقسم على وقوعها في النازعات وصور من أمرها ما أراد، ثم دل في عبس على أن من الناس من طبع على قلبه فلا حيلة في تصديقه بها، ثم صورها في كورت حتى صارت كرأي العين، ثم بين في الانفطار أن الأمور فيها ليست على ما نعهد بل الأسباب منقطعة والأنساب مرتفعة والكل خاضعون، أعظمهم في الدنيا تجبرًا أشدهم هنالك تحسرًا، ثم أتبع ذلك من يستحق النكال هنالك، ثم أولاه رفعة أهل الإيمان.

واستمر على هذا إلى آخر القرآن، قل أن تأتي سورة إلا وهي معرفة بها، إلى أن ختم بالدين إشارة إلى أن معرفتها هي الدين، وأشار في «تبت» إليها وأتبعها الإخلاص إشارة إلى أنه لا يسلم فيها إلا الموحدون المعاذون من الفتن الظاهرة والباطنة، فآذن ذلك أن أكثر غاية القرآن في أمرها؛ لأنه لا كتاب بعده ينتظر ولا أمة أشرف من هذه تخص ببيان أعظم، وآذن ذلك بأن الأمر قد قرب والهول قد دهم؛ ليشمر أهل الاختصاص في النجاة.

لما ثبت أمر الساعة في الحاقة، وكان السائل عن شيء يدل على أنه ما فهمه حق فهمه، عجب ممن سأل عنها فقال: ﴿سَأَلَ﴾ ودل على أنه لو لم يسأل إلا واحد لكان عجيبًا، بالإفراد فقال: ﴿سَآئِلُۢ﴾ ولما كان سؤالهم استهزاء ضمّن سأل استهزأ، أو حذف المفعول المتعدي بـ«عن» للعموم فقال: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ مبتدئ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وإذا لم

يكن منه لم يكن من غيره ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ أي: الدرج التي لا انتهاء لها، بما دلت عليه صيغة منتهى الجموع، وسميت بذلك لأن الصاعد في الدرج كالأعرج، وعن ابن عباس أنها السماوات.

ودل على عجيب القدرة في تخفيفها على الملائكة بقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريل، خصه تعظيمًا له، وقيل: روح المؤمن إذا قبض ﴿إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ﴾ من أيامكم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ لو كان الصاعد فيه آدميًا ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ أو أنه ظرف للعذاب فيكون المراد به يوم القيامة، وأن طوله على الكافر لما يلحقه من الغم؛ لأنه ورد أنه يخفف على المؤمن حتى يكون بمقدار صلاة واحدة.

ولما كان هذا تسلية للنبي ﷺ عن استعجالهم قال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم والزم تبليغهم فإن الانتقام منهم قريب، والصبر: حبس النفس على المكروه من الإقدام أو الإحجام، وجماله بسكون الظاهر بالتثبت والباطن بالعرفان ﴿صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ أي: لا يشوبه اضطراب ولا استثقال، ولا شكوى ولا استعجال.

وقال ابن الزبير: "لما انطوت الحاقة على أشد الوعيد أتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده فقال: ﴿سأل سائل﴾ إلى ﴿ونراه قريبًا﴾ ثم ذكر حالهم إذ ذاك: ﴿يود المجرم لو يفتدي﴾ الآية، ثم ختمت بتأكيد الوعيد وأشد التهديد ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ إلى ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ ذلك يوم الحاقة والقارعة".

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾ لاستبعادهم إياه، أو يفعلون أفعال من يستبعده ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ لهونه علينا ﴿قَرِيبًا ۝٧﴾ فهو آت لا محالة وكل آت قريب. ولما ذكر عن هذا اليوم ما يبعث على السؤال عنه، بيّن عظمته فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ قال البغوي: "وأول ما تصير الجبال رملًا مهيلًا ثم عهنًا منفوشًا ثم هباء منثورًا". ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ لفرط الشواغل ولأنه قد كشف لهم أنه لا تغني نفس عن نفس شيئًا وأنه لا عز إلا بالتقوى، هذا على قراءة الجماعة بفتح الياء، وعلى قراءة ابن كثير بضمها فالمعنى أنه لا يطالب أحد بأحد.

ولما كان عدم السؤال قد يكون لعدم الرؤية لشدة الزحام وتفرق الناس على حسب أعمالهم، بيّن أن لا لذلك بل لهمّ كل إنسان بما عنده فقال: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ولما تناهى الإخبار

بعظمة ذلك اليوم، ذكر نتيجته فقال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ كافرًا أو مسلمًا عاصيًا علم أنه يعذب ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ﴾ ولما كان السياق للافتداء، بدأ بأعزهم في ذلك فقال: ﴿بِبَنِيهِ ۝١١﴾ لشدة ما يرى. ولما ذكر أعز من يلزمه لنصره، أتبعه ما يليه في المودة وما الافتداء به لا سيما عند العرب من أقبح العار فقال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ التي يلزمه الذب عنها والكون دائمًا معها لأنها عديلة روحه في الدنيا، ثم أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم فقال: ﴿وَأَخِيهِ ۝١٢﴾.

ولما كان باقي الأقارب متقاربين في الرتبة، ذكر أقربهم فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾ أي: تحميه، لأنه أقرب الناس إليها فهم أعظم الناس حقًا عليه، ولما كانت هذه الآية في الفدية قدم الأبعد عن ذلك، ولما كانت آية عبس في الفرار قدم الألصق. ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ودل على استبعاده للنجاة بأداة البعد، فقال عاطفًا على ﴿يفتدي﴾: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾.

ولما كان هذا مما قد يطمع في النجاة قال رادعًا عنه: ﴿كَلَّآ﴾ ولما كان الإضمار قبل الذكر يعظّم المضمر قال: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار ﴿لَظَىٰ ۝١٥﴾ أي: ذات لهب خالص متناهٍ في الحر ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ أي: لجلود الرؤوس، فما الظن بغيره؟ ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾ عنها أو عن الأعمال المنجية منها ﴿وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين فالإقبال على إحداهما دال على الإعراض عن الأخرى، قال دالًا على إدبار قلبه: ﴿وَجَمَعَ﴾ أي: كل ما كان من الدنيا، ولما كان جمع من كانت الدنيا أكبر همه للاكتناز قال: ﴿فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ أي: جعله في وعاء حرصًا وطولَ أمل ولم يعط حق الله فيه.

ولما كان عجيبًا أن يقبل على الدنيا أحد يسمع هذا التهديد، بين أن ذلك لما جبله عليه سبحانه فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا الجنس، عبر به لما له من الأنس بنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولذنبه، ثم بيّن الجبلة الداعية إلى ما يقتضيه فقال: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ والهلع: أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر. ثم نشر هذا المعنى، فقال مقدمًا الظرف بيانًا لإسراعه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾ وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقدّ ويتفتت. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ أي: مبالغًا في الإمساك؛ لشدة حب العاجل، وهذا الوصف ضد الإيمان لأنه نصفان: صبر وشكر.

ولما كان التقدير: فهو يسارع في آثار جبلته مما لا يجوز في الشرع فيكون من أهل النار، وكان من القدرة البالغة أن يحفظ تعالى من أراد من ذلك ويحمله على كسر نفسه حتى تتلاشى جبلة الشر وتبقى الروح على الفطرة فلا تزال تحثه على الطاعة، فكان أعظم الكرامة: حفظ المكلف لحدود الشرع مع المنافاة لطبعه، فيجمع الإيمان بنصفيه لما جمع من هذه الأوصاف الثمان المعادلة لأبواب الجنة فكانت أسبابًا لها، استثنى من هذا النوع فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ لملابستهم كل ما يحمل على المعالي.

ثم وصفهم بما يبين عراقتهم في الوصف بها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ والمراد الجنس إلا أن معظم المقصود الفرض، وعبر بالاسم الدال على الثبات في قوله: ﴿دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ حتى في حال الفراغ منها بدوام ذكرها والتهيؤ لأدائها؛ لأنها صلتهم بمعبودهم الذي لا خير إلا منه، فلم يكونوا ناسين لمساوئهم ولا آنسين بمحاسنهم، وكفى بالصلاة بركة في دلالتها على النجاة من هذا الوصف الموجب لأسباب النار.

ولما ذكر زكاة الروح أتبعه عديلَها المال، فقال مبينًا للرسوخ بالعطف بالواو: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ ولما كان السياق لأعم من المحسنين الذين تقدموا في الذاريات، اقتصر على الفرض فقال: ﴿مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ﴾ ولما كان في الناس من شرفت همته عن السؤال قال: ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: المتعفف الذي لا يَسأل فيُظن غنيًا ولا مال يغنيه، فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره، وهذا حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له أو افتقر بعد الغنى، وقد كان للسلف الصالح في هذا وأشباهه قصب السبق.

ولما كان المال قد يصرف لإصلاح الدنيا، بين أن النافع منه هو المصدِّق للإيمان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ﴾ ولما كان المقصود الحث على العمل لأجل الحساب عبر بقوله: ﴿ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ والتصديق الحق به: الاستعداد له بالصالحات، فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال، وأما المصدقون بمجرد الأقوال فلهم الوبال وإن أنفقوا أمثال الجبال.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فلذلك لا يفعلون إلا ما يرضيه. [رعلل شفقتهم بقوله:] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا ينبغي لأحد أن يأمنه، ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته، ولم يزل مترجحًا بين الخوف والرجاء. ولما ذكر التحلي بتزكية النفسِ بالصلاة والمالِ بالصدقة، ندب إلى التخلي عما يدنسهما وهو الزنا الحامل

عليه شهوة الفرج التي هي أعظم الشهوات حملًا على المهلكات فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: حفظًا ثابتًا دائمًا عن كل ما نهى الله عنه.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ ولما قدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن أتبعه قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ولما كان الناكحُ عبادةً نادرًا جدًا، اكتفى في المدح بنفي اللوم فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ في الاستمتاع بهن، فهم يصحبونهن للتعفف وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله. ولما أفهم ذلك تحريم غير المستثنى، صرح به على وجه يشمل المقدمات فقال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ الأمر الذي أحله الله والذي هو أعلى المراتب في النكاح وقضاء اللذة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: المختصون بالخروج عن الحد.

ولما ذكر العادي أتبعه الواقف عند الحدود فقال(٦٩): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ أي: كل ما ائتمنهم الله عليه من حقه وحق غيره ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: ما كان منها بتوثيق ﴿رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: حافظون معترفون بها على وجه نافع غير ضار. ولما كان أجلّ العهود والأمانات ما كان بإشهاد، قال مبينًا فضل الشهادة: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ وتقديم المعمول إشارة إلى فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها ﴿قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن، أداء من هو متهيئ لها واقف في انتظارها.

ولما كانت أضداد هذه المذكورات نقائص مهلكات، وكانت الأنفس نزاعة إلى النقائص، ذكّر بالدواء المبرئ من كل داء، فقال مشيرًا لحفظ أحوال الصلاة بعد حفظ أعيانها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ فرضًا ونفلًا ﴿يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مجددين له حتى كأنهم يبادرونها الحفظ لتحفظهم، أو يسابقون غيرهم في حفظها في ظواهرها وبواطنها؛ لتكون ناهية لفاعلها ﴿إن الصلاة﴾ الكاملة ﴿تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥] فتحمل على هذه الأوامر وتبعد عن أضدادها، وفي فتح الأوصاف بالصلاة وختمها بها من بيان جلالتها أمر باهر.

ثم قال من غير فاء إشارة إلى أن ذلك برحمته: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ﴾ أما في الدنيا فلأنهم لما جاهدوا في التخلق بذلك، أعطاهم بمباشرته من أنس القرب وحلاوة المناجاة ما لا يساويه شيء، والجنة محل اجتمعت فيه الراحات والسرور وانتفت عنه المكروهات والشرور

---

(٦٩) أو يقال: لما كان ذلك من الأمانات العظيمة، أتبعه عمومها [نظم الدرر ٥/ ١٨٤، العلمية].

وضدها النار، وزادهم بقوله: ﴿مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ وأما في الآخرة فتتلقاهم الملائكة بالبشرى من حين الموت إلى دخولهم قصورَهم.

ولما تحرر بهذا أنه لا يتفصى عن نقائص الإنسان إلا من زكى نفسه بهذه الأوصاف وأنها سبب السعادة، قال ذامًا للكفار حين سماع القرآن: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أيّ سعادة لهم حال كونهم ﴿قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾ أي: مسرعين مع مد الأعناق وإدامة النظر في غاية العجب من مقالك. ولما كان الذي يتطير فيراعي الأيامن والأشائم لا يتركه إلا في أمر أدهشه فلم يدعه يتأمل، قال مشيرًا إلى شدة اعتنائهم بهذا الإهطاع: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ منك حيث يتيمنون به ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ منك وإن كانوا يتشاءمون به ﴿عِزِينَ ٣٧﴾ أي: جماعات متفرقة لا تنتظر إحداها الأخرى.

﴿أَيَطۡمَعُ﴾ بهذا الإتيان، وعبر بالطمع إشارة إلى سفههم لكونهم طلبوا أعز الأشياء من غير سبب تعاطوه له ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ﴾ بالإهطاع وهو كافر من غير إيمان يزكيه ﴿جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾ أي: لا شيء فيها غير النعيم.

ولما أفاد الاستفهام الإنكاري النفي، أكد ذلك مع إفهام الضجر والاستصغار بقوله: ﴿كَلَّآۖ﴾ أي: لا يكون ما طمعوا فيه لأنه تمن فارغ لا سبب له، ولما كانوا يدّعون الكمال مع علمهم بنقصانهم، عدهم كالمنكرين له فقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ أي: مما يستحى من ذكره ذاتًا ومعنى، أما الذات فهو نطفة أخرجت من مخرج البول وغذيناها بدم الحيض، وأما المعنى فالهلع والجزع والمنع الموافقون هم على عدها نقائص، فلا يصلحون لدار الكمال إلا بتزكية أنفسهم بما تقدم.

﴿۞فَلَآ﴾ أي: فتسبب عن خلقنا لهم من ذلك أني لا ﴿أُقۡسِمُ﴾ وإن كان عظيمًا لوضوح الأمر ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ وأكد بالأداة والاسمية والالتفات إلى العظمة في الاسم والخبر ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيكونوا على قلبٍ واحد في سماع قولك وتوقيرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق، وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة، فرجوا الكرب عن رسول الله ﷺ وبذلوا في مرضاته الأنفس والأموال ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾.

ولما ثبت علمه وقدرته فأنتج اعتماد حزبه عليه وحده، قال مهددًا للمخالفين ومسليًا للمؤالفين: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: اتركهم ولو على أسوأ أحوالهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ أي: يفعلوا ما لا إتقان فيه بل هم كالخائض في الماء الذي لا يدري أين يضع رجله فهو بصدد أن يقع ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ أي: يفعلوا ما لا فائدة له، ولما كان وقوع الآخرة حتمًا، كانت كأنها قادمة على الإنسان وهو ساع إليها، فعبر بالمفاعلة فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ ولما كان ما يقع للكفار منه أعظم، كان كأنه خاص بهم فقال: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ من حين الغرغرة إلى النفخة الثانية، والآية منسوخة بآية السيف.

ولما كان ما بعد النفخة الثانية أهوله، أبدل منه قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ﴾ هؤلاء السائلون ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاث﴾ أي: القبور التي صاروا فيها تحت وقع الحافر لا يدفعون شيئًا كلحم في فم ماضغ، فإن الجدث القبر، والجدثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم ﴿سِرَاعًا﴾ نحو الداعي، ولما كانت عادة الإنسان الإسراع إلى ما يقصده من الأعلام، وعادتهم هم المبادرة إلى الأنصاب التي يعبدونها قال: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ولما كان إيفاضهم إلى الأنصاب على حال السرور، أخبر أن هذا على خلافه وأن ذكره تهكم بهم فقال: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ ولما كان خشوعها دائمًا فعبر بالاسم، وكان ذلهم يتزايد في كل لحظة عبر بالمضارع المفيد للتجدد والاستمرار فقال: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۚ﴾ ضد ما كانوا عليه في الدنيا؛ لأن من تعزز في الدنيا على الحق ذل في الآخرة، ومن ذل للحق في الدنيا عز في الآخرة، ولما صوره بهذه الصورة أشار إلى أن هذا ما تدركه العقول من وصفه وأنه أعظم من ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر الذي في غاية العلو ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وهذا هو زمان العذاب الذي سألوا عنه أول السورة، فقد رجع كما ترى آخرها على أولها أيَّ رجوع، والله الهادي.

سورة نوح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على تمام القدرة على ما أنذر به آخر «سأل» من إهلاك المنذرين وتبديل خير منهم، ومن القدرة على إيجاد يوم القيامة الذي طال إنذارهم به، وتسميتها بـ«نوح» أدل ما فيها على ذلك، فإن أمره في إهلاك قومه بسبب تكذيبهم له في ذلك مشهور ومقصوص.

ولما ختمت «سأل» بالإنذار للكفار وكانوا عباد أوثان، أتبعها بقصة نوح وكان قومه مثلهم، وكانوا يستهزئون به وأشدَّ تمردًا من قريش وأقوى، فلم ينفعهم ذلك عند نزول البلاء فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الذين كانوا في غاية القوة على القيام بما يحاولونه، ثم فسّر الإرسال وبينه بقوله: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ﴾ أي: حذر تحذيرًا عظيمًا ﴿قَوۡمَكَ﴾ من الاستمرار على الكفر ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾.

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما أمر الله نبيه بالصبر على قومه في قوله: ﴿فاصبر صبرًا جميلًا﴾ [المعارج: ٥] والإغضاء في قوله: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ [المعارج: ٤٢] أتبعه بقصةِ نوح وتكررِ دعائه قومَه، وخص من خبره طول مدته؛ لأنه المقصود في التسلية وليتأسى به في الصبر والرفق كما قيل له: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [الأحقاف: ٣٥] فقد دام دعاء نوح أدوم من مدتك ومع ذلك فلم يزدهم إلا فرارًا.

ثم مضت آي السورة على هذا المنهج حتى أخذهم الله وأجاب فيهم دعاء نبيه: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا﴾ وذلك ليأسه من فلاحهم، وانجر في هذا حض نبينا ﷺ على الصبر على قومه كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وكلًا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود: ١٢٠]".

ثم بين امتثاله بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾. ولما كان الخلاص بالإيمان لأنه لا يصح إلا مع ترك جميع الكفر، فسر الإنذار بقوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده، فإن غناه يمنع أن يقبل عبادة فيها شرك، وهذا هو الإيمان ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اجعلوا وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه، فلا تتحركوا ولا تسكنوا إلا في طاعته، وهذا هو العمل، ولما كان لا سبيل إلى معرفة ما يرضي الملك وما يسخطه إلا منه، ولا وصول إلى ذلك

إلا من رسوله قال: ﴿وَأَطِيعُونِ ٣﴾ وهذا هو الإسلام، فقد جمع هذا الدعاء الإيمان والإسلام والعمل، وهي أثافي الفلاح.

ولما كان الإنسان لا ينفك عن ذنب فلا ينفعه إلا الكرم، أشار إلى ذلك مستعطفًا لهم لئلا ييأسوا فيهلكوا، بقوله جوابًا للأمر: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ولما كان الإنسان لِما يغلب عليه من النسيان والاشتغال بالآمال يعرض عن الموت إعراض الشاك فيه بل المكذب به، ذكرهم ترهيبًا لهم لطفًا بهم؛ ليستحضروا أنهم في القبضة فينزعوا مما يغضبه تعالى، فقال مشيرًا إلى أن طول العمر في المعصية -وإن كان مع رغد العيش- عدم: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي: تأخيرًا ينفعكم.

وأعلم أن الأمور كلها قد قدرت، وأن الإرسال إنما هو مُظهِر لما في الكيان لا أنه مغيِّر لما سبق به القضاء من الطاعة أو العصيان فقال: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: سماه الله وعلمه قبل إيجادكم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه، فيكون موتكم على العادة متفرقًا، وإلا أخذكم جميعًا بعذاب الاستئصال.

ولما كان الإنسان مجبولًا على الأطماع الفارغة، قال فطمًا عن ذلك: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ وأما قبل مجيئه فربما يبارك الدعاء والطاعات فيه بمنع الشواغل وإطابة الحياة، فبادروا مجيء الأجل بالإيمان فإنه لا يُتدارك ولا ينفع بعد العيان، ولما كان من يوقن بهذا يحسن العمل خوفًا من فوات وقته وتحتم مقته، نبه على ذلك بقوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤﴾ أن الأجل آتٍ فعملتم للنجاة، ولكنكم بالانهماك في الشهوات كالشاك في الموت.

ونبه على طول نصحه وبلائه فقال: ﴿قَالَ﴾ مناديًا لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره ﴿رَبِّ﴾ ولما كانت العادة أن التكرار لا بد أن يؤثر ولو قليلًا فكان قد يُشك في مخالفتهم، قال مؤكدًا إظهارًا لتحسره منهم في تماديهم في التكذيب، شكاية لحاله إلى الله واستنصارًا به واستمطارًا لبيان ما يفعل بعد بذله الجهد: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي: الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم مني وفيهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ٦﴾.

ولما كان الفرار مجازًا لرد كلامه بيّنه بقوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ ولما كان إعراضهم عما ينفعهم أقبح، ذكر أثر الإجابة بالإيمان فقال: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما فرطوا فيه في حقك فأفرطوا

لأجله في التجاوز ﴿جَعَلُوٓاْ﴾ ودل على مبالغتهم بالتعبير بالكل عن البعض فقال: ﴿أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ استغشاء طالبٍ لذلك شديد الرغبة فيه، جمعًا بين ما يمنع السماع والنظر إظهارًا لكراهته وكراهة كلامه، وهذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائمًا ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: داموا وأقبلوا بشدة على سوء أعمالهم مِن: أَصَرَ الحمارُ على العانة، إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يطردها ويكدمها، استعير للإقبال على المعاصي لأنه يكون بغاية الرغبة ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾.

وقد نادت هذه الآيات بأنهم خالفوه مخالفة لا أقبح منها، ظاهرًا بتعطيل الأسماع والأبصار، وباطنًا بالإصرار والاستكبار، فلعنة الله عليهم وعلى من يقول: إنهم وافقوه بالفعل؛ لأنه دعاهم للمغفرة وقد غطوا وجوههم، والتغطية هي الغفر، ونحو ذلك من الخرافات التي لو سمعها أسخف الناس لهزأ بقائلها، وما قال هذا القائل ذلك إلا تحريفًا لكتاب الله بنحو تحريف الباطنية الذين أجمعت الأمة على تكفيرهم لذلك التحريف، ولعنة الله على من يشك في كفر من يحرف هذا التحريف أو يتوقف في لعنه، وهم الاتحادية الذين مرقوا من الدين.

وأخبرني الإمام إبراهيم بن أبي شريف عن بعض من يتعصب لهم أنه قال له: "ما حملني على اعتقادي لابن الفارض إلا أني رأيت كلام التائية متناقضًا وهو عندي يحاشى عن ذلك، فعلمت أن لهم اصطلاحًا لو فهمناه لم نعترض"، وهو شبيه بما نقل المسعودي عن عالِم من النصارى سأله عن سبب ثباته عليها مع علمه فقال: "تناقضها مع أنه دان لها ملوك وعلماء ورهبان، فعلمت أنه ما جمعهم عليها مع ذلك إلا أمر عظيم"، وصدق في الأمر العظيم وهو القضاء الذي يحمل أحدهم على التردي في النار باختياره بل برغبته ومقاتلة من يصده عن ذلك، وفي هذا تصديق قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع» وهم أهل الكتاب.

ولما ذكر دعاءه في جميع الأوقات مع إعراضهم، وكان هذا مؤيسًا فكان وجوده بعد ذلك بعيدًا، ذكر دعاءه في جميع الحالات معبّرًا بأداة التراخي لذلك فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨﴾ أي: مكاشفة مع التعميم وفخامة الصوت. ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ﴾ أي: أظهرت وأشعت ليعلموا أنه الحق من ربهم؛ لأني لست مستحييًا منه ولا مستهجنًا ﴿لَهُمۡ﴾ خاصة، لم يكن فيه حظ نفس بوجه، ولما قدم الجهر لأنه أقرب إلى عدم الاتهام وكان السر أقرب إلى

الاستمالة أتبعه به فقال: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ أي: دعوت كل واحد منهم على انفراده ليكون أدعى لقبوله وأدل على الإخلاص ﴿إِسْرَارًا ۝٩﴾.

والظاهر من الترتيب أنه سار فيه على الحكمة، فدعا أولًا أقرب الناس إليه ثم من بعدهم حتى عمهم الدعاء، وكانت الدعوة سرًا كل واحد منهم على حدته ليعلموا نصحه ولا يحمله أحدهم على تبكيت فيأنف، فلما أطبقوا على الإعراض جهر ليعلموا أنه مُلجأ من الله وأنها عزمة إن قصروا فيها عوقبوا، فلما أصروا جمع بين السر والعلن، فلما تمادوا شكى، وعلى هذا فـ«ثم» لبعد الرتب لا للترتيب في الزمان، ويمكن كونها للترتيب لأن الجهر أبعد عن الاتهام ثم الإعلان بعده أزيد بعدًا.

ولما أخبر بأنه بالغ في الدعوة إلى حد لا مزيد عليه بين ما قال في دعوته، فقال مقدمًا للتوبة ليطّهروا فيكونوا قابلين للتحلية بالمحاسن بعد التخلية عن الدنايا: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ وعلل الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ وإذا غفر دفع كل المضار. ثم رغب في التوبة بما يكون عنها من الزيادة في الإحسان على أصل القبول فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ وذلك يفهم أن من أكثر الاستغفار حباه الله ما يسره وحماه ما يضره ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ خاصة دون من لم يفعل ذلك، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا.

ولما كان من رجا ملكًا عمل بما يرضيه، ومن خافه تجنب ما يسخطه قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ أي: ثوابًا يوقركم فيه ولو قلّ فإنه أكثر من كثير غيره، ولا تخافون له إهانة بالعقاب، فإن من أراد أن يوقره أحد وقره، فالجزاء من جنس العمل، وذلك يكون بمعرفة الله، وبه تفاضل الخلقُ، إنما سبق أبو بكر بشيء وقر في صدره، ويصح تعظيمه: بألا ترى لك عليه حقًا، ولا تنازع له اختيارًا، وتعظّمَ أمره ونهيه بعدم المعارضة بترخص جاف أو تشديد غال أو حمل على علة توهن الانقياد.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ فثبت أنه لم يخلق الخلق سدى، وهم يتهارجون في هذه الدار تهارج الحمر، ويموت المظلوم على حاله، والظالم يبلغ آماله، فلا بد أن يعيدهم ليفصل بينهم فيظهر حكمته وعدله وفضله. ثم ذكرهم بعد التذكير بما في أنفسهم: بما هو أكبر من ذلك من آيات الآفاق فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾

أي: متطابقة بعضها فوق بعض، وكل واحدة في التي تليها محيطة بها ما لها من فروج، لا تكون المطابقة إلا بالإحاطة من كل جانب.

ولما كان المحيط لا يتوصل إلى داخله إلا محيط العلم والقدرة قال دالًّا عليها: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ﴾ وبدأ به لقربه وسرعته وقطعه جميع البروج في شهر وغيبته ثم ظهوره وذلك أعجب في القدرة ﴿فِيهِنَّ نُورًا﴾ منتشرًا كاشفًا للمرئيات ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ أي: نورًا عظيمًا كاشفًا لظلمة الليل، وعن ابن عباس وعبد الله بن عمرو: "إن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء، وأقفيتهما إلى الأرض".

ثم أعاد الدلالة بخلق الإنسان على وجه آخر، مفصلًا لبعض ما أشار إليه الأول مصرحًا بالبعث، فقال مستعيرًا الإنبات للإنشاء: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وعبر به إشارة إلى أنه جعل غذاءنا مما خلقنا منها، ولما كان إنكارهم للبعث كأنه إنكار للابتداء، أكده بالمصدر وجرده إشارة إلى سهولته عليه فقال: ﴿نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

ولما كان في الموت دلالة أيضًا وكان مسلّمًا لم يؤكد فقال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ على التدريج ﴿فِيهَا﴾ بالموت والإقبار ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ بالإعادة.

ولما كان النابت من شيء لا يتصرف فيه، دل على كمال قدرته بخرق تلك العادة لهم على وجه الإنعام، فقال مظهرًا للاسم الشريف مرة بعد أخرى تعظيمًا للأدلة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

ولما جادلوه بعد هذا البيان وضلّلوه وعصوه، طواه مشيرًا إليه بقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ بعد لينه شاكيًا منهم: ﴿رَّبِّ﴾ أي: المحسن إلي المتولي لجميع أموري، ولما كان الضعفاء أكثر الناس فإذا اجتمعوا دلَّ الرؤوسُ بالأموال والأولاد، كانوا كأنهم الكل فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن﴾ أي: مِن رؤسائهم البطرين ممن ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ بالعمى والبعد عن الله، فإن البسط لهم كان سببًا لطغيانهم حتى استغووا غيرهم وكان عندهم أنها رفعتهم، والسياق يدل على أنهم ما حصلت لهم الوجاهة إلا بها.

ولما كانت كثرة الرؤساء قوة أخرى، وكان التقدير: فأمرتهم بالإيمان فأبوا وأمروهم بالكفر فانقادوا عطف عليه مبينًا لكثرتهم بالجمع: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: الرؤساء في التنفير عني، وأكد

الفعل بالمصدر لقوته فقال: ﴿مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ فلم يتبعني به أحد. ﴿وَقَالُواْ﴾ ولما كان دعاء الرسل جديرًا بالقبول لما لهم من الجلال والبيان، أكدوا قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي: لا تتركنها على أيّ حالة قبيحة أو حسنة، وأضافوها إليهم تحبيبًا فيها، ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا ٢٣ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾.

وهم ناس صالحون لما ماتوا زين إبليس للناس تصويرهم تشويقًا للعمل بطرائقهم، فلما تمادى الزمان زين لهم عبادتهم للانتفاع ببركاتهم، ثم نُسي الصالحون وعُبدوا من دون الله، فأرسل الله نوحًا فكان ما كان، ثم أخرجها إبليس بعد الطوفان فوصل شرها إلى العرب وكان لكل قبيلة منها صنم اختلفوا في تعيينه، وقال الواقدي: "ود على صورة رجل، وسواع امرأة، ويغوث أسد، ويعوق فرس، ونسر نسر"، ولا يعارض أنهم صور لناس صالحين؛ لإمكان أن يكون منتزعًا من معانيهم.

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ﴾ أي: الأصنام وعابدوها بهذه العبادة ﴿كَثِيرٗا ٢٤﴾ من أهل زمانهم ومن أتى بعدهم فإنهم أول من سن هذه السنة السيئة، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٥﴾ حتى يعموا عن الحق وعن جميع مقاصدهم الفاسدة فلا يكون منها شيء على سداد، وكان هذا بعد أن أعلمه الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن.

ولما كان من معاني الضلال: المحق والإذهاب كما يضل الماء في اللبن، قال مبينًا إجابته لدعائه ذاكرًا سبب إهلاكهم: ﴿مِّمَّا﴾ ولما كان الكافر أخطأ ثلاثًا: بالإيمان بالطاغوت، وتكذيب ربه، ورسوله قال: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ وأفهم جمع التكسير أن لهم ذنوبًا أخرى كثيرة توجب تغليظ الأخذ، فأشار لوجوب الاحتراز من كل ذنب ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ﴾ في الآخرة التي أولها البرزخ ﴿نَارٗا ٢٦﴾ ولما كانوا استنصروا بآلهتهم، قال مؤيسًا من الرحمة زيادةً في العذاب، معلمًا بعجزها توبيخًا لمن يعبد مثلها: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٧﴾ بما شهد به الوجود الذي هو أعدل الشهود من أنه تم ما أراده تعالى من إغراقهم جميعًا على كثرتهم وقوتهم، وإنجاء نبيه ومن معه على ضعفهم وقلتهم.

ولما أتم الخبر عن إغراقهم وقدمه لتعظيم الرسول في إجابة دعوته، تحذيرًا للعرب أن يخرجوا رسولهم ﷺ إلى مثل ذلك، عطف على قوله من أوله: قولَه عندما أخبره أنهم مغرقون

ولن يؤمن إلا من قد آمن: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٨﴾ أي: أحدًا يدور فيها، وهو من ألفاظ النفي العام، أو يكون هذا الدعاء عند ركوبه السفينة وابتداء الإغراق فيهم، كراهية أن يبقى أحد منهم.

ولما كان الرسل عليهم السلام لا يفعلون إلا ما فيه مصلحة الدين، علل دعاءه بقوله، وأكده إظهارًا لجزمه باعتقاد ما أنزل عليه من مضمون قوله تعالى: ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ [هود: ٣٦] وإن كان خارجًا عن العادة: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا﴾ أي: مارقًا من كل ما ينبغي الاعتصام به، واكتفى فيه بأصل الفاعل إشارة إلى أن من جاوز الحد أو شرع في التمادي في الغي صار ذلك له ديدنًا فبالغ، فلذلك قال: ﴿كَفَّارًا ۝٢٩﴾ أي: بليغ الستر لما يجب إظهاره من آيات الله، والظاهر أن هذا الكلام لا يقوله إلا عن وحي كما في آية هود المتقدمة.

ولما دعا على أعداء الله دعا لأوليائه، وبدأ بنفسه لأنه رأس تلك الأمة فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ فإنه لا يسعني وإن كنت معصومًا إلا عفوك ورحمتك، ولما أظهر التواضع رتب المدعو لهم الأحق فالأحق فقال: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وكانا مؤمنين، وهما لمك بن متوشلخ وشمخاء بنت أنوش، قال أبو حيان: "وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم"، ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ولا تزدهم إلا مفازًا، ولذا عطف عليه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٣٠﴾ أي: هلاكًا مدمرًا مفتتًا، وكما استجاب الله له في أهل ذلك الزمان، يستجيب له في جميع الأعصار.

وهذا الآخر المفصح بالتبار هو ما أرشد إليه الابتداء بالإنذار، فقد انطبق الآخر على الأول، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سورة الجن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إظهار شرف النبي ﷺ حيث لين له قلوب الإنس والجن لعظمة هذا القرآن، هذا وزمان لبثه في قومه دون نوح عليه السلام بكثير وما آمن معه إلا قليل، وعلى ذلك دلت تسميتها بـ«الجن» و«قل أوحي» بتأمل الآية المشتملة على ذلك.

ولما كان العرب قد وافقوا قوم نوح في أكثر أحوالهم: عبادة الأوثان وعصيان رسولهم واستضعاف أتباعه، ابتدئت هذه بما كان من سهولة من سمع هذه الدعوة من غير الجنس فضلًا عن الموافقين فيه، مع قصر الزمان وضعف الأعوان؛ لجلالة هذا القرآن، فقال مشيرًا إلى تبكيت العرب على التباطؤ عن الإجابة: ﴿قُلۡ﴾ وبيّن سيرة الجن في تلقيهم للقرآن والإبلاغ إلى غيرهم ليكون لهم الشرفان: شرف العلم لكمال أنفسهم، والتعليم لتكميل غيرهم، فقال: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

وفي العبارة دليل على أنه ﷺ ما رآهم ولا قرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم عند قراءته، قال أبو حيان: "المشهور أنه المذكور في الأحقاف، وقيل: غيره"، والذين أتوه بمكة جن نصيبين، وبنخلة جن نينوى، واستمعوا إلى العلق، وقيل: الرحمن، ويظهر من الأحاديث تعدد الواقعة، كما في حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن»، قال القشيري: "لما رجمت الشياطين فرق إبليس جنوده لعلم ذلك، فأتى سبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءته ﷺ فآمنوا ثم أتوا قومهم، ولم يرجعوا إلى إبليس لما علموه من كذبه وسفاهته".

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لمن لم يسمع منهم ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا﴾ أي: كلامًا هو في غاية الانتظام والجمع لما نحتاج إليه ﴿عَجَبٗا ١﴾ أي: بديعًا ليس كأمثاله من الكتب الإلهية فضلًا عن غيرها، مع الموافقة لها في الدعوة إلى الله والبيان للمحاسن والمساوئ.

وقال ابن الزبير: "لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر، أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله، فقد كانت استجابة معاندي العرب أقرب في

ظاهر الأمر لنبي من جنسهم ومن أنفَسهم، ومع ذلك سبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم".

ولما بينوا فضله، بينوا المقصود فقالوا: ﴿يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: الحق الذي يكاد يشرد؛ لثقلِه على النفوس الداعية إلى الهوى وخفةِ ضده: الغي والسفه، الملائمِ لنقائص النفوس، ولما وصفوه بهذه الكمالات سببوا عن ذلك قولهم إعمالًا للقوة العملية ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ ولما كان الإيمان لا يفيد إلا مع الاستمرار قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ لأنه لم يشركه في شيء من مرنا أحد.

ولما أظهروا القوتين العلمية بفهمهم القرآن، والعملية بالإذعان، أعملوا قوة البيان في الدعاء إلى الله فقالوا: ﴿وَإِنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ وإذا كان هذا التعالي لجده فما بالك به؟ ولما وصفوه بذلك بينوه بنفي ما ينافيه بقولهم إبطالًا للباطل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ﴾ عبر بالافتعال بيانًا لموضع النقص ﴿صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ لأنه لا يكون عادة إلا بمعالجة وتسبيب ولا يكون ذلك إلا لمحتاج، والحاجة تكون من ضعف وعجز وذلك ينافي الجَد، وإن كان بغير تسبيب ومهلة فهو عبث؛ لأن مطلق الاختراع مغن عنه.

ولما تبين لهم نزاهته سبحانه عن كل شائبة نقص، وصفوا من قال بضده صيانة لدينهم وعرضهم بالترفع عن الخسائس بعدم التمادي في الباطل مقتًا للخلق في ذات الخالق، مؤكدين لما للسامع في الغالب من تصديق ما يسمع والمحاجة عنه فقالوا: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وقالوا: إن الشأن، وعلى قراءة الفتح: وآمنا بأنه ﴿كَانَ يَقُولُ﴾ قولًا هو في عراقته في الكذب كالطبع ﴿سَفِيهُنَا﴾ هو للجنس فيتناول إبليس تناولًا أوليًا وكل من تبعه ممن لم يعرف الله؛ لأن ثمرة العقل العلم، وثمرة العلم معرفة الله، فمن لم يعرفه لازَم الطيشَ والغي؛ لأنه لا علم عنده يحمله على الرزانة ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾.

ولما ذكروا عذرهم في اتباعهم للسفيه قالوا مؤكدين؛ لأن ما كانوا عليه جدير بأن يظن أنه لا يخفى على أحد لوضوح بطلانه: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ وإنما ظننا ذلك؛ لما طبع عليه المجبول على الشهوات من تصديق الأشكال لا سيما إذا كان قولهم جازمًا وعظيمًا لا يقال مثله إلا بعد تثبت، وكان على ملك الملوك والقائلُ كثيرٌ وتأيدوا بجنس آخر، ولا تطيق العقول مخالفة جمع بهذه الصفة إلا بتأييد إلهي بقاطع نقلي.

وهذا مرشد إلى أنه لا ينبغي التقليد؛ لأن الثقة بكل أحد عجز، وإنما ينكشف ذلك بالتجربة، والتقليد قد يجر إلى الكفر.

ولما علم من قولهم أن مستند الضلال: ظنون وشبه متى اختُبرت بان فسادها، أتبعه شبهة زادتهم ضلالًا؛ للتقيد بالمحسوسات والوقوف مع الخيالات فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإنهم كانوا إذا نزلوا قفرًا تعبث بهم الجن لأنه لا مانع لهم من ذكر الله ولا دينه ولا كتابه، فصاروا يستجيرون بعظمائهم فلا يروا إلا خيرًا، وربما هدوه الطريق وردوا عليه ضالته، فكان فتنة للإنس باعتقادهم في الجن غير ما هم عليه، وفتنة للجن بأن يغتروا بأنفسهم، ولذلك قال: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: بعضُهم بعضًا ﴿رَهَقًا ۝٦﴾ أي: ضيقًا وشدة، وأصله غشيان بشدة.

كما يتفق لمن يتصوّف على غير أصل فيرى أشياء تعجبه شيطانية فيظنها رحمانية، فيقف عندها لفساد فيه نشأ عنه سوء مقصده فربما كفر بذلك، فيزداد هو وأمثاله من الإنس ضلالًا، ومن أضله من الجن ضلالًا وإضلالًا، ويزداد الفريقان بعدًا عن اللجأ إلى الله وحده، ولقد أغنانا الله بالقرآن والذكر المأخوذ عن خير خلقه عن كل شيء، كما أخبر ﷺ أن من قال عند إتيانه الخلاء: «بسم الله اللّهُمَّ إني أعوذ بك من الخبث والخبائث» ستر عن الجن، والأحاديث في هذا كثيرة في آية الكرسي وغيرها، وكذا حكايات من اعترضه بعض الجن فلما قرأ ذهب عنه.

ولما أخبروا بضلالهم، أخبروا بأنهم اعتقدوا لذلك ما لا يجوز، فقالوا مؤكدين تنبيهًا على أن الأهواء قد يتطابق عليها الجمّ، حثًا للمهتدي على أن لا يستوحش في طريق الهدى لقلة السالكين، ولا يغتر بطرق الردى لكثرة الهالكين: ﴿وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

ولما كان عدم البعث لخلل في القدرة، أثبتوها على وجه دال على صحة القرآن وحراسته من الجان فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ على عادتنا لاستماع ما نُغوي به ﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ فعلت هممهم فطلبوا المهمات الدنيوية من مسيرة خمسمائة سنة، فأفّ لمن يكسل عن مهمات الدين من مسيرة ساعة أو دونها، وأن يقعد في مجلس العلم ساعة أو دونها، والتعبير بالملء يدل على أنها كانت قبل ذلك تحرس لكن لا على هذا

الوجه. ثم أخبروا عن حالها قبل فقالوا: ﴿وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

ولما ذكروا منعهم من الاستراق، بينوا الذي حملهم على ضرب الأرض حتى وجدوا النبي ﷺ يقرأ القرآن، فقالوا مؤكدين؛ لأن العرب كانوا ينسبونهم إلى علم المغيبات: ﴿وَإِنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ معلّمين للأدب في أن الشر لا يسند إليه سبحانه حيث لا إشكال في معرفة أنه لا يكون شيء إلا به ﴿بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

ولما أخبر بسهولة إيمانهم، فكان ربما ظن أن ذلك لأن شأنهم اللين، أتبعه قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ جمع قدة وهي الفرق المتفرقة الأهواء، من القَدِّ وهو القطع الموجب للتفرق العظيم.

ولما بدت لهم عظمته وقهره ذكر إذعانهم لأجلها ندبًا إلى الاقتداء بهم في معرفة النفس بالضعف ومعرفة الرب بالقدرة والسلطان فقال: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أطلقوه على العلم إشارة إلى أن العاقل ينبغي له اجتناب ما تخيله ضارًا، فكيف إذا تيقن؟ ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي: نقاومه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾ من الأرض إلى غيرها.

ثم بيّن مبادرتهم إلى العمل بما دعا إليه علمهم بحفظ السماء فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ من غير وقفة عملًا بهذا الوصف له، ثم سببوا عنه قولهم معترفين بالعجز معتصمين بحبل الملك: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ أي: مكروهًا يلحقه فيقهره.

ولما كان هذا ظاهرًا في إسلامهم كلهم، قالوا نافين له مؤكدين؛ لبُعد إسلامهم مع شدة نفرتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ الذين أسلموا للهادي قيادهم فلا يفارقون الدليل فهم على الصراط السوي ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ﴾ أي: الجائرون عن النهج الساقطون في المهامه ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤﴾ أي: صوابًا عظيمًا كان لِما عندهم من النقائص شاردًا عنهم، فعالجوا أنفسهم حتى جعلوه لهم منزلًا، من الحَرَا: وهو مأوى الظبي.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ فهي في اتقاد بهم ما داموا أحياء، وهم أحياء ما دامت تتقد، لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون، فالآية من الاحتباك: ذكر

التحري أولًا دليلًا على تركه ثانيًا، وذكر جهنم ثانيًا دليلًا على حذف الجنة أولًا، وسره أنهم في مقام الترهيب فذكروا ما يحذر، وطووا ما يجب العلم به لأن الله تعالى لا يضيع لأحد أجرًا، بل لا يقتصر على ما يقابل الحسنة في العرف، بل لا بد أن يزيد عليها تسعة أضعافها وعنده المزيد، ولا حول لنا ولا قوة إلا به سبحانه.

ولما رغب ورهب على ألسنتهم بما هداهم له وكان ذلك آخر ما حكى عنهم قال: ﴿وَأَن﴾ أي: وأوحي إلي أن ﴿لَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أي: القاسطون من كل الخلق ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ التي لا طريقة غيرها وهي التي فهمها الجن من القرآن من الإسلام، ولما كان الماء أصل كل خير كما قال تعالى: ﴿يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾ [نوح: ١١]، وكان عزيزًا عند العرب، قال معظمًا له بالالتفات لمظهر العظمة: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾.

ثم بيّن أن غاية نعمه سبحانه الثواب أو العقاب، وأن جميع ما يعامل به عباده من نفع وضر إنما هو فتنة لهم فقال: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ أي: في ذلك الماء الذي تكون عنه أنواع النعم لينكشف الشاكر والكافر، وعن عمر: "أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة". ولما كان التقدير: فمن يقبل على ذكر ربه ينعّمه في دار السلام، عطف عليه: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ﴾ أي: مستمرًا إلى الموت ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ نَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾ أي: شديدًا يصعد عليه كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقًا، فإن الإعراض كلما تمادى زمانه كان أقوى.

﴿۞وَأَنَّ﴾ أي: وأوحى إلي أن ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾ أي: مواضع السجود من العالم الآفاقي من الأرض ومن العالم النفسي من الجسد، كما قاله سعيد بن جبير وطلق بن حبيب ﴿لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ لأن من تعبد لغير سيده في ملك سيده بآلة سيده، على أرضه التي مكنه من الانتفاع بها، تحت سمائه التي أتم منافعها بها، كان أشد الناس لومًا وعقوبة، قال البغوي: "فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة فواحدها مسجِد، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مسجَد".

ولما كان من يدعو سيده عاملًا للواجب عليه اللائق به، لا ينكر عليه ولا يعجب منه إنما يعجب ممن دعا غير سيده، قال معجبًا من القاسطين: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي: أوحي إلي أو قال الجن حاكين ما رأوا من صلاته ﷺ وازدحام أصحابه عليه متعجبين: ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ أي: يدعو سيده دعاء عبادة، ولما كان القاسطون أكثر الناس، قال مبينًا لأنه يجوز

على الأنبياء أن يؤذَوا ويُنتقَصوا رفعًا لدرجاتهم وتسلية لورّاثهم وإن كانت رتبتهم تأبى ذلك: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ أي: متراكمين على بعضهم من شدة ازدحامهم، تعجبًا من عبادته وإرادةً لرده، وذلك أمر لا يعجب منه وإنما العجب ما فعلوا هم من عبادتهم لغيره سبحانه ومن تعجبهم من عبادة عبده له.

ثم استأنف الجواب بقوله، مبينًا لما يستحيل على الأنبياء من الشرك: ﴿قَالَ﴾ وعلى قراءة: ﴿قل﴾ فهو بيان لقوله ﷺ لمن ازدحم عليه عادًا لهم عداد الجاهلين بما يصنع؛ لعملهم عملَه: ﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ لا غيره حتى تعجبوا فتزدحموا، والظاهر أن المعنى: وأوحي إلي لما قمت للصلاة في بطن نخلة، ورآني الجن الذين وسمعوا القرآن، ازدحموا علي حتى كادوا يغشونني، فسمعوا توحيدي لله وتمجيدي له آمنوا، وقيل: هو حكاية الجن لقومهم عن صلاة النبي ﷺ وتراص أصحابه فيها وتعليمه لهم، ويحكى هذا عن ابن عباس وسعيد بن جبير، فإن ذلك هيئة غريبة ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي: الآن ولا في مستقبل الزمان بوجه من الوجوه ﴿أَحَدٗا ٢٠﴾.

ثم بين علة صبره عن دفعهم عنه بما حاصله أنه لا شيء بيده فقال: ﴿قُلۡ﴾ وأكد؛ فطمًا لمن ربما اعتقد لكثرة الكرامات أنه مهما أراده فعله الله له: ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ﴾ ولما كان المقام لدفع شرهم عنه قال: ﴿ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ لأني لا أملك لكم إضلالًا ولا نفعًا، فإنه لا نفع في غير الرشاد ولا ضر في غير الضلال، فقبح الله ابن عربي الذي يقول: "إن الضلال أهدى من الهدى"، فلا أسخف عقلًا منه إلا من تبعه، فإن قالوا: إنه لم يرد ما يفهم من ظاهر اللفظ، فقد كذبتم، فقد بين مرادَه إطباقُكم على الفسق، لا نكاد نجد منكم من يُتَّهم بمذهبه وهو يتقيد بشرع.

ولما كان إلهه عظيمًا فلا يعجل؛ لأن كل شيء تحت مراده، فكان ربما ظُنّ منه ﷺ موافقتهم لئلا يضروه لأنهم يستعجلون في أذى من خالفهم، أجاب ما حاصله أنه بين ضررين أحدهما منهم، والآخر منه سبحانه إن أعرض عنه، وهو تعالى يرد أذاهم إن أراد، وهم لا يقدرون على رد أذاه فقال: ﴿قُلۡ﴾ وأكد لما في ظن كثيرٍ أن الأسباب لا تتخلف فقال: ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ فيدفع عني ما يدفع الجار عن جاره ﴿مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ أي: معدلًا وموضع ميل وركون وإن اجتهدت كل الجهد؛ لأن اللحد أصله الميل، ولا يقال إلا في ميل من حق إلى باطل.

ثم استثنى من ﴿ملتحدًا﴾ على طريق: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»، ﴿ففروا إلى الله﴾ [الذاريات: ٥٠]، فقال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فإني أتلقى ذلك حق تلقيه بحفظه والعمل به فيكون عاصمًا من السوء، ولما كان عصيان الرسل عصيانًا لله لأنهم إنما يتكلمون بأمره، وطاعتهم طاعته، فكان التقدير: فمن يطع الله ورسوله فله الجنة، عطف عليه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

ولما ذكر تلبدهم عليه وقدم الأهم من أمره، وأشار إلى عجزهم عن عذابه بالعجز عن الإجارة عليه، قال مصرحًا به ومغييًا لتلبدهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ أنا وإن كنت الآن وحيدًا مستضعفًا أو هم ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ وإن كانوا الآن كثيرًا، فيا لله ما أعظم كلام الرسل حين يستضعفون أنفسهم من حيث هي، ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك وله جنود السماوات والأرض، بخلاف أهل الإلحاد فإنه لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم وازدراء غيرهم، وإذا حاققت أحدًا من أتباعهم قال: هذا على لسان النبوة، ونحو هذا من مخادعاتهم.

ولما كان معلومًا أنهم إذا سمعوا هذا كذبوا بالعذاب وسألوا استهزاء عن وقت وقوعه قال: ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: أما كونه فلا بد منه، وأما تعيين وقته فقد أخفاه سبحانه لأنه أقعد في التهديد، وهو معنى قوله: ﴿إِنْ﴾ أي: ما ﴿أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ﴾ ولما كان التأخير ربما أفهم تهاونًا بالولي، قال دافعًا لذلك: ﴿رَبِّىٓ﴾ أي: المحسن إلي إن قدمه أو أخره ﴿أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ فهو في كل حال متوقع، وإنما الكلام في تعيين وقته.

ولما نفى علمه عن نفسه، نفاه عن غيره على وجه عام لكل الغيب فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ من الملائكة والناس، وإذا ظهر عليه الرسول خرج عن كونه غيبًا، وأوصله إلى من أذن له في إيصاله له تارة بالوحي للأنبياء وتارة بالنفث والإلهام للأولياء عند تهيؤ نفوسهم له بالإعراض عن جانب الحس والإقبال على جناب القدس، وكل أحد يعلم من نفسه أنه إذا أقبل على شيء بكليته حدث له فيه أمور حدسية إلهامية بغتة، وربما كان النفث شيطانيًا بما استرقوه من الملائكة.

ولما كانت عزته سببًا لحراسة من يطلع عليه ليؤديه إلى من أمر به كما أمر به قال: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: الله تعالى، يُظهِر ذلك الرسولَ على ما يريد من الغيب بأن ﴿يَسْلُكُ﴾ أي: يُدخِل من

غير تعريج إلى غير المراد ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ أي: الجهة التي يعلمها الرسول ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أي: التي لا يعلمها، فصار كناية عن كل جهة، ويمكن أنه خصهما؛ لأن العدو متى أعريت واحدة أتى منها ﴿رَصَدٗا ٢٧﴾ أي: حرسًا يحفظونه بحفظ ما معه من الغيب من اختطاف الشياطين أو غيرهم، قاله ابن عباس.

ثم بيّن الغاية من الحفظ فقال: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ﴾ أي: فعل ذلك، والحال أنه قد أحاط ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ ولما كان ذلك قاصرًا على المقصود عمَّ فقال حاملًا على شدة الوثوق بما تقوله الرسل عن ربهم: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ فهو دليل قاطع على علمه تعالى بالجزئيات كعلمه بالكليات.

وقد دل الآخر المفصل على الأول المجمل، فإنه بين في أولها عظمة الوحي، وفي أثنائها حفظه من مسترقي السمع، وختم بتأكيد حفظه، واستمر في ذلك حتى بانت عظمة القرآن وعزته على كل كتاب بكل اعتبار، فافتتح المزمل بمثل ذلك وختمها بالأمر بقراءته، وذكر في المدثر ما نال الطاعن فيه بسبب الطعن من الخزي في الدارين، مع ضمان الحفظ منه، ثم نهاه ﷺ في القيامة عن العجلة فيه لئلا يختل حفظه، وتشريعًا لأمته في تركها، ثم أكد تنزيله في الإنسان وبين أن الإعراض عنه لحب العاجلة، وختم المرسلات بنهاية ما تُخيِّل الأوهام فقال: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [المرسلات: ٥٠]، فسبحان من نظمه هذا النظام، وجعله غاية المرام.

سورة المزمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الإعلام بأن محاسن الأعمال تدفع الأخطار وتخفف الأحمال ولا سيما الوقوف بين يدي الله، واسمها «المزمل» أدل ما فيها على هذا.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الكافي من توكل عليه في جميع الأحوال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

لما تقدم في آخر الجن أن من تعظيم الوحي حفظ المرسل به من جميع الآفات المفترة عن إبلاغه، ندب نبيه ﷺ أول هذه إلى المناجاة بهذا الوحي في وقت الأنس المهيئ لحمل أعباء الرسالة والمقوي على معالجة أهل الضلالة، فقال معبرًا بالتزمل لأنه دون ما يراد من التهيئة لذلك الاستعداد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾ وفيه مع ذلك بشارة بالقوة على حمل أعباء ما يراد به، من قولهم: زمل الشيء إذا رفعه وحمله، والازدمال: الاحتمال، قال عكرمة: "يا أيها الذي حمل هذا الأمر"، وقال السدي: "يا أيها النائم".

﴿قُمِ﴾ في خدمتنا بالازدمال والاحتمال لأعباء النبوة واترك التزمل فإنه مناف للقيام، ولما كان الاجتهاد في الخدمة دالًا على المحبة، وكان الإنسان مجبولًا على الضعف، وكان الله لطيفًا بهذه الأمة تشريفًا لإمامها ﷺ، رضي منا بصدق التوجه إلى العمل وجعل أجورنا أكثر من أعمالنا، فجعل إحياء البعض إحياء للكل فقال: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ فصل لنا في كل ليلة بما أنزلنا عليك، وقيام الليل في الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده، ولما كان للبدن حظ في الراحة قال مستثنيًا من الليل: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾.

ونودي بهذا لأنه ﷺ لما جاءه الوحي بحراء رجع إلى خديجة خائفًا فقال: «زملوني زملوني»؛ لأن الشجاع الكامل إذا دهمه أمر فوق قواه ففرق أمره فرجع إلى نفسه وقصر بصره وبصيرته على حسه، اجتمعت قواه فقويت جبلته الصالحة على تلك العوارض التخييلية فهزمتها فرجع إلى الجبلة العلية وزالت العلة البدنية.

وقال ابن الزبير: "لما أعلم باستجابة الجن وحرمان من كان أولى بها، صرف الكلام إلى أمره ﷺ بما يلزمه من وظائف عبادته وأذكاره، ليحصل منه أن لا كتراث بعناد من قدم عناده، وأتبع ذلك بما يشهد لهذا الغرض وهو قوله: ﴿واصبر على ما يقولون﴾ إلى ﴿ومهلهم

قليلًا﴾، إلى ختم السورة بالاستغفار من كل ما تقدم من عنادهم، وإلى ما لا يفي المستجيبون به مما أشار إليه قوله: ﴿علم أن لن تحصوه﴾".

ولما كان قيام الليل في غاية المشقة حمل عنا سبحانه من ثقل ذلك فقال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ أي: الليل، فعلم أن المراد بالقليل النصف، وسماه قليلًا بالنسبة إلى جميع الليل وبالنسبة إلى النصف الذي وقع إحياؤه؛ لأن ما يلي بالعمل أكثر مما لا عمل فيه، ولما كانت الهمم مختلفة بالنسبة إلى الأشخاص والأوقات قال: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ أي: النصف الذي أمرت بقيامه ﴿قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ السدسَ مثلًا فتقوم الثلثين، وعلى كل تقدير فإنه يصادف الوقت الذي يباركه الله بالنزول فيه إلى سماء الدنيا فيقول: «هل من سائل فأعطيه، هل من تائب فأتوب عليه، حتى يطلع الفجر».

وكان هذا القيام في أول الإسلام فرضًا على التخيير بين هذه المقادير الثلاثة، فكانوا يشقون على أنفسهم حتى انتفخت أقدامهم، فنزل آخرها بالتخفيف بعد سنة.

ولما أمر بالقيام وقدر وقته، أمر بهيئة التلاوة على وجه عام للنهار، معلم بأن القيام بالصلاة التي روحها القرآن فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فإنه موجب لتدبره فتنكشف له مهماته وخفياته، قال ابن مسعود: "لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر، ولكن قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة"، ولما أمر بالترتيل أعلم بشرفه بالتأكيد بالمصدر فقال: ﴿تَرۡتِيلًا ۝٤﴾.

ولما كان المراد منه ﷺ الثبات للنبوة، ومن أمته الثبات في الاقتداء به في الأمر والنهي وكان ذلك في غاية الصعوبة، وكان الإنسان عاجزًا إلا بإعانة مولاه، علل الأمر بقوله مبينًا للقرآن الذي أمر بقراءته، معلمًا أن التهجد يعد للنفس ما به تعالج المشقات: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ﴾ أي: قريبًا بوعد لا خلف فيه، فتهيأ له بما يحق له.

وأشار إلى اليسر مع ذلك إشارة إلى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ [القمر: ١٧] بالتعبير بما تدور مادته على اليسر فقال: ﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ على الموافق لما فيه من التكاليف الشاقِّ حملُها وتحميلُها للمدعوين، ولامتلائه بالمعاني التي لا تُستخرج إلا بمزيد فكر وتصفية سر، وعلى المخالف لعجزه عن رده والطعن فيه، مع أنه ثقيل في الميزان وعند تلقيه وله قدر عظيم، وفي الصحيح أنه ﷺ كان إذا أتاه الوحي يفصم عنه وإن جبينه ليتفصد

عرقًا في اليوم الشديد البرد، وإذا كان على ناقته وضعت جرانها، وهو مع ذلك خفيف على اللسان سهل التلاوة والحفظ.

ولما أفهم هذا عظمة التهجد، أكدها حاثًا على عدم الرضى بدون الأفضل فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ساعاته التي تنشأ فيها العبادة بغاية الخفة، من: نشأ أي: نهض من مضجعه بغاية النشاط لقوة الهمة التي جعلتها كأنها نشأت بنفسها، وقال ابن عباس: "الناشئة ما كان بعد العشاء"، وقالت عائشة: "الناشئة القيام بعد النوم".

ولما كان ذلك في غاية الصعوبة لشدة منافرته للطبع، زاد في التأكيد ترغيبًا فقال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وِطَآءً﴾ أي: مواطأة بين القلب واللسان، على أنه مصدر واطأ، وهي أبلغ لأن «المفاعلة» بين اثنين يغالِبان فيكون الفعل أقوى، وأشد مشقة لما فيها من ترك الراحة والمحبوب، وأشد ثبات قدم، على أنه مصدر وطئ في قراءة: ﴿وَطْأً﴾، ولما كان التهجد يجمع القول والفعل وقدم الفعل لأنه أشق فكان بالمدح أحق، أتبعه القول فقال: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: وأعظم سدادًا للقِيل في فهمه ووقعه في القلوب.

ولما بين ما به صلاح الدين الذي هو عصمة الأمر وأظهر فضائل التهجد، قال معللًا محققًا له مبينًا ما به صلاح الدنيا التي بها المعاش الذي هو وسيلة لصلاح الدين، وهو ما ينبغي له لئلا يكون كلًّا على الناس؛ ليحصّل ما يعينه على دينه، ويوسع به على عيال الله، مؤكدًا لما للنفس من الكسل عنه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الذي هو محل السعي للدنيا، ولما كان الإنسان في سعيه كالسابح في عزمه وسرعته قال: ﴿سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ قال البغوي: "وأصله سرعة الذهاب"، وقال الرازي: "سهولة الحركة".

[ولما كان السعي في الدنيا مشغلًا عن ذكر الله، قال مذكّرًا] حاثًا على حضور الفكر [وتصحيح النية في كل عمل]: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ [دائمًا] بكل ما يكون ذكرًا من ثناء وخضوع وصلاة وقراءة ودعاء وتعلم وتأدب، فإذا عظمت الاسم فقد عظمت المسمى بالتوحيد، وذلك عون لك على مصالح الدارين.

ولما كان الذكر قد يكون مع التعلق بالغير، أعلم أن الذاكر إنما هو المستغرق في الله وبه يتم العون فقال: ﴿وَتَبَتَّلۡ﴾ أي: اقطع نفسك عن الشواغل وأخلص جميع أعمالها بالتدريج، منتهيًا: ﴿إِلَيۡهِ﴾ حتى تتخلّق بذلك فتكون كالمنقطع بغير قاطع ﴿تَبۡتِيلًا ۝٨﴾ فأعلم

بالتأكيد بالمصدر والجمع بين التفعل والتفعيل بصعوبة المقام وأهميته، قال زيد ابن أسلم: "التبتل رفض الدنيا والتماس ما عند الله"، فالمراد بهذا هو المراد بكلمة التوحيد المقتضية للإقبال عليه وحده، وذلك بملازمة الذكر وخلع الهوى.

ولما كان الواجب على كل أحد شكر المنعم، بين أنه الذي أنعم بالليل الذي أمر بالتهجد فيه، والنهار الذي أمر بالسبح فيه فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ الذي تمحو أنواره هذا الليل الذي أنت قائم فيه ويضيء بها الصباح، وعند الصباح يحمد القوم السرى ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الذي هو محل السكن، فلا تغرب شمس ولا قمر ولا نجم إلا بتقديره، ولما علم بهذا أنه المختص بالتدبير كان أهلًا لأن يفرد بالعبادة وجميع التوجه فقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلذلك ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ على كل من خالفك بأن تفوض جميع أمورك إليه.

وليس ذلك بترك العمل فإنه طمع فارغ، بل بالإجمال في طلب كلِّ ما ندبت إلى طلبه لتكون متوكلًا في السبب، لا من دون سبب فتكونَ كمن يطلب الولد من غير زوجة، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسباب، ولو لم يكن في إفراده بالوكالة إلا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والرفق من جميع الوجوه، فإن وكيلك من الناس إذا حصّل مالَك سألك الأجرة، وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الأجر، ومن تمسك بهذه الآية عاش حرًا كريمًا، ومات خالصًا شريفًا، ولقي الله عبدًا تقيًا، ومن شرط الموحد التوجه إلى الواحد وتفويض أموره إليه واتخاذه عدة لكل نائبة دنيا وآخرة.

ولما كانت الوكالة لا تكون إلا فيما يعجز، وكان الأمر بها مشيرًا إلى أنه سيكون عن هذا القول الثقيل خطوب وأهوال قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا﴾ وخفف الأمر بالإشارة إلى أنهم لا يصلون إلى غير الأذى بالقول فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ من مدافعتهم الحق بالباطل، ولما كانت مجانبة البغيض إلا عند الاضطرار مما يخفف من أذاه قال: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ فلا تخالطهم إلا فيما أمرك الله به، على ما حده لك.

ولما كان هذا شاقًا، أعلم بقرب فرجه بتهديدهم بأخذهم فقال: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولما ذكر وصفهم الذي استحقوا به العذاب، ذكر الحامل عليه تزهيدًا فيه وصرفًا عن معاشرة أهله؛ لئلا تكون فتنةً فتحملَ على الكفر وحب الدنيا فقال: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ وحقق المراد بالأمر بالصبر، فقال مزهدًا في نعم الدنيا بقصر زمنها: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ إلى موتهم أو

الإيقاع بهم، وكان بين نزولها ووقعة بدرٍ يسيرٌ، قاله المحب الطبري، وفيه بشارة له ﷺ بالبقاء بعد أخذهم كما كان، وأنه ليس محتاجًا في أمرهم إلى غير وَكْلهم إليه تعالى وتفرغه للإقبال عليه، ففيها أن من اشتغل بعدوه وكله الله إلى نفسه فكان كالمانع من أخذ الله له، فإذا توكل عليه أزال ذلك المانع.

ولما كان وصفهم بالنعمة مفهمًا لأنهم معتادون بالمآكل الطيبة، وكان منعها لمن اعتاده لا يبلغ في نكاية النفس بحد نكاية البدن إلا بعد تقدم إهانة قال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ ولما كان أشد ما على الإنسان منعه من الانبساط بالحركات، قال ذاكرًا ما يضاد ما هم فيه من النعمة والعز: ﴿أَنكَالًا﴾ وهو القيد الثقيل الذي لا يفك أبدًا، إهانة لهم لا خوفًا من فرارهم، لتقييدِهم أنفسَهم بالشهوات وإيساعِهم المشيَ في فضاء الأهوية، ولما كان ذلك محرقًا للباطن أتبعه حريق الظاهر فقال: ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

ولما أتم ما يقابل تكذيبهم أتبعه ما يقابل النعمة فقال: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: انتشاب في الحلق لا ينزل ولا يخرج ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾. ولما ذكر العذاب ذكر وقته فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

ثم أتبعهما سببه فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ ولما كان نزول السورةِ والدينُ ضعيف وأهله في قلة وذلة؛ ليعتبر بهم من كان الدين في زمانه كذلك، وكان فرعون أعتى أهل زمانه وأمكرهم، وكان بنو إسرائيل في غاية الذل له، قال تنبيهًا على أن من كان الله معه لا ينبغي أن يُقاوى ولو ضعف، وعلى الاعتبار بحال هذا الطاغية الذي يفوق العرب جندًا ومالًا: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي: ثقيلًا رديء العاقبة، من قولهم: طعام وبيل إذا كان وخمًا لا يستمرأ.

ولما علم بهذا أنه سبحانه شديد الأخذ، سبب عنه قوله، محذرًا لهم الاقتداء بفرعون: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ ولما كان التنفير من سبب التهديد أدل على الرحمة وأبعث على اجتنابه، قال مشيرًا بأداة الشك إلى أن كفرهم بالله مع ما نصب لهم من الأدلة ينبغي أن لا يوجد وإنما يذكر تقديرًا: ﴿إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ كناية عن كثرة الهموم فيه إذ العادة أن الأهوال إذا تفاقمت أسرعت بالشيب، والمعنى إنكار أن يقدروا على أن يجعلوا لهم وقاية تقيهم عذاب ذلك اليوم العظيم.

ثم صور بعض أهواله زيادة في عظمه فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ ولما كان المراد الجنس قال: ﴿مُنفَطِرُۢ﴾ ولو أنث لكان ظاهرًا في واحدة منها، وفي التذكير أيضًا إفهام الشدة الزائدة في الهول المؤدي إلى انفطاره؛ لأن الذكر في كل شيء أشد من الأنثى ﴿بِهِۦۚ﴾ على عظمها وعلوها وشدة إحكامها، فما ظنك بغيرها؟ ولما كان هذا عظيمًا، بين هوانه بالنسبة إلى عظمته تعالى فقال: ﴿كَانَ﴾ أي: على كل حال ﴿وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾ في أي شيء كان، فكيف إذا كان بهذا اليوم الذي هو محط الحكمة؟

ولما كان ما مضى مرشدًا للمعالي منقذًا من المساوي، قال تنبيهًا على عظمه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: القطعة المتقدمة من السورة ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ ولما كان تعالى قد جعل للإنسان عقلًا يدرك به الحسن والقبيح، واختيارًا يتمكن به من اتباع ما يريد، فلم يبق مانع إلا قسر المشيئة التي لا اطلاع له عليها قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ أي: طريقًا يسلبه حظوظه لكونه لا لبس فيه فيسلك على وفق ما جاءه من التذكرة، بالاعتصام بالكتاب والسنة على وفق ما اجتمعت عليه الأمة.

ولما كان ربما شق بعض الناس في العبادة على نفسه وغيره، أشار إلى الاقتصاد وإلى ما يعمل حالة اتصال الروح بالجسد وهي الحياة؛ لأن منفعتها التزوّد من كل خير، فإن الروح لطيفة والجسد كثيف؛ لأنها من عالم الأمر وهو من عالم الخلق، فهي غريبة تحتاج إلى التأنيس بما يقربها إلى العالم الروحاني، وذلك بصرف القلب عن الدنايا والتلبس بالصالحات، وأعون شيء على ذلك: الحكمة وهي العدل والاقتصاد، فقال مبينًا تيسير السبيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ كما أمرت به أول السورة.

ولما كانت قلة العمل مذمومة عبّر بقوله: ﴿أَدۡنَىٰ﴾ وهو مشترك بين الأقرب والأنزل رتبة ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ وهو الذي وقع التخيير فيه أول السورة، ولما كان التفاوت في القيام مع الاجتهاد دالًا على الجهل بالمقادير قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ ولما علم منه المشقة عليهم في قيام الليل على هذا الوجه علمًا وعملًا قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في ترك القيام على ذلك التقدير كما رفع عن التائب.

ولما رفعه، أمرهم بما يسهل عليهم فقال: ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ في كل وقت وحال ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ ولما كان هذا نسخًا لواجب القيام أول السورة، بيّن حكمة أخرى للنسخ فقال:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ففيه بشارة باتساعها وكثرة المسلمين ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليزول المانع بقتل قطاع الطريق المعنوي والحسي، وأظهر الاسم الأعظم؛ تعظيمًا للجهاد ولئلا يلبس بالعود للمتجر، وهو ندبٌ للنظر في أعذار العباد، فمن لا يَرحم لا يُرحم، ولما كانت هذه أعذارًا لعدم الإحصاء رتب عليها الترخيص السابق فقال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: القرآن، أضمره ليعلم بأنه عين السابق.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة بجميع ما تقوم به من مقدماتها وهيئاتها ومحسناتها، ولما ذكّر بصلة الخالق التي هي أحد عمودي الإسلام، أتبعها العمود الآخر وهو الوصلة بين الخلائق فقال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة، ولذا أتبعه سائر الإنفاقات فقال: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ من أبدانكم وأموالكم في صحتكم ويساركم ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الخيرات كلها برغبة تامة وعلى هيئة جميلة، فإنه محفوظ لكم عنده مبارك فيه؛ ليرده عليكم مضاعفًا أحوج ما تكونون إليه، ولما كان هذا الدين جامعًا والقرآن حكيمًا؛ لأن منزله له صفات الكمال، فأمر في هذه الجمل بأمهات الأعمال اهتمامًا بها، أتبع ذلك أمرًا عامًا بجميع شرائع الدين فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

ولما كان الإنسان إذا عمل ما يمدح عليه قد يدركه الإعجاب، بين له أنه لا يقدر أن يقدر الله حق قدره فلا يزال مقصرًا فلا يسعه إلا العفو بل الغفر، فقال حاثًا على ختم الأعمال بالاستغفار والاعتراف بالتقصير: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ ولما علم من السياق والتعبير بالاسم الأعظم أنه سبحانه بالغ في العظمة إلى حد يؤيس من إجابته، علل الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: بالغ الستر لأعيان الذنوب وآثارها ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: بالغ الإكرام بعد الستر.

وقد اشتملت هذه السورة على شرح قول النبي ﷺ فيما أوتي من جوامع الكلم: «اللّٰهُمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» كما أشير إلى كل جملة منها في محلها.

ولقد رجع آخر السورة بالترغيب في العمل وذكر جزائه على أولها الآمر بالقيام بين يديه، فسبحانه من إله جابر القلوب المنكسرة.

سورة المدثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الجد والاجتهاد في الإنذار، وإثبات البعث، واسمها «المدثر» أدل ما فيها على ذلك بتأمل النداء والمنادى به والسبب.

لما ختم المزمل بالاجتهاد في الخدمة المهيئ للقيام بأعباء الدعوة، افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة [شروعًا في التبليغ بعد الإعداد] فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ والدثر: المال الكثير، ودثر الشجر: أورق، وتدثير الطائر: إصلاحه عشه، وعبّر بالأداة الصالحة للقرب والبعد؛ لأنه لا يقال بعدها إلى ما عظم.

ولما كان في حال تدثره قد لزم موضعًا واحدًا، أمره بالقيام وسبب عنه الإنذار إشارة إلى أن ما يراد به مقتض للتشمير والحمل على النفس بغاية الجد والاجتهاد اللازم عنه كثرة الانتشار، فهو مناف للتدثر بكل اعتبار فقال: ﴿قُمۡ﴾ ولما كان الأمر عند نزول هذه السورة في أوله والناس قد عمهم الفساد، ذكر أحد وصفي الرسالة إيذانًا بشدة الحاجة إليه فقال: ﴿فَأَنذِرۡ ٢﴾ من كان راقدًا في غفلاته، متدثرًا بأثواب سكراته، وكذا من كان مستيقظًا ولكنه متدثر بأثواب تسويفاته وأغشية فتراته، ولما كان الإنذار يتضمن مواجهة الناس بما يكرهون وذلك عظيم على الإنسان، أمره بتعظيم من أرسله سبحانه، فإنه إذا عظم حق تعظيمه صغر كل شيء دونه فهان عليه الدعاء فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

وقال ابن الزبير: "ملاءمتها للمزمل واضحة، فاستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة من الأمر بما يخصه ﷺ ﴿قم اليل إلا قليلًا . نصفه﴾ [المزمل: ٢ - ٣] الآي، وفي الأخرى: ﴿قم فأنذر . وربك فكبر﴾، وأتبعت في الأولى بقوله: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ [المزمل: ١٠] وفي الثانية: ﴿ولربك فاصبر﴾ وكله قصد واحد، وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ﴿وذرني والمكذبين﴾ [المزمل: ١١] الآيات، وكذلك هنا: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدًا﴾ الآيات، فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد".

ثم قال آمرًا بتطهير الظاهر والباطن باستكمال القوة النظرية في تعظيمه سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ الحسية بإبعادها عن النجاسات ومجانبة عوائد المتكبرين من تطويلها، والمعنوية

وهي كل ما اشتمل على العبد من الأخلاق والعوائد المذمومة، من الفترة عن الخدمة والضجر والاسترسال مع شيء من عوائد النفس. ﴿وَالرِّجْزَ﴾ أي: كل قذر فإنه سبب الدنايا التي هي سبب العذاب ﴿فَاهْجُرْ ۝٥﴾.

ولما بدأ بأحد سببي القبول وهو استكمال القوة النظرية، أتبعه الثاني المبعد عن قاصمة العمل من الإعجاب والرياء فقال: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ على أحد بإعطائه ما يذكره مستكثرًا له، أو لا تعط حال كونك ﴿تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أي: تطلب أجرًا أو أكثر مما أعطيت، قاله ابن عباس، وذلك لأنه الأليق بالمعطي أن يستقل ما أعطى ويشكر الله الذي وفقه له، وبالآخذ أن يستكثر ما أخذ، فأمر النبي ﷺ أن لا يفعل شيئًا لعلة بل لله خالصًا.

ولما كان الإنذار شديدًا على النفوس يحصل به من المعالجات ما الموت دونه، قال آمرًا بالتحلي بالعاصم بعد التخلي عن القاصم، معلمًا بأن أذى المنذَرين لا بد منه فيدخلَ في الطاعة على بصيرة، وكان الإنذار يهون بالغنى عن الفانين والكون مع الباقي وحده، فأشار إلى ذلك بتقديم الإلٰه معبرًا بوصف الإحسان والتدبير ترغيبًا فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ على مشاق التكاليف وأذى المشركين وشظف العيش وجميع البلايا، فإنه يجزل عطاءك فلا يحوجك إلى أحد ويحوج الناس إليك، ويهون عليك حمل المشاق فيهما ولا سيما يوم البعث، فإن من حمل العمل في الدنيا حمله العمل في الآخرة.

ولما كان المقام للإنذار حذر من الفتور عن الأوامر بذكر ما للمكذب بها، فقال مذكرًا بأن الملك التقم القرن وأصغى بجبهته انتظارًا للأمر بالنفخ، مشيرًا بالبناء للمفعول إلى هوانه عليه، مؤذنًا بأداة التحقق بتحتّم وقوعه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ ولما كان العسر قد يطلق على الشيء وفيه جهة يسر أو يعالَج فيرجع يسيرًا، بين أنه ليس كذلك بقوله: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ وتقييده بهم يشعر بيسره على المؤمنين.

ثم قال منبهًا على أسباب الهلاك التي أعظمها الغرور -وهو شبهة روجتها شهوة-: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾ لا شيء له، وحال كوني واحدًا لم يشاركني في صنعه أحد، فكفر هذه النعمة بالشرك، ولما كان المطغي للإنسان المكنة التي قطب دائرتها المال قال: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢﴾ والمراد به الوليد بن المغيرة. ﴿وَبَنِينَ﴾ ولما كان فراقهم شاقًا وإلزامهم

له نعمة أخرى قال: ﴿شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ معه؛ لغناه عن الأسفار بكثرة المال والأعوان، وهم مع ذلك أعيان المجالس كأنه لا شاهد بها غيرهم، منهم سيف الله خالد.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ﴾ أي: أزلت موانع الرغد، ووفرت أسباب الوجاهة، وأقام ببلده مطمئنًا ﴿تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ﴾ أي: بعد الأمر العظيم الذي ارتكبه من تكذيب رسولنا ﷺ ﴿يَطْمَعُ﴾ أي: بغير سبب يدلي به من الشكر ﴿أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾.

ثم زجره عن ذلك عَلمًا من أعلام النبوة، فقال ما لا يصح أن يقوله غيره تعالى؛ لأنه مع الجزم طابق الواقع، فلم يزد بعد ذلك شيئًا بل لم يزل في نقصان حتى هلك وتمت كلمات ربك: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا تكون له زيادة، ثم علله بقوله مؤكدًا؛ لإنكارهم العناد والمعاد: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ والعناد كما قال الملوي: "من كبر في النفس أو يبس في الطبع أو خبل في العقل، وقد جمع ذلك كله إبليس؛ لأنه خلق من نار وهي من طبعها اليبوسة وعدم الطواعية، وحقيقته ميل عن الجادة ومجاوزة للحد مع الإصرار واللزوم، ومنه مخالفة الحق مع المعرفة بأنه حق".

ولما كان العناد كذلك، جعل جزاءه من جنسه فقال: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي: ألحقه بعنف وغلظة وقهر ﴿صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ أي: شيئًا من الدواهي والأنكاد كأنه عقبة، فإن الصَّعود لغة العقبة شاق المصعد جدًا. ثم بيّن بعض ما عاند به فقال مؤكدًا؛ لاستبعاد العقلاء لما صنع لوضوح كذبه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ بأمر يطعن به في القرآن ﴿وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ تلك الأمور وقاسها في نفسه ليعلم أيها أقرب للقبول.

ولما كان فعله قد أهلك غيره بمنعه حياةَ الإيمان، أصيب هو بما منعه حياةً نافعة في الدارين وذلك هو الهلاك الدائم فقال: ﴿فَقُتِلَ﴾ ولما كان التفكير ينبغي أن يهديه إلى الصواب فقاده إلى الغي، عجب منه فقال: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾. ولما كان وقوعه في هذا الطعن عظيمًا؛ لما فيه من الكذب المبين ومعاندة القوي المتين، أكد المعنى زجرًا عن مثله وحثًا على التوبة فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ فيما يدفع به أمر القرآن مرة بعد أخرى، وفيه إشارة إلى قبح أفعاله لظهور الحق له مع إصراره، فإن تكرار النظر في الحق لا يزيده إلا ظهورًا وفي الباطل لا يزيده إلا ضعفًا.

ولما كان من فعل كذلك فظهر له فساد رأيه ووقف مع حظ نفسه يصير يعبس وتتغير خلقته من غير اختياره قال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ كالمهتم المتفكر في شيء منغلق؛ لأنه لم يجد في القرآن مطعنًا ﴿وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ قال في القاموس: "بسر: إذا عبس، وبسر الحاجة: طلبها في غير أوانها، وبسر الدَّين: تقاضاه قبل محِله"، فكأنه لما طال عليه التفكير صار يستعجل مراده، ويقال: بسر إذا ابتدأ، فكأنه لما عبس خطر له السحر فابتدأ في إبداء ما سنح له من أمره، قال ابن برجان: "البسور هيئة في الوجه تدل على تحزن في القلب".

ولما كان هذا النظر أمدح شيء للمنظور فيه إذا لم يوصل منه إلى طعن، وكان ظاهره تطلب الحق فكان الإصرار معه على الباطل بعيدًا، عبر لذلك بأداة البعد فقال: ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا التروّي العظيم ﴿أَدْبَرَ﴾ عما أداه إليه فكره من سلامة المنظور فيه، فحاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها ﴿وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ عن الاعتراف بالحق بغاية الرغبة فكان في غاية العناد ﴿فَقَالَ﴾ ما رآه نافعًا لهم في الدنيا ولم يفكر في عاقبته من جهة الله وأنه لا يهدي كيد الخائنين، مع أنه مما جربوه في دنياهم: ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

وقد مدحه بهذا الذم بعد هذا التفكير كله؛ لأنه أثبت أنه معجوز عنه لأغلب الناس كما يعجزون عن السحر، فسكت أَلْفًا ونطق خَلْفًا، وهكذا كل حق يجدّ المبالغ في ذمه، لا ينفك ذمه عن إفهام مدح له ينقض كلامه، وهذا الكلام صالح لعموم من خلقه سبحانه هكذا في الروغان من الحق لِما تفضّل الله به عليه من الرئاسة؛ لأن أهل العظمة في الدنيا هم في الغالب القائمون في رد الحق والتعاظم على أهله، ولا ينافي ذلك أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، بل ذلك من إعجاز كلام الله أن تبيّن الآية حال شخص ويعمَّ غيرَه ذلك البيانُ.

قالوا: كان له عشرة من البنين كلهم كبير قبيلة، ولهم عبيد يسافرون في تجاراتهم ويعملون احتياجاتهم، وأسلم منهم ثلاثة: الوليد ابنه وخالد وهشام.

وقيل: إنه لما نزلت أول غافر أو فصلت قرأها النبي ﷺ في المسجد والوليد يسمعه فأتى مجلس قومه وقال: والله لقد سمعت من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق وإنه ليعلو ولا يعلى. فقالوا: صبا الوليد، والله لتصبوَن قريش كلها. وكان يقال له: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فقعد إلى جنبه حزينًا، فقال الوليد: ما لي أراك حزينًا؟ قال: وما يمنعني وهذه

قريش تجمع لك نفقة تعينك بها على كبر سنك وتزعم أنك صبوت لتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم!

فغضب وقال: ألم يعلموا أني من أكثرهم مالًا وولدًا؟ وهل شبع محمد وأصحابه فيكون لهم فضل؟ ثم قام معه حتى أتى مجلس قومه وأداروا الرأي فيما يقولونه في القرآن، فعدوا أنواع البهت التي رموا بها القرآن فردها بدليله وقال: لا تقولون شيئًا من ذلك إلا أعلم أنه كذب. قالوا: فقل أنت رأيًا نجتمع عليه. قال: أقرب ذلك إليه السحر، هو يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وزوجه وعشيرته. فافترقوا على ذلك.

ولما انقضى بيان عناده فحصل التشوف لتفصيل جزائه، قال مبينًا لبعض ما أفهمه إرهاقه الصعود: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ وعظمه بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ وزاده عظمًا ببيان فعلها دون شرح ماهيتها فقال: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ ودل على شدة فعلها بقوله: ﴿لَوَّاحَةٞ﴾ أي: شديدة التغيير بالسواد والاضطراب والتعطيش ونحوها من الإفساد من شدة حرها ﴿لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ غلاظ شداد يكفي واحدهم لأهل الأرض كلهم، كما أن ملكًا واحدًا يقبض جميع الأرواح، قد نُزعت منهم الرحمة، دَفعةُ أحدهم سبعين ألفًا، وقيل: اختير هذا العدد لأن التسعة نهاية الآحاد والعشرة بداية العشرات فصار مجموعهما جامعًا لأكثر القليل وأقل الكثير فكان أجمع الأعداد.

ولما كانت الحكمة في تعيين العدد خفية، وكان مما يستقله المتعنت فيزيده كفرًا قال: ﴿۞وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۖ﴾ أي: ليسوا من جنس المعذَّبين فيرقّوا لهم ويستريح المعذَّبون إليهم وهم أقوى الخلق ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾ أي: حالة مخالطة مميلة محيلة ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أوجدوا الكفر ولو على أدنى الوجوه فإنهم يستقلونه ويستهزئون به حتى قال بعض أغبيائهم وهو أبو جهل: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟. وهذا للاستهزاء، فإنهم مكذبون بالبعث الذي هذا من آثاره.

وكان في علم أهل الكتاب أن هذه عدتهم وأن العرب إذا سمعوها شك أكثرهم وتعنت فلذا قال: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بناه للمفعول لأن مطلق الإيتاء كاف في ذلك، مع العلم بأن المؤتي هو الله ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ بتصديق ما لم يعلموا حكمته لا سيما مع افتتان غيرهم به وكثرة كلامهم فيه فإن الإيمان بمثل ذلك يكون أعظم، ثم أكد

ما تقدم بنفي ضده مبينًا للفتنة فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُومِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك أو نفاق وإن قل، ونزولها قبل وجود المنافقين عَلم من أعلام النبوة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الراسخون فيه.

﴿مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ العدد القليل مع عظمته سبحانه ﴿مَثَلًا﴾ لأنه صار مستغربًا استغراب المثل، أو أنه إشارة إلى أنه مثل لشيء لم يفهموه وأنه مناف للعظمة، وما علموا أن القليل قد يكون أعظم بقوته من الكثير وأدل على العظمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الإضلال والهداية ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ فإن إبراز الأحكام مع الغموض من أعظم المهلكات والمسعدات؛ لأن الضال يبحث عن عللها متعنتًا فإذا عميت عليه قطع ببطلانها أو شك، وذلك هو سبب كفر إبليس، والموفق يبحث مع التسليم فإن ظهر له ازداد تسليمًا وإلا قال: آمنت به كل من عند ربنا.

ولما كان هذا مما يوهم قلة جنوده تعالى، أزال ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وفي الخبر: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم يصلي» وإنما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها إلا هو ومن أراد إطلاعه، مع أن الكفاية تقع بدون ذلك فقد كان في الملائكة من اقتلع مدائن قوم لوط، وكلُّ ما في الإنسان هو من جنود الله، لو سلط عليه شيء من نفسه لأهلكه، لو تحرك ساكن أو سكن متحرك أو انسد مجوف أو تجوف منسد لهلك.

ولما ذكر شيئًا من أسرار الإخبار عنها غامضًا، وكان ذلك رحمة بالعباد ليفتح لهم بابًا إلى التسليم، خص أمرها في التذكير تأكيدًا؛ لِما لأغلب المخاطبين من اعوجاج الطباع المقتضي للرد والإنكار فقال: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ٣١﴾ أي: لكل من هو ظاهر البشرة فبدنه أقبل شيء للتأثر بها، وإلا فهو تعالى قادر على إيجاد ما هو أشد منها وأعظم وأكثر إيلامًا مما لا يعلمه الخلائق.

ولما كان حصرها في الذكرى ربما أوهم أنه لا حقيقة لها ولا عذاب فيها، قال رادعًا من ذلك: ﴿كَلَّا﴾ أي: إياك أن ترتاب في أهوالها وعظمها، ولما أيقظ المخاطبين من غفلتهم ونبههم على تقويم أنفسهم بما يرشدهم إليه لعلاج أمراض القلوب، زاد الأمر تأكيدًا فأقسم عليه بما هو ذكرى للناس ولا يظهر معه ظلام الليل، كما أن ضياء القرآن لا يظهر معه ظلام

الجهل لمن أعمل فكرته وألقى شهوته، فقال: ﴿وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢﴾ الذي هو آية الليل الهادية لمن ضل بظلامه. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا دَبَرَ ۝٣٣﴾ فانكشف ظلامه فزال الجهل والشكوك. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ فأقبل ضياؤه فحصل العلم والهداية.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾ كناية عن شدة هولها، كما يقال: هو أحد الرجال أي: لا مثل له، حال كونها: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخيرات ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ عنها. ثم قال مبيّنًا لما يقدم وما يؤخر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ أي: محبوسة حبسًا عظيمًا فهي في النار. ولما كان الرهن تارة يفك وتارة يغلق وكان أكثر الخلق هالكًا، جعل رهينة بمعنى هالكة ثم استثنى الممدوح فقال: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٍ﴾ ولما كان السؤال عن الغير دالًّا على الراحة والفراغ عن كل ما يهم النفس، عبر عن راحتهم في أجلّ وعظ وألطف تحذير بقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾.

فكشف الله لهم عنهم حتى رأوا النار تسعر بهم؛ ليقر الله أعينهم بعذابهم، ويزدادوا سرورًا بما نجاهم الله من مثل حالهم، ويكثروا من الثناء عليه بما وفقهم له، وحكى ما يقولون لهم ليكون موعظة وذكرى فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أي: أدخلكم إدخالًا هو في غاية الضيق حتى كأنكم السلك في الثقب ﴿فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟﴾ ذاكرين علة دخولهم النار بإفساد القوة العملية في التعظيم لأمر الله؛ فذلكة لجميع ما تقدم.

وفي البداءة بالعمل تنبيه على أنه يجب المبادرة إليه لأنه المصدق لحسن الاعتقاد، وهو أسهل من المبادرة إلى العلم؛ لأن العمل له صورة وحقيقة، والتصوير أسهل من التحقيق، ومن صور شيئًا كان أقرب إلى تحقيقه ممن لم يصوره، ففيه حث على المسابقة إلى الأعمال الصالحة وإن لم تكن النية خالصة، وإيذان بأن من أدمن ترك الأعمال قاده إلى الانسلاخ من حسن الاعتقاد.

﴿لَمْ نَكُ﴾ حذفوا النون دلالة على ما هم فيه من الضيق عن النطق، وأنه لم يكن لهم نوع طبع جيد فيكونوا في الصالحين، ومشيرًا إلى ما هم فيه من الدواهي الشاغلة، بضد ما فيه أهل الجنة من الفراغ الحامل على السؤال ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ أي: صلاة يعتد بها، فكان تنبيهًا على أن الصلاة أعظم الأعمال، وأن الحساب بها مقدَّم. ولما نفوا الوصلة بالخالق، أتبعوه الإفساد بعدم وصلة الخلائق فقالوا: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ نفوا وجود

إطعامه لأنهم إن فعلوه فلغير المسكنة، وأما الصلاة فهم يوجدونها لكن على غير ما أمروا به فلم تكن مقبولة فلم يكونوا راسخين في وصفها.

ولما سلبهم لباس الأولياء، حلاهم بلباس الأشقياء بإفساد القوة النطقية بعد الفعلية فقال: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ أي: نوجد الكلام الذي هو في غير مواقعه ولا علم لنا به ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فنقول في القرآن: إنه سحر وشعر وكهانة، وغير هذا من الأباطيل، فليأخذ الذين يبادرون إلى الكلام في كل ما يُسألون عنه من غير تثبت منزلتَهم من هنا. ولما كان الإدمان على الباطل يجر إلى غلبة الهزء، وغلبته توجب إفساد القوة العلمية بتصديق الكذب وتكذيب الصدق، قالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

ولما أقروا على أنفسهم بما أوجب العذاب قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لو شفعوا فيهم. ولما كان هذا موجبًا للتذكر، أنكر عليهم فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وعلى الباطل وحده مقبلين، وذلك أعجب العجب؛ لأن الإنسان إذا حذر من شيء بذل جهده في الحيدة عنه وإن كان المخبِر كاذبًا، فكيف يعرضون عن هذا المحذور الأعظم والمخبر أصدق الصادقين؟ إلا لاختلال عقولهم.

وزاد ذلك عجبًا شدة نفارهم وسرعته حتى ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ من حمر الوحش وهي أشد الأشياء نفارًا، ولذا كان أكثر تشبيهات العرب في وصف سرعة الإبل بالحمر في عدوها إذا وردت ماء فأحست عليه ما يريبها، وفي تشبيه الكفرة بها ولا سيما في هذه الحالة تهجين لحالهم بيّن وشهادة عليهم بالبله وعدم التثبت ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

ولما لم يكن لهم شيء في إعراضهم، أضرب عنه بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ وذلك أنهم قالوا: لن نتبعك حتى تأتي كلًّا منا بكتاب من السماء فيه: من الله إلى فلان، اتبع محمدًا. ولما كان هذا إنما هو تعنت قال: ﴿كَلَّا﴾ لا يتبعون لا بهذا الشرط ولا بغيره: ﴿بَل﴾ علتهم الحقيقية أنهم ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

ولما كان فعلهم فعل من يعتقد أن القرآن ليس بوعظ صحيح يستحق أن يتبع، قال رادعًا لهم عن هذا اللازم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي: وعظ عظيم يوجب اتباعه وملازمته. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ فثبت في صدره وعلم معناه وتخلق به، فليس لأحد أن يقول: إنه عسر التركيب والفهم يحتاج إلى علاج كبير فأنا معذور في الوقوف عنه. بل هو كالبحر

الفرات من شاء اغترف؛ لأنه خوطب به أمة أمية لا ممارسة لها للعلوم، مع أنه لا يوصل إلى قراره بل كلما زاد الإنسان فيه تأملًا زاده معاني.

ولما جعل للعبد اختيارًا، قال منبهًا على ترك الإعجاب وإظهار الذل والالتجاء إلى العزيز الغفار في طلب التوفيق: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وهو صريح في أن فعل العبد من المشيئة وكذا ما ينشأ عنها ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أن يتقوه لما له من الجلال والعظمة والقهر ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ٥٦﴾ أي: لأن يطلب غفرانه لا سيما إذا اتقاه المذنب؛ لأن له الجمال واللطف، فهو الحقيق بأن يجعل موضع الإنذار الذي أمر به أول السورة: البشارة.

فقد رجع آخرها على أولها بضم البشارة إلى النذارة، وصار كأنه قيل: أنذر العاصي فإنه أهل لأن يرجع، فيكون سبحانه أهلًا لأن يغفر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها شرح آخر المدثر من أن هذا القرآن تذكرة، واسمها «القيامة» أدل ما فيها عليه إذا تؤملت الآية مع ما أشارت إليه ﴿لا﴾ مع أنها في الوضوح في حد لا يحتاج إلى الإقسام عليه، لم يَحجب عن علم ذلك حتى ضل عنه أكثر الخلق: إلا مشيئتُه سبحانه بتغليب النفس الأمارة، حتى صارت اللوامة منهمكة في الشر شديدة اللوم على الإقصار فيه.

لما ذكر الآخرة أول المدثر وآخرها، والتقوى التي هي أعظم أسباب النجاح فيها، وكان الكفار يكذبون بها، وكان الله قد أقام عليها من الأدلة من أول القرآن إلى هنا ما صيرها بديهية، وكان الإقسام مع العناد لا يفيد، أشار إلى أن الأمر قد ظهر حتى صار غنيًا عن الإقسام لا ينكره إلا معاند فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ وعلى القول بأنه قسم هو مؤكد بالنافي وذلك شائع في كلامهم، وسره كما قال الرازي في اللوامع: "أن الإثبات من طريق النفي آكد، كأنه رد على المنكر ثم أثبت القسم، فإن الجمع بين النفي والإثبات دليل الحصر".

ولما كان أكثر لوم النفس في ذلك اليوم قال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ وهي خيرة وشريرة، فالخيرة تلوم على الشر أو التهاون بالخير فتنجي، والشريرة تلوم على ضد ذلك فتُهلِك، وهي بين الأمارة والمطمئنة فما غلب عليها منهما تحيّزت إليه، قال الرازي: "فالمطمئنة المنقادة لأوامر الله، والأمارة المخالِفة المتبعة للهوى، واللوامة هي المجاهِدة فتارة لها اليد وتارة عليها، وهي نفس الإنسان خاصة؛ لأنها بين طوري الخير والشر والكمال والنقصان"، ويشتد لومها في ذلك اليوم على عدم الخيرِ أو الزيادةِ منه.

ولما كانت القيامة في غاية الوضوح وتحتم الوقوع، قال منكرًا على من يشك فيها بعد ذلك: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وأسند الفعل إلى النوع لأن أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ التي هي قالب بدنه وعماده.

وقال ابن الزبير: "لما تقدمت الإشارة إلى يوم القيامة في عدة مواضع وتقدم الوعيد به لمن ذكر في قوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدًا﴾ [المدثر: ١١] الآيات، ومن كان على حاله في التكذيب به، بسط القول هنا في بيان ذلك اليوم وأهواله".

ولما كانت تسوية الصغير أصعب قال: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ خصها لأنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه فالكبار أولى لأنها أبين، ولا تُسوَّى وهي قالب البدن إلا بتسوية ما عليه، فهي كناية عن تسوية جميعه، مع بديع صنعها حتى تهيأت للأعمال اللطيفة، فهو تنبيه على التأمل في لطف تفصيلها الموجب للقطع بقدرة صانعها وعظمته.

ولما أشار إلى أن القيامة في غاية الظهور، أضرب عن هذا الإنكار فقال: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أظهر في موضع الإضمار؛ للتعميم لمقتضى الطبع الموجِبِ له عدمَ الفكر في الآخرة مع شدة ظهورها لأنه معني بشهواته، وحذف مفعول ﴿يريد﴾ إشارة إلى أن كل ما يريده بمقتضى طبعه وشهواته: خارجٌ عن مقتضى كونه عبدًا.

ولما كانت إرادته الخارجة عن الأمر معصيةً، قال معللًا: ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾ فيقضي شهواته ويركب رأسه في هواه، ونفسُه الكاذبة تورد عليه الأماني وتوسع له في الأمل وتطمعه في العفو من دون عمل، قال الحسن: "المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه ويقول: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ والفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها"، ويجوز أن يعود الضمير على الله تعالى ليكون المعنى: ليفجر بين يدي الله ويطمع في أن لا يؤاخذه. ولما كان عريقًا في التلبس بهذا الوصف، أنتج له الاستهزاء بهذا الخطب الأعظم، فترجم ذلك بقوله: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾.

وعدل عن الجواب معبرًا بأداة التحقق فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨﴾ بإذهاب ضوئه من غير سبب؛ لزوال ربط المسببات بالأسباب وظهور الخوارق بدليل: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾ وهما مع ذهاب النور وتفرق البصر مدرَكان؛ لوجود الكشف التام كما قال تعالى: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢].

ولما عظم أمر القيامة بما تقدم، أكد ذلك بأن الأمر فيه على غير ما نعهده في الدنيا من وجدان مهرب أو ناصر أو تفرق للكلمة فقال: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ لشدة روعه جريًا مع طبعه ﴿يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠﴾ قولَ آيس مدهوش، وذلك حين تقاد جهنم بسبعين ألف سلسلة كل سلسلة بأيدي سبعين ألف ملك لها زفير وشهيق.

ولما كان ذلك يوم انقطاع الأسباب قال: ﴿كَلَّا﴾ لا سبيل إلى وجود مفر، وهو معنى: ﴿لَا وَزَرَ ١١﴾ وكونه من كلام الإنسان رجوعًا من طبعه إلى عقله أقعد وأدل على الهول؛ لأنه

يُفهِم أنه بعد أن سأل من عظيم الهول، نظر في الأمر فتحقق أن لا حيلة بوجه، فقال معبرًا بأداة الردع. ولما كان المعنى: لا مفر من الله إلا إليه؛ لأن ملكه محيط وقدرته شاملة، قال مترجمًا عنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾. وبيّن علة هذا الاستقرار فقال: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ أي: في أول عمره وآخره كناية عن الاستقصاء، أو بما قدمه فآثره على غيره هل هو الشرع أو الهوى؟

ولما عظم القيامة، وكان الإنسان لا ينبَّأ إلا بما يجهله، وكان مما يخفف عليه النسيان، وكان ذلك يوم كشف الغطاء، زاده عظمًا بأن الإنسان يستحضر فيه جميع شؤونه فقال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ الهاء للمبالغة، يعني أنه في غاية المعرفة لأحوالها، فإنه إذا تأمل ولم يقف مع الحظوظ عرف جيد فعله من رديئه، أما في الدنيا فبشهادة الفطر الأولى كما قال النبي ﷺ: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر وترددت فيه النفس وإن أفتاك الناس وأفتوك»، وأما في الآخرة فإن الله يقوي تذكره حتى تصير أعمالَه بين عينيه ولا ينفعه عذر لأنه يعرف كذبه.

ولما كان الإنسان يعتذر ويجادل في ذلك اليوم عن كل سوء عمله، وكان المجادل يظن في الغالب أنه لم يذنب أو لا يعلم له ذنبًا قال: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ﴾ أي: ذكر بغاية السرعة، دلالة على غاية الصدق والاهتمام ﴿مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أي: كل كلام يمكن أن يخلص به، جمع عذر أو معذرة وهو إيساع الحيلة في دفع الخلل، لأنه قد أعطي البصيرة التي هي الفطرة الأولى، فأعماها بهوى النفس وشهواتها.

ولما كان الحامل على ما يوجب اللوم والاعتذار حب العاجل، وكان النبي ﷺ يحرك بالقرآن لسانه استعجالًا بتعهده، قال تعالى نتيجة عن هذه المقدمات الموجبة للخوف من عواقبها من الميل للعاجلة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ولما كانت العجلة إتيان الشيء قبل أوانه، جعلها علة وإن لم يقصدها فقال: ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ لأن هذه العجلة وإن كانت من الكمالات للأنبياء كما قال موسى: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه: ٨٤] لأنها من النفس اللوامة على ترك المبادرة إلى الخير = فغيرها من أفعال المطمئنة أكمل، فكان هذا الكلام وما بعده فرقانًا بين اللوامة في الخير واللوامة في الشر ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٦﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

ثم قال مشعرًا بأنه ﷺ كان يعجل بالسؤال عن المعنى أيضًا: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٨﴾ لك ولغيرك، على لسانك وألسنة العلماء من أمتك، والآية مشيرة إلى ترك مطلق العجلة؛ لأنه إذا نهى عنها في أعظم الأشياء كان غيره بطريق الأولى. ولذا قال مؤكدًا لذمهم بحب العاجلة: ﴿كَلَّا﴾ لا يجهل أحد منهم قبائح ما ارتكبه وإن اعتذر ﴿بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ١٩﴾ فإن الآخرة والأولى ضرتان من أحب إحداهما فعل ولا بد ما يباعده عن الأخرى ولذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢٠﴾ فأنفسهم اللوامة تلومهم على التقصير في الشر، كما أن نفسك تحثك على الازدياد من الخير.

ولما ذكر الآخرة التي أعرضوا عنها، ذكر ما يكون فيها بيانًا لجهلهم وسفههم، ترهيبًا لمن أدبر وترغيبًا لمن أقبل، لطفًا بهم ورحمة لهم فقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢١ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٢﴾ بأعينهم بدليل التعدية بـ«إلى» فإن الانتظار لا يعدى بها، وتكون الرؤية كما في الأحاديث: «كما يرى القمر ليلة البدر» كل من يريد رؤيته من بيته مخليًا به، هذا وجه الشبه لا أنه في حالة لها شبيه تعالى الله، وعبر بالوجوه عن أصحابها لأنها أدل على السرور، وليكون ذكرها أصرح في أن المراد بالنظر حقيقته، قال الغزالي: "سائر الألفاظ الواردة في الشرع مُجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة".

وأهل الجنة متفاوتون في النظر، منهم من ينظر بكرة وعشية، وفي خبر آخر: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»، ومتفاوتون في مقدار الكشف في الجمال والأنس والبهجة بحسب أعمالهم.

ولما ذكر أهل النعمة أتبعه أضدادهم فقال: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٣﴾ أي: شديدة العبوس والكره لما هي فيه من الغم، كأنها غرقت فيه فرسبت بعد أن سبرت أحوالها فلم يظهر لها وجه خلاص. ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا﴾ أي: بهم، فإنه إذا أصيب الوجه الذي هو أشرف ما في الجملة كان ما عداه أولى ﴿فَاقِرَةٞ ٢٤﴾ أي: داهية تكسر الفقار وهو عظم سلسلة الظهر الذي هو أصلب ما في العظام فتكون قاصمة الظهر.

ولما ذكر محبتهم للعاجلة بالمضارع فاقتضى استمرارَ تجدده، أخبر أنه ينقطع عند هول المطلع فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يدوم هذا الحب بل لا بد أن ينقطع ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٥﴾

أي: عظام أعالي الصدر وهو موضع الحشرجة، وهذا كناية عن الإشفاء على الموت، وما أحسن قول حاتم الطائي وأشد التئامه مع ما هنا من أمر الروح:

أَمَاوِيَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى   إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

ولما كان أهل الميت يشتد انزعاجُهم إذ ذاك وتطلبُهم لما ينجي المحتضِر ولا يفيدهم ذلك شيئًا فكان قولهم كأنه لا قائل له، بنى للمفعول قوله: ﴿وَقِيلَ مَن رَّاقٍ ۝٢٦﴾ فإنه حاله لا يحتمل دواءً فلا رجاء إلا في الرقى، وعن ابن عباس: أن القول من بعض الملائكة للاستفهام عمن يرقى بروحه، أملائكة الرحمة أم العذاب؟

ولما كان الإنسان مطبوعًا على شدة الركون لما يألفه بأدنى شيء، عبر عما هو أهل للتحقق بالظن فقال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٧﴾ لِما كان فيه من محبوب العاجلة الذي هو الفراق الأعظم. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٨﴾ كناية عن اشتداد الأمر جدًا، فإن العرب لا تذكر الساق في مثل هذا السياق إلا في أمر شديد مثل: شمر عن ساق، وعن ابن عباس: أنه كناية عن اختلاط شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٢٩﴾.

ولما ذكر كراهته للآخرة، ذكر أن سببه إفساده ما آتاه الله من قوى العلم والعمل بتعطيلهما عن الخير واستعمالهما في الشر فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ولما ذكر أصل الدين أتبعه فروعه فقال: ﴿وَلَا صَلَّىٰ ۝٣٠﴾. ولما نفى عنه أفعال الخير أثبت له أفعال الشر فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣١﴾ أي: أعرض عن الطاعة حتى لم تعد تخطر بباله؛ لموت الفطرة الأولى وحياة النفس الأمارة بالسوء، وليس هذا بتكرار لأنه لا يلزم من عدم التصديق التكذيب.

ولما كان الإصرار على هذا عظيمًا عبّر بأداة البعد فقال مؤذنًا بأن الحامل على التكذيب الكبر، والحامل على الكبر الترف، وسبب ذلك الانقياد أولًا مع الطبع في إفساد العمل والعلم حتى أنتجا عدم المبالاة، فتمادى به حتى صار ملكة يفتخر به: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٢﴾ أي: يفتخر بتكذيبه وعدم مبالاته بدل الاستحياء.

ولما كان هذا غاية الفجور، وكان أهل الإنسان يحبونه إذا أقبل إليهم لا سيما على هذه الحالة، أخبر بما هو حقيق أن يقال له فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أي: أولاك الله ما تكره ﴿فَأَوْلَىٰ ۝٣٣﴾ أي: ابتلاك بداهية بعد داهية، وزاده تأكيدًا إشارة لعظيم ما ارتكب وقوة استحقاقه

فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٤﴾ أو يكون المعنى: أولى لك أن تترك ذلك وتلزم ما ينفعك، ويمكن تنزيلها على حالاته الأربع فيكون المعنى: لك المكروه الآن وفي الموت والبعث ودخول النار، وأفهمت الآية أن من أصلح علمه وعمله فصدّق وصلى فيقال له: بشرى لك فبشرى ثم بشرى لك فبشرى.

ولما كان هذا فعل من ظن أنه مهملٌ لا مالك له، وسيدٌ لا عبودية عليه، فلا يَعمل إلا بشهواته، قال منكِرًا معبرًا بالحسبان الحاملِ عليه نقصُ العقل: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ولما كان الحامل على الجراءة مطلق الإهمال لا كونه من معين، قال بانيًا للمفعول: ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٥﴾ أي: مهملًا لاعبًا لاهيًا لا يكلف ولا يجازى.

ولما كان من طبع الإنسان أن يجري مع طبعه فيغفل عما خلق له، فتتراكم ظلماته فيبعد عن علمه بجهل الحكمة أو القدرة، رحمه تعالى بإعادة البرهان على المعاد بأمر يجمعهما، وذلك أن حكيمًا لا يصنع شيئًا ويتركه، فقال منكرًا ظنه أنه يهمله مع علمه بإحكام صنعه، مقررًا بدايته التي لا يسوغ معها إنكار إعادته لأنها أهون، حاذفًا نون الكون إعلامًا بضيق الأمر عن أقل شيء يمكن الاستغناء عنه، وإشارة إلى حقارة أصله: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٦﴾ انصبت بغير اختياره حتى كأنه لا فعل له فيها.

ولما كان تكثير تلك النطفة وتحويلها أمرًا عظيمًا، أشار إليه بأداة البعد مع إفادتها للتراخي في الزمان أيضًا فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٧﴾. ولما كان تمييز النطفة إلى ذكر وأنثى [أعظم وأدل على القدرة] قال: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ أي: القرينين اللذين لا يمكن الانتفاع بأحدهما إلا بالآخر ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٨﴾ وهما كما تعلمون متباينان في الطباع مختلفان في أوصاف الأعضاء والآلات والمتاع.

ولما دل على القدرة على البداية بالدليل الشهودي، رتب عليها قوله: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٣٩﴾ فيقيم القيامة، فقد رجع آخر السورة على أولها أتم رجوع [بإقامة البرهان في الآخِر على القدرة على الأول]، والله الهادي إلى الصواب.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها ترهيب الإنسان بما دل عليه آخر القيامة من العرض، وأدل ما فيها على ذلك «الإنسان» بتأمل آيته ومبدئه وغايته، وكذا تسميتها بـ«هل أتى» و«الدهر» و«الأمشاج»(٧٠).

ولما تقدم في آخر القيامة التهديد على التكذيب، والإنكار على من ظن أنه يترك سدى، تلاه أول هذه بالاستفهام الإنكاري على ما يؤكد أنه لا يترك سدى فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: هذا النوع الذي شغله عما يراد به وله: الأنس بنفسه والنسيان لبعثه ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ حتى يُتهاون به فيجوز أن يكون سدى! بل ما أتى عليه شيء من ذلك بعد خلقه إلا وهو مذكور، فهو استفهام إنكاري وليست «هل» بمعنى «قد»، وهذا أدل دليل على بعثه للجزاء، ويدل على ذلك من أقوال السلف أن ابن مسعود لما قرئت عليه قال: "يا ليت ذلك لم يكن".

وقال ابن الزبير: "قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ الآية، تعريف بابتدائه ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة، وأن لا يغلّطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية فيعتقد استحقاقه، وقدم تعريفه بحاله التي لو فكر فيها لما كان منه ما وصف، وذلك قوله: ﴿ألم يك نطفة﴾ [القيامة: ٣٧] الآيتين، أتبع ذلك بما هو أشد توبيخًا وتعريفًا وهو أنه قد كان لا شيء، فمن اعتبر اتصافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار الواضح فناؤها وأمدّه الله بتوفيقه عرف حرمان من وصف في قوله: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [القيامة: ٣٢]".

ولما ذكر مطلق خلقه، ذكر كيفيته معلمًا بالحال التي هي محط الفائدة أنه ما خلق إلا للآخرة فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ولما كان خلقه على أمزجة مختلفة أعظم لأجره إن جاهد ما يتنازعه من المختلفات بأمر ربه الذي لا يختلف، وكانت أفعاله تابعة لأخلاقه وأخلاقه تابعة لجبلته قال: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط؛ لأنه من مني الرجل والمرأة،

(٧٠) أو يقال: لما قسم الإنسان في هذه إلى شاكر وكفور، وتقدم في القيامة حال الكفور وحبه للعاجلة، ذكر في هذه حال الشكور الذي لا يحبها فلم يستعجل أجره ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وكل منهما مختلف الأوصاف، «ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان الشبه له»، كما يشبه ما غلب عليه من باطن الأمشاج من الطيب والخبث.

فإذا اشتد الامتزاج استعد لتقسيم الصور والأعضاء، فسبحان من خلق ذلك من نطفة مهينة، كوّن منها العظام مع قوتها وجعلها عماد البدن وخالف بينها؛ لأن الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، وخلق آلات التحريك للعظام وهي العضلات على قدر لو تغير قليلًا لاختلت مصالح البدن، وكذا الأعصاب والأوردة.

ثم خلق الرأس مجمعًا للحواس، ورفع الأنف فيه وأودعه حاسة الشم للاستدلال بالروائح ولاستنشاق الطيب منها لتروّح القلبَ، وأودع الفم اللسان وجعله -وهو لحمة واحدة- معربًا عما في النفس، وزينه بأسنان مختلفة ليكون منها النقب والقطع والطحن، وبيّضها ورتبها كالدر المنظوم، وهيأ الحنجرة للصوت وخالف أشكالها فاختلفت الأصوات؛ ليميز السامع المصوِّتين وإن لم يرهم، وسخر كل عضو من أعضاء الباطن لشيء مخصوص.

ومبدأ ذلك كله نطفة في داخل رحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء لرأيت التصوير يظهر شيئًا فشيئًا ولا ترى المصوِّر، فسبحانه ما أعظم شانه وأبهر برهانه، فيالله العجب ممن يرى نقشًا حسنًا على جدار فيتعجب من حذق صانعه ويستعظمه، ثم ينظر إلى هذه العجائب فيغفل عن صانعه فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته!

ولما كان مركبًا من أمشاج الروح والبدن وهما يتعالجان، بين الغاية فقال: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ ثم أتبعها الإعدادات لها فقال: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾ ليبصر الآيات ويسمعها، وقدم السمع لأنه أنفع في المخاطبات، ولأن الآيات المسموعة أبين، ولعله خصهما لأنهما أنفع الحواس، ولأن البصر يُفهِم البصيرة وهي تشمل الجميع، وخص لكل من الحواس الخمس الظاهرةِ موضعًا وبث اللمس في سائر البدن؛ ليدفع به عن جميع الأعضاء، وثَم قوة لإدراك المعاني، اقتضت الحكمة الربانية تأخيرها على ما يدرك الصور.

قوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ﴾ لأجل الابتلاء ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل ونصب الدلائل وجعلنا له بصيرة يميز بها الحق والباطل، ولما كان الإنسان عند البيان قسمان، قال معبرًا باسم الفاعل؛ لأنه لا يقدر أحد أن يشكر جميع النعم فلا يسمى شكورًا إلا بتفضل من الله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ ولما كان الإنسان لا ينفك غالبًا عن كفرٍ مّا أتى بصيغة المبالغة،

ومعرّفًا له أنه لا يأخذه إلا بالتوغل فيه ليخجل من حلمه فيُقبِل على من يرضى منه بقليل الشكر، ويحتمل أن يفهم ذلك: أن من كفر نعمة واحدة فقد كفر الجميع فصار بليغ الكفر فقال: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

ولما قسمهم ذكر جزاء كلٍّ، فقال مبشرًا للشاكر ومنذرًا للكافر، مقدمًا له لأن طريق النشر المشوش أفصح، وليعادل البداءة بالشاكر في أصل التقسيم؛ ليتعادل الخوف والرجاء، وليكون الشاكر أولًا وآخرًا: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

ولما أوجز في جزاء الكافر أتبعه الشاكر وأطنب فيه تأكيدًا للترغيب، فإن النفوس بعد كسر الوعيد تهتز لأدنى وعد فكيف بأتمه، مبينًا بوصف الخمر بذلك: تمام رغدهم؛ لأنه يلزم من شربها جميع مقدماتها فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ بخصوصهم من عموم الشاكرين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ لبرده وعذوبته وطيب عَرفه، وذِكر الكون يدل على أن مزجه كأنه من نفس الجبلة. ثم قال مبدلًا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: بمزاجها، كما يقال: شربت الماء بالعسل ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أيَّ شراب أرادوه، ولما كان المزاج يتكلف لنقله قال: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ حيث أرادوا من مكان وإن علا.

ولما ذكر جزاءهم على برهم المبين لشكرهم أتبعه تفصيله، فقال مستأنفًا بيانًا لأن شكرهم بالتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله وعمارة الظاهر والباطن: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ وهذا كناية عن وفائهم بجميع أنحاء العبادة؛ لأن من وفى بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه الله من غير واسطة أوفى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ والخوف أدل دليل على عمارة الباطن، قالوا: وما فارق الخوف قلبًا إلا خرب، «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»، فالخوف لاجتناب الشر والوفاء لاجتلاب الخير.

ولما ذكر تدرّعهم منه بالواجب، أتبعه المندوب دلالة على أنهم لا ركون لهم إلى الدنيا ولا وثوق بها، فقد جمعوا إلى كرم الطبع بالوفاء ورقة القلب: شرفَ النفس فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: حبًا مستعليًا على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ ليفهم أنهم للفضل أشد بذلًا ولهذا قال ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم -أي: الصحابة-

ولا نصيفه» لقلة الموجود إذ ذاك وكثرته بعده ﴿مِسۡكِينٗا﴾ أي: محتاجًا احتياجًا يسيرًا، فصاحب الاحتياج الكثير أولى ﴿وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾.

ويقولون بلسان الحال أو القال إن لزم؛ لدفع توهم المن أو توقع المكافأة، مؤكدين إشارة إلى عزة الإخلاص وبُعده: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ ولما أثبتوا الإخلاص، حققوه بنفي ما يضر فيه وفسروه بما لا يكون إلا به فقالوا: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ وكأنه عبر بالمصدر المزيد إيماءً إلى أن المنفي ما يتكلف له، وأما مثل المحبة والدعاء فلا، ولو أرادوا شيئًا من ذلك لما كان لله.

ولما كانت الأنفس مجبولة على حب الجزاء والثناء، فكان مستبعدًا أن أحدًا يفعل ما لا يقصد به ذلك، عللوا قولهم مؤكدين بقولهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ أي: ضيقًا، قاله ابن عباس، فهو موجب للعبوس فيه، أو: لعبوس أهله كـ«ليله قائم» ﴿قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾ أي: طويلًا، قاله ابن عباس.

ولما كان فعلهم هذا خالصًا لله، سبب عنه جزاءهم فقال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ وأشار إلى نعيم الظاهر بقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ﴾ وإلى نعيم الباطن بقوله: ﴿وَسُرُورٗا ١١﴾ في مقابلة خوفهم في الدنيا وعبوس الكفار في الآخرة، وهذا يدل على أن وصفَ اليوم بالعبوس مبالغةٌ لعبوس أهله. ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ لأن كل ما أرادوه حضر إليهم من غير حاجة إلى حركة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ أفاد أن الجنة ظليلة ومعتدلة دائمًا. ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ فلا يرد اليد عنها بُعد ولا شوك، يتناولونها حيثما كانوا، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله.

ولما كان الدوران بالآنية متجددًا عبر فيه بالمضارع فقال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ﴾ ولما كان مقصود السورة ترهيب الإنسان الموبَّخ في القيامة، وكان أدنى أسنان المخاطبين، اقتصر على الفضة دون الذهب المذكور في فاطر والحج المعبر فيهما بالناس، فلعل هذا لصنف وذاك لأعلى مع إمكان الجمع والمعاقبة، وأما من هو أعلى من هذين فلهم من الجواهر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقال: ﴿مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ١٥﴾ وهو الرقيق الصافي من كل إناء، أو الزجاج خاصة.

ولما كان الزجاج سريع الانكسار لإفراط الصلابة، قال تأكيدًا للاتصاف بالصالح من أوصافه: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ فجمعت صفاء الزجاج وشفوفه، وبياض الفضة ولينها، ولما كان الإنسان لا يحب أن يزيد مأكوله أو مشروبه عن حاجته أو ينقص قال: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا ١٦﴾ أي: على مقادير الاحتياج. ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾ في غاية اللذة، وكانت العرب تستلذ الشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم.

ولما كان الزنجبيل عندنا شجرًا يحتاج إلى علاج أبان أنه هناك عين لا يحتاج إلى ذلك فقال: ﴿عَيۡنًا فِيهَا﴾ أي: الجنة، ولما كان يلذع الحلق فتصعب إساغته قال: ﴿تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلًا ١٨﴾ وهو سلِس الشراب، قالوا: شراب الجنة في برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع. ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾ لكثرتهم وانتشارهم في الخدمة وحسنهم، قالوا: هم غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين. ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٌ﴾ قرئ بالرفع صفة لثياب، وبالجر صفة لسندس ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾ قرئ بالرفع نسقًا على ثياب، وبالجر على سندس.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ وهي تجمع إلى لذة الزينة: لذةَ اتساع الملك فإنها كناية عنه، كما قال الملوي: "كان الملك إذا ملَك أقاليم عظيمة لبس سوارًا وسُمي الملكَ المسوَّر؛ لاتساع مملكته"، وهي بالغة من الأعضاء ما يبلغ الوضوء كما قال النبي ﷺ: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» فلذا كان أبو هريرة يشرع في المنكبين والساقين، ولما كان ربما ظن أن المزج لنقص في الممزوج كما في الدنيا، قال بانيًا للفاعل بيانًا لفضل ما يُسقَونه في نفسه وفي كونه من عند الله المتصف بغاية الإحسان: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾.

ويقول لهم تعالى مؤكدًا تسكينًا لقلوبهم لئلا يظنوا انقطاع ما هم فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ على أعمالكم التي جاهدتم فيها أنفسكم عن هواها إلى ما يرضي ربكم، فكنتم كلما عملتم عملًا كوّنتُ من هذا ما هو جزاء له ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾ أي: لا يضيّع شيئًا منه ويجازي بأضعافه.

ولما ذكر أنه بين للناس السبيل فانقسموا [ذكر أشرف ما بينه به]، ولما ختم بالشراب المحيي للأراضي، أتبعه منبع العلم المحيي للقلوب، فقال مؤكدًا؛ لتطمئن الأنفس بما حث عليه من الصبر: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الجامع للهدى، الحافظ من الزيغ، الشافي لكل

داء ﴿تَنزِيلًا ٢٣﴾ أي: على التدريج رفقًا بالعباد، فلا عجب -أن كان بتنزيلنا- في كونه هدًى للخلق كلهم؛ لما لنا من إحاطة العلم والقدرة، وهي ناظرة إلى قوله في القيامة: ﴿لا تحرك به لسانك﴾ [الآية: ١٦].

ولما تقرر أن من الناس من ترك الهدى، سبب عنه قوله منبهًا على أمراض القلوب ومرشدًا إلى دوائها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ولما كان هذا مفهمًا وجودَ المخالفين، وكانوا يدعونه إلى مطلق الإثم وتارة إلى الكفر قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي: داعيًا إلى إثم سواء مع الكفر أو لا ﴿أَوْ كَفُورًا ٢٤﴾ وإن كان كبيرًا في الدنيا فإن الحق أكبر، وذلك أنهم كانوا مع شدة الأذى له ﷺ يبذلون له الرغائب ليتبعهم ويكف عما هو عليه، وأفهم ترتيب النهي على الوصفين أنه إذا دعوه إلى ما لا إثم فيه ولا كفر جاز له قبوله.

ولما نهى عن طاعتهما القاطعة عن الله، أمر بملازمة الموصل إليه وهو الذكر الذي هو دواء الأدواء، ولما كان التصورُ بحسب الاسم أولَ الرتب طبعًا بدأ به وضعًا، لأن النفس تحب السفول فاحتاجت إلى مشوّق لها إلى الأعلى فوضعت لها العبادات، وأجلُّها المشفوعة بالفكر لأنه الموصل إلى المقصود فقال: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾ إشارة إلى الدوام، أو أنه أمر بالصلاة لأنها أعظم الذكر، فيكون أمرًا بالصبح والعصر وهما أفضلها، أو هما مع الظهر؛ لأن الأصيل مطلق العشي.

وأما المغرب والعشاء ونافلة الليل ففي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُۥ﴾ وعبّر بالسجود لأنه أفضل الصلاة، فهو إشارة إلى أن الليل موضع الخضوع، وقدّم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والفضيلة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦﴾ ولعله سماه تسبيحًا لأنه لا يترك الراحةَ إلا من كان الله عنده في غاية النزاهة، وكان له في غاية المحبة.

ولما أنهى أمره بلازم النهي، علل النهي بقوله: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلَآءِ﴾ الذين يغفلون عن الله من الكفرة وغيرهم ﴿يُحِبُّونَ﴾ محبة تتجدد عندهم زيادتها ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ لما حُفَّت به من الشهوات لجمودهم على المحسوسات التي الإقبال عليها منشأ البلادةِ وأمراضِ القلوب، ومن تعاطى أسباب المرض مرض وسمي كفورًا، ومن تعاطى ضدها شفي وسمي شاكرًا، ويكرهون الآخرة الآجلة ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون على حالة هي أقبح ما يسوؤهم إذا رأوه ﴿وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ٢٧﴾ أي: شديدًا جدًا لا يطيقون حمل مصائبه.

ولما كان تركُهم له تكذيبًا أقبح الترك، وكان ذلك لاعتقادهم العجز عنه، قال دالًا على الإعادة بالابتداء: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: أتقنا ربط مفاصلهم بعد كونهم نطفة أمشاجًا ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ بعد الموت في الخلقة، أو: جئنا ببدل منهم. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: الفعلة البدائية أو المواعظ التي ذكرناها ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ لمن ألقى سمعه وأحضر قلبه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ لأنا بينا الأمور وأزلنا الموانع.

ولما أثبت لهم المشيئة التي هي مناط التكليف، نفى عنهم الاستقلال تذكيرًا بأن الأمر كلَّه لله فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيوجد المعاني في أنفسكم كما يريد، فصح أن للعبد مشيئة لا تؤثر إلا بمشيئةِ الله وإقداره، ومثّل الملوي ذلك بمن يريد قطع بطيخة فوضع سكينًا عليها، فهي لا تقطع دون أن يتحامل عليها، ولو وضع ما لم يصلح للقطع كحطبة لم تقطع ولو تحامل، فالعبد كالسكين بما أعطاه من القدرة، فمن قال: أنا أستقل بفعلي، فهو كمن قال: السكين تقطع بمجرد وضعها، ومن نفى فعل العبد كان كمن قال: هو يقطع البطيخة بالحطبة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ فمن علم في جبلته خيرًا أعانه عليه، وهو معنى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ ولما بشر أهل العدل بالمضارع المؤذن بالاستمرار، عطف عليه ما لأضدادهم معبرًا بالماضي إعلامًا بأن عذابهم قد فرغ منه فقال: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: العريقين في المشي على غير سنن مرضي ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

فقد رجع هذا الآخر المفصل إلى السعادة والشقاوة، على أولها المؤذن بأن الإنسان معتنى به غاية الاعتناء وأنه ما خلق إلا للابتلاء، فهو إما كافر مغضوب عليه، وإما شاكر مرضي عنه، والله الهادي.

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الدلالة على آخر الإنسان من إثابة الشاكرين وتعذيب الكافرين، واسمها «المرسلات» و«العُرف» واضح الدلالة على ذلك لمن تدبر الأقسام(٧١).

لما ختم الإنسان بالوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه وكان الكفار يكذبون به، أقسم في هذه عليه فقال: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ من الرياح والملائكة ﴿عُرۡفٗا ۝١﴾ أي: لإلقاء المعروف من الوحي والبركة والأقوات وغيرها، أو: حال تتابعها في أثر بعض. ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ من الرياح عقب هبوبها، والملائكة عقب شقها للهواء ﴿عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ للسحاب والأجنحة وللشرائع التي تنشر العدل ﴿نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾ للسحاب حتى يخرج الودق من خلاله، وللأجنحة، وبين الحق والباطل، والحب والنوى، وغير ذلك ﴿فَرۡقٗا ۝٤﴾.

ولما كان السحاب عقب الفرق ينزل منه ما فيه من ماء أو برد أو صواعق أو غير ذلك مما يبعث على ذكر الله، والملائكة تلقي ما معها من الروح المحيي للقلوب، قال معبرًا بفاء التعقيب والتسبيب: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾ أطلق عليه الذكر لأنه سببه إن كان محمول السحاب أو الملائكة، وقد يكون محمول الملائكة ذكر الله حقيقة، وهما سبب لإصلاح الدين والدنيا. ولما ذكر هذه الأقسام عللها بقوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ فإن الكل سبب لذكر الله، وهو سبب لاعتذار ناس بالتوبة وعذاب آخرين.

ولما اشتملت هذه الأقسام على أمور عظام [أنتجت ولا بد قوله]: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة، وقيام الساعة، والبشائر لأهل الطاعة ﴿لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾.

وقال ابن الزبير: " أقسم تعالى بما ذكر من مخلوقاته على صدق ما وعد به وأوعد في سورة الإنسان من قوله: ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل﴾ [الآية: ٤] إلى آخر السورة، ولو لم يتقدم

---

(٧١) ذكر في القيامة أول ما يستقبل الكافر من العذاب عند الانتقال إلى الآخرة، وذكر هنا تفصيل عذابه بعد الاستقرار فيها، وافتُتحت بأقسام تدل على تدبير عظيم يستحيل معه السدى، وفصَلت الإنسان بذكر النعيم لأضدادهم فكان فيه موازنةً بين الخوفَ والرجاء، والله أعلم.

إلا الوعد والوعيد المختتم به السورة لطابقه افتتاح الأخرى قسمًا، فكيف وسورة الإنسان مواعد أخراوية وإخبارات جزائية؟ فأقسم سبحانه على صحة الوقوع".

ولما كانوا يقولون استهزاء: متى هو؟ عدل عن بيان وقته إلى ذكر ما لا تحتمله العقول فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠﴾. ولما ذكر تغيير السماء والأرض ذكر ما فعل ذلك لأجله فقال: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾ أي: بلّغها ميقاتها الذي تنتظره، وهو وقت قطع الأسباب وثواب الأحباب وعقاب الأعداء، وحذف العامل في «إذا» تهويلًا له لتذهب النفس فيه كل مذهب. ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣﴾ أي: الذي إذا أطلق ذلك لم ينصرف إلا إليه؛ لعموم الفصل فيه.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: إذ يكون يوم الفصل ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ وكرر هذه الجملة عشرًا؛ لأن من كذبك في أشياء كان من البلاغة أن تقول بعد تقرير كل واحدة عند قيام الدليل: ويل لك، تأكيدًا لقولك وتحقيقًا لوقوع معناه، دلالة على أن الغيظ قد بلغ منتهاه وانقطاعِ العذر، وذلك في كلام العرب شائع.

ولما أقسم على وقوع الوعد والوعيد بما دل على قدرته، أتبعه دلالة أجلى فقال: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ﴾ ولما كان ﴿نتبعهم﴾ مرفوعًا علمنا أنه ليس معطوفًا على ﴿نهلك﴾ ليكون تقريرًا، بل هو إخبار للتهديد تقديره: نحن إن شئنا ﴿نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧﴾ أي: الذين في زمانك من كفار العرب وغيرهم. ثم قال منبهًا على الوصف الموجب للإهلاك: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾. ثم أتبعه الدلالة بابتداء الخلق، وهو أدل فقال: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢٢﴾ وعظمه بقوله: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾.

ولما دل بابتداء الخلق على تمام قدرته، أتبعه الدلالة بانتهاء أمره وأثنائه وما دبر فيهما من المصالح فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾ أي: وعاء تضم ما فيها. ولما حذف المفعول وهو: لكم، أبدى حالة دالة عليه فقال: ﴿أَحۡيَآءٗ﴾ على ظهرها في الدور وغيرها ﴿وَأَمۡوَٰتٗا ۝٢٦﴾ في بطنها في القبور وغيرها كما كنتم قبل خلق آدم.

ولما ذكر ما تغيبه أتبعه ما تبرزه، إعلامًا بأنه لو كان الفعل للطبيعة ما كان الأمر هكذا: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ لولاها لمادت بأهلها ﴿شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ۝٢٧﴾ أي:

عذبًا سائغًا، وقد كان حقيقًا بأن يكون ملحًا أجاجًا؛ لما للأراضي الممسكة له من ذلك. ولما كان في هذا دلالة ظاهرة على قدرته قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

ولما ظهرت أدلة الساعة غاية الظهور فلم يؤمن المخاطَب، دل على الغضب بقوله معلمًا بما يقال لهم يوم القيامة إذ يحل الويل: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ والقراءة بالماضي تدل على تمام انقيادهم وأنه لا منعة لهم ﴿إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ من دخان جهنم ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾﴾ وتخصيص الثلاث؛ لأن التكذيب بالله وكتبه ورسله، وقيل: ثلاث فرق: نار تقف على الكافرين، ونور على المؤمنين، ودخان على المنافقين، إلى الفراغ من الحساب، وقال الرازي: "الشعب: لهب وشرر ودخان".

ولما كان المتبادر أن الظل يستروح إليه فظنوا ذلك، أزاله متهكمًا بهم فقال: ﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٖ﴾ هي صواعق تلك الدار ﴿كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ ومن عظمة شرارها تعرف عظمة جمرها. ولما شبه عظمه شبه لونه فقال: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ﴾ جمع جِمالة جمع جمل؛ ليدل مع كبره على كثرته واختلاطه وسرعته، ومن قرأ بالضم فهو جمع جُمالة وهي حبل السفينة الغليظ، شبهه به في امتداده والتفافه، ولا تنافي فإن الشرر كذا وكذا ﴿صُفْرٞ ﴿٣٣﴾﴾ جمع أصفر، وقيل: سواد يضرب إلى صفرة كما هي ألوان الجمال.

ولما كان هذا هائلًا كانت ترجمته: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ من شدة الحيرة والدهشة في بعض المواقف وينطقون في بعضها فإنه يوم طويل ذو ألوان كما قاله ابن عباس، أو: لا ينطقون بما ينفعهم لأنهم كانوا في الدنيا كذلك، ورفع قوله: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ عطفًا على ﴿يؤذن﴾ فدل ذلك على نفي الإذنِ والاعتذارِ عقبه، ولو نصبه لدل على أن عدمَ اعتذارهم لعدم الإذن فينقض المعنى. ولما كان هذا فظيعًا ترجمه بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾. ولما ذكر حيرتهم ودهشتهم قال: ﴿هَٰذَا﴾ أي: ذلك اليوم كله ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين ما اختلف فيه العباد ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ الذين تقدم أنا أهلكناهم. ونبه على عجزهم بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ولما كان الواقع بعد الفصل قرار كلٍّ في داره، وبدأ بالمكذبين لأن التحذير في السورة أعظم، ثنى بأضدادهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ﴾ هي الظلال لا كما تقدم ﴿وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾﴾ وكما

دل على أن ذلك الظل للتهكم بما ذكر بعده، فهذه العيون تُبرِد وتُنبِت الأشجار المظلة. ولذا ذكر ما ينشأ عنها، فقال دالًا على أن عيشهم كله لذة: ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ ولما كان في فواكه الدنيا الدون، قال دالًا على أنه ليس هناك دون: ﴿مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢﴾.

ثم قال منبهًا على أنه أريد بالفاكهة جميع المآكل، وإنما عبر بها إعلامًا بأن كل أكلٍ فيها تفكهٌ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ وزاد في نعيمهم بأن جعل ذلك عوضًا فقال: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة المبنية على العلم الذي أفاد التصديق بالجنة فأوجب دخولها، كما أوجب تكذيبُ المجرمين بها طردَهم عنها، وتكذيبُهم بالنار دخولَهم إياها جزاء وفاقًا. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٤٤﴾ لسنا كملوك الدنيا يعوقهم عن الإحسان إلى بعض المحسنين عندهم بعضُ أهل مملكتهم؛ لما لهم من الأهوية ولملوكهم من الضعف. ولما كان هذا النعيم عذابًا عظيمًا على من لا يناله قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: إذ يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾.

ولما ذكر نعيم أهل الجنة وكان المكذبون في الدنيا في استدراج وغرور، وكان الشقاء متى وقع بعد نعيم نسخه، قال محزنًا لهم بضد ما يقال للمتقين: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ ولا يؤْثر القليلَ الفاني على النفيس الباقي إلا خسيس الهمة، ولما أحلهم هذا المحل الخبيث علله بقوله مؤكدًا؛ لأنهم ينكرون وصفهم بذلك: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ﴾ أي: صلوا، وخص الركوع لأنه يقال على الخضوع والطاعة، ولأنه خاص بصلاة المسلمين، ولأن بعض العرب نفر عن الدين من أجله ﴿لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨﴾ أي: لا يخضعون ولا يصلون، وفيه دلالة على أن الأمر للوجوب ليستحق تاركه العذاب، وعلى أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾.

ولما أعلم هذا أن لهم الويل دائمًا، ذكر أن سببه عدم الإيمان بالقرآن وأن من لم يؤمن به لم يؤمن بشيء أبدًا فقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ﴾ أي: القرآن الذي هو شاهد لنفسه بصحة النسبة إلى الله من جهة البلاغة والإخبار بالمغيبات والحمل على المعالي والتنبيه على الحكم وغير ذلك من بحور العلم ﴿يُؤۡمِنُونَ ۝٥٠﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي شهد الله بأنه كلامه؟ ومثل هذا يقال عند مقاربة اليأس من الموعوظ، والعادة قاضية بحلول العذاب إذ ذاك، فهو من أعظم أنواع التهديد، فقد رجع آخرها على أولها في وعيد المكذبين.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على أن يوم القيامة الذي نفوه ثابتٌ ثباتًا لا يحتمل شكًا ولا خلافًا بما يرون من حسن التدبير، والحكيم لا يترك عبيده يأكلون خيره ويعبدون غيره بلا حساب، وكل من اسميها: «النبأ» و«عم يتساءلون» واضح في ذلك بتأمل آيته ومبدأ ذكره وغايته.

لما أخبر في المرسلات بتكذيبهم بيوم الفصل، وختمها بأنهم إن كفروا بهذا القرآن لم يؤمنوا بعده بشيء، افتتح هذه بأن ما خالفوا فيه وكذبوا به لا يقبل النزاع؛ لما ظهر من بيان القرآن، فقال معجبًا منهم ومنكرًا عليهم ومتوعدًا لهم بصيغة الاستفهام، منبهًا على أن ما يختلفون فيه لوضوحه لا يصدق أن عاقلًا يخالف فيه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ ولشدة العجب سمي جدالهم وإنكارهم سؤالًا.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ ووصفه بقوله: ﴿ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ مع أن النبأ لا يقال إلا لخبر عظيم شأنه، ففيه تنبيه على أنه من حقه أن يذعن له كل سامع ويهتم بأمره، لا أن يشك فيه وينازع ﴿ٱلَّذِى هُمْ﴾ أي: بضمائرهم مع ادعائهم أنها أقوم الضمائر ﴿فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ والعظيم لا ينبغي الاختلاف فيه فإن ذا المروءة لا ينبغي له أن يدخل في أمر إلا وهو على بصيرة، فكيف إذا كان عظيمًا؟ فكيف إذا كان أهم ما يهمه؟

قال ابن الزبير: "قوله: ﴿كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون﴾ مناسب للوعيد المتكرر في قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات: ١٩]، ثم أورد من جميل صنعه ما يعلم المعتبر به أنه لم يُخلق عبثًا، فعلم أنه لا بد من وقت يجازى فيه الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والخضوع لمن نصب تلك الدلائل، ويستشعر من تكرار الفصول وتجدد الحالات وإحياء الأرض جري ذلك في البعث، ولذا قال تعالى: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتًا﴾ أي: موعدًا لجزائكم، لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم وقوعه".

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس ما سألوا عنه واختلفوا فيه بموضع اختلاف ﴿سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ عن قريب بوعد لا خلف فيه ويكون لهم حينئذ عين اليقين الذي لا يستطاع دفاعه بعد علم اليقين الذي دافعوه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

ولما حققه دل عليه بما لا يحتمل شكًا، فقال مقررًا لهم ومنكرًا عليهم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ لتدوم أنواعكم إلى وقت انقطاعكم ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ قال الزجاج: "السبات: الانقطاع عن الحركة والروحُ فيه". ولما ذكر النوم أتبعه وقته مذكرًا بنعمة الظرف الزماني بعد المكاني فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾. ولما ذكر ما يمحق الرطوبة بحرارته، أتبعه ما يطفئ الحرارة برطوبته فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي: السحائب المثقلة بالماء فشارفت أن تعصرها الرياح، قال مقاتل: "وكل هذا أعجب من البعث"، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

ثم أنتج قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو النبأ العظيم المنذَر به في المرسلات ﴿كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ أي: حدًا توقت به الدنيا وتنتهي عنده. ثم ذكر ما فيه تعظيمًا له وحثًا على الطاعة فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث وهي الثانية من الأربع ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِّحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ لكثرة الشقوق بحيث صارت كأنها لا حقيقة لها إلا الأبواب ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

ولما بين النبأَ العظيم، ذكر ما إليه المصير فقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ أي: موضع رصد لأعداء الله ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾ أي: مرجعًا ومأوى، فكأنهم كانوا فيها ثم أخرجهم الله منها ثم رجعوا إليها بتكذيبهم. ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ أي: دهورًا لا تنقضي. ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ ساعةً مّا فكيف بما فوق الذوق ﴿فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾. ولما ذكر عذابهم، ذكر حكمته فقال: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ أي: ذا وفاق لأعمالهم.

ثم علل عذابهم مبيّنًا وجه موافقته لجزائهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ ولو رأوا كل آية ﴿حِسَابًا ۝٢٧﴾ فهم لا يعملون بغير الشهوات فوافق هذا خلودهم فيه، وعبر بنفي الرجاء لأنه أبلغ، لأن الإنسان يطمع في الخير بأدنى احتمال. ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ أي: تكذيبًا هو في غاية المبالغة بحيث لو سمعوا أكذب الكذب ما كذبوا به كما كذبوا بها. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩﴾ فلا جائز أن نترك شيئًا بغير جزاء. ويقال إهانة لهم: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ لأن داركم ليس بها غيره.

ولما ذكر جزاء الكافرين أتبعه جزاء المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الراسخين في الخوف المقتضي لاتخاذ الوقاية من سخط الله بما يرضيه ﴿مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا﴾ ولما كانت العادة بأن الشراب الجيد يكون قليلًا قال: ﴿دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: ممتلئة. ولما كانت مجالس الخمر في الدنيا ممتلئة بما ينغصها من اللغو إلا عند من لا مروءة له فلا ينغصه القبيح، قال نافيًا ما يكدر لذة السمع: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: لغطًا يستحق أن يلغى لأنه لا معنى له، أو له ولكنه لا يفيد ﴿وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾. ولما كان العطاء على المعاوضة أطيب للنفس قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾ وهو بذل من غير جزاء ﴿حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: على قدر الكفاية لا يحتاج معه أبدًا.

ولما ذكر سبحانه سعة فضله، وصف نفسه الأقدس بما يدل على عظمته فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ودل على الجبروت بعد الرحمة بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾. ثم قال ذاكرًا ظرف ﴿لا يتكلمون﴾: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ونبه على شدة الأمر بقوله: ﴿صَفًّا﴾ وهذا كالدليل على آية الخطاب بأنه إذا كان القريب بهذه المثابة في حالٍ كلُّ من حضره كان أحوج ما يكون إلى الكلام، فما الظن بغيرهم؟ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ باستعمال قواه التي أعطاه الله إياها في الأعمال الصالحة ﴿مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

ولما قدم في هذه السورة من شرح النبأ العظيم ما قدم، لخصه في قوله مؤكدًا؛ لما لهم من التكذيب: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهوّله بقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو في هذا اليوم فلم أعذب، فعُلم أنه ذلك اليوم في غاية العظمة وأنه لا بد منه.

فعلم أن التساؤل عنه للتعجب من أعظم الجهل، فرجع آخرها على أولها واتصل بما بعدها أي اتصال، فإن المشرف بالنزع على الموت يرى كثيرًا من الأهوال التي يتمنى لأجلها أنه لم يكن له بالدنيا وصال.

سورة النازعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها بيان أواخر أمر الإنسان بالإقسام على البعث بعد البيان التام، تنبيهًا على أن الأمر وصل إلى غاية الظهور، واسمها «النازعات» واضح في ذلك.

لما ذكر يوم يقوم الروح ويتمنى الكافر العدم، أقسم أول هذه بنزع الأرواح على ما يتبعه من البعث فقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ من الملائكة للأرواح، ولأنفسها من مراكزها امتثالًا ﴿غَرۡقٗا ١﴾ أي: إغراقًا بقوة تغلغلًا إلى أقصى المراد من كل شيء من البدن، وهو للكفار والعصاة، كما ينزع السَّفُّود -وهو الحديدة المتشعبة المتعاكسة الشعب- من الصوف المبلول. ولما بدأ بالشد لأنه أهول أتبعه الرفق فقال: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ أي: المخرجات برفق للأرواح أو لأجنحتها ﴿نَشۡطٗا ٢﴾ كما ينشط الشيء من العقال، وهذا لأهل الطاعة.

ولما ذكر السَل ذكر فعلها فيه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ من الملائكة إلى ما أمرهم الله به ﴿سَبۡحٗا ٣﴾ هو في غاية السرعة لأن الله أقدرها على النفوذ في كل شيء، ولذا نسق عليه بالفاء قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ بعد السبح إلى ما أمروا به من غمس الأرواح في النعيم أو الجحيم، أو غيره مما أمروا به ﴿سَبۡقٗا ٤﴾. ولما بان بذلك حسن امتثالها بان به عظيم نظرها في العواقب، فدل على ذلك بالفاء في قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾ أي: الناظرات في أدبار الأمور وعواقبها لإتقان ما أمروا به ﴿أَمۡرٗا ٥﴾ وتقدير الجواب: لتقومن الساعة، فإن كل ما تقدم من أعمال ملائكتنا هو من مقدماتها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله: ﴿يا ليتني كنت ترابًا﴾ [النبأ: ٤٠]، أتبع ذلك ما قد كان حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في أخراه، وذكر قرب ذلك عليه سبحانه فقال: ﴿والنازعات غرقًا﴾ إلى ﴿أئذا كنا عظامًا نخرة﴾ إذ يستبعدون ذلك ﴿فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة﴾ أي: الأرض، ينظرون ما قدمت أيديهم ويتمنون أن لو كانوا ترابًا، ثم ذكر من قصة فرعون ما يناسب قصد الاعتبار، ولهذا أتبعها بقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾".

ولما أقسم على القيام بتلك الأفعال العظام، هوّل أمره بقوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ وهي النفخة الأولى التي تنزع من شدة إرجافها جميع النفوس. ثم أتبعها الثانية حالًا منها دلالة على قربها فقال: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ التي يقوم بها الأموات وتضطرب الأرض والسماء ونحوه من الأهوال، قال حمزة الكرماني: "عن أبي هريرة: أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر عليهم من تحت العرش ماء الحياة فينبتون منه كالزرع، ثم ينفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم نومة، فبينما هم في قبورهم نفخ في الصور ثانية فجلسوا وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم".

ولما ذكر البعث، ذكر حال المكذب به لأن السياق له فقال: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي: شديدة الاضطراب أجوافُها خوفًا، تكاد تخرج من شدة الوجيف. ﴿أَبۡصَٰرُهَا﴾ أي: أبصار أصحابها، فهو استخدام ﴿خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾ أي: ذليلة. ولما وصفها بالاضطراب والذل علله ليعرف منه أن من يقول ضد قولهم يكون له ضد وصفهم من الثبات والعز فقال: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠﴾ أي: حالتنا الأولى قبل الموت، وقيل: الأرض التي هي محل الحوافر. وأشار إلى علة قولهم بقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١﴾.

ولما كان التقدير: نرد! دل عليه بقوله: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا﴾ أي: إذ نرد ولا شيء لنا مما حصّلناه ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢﴾ بما فقدنا مما حصلنا. ولما كان ردهم محققًا، فإن ما تقدم مما تدبره الملائكة أصعب منه، قال مهددًا: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣﴾ عبر بالزجر وهو أشد من النهي لأنه يكون للمعرض، لأنها صيحة لا يتخلف عنها القيام. ﴿فَإِذَا هُم﴾ بسبب هذه النفخة وهي الثانية، قائمون فجأة ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ أي: الأرض البيضاء المستوية التي يجددها الله للجزاء، سميت بذلك لأن سالكها يسهر خوفًا، أو لأنها خاصةً لا نوم فيها مع طول الوقوف وتقلب الصروف.

ولما كانت قصة موسى مع القبط أشبه شيء بالقيامة لِما فيها من التقلب والإبداع وقهر الجبابرة والمن على الضعفاء، حتى نشر بني إسرائيل من القبط، ونزع القبط بحشر فرعون لهم إلى إهلاكهم، فكانت العاقبة بما للمدبرات أمرًا: أن نجى بنو إسرائيل بالبحر كما ينجو يوم البعث المؤمنون بالصراط، وهلك فرعون وآله به كما يتساقط الكافرون بالصراط؛ لأنهم لم يجوّزوا أن يطبِق عليهم البحرَ مَن فرقه لبني إسرائيل، كما أن المكذب بالقيامة رأى بدء الله للخق وإفناءه ثم إنه لم يجز أن يعيده كما بدأه أول مرة = وصل بذلك قوله دليلًا عليه،

ومسليًا له ﷺ ومهددًا للمكذبين أن يعرضوا كفرعون مع رؤية الآيات اغترارًا بالملك والجند: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ أي: الذي طوى فيه الشر عن بني إسرائيل ومن أراد.

وفسر ثمرة المناداة بقوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ الذي استعبدهم وخاف من أحدهم فقتل أبناءهم فربيناه في بيته لهلاكه؛ ليعلم أنه لا مفر من قدرنا، وعلل أمره بذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ﴾ أي: أبين لك بعد التزكية بالإيمان: كيف المسير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾ أي: فتصير إلى أعلى رتب التزكية، فإن الخشية هي الحاملة على الخير، والأمن هو الحامل على الشر.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ﴾ إدبارًا عظيمًا بالزيادة في الطغيان، حال كونه ﴿ يَسۡعَىٰ ۝٢٢﴾ أي: يعمل بغاية الجهد والإسراع في إبطال الأمر الرباني بقلة عقله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾. قال حمزة الكرماني: "قال له موسى: إن ربي أرسلني إليك لئن آمنت تكون أربعمائة سنة في النعيم ثم تدخل الجنة، فاستشار هامان فقال: أتصير عبدًا بعد ما كنت ربًا! فبعث الشرط وجمع السحرة والجنود فقام على سريره ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ يعني: كلكم أرباب وأنا أعلاكم ولا رب فوقي"؛ لأن الإلٰه عنده الطبيعة وهي مقسّمة، فمن كان أعلى كان أقعد في المراد، وهذا دعاه إليه الكبر الناشئ من فتنة السراء التي الصبر فيها أعظم من الضراء.

قال الغزالي في الإحياء: "فالصبر على الطاعة شديد؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ولكن فرعون وجد له مجالًا وقبولًا فأظهره، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع كل من هو تحت طاعته وإن كان ممتنعًا من إظهاره، فإن امتعاضه عند تقصيرهم في خدمته لا يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية"، ويؤيده أن النبي ﷺ ما لام خادمه في شيء قط.

ولما قال هذه الكلمة الشنعاء، عقبها سبحانه بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أخذ تنكيل فيها، وقدمها اهتمامًا بشأنها ولأن عذابها أعظم ﴿وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾. ولما لخص قصصه بهذا؛ لأن المفصل موضع الاختصار؛ لأنه نزل أولًا فكان تقريب القصص أولى ليستأنسوا

به، وليذكرهم هذا الترتيبُ بما مضى من ذلك مبسوطًا، وختمه بأخذه هذا الأخذ الغريب = أرشد إلى ما فيها من العبرة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي: أمرًا يعبر به من معنى إلى معنى حتى يوصَل به إلى كثير من المعارف ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦﴾ لأن الخشية أساس الخير، وأول العبور أن ينقل السامع حال غيره إلى نفسه.

ولما كان أعظم عبرتها: القدرة التامة لا سيما على البعث، والعقوبة على التكذيب به، وكانوا يستبعدونه لاستبعاد القدرة عليه، أتبعه ما هو كالنتيجة منه فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ولما كان الجواب معلومًا وصل به قوله دليلًا على قدرته على البعث لقدرته على ما هو أشد منه: ﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾. ولما أخبر بإيجاد ما هو أشد من الآدمي، أتبعه ما يتصور به البعث في كل يوم وليلة فقال: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾.

ثم ثنى العالم العلوي بالسفلي فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ۝٣٠﴾ ولما ذكر الدحو أتبعه ما استلزمه من المنافع لتوقف السكنى المقصودة بالدحو عليه فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾.

ولما دل على البعث، سبب عنه قوله دلالة على أن الوجود ما خلق إلا لأجله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾ وهي البعث، والعامل في «إذا» محذوف تقديره: فصل الناس إلى شقي وسعيد. ولما كان الشيء لا يعرف قدره إذا كان غائبًا إلا بما يكون فيه قال: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ وهو منبه على ما في ذلك اليوم من الخطر؛ لأنه لا يجهتد في تذكره إلا لمحوج إليه. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ كائنًا من كان؛ لأنه لا حائل دون رؤيتها.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: تجاوز الحدود. ولما كان الذي بعد حدود الله هو الدنيا قال: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٧﴾ فانهمك في أعمالها وأعرض عن الاستعداد للآخرة فلم ينه نفسه عن الهوى ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٨ وَأَمَّا مَنْ خَافَ﴾.

ولما كان ذكر الخوف مما يتعلق بالشيء لأجل ذلك الشيء، أعظم من ذكره متعلقًا بالشيء نفسه قال: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: قيامه بين يدي المحسن إليه، ثم ذكر ما يتأثر عن الخوف، ولم يسببه عنه؛ ليُفهِم أن كليهما فاضل وإن انفرد فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ أي: التي لها المنافسة ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٣٩﴾ أي: كل ما تهواه، فإن الشرع مبني على ما يخالف الهوى؛ لأنه

الشهوات التي حفت بها النار، قال الرازي: "والهوى هو الشهوة المخالفة للشرع"، فأفاد أنه لم يؤثر الحياة الدنيا ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤٠﴾.

ولما أفهم هذا التقسيم أنه حتم، ذكر استهزاءهم تعجيبًا منهم فقال: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ لكثرة ما تتوعدهم بها ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤١﴾ أي: في أيّ وقت إرساؤها أي: وقوعها واستقرارها. وأنكر السؤال عليهم بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٢ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٣﴾ أي: منتهى علمها وجميع أمرها. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ أي: مخوف مع علمك بما تخوف به العلمَ اليقين ﴿مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٤﴾ فيعمل لها لعلمه بإتيانها، وذلك لا يناسب تعيين وقتها، فإن من يخشى لا يزيده إبهامها إلا خشية، وغيره لا يزيده إلا اجتراء، فما أرسلناك إلا للإنذار بها لا للإعلام بوقتها، فإن النافع الأول دون الثاني.

ولما أثبت أنه منذر، قال محقرًا لهم الدنيا مزهدًا لهم فيها: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ لصحة الإنذار بها ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً﴾ ولما كانوا على غير ثقة من شيء مما يقولونه قال: ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٥﴾ فالمراد ساعة من نهار أوله أو آخره، على أن الكفار أيضًا يستقصرون مدة لبثهم، أو أنهم لما رأوا تلك الأهوال وعلموا ما يستقبلونه، استقصروا مدة لبثهم قبل ذلك؛ لأن من استلذ شيئًا استقصر مدته، وهم استلذوا ذلك وإن كان أمرّ المر في جنب ما يستقبلونه، فقد رجع آخرها بالقيامة على أولها بنزع الأنفس اللوامة.

سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها شرح ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات: ٤٥] بأن المراد الأعظم تزكية القابل للخشية بالتخويف بالقيامة التي قام الدليل عليها، والإشارة إلى أن الاستغناء والترف أمارة الإعراض والتهيؤ للكفر، وأن المصائب أمارة الإقبال على شريف الأعمال، فكل من كان فيها أرسخ كان قلبه أرق فكان أخشى، واسمها «عبس» هو الدال على ذلك بتأمل آياته، فإن الله تعالى عاتب نبيه ﷺ عن التشاغل عن أهل الخشية بالتصدي لمن شأنه أن لا يخشى لافتتانه بزينة الحياة الدنيا.

لما قصره سبحانه على إنذاره من يخشى، وكان قد جاءه عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه وكان من السابقين، وكان النبي ﷺ حين مجيئه مشتغلًا بدعاء ناس من صناديد قريش وقد وجد منهم نوع لين، فشرع عبد الله يسأله وهو لا يعلم ما هو فيه من الشغل أن يعلّمه مما عمله الله، فكره أن يقطع كلامه مع أولئك خوفًا من أن يفوته ما يرجوه من إسلامهم المستتبع لإسلام كثير من أتباعهم، فكان يعرض عنه ويقبل عليهم وتظهر الكراهة في وجهه، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ أي: كلف نفسه الإعراض عنه؛ لأنه خلاف طبعه ﷺ من رحمة المساكين ومحبتهم.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ وذكره بالوصف إشعارًا بعذره في الإقدام على قطع الكلام، وبعثًا على الرحمة له، فكان النبي ﷺ إذا رآه بعد ذلك قال: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي»، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ ولو على أدنى الوجوه بما يشير إليه إدغام تاء الافتعال، وكذا قوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾ فإن الخير لا يحقر شيء منه. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥﴾ أي: طلب الغنى وهو المال. ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تتعرض بالإقبال عليه والاجتهاد في وعظه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ [النازعات: ٢٦] وقال: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات: ٤٥] افتتحت هذه بمثال يكشف عن حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم، وأنهم وإن كانوا في دنياهم لا يؤبه لهم، فهم عنده سبحانه فيمن اختاره لعبادته وأعلى منزلته، وقد تقدم في السورة قبل

قول موسى عليه السلام: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ [النازعات: ١٨] فلم يقدّر له بذلك ولا انتفع ببعد صيته في دنياه ولا أغنى عنه ما نال منها.

ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره عدم الصيت الدنياوي ولا أخل به عماه، بخلاف من قدم ذكره ممن لم يتزك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها، ومن نمط ما نزل في ابن أم مكتوم قوله: ﴿واصبر نفسك مع الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ [الكهف: ٢٨] فتبارك ربنا ما أعظم لطفه بعبيده".

ولما كان فعله ذلك فعل من يخشى أن يكون عليه في بقائهم على كفرهم ملامة، بين له أنه سالم من ذلك فقال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وفيه إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد في تزكية التابع الذي عرف منه القبول. ولما ذكر المستغني ذكر مقابله فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي: تتشاغل لأجل أولئك الأشراف، وفي التعبير بذلك إشارة إلى أن الاشتغال بأولئك لا فائدة فيه على ما تفهمه تصاريف المادة، وإلى أن من يقصدك ويتخطى الرقاب إليك له عليك حق عظيم.

والآية من الاحتباك: ذكر الغنى أولًا يدل على الفقر ثانيًا، وذكر المجيء والخشية ثانيًا يدل على ضدهما أولًا، وسر ذلك التحذير مما يدعو إليه الطبع البشري من الميل إلى الأغنياء، ومن الاستهانة بحق الآتي؛ إعظامًا لمطلق إتيانه.

﴿كَلَّآ﴾ أي: لا تفعل ذلك فإن القضاء والقدر ليس على ما يظن العباد ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ لعله أنث الضمير باعتبار ما تُلي عليهم في ذلك المجلس من الآيات. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ أي: القرآن كله من غير معالجة تحوج إلى الإعراض عن بعض المقبلين، وللإشارة إلى حفظه كله ذكّر الضمير. ثم قال واصفًا للتذكرة مبينًا لشرفها بتشريف ظرفها وظرفه: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾ أي: منزهة عن أيدي أهل السفول وعن قولهم إنها شعر أو سحر ونحو ذلك. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ أي: كتبة من اللوح المحفوظ وهم الملائكة، أو جمع سافر بمعنى السفير الذي هو المصلح؛ لأنهم سفراء بين الله وأنبيائه وبهم يصلح أمر الدين والدنيا ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

ولما نبه على جلالة المكتوب وعظمة آثاره، عقبه بقوله ناعيًا على من لم يقبل بكليته عليه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بأيسر سعي من كل من يصح ذلك منه؛ لأنه أسرع شيء إلى الفساد إلا من

عصم الله ﴿مَا أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ فهو دعاء عليه بأشنع دعاء وتعجيب من إفراطه في ستر محاسنِ القرآن التي لا تخفى على أحد ودلائلِه على القيامة، وهذا الدعاء على وجازته يدل على سخط وذم عظيم، وهو وإن كان في مخصوص فالعبرة بعمومه في كل من كفر نعمة الله.

ولما كان أكثر العجب من تكذيبه بالساعة لظهور أدلتها، شرع في إقامة الدليل عليها في أسلوب مبين لحقارته وأن من شرّفه بعد ذلك جدير منه بالشكر لا بالكفر فقال: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو مخرجه من بطن أمه وطريقه إلى الجنة أو النار ﴿يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾ وفيه إيماء إلى أن الدنيا دار ممر، والمقصد غيرها وهو الأخرى التي تدل عليها الدنيا.

ولذا عقبه بقوله عادًّا الموت نعمة؛ لأنه سبب الحياة الأبدية: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ تكرمة له وصيانة عن السباع، فعرف بهذا أن أول الإنسان نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، فما شرفه بالعلم إلا الذي صوره، وذلك موجب لأن يشكره لا أن يكفره ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا﴾ أي: ليرتدع هذا الإنسان الذي عرف أن هذه حالاته، وليعرف نفسه بالذلة والعجز، وربَّه بالعظمة والقدرة ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾ به الله كله من غير تقصير؛ لأن الإنسان مبني على النقصان والإلٰه منزه التنزه الأكمل ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: ٩١].

ثم شرع يدل على تقصيره بأنه لا يقدر على شكر نعمته في مطعمه الذي به قوامه، فكيف بغيرها؟ في أسلوب دال على الإنشار بآيات الآفاق فقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾.

ولما كان المقصود النظر إلى صنائع الله فيه قال: ﴿إِنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾. ولما ذكر ما إن أخذ من منبته قبل بلوغه فسد وإن ترك اشتد وصلح للادخار، أتبعه ما إن ترك على أصله فسد وإن أخذ وعولج صلح للادخار فقال: ﴿وَعِنَبٗا﴾ ثم أتبعه ما لا يصلح للادخار فقال: ﴿وَقَضۡبٗا ٢٨﴾ وهو الرطب من البقل وغيره ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾.

ثم ذكّر بالنعمة في ذلك فقال: ﴿مَّتَٰعٗا﴾ ولما كان السياق لطعام الإنسان قال مقدمًا ضميرهم: ﴿لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

ولما ثبت بذلك الإحياء للبعث حققه بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ أي: الصرخة العظيمة. ولما كان وصفها بما يقع فيها أهيب قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ ولما كان السياق للفرار، قدم أدناهم في الحب والذب وأخر الأوجب في ذلك، بخلاف ما في «سأل» كما مضى، فقال: ﴿مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ أي: يكفيه في الاهتمام بحيث لا يدع له حصة يمكنه صرفها إلى غيره.

ولما ذكر اليوم قسّم أهله إلى القسمين المقصودين بالتذكرة أول السورة فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذ كان ما تقدم من الفرار وغيره ﴿مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ كابن أم مكتوم الذي كان يحمله خوف الساعة على حمل الراية في أشد الحروب والثبات بها حتى يكون كالعمود، لا يزول عن مركزه أصلًا؛ ليرضي المعبود.

ولما ذكر أهل السعادة المقبلون على الخير، المصابون في أنفسهم بما يكفر سيئاتهم ويعلي درجاتهم، ذكر أضدادهم فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ فهي باكية عابسة مما كانت فيه في الدنيا من الفرح واللعب والأمن من العذاب.

ولما كان هذا الأمر هائلًا، وكان الفاجرُ لِما علا قلبَه من الرين والقسوة: قليلَ الخوف من الأجل، عديم الفكر في غدٍ؛ لما غلب عليه من الشهوتين: السبيعة والبهيمية بخلاف المتقي، قال [مبرزًا للوصف ليُجتنب]: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ أي: الذين ستروا دلائل الإيمان ﴿ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ أي: الذين خرجوا عن دائرة الشرع خروجًا فاحشًا حتى كانوا عريقين في الوصفين، وهم في الأغلب المترفون الذين يحملهم غناهم على التكبر والبطر.

فقد عاد آخرها على أولها فيمن يستحق الإعراض عنه والإقبال عليه، والله الهادي.

سورة التكوير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها التهديد الشديد بيوم الوعيد لمن كذب بالقرآن، واسمها «التكوير» أدل ما فيها على ذلك بتأمل الظرف وجوابه.

لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة، ابتدئت هذه بإتمام ذلك فصور ذلك اليوم بما يكون فيه من الأهوال حتى كأنه رأي عين، كما قال ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾» فقال بادئًا بعالم الشهادة لأنه أقرب تصورًا، معلمًا بأنه سيخرب؛ تزهيدًا في كل ما يجر إليه وحثًا على ترك التعلق بشيء من أسبابه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ أي: لفت.

ولما كان التأثير في الأعظم دالًا على التأثير فيما دونه بطريق الأولى، أتبع ذلك قوله معممًا بعد التخصيص: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾ أي: انقضّت فتهاوت بسرعة أو: أظلمت، قال ابن عباس: "يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحًا دبورًا فتضرمها فتصير نارًا". ولما بدأ بأعلام السماء لأنها أشهر وأعم تخويفًا، أتبعها أعلام الأرض فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ لتستوي الأرض فتكون قاعًا صفصفًا لا عوج فيها؛ لأن ذلك اليوم لا يقبل العوج في شيء.

ولما ذكر أعلام الجماد أتبعه أعلام الحيوان الذي هو أعز أموال العرب، على وجه دل على عظم الهول فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ﴾ أي: النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهي أحب أموالهم وأنفسها؛ لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن والوبر ﴿عُطِّلَتۡ ٤﴾ لأن الأمر أهول من أن يلتفت أحد إلى شيء وإن عز. ولما ذكر ما دل على إرادة أمر عظيم، قرّب ذلك الأمر بإفهام أنه الحشر فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ﴾ التي لا تأنس بأحد ﴿حُشِرَتۡ ٥﴾ ولا تستوحش الناسَ ولا يستوحشونها من شدة الأهوال.

ولما أفهم هذا الحشرَ، ذكر ما يدل على ما ينال أهل الموقف من الشدائد من شدة الحر فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦﴾. ولما تشوفت النفوس إلى ما يفعل، قال ترغيبًا في الأعمال الصالحة والقرناء الصالحين لئلا يزوج أحد بما يسوؤه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ أي:

قرنت بأبدانها وإلى ما كانت تألفه فكانوا أصنافًا كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣].

ثم ذكر ما هو المقصود الأعظم وهو السؤال على وجه يفهم العموم فقال(٧٢): ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ ولما كان هذا أهون القتل عندهم، بين أنه معتنى به وأنها ستبعث وتجيب وإن كان نفخ الروح فيها في زمن يسير فقال: ﴿سُئِلَتْ ۝٨﴾ تبكيتًا لقاتلها، وليس في الآية دليل على تعذيب أطفال الكفرة ولا عدمه، فإن الكافر قد يكون مستأمنًا فلا يحل قتله، والأطفال ما عملوا ما يستحقون به القتل، ويؤخذ من سؤال الموؤودة تحريم الظلم لكل أحد، وكف اليد واللسان عن كل إنسان ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

ولما دل هذا على عموم السؤال [ودقة الحساب] قال: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ التي كتبت فيها أعمال العباد ﴿نُشِرَتْ ۝١٠﴾ أي: فرقت فأتت أصحابها. [ولما كانت الصحف كاشفة لحال صاحبها]؛ لأن ذلك يوم الكشف، أتبعه كشف السماء لما فوقها من العجائب فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ أي: قلعت بقوة. ولما زالت الموانع، ظهرت نهايات الرغائب والرهائب فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾. ولما كانت هذه الأشياء لهولها موجبة لاجتماع الفكر فكان موجبًا للعلم قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كل واحدة من النفوس ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ فمن اعتقد ذلك رغب في أن لا يحضر إلا ما يسره، ورهب في إحضار ما يضره، وجميع هذه الأشياء بعد النفخة الثانية على ما تقدم؛ لأن التهويل بعد القيام أحكم.

وقال ابن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٤] إلى آخر السورة، كان مظنة للسؤال عن وقت الوقوع فقال: ﴿إذا الشمس كورت﴾ الآيات، ووقوع ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه".

ولما كان أعظم ما يحضره الكفرة من أعمالهم بعد الشرك: التكذيب بالحق، وأعظمه التكذيب بالقرآن؛ لأنه لا شيء أظهر منه في أنه كلام الله، سبب عن هذا التهديد قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥﴾ أي: الكواكب التي تغيب في النهار لغلبة ضياء الشمس لها.

---

(٧٢) أو يقال: لما كان التزويج بحسب الأعمال، ذكر منها ما يستصغرونه؛ إعلامًا بأن كلَّ كبير وصغير مستطر، ولذلك أتبعها بالصحف، فقال دالًا على أنه يوم العدل:...، والله أعلم.

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ قال قتادة: "تسير بالليل، وتخنس بالنهار"، وقال البغوي: "أصل الخنوس الرجوع إلى وراء، والكنوس أن تأوي لمكانسها".

وقال القشيري: "وإنما نفى الإقسام بها وإن كانت عظيمة؛ لأن فيها نقائص الغيبوبة وانبهار النور، والقرآن المقسم لأجله منزه عن ذلك، بل هو الغالب على كل ما سواه من الكلام غلبةً هي أعظم من غلبة ضياء الشمس لنور ما سواها".

ولما ذكر غيابها، ذكر محل ظهورها فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ أي: أقبل ظلامه واعتكر سواده. ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ أي: أضاء وأقبل نسيمه، أي: لا أقسم به؛ لأنه وإن كان ذا نور ونعمة فإنه يتضاءل عن نور القرآن، على أن تنفسه بالبرد تنسخه الشمس بالحر، وتنفس القرآن بنفحات القدس والأنس لا ينسخه شيء.

ولما بين أن هذه الأشياء التي لولاها لما طاب عيشهم. تصغر عن أن يقسم بها على فضائل القرآن، قال مجيبًا لذلك إخبارًا عما هو محقق أعظم منها، هاد إلى مصالح الدارين أكثر منها: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام، ومن المعلوم أن الرسول وظيفته تبليغ ما أرسل به فحسب، ولو كان قولَ الرسول مستقلًا به لما كان من البلاغة ذكره بوصف الرسالة، ووصفه بما يُفهِم حفظه فقال: ﴿كَرِيمٍ ١٩﴾ أي: انتفت عنه وجوه المذام كلها، وثبتت له وجوه المحامد كلها، فإن الكرم اجتماع كمالات الشيء اللائقة به فيه.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ على ضبط ما أرسل به بنفسه، وعلى مدافعة غيره عن أن يدخل فيه شيئًا ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في الملأ الأعلى، ولما كان ذلك يقتضي الأمانة قال: ﴿أَمِينٍ ٢١﴾ فهو مصدَّق القول مقبول الأمر موثوقٌ، ومن كان بهذه الصفات كان بحيث لا يأتي إلا في أمر مهم جدًا، ولذلك ائتمنه الله على رسالته.

ولما وصف السفير الملكي بهذه الصفات التي أزالت عن القرآن كل لبس، وكان وصفه بها إنما هو لإثبات شرف الرسول البشري، قال زيادة في شرفه حيث كان هو المدافَع عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي: الذي علمتم كماله حتى أنه ليس له وصف عندكم إلا الأمين ﴿بِمَجۡنُونٍ ٢٢﴾ كما تبتهونه به من غير استحياء من الكذب والتناقض. ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ أي: جبريل ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣﴾ أي: عند سدرة المنتهى حيث لا يكون لشيطان على ذلك المكان سبيل، فعرفه حق المعرفة من غير لبس. ولما انتفى ما يظن من لبس السمع وزيغ

البصر، لم يبق إلا ما يتعلق بالتأدية فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ أي: متهم كما يتهم الكاهن لأنه يخطئ أحيانًا، فهو حقيق بأن يوثق بكل شيء يقوله، والمعنى في القراءة بالضاد: بخيل كما يبخل الكاهن رغبة في الحلوان، بل هو حريص على أن يكون كل من أمته عالمًا بكل ما أمره الله بتبليغه. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ فمن علم هذه الأوصاف للقرآن والرسولين أحبه وأحبهما وأقبل على تلاوته والعمل به.

ولما كان ذلك، سبّب عنه قوله موبخًا منكرًا: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ أي: بقلوبكم عن هذا الحق المبين، وقد علمتم هذا الحفظ العظيم، فمن أين يأتي ما تدعون من التخليط؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧﴾ أي: شرف. ولما كان الشرف حقيقةً للمهتدي قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فادعوه مخلصين له الدين يشأ لكم ما يرضيه فيوفقكم إليه، ولما وصف نفسه بعموم مشيئته، أتبعه ما هو كالعلة له فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ ولهذه الربوبية أقام الساعة بالأهوال المتقدمة، فالتقى طرفاها وانتظم أول الانفطار، فالتكوير كالتفطير، والانكدار كالانتثار، والله أعلم.

سورة الانفطار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها التحذير من الانهماك في الأعمال السيئة اغترارًا بإحسان الرب ونسيانًا ليوم الدين، واسمها «الانفطار» أدل ما فيها على ذلك.

ولما كان من الناس من يعتقد أن هذا العالم لا آخر له "أرحام تدفع وأرض تبلع"، افتتح هذه بما هو مقدمة لمقصود التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم للجزاء فقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾. ولما كان يلزم من انفطارها عدم إمساكها لما أثبت بها؛ ليكون ذلك أشد تخويفًا لمن تحتها بأنهم يترقبون كل وقت سقوطها قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ﴾ المحفوظة بانتظام السماء ﴿ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾ أي: تساقطت متفرقة تساقطًا سريعًا.

ولما كان إخباره بما دل على وهي السماء مشعرًا بوهي الأرض، صرح به فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣﴾ فصارت الأرض كلها ماء، ولا سماء ولا أرض، فأين المفر؟ ولما كان العرب يعتقدون أن من مات فات، قال دافعًا له: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ عن أهلها، فقاموا أحياء كما كانوا فرأوا ما أفظعهم. ولما كانت هذه الأشراط دالة على الانتقال إلى دار أخرى لخراب هذه، أجاب «إذا» بقوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ أي: جميع النفوس بالإنباء بالحساب وبما يجعل لها الله من ملكة للاستحضار كما قال تعالى: ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ [ق: ٢٢] والدال على العموم: التنكير في سياق التحذير ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾.

وقال ابن الزبير: "هذه السورة من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد، فاتصالها بها واضح".

ولما كان الإنسان قد يتهاون ببعض المعاصي لأن المرجع إلى كريم، قال مناديًا بأداة البعد لأن أكثر الخلق معرض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾ أي: أدخلك في الغرة وهي أن ترى فعلك القبيح حسنًا، أو أنه يعفى عنك لا محالة ﴿بِرَبِّكَ﴾ ولما كان التعبير به مع دلالته على الإحسان يدل على الانتقام عند الإمعان في الإجرام؛ لأنه شأن المربي فكان مانعًا من الاغترار، أتبعه ما هو أيضًا ظاهره لطف وباطنه قهر فقال: ﴿ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ الذي ينبغي أن يستحيي منه لإحسانه الذي لا تكدير فيه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ أي: جعل كل شيء من خلقك سليمًا، والتعديل جعل البنية متناسبة الخلقة، وكذا العدل في قراءة التخفيف، أي: جعلك معتدلًا في صورتك، وكل هذا يقتضي الشكر والخوف؛ لأنه كما قدر على التسوية يقدر على التشويه وغيره من العذاب. ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ فتحرر بهذا أن الإنسان رقيق رقًا لازمًا، ومن خلع ربقة ذلك الرق وُكل إلى نفسه فهلك.

ولما دل على قدرته على الإعادة بالابتداء، وبين أنه ما أنسى الإنسانَ تلك الدارَ إلا الاغترارُ، بين أنه ارتقى ذروته فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ما أوقعكم في الإعراض مطلقُ الغرور ﴿بَلْ﴾ أعظمُه وهو أنكم ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠﴾. ولما أثبت لهم الحفظ نزههم عن التغيير فقال: ﴿كِرَامًا﴾ ولما كان الحافظ ربما ينسى قال: ﴿كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ﴾ أي: على التجدد والاستمرار ﴿مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ سواء كان مبنيًا على علم أو لا، فكيف يكون مع هذا تكذيب بالجزاء! والتعبير بالمستقبل يدل على أنهم يعلمون كل ما خطر قبل أن يفعل، وأما ما لم يجر في النفس فلا يعلمونه كما بينه حديث: «ومن هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة».

ولما كان حفظ الأعمال للجزاء، بين ما كانت الكتابة لأجله، تفريقًا بين المحسن والمسيء الذي لا يصح في الحكمة والكرم غيره، بقوله مؤكدًا؛ لتكذيبهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ ولما كان السياق للترهيب، وصف عذابهم فقال: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يغمسون فيها كالشاة المصلية ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾. ولما علم أن الوعيد الأعظم يوم الدين، هوّل أمره بالسؤال عنه إعلامًا بأنه أهل للاعتناء به فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾. ولما كانت أهواله زائدة على الحد كرر السؤال، فقال معبرًا بأداة التراخي زيادة في التهويل: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾.

ولخصه في قوله: ﴿يَوْمُ﴾ وهو ظرف قال الكسائي: "العرب ترفع إذا أضافوا اليوم إلى مستقبل وتنصب إذا أضافوا إلى ماض"، ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ وهذا ثابت اليومَ لكنه مغطى بالأسباب فتقرر في النفوس أن الموجود يضر وينفع لأنه يتكلم ويبطش، وأما هناك فلا يتكلم أحد إلا بإذنه ولا أمر لأحد ظاهرًا ولا باطنًا، ولذا قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ فلا يدعي أحد لأحد أمرًا [لأنه يوم تقطع الأسباب، وتبدّل المخلوقات بالانفطار والانكدار، وغيره من الأخطار] فرجع آخرها إلى أولها، والله الهادي.

سورة التطفيف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها شرح آخر الانفطار بأنه لا بد من دينونة العباد بإسكان الأولياء دار النعيم والأشقياء غار الجحيم، واسمها «التطفيف» أدل ما فيها على ذلك.

ولما ختم الانفطار بانقطاع الأسباب، وأبلغ في التهديد بيوم الدين، وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير، وكانت المعصية بالبخس فيها من أخس المعاصي، حذّر من الخيانة فيها، وجمع إلى أهلها كل من اتصف بوصفهم فحمله وصفه على نوع من المعاصي فقال: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ أي: الذين يبخسون حقوق الناس، وفيه تنبيه على أن أصل الآفات الخلق السيئ وهو حب الدنيا الموقع في جمع الأموال ولو بأخس الوجوه.

وكأن التطفيف إزالة ما أشرف من أعلى الكيل، من الطف: وهو العلو أو القرب أو التقتير أو الخسيس، فكأن التضعيف للإزالة على المعنى **الأول**، وللمقاربة على **الثاني** حتى يظن صاحب الحق أنه وفى ولا يوفي، وإذا نهى عن هذا فقد نهى عما نقص أكثر بمفهوم الموافقة، وعلى **الثالث** بمعنى التقتير في الكيل، وعلى **الرابع** بمعنى التقليل فيه، وكأنه اختير هذا اللفظ لأنه لا يكاد يُسرق فيه إلا اليسير جدًا، هذا أصله في اللغة، وقد فسره الله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾ وهذا الفعل يتعدى بمن وعلى، ويجوز أن يكون التعبير بـ«على» هنا للإشارة إلى أنهم إذا كان لهم علو بأن كان المكتال منه ضعيفًا خانوه، فيكون أمرهم دائرًا على الرذالة وسفول الهمة.

وكأنه لم يقل: اتزنوا؛ لأنهم يتمكنون في الاكتيال من المبالغة في استيفاء المؤدي إلى الزيادة ما لا يتمكنون من مثله في الاتزان، وهذا بخلاف الإخسار فإن التمكن بسببه حاصل في الموضعين فلذلك ذكرهما فيه.

ولما أفهم تقديم الجار الاختصاص، فأفهم أنهم إذا فعلوا من أنفسهم لا يكون كذلك، صرح به فقال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي: ما للناس عليهم، فهما كلمتان لا أربع، قال الزمخشري: "ولا يصح أن يكون ضميرًا للمطففين؛ لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد، والتعلق في إبطاله بخط المصحف بأن لا ألف بعد واو الجمع ركيك؛ لأنه لم يراع في كثير

منه المصطلحَ عليه في علم الخط"، ولا شك أن في خط المصحف تقوية لهذا الوجه المعنوي ﴿يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ بالنقص فيما يكيلون لغيرهم، فيأخذون وافيًا أو زائدًا ويعطون ناقصًا.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما قال تعالى في سورة الانفطار: ﴿وإن عليكم لحافظين . كرامًا كاتبين﴾ [الآية: ١٠ - ١١]، وكان مقتضى ذلك الإشعار بأنه لا يفوت عمل، أتبعه بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم".

ولما ذكر إدمانهم على هذه الرذائل، وكان ذلك لا يكون إلا ممن أمن العقاب وأنكر الحساب أنكر عليهم بقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إن لم يتيقنوا بما مضى من البراهين، ومن لم تفده تلك الدلائل ظنًا فلا حس له ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ وزاد تعظيمه بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه: «ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر».

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يظن أولئك ذلك، وما أوجب لهم الجرائم إلا الإعراض عنه، وقال الحسن: "هي بمعنى حقًا متصلة بما بعدها"، وهي مع ذلك مفهمة للردع، ولما أخبر عن إنكارهم، استأنف إثبات ما أنكروه فقال: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ الذين هم في غاية المروق مما حقهم ملابسته ﴿لَفِي سِجِّينٍ ۝٧﴾ هو عَلَم منقول في صيغة المبالغة عن وصف من السجن؛ لأنه سبب الحبس في جهنم، إشارة إلى أن كتابهم إذا كان في سجن عظيم كانوا هم في أعظم ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ ولم يبينه إشارة إلى أن عظمته لا توصف، وأخبر عن الكتاب المسجون فيه فقال: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ يعلم كل من رآه أنه غاية في الشر كالرقم في الثوب.

ولما أعلم بما للكتاب من الشر، أخبر بما أنتجه لأصحابه فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي: متجاوز للحد في العناد أو التقليد ﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾ أي: مبالغ في الشهوات الموجبة للآثام.

ودل على مبالغته فيه بقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ﴾ من غير توقف ولا تأمل بل بحظ نفس أوقعه فيه شهوة المغالبة التي سببها الكبر ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾. ولما كان هذا قد صار كالأنعام في عدم النظر بل أضل سبيلًا لأنه قادر عليه، قال مبينًا لما أداه إلى هذا

القول وهو لا يعتقده: ﴿كَلَّاۖ﴾ ليس الأمر كما قال ﴿بَلۡ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أي: كل من قال هذا ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ من الرديئات، فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا، فيتراكم الذنب على القلب فيسودّ.

وقال الغزالي: "كل شهوة اتبعها الإنسان ترتفع منها ظلمةٌ إلى قلبه، كما يرتفع عن النفَس ظلمةٌ إلى المرآة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينًا، كما يصير النفَس في المرآة عند تراكمه خبثًا، فإذا تراكم الرين صار طبعًا، كالخبث على المرآة إذا تقادم أفسدها ولم يقبل التصقيل، ولا يكفي في تدارك اتباعها تركها في المستقبل دون محو لآثارها من القلب، كما لا يكفي في ظهور الصورة في المرآة قطع الأنفاس ما لم يمح ما انطبع فيها، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»".

﴿كَلَّآ﴾ ليس الأمر كما قالوا لا في الواقع ولا عندهم فليرتدعوا عنه، ولما كان قول الإنسان لمثل ذلك عجيبًا، بين أن الحامل لهم عليه: الحجاب الذي ختم به على قلوبهم، فقال مؤكدًا؛ لمن ينكر ذلك من المغرورين: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: إذ قالوا هذا ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ فلذا استولت عليهم الشياطين والأهوية، والأحسن أن تكون الآية بيانًا وتعليلًا لويلهم، ويكون التقدير: يوم إذ كان يوم الدين، والمراد: الحجاب عن الرؤية، ويكون فيه بشارة للمؤمنين بها، وفيه تمثيل لإهانتهم بإهانة من يمنع الدخول على الملك.

ولما بين ما لهم من العذاب بالحجاب الذي هو عذاب القلب، بين بعض عذاب القالب، معبرًا بأداة التراخي إعلامًا بعلو رتبته في العذاب فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾. ولما بين ما لهم من الفعل، أتبعه القول بالتوبيخ الذي هو عذاب النفس، وبناه للمفعول إشارة إلى أنه يتمكن من قوله لهم كل من يصح منه القول لأنه لا منعة عندهم فقال: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ تبكيتًا وتنديمًا ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: خاصة؛ لأن تكذيبكم بغيره بالنسبة إليه لقبحه ورسوخكم فيه [كالعدم] ﴿تُكَذِّبُونَ ١٧﴾.

ولما كان هذا ربما أفهم أنهم يرون جميع عذابهم إذ ذاك، نفاه بقوله: ﴿۞كَلَّآ﴾ ولما ذكر ما للمكذبين أتبعه ما للمصدقين فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ الذين هم في غاية الاتساع في شرح صدورهم واتساع عقولهم وكثرة أعمالهم وزكائها ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ قال الكسائي: "إذا

جمعت العرب ما ليس له بناء من واحد واثنين، فإنهم يجمعون بالواو والنون في المذكر والمؤنث"، وكل من كان كتابه في مكان لحق به، قال الرازي في اللوامع: "من ترقى علمه عن الحواس والأوهام، وفعله عن مقتضى الشهوة، فهو حقيق بأن يكون عِلّيًا، ومن كان علمه مقصورًا على الحواس والأوهام، وفعله على مقتضى الشهوات، فهو حقيق بأن يكون في سجين"، ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

ولما عظم المكان فعلمت عظمة الكتاب، زاد في عظمته فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٢٠﴾ أي: مسطور فيه أن فلانًا أمن من النار. ولما عظمه في نفسه وفي مكانه، عظمه في حضّاره فقال: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ وهم الملائكة. ولما عظم كتابهم بهذه الفضائل، عرّف حالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾ أي: إلى ما يشتهون ليس لهم شغل غيره، وقال القشيري: "لم يبين المنظور إليه لاختلافهم: منهم من ينظر إلى قصوره، ومنهم من ينظر إلى حوره، ومنهم ومنهم، والخواص على دوام الأوقات إلى الله تعالى ينظرون، كما أن الفجار دائمًا عن ربهم محجوبون".

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: شراب خالص صاف ﴿مَّخْتُومٍ ٢٥﴾ فهو سالم من الأقذاء. ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال ابن مسعود: "آخر طعمه"، فصار ختامه في أولِ فتحه وآخرِ شربه المسك، وذلك يقتضي أن لا يفتحه إلا شاربه، وأنه على قدر كفايته فيشربه كله ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ أي: الذين يطلب كل منهم أن يكون المتنافَس فيه لنفسه خاصة لأنه نفيس جدًا.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ ٢٧﴾ عَلَم على عين وهو دال على علو محلها ورتبتها. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: بسببها ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ وأما الأبرار فيشربون الرحيق غير ممزوج وأما غيرهم فلا يصل إليها أصلًا، وقال بعضهم: إن المقربين يشربون من هذه العين صِرفًا، والأبرار يمزج لهم منها، هنيئًا لهم.

ولما ذكر جزاء الكافر بالجحيم والمؤمن بالنعيم، وكان من أجلّ النعيم الشماتة بالعدو، علل جزاء الكافر بما فيه شماتة المؤمن به فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ٢٩﴾ أي: يجددونه كلما رأوهم أو ذكروهم؛ استهزاءً بهم وبحالاتهم التي هي من علامات الإيمان. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ٣١﴾

أي: في غاية التلذذ بمكنتهم التي أوصلتهم إلى الاستسخار بغيرهم. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣١﴾﴾ لأنهم تركوا الدنيا لآجل لا صحة له.

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الذين آمنوا خاصة حتى يكون لهم بهم هذا الاعتناء ﴿حَٰفِظِينَ ﴿٣٢﴾﴾ لأعمالهم، فما اشتغالهم بهم واستقصاؤهم لأحوالهم إلى هذا الحد إن كانوا عندهم في عداد الساقط المهمل كما يزعمون؟ وإن كانوا في عداد المنظور إليه فليبينوا فساد حالهم بوجه تقبله العقول أو ليتبعوهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي: فتسبب عن هذا من فعلهم في دار العمل، أنه يكون في دار الجزاء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ خاصة من عموم الذين أجرموا، فإنهم لا يضحكون من عصاة المؤمنين لو رأوهم يعذبون بل يرحمونهم لاشتراكهم في الدين ﴿يَضْحَكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قصاصًا وجزاء حين يرون ما هم فيه من الذل سرورًا بحالهم، شكرًا لله على نجاتهم. حال كون الذين آمنوا ملوكًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يجددونه كلما أرادوا، فيرون ما هم فيه من الهوان والعذاب بعد العزة والنعيم، نظرَ المستفهم: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟

وقد علم أن لهم الويل الذي افتتحت السورة بالتهديد به لمن يفعل فعل من لا يظن أنه يجازى على فعله، وآخرها فيمن انتقص الأعراض في خفاء، وأولها فيمن انتقص الأموال كذلك، والله الهادي.

سورة الانشقاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على آخر المطففين من تنعيم الأولياء وتعذيب الأعداء، واسمها «الانشقاق» أدل دليل على ذلك بتأمل الظرف وجوابه الدال على الحساب.

لما ختمت التطفيف بأن الأولياء في نعيم وأن الأعداء في جحيم، ابتدأ هذه بالإقسام عليه فقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ﴾ أي: كانت شديدة الاستماع والانقياد ﴿لِرَبِّهَا﴾ وهي الآن وإن كانت منقادة فإن المعطلة ربما نسبوا تأثيراتها إلى الطبائع والكواكب، وأما عند الانشقاق فلا يبقى لأحد شبهة ﴿وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ فهي حقيقة به لأنها مربوبة له سبحانه، وكل مربوب فهو حقيق بالانقياد لربه.

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ أي: زيد في سعتها بعد أن صارت دكاء لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، كما أن الأديم إذا مد زال تثنيه واتسع. ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ أي: أخرجت ما في بطنها من الكنوز والأموات سريعًا ﴿وَتَخَلَّتۡ ۝٤﴾ عن كل شيء في بطنها فبرز على ظهرها. ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أي: فعلت ذلك بإذن ربها وتأثيره لا بنفسها ﴿وَحُقَّتۡ ۝٥﴾ والجواب محذوف لوضوحه، تقديره: ليحاسبن كل أحد على كدحه فيجازى.

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصائهم على العباد في كتبهم، واستقرار ذلك في قوله تعالى: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ [المطففين: ١٨] وقوله: ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ [المطففين: ٧] أتبع ذلك الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقرارًا وتفريقًا يوم العرض".

ولما كان الجواب ما ذكرته، أتبعه شرحه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أي: ملاق ربك، فينكشف لك أنك كنت تسعى في سيرك إليه غاية السعي؛ لأن من كان الليل والنهار مطيتيه أوصلاه إلى منتهى سفره شاء أو أبى، فذِكر هذا على هذا النمط حثٌّ على الاجتهاد في الإحسان في العمل؛ لأن من أيقن بأنه لا بد له من العرض على الملك، أفرغ جهده في العمل بما يحمده عليه عند لقائه.

ولما كان في عبيد الملك إذا عرضوا عليه المقبولَ والمردودَ بحسب كدحهم قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ من أمامه ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ لا يناقش فيه؛ لأنه كان يحاسب نفسه فلا يخالف إلا ذهولًا. ولما دل هذا على العفو أتبعه ما يدل على الإكرام فقال: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة فيكون أعرف بهم وبمنزله فيها منه بمنزله في الدنيا ﴿مَسْرُورًا ۝٩﴾ قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيضع كنفه عليه ويستره ثم يقول له: أتعرف ذنب كذا؟ حتى يذكّره بذنوبه كلها ويرى في نفسه أنه قد هلك، قال الرب سبحانه: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ أي: في شماله من ورائه؛ لأنه كان يعمل بغير إذن الله فكأنه عمل من ورائه مما يظن أنه يخفى عليه سبحانه، وهذا احتباك: ذكر اليمين أولًا يدل على الشمال ثانيًا، وذكر الوراء ثانيًا يدل على الأمام أولًا، وسر ذلك أنه ذكر دليل المودة بالمصافحة ونحوها في السعيد، ودليل الغدر في الشقي. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١﴾ وهو الهلاك الجامع للمكاره كلها. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ أي: ويغمس في النار المتقدة وهي محطية به؛ لأنه كان تابعًا لشهواته التي هي محفوفة بها.

ولما ذكر عذابه، أتبعه سببه ترهيبًا منه واستعطافًا إلى التوبة فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ بطرًا بالمال والجاه مخلدًا إليه مع الفراغ والفرار عن ذكر الحساب، كما قال في التي قبلها: ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين﴾ [المطففين: ٣١] لا يحزن لذنب عمله ولا لقبيح ارتكبه بل يسر بتأتيه له، فهو يحاسب حسابًا عسيرًا. ثم علل سروره فقال: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ أي: يرجع إلى ربه أو ينقص أو يهلك، فعمل عمل من لا يخاف عاقبة. ﴿بَلَىٰٓ﴾ ليرجعن صاغرًا ناقصًا هالكًا، وعلله بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ فترْكه مهملًا مع العلم بأعماله مناف للحكمة والعدل والملك.

ولما أخبر بإنكاره أقسم على صحة ذلك، وكان ترك الحلف على ما هو ظاهر أبلغ من الحلف؛ لما فيه من التنبيه على التأمل فقال: ﴿۞فَلَآ أُقْسِمُ﴾ بهذه الأمور وإن كانت عظيمة بما لها من الدلالات على البعث؛ لأن المقسم عليه أجلّ منها وأظهر فهو غني عن الإقسام ﴿بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨﴾ وغير ذلك من الغرائب التي تدل على أن موجد ما لم يكن ومذهب ما كان به، قادر على كل ما يريد. ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن

طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: حالًا بعد حال من أطوار الحياة وغمرات الموت ودواهي البرزخ والبعث الحشر، بتلك القدرة التي أوجدت تلك العجائب سواء.

ولما ظهر المراد ولم يبق إلا العناد، أنكر عليهم فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بما دعا إليه هذا الكتاب لا سيما القيامة، هل هي إلا واحدة من هذه الأطباق؟ لأن من كان كل يوم على حال جديرٌ بأن يعلم أن تدبيره إلى سواه. ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾﴾ أي: يخضعون بالقلب فيسجدون بالقالب السجود الشرعي لتلاوته.

ولما لم يكن لهم عذر في ذلك إلا الجهل أو العجز، ولا جهل مع القرآن ولا عجز مع القوة والاختيار، أضرب عنه بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يضعون في أوعية صدورهم من الكفر والعداوة بسبب الشهوات الشاغلة لهم عن تدبر القرآن وشواهد الموجودات. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان حساب الناجي عرْضًا فعلم أن المدار كما قال النبي ﷺ على التغمد بالرحمة لا الأعمال، أسقط الفاء المؤذنة بالسبب تنبيهًا على ذلك فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مقطوع أو منقوص أو يمتن عليهم به، يؤتَون ذلك في يوم الدين يوم تنشق السماء وتمد الأرض، فقد رجع آخرها على أولها.

سورة البروج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على القدرة على مقصود الانشقاق الذي هو صريح آخرها من تنعيم الولي وتعذيب الشقي، تسلية لقلوب المؤمنين وتثبيتًا لهم على أذى الكافرين، وعلى ذلك دل اسمها «البروج» بتأمل القسم والمقسم عليه وما هدى السياق إليه.

لما ختم تلك بثواب المؤمن وعقاب الكافر بعد أن ذكر أنه أعلم بما يضمر الأعداء من المكر للأولياء، وتوعدهم بما لا يطيقون، وكانوا قد عذبوا المؤمنين بأنواع العذاب واجتهدوا في فتنتهم وبالغوا في التضييق عليهم، ابتدأ هذه بما أوقع بأهل الجبروت ممن تقدمهم، على وجه معلم أن ذلك الإيقاع منه قطعًا، وأن الماضين تجاوزوا الحدود، وأن أهل الإيمان ثبتوا؛ تسليةً للمؤمنين وتثبيتًا، وتوعيدًا للكافرين وتفتيتًا.

فقال مقسمًا؛ لإنكارهم وفعلِهم في التمادي في عداوة حزب الله فِعلَ المنكر أن الله ينتقم لهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ أي: المنازل للكواكب السيارة التي تدركون من آثارها بالتجارب ما يدلكم على تمام القدرة، فنسبها بعضكم إلى الطبيعة واستدل بالآيات على ضد ما تدل عليه؛ لجمود الذهن وانعكاس الفكر، وهو إشارة إلى أن الذي فصّل السماء وسخر فيها هذه الكواكب لمصالح الإنسان لا يتركه سدى بل لا بد من دينونته.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢﴾ أي: القيامة. ولما كان الجمع لأجل العرض، وكان العرض لا بد فيه من شهود ومشهود عليهم قال: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ في نفسه من الأعيان والآثار الهائلة، أو: عليه فإنه يوم تشهده جميع الخلائق. ولما كان جواب القسم: لندينن كلًا بما عمل، دل عليه بأفعاله في الدنيا ببعض الجبابرة فقال: ﴿قُتِلَ﴾ أي: لعن من كل لاعن، ووقع في الدنيا أنه قتل حقيقة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤﴾ روي أن ملكًا من ملوك اليمن -وكان قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة- آمن في زمانه ناس كثير، فخد لهم أخدودًا وسجره نارًا وعرض من آمن عليه، فمن رجع عن دينه تركه ومن ثبت قذفه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "وردت هذه السورة في معرض الالتفات إلى إخبار نبي الله ﷺ بما تضمنته من قصة أصحاب الأخدود".

ثم بين وجه ذمهم ببدل اشتمال من أخدودهم فقال: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ وعلق بـ﴿قُتل﴾ قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ يحفظونها ويفعلون مما يأمرهم ملكهم من إلقاء الناس وغيره فِعلَ القاعد الذي ليس له شغل غيرها. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُومِنِينَ﴾ أي: الراسخين في الإيمان الذين لم يثنهم العذاب عنه ﴿شُهُودٌ ۝٧﴾ أي: يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يقصر فيما أمره به، ويشهدون يوم القيامة على أنفسهم بهذا الظلم، ويشهد بعضهم على بعض ويعادي بعضهم بعضًا. ولما كان هذا الفعل لا يكون من عاقل إلا لسبب يليق به، بين أنه إنما هو لسبب يبعد منه، فقال على طريقة:

ولا عيب فيهِمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ بِهِنّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائبِ

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُومِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ولما كان ربما أوهم ترك معاجلته تعالى لهم ما لا يليق، نفى ذلك بقوله واصفًا له بما يحقق وجوب إفراد العبادة له: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الذي يغلب ولا يُغلب، فلا يظن إمكانه من أوليائه لعجز، بل هو يبتليهم ليُعظِم أجورَهم ويعظم عقابَ أعدائهم والانتقامَ منهم ﴿ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ أي: المحيط بجميع صفات الكمال، فهو يثيب من أصيب فيه أعظم ثواب، وينتقم ممن آذاه بأشد العذاب.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولما قدم التحذير بالشاهد والمشهود وأن الكافرين شهود على أنفسهم، زاد في التحذير بأنه سبحانه أعظم شهيد فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هذا الفعل وغيره ﴿شَهِيدٌ ۝٩﴾ لا يغيب عنه شيء، ولا يكون شيء ولا يبقى إلا بتدبيره، ومن هو بهذه العظمة لا يهمل أولياءه بل لا بد أن ينتقم لهم ويعليهم.

ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ أي: خالطوا من الأذى بما لا تحتمله القوى فلا بد أن يُميل أو يُحيل ﴿ٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَٰتِ﴾ أي: ذوي الرسوخ في الإيمان، ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان عبر بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ ولما كان سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بسبب قال: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك في الدارين ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ وقد صدق سبحانه قوله هذا فيمن كذب النبي ﷺ بإهلاكهم مغلوبين مقهورين مع قطعهم بأنهم غالبون.

ولما ذكر عقاب المعاندين أتبعه ثواب العابدين فقال مؤكدًا؛ لإنكار أعدائهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ولو على أدنى الوجوه من المقذوفين وغيرهم في كل زمان ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

تصديقًا لإيمانهم، ولما كان من رحمته أنه لم يكل أولياءه إلى أعمالهم، لم يجعلها سببًا فلم يقرن بالفاء قوله(٧٣): ﴿لَهُمۡ﴾ جزاء مقاساتهم لنار الأخدود الحسية والغموم المعنوية حتى كانوا مع حفظهم للدين كالقابض على الجمر ﴿جَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ يتلذذون ببردها في نظير الحر الذي صبروا عليه ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ لا غيره ﴿ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ كبرًا لا تفهمون منه أكثر من وصفه بهذا.

ولما كان لا يثيب ويعذب على هذا الوجه إلا من هو في غاية العظمة، قال معللًا لفعله ذلك، مؤكدًا؛ لإنكار الأعداء: ﴿۞إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك المدبر لأمرك، أعداءَ الدين بالعنف ﴿لَشَدِيدٌ ١٢﴾ شدة تزيد على ما في البطش من العنف المشروط في تسميته، فهو عنف مضاعف. ولما كان هذا لا يتأتى إلا لكامل القدرة دل عليها وعلى اختصاصه بذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾. ولما كان القادر على العنف قد لا يقدر على اللطف أو الإبلاغ فيه، بيّن عموم قدرته فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ أي: المحّاء للذنوب وآثارها، فلا يحصل لمن محا ذنبه كدر من جهة ذلك الذنب ﴿ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ أي: كثير المحبة فيجيب من أراد، ويلقي على صاحب الذنب الذي محاه عنه ودًا، ويجعل له في قلوب الخلق رحمة ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: السرير الدال على التفرد بالملك والتدبير ﴿ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾.

ولما تمت الدلالة على أن بطشه شديد، قرره بما وجد من ذلك، وذكّره به تخويفًا وتسلية له؛ لأن النظر في المحسوس أوقع فقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾ أي: ما وقع لهم بحيث صار حديثًا يتلى، وهو جمع جُند، وهو العسكر والأعوان والمدينة، والكل ناظر إلى النجدة والغلبة. ولما عُلم من السياق أن المراد من حديثهم ما وقع لهم من البطش لتكذيب الرسل لا سيما في البعث الذي السياق له، وكان بيانه بآيات موسى وصالح أبين من غيرهم؛ لأن آية ثمود ناقة خرجت من صخرة صماء، ومن آيات موسى إبداع القمل والضفادع وإحياء العصا، وكان من قدر على ابتداء ذلك أقدر على الإعادة قال(٧٤): ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾.

---

(٧٣) ولأن جزاء مثل هؤلاء لما كان من العظمة بحيث لا يدركه عمل ولو مجازًا، لم يذكر الفاء.

(٧٤) أو يقال: لما كان السياق لتسلط المجرمين على المؤمنين، وكان فرعون وثمود من أشهر من تسلط عليهم، فرعون بذبح الأطفال وقتلِ السحرة إن كان والهمِّ بموسى عليه السلام، وثمود بعقر الناقة وتقاسم التسعة الرهط على قتل صالح عليه السلام فأهلكهم الله، خصهم بالتمثيل، والله أعلم.

[ولما كانوا مع علمهم بذلك لا يؤمنون، فربما ظُن أن لهم سبب مقبول، نفاه بقوله]: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩﴾ لما رأوا من الآيات، وهو محيط بهم لاتباعهم أهواءهم، فهم لا يقدرون على الخروج من ذلك التكذيب الذي صار ظرفًا لهم، ولم يعتبروا بتلك الأخبار لما عندهم من الحسد.

ولما كان هذا ربما أوهم أن تكذيبهم على غير مراده تعالى، قال دافعًا لذلك مؤكدًا قدرته على أخذهم، تحذيرًا لهم وتسلية لمن كذبوه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾ كناية عن أنهم في قبضته، فهو قادر أن يحل بهم ما أحل بأولئك، ولعله خص الوراء لأن الإنسان يحمي ما وراءه، ولأنه جهة الفرار من المصائب(٧٥).

ولما كان أعظم تكذيبهم: طعنهم في أعظم الآيات القرآن، قال بانيًا على ما تقديره: ليس الأمر كما يزعمون في القرآن: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١﴾ أي: شريف جواد بكل ما يراد منه من المحاسن لمن صدقت نيته وطهرت طويته، ومجده: تجريب أحكامه من بين عاجل ما شُهد وآجل ما عُلم بعلم ما شُهد، فكان معلومًا بالتجربة المتيقنة بما تواتر من القصص، وما شهد له من الأثر الحاضر، وما يتجدد مع الأوقات من أمثاله: كذب من طعن فيه.

ولما وصفه بما يأبى له لحاق شبهةٍ، وصف محله في الملأ الأعلى إعلامًا بأنه لا يطرأ عليه ما يغيره فقال: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ كما أن البروج محفوظة في لوح السماء المحفوظ، بل القرآن أولى؛ لأنه صفة الخالق في بيان وصفه لما خلق على الوجه الأتم؛ لأنه ترجمة ما أوجده الله في الوجود، فصح أنه لا بد أن يصدق في كل أخباره، ومن أعظمه أنه تعالى يحشر الناس للدينونة كما دان أعداءه فأخذهم ونجى أولياءه، فرجع الختام منها على المبتدأ.

---

(٧٥) ولأنهم غافلون عن ذلك مع إحاطته بهم وسهولة وصوله إليهم ومفاجأته لهم، والله أعلم.

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها بيان مجد القرآن في صدقه في الإخبار بتنعيم المؤمنين وتعذيب الكافرين، واسمها «الطارق» أدل ما فيها على هذا الموعود الصادق، بتأمل القسم والمقسم عليه.

لما ختم البروج بأن القرآن في لوح محفوظ؛ لأن منزله محيط بكل شيء، أخبر أن من إحاطته حفظ كل فرد ليجازى على أعماله فقال[٧٦]: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ ولما أقسم بالسماء تنبيهًا على ما فيها من بدائع الصنع، أقسم بأعجب ما فيها وهو النجم المعد للحراسة، تنبيهًا على ما في ذلك من غرائب القدرة فقال: ﴿وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ أي: الذي يطرق مسترقي السمع؛ لهداية الناس بالقرآن في الطرق المعنوية، وإشراقه في السماء؛ لهدايتهم في الطرق الحسية. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ أي: المتوهج كأنه يثقب الظلامَ بنوره أو الشيطانَ بناره إذا استرق السمع.

ولما ذكر ما دل به على حفظ القرآن عن التلبيس وعلى حفظ الإنسان، ذكر جوابه في حفظ النفوس التي جعل فيها قابلية لحفظ القرآن في الصدور فقال: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ من الملائكة، فبعضهم لحفظها من الآفات، وبعضهم من الوساوس، وبعضهم لحفظ أعمالها، وبعضهم لما كتب لها من رزق وأجل وشقاوة أو سعادة.

وقال ابن الزبير: "لما قال تعالى في سورة البروج: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ [الآية: ٩] ﴿والله من ورائهم محيط﴾ [الآية: ٢٠] وكان في ذلك تعريف العباد بأنه سبحانه لا يغيب عنه شيء ولا ينجو منه هارب، فصّل ذلك التعريف الجملي من عموم شهادته سبحانه وإحاطته فقال: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ ليعلم العبد أنه ليس بمهمل، وهو سبحانه الغني عن كتب الحفظة وشهادة الشهود، وإنما كان ذلك لإظهار عدله سبحانه وتعالى".

---

(٧٦) أو يقال: علاقتها بالبروج أن كلتيهما من آيات السماء، وناسب الأولى تسميتها بالبروج لأنها -بسبب تعاقبها كل حين- صالحةٌ للشهادة على ما ذكر من شأن أصحاب الأخدود وغيره، وهي دليل على إحكامه سبحانه لأمور السماء، كما أحكم أمور المؤمنين بأنواع البلاء، وناسب الثانية تسميتها بالطارق الذي هو النجم الحافظ من استراق السمع؛ لأنه أقسم به على حفظ الأعمال، فكان هذا النجم الحافظ للسماء دليلًا على أن لكل نفس حافظًا من الملائكة، والله أعلم بأسرار كتابه.

ولما كان ذلك التوكيل بالإنسان لأجل عرضه على الملك الديان [دل عليه بقوله]: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ ليعلم بأمر مبدئه أمرَ معاده، فإذا صح عنده ذلك اجتهد في أن لا يملي على حافظيه إلا ما يرضي الله. ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ﴾ وبعّض بإثبات الجار فقال: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ أي: صلب الرجل وهو عظمٌ مجتمع من لدن الكاهل إلى عجب الذنب ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾ أي: ترائب المرأة وهي عظام الصدر، ولو نزع الخافض لأفهم أن الماء يملأ البين المذكور، ولم يُفهِم أنه يخرج عن صاحبي البين، وقال الملوي: "فالذي أخرجه من ذلك إلى أن صيره في الأنثيين إلى أن دفق، واعتنى بنقله من خلق إلى خلق حتى صيره إنسانًا يعقل ويتكلم ويبني القصور ويهدم الصخور، قادر على بعثه".

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾ ثم ذكر وقت رجعه فقال: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ أي: كل ما انطوت عليه الصدور وأخفته الجوارح من الإخلال بالوضوء ونحو ذلك من جميع الجنايات، بأن تخالط السرائر في ذلك اليوم من الأهوال ما يميلها فيحيلها عما هي عليه من السر فتعود جهرًا، فيميز طيبها من خبيثها ويجازى عليه صاحبه. ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: الإنسان الذي أخرجت سرائره ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ يمنع بها نفسه من الجزاء ﴿وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾ ينصره فيمنعه من نفوذ الحكم فيه.

ولما اشتملت هذه الجمل على الذروة العليا من البلاغة في إثبات المراد فثبت أن القرآن كلام الله، أقسم على حقيته فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ ووصفها بما يؤكد العلم بالبعث الذي هو منبع العلوم والتقوى فقال: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾ التي ترجع بالدوران إلى حيث ابتدأت، فترجع الأحوال التي كانت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول والحر والبرد وغير ذلك. ولما بدأ بالأمر العلوي لشرفه أتبعه السفلي فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ أي: التي تتصدع فيخرج منها النبات والعيون بدءًا وإعادة.

ولما كانت هذه كلها براهين قاطعة ودلائل ساطعة على حقية القرآن وإتيانه بأعلى البيان قال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي أخبر بهذا وتقدم أنه مجيد ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾ أي: جدير بذلك وله من العراقة في الفرق بين الحق والباطل ما صار به يطلق عليه نفس الفصل. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ أي: بالضعيف المرذول الذي لا طائل تحته.

ولما كان هذا مقتضيًا رجوعهم عن العناد، فكان محرّكًا للسامع إلى تعرف ما كان من أمرهم، قال دلالة على بقائهم على الإنكار، وأكده لاستبعاده: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٤﴾ في إبطاله وإطفاء نوره. وسمى جزاءه لهم سبحانه كيدًا؛ لأنه خفيٌّ عنهم ومكروهٌ إليهم، فهو على صورة الكيد فقال: ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٥﴾ باستدراجي لهم إلى توغلهم فيما يغضبني؛ ليكمل ما يوجب أخذي لهم من حيث لا يشعرون.

ثم قال مهددًا أصعب تهديد: ﴿فَمَهِّلِ﴾ ولما كان في المكذبين من يؤمن فليس مستحقًا لمثل هذا التهديد، عبر بالوصف المقتضي للرسوخ فقال: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تستعجل لهم بالإهلاك فإنا لا نعجل؛ لأن العجلة -وهي إيقاع الشيء في غير وقته الأليق به- نقص؛ لأنه لا يعجل بالعقوبة إلا من يخاف الفوت.

ولما كان إمهالهم شديدًا على النفوس، عبّر بصيغة التفعيل أولًا المفهمةِ للتطويل؛ لتحصل الدربة على الإعراض عنهم فيقوى الممهِل وتشتدَّ عزيمته، ثم جرّد الفعل للدلالة على الإعراض عنهم مرة واحدة بعد أن تحققت بالتدريج القوةُ عليه فقال: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٦﴾ أي: يسيرًا فستكون عن قريب لهم أمور تشفي الصدور.

وهذا الآخر هو المراد بما في أولها من أنهم وغيرَهم محفوظة حركاته وسكناته، فإن ذلك مستلزم لأنه في القبضة فالتقى الطرفان، والله أعلم بالصواب.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها إيجاب التنزيه للأعلى سبحانه عن أن يلحق ساحة عظمته نقص كالاستعجال في الإهلاك، أو العجز عن البعث، أو الإهمال للخلق سدى يبغي بعضهم على بعض بغير حساب، أو أن يتكلم بما لا يطابق الواقع أو بما يقدر أحد أن يتكلم بمثله، وعلى ذلك دل كل من اسمها «سبح» و«الأعلى».

لما تضمن الأمرُ بالإمهال في آخر الطارق النهيَ عن الاستعجال، وأشار نفي الهزل عن القرآن إلى أنهم وصموه بذلك ونزه نفسه عنه، أمر رسوله المنزل عليه هذا القرآن ﷺ بتنزيه اسمه فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ولما كان الإنسان محتاجًا لتكون حياته طيبة إلى ثلاثة أشياء: كبير يكون له به رفعة ينفعه بها عند مهماته، ومقتدى يرتبط به، وطريقة يرتكبها، كما أشار إليه قوله ﷺ: «رضيت بالله ربًا، وبمحمد نبيًا ورسولًا، وبالإسلام دينًا»، قال [مشيرًا إلى ذلك]: ﴿ٱلْأَعْلَى ①﴾ عن كل شائبة نقص من الإلحاد في أسمائه أو ذكره خاليًا عن التعظيم.

وقد عبر سبحانه عن هذا المعنى بجميع جهاته الأربع، فابتدأ سورة الإسراء بالمصدر الصالح لجميع معانيه، إعلامًا بأن بثباته له مطلقًا، ثم بالماضي في أول الحديد والحشر والصف تصريحًا بوقوعه في الأزل، ثم ثلث في أول الجمعة والتغابن بالمضارع لأنه يفهم دوام التجدد، فلما تم ذلك من جميع وجوهه، توجه الأمر فخصت به سورته.

ولما رغب في ذكره سبحانه الذي هو المهيئ للفكر، رغب في الفكر في أفعاله الذي هو السبب الأقرب للسعادة بالدلالة عليه فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ②﴾ كلَّ خلق بأن جعل له ما يتأتى معه كماله ويتم معاشه.

وقال ابن الزبير: "لما قال سبحانه مخبرًا عن عمه الكفار في ظلام حيرتهم: ﴿إنهم يكيدون كيدًا﴾ [الطارق: ١٥] وكان وقوع ذلك من العبيد المحاط بأعمالهم ودقائق أنفاسهم: من أقبحِ مرتكَبٍ وأبعدِه عن المعرفة بشيء من عظيم أمر الخالق سبحانه، أتبع ذلك بأمر نبيه ﷺ بتنزيه ربه الأعلى فقال: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي: نزهه عن قبيح مقالهم، وأتبع من التعريف بعظيم قدرته وحكمته بما يبين ضلالهم فقال: ﴿الذي خلق فسوى﴾ الآيات".

﴿وَالَّذِى قَدَّرَ﴾ جميع الأحوال، فجعل البطش لليد والسمع للأذن ونحو ذلك ﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾ بخلق الميول والإلهام ونصب الدلائل، فترى الطفل أول ما يولد يفتح فاه للرضاعة، فالخلق لا بد له من التسوية ليحصل الاعتدال، والتقدير لا بد له من الهداية ليحصل الكمال. ولما ذكر آيات الأنفس أتبعها الآفاق فقال: ﴿وَالَّذِى أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ أي: كثيرًا، ثم أيبسه وهشمه فجمع السيل بعضه إلى بعض فجعله زبدًا ﴿أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أي: في غاية الري حتى صار أسود يضرب إلى خضرة، أو أحمر يضرب إلى سواد، فكل من الكلمتين فيها حياة وموت، فدل جمعه بين الأضداد على كمال الاختيار، وأما الطبائع فلا تقدر إذا أثرت في شيء أن تنقله إلى صفة أخرى، وخص المرعى لأنه أدل على البعث بنباته وتهشمه، ثم يعيده سبحانه كما يفعل بالأموات.

ولما تم ما للخالق المأمور بتسبيحه أتبعه ما للخلائق، وبدأ بما لأشرف خلقه فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: نجمع لك هذا الذكر الذي هو حياة الأرواح، الذي تقدم أنه قول فصل ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾. ولما كان سبحانه ينسخ من الشريعة ما يشاء بحسب المصالح قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ولما كان الحكم على ما يُقرأ بذلك لا يكون إلا من محيط العلم قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ﴾ وقدم الجلي لأن هذا مقامه فقال: ﴿ٱلْجَهْرَ﴾ في الإقراء والقراءة وغيرهما ﴿وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ فدل على علمه به إذا جهر به بطريق الأولى.

ولما ذكر التوحيد والنبوة وأشير إلى النسخ، أشار إلى أن دينه هو الحنيفية السمحة فيكون النسخ وغيره بالأيسر، لأن الرفق والعنف يتغيران بحسب الزمان، فقال مبينًا للقوة العملية إثر بيانه للعلمية: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ في حفظ الوحي وتدبره وغير ذلك مما هو لين سهل، كما أشار إليه قوله ﷺ: «كل ميسر لما خلق له».

وسبب عن ذلك وجوب التذكير لكل أحد شفقة على خلق الله بعد كماله في نفسه، فإن لله ساعات له فيها نفحات تقضى فيها الحاجات، فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ والإنسان لجهله بالغيب لا يقطع بعدم نفع أحد بل لا يزال على رجاء منه وإن استبعده، ولذا كان النبي ﷺ يدعو إلى الله وإن اشتد الأمر ولا يحقّر أحدًا أن يدعوه، والأمر بالإعراض إنما هو عن الحزن عليه وتقطيع النفس لأجله حسرات ونحو ذلك. ولما أمره بالتذكير لكل أحد، قسم الناس إلى قسمين فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بوعد مؤكد ولو على أخفى

الوجوه، بما أشار إليه الإدغام ﴿مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ أي: على الإطلاق؛ لأنه خالف أشرف الرسل، كما أن من آمن به أشرف ممن آمن بمن قبله.

ولما ذكر وصفه الذي أداه للعمل السيئ ذكر جزاءه فقال: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ والآية من الاحتباك: ذكر الثمرةَ وهي الخشية دليلًا على حذف ثمرة الثاني وهي القسوة، والسببَ في الثاني وهو الشقاوة دليلًا على حذف السعادة في الأول، وسره أنه ذكر مبدأ السعادة حثًا عليه، ومآل الشقاوة تحذيرًا منه، قال الملوي: "ولا شك أن القرآن على أحسن ما يكون في التركيب والترتيب".

ولما كان مثل هذا مهلكًا في العادة، فإذا لم يهلك دل على عظمه، أشار إلى ذلك بأداة التراخي إعلامًا بعلوّ شدته فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ ولما كان ذلك قد يكون إكرامًا من باب خرق العوائد قال: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ أي: حياة تنفعه؛ لأنه ما تزكى فلا صدق ولا صلى.

فأنتج قولَه دالًا على فلاح من انتمى إلى العليّ واقتدى بالنبيّ ﷺ وارتبط بطريقة مثلى يصل بها ويعمر أوقاته بوظائفها لئلا يضيع أو يغفل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ أي: طهر نفسه وذكره بالتسبيح الذي أمر به أول السورة وما تأثر عنه.

ولما كان أعظم الأعمال المزكية الذكر والصلاة قال: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ أي: صفاته فإنه إذا ذكرها سرًا أفاض باطنه على ظاهره ذِكرَ اللفظِ الدال عليها، وإذا ذكر الاسم الدال عليها انطبع في قلبه ذكر المسمى ﴿فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ الصلاة الشرعية لأنها أعظم الذكر، فهي أعظم عبادات البدن كما أن الزكاة أعظم عبادات المال، ومن فعل ذلك استراح من داء الإعجاب وما يتبعه من النقائص، وكان متخلقًا بما ذكر من أخلاق الله في أول السورة من التخلي عن النقائص بالتزكية، والتحلي بالكمالات بالذكر والصلاة؛ لأنه لعظمته لا يتأهل لذكره إلا من واظب على ذكر اسمه.

والآية صالحة لإرادة زكاة الفطر وتكبيرات العيد وصلاته وإن كانت السورة مكية والصيامُ بالمدينة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لإحاطة علمه تعالى، قال الرازي: "فإنه يجوز أن يسبق النزولُ الحكمَ كما قال سبحانه: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ٢] والسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح"، وأخذه من البغوي، وزاد البغوي أن ابن عمر كان يأمر نافعًا

بإخراجها قبل الصلاة ويقول: إنما نزلت في هذا، وللبزار عن عوف بن مالك الأشجعي: أن النبي ﷺ أنه كان يأمر بزكاة الفطر ويتلو هذه الآية.

ولما كانوا لا يفعلون ذلك قال: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦﴾ فمنعهم اشتغالهم بها من الذكر والتزكية ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ فمن علم ذلك اشتغل بما يحصلها وينفي الدنيا بأعيانها الحسية وشهواتها المعنوية. ولما كان الفلاح بذلك خاصةَ الكتبِ المنزلة التي بها تدبير البقاء الأول، وصفها بما يقوي صحتها ويفيد أنه ﷺ ليس بدعًا من الرسل فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الوعظ العظيم لأنه جامع لكل خير، وثابت في كل شرع فلا يقبل النسخ ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨﴾. ولما كان ذلك عامًا، خص تعظيمًا للموعظة أعظم الأنبياء الأقدمين فقال: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

وقد حث آخرها على التزكي وهو التطهر الذي هو معنى التنزه، وكان في التذكير به إعلام بأن الله لم يهمل الخلق بعد أن خلقهم؛ لأن ذلك من العبث وهو سبحانه منزه عن جميع شوائب النقص، فقد رجع آخرها على أولها، وكان تنزيه الرب سبحانه وتنزيه النفس أيضًا غاية معولها، والله الموفق.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها شرح ما في آخر «سبح» من تنزيه الله سبحانه عن العبث بإثبات الدار الآخرة التي الغاشية مبدؤها.

لما ختمت «سبح» بالحث على تطهير النفوس عن وضر الدنيا، ورغب في ذلك بخيرية الآخرة والاقتداء بأولي العزم من الأنبياء، رهب أول هذه من الإعراض عن ذلك، ومن التزكي بغير منهاج الرسل فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهم الظالمون، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاحها بصورة الاستفهام تعظيمًا لأمرها، فكأنه يقول: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم، ثم عرف بحال نقيضهم، ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم تغن عنهم".

ولما هول أمرها بانبهامها وعمومها، زادها تهويلًا بتقسيم الناس فيها، وبدأ بالشقي لأن المقام لإنذار المؤثرين للحياة الدنيا، وسوغ الابتداءَ بالنكرة التفصيلُ فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ أي: ذليلة مخبتة من الخجل والخوف والحسرة ﴿عَامِلَةٌ﴾ فيما تبتغي به النجاة حيث لا نجاة، مما كلفتها به الزبانية من جر الأغلال وخوض النيران ونحو ذلك، بإهماله العمل في الدنيا ﴿نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ أي: هي في ذلك في غاية التعب والدؤوب في العمل، وذلك لأنهم لم يخشوا الله في الدنيا فلم يعملوا وينصبوا في طاعته، فاضطرهم في ذلك اليوم إلى أعظم مما أبوه في الدنيا مع المضرة دون المنفعة.

ويجوز أن يراد به الذين تعبوا في الدنيا وهم على غير الإسلام كرهبان النصارى وزنادقة المتصوفة، بأن يكون ﴿وجوه﴾ مبتدأ و﴿يومئذ﴾ خبره، أي: كائنة يومئذ، شأنها أنها خاشعة، أي: في الدنيا، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء عنه.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ لأنها عملت على خلاف ما حده لها نبيها؛ لِما أحاط بها من الغفلة، فلم تدع لها موضعًا يصلح لدخول الرحمة منه. ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ أي: بلغت غايتها في الحر فصار يسقط منها لحم وجوههم وتقطع أمعاءهم.

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾ أي: يبيس الشبرق، وهو شوك ترعاه الإبل رطبًا لا يبسًا وهو سم، ونبات منتن يرمى به البحر، قال مجاهد وقتادة وعكرمة: "وهو أخبث طعام"، أو أنه كناية عن أقبح العيش لا لمعيّن والله أعلم، قال الملوي: "سمي ضريعًا لأن الإنسان يتضرع عند أكله من خشونته ونتنه". ولما حصر أكلهم في هذا نفى عنه فائدة الطعام فقال: ﴿لَّا يُسۡمِنُ﴾ ولما نفى عنه ما يقصد للرفاهية وبدأ به لأن المقام له، نفى ما يقصد للكفاف فقال: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾ لأنهم كانوا يأكلون الحرام فتنبت عليه لحومهم فيفسدها بفساده، وتنمو به نفوسهم فيخبثها بخبثه، ويتغذون بالشبه أيضًا.

ولما ذكر الأعداء أتبعه الأولياء فقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨﴾ بضد الناصبة؛ لأنهم أتبعوا أنفسهم في دار العمل. ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ أي: عملها للآخرة ﴿رَاضِيَةٞ ٩﴾ لما رأت من ثوابه تود أن جميع سعيها في الدنيا كان لذلك، بعد أن كان سعيها للآخرة كريهًا إليها في الدنيا لا تباشره إلا بشق الأنفس. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠﴾ بما صرفوا أنفسهم عن الدنايا ورفعوا هممهم إلى النفائس. ﴿لَّا يُسۡمَعُ﴾ بالبناء للمفعول وهو أبلغ في النفي ﴿فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١﴾ أي: لغو ما أو نفس تلغو أو كلمة ذات لغو على الإسناد المجازي، بل المسموع فيها التحميد والتنزيه؛ لحمل ما يرى فيها من البدائع على ذلك مع نزع الحظوظ الحاملة على غيره، بما كانوا يكرهون من لغو أهل الدنيا المنافي للحكمة.

ولما نفى عن الجنة المنغصات أثبت فيها الملتذات، وكان الأكل قد فهم من ذكر لفظ الجنة، ذكر المشروب لذلك ولدلالة جريانه على حسن الجنة فقال: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ﴾ مقابلة لعين أهل النار ﴿جَارِيَةٞ ١٢﴾ فهي لا تنقطع، فماؤها يعم نواحيها كما يجري من ساق الشجرة الكبيرة إلى جميع أغصانها وثمارها، ويزيد على ذلك بأن جريه من أسفل إلى فوق، بما كان لهم من الخضوع الذي يُجري منهم الدموع. ﴿فِيهَا سُرُرٞ﴾ وهو مقعد عال للملك لينقل إلى الموضع الذي يشتهيه، سمي بذلك لأنه يسر النفس ﴿مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾ في الجهة والقدر ارتفاعًا عظمته من عظمة رافعها الذي رفع السماء، بما كانوا يتواضعون ويباشرون من العبادات على التراب [ويتركون رفيع مناصب الدنيا لأجل الدين].

ولما كان المستريح محتاجًا لتكرار الشرب قال: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤﴾ أي: ملأى ويسهل تناولها. ﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي: مساند ﴿مَصۡفُوفَةٞ ١٥﴾ فهي في غاية الكثرة كأنها الروابي المنضدة

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي: بسط عريضة كثيرة الوبر كأنها الرياض فاخرة ﴿مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾ أي: مبسوطة مع التفرق، بما بسطوا أنفسهم في الدنيا للحق وألانوها له.

ولما صور تلك الدار وكانوا ينكرونه، وبخهم بقوله مذكرًا لهم بما يدل على قدرته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ ولما كانت ملابستهم للإبل أكثر، وكانت فردة في المخلوقات مع كثرة المنافع وأكلها لكل مرعى واجتزائها باليسير وطول صبرها عن الماء مع كبرها وقوتها، فكانت أدل على ذلك قال: ﴿إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾ التي تجر الأثقال إلى الأقطار منقادة لمقتادها، تحتمل العطش لتُقطع بها المفاوز، وتتأثر بالصوت الحسن فتجد في سيرها، ولا تكذب فإنها لا تبرك عجزًا عن الحمل إلا وليس فيها قوة، فلعله مثّل العينَ الجارية بدَرِّها، والسررَ المرفوعة بارتفاعها براكبها بعد بروكها ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨﴾ فذلك دال على القدرة على إيجاد الجنة العالية ورفع السرر فيها.

ولما ذكر العالي من الحيوان والعالي من الأكوان، أتبعه أعلى الأرض فقال: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾ فوضْعها كذلك على ما فيها من المنافع من المياه الجارية والأشجار المختلفة، أعجب من وضع الأكواب والنمارق. ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾ أي: بسطت، وليس ذلك بدون القدرة على بث الزرابي. ولما حث على النظر في عجائب صنعه لتعلم قدرته على البعث وكل ما ذكر أنه يفعله في الجنة والنار، سبب عنه قوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ بهذه وأمثالها مما يدل على صحة ما نزلنا عليك ليدلهم على كمال قدرة الذي بعثك فينقادوا لك ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ فلا عليك إن لم يتذكروا.

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا﴾ أي: لكن، وقرأ ابن عباس: «أَلَا» على أنها استفتاحية، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلًا بمعنى: أن من أصر على الكفر يسلطه الله عليه فيقتله فيعذبه الله في الدار الآخرة ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾.

ثم علل إخباره عن عذابه في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا﴾ فأتى بأداة دالة على أنه كالواجب في أنه لا بد منه؛ لتمام القدرة والتنزه عن العبث والجور ﴿حِسَابَهُم ٢٦﴾ وذلك يكون في الغاشية، فقد التف آخرها بأولها، والله الهادي.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الاستدلال على آخر الغاشية من الإياب والحساب، وأدل ما فيها على هذا المقصود «الفجر» بانفجار الصبح وانبعاث النيام والانتشار في النهار.

لما ختمت تلك بوجوب الإياب للحساب، وكان تجديد الليل والنهار دالًا على البعث، وكان الحج قد شرعه الله على وجهٍ مذكر به قال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ من يوم النحر الذي هو أول أيام الإياب للبيت. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ﴾ لمن تعجل في يومين ﴿وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ لمن أتم، وعنه ﷺ: «العشر الأضحى، والشفع يوم الأضحى، والوتر يوم عرفة». ﴿وَاللَّيْلِ﴾ من ليلة النفر ﴿إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ أي: ينقضي فيخلفه الفجر ويرجع فيه الذين آبوا إلى الله إلى ديارهم. ولما كان هذا قسمًا عظيمًا في تذكيره بالبعث ودلالته عليه مع ما لهذه الأشياء من الجلالة قال: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

وقال ابن الزبير: "لما حث على الاعتبار بما يرونه من خلق الإبل ورفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض وكل ذلك لمنافعهم، ابتدأ وجهًا آخر من الاعتبار وهو حال من تقدمهم، فلا بتلك استبصروا ولا بهذه اعتبروا، فسيتذكرون حين لا ينفع التذكر ﴿إذا دكت الأرض دكًا﴾ إلى ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾".

وطوى جواب القسم وهو: ليبعثن، ولما دلت المفاوتة في ذلك على أن فاعلها قادر قهار، أتبعه الدلالة بقهر القهارين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ بالأمم الماضية بما شاركوا به هؤلاء من تكذيب الرسل وجعْلِ محط نظرهم الدنيا، وعملوا أعمال من يظن الخلود، وبدأ بأشدهم فقال: ﴿بِعَادٍ ۝٦﴾ الذين بلغوا في الشدة أن قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ [فصلت: ١٥] وقال لهم نبيهم: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ [الشعراء: ١٢٩]. وبيّنهم على حذف مضاف فقال: ﴿إِرَمَ﴾ أي: أهلها ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ أي: البناء العالي الثابت بالأعمدة ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾.

ثم ثنى بأقرب الأمم إليهم زمانًا وشانًا فقال: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا﴾ أي: نقبوا وقطعوا ﴿الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩﴾ فنقروا بيوتًا في الجبال، فِعلَ من يفني الزمان. ولما ذكر القبيلتين من

العرب، ذكر بعض من جاورهم من العجم؛ لما في قصتهم من العتو والعجب فقال: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ﴾ أي: وفعل بفرعون ﴿ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠﴾ أي: الذي ثبّت ملكه تثبيت من يظن بقاءه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: كل هؤلاء الكفرة وأتباعهم ﴿طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ﴾ عقب طغيانهم وبسببه ﴿فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢﴾ بالكفر والظلم مما صار سنة لمن سمع به.

ولما كان ذلك موجبًا للعذاب قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ أي: جعله في شدته وتمكنه كالمصبوب، وفي إسراعه إليه والتفافه به كالسوط. ثم علل أخذه لكل ظالم وانتقامه من كل مفسد بأنه رقيب فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ أي: لا يفوته شيء، بل هو قادر ومطلع اطلاع من يريده بالإقامة في مكان الرصد وزمانه.

ولما ذكر سبحانه أن عادةَ هؤلاء الطغيان، وعادةَ الرب تعالى فيمن تولى وكفر أنه يعذبه، ذكر عادة الإنسان من حيث هو، فقال مشيرًا إلى ما كانت الكفار تقوله من أنهم آثر عند الله من المسلمين لإيساعه عليهم في الدنيا: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ أي: خالطه بما يميله ويحيله ﴿رَبُّهُۥ﴾ ليظهر شكره أو كفره ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ۝١٥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٦﴾ أي: فيظن أن ذلك عن استحقاق فيترفع به.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ ليظهر صبره أو جزعه ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيق بحسابٍ وتقدير ﴿عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ۝١٧﴾ فجعله بمقدار ضرورته، ولم يقل «فأهانه» تعليمًا للأدب معه سبحانه، وصونًا لأهل الله عن هذه العبارة لأن أكثرهم مضيق عليه في دنياه، ولأن ترك الإكرام لا ينحصر في كونه إهانة ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٨﴾ فيضيق بذلك ذرعًا ويكون أكبرَ همه.

ولما كان هذا توبيخًا لقصور نظره، فإن الإقتار قد يؤدي إلى سعادة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى شقاوتهما وهذا الغالب، قال ردعًا عن مثل هذا: ﴿كَلَّاۖ﴾ أي: إني لا أكرم بتكثير الدنيا ولا أهين بتقليلها، وإنما أتتهم الإهانة لأنهم لا يطيعون الله، وربما كان بالتوسعة أو الإقتار، فربما عصى فوسع عليه إهانة له، وهذا لمن يريد تعالى به الشقاء فيعجل له طيباته استدراجًا، وربما عصى فضيق عليه إكرامًا له ليكفر عنه.

ولما زجر عن ذلك، ذكر أن معيار من جبل على حب الطاعة ومن جبل على حب المعصية: بغض الدنيا وحبها فقال: ﴿بَل﴾ يستهينون بأمر الله بالعصيان، ثم ترجمه بقوله: ﴿لَّا يُكۡرِمُونَ﴾ أي: أكثر الناس ﴿ٱلۡيَتِيمَ ۝١٩﴾ لأنه ضعيف لا يرجى من قبله نفع. ولما كان

الإنسان لا يترك حث غيره على الخير إلا لحب الدنيا إن كان المحثوث أعظم منه فيدخره لحوائجه، وإن كان مثله فيخشى أن يقارضه بذلك فيحثه على مسكين آخر، وكان الإحسان بالحث على الإعطاء أعظم من الإعطاء لأنه يلزم منه الإعطاء بخلاف العكس[٧٧]، قال: ﴿وَلَا يَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٢٠﴾.

ولما دل على حب الدنيا بأمر خارجي دل عليه بأمر في الإنسان فقال: ﴿وَيَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا ۝٢١﴾ أي: ذا جمع بين الحلال والحرام، فإنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون ما جمعه المورث وإن كان حرامًا، ويقولون: لا يستحق المال إلا من يقاتل ويحمي الحوزة. ثم صرّح بالمقصود فقال: ﴿وَيُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٢﴾ أي: كثيرًا مع حرص وشره، فصار قصارى أمرهم النظر الدنيوي.

ولما كان السياق هاديًا إلى أن التقدير: يحسبون ذلك يوفر أموالهم ويصلح بالهم، زجر عنه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ ثم استأنف ذكر ما يوجب ندمهم وينبههم من رقدتهم، ويعرّفهم أن نمو المال لا يوجب السعادة فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ فسُوِّيَت. ولما دلت التسوية على مجيء أمر عظيم، فإن العادة في الدنيا أن الطرق لا تعم بذلك إلا لحضور عظيم كالسلطان قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۝٢٣﴾ روي أنه يؤتى بها «لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»، وهو كقوله: ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ [النازعات: ٣٦].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذ وقعت هذه الأمور ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ كل ما كان ينفعه في الدنيا وما يضره، فيعلم أن حبه للدنيا لم يفده إلا خسارًا فيهون عليه البذل، وليست تلك الدار دار العمل فلذلك قال: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾ أي: نفع التذكر العظيم فإنه في غير موضعه. ولما كان الندم يقتضي أن يعمل الإنسان ما ينافيه، بين أنه ليس هناك عمل إلا إظهار الندم فقال: ﴿يَقُولُ﴾ أي: على سبيل التجديد والاستمرار ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤﴾ أي: أيام حياتي في الدنيا أو لأجل حياتي هذه الباقية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي: عذاب الله ﴿أَحَدٌ ۝٢٥﴾. ولما جرت العادة بأن المعذَّب يستوثق منه بسجن أو غيره لئلا يهرب أو يقتل نفسه قال: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ فلا

---

(٧٧) أو أن ترك الحث أدل على البخل وفساد الطبع؛ لأنه لا ينقصه به شيء.

يخاف الإنسان من أحد يوم القيامة كخوفه من الله؛ لأنه لا يتخيل أحدٌ أن أحدًا يقدر على شيء من الضر ليُخشى كما يقع في الدنيا، بل يُتوهم فيها كثيرًا أن عذاب من يخشونه أعظم من عذاب الله -وإن عذاب الدنيا لو اجتمع على إنسان وحده لا يساوي رؤية جهنم بذلك المقام- ولذا يخافه أكثر من خوف الله، وقد يكون الضمير للإنسان فيكون كقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولما علم أن هذا الجزاء لا يكون إلا للهلوع الجزوع المضطرب النفس الطائش في حال السراء والضراء، وكان من الناس من ليس كذلك، تشوفت النفس إلى جزائه فأخبر به في قوله: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٣٠﴾ أي: التي هي في غاية السكون؛ لأنها كانت في الدنيا في غاية الثبات على كل ما أخبر به من وعد ووعيد، فهم راجون لوعده خائفون من وعيده. ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ بما تعطَيْنه فلا كدر يلحقك بوجه، كما كنت في دار القلق والاضطراب مطمئنة ساكنة تحت القضاء والابتلاء بالتكريم أو التضييق وثوقًا بما عند الله ﴿مَّرْضِيَّةً ۝٣١﴾ عند الله وسائر خلقه.

ثم بين ما أجمل من الرجوع فقال سبحانه: ﴿فَٱدْخُلِى﴾ بسبب هذا ﴿فِى عِبَـٰدِى﴾ الوافدين علي، أو في أجساد عبادي التي خرجتِ في الدنيا منها، وقراءة «عبدي» تدل على ذلك ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٢﴾ وهذا الآخر هو أولها على ما هو ظاهر المقسم عليه بالفجر من البعث المحتوم (٧٨)، والله الهادي.

(٧٨) وأولها في جزاء الدنيا للكافرين المولعين بها، وآخرها في جزاء الآخرة للمؤمنين المطمئنين بأعمالها، فذكر لكل قوم جزاءهم في الدار التي هي محط نظرهم وغاية سعيهم ترغيبًا وترهيبًا.

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على نفي القدرة عن الإنسان وإثباتها لخالقه الديان، بذكر ما له من الهموم والأسباب الموقعة له فيها قسرًا، والسببِ المخلص منها وهو ما هدى إليه ربه، وذلك هو معنى اسمها، فإن من تأمل أمان أهل الحرم وما هم فيه من الرزق على قلته ببلدهم، مع ما فيه غيرهم ممن هم أكثر منهم وأقوى من الخوف والجوع، علم ذلك ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي أسبغ نعمته على سائر بريته وفاوت بينهم في عطيته ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص أهل ولايته بما يرضيه عنهم من أقضيته.

لما ختم الفجر بالجنةِ التي هي أفضل الأماكن وبالنفسِ المطمئنة، افتتح هذه بأشرف البلاد والأنفس المطمئنة فقال(٧٩): ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ وهو مكة، ولم يصفه بالأمن لأنه لا يناسب سياق المشقة، بخلاف التين فإن المراد فيها الكمالات.

ولما عظم البلد بالقسم به، زاده بالحالّ به إشعارًا بأن شرف المكان بشرف السكان في جملة حالية فقال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ أي: مقيم، أو حلال لك ما لم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدعي أنه لا قدرة لأحد عليه ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ كابن خطل، وتحرم قتل من دخل دار أبي سفيان، وغير ذلك مما فعله الله لك بعد نزولها بأمد؛ علَمًا من أعلام النبوة، أو: يستحلون منك ما لا يستحلونه من صيد وشجر، وكرر إظهاره تعظيمًا وتقبيحًا لأذاهم المؤمنين فيه، فأقسم بسيد البلاد وسيد العباد ﷺ، ولأنه ﷺ أشرف كانت مكابدته أعلى بحيث قال: «ما أوذي أحد في الله ما أوذيت».

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ كائنًا من كان، فدخل فيه أبواه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولعله خص هذه الأشياء بالإقسام تسلية له ﷺ وتثبيتًا، إشارة إلى أن من حُكم عليه بالنكد ينبغي له أن يجعل نكده فيما يرضي الله؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان في مكة في أعظم

---

(٧٩) أو يقال: لما زاد زمان الحج تشريفًا بالإقسام به في الفجر، زاد مكانه كذلك بالإقسام بالبلد الذي يكون فيه، ولما هدد في الفجر بدليل النقل لمصارع الأولين، هدد هنا بدليل العقل على عجز الإنسان فردًا وجماعة، وأن الكل قد كان المال من أسباب هلاكه.

شدة من أذى الكفار في نفسه وأصحابه، وكل والد ومولود في شدة بالوالدية والمولودية وغير ذلك مما لا يحصى من الأنكاد البشرية.

فلذلك كان المقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي: مشقة شديدة محيطة، لو وكله سبحانه في شيء منها إلى نفسه هلك، ولولا هذه البلايا لادّعى ما لا يليق به من عظيم المزايا، فأظهر الله بما للعبد من الضعف والعجز: ما له سبحانه من تمام العلم وشمول القدرة، وعلم أن الإكرام والإهانة ليستا دائرتين على التنعيم في الدنيا والتضييق. ولأجل ما علم من كون الإنسان لا يزال في نكد، توجه الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسِبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ من أهل الأرض أو السماء فيغلبه، حتى أنه يعاند خالقه مع ما ينظر من اقتداره على أمثاله؟

وقال ابن الزبير: "لما أوضح حال من تقدم في السورتين في عظيم حيرتهم وغفلتهم وما أعقبهم ذلك من التذكر تحسرًا حين لا ينفع التندم، عرّف نبيَّنا ﷺ بأن ذلك منهم على حكم السابقة والحكمة بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ ابتلاءً؛ ليكون ذلك قاطعًا لمن سبق له الشقاء عن الاعتبار، فحسبوا أنهم لا يقدر عليهم أحد، فأنت تشاهدهم ذوي أبصار وآلات يعتبر بها النظار ﴿ألم نجعل له عينين . ولسانًا وشفتين﴾ فهلّا أخذ في خلاص نفسه؟ ولكن إذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له".

ولما كان الإنسان لا يفتخر بالإنفاق إذا أدى إلى لإملاق، فعلم أن مراده أن معه أضعاف ما أنفق؛ لتحقيره إياه بلفظ الإهلاك قال: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ أي: وذلك قليل من الكثير الذي معي، قلّدت به أعناقَ الرجال المنن، واستعبدت به الأحرار في كل زمن. [ولما كان متكمِّلًا بذلك، وكان من شهوات النفس] أن تكون أموره مستورة فلا يظهر على غيه أحد، أنكر عليه بقوله: ﴿أَيَحْسِبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ في عمله هذا سره وجهره وجميع أمره، وهذا كناية عن أنه يعمل من المساوئ أعمال من يظن أنه لا يطلع عليه، فلذلك نبهه الله تعالى ليأخذ حذره ويحرز عمره.

ثم قال مذكرًا له بما كان يجب عليه من الشكر: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ يبصر بهما وإلا لتعطل عليه أكثر ما يريد ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ يستران فاه ويعينانه على الأكل والشرب والنطق بفصاحة، فيجتمع له أمره.

ولما كان لله على كل أحد منة جديدة في إبقاء هذه الآلات عبر بالمضارع، ولما لم يكن كل أحد مهديًا في كل أمره بل كان المنكرُ عليه لم يؤهل للخير، عبّر بالماضي فقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أي: طريقي الخير والشر فصار موضعًا للتكليف، قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، يا أيها الناس إنما هما نجدان: نجد خير ونجد شر، فما جعل نجدَ الشر أحب إليكم من نجد الخير؟».

والنجد طريق في ارتفاع، عبر عن الخير والشر به؛ لإعلائهما الإنسان عن رتبة باقي الحيوان، ولأنه لا يختار أحدهما إلا بمعاناة كمن يصعد في عقبة، والله تعالى يعلي من أراد على ما شاء منهما، بخلاف ما كان يقتضيه ظاهر حاله من أنه لا يحب تكلف شيء أصلًا، إظهارًا لقدرته تعالى، أما صعوبة طريق الخير فبما حفه به من المكاره، وأما الشر فواضح، وجعل سبحانه الفطرة الأولى بحيث تدرك الشرَّ وتنهى عنه، والخيرَ وتأمر به، غير أن الشهوات والحظوظ تعالجها، والغالب من أعانه الله.

ولما كان معنى ما مضى أن الإنسان عاجز وإن تناهت قوته، وأنه مفضوح في سره كما هو في جهره، كما أشار إليه حديث جندب: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها» وأنه كان يجب عليه شكر تلك القوى التي جعلها آلات للكفر، سبب عنه قوله تفصيلًا لما يوصل إلى الراحة في العقبى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي: وثب ورمى بنفسه بسرعة وشدة في الخير، كأنه أتاه من غير فكر ولا روية بل هجمًا ﴿ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ وهي طريق النجاة؛ لأنا حجبناه عنها.

وذلك أن الخير لما كان مرغوبًا فيه جعلناه في بادئ الأمر كريهًا مستصعبًا حتى صار لمخالفته الهوى كعقبة كؤود لا ينال ما فيه من مشقة الصعود إلا بعزم وتأديب وشديدِ مجاهدة للنفس والهوى والشيطان بحيث يكون متعاطيه كالرامي بنفسه فيه، فكان هذا سببًا لأن هذا الجاهل لم يختر لنفسه الخير، ومن اقتحم عقبة الأعمال الصالحة اقتحم عقبة الصراط، فكانت سهولتها عليه بقدر مكابدته لهذه، واستراح من تلك المكابدات والأحزان والهموم وصار إلى حياة طيبة.

ولما بين أنه لا خلاص من النكد إلا باقتحامها، شرع في تفسيرها بادئًا بتهويل أمرها، فقال معبرًا بالماضي الذي جرت عادة القرآن بأنه يشرح المستفهَم عنه بعده: ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ أي: لم تعرف صعوبتها وعظمة ثوابها. فلما تفرغ القلب بالاستفهام عما لا

يعرفه، قال معبرًا بالفك الذي هو أدنى ما يكون من العتق؛ لأنه الإعانة فيه ولو بما قل: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ من الأسر أو الظلم أو الغرم أو السقم، شكرًا لمن أولاه الخير وتنفيسًا للكربة، لا رياء وسمعة كما فعل هذا الظان الضال ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ أي: جوع عام، فكان حاملًا على الضنة بالموجود خوفًا من مثل ما فيه المطعَم، فآثر على النفس اعتمادًا على الله ﴿يَتِيمًا﴾ أي: لا أب له يُرجى أو يُخاف ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ فيجمع بذلك بين صدقة وصلة. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ أي: حاجة مقعدة له على التراب، فهو لا يقصد بإطعامه إلا سد فاقته.

ولما كانت هذه الأفعال خيرًا في نفسها تدل على جودة الطبع، أشار إلى لأنه لا يوفق لها إلا مخلص وإن كان غير مستند إلى شرع، وإلى ما يفيده من سهولة الانقياد، وإلى عظمة الإيمان = بالتعبير بأداة التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أي: بعد التخلق بهذه الأخلاق الزاكية، للدلالة على صفاء جبلته وجودة عنصره ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عندما دعاه إليه الهادي، فحينئذ تعلم استقامة طبعه وحسن نيته.

ولذا كان الصديّق أعلى الناس بعد النبيين، لأن هذه أفعالُه قبل الإسلام كما قال له ابن الدغنة ما قالته خديجة لرسول الله: "إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكَلّ وتعين على نوائب الحق"، فلما شرب من صافي مشربه توفيقًا من الله لم يتلعثم حين دعاه، ولكماله رضي الله عنه لم يشرب قط خمرًا، وكان إذا ليم على ذلك في الجاهلية قال: "لو وجدت شيئًا يزيد في عقلي لاشتريته بجميع مالي، فكيف أشتري ما يزيله؟"، وتلك الأعمال لا تصح وإن كانت ممدوحة إلا بالإيمان، أما بعده فواضح، وأما قبله فبانعطافه عليها كما قال ﷺ: «أسلمت على ما سلف منك من خير».

ولما كان الإيمان معليًا للإنسان، حاملًا له على محاسن الأعمال؛ لأنه يقود إلى شرائع الدين الموجبة للجهاد، وكان الصبر لمرارته لا يدوم إلا بالتعاون قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ في اقتحام العقبات، ولما كان الإنسان لا بد أن تعرض له من غيره مخالفة توجب قسوته عليه، فكانت الرحمة من ثمرات الاصطبار المثمر للعدالة قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ التي توجب لهم الحب في الله والبغض فيه؛ لأنهم كانوا قبل الإيمان متهيئين للتزكية، فصاروا بعده في غاية النورانية، ثم ذكر نتيجة ذلك فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ وهذا تعريض بذلك الذي أتلف ماله في المنافسة.

ولما كان الصنف الآخر هم من اقتحم العطبة، وقطع من يحق وصله، ووصل من يحق قطعه، فكان التقدير: ثم كان من الذين كفروا وتواصوا بالملأمة وعاملوا بالقسوة، عطف عليه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولما كان الكفر بالآيات من أسوأ أنواع الكفر؛ لأنه كفر بما جعله الله علمًا على غيب عهده قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ أي: مطبقة الباب مع إحاطتها بهم من جميع الجوانب، بما أفهمته أداة الاستعلاء، ومع الضيق والوعورة، وهذا لعمري أشد الضيق والكبد، فعُلم أن أوله هو هذا الآخر.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها إثبات تصرفه تعالى في النفوس وجميع الأكوان، واسمها «الشمس» واضح الدلالة على ذلك بتأمل القسم والمقسم عليه.

لما أثبت في سورة البلد أن الإنسان في كبد، وختمها بأن الكافر في أنكد النكد وهو النار المؤصدة، أقسم أول هذه على أن الفاعل لذلك هو الله؛ لأنه يحول بين المرء وقلبه، وبين القلب ولبه، فقال مقسمًا بما يدل على تمام علمه وقدرته في الآفاق علويها وسفليها، والأنفس سعيدها وشقيها، مفتتحًا بآية النهار: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ ثم أتبعه آية الليل فقال: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾. ثم ذكر ما هاتان آيتاه فقال: ﴿وَالنَّهَارِ﴾ الذي هو محل الانتشار فيما جرت به الأقدار ﴿إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ وذلك بمقادير معلومة لا يعتريها اختلال وانحلال حتى يريد ذو الجلال.

ولما ذكر الآيتين وأثرهما، ذكر محل الكل فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ ثم رقى الأفكار من المحسوسات إلى الباطن الأعلى المقصود بالذات وهو المبدع لذلك كله فقال: ﴿وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦﴾ قال أهل البصائر: "وليس في العالم الآفاقي شيء إلا وفي العالم النفساني نظيره"، ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَنَفْسٍ﴾ وعبر بالتسوية حثًا على تدبر أمرها للاستدلال على خالقها للسعي في إصلاحها فقال: ﴿وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ أي: عدّلها على القانون الأحكم، وتقدير الجواب: لقد طبع الله نفوسكم على طبائع متباينة بما جعل لكم من القدرة والاختيار، وأبلغ في التقدم إليكم في تزكية نفوسكم.

وقال ابن الزبير: "لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الإنسان من الكبد مع ما جعل له من آلات النظر وبسط له من الدلائل والعبر، وأظهره في صورة من ملك قياده وميز رشده وعناده، أقسم في هذه السورة على فلاح من اختار رشده، وخيبة من عادى هداه فاتبع هواه فقال: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ الآيتين".

ولما كان أعجب أمورها الفجور وهي تعلمُ قبحَه وحسنَ التقوى، وتذوقُ شهوة الفجور ومرّ التقوى، قال معجّبًا؛ لأن البهيمة لا تقدم على ما تعلم ضره ولو قطعت، والآدمي يقدم عليه

ويقاتل من منعه منه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أي: انبعاثها مع دواعي الشهوات بسبب طبعها الذي عدّل فيه المتنافرات فقسرها على التمازج ﴿وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ أي: خوفها الذي أوجب سكونها وتحرزها بوقايات الشريعة، ودل بالإضافة على أنه منسوب إليها ومكتوب عليها وإن كان بتقديره؛ لأنه أودعها قوة واختيارًا لكل من النجدين وأوضحهما.

ثم بيّن ما يتأثر عن التقوى والفجور فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي: ظفر بجميع المرادات ﴿مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ أي: نماها وأصلحها وصفاها بما يسره الله له من العلم النافع والعمل الصالح. ﴿وَقَدْ خَابَ ۝١٠﴾ أي: حرم مراده مما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر وبطل سعيه ﴿مَن دَسَّىٰهَا ۝١١﴾ أي: أغواها وأفسدها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال، وأخفاها بالجهالة والفسوق، وأقل التدسيس إهمال الأمر.

ولما كان الترهيب أحث على الزكاء، قال دالًا على خيبة المدسي؛ ليعتبر به من سمع خبره لا سيما إن عرف أثره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وخصهم لأن آيتهم مع وضوحها: هي أدل الآيات على الساعة، والعرب يعرفونهم ﴿بِطَغْوَىٰهَا ۝١٢﴾ أي: بسبب ما لنفوسهم من الطغيان والإسراف في الكفر والمعاصي، وطغى واوي يائي يقال: طغى طغوانًا وطغيانًا، وعبّر بالواوي لقوتها فأفهم أنهم بلغوا النهاية في تكذيبهم، فكانوا على الغاية من سوء تعذيبهم.

ودل على تكذيبهم بقوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾ عاقر الناقة؛ للمشاركة في الكفر والزيادة بالعقر وهو قدار بن سالف، أو هو ومن مالأه، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع. ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ بسبب الانبعاث أو التكذيب ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وعبر بالرسول؛ لأن وظيفته التحذير الذي ذكر هنا، ولذا قال مشيرًا بحذف العامل إلى ضيق الحال؛ لعظيم الهول وسرعة التعذيب عند مسها: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ الذي لا يقر من اجترأ على ما أضافه إليه، والعامل: دعوا أو احذروا أو نحوه ﴿وَسُقْيَٰهَا ۝١٣﴾ فلا تذودوها في يوم نوبتها.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: عقب أمره، أو تكون الفاء هي الفصيحة أي: قال لهم ذلك فكانت بعده بينه وبينهم أمور فكذبوا فيها كلها ﴿فَعَقَرُوهَا ۝١٤ فَدَمْدَمَ﴾ أي: عذب عذابًا مطبقًا مستأصلًا، قال الرازي: "والدمدمة: تحريك البناء حتى ينقلب"، ودل بأداة الاستعلاء على إحاطته فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ودل على شدته بذكر صفة الإحسان؛ لأنه لا أشد غضبًا ممن كفر إحسانه فقال: ﴿رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٥﴾ أي: الدمدمة، فجعلها كأرض بولغ في

تعديلها فلم يكن فيها شيء خارج عن شيء، وكل نفس هي عند صاحبها كالناقة التي أوصى الله بها، فإن لم يرعها استحق الدمدمة. ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ١٦﴾ أي: عاقبة الدمدمة، فإنه الملك الأعلى الذي كل شيء في قبضته.

وقد رجع آخرها على أولها بالقسم وجوابه المحذوف الذي هو طبع النفوس على طبائع مختلفة، ونفس القسم أيضًا فإن من له هذه الأفعال الهائلة والتدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة، والله الموفق.

سورة الليل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على مقصود الشمس وهو التصرف في النفوس، بإثبات كمال القدرة بالاختيار، باختلاف الناس في السعي مع اتحاد مقاصدهم وهي الوصول إلى الملاذ والراحة، واسمها «الليل» أوضح ما فيها على ذلك بتأمل القسم والجواب.

لما بين في الشمس حال من زكى نفسه ومن دساها، فعلم أن الناس مختلفون في السعي في النجدين فتباينوا في مقاصدهم، بعد أن أثبت تصرفه في النفوس بالفجور والتقوى، أقسم أول هذه بما يدل على عجائب صنعه في ذلك، وشرح جزاء كلٍّ تحذيرًا وترغيبًا، وبين ما به التزكية والتدسية فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾. ولما ذكر المتخالطين معنى، أتبعهما المتخالطين حسًا فقال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

ولما ذكر ما هو محسوس التخالف، أتبعه ما هو معقول التباين فقال: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ﴾ في التوصل إلى مقصد واحد، ولذا أكده لأنه لا يكاد يصدق اتحاده مع اختلاف السعي فقال: ﴿لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ فتنافيتم في الاعتقادات والمقالات، وتباينتم بأفعال طيبات وخبيثات.

وقال ابن الزبير: "لما بين حالَهم في الافتراق، أقسم على ذلك فقال: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ فاتصل بقوله: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ١٠]، إن قوله: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى ﴿فسنيسره للعسرى﴾ يلائمه تفسيرًا وتذكيرًا بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وبحسب السوابق: قوله: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس: ٨]".

ولما طابق بين القسم والمقسم عليه، شرع في بيان تشتتِ المساعي والجزاءِ لها، فقال مسببًا عن اختلافهم: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾ وهي العدل التي هي أحسن الكلام من التوحيد وما يتفرع عنه من الوعود الصادقة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ وهي الرحمة المقتضية للعمل بما يرضيه تعالى ليحي حياة طيبة ويدخل الجنة. ولما ذكر المزكي وثمرته، أتبعه المدسي وشقوته فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ عما وعد به من الثواب. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ وهي العمل بما يغضبه تعالى الموجب لدخول النار وما أدى إليه.

ولما كان أهل الدنيا إذا وقعوا في ورطة تخلصوا منها بأموالهم قال: ﴿وَمَا يُغْنِي﴾ أي: في تلك الحالة ﴿عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ ويجوز أن يكون استفهامًا إنكاريًا فيكون نافيًا للإغناء على أبلغ وجه. ولما كان ربما قيل: لم لا ييسر الكل للحسنى؟ أجاب بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ١٢﴾ أي: البيان للطريق الحق. وأفاد مع ذلك أن له غاية التصرف بقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ١٣﴾.

ولما أخبر أنه ألزم نفسه المقدس البيان وأن له كل شيء، شرح ذلك بما سبب عنه من قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥﴾ أي: الذي هو في الذروة من الشقاوة ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾ الذي هو في الذروة من التقوى، وهو يفهم أن من لم يكن في الذروة لا يكون كذلك، فإن الفاسق يدخلها ثم يخرج منها.

ولما ذكر ما يتعلق بالقوة العلمية، أتبعه ما ينظر إلى القوة العملية فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩﴾. ولما نفى أن يكون بذلك قصد مكافأة، قال مبينًا قصده باستثناء منقطع: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ الذي أحسن إليه بحيث إنه لم ير إحسانًا إلا منه، ولا عنده شيء إلا وهو من فضله ﴿ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠﴾ من كل شيء، فلا يمكن أن يعطي أحدٌ من نفسه شيئًا يقع مكافأة له.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ٢١﴾ بالجنة العليا والمزيد بوعد لا خلف فيه، بعد المدّ له في الحياة الطيبة، بما أشار إليه التنفيس، ولا بدع أن يكون الوعد على هذا الوجه الأعلى؛ لأنها نزلت في أبي بكر حين اشترى بلالًا في جماعة من ضعفاء المسلمين يؤذيهم المشركون فأعتقهم، ومن أبدع الأشياء تعقيبها بالضحى التي فيها للنبي ﷺ: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الآية: ٥] إشارة إلى أنه أقرب أمته إلى مقامه.

وقد رجع آخرها على أولها بأن سعيَ هذا الصدّيق مباينٌ أتم مباينةٍ لسعي ذلك الأشقى، وقال بعضهم: إن المراد بالأشقى أبو جهل، والله الموفق.

سورة الضحى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على آخر الليل بأن أتقى الأتقياء في عين الرضا دائمًا، [وعلى تيسيره ﷺ لليسرى؛ إذ هو أجلّ من أعطى واتقى وصدق بالحسنى].

ولما حكم في آخر الليل بإسعاد الأتقياء، وكان النبي ﷺ أتقاهم، وكان قد قطع عنه الوحي حينًا ابتلاء لعباده، وكان به ﷺ صلاح الدنيا والآخرة، وبالملوان صلاح المعاشِ وكثيرٍ من المعاد، أقسم بهما على سعادته فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ وهو أشرف النهار وألطفه وأضوؤه وصدره؛ لأن المقسَم له أشرف الخلائق، [وهو وما أُرسل به صدر كل نور، وقد أشرقت الأكوان بنورِها ألطفَ إشراقٍ وأضوأه]. ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ وقيده بالظلام الخالص فقال: ﴿إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ واعتدل فغطى بظلامه كل شيء وسكنت ريحه فكان في غاية الحسن.

ولما أقسم بهذا القسم المناسب لحاله ﷺ أجابه بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: تركك مفارقًا كفرقة المودع ولو على أحسن الوجوه الذي هو مراد المودع، كما أنه لا يمكن توديع الليل للنهار ولا الضحى للنهار ولا السحر لليل، ولما كان بعض المواصل ليس بواصل، قال نافيًا لكل ترك: ﴿وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ أي: وما أبغضك بغضًا ما، وأفهمت العبارة أن المراتب التقريبية أربع: تقريب بالطاعات ومحبة وهي للمؤمنين، وإبعاد بالمعاصي وبغض وهي للكفار، وتقريب بالطاعات مخلوط بتبعيد للمعاصي وهي لعصاة المؤمنين، وإعراض مخلوط بتقريب بصور طاعات لا قبول لها وهي لعبّاد الكفار.

وقال ابن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس: ٨] ثم أتبعه بقوله في الليل: ﴿فسنيسره لليسرى﴾ إلى ﴿إن علينا للهدى﴾ الآيتين [الآية: ٧ - ١٣]، أنّس تعالى أحب عباده إليه بما منحه من تقريبه له في الدارين فقال: ﴿والضحى﴾ إلى ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾.

ثم عدد تعالى عليه نعمه ثم قال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ الآيتين، وقد حاشاه سبحانه عما نهاه عنه ولكنه تذكير بالنعم، وليستوضح الطريقَ من وُفق من أمته، ولا إشكال في مناسبة استفتاح القسم بالضحى؛ لما يسره به سبحانه لا سيما إذا اعتبر ما ذكر من سبب نزول

السورة وأنه ﷺ كان قد فتر عنه الوحي حتى قال بعض الكفار: قلى محمدًا ربُّه، فنزلت السورة مشعرة عن هذه النعمة والبشارة".

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ التي هي المقصود من الوجود بالذات لأنها باقية، أو الحال المتأخرة لك ﴿خَيْرٌ﴾ وقيد بقوله: ﴿لَّكَ﴾ لأنه ليس كل أحد كذلك، وقد أفهم ذلك أن الناس على أربعة أقسام: منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء، ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر الآخرة وهم الكفرة الأغنياء، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ﴾ للدلالة على أن العطاء -وإن تأخر وقته لحكمةٍ- كائنٌ لا محالة ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ وقد أفهمت العبارة أن الناس أربعة أقسام: معطى راض، وممنوع غير راض، ومعطى غير راض، وممنوع راض.

ولما وعده بالترقية، ذكره بما رقاه به قبل ذلك فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ ولما كان يلزم من اليتم غالبًا جهلُ اليتيم لتهاون الكافل، ومن الجهل الضلال، قال مبينًا أن يتمه وإهماله من الحمل على دينهم كان نعمة عظيمة عليه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: لا تعلم الشرائع ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]، فكنت لهذا لا تقدم على فعل لا تعلم الحكم فيه من عقل صحيح وفطرة سليمة ﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾. ولما كان العيال يمنعون من التفرغ لعلم أو غيره قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أي: ذا عيال لا تقدر على التوسعة عليهم أو فقيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ بالتجارة ثم الغنائم.

ولما ذكره بهذه النعم الثلاث، أوصاه بثلاث مقابلة لها فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ أي: تغلبه، فإنما أدبتك باليتم لتعرف ضعفه، وفوق ذلك كفالته ولهذا قال النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى. ولما بدأ بما كان بداية له، ثنى بما هو نهاية له في أنه يصير رأس الخلق فيُسأل عن كل علم ومال، فقال مقدمًا له اهتمامًا به إشارة إلى عظم جبر الخواطر واستئلاف الخلق في تمام الدين: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ أي: الذي أحوجته العيلة أو غيرها ﴿فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ أي: تزجر زجرًا مهينًا، بل أعطه ولو قليلًا أو رده ردًا جميلًا، وكذا السائل في العلم.

ولما ذكر له تفصيل ما يفعل في هؤلاء، أمره بما يفعل في العلم الذي آتاه، إعلامًا بأنه الآلة التي يستعملها في الأمرين الماضيين وغيرهما؛ لأنها أشرف أحوال الإنسان، وهي أوفقُ الأمور لأن تكون مقطعَ السورة لتوافق مطلعها فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي: فاذكر النبوة وبلغ الرسالة فإنها نعم على الخلق كافة، فإنك مرشد يحتاج الناس إلى الاقتداء بك، وعليهم أن يعرفوا لك ذلك ليؤدوا حقك، واشرح لهم تفاصيل ذلك بما وهبتك من العلم الذي هو أضوأ من ضياء الضحى، وقد رجع آخرها على أولها بالتحديث بهذا القسم والمقسم لأجله.

ولقد امتثل ﷺ وابتدأ التحديث بالتكبير كما ورد في قراءة ابن كثير ورواية السوسي عن أبي عمرو، وسببه أن جبريل لما أتى النبي ﷺ بعد فترة الوحي فتلاها عليه، كبر مسرورًا لِما كان أحزنه من الفترة ومن قول المشركين: قلاه ربه، واختلف في لفظه، فمنهم من اقتصر على «الله أكبر» ومنهم من زاد التهليل فقال: «لا إله إلا الله والله أكبر» وهذا هو المستعمل، ومنهم من زاد «ولله الحمد».

وحكمته مع ما مضى من سببه: أن التهليلَ توحيدُه سبحانه بالأمر، والتكبيرَ تفريدُه بالكبرياء؛ تنزيهًا له عن أن يتجدد له من العلم ما يكون سببًا لقطع من وصله بوحي أو غيره، والتحميد إثبات التفرد بالكمال له على إسباغ نعمه، وفي ذلك أن هذه السورة آذنت بأن القرآن أشرف على الختام؛ لأن عادة الحكماء تخفيف المنازل في الأواخر على السائرين كتخفيف أول مرحلة رفقًا بالمقصرين، فناسب الذكر بهذا عند الآخر؛ لأن تذكر الانقضاء يهيج مثل ذلك عند السالك، ولأن تقصير السور ربما أوهم شيئًا مما لا يليق فسن التنزيه.

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة وبيان أن المراد بالتحديث بها هو شكرها بالنصب في عبادة الله، وعلى ذلك دل اسمها «الشرح».

لما أمره آخر الضحى بالتحديث بنعمته عليه فصلها في هذه السورة، فقال مقدمًا المنة بالشرح قبل الإعلام بالمغفرة كما فعل في سورة الفتح الذي هو نتيجة الشرح؛ لتتقدم البشارة بالإكرام: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ أي: شرحًا يليق بعظمتنا ﴿لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ أي: نسره بالهجرة، فإنها مدنية عند ابن عباس.

ولما كانت سعة الصدر بالعلم والحكمة هي الجمال باجتماع المحاسن، وكان ذلك الجمال لا يكمل إلا إذا جمع الجلالَ بانتفاء الرذائل قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ أي: حملك الثقيل. ولذا قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ وذلك هو ما دهمه عندما أمر بإنذار قومه ومفاجأتهم بما يكرهون، فخفف تعالى عنه ذلك بما أظهر له من الكرامات والأمور التي لا يحيط بها علمًا إلا الذي أيده بها، وقال ابن عباس: "هو أن جبريل شق صدره فأخرج قلبه فشرحه وأخرج منه علقة سوداء وغسله ثم ملأه علمًا وإيمانًا وحكمة"، يعني فصار يحتمل ما لا يحتمله غيره، وخف عليه ما يثقل على غيره.

وقال ابن الزبير: "حاصل هذه السورة والتي قبلها: تعداد نعمه سبحانه عليه".

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ عند جميع العالمين بمكارم الأخلاق، ثم بالنبوة والرسالة والهجرة، وبأن جعلنا اسمك مقرونًا باسمنا في كلمة التوحيد.

ولما ذكر هذه المآثر التي هي الكمال، وكان الكمال لا يصفو إلا مع مساعدة الأقدار، فإن الهمم إذا عظمت اتسعت مجالاتها، فإذا حصل تعطيل حصل نكد على حسبه، بين أنه أزال عنه العوائق في عبارة دالة على أن سبب المنحة بهذه الكمالات هو ما كان ﷺ فيه من الصبر، فقال حاثًا على التحمل بذكر المعية إشارة إلى تقارب الزمنين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ فإن أهل البلاء ما زالوا ينتظرون الرخاء علمًا منهم بالفطرة الأولى أنه المتفرد بالكمال، وقد أجرى سنته بأن الفرج مع الكرب.

فلما قاسى مما ذكر في الضحى، ثم حمل أعباء النبوة فكان يلقى من الأذى ما لم يحمله غيره، بشره تعالى بأنه ييسر له ذلك فيظهر دينه ويعطيه عطاء هو في اليسر بحسب ما كان من العسر، ولما كان العسر مكروهًا إلى النفوس، وكان لله فيه حكمًا عظيمة كرره مؤكدًا؛ ترغيبًا فيه، ترقبًا لما يسببه فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

ثم قال مسببًا عما أعطاه من اليسر بعد ذلك العسر، ندبًا له إلى الشكر، وإعلامًا بأنه لا ينفك عن تحمل أمرٍ في الله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من جهادك وقت المخاطبة بهذا الكلام، أو من العبادة الثقيلة بسماع الوحي وتحمله، أو من الغرض بالتيسير الذي بشرناك به ﴿فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي: بالغ في التعب بعبادة أخرى.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصة ﴿فَٱرْغَب ۝٨﴾ بالسؤال لأنه القادر وحده، فقد اتصل هذا الآخر بالأول اتصال المعلول بالعلة، ولاءم ما بعدها بذلك أيضًا بعينه.

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها سر مقصود «ألم نشرح» وهو إثبات القدرة الكاملة وهو المشار إليه باسمها، فإن في خلق التين والزيتون من الغرائب ما يدل على ذلك، وكذا فيما أشير إليه بذلك من النبوات، وضم القسم إلى المقسم عليه وهو الإنسان أعجب الأكوان.

لما ذكر في تلك السورة أكمل خلقه وما كمله به، ذكر في هذه أنه خصه بأن جعل نوعه أكمل الأنواع وهو الإنسان، وأصله أعظم الأصول وهو إبراهيم، وبلده أفضل البلاد وهي مكة، وأن من عاداه بمنابذة شرعه أسفلُ الخلق، وأقسم فيها بأشياء أشار بها إلى شرفها في أنفسها وفي عجيب صنعها وشرف بقاعها بسكنى الأنبياء.

وقال ابن الزبير: "هذه سورة متممة للمقصود في اللتين قبلها، إذ أوضحت أن ما أعطى الله نبيه ﷺ مما تضمنتاه هو فضله تعالى يؤتيه من يشاء، فقال منبهًا على ما وقع الإيماء إلى بعضه: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ومع ذلك لا ينفعه ذلك بل إذا لم يصحبه توفيق من خالقه لم ير غير نفسه وأبناء جنسه فقصر نظره على أول ما شاهد، فاعتقد لنفسه الكمال وعمي عن المبتدأ والمآل، فصار أسفل سافلين".

ولما كان التين جامعًا لذة الطعم وكثرة النفع وكونه كفاكهة الجنة بلا شائبة تعوق عن أكله من صنوان أو نوى، وهو مع ذلك سريع الفساد وسيئ التغير، فهو كالفطرة الأولى في مبدئه سهولة وحسنًا وقبولًا لكل من الإصلاح والتغير، وكآخر الهرِم في عظيم تغيره بحيث إنه لا ينتفع بشيء منه، فكان في هذا كالقسم للسافل من الإنسان، أقسم به فقال: ﴿وَالتِّينِ﴾ ولما كان الزيتون في عدم فساده وتغيره وكونه إدامًا ودواءً مع تهيئه للنفع بكل حال كالمؤمن، تلاه به فقال: ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾.

ولما كان مع ذلك مشارًا بهما إلى مواضع نباتهما وهي الأرض المقدسة من الشام، وكانت الكناية بالشجرتين عن البلد المراد به سكانه أبلغ ساقه هكذا، ولم يبق ممن لم يسكنها من أشرافهم إلا موسى وهارون وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فأشار إلى الأولَين بقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ الذي كلم الله فيه موسى، وسنين وسيناء اسم للموضع الذي هذا الجبل به. وأشار إلى الأخيرين من أولاد إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ

﴿٣﴾ أي: الذي يأمن فيه من حل به، وفيه تخويف لهم بأنهم إن لم يتوبوا أخاف بلدهم فردوا أسفل سافلين فيه.

ولما بلغ القسم غايته أجاب بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع الذي جمع الشهوة والعقل، وفيه من الأنس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه، ولهذا قالت الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠] لأنهم علموا أنه إذا جمع الغضب والشهوة إلى العقل جاءت المنازعة فيتولد الفساد ﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ بحسن الصورة واجتماع خواص الكائنات التي هيأته لما خلق له، وقال ابن برجان: "مفطور على فطرة الإسلام الدين القيم، ثم لِما منحناه به من العقل المدرك القويم".

قال البغوي: "خلقه سبحانه مديد القامة، يتناول مأكوله بيده، مزينًا بالعقل والتمييز"، والظاهر أن عقول الناس بحسب الخلق متقاربة وإنما تفاوتت بحسب الجبلة، فبعضهم جعل سبحانه جبلته في غاية الفساد فلا تزال تردي على عقله إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال، فكل ميسر لما خلق له، وبعضهم يصرف عقله بحسب ما هيأه الله له إلى ما ينجيه؛ لأنك تجد أعقل الناس في شيء وأعرفهم به: أشدهم بلادة في شيء آخر، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصنائع والأحوال.

ولما كان الإنسان مع هذا قد سلط الله عليه الشهوات وهيأ طبعه للرذائل وكان أكثر الخلق بها هالكًا حكم على الجنس كله، فقال دالًا بأداة التراخي على بُعد اعوجاجه بَعد العقل لولا القدرة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: إلى ما تحت رتبة الجمادات المستقذرات، فصار يعمل السيئات المقتضية بعد حسن الجمع لغاية الشتات.

أما في خُلقه فبتسليط الشهوات حتى إنه يفعل ما يعلم أنه لا يقره عليه عاقل، فاستعمل ما خلقناه له من الآلات في غير ما خلقناه له فاستحق العذاب.

وأما في خَلقه فبالهرم حتى صار ضعيفًا بعد قوة، ذليلًا بعد عزة، وقال أبو العباس الأقليشي في شرح المقدم المؤخر: "إن الله تعالى خلق الإنسان أولًا في أحسن تقويم، ثم ركبه في هذا الجسم الذي يجذبه إلى أسفل سافلين، فإن قدم عقله على هواه صعد إلى أعلى عليين، وإن قدم هواه هبط إلى أدراك الجحيم".

ولما كان الصالح قليلًا جدًا جعله محط الاستثناء فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكانوا كلما زدناهم سنًا زدنا أنوار عقولهم ونقصنا نار شهواتهم بما أضعفْنا من تعلقهم بالدنيا، ولما كان الإنسان قد يدعي الإيمان كاذبًا قال: ﴿وَعَمِلُواْ﴾ تصديقًا لدعواهم ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان السياق لمدح المؤمنين، حسن أن يعد أعمالهم التي منّ عليهم بها سببًا كما منّ عليهم بالثواب فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ أي: مقطوع أو يُمَن عليهم به، حتى عند المرض والهرم؛ لأنهم إذا عجزوا به كتب لهم أجر ما كانوا يعملون في حال الصحة، ولمن تابع هواه عذاب عظيم لأنه رد أسفل سافلين.

[ولما انقسم الإنسان إلى سافل ومؤمن]، كان ذلك سببًا للإنكار على من يظن أن الله يهمله فقال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ أي: الجزاء لكل أحد بما يستحق؛ لأجل تلك الأعمال التي غلبت فيها الحظوظ على العقول. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ حتى يدع الخلق يهلك بعضهم بعضًا من غير جزاء؟

وهذا الآخر هو أولها قسمًا من جهة النبوات التي ظهر بها حكمه وحكمته.

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الأمر بعبادة من له الخلق والأمر، وكل من اسميها دال على ذلك؛ لأن «اقرأ» يشير إلى الأمر، «والعلق» يشير إلى الخلق.

لما ختم تلك بالجزاء فتشوف السامع إلى ما يوجب حسنه وبأي وسيلة يقف بين يدي الملك من خصال الذين آمنوا، أرشد إلى ذلك في هذه فقال: ﴿إِقْرَأْ﴾ وحذف مفعوله إشارة إلى أنه لا قراءة إلا بما أمره به وهو القرآن، وأفصح بأنه لا يقدر على ذلك إلا بمعونة الذي أحسن تربيته فقال: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ولأنه في سياق الأمر بالطاعة الداعي إليها تذكر النعم: ذكر صفة الإحسان، وتأنيسًا له ﷺ لكونه أول ما نزل.

ثم وصفه بعموم الخلق والأمر إعلامًا بأن له التدبير والتأثير، وبدأ بالخلق لأنه أدل على الوجود وعظيم القدرة وكمال الحكمة فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾. ولما كان خلق الإنسان أبدع من خلق غيره قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ وهو دمٌ جامد غليظ، والطينُ الذي يعلق باليد؛ وليشملهما عبر به، وهم مقرّون بخلق الآدمي من الأمرين، فالآية من أدلة الشافعي على استعمال المشترك في معنييه.

وقال ابن الزبير: "لما تقرر أنه سبحانه أحكم الحاكمين، مع ما تقدم من موجب نفي الاسترابة في نوع الحق إذا اعتبر، أشارت سورة العلق إلى ما به يقع الشفاء وهو كتابه، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وأعلمَ بخلقه الإنسان في أحسن تقويم ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [التين: ٥] فحصل منه افتراق الطرفين.

وقد بين لنا أقصى غاية ينالها الصنف الإنساني فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا ﷺ، فعقب ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الطرف الآخر وهو من أشير إليه من لدن قوله: ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ إلى ﴿كلا لا تطعه﴾ ليظهر تفاوت المنزلتين وتباين الحالتين، وهي العادة المطردة في الكتاب".

ولما أتم ما أراد من أمر الخلق وهو الإيجاد بالأسباب بالتدريج، أخذ في التنبيه على عالم الأمر وهو الإبداع من غير أسباب فقال: ﴿إِقْرَأْ﴾ ولما كان قد قال ﷺ: «ما أنا بقارئ» قال:

﴿وَرَبُّكَ﴾ أي: المحسن إليك والقادر على جعلك قارئًا ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ فهو يعطيك ما لا يدخل تحت الحصر، وأشار إلى أن من ذلك أنه يفيض على أمته الأمية من العلم والحظ: ترتيبُ الحكم بالأكرمية على هذا الوصف الناقل للإنسان من الحال العقلي السافل إلى هذا الحال العالي، قال الملوي: "ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره عقب صفة الأكرمية".

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ وزاد ذلك التعليم عظمة بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: الذي من شأنه الأنس بما هو فيه لا ينتقل إلى غيره بل ينساه إن لم يلهمه ربه إياه ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ فيفيض عليه من علمه اللدني الذي لا سبب له ظاهر: ما يعرف به المقدمات الموصلة إلى النتائج، ولو كان ذلك بالأسباب فقط لتساوى الناس في مدة التعليم وأصل المعلوم، كما تساووا في مدة الحمل وأصل الإنسانية، وقد ذكر سبحانه مبدأ الإنسان ومنتهاه بنقله من أخس الحالات إلى أعلاها؛ تقريرًا لربوبيته وتحقيقًا لأكرميته.

ولما كان العلم قرين الغنى غالبًا، قال معرفًا بعد الإلهيات بالنفس، مبينًا للقسم المردود أسفل سافلين: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ارتدع أيها العالِم عن الطغيان إن نلت الغنى حقًا ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الذي هو نوعك ﴿لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾ وأكده لما لأكثر الخلق من التكذيب به، فإنه لا طاغي يقر بأنه طغى. ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ هذا هو طبعه الغالب، متى استغنى عن شيء عمي عن مواضع افتقاره، ومن كان مفتقرًا إلى شيء كان منطاعًا له، كما في حديث آخر أهل النار خروجًا منها: يقسم لربه أنه لا يسأل غير ما طلبه، فإذا أعطيه واستغنى به سأل غيره، حتى يدخل دار القرار.

ولعله نبه بهذا على أن هذه الأمة ستفتح لها خزائن الأرض فيطغيها الغنى كما أطغى من قبلها وإن أنكروا ذلك، كما قال ﷺ حين بشرهم بالفتوحات: «إنه يغدى على أحدكم بصفحة ويراح عليه بأخرى» ثم قال لهم: «أنتم اليوم خير أم يومئذ؟» فقالوا: بل يومئذ، نتفرغ لعبادة ربنا، فقال: «بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ»، قال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

ولما كان لا دواء لذلك كتذكر الجزاء، قال معرّفًا أن الإنسان مفتقر دائمًا إلى مولاه في حياته ومماته وغناه وفقره: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ ففيه وعيد للطاغي وتحقير لغنى ينقطع.

ولما أخبر بطغيانه وعجل بذكر دوائه؛ لأن المبادرة بالدواء لئلا يستحكم الداء واجبة، دل على طغيانه مخوفًا من عواقب الرجعى فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩﴾ وهو أبو جهل قال: لئن رأيت محمدًا يعفّر وجهه لأفضخن رأسه بصخرة، فجاء ليفعل ما زعم، فنكص على عقبيه وقال: إن بيني وبينه لهولًا وأجنحة!

ولما كان صدُّ العبد عن خدمة سيده أفحش، قال معبرًا بالعبودية، منكّرًا للمبالغة في تقبيح النهي وللدلالة على كمالها: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ أي: خدم سيده الذي لا يقدر أحد أن ينكر سيادته، بالصلاة التي هي أعظم عبادة؛ لأنها أقربُ وصلة إلى الحق وتجردٌ بالكلية عن الخلق، فكان نهيه له عن ذلك نهيًا عن أداء الحق لأهله حسدًا أو بغيًا، فكان دالًا على أن مِن طبع أهل كل زمان: عداوة أهل الفضل وصدهم عن الخير لئلا يختصوا بالكمال.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾ هذا الناهي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾ فكف عن نهي هذا المصلي. ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ وهي عمارة الباطن بالهدى، وعمارة الظاهر المترشحة من عمارة الباطن، فأمر المصليَ بملازمة خدمة سيده المجمع على سيادته، والجواب محذوف تقديره: ألم يكن خيرًا له؟ فليتدبر أموره فلا يُقدِم عليها حتى يعلم أنه هدى وتقوى.

ولما كان التقدير حسب السياق ذلك، بنى عليه قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ بأن المصلي على الهدى فكان مرتكبًا للضلال الذي يدعو إليه الهوى ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ عن قبول الأمر بالتقوى، وذلك التولي: إخراب الباطنِ بالأخلاق السيئة، والظاهرِ بالأعمال القبيحة الناشئة عن التكذيب، وتقدير الجواب: ألم يكن ذلك شرًا له؟ ثم أنكر عليه معجّبًا من علمه أنه ليس بيده شيء، فقال ذاكرًا مفعول ﴿أرأيت﴾ الثاني وهو لا يكون إلا جملة استفهامية: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ فهو جدير بإهلاكه ونصر مطيعه، وجاء الاستفهام الإنكاري هكذا؛ لأنهم يعترفون بكل ما أنكر عليهم فيه.

ولما ذكر ما يمكن أن يكون عليه حال الناهي من السداد، ذكر ما يمكن أن يكون عليه من الفساد، ولما كان هذا الخبيث معرضًا عن هذا العلم الذي هو معترف به كله، قال رادعًا له: ﴿كَلَّا﴾ ليس عنده علم بشيء من ذلك ولا قدرة على أذاه، فليرتدع عن تعاطي

ذلك لأنه لا يضر إلا نفسه، ثم بين أن انتفاء العلم عنه ليس عن غفلة يعذر صاحبها، إنما هو عن تهاون بالخير ورضى بالعمى فقال: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ۝١٥ لَنَسْفَعًا﴾ أي: والله لنأخذن بشدة وعنف مع الجر واللطم والدفع والغيظ، أَخْذَ من يعض مأخوذه ويسود وجهه ﴿بِالنَّاصِيَةِ ۝١٦﴾ أي: بالشعر الذي في مقدم رأسه وهو أشرف ما فيه، والعرب لا تأنف من شيء أنفتهم من أخذ الناصية، وإذا انتهكت حرمة الأشرف فما بالك بغيره؟

﴿نَاصِيَةٍ﴾ أي: عظيمة القبح ﴿كَاذِبَةٍ﴾ أي: متعمدة له ﴿خَاطِئَةٍ ۝١٧﴾ فأغلب أحوالها على غير صواب، تارة عن عمد وتارة عن غير عمد، وما ذاك إلا لسوء جبلة صاحبها حتى كاد لا يصدر عنه فعل سديد، ووصفها بما هو لصاحبها على الإسناد المجازي؛ مبالغة في تكذيبه في أنه يقدر على منع المهتدي أو إذلاله أو شيء من أذاه، إلا إن أذن له صاحب الأمر كله فيما يكون سببًا لزيادة رفعته.

ولما كان عز الكفار بقومهم، قال مسببًا عن أخذه على هذا الوجه المزري: ﴿فَلْيَدْعُ﴾ دعاء استغاثة ﴿نَادِيَهُۥ ۝١٨﴾ من أنصاره وعشيرته ليخلصوه مما هو فيه. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٩﴾ أي: الأعوان الموكلين بالنار ليجروه إليها، وقد اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من هذا الفعل خطًا، ولا موجب لحذفه من العربية لفظًا، وكأن المعنى في ذلك والله أعلم: تشبيه الفعل بالأمر ليدل على تحتّم إيقاع مضمونه، أو: أنّا ندعوهم بأيسر دعاء فيكون منهم ما لا يطاق، فكيف لو أكدنا دعوتهم؟

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يقدر على دعاء ناديه ولا ينتهي عن أذاه بالتهديد، فليرتدع عن كل من ذلك ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في نهيه لك عن الطاعة بالصلاة أو غيرها، ولما كان نهيه عن الصلاة التي هي عماد الدين، وكانت يعبر عنها بالسجود لأنه أشرف أجزائها، ويطلق أيضًا على مطلق العبادة قال: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ ولما كان السجود أقرب مقرّب للعبد إلى الله قال: ﴿وَٱقْتَرِب ۩ ۝٢٠﴾ أي: اجتهد بسرك في القرب إلى ربك والتحبب إليه بكل عبادة لا سيما الصلاة، فإنه «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

قال الإمام الغزالي في كتاب الشكر: "ولقد كان ﷺ لا يرقى من مرتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بُعدًا بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصًا في سلوكه وتقصيرًا في مقامه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم

والليلة سبعين مرة»، ولما قالت عائشة: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟» معناه: أفلا أكون طالبًا للمزيد في المقامات؟ فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧]"، فمن أكثر الدعاء في سجوده فقمن أن يستجاب له.

والصلاة لا تكون إلا بالقراءة، فقد رجع آخرها إلى الأول.

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقصودها تفصيل الأمر الذي هو أحد قسمي ما ضمنه مقصود «اقرأ» وعلى ذلك دل اسمها؛ لأن الليلة فضلت به، فهو من إطلاق المسبب على السبب.

لما كان ذكر الكتاب متى أضمره علمه المخاطب؛ بما في السياق من القرائن الدالة عليه، وبما له في القلب من العظمة، وفي الذهن من الحضور لا سيما هنا؛ لافتتاح العلق بالأمر بقراءته، وختمها بالصلاة التي هي أعظم أركانها، فكانت دلالتها عليه في غاية الوضوح، أغنى ذلك عن التصريح باسمه، فقال مفخمًا له بأمور: إضماره، وإسناد إنزاله إليه، والتعبير بمظهر العظمة، وتعظيم وقتِ إنزاله، والنبيِّ المنزل عليه:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ كله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا مرتبًا هذا الترتيب الذي جمع الله الأمة المعصومة عليه، ثم صار ينزل مفرقًا حتى تم في ثلاث وعشرين سنة، وكلما نزل منه نجم يأمر النبي ﷺ بترتيبه عن أمر الله تعالى، حتى تم في السور على ما هو عليه الآن على ما هو عليه في بيت العزة ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ أي: ذات القدر العظيم، والأعمال فيها ذات قدر، فكأنه لا قدر لغيرها.

وقال ابن الزبير: "وردت تعريفًا بإنزال ما تقدم الأمرُ بقراءته، لمّا تقدمت الإشارة إلى عظيم أمر الكتب، وأن السلوك إليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب، أعلم بليلة إنزاله وعرّفنا بقدرها لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا، وفي التعريف بعظيم قدر هذه الليلة: التعريف بجلالة المنزل فيها".

ولما علم من السياق تعظيمها، قال مؤكدًا له حثًا على الاجتهاد في إحيائها؛ لأن للإنسان من الكسل والتداعي إلى البطالة ما يزهده في ذلك: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ أي: خاليةٍ عنها، أو: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليست فيها، وتسميتها بذلك لعظيم قدرها، أو لأنه يفصل فيها من أم الكتاب مقادير الأمور، فيكتب فيها ما يكون من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ [الدخان: ٤].

وذِكر الألف إما للمبالغة في تعظيمها، أو لأن النبي ﷺ ذكر مؤمنًا من بني إسرائيل لبس السلاح مجاهدًا ألف شهر فتقاصرت إلى المؤمنين أعمالُهم، فأعطاهم الله ليلةً قيامُها خير من ذلك، وأبهمها في العشر الأخير من رمضان ليجتهدوا في إدراكها، كما أخفى ساعةَ الإجابة يوم الجمعة، والصلاةَ الوسطى في الخمس، واسمَه الأعظم في الأسماء، ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي ليتركوا جميعَها، وقيامَ الساعة ليجتهدوا في كل لحظة، وسر ذلك: أن النفيس لا يوصل إليه إلا باجتهاد عظيم؛ إظهارًا لنفاسته وإعظامًا للرغبة فيه وإيذانًا بالسرور به.

ولما عظمها ذكر وجهه فقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام خصه لفضله، أو هو مع أشراف الملائكة، أو خلق أكبر منها، أو أمر تسكن إليه نفوس العارفين وتحصل به البركة ﴿فِيهَا﴾ ودل على زيادة البركة في ذلك التنزل وعظيم طاعة الملائكة بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ متبدئ تنزلهم ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ٤﴾ مما يريده تعالى في ذلك العام. ولما ذكر هذه الفضائل، أنتجت اتصافها بالسلام التام كاتصاف الجنة -التي هي سببها- به، فكان ذلك أدل على عظمتها فقال: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي: ما هي إلا سلام وخير ليس فيها شر، ولا يزال ذلك فيها ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ٥﴾.

فمن تأمل هذه السورة علم ما للقرآن من العظمة فأقبل عليه بكليته يتلوه حق تلاوته كما أمر في سورة «اقرأ»، فأمن من هول يوم الدين المذكور في التين، ومن تلاوته بحقه: تعظيم ليلة القدر لِما ذكر من شرفها، ورجوع آخرها بكون هذا التنزل في ليلة القدر على أولها في غاية الوضوح؛ لأن أعظم السلام فيها: نزول القرآن.

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الإعلام بأن هذا الكتاب القيم من علو مقداره وجليل آثاره أنه لقوم نور وهدى ولآخرين وقر وعمى، وعلى ذلك دلت أسماؤها «الذين كفروا» و«المنفكين»، بتأمل الآية في انقسام الناس إلى أهل الشقاوة وأهل الهداية(٨٠).

لما أخبر أن الليلة الشريفة لا تزال قائمة على تلك الصفة حتى يأتي الفجر الذي يحصل به غاية البيان، أخبر أن أهل الأديان لا يتحولون عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر، وهو القرآنُ المذكور في القَدْر والرسولُ المنزل عليه ذلك فقال: ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ وهذا يدل على ما كانوا عليه قبل ذلك من أنهم يبدلون ما هم عليه من الكفر أو الإيمان ثم لا يثبتون؛ لأن الثبات ليس في جبلاتهم وإنما هو خاطر عارض، ولم يثبتوا إلا على الإسلام بعد مجيء البينة.

ولما كان العالِم أولى باتباع الحق وأشد جرمًا عند فعل ما يقتضي اللوم، بدأ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: منفصلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكًا كليًا بحيث لا يبقى لهم به علقة ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾ أي: الآية التي هي في البيان كالفجر الذي لا يزداد بالتمادي إلا ظهورًا ونورًا، وذلك هو الرسول وما معه من الآيات التي أعظمها الكتاب.

ولذلك أبدل منها قوله: ﴿رَسُولٞ﴾ أي: عظيم، وزاد عظمته بقوله واصفًا له: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾ من كل قذر بالشرك وغيره من كل زيغ، لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها، ولا يمسها إلا المطهرون. ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ أي: في غاية الاستقامة لنطقها بالحق الذي لا مرية فيه، وانفكاكهم: أنهم كانوا مجتمعين على ما في أنفسهم من ظن اتباع الحق إذا جاءهم الرسول المبشر به، فلما جاءهم النبي ﷺ بما لا شبهة فيه تفرقوا فبعضهم آمن وبعضهم كفر.

---

(٨٠) أو يقال: لما عظم القرآن بتعظيم زمان نزوله والنازل به، زاده تعظيمًا ببيان أثره وبتعظيم النازل عليه، مع الإبانة عمّا أُنزل لأجله في ذلك الظرف العظيم، والله أعلم.

وقال ابن الزبير: "لما أمر بقراءة كتابه الذي به اتضحت سبيله وقامت حجته ثم عرّف بليلة إنزاله، عرّفه ﷺ بأن هذا الكتاب هو الذي كانت اليهود تستفتح به على المشركين، حتى إذا شاهدوا ذلك كانوا أول كافر به فقال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ إلى ﴿دين القيمة﴾ وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه مما يثمر الخوف والتسليم والتبرؤ من ادعاء حول أو قوة، فإن هؤلاء قد كانوا على بصيرة من أمره، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر، وحرم هؤلاء وجعلهم بكفرهم شر البرية".

ثم قال مقبّحًا ذنب العالم بإفرادهم بالتصريح: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عما كانوا عليه من الإطباق على الضلال أو الوعد باتباع محمد ﷺ، فاستمر بعضهم على الضلال ووفى بعضهم بالوعد فاهتدى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ فكان حالهم كما قال تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة: ٨٩] ومجيؤها يقتضي اجتماعهم على الحق لا تفرقهم فيه.

وكأنه أشار إلى المشركين بالعاطف ولم يصرح بذكرهم؛ لأنهم لم يتفرقوا إلا يسيرًا في أول الأمر ثم أطبقوا على الهدى لِقويم طبعهم، فدل على غاية العوج لأهل الكتاب؛ لأنهم كانوا -لما عندهم من العلم- أولى بالاجتماع على الهدى، ودل على أن وقوعَ اللدد والعناد من العالم أكثر، وأن حصولَ الآفة لهم هو من نقص طباعهم بتنميته بالمعاصي والتسويفِ بالتوبة، فألفت ذلك أبدانهم فأشربته قلوبهم حتى تراكم ظلامها، فلما دُعوا لم يكن عندهم شيء من نور تكون لهم به قابلية الانقياد.

وزاد في فضيحتهم بقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ والعبادة: امتثال أمر الله تعالى كما أمر على الوجه المأمور به لأنه آمر، مع المبادرة بغاية الحب والتعظيم، وذلك مع الاقتصاد لئلا يمل الإنسان أو يعجب، حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بأن يكون الامتثال لرضاه لا لنفع ولا دفع، ويكون ذلك على الصواب، فإن كثيرًا من العاملين يكون مخلصًا وبناؤه بغير أساس صالح فلا ينفعه بل يكون وبالًا عليه كالرهبان وكثير ممن يعتقد ولاية شخص وهو لا يعرف أن يميز بين الولي والعدو والمكرم والمستدرج.

وحقيقة الإخلاص: إفراد الحق في الطاعة بالقصد، مع نسيان الخلق في الأعمال، **والتوصل إليه**: بالتوقي من ملاحظتهم، مع التنقي عن مطالعة النفس، برؤية العبد نفسه عبدًا مأمورًا

لا يريد ثوابًا، جاعلًا كل شيء وسيلة إلى الله، **وعلامته**: عدم رؤية العمل، ويعرف بالحياء منه لرؤيته أنه ما قام بحق السيد على ما ينبغي، كما قال تعالى: ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: في غاية الميل مع الدليل، فالحنيف: المتبرئ عن أصول الملل الخمس: اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين، وعن فروعها إلى الاعتقادات الحقة وعن توابعها من الخطايا إلى العمل الصالح وهو مقام التقى، وعن المكروه إلى المستحب وهو المقام الأول من الورِع، وعن الفضول وهو ما لا يعني إلى الذي يعني وهو المقام الثاني من الورِع، وعما يجر إلى الفضول وهو مقام الزهد، فالآية جامعة لمقامَي الإخلاص الناظرِ أحدُهما إلى الحق والثاني إلى الخلق، فالإخلاص: لمقام المشتغِل بالمصفَّى له؛ لأنه إفراد الحق بالطاعة، والخوف: لمقام المشتغِل بالمصفى منه؛ لأنه الميل عن سائر المخلوقات إلى الله وما يرضيه.

﴿وَيُقِيمُواْ﴾ بجميع الشرائط والحدود ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لتصير أهلًا لأن تقوم بنفسها، وهي التعظيم لأمر الله، ولما ذكر صلة الخالق أتبعها وصلة الخلائق فقال: ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ شفقة على خلق الله إعانة على الدين، وتدخل في كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصر ولسان ووجاهة وغير ذلك ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة: ٣]، ولما كان هذا دينًا حسنًا بيّنًا فضلوا عنه، وبخهم بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: والحال أن هذا هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ أي: الملة أو النفوس أو الكتب التي لا عوج فيها.

ودل على ما قدرته في أمر المشركين بذكرهم في نتيجة ما مضى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ودل بالإتيان بالوصف هنا والفعل هناك والله أعلم: على أن المشرك يرجع عن شركه إن لم يكن عريقًا فيه بخلاف أهل الكتاب، متى تلبّس أحد منهم بكفر لا يرجع عنه وإن كان على أضعف الوجوه، وكذا كل من ينسب إلى علم ولا سيما إن كان بليدًا، متى عرضت له شبهة بَعُد رجوعه عنها، فلذا جمع بينهم في قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ عذابًا لأجسادهم، واشتراكهم في جنسه لا يوجب التساوي في النوع بل يختلف بحسب درجة الكفر، وينادى تعذيبًا لأرواحهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦﴾.

ولما ذكر الأعداء وبدأ بهم لأن السياق لذم من جمد مع المألوف وترك المعروف، أتبعه الأولياء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان نعيم القلب أعظم قدمه على

نعيم البدن فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ﴾ وعظمه بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ ولما كانت اللذة لا تكمل إلا بالدوام قال: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ولما كان السياق للحث على اتباع الدليل ومفارقة المألوف، أكد معنى الخلود تعظيمًا لجزائهم بقوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾.

ولما كان هذا كله ثمرة الرضا وكان التصريح به أقر للعين قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ فلم يركن إلى التسويف والتكاسل ولم يطبع نفسه بالشر بل كان تواتر إحسان ربه يزيده خوفًا فيزيده شكرًا، فمن خاف ربه هذا الخوف انفك من جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه سبحانه، وما فارق الخوفُ قلبًا إلا خرب.

وقد رجع آخر السورة على أولها بذلك، وبتصنيف الناس صنفين: صنف انفك عن هوى نفسه فأنجاها، وصنف استمر في أسرها فأرداها.

وفي هذه السورة: التحذيرُ من الشك بعد البيان وتقبيح حال من فعل ذلك، وسنةُ التواضع حتى لا يمنع أحدًا ما يراه من علوه من القراءة على من هو دونه، فإنه ما منع أكثر أهل الكتاب من الإسلام إلا رؤية ما كانوا عليه من العلم بكتب الله وسنن الرسل عليهم السلام وجهل العرب بذلك، فنظروا إلى ما كان ولم ينظروا إلى الحالة الآن، فحلق الحسدُ أديانَهم وسلبهم إيمانَهم.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها انكشاف الأمور، وظهور المقدور أتم ظهور، وانقسام الناس في الجزاء في دار البقاء إلى سعادة وشقاء، وعلى ذلك دل اسمها بتأمل الظرف ومظروفه.

لما ختم تلك بجزاء الصالح والطالح في دار البقاء، ذكر في هذه أول مبادئ تلك الدار وأوائل غاياتها، وذكر في القارعة ثواني مبادئها وآخر غاياتها، وأبلغ في التحذير بالإخبار بإظهار ما يكون عليه الجزاء، فقال معبرًا بأداة التحقق؛ لأن الأمر حتم: ﴿إِذَا﴾ ولما كان المخوف الزلزلة ولو لم يعلم فاعلها، وكان البناء للمفعول يدل على سهولة الفعل قال: ﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بحيث يعمها ذلك لا كما يقع في الدنيا من زلزلة بعضها دون بعض، وهوّله بإبهامه لتذهب النفس فيه كل مذهب فقال: ﴿زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

وقال ابن الزبير: "وردت عقب سورة البرية ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآلهما".

ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن الخفي في المضطرب قال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ مما هو مدفون فيها كالأموات والكنوز بما يعطيها الله من القوة عليه كما كان يعطيها قوة أن تخرج النبت الصغير اللطيف الطري، فيشق الأرض الصلبة التي تكل عنها المعاول والحديد، فالذي قدر على ذلك هو تعالى قادر على تكوين الموتى في بطن الأرض وإعادتهم على ما كانوا عليه، كما يكون الجنين في البطن ويشق جميع منافذه من غير أن يدخل إلى هناك بيكار ولا منشار ثم يخرج من البطن.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ لأنه إذا رأى هذا عجب له ولم يدرك سببه لعظمته. ولذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذ كان الزلزال ﴿تُحَدِّثُ﴾ بلسان الحال بإخراج ما في بطنها على وجه يعلم الإنسان به لم زلزلت وأخرجت، وقال ابن مسعود: "بلسان المقال"، ﴿أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ التي لأجلها زلزلت وأخرجت، وكلَّ شيء عُمل عليها شهادة على العاملين، فتعدد أعمالهم حتى يود المجرم أنه يساق إلى النار لينقطع تعداد ذلك العار، وتشهد للمؤمن بما عمل حتى يسره ذلك، فيشهد للمؤذّن كل ما امتد إليه صوته. ﴿بِأَنَّ﴾ أي: بسبب أن ﴿رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ بالإذن في التحديث المذكور.

ولما أخبر بإخراج الأثقال التي منها الأموات، أخبر بهيئة ذلك الإخراج فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ أي: يرجع رجوعًا هو في غاية السرعة والاهتداء إلى موضع النداء. ﴿ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ فيعلموا جزاءها ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ من مسلم أو كافر ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ فالكافر يوقف على أنه جوزي به في الدنيا أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان؛ ليشتد ندمه وحزنه، والمؤمن يراه ليشتد سروره به. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فالمؤمن يراه وقد غفر له ليشتد فرحه، والكافر يراه فيشتد ترحه.

وقد رجع آخرها على أولها بتحديث الأخبار، وقال ابن مسعود: "إنها أحكم آية في القرآن"، وكان رسول الله ﷺ يسميها الفاذة الجامعة، ومن فقه ذلك لم يحقر ذنبًا وإن دق؛ لأنه يجتمع إلى أمثاله فيصير كبيرًا.

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك؛ لإيثار الفاني على الباقي، المدلول عليه بالقسم وهو العاديات، والمقسم عليه وما عطف عليه، وقد علم أن اسمها أدل شيء على ذلك؛ لما هدى إليه القسم والمقسم عليه.

لما ختم الزلزلة بجزاء أعمال الشر، افتتح هذه ببيان ما يجر إليها من الطبع، موبخًا من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز منها، مقسمًا بما لا يكون إلا عند أهل النعم الكبار الموجبة للشكر فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وهي الخيل التي ظهورها عز وبطونها كنز، وهي لرجل وزر ولرجل أجر، فمن ناوى بها أهل الإسلام وأبطره عزها حتى قطع الطريق وأخاف الرقيق كانت له شرًا، ومن جعلها في سبيل الله كانت له أجرًا، ومن حمل عليها ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها كانت له سترًا ﴿ضَبْحًا ۝١﴾ وهو صوت نفَسٍ جهير، ولا يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وأصله للثعلب واستعير للخيل.

ولما ذكر عدْوها أتبعه أثرَه فقال: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ أي: المخرجات للنار باصطكاك نعلها بالأحجار ﴿قَدْحًا ۝٢﴾. ولما ذكر العدو وما يتأثر عنه ذكر غايته فقال: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ على العدو للقتل والنهب، ولما كان الإغارة أروع ما تكون في أعقاب الليل قال: ﴿صُبْحًا ۝٣﴾. ولما كان الأعداء حال الإغارة مختلفًا بحسب الكر والفر فينشأ الغبار الكثير قال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ من شدة العدو ﴿نَقْعًا ۝٤﴾ أي: غبارًا. ولما كان الجمع متى افترقوا حصل الخلل فتوسطهم العدو ففرقهم قال: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ هو المقصود بالإغارة.

ولما كانت الإغارة غالبًا لقهر المغار عليهم عدوانًا إن كان في غير الجهاد، وإن كانت فيه فقل من يخلص فيكون عمله ليس إلا لله كما أشار إليه الحديث القدسي: «إن عبدي كلَّ عبدي: لَلذي يذكرني عند لقاء قرنه»، قال مجيبًا للقسم، حاكمًا على النوع باعتبار عد المخلص لقلته عدمًا، مؤكدًا؛ لما لكل أحد من تكذيبه والبراءة منه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ أي: كفور نكد لسوء المعاملة، يقدِم بما أحسن إليه على ما نهاه عنه، ومصدره الكُنود وهو كفران النعمة، فالمراد هنا بالتعبير بالمبالغة: من يزدري القليل ولا يشكر الكثير، وينسى كثير النعمة بقليل المحنة، ويلوم ربه في أيسر نقمة.

وقال ابن الزبير: "أقسم على حال الإنسان بما هو فقال: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ أي: لكفور، يبخل بالمال كأنه لا يحاسب على قليل ذلك وكثيره: من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ ﴿إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور﴾ أي: ميز ما فيها من الخير والشر ليجازى عليه ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]".

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ لأنه مقر إذا حوقق بأن جميع ما هو فيه من إحسان ربه وأنه نهاه عن المخالفة. ولما كان عجيبًا أن يكفر أحد الإحسان وهو شاهد على نفسه، ذكر الحامل له عليه فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ﴾ أي: لأجل حب ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال الذي لا يَعد غيره -لجهله- خيرًا ﴿لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ أي: بخيل ضابط له ممسك عليه، أو قوي في حبه؛ لأن منفعته في الدنيا وهو متقيد بالعاجل، مع علمه بأن أقل ما فيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه، ومعرض عن الدين حيث كانت منفعته آجلة، مع علمه بأنه المعرّف بما يرضى من خدمة ربه، فهو لحب عبادة الله ضعيف متقاعس.

ولما كان المال فانيًا لا ينبغي لعاقل أن يعلّق أمله به فضلًا عن أن يؤثره على الباقي، نبهه على ذلك بتهديد بليغ فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ ولما كان الحب أمرًا قلبيًا لا يطلع عليه إلا عالم الغيب، قال مهددًا مؤذنًا بقدرته على إثارة الخفايا، وأنه لا ينفعه يوم الحساب مال ولا غيره: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ مما يظن مضمِره أنه لا يعلمه أحد، وهذا يدل على أن النيات يحاسب بها كما يحاسب على آثارها.

ولما كان علم ما في الصدور أمرًا باهرًا قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ أي: شديد العلم بالبواطن، فلذلك كان عالمًا بأن الإنسان لربه لكنود، [وأن ذلك الطبع من إيثار الفاني وظلم الخلق لأجله والكفر بنعم الخالق، سيرديه يوم تبلى السرائر]، فرجع آخرها إلى أولها.

سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها تصوير ثواني أحوال يوم الدين في مبدئه ومآله، واسمها واضح في ذلك.

لما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته فقال: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ سميت بها؛ لقرعها أسماع الناس ودقها دقًا شديدًا بالأفزاع، وبيّن عظمها بالإبهام والإظهار في موضع الإضمار، مشيرًا بالاستفهام إلى أنها مما يحق السؤال عنه فقال: ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾.

وقال ابن الزبير: "لما قال سبحانه: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور﴾ كان ذلك مظنة السؤال عن وقته، فقيل: يوم القيامة وهي القارعة".

﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ﴾ قال حمزة الكرماني: "شبههم بالفراش التي لا تطير على سمت واحد، وهي همج يجتلبها السراج"، وقال غيره: وجه الشبه الكثرة والانتشار والضعف والتطاير إلى الداعي من كل جانب وكثرة التهافت في النار وموج بعضهم في بعض من شدة الهول كما قال تعالى: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ [القمر: ٧] ﴿ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٣﴾ أي: المنتشر المتفرق. ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ أي: الصوف المصبغ لأنها ملونة ﴿ٱلۡمَنفُوشِ ۝٤﴾ حتى تعود الأرض كلها لا عوج فيها ولا أمتًا.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ﴾ ولما كانت الموزونات كثيرة الأنواع جمع فقال: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ ۝٥﴾ باتباع الحق لأنه ثقيل في الدنيا واجتناب الباطل، والموزون الأعمالُ أنفسها تجسدًا وصحائفُها ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ﴾ ولعله ألحقها الهاء الدالة على الوحدة والمراد العيش؛ ليفهم أنها على حالة واحدة في الصفاء واللذة، لا ذات ألوان كحياة الدنيا ﴿رَّاضِيَةٖ ۝٦﴾.

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٧﴾ بأن غلبت سيئاته أو لم تكن له حسنة؛ لاتباعه الباطل وخفته عليه في الدنيا ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي: التي تؤويه وتضمه إليها، وهو يفهم أنه مخلوق منها غلب عليه طبع الشيطان لكون العنصر الناري أكثر أجزائه، وعظمها بالتنكير والتعبير بالوصف المعلم بأنه لا قرار لها فقال: ﴿هَاوِيَةٞ ۝٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝٩﴾ أي: الهاوية؛ لأنه لم يعهد أحدٌ مثلَها ليقيسها عليه ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١٠﴾ وهذا نهاية القارعة، فتلاؤم الأول للآخر واضح جدًا وظاهر، والله أعلم.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها التصريح بما أشارت إليه العاديات من أن سبب الهلاك يوم الجمع الذي صوّرته القارعة: الجمع للمال، والإخلاد إلى دار الزوال، واسمها واضح في ذلك.

ولما أثبت في القارعة الساعةَ، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر؛ لينزجر السامع عن هذا السبب فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ عن الموت الذي هو وحده كاف في البعث على الزهد فكيف بما بعده ﴿ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ وهو المفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من الدنيا، فكان ذلك موجبًا لصرف الهمة إلى الجمع، فصرفكم ذلك إلى اللهو، فأغفلكم عما أمامكم من الآخرة وعن ذكر ربكم وكلِّ ما ينجيكم من سخطه، أو عن المنافسة في الطاعات، وحذَف المنسيَّ الملهوَّ عنه؛ لتعظيمه والدلالة على أنه ليس غيره مما يؤسف على اللهو عنه.

ولما كانوا ينكرون البعث ويعتقدون دوام الإقامة في القبور، عبر بالزيارة إشارة إلى أن البعث لا بد منه فقال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فكنتم فيها عرضة للبعث لا تتمكنون من عمل ما ينجيكم؛ لأن دار العمل فاتت، كما أن الزائر ليس بصدد العمل عند المزور، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قرأها ثم قال: "ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن زار أن يرجع إلى بيته، إما إلى الجنة أو إلى النار".

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها، أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها، ثم قال: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ وحذف جواب «لو» والتقدير: لما شغلكم التكاثر، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا» الحديث، وقوله تعالى: ﴿لترون الجحيم﴾ جواب لقسم مقدر".

ولما كان الاشتغال بالتكاثر في غاية الدلالة على السفه؛ لأن من المعلوم قطعًا أن أحكم الحاكمين سيبعث عباده ليحكم بينهم، وكان الحال مقتضيًا لأن يردع غاية الردع من أعرض عما يعنيه وأقبل على ما لا يعنيه قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدعوا أعظم ردع عن الاشتغال بما لا يجدي فإنكم إنما خلقتم لأمر عظيم، وكذا من ترك المهمَّ من التفسير واشتغل بالأقوال الشاذة، أو المهمَّ من الفقه واشتغل بنوادر الفروع، ولما كان الردع لا يكون إلا عن

ضار يجر وبالًا وحسرة، دل على ذلك بقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ ما أنتم عليه من الخطأ عند معاينة ما يكشفه الموت.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا﴾ أي: ليشتد ارتداعكم عن التكاثر فإنه أساس كل بلاء فإنكم ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ لعلمتم ما بين أيديكم فلم يلهكم التكاثر، فحذف هذا الجواب بعد حذف المفعول للتفخيم، والمعنى أن أعمالكم من لا يتيقنه. وزاد الوعيد تفخيمًا بقسم دل عليه بلامه فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ولا يصح أن يكون هذا جوابًا لما قبله لأنه محقق ﴿ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ فالمؤمن يراها وينجو منها سواء خالطها أم لا، والكافر يخلد فيها.

ثم قال مؤكدًا: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ ورقى العلم عن رتبة الأول فقال: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ الذي أداكم التكاثر إليه، حتى عن الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء، هل كان استمتاعكم به سرفًا لإرادة الترف؟ أو لإرادة النشاط إلى الخير؟ فالمؤمن يُسأل سؤال تشريف، والعاصي سؤالَ توبيخ وتأسيف.

فقد التحم آخرها بأولها لأن العاقل إذا علم أنه مسؤول عن كل ما يتلذذ به خاف فامتنع عن التنعم، فتأمل كلام خالقك ما ألطف إشاراته وأجل عباراته، والله أرحم.

سورة العصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الإمام الشافعي: "لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم"، وهو معنى قول غيره: "إنها شملت جميع علوم القرآن".

مقصودها تفضيل نوع الإنسان وبيان خلاصته وعصارته وهم الحزب الناجي، والإعلام بما ينجي من الأعمال والأحوال، واسمها «العصر» واضح في ذلك، فإن العصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء، ولذلك كان وقتُ هذا النبي الخاتم الذي هو خلاصة الخلق وقتَ العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات.

وبيان اشتمالها على علوم القرآن ما قال الغزالي: "إن القرآن كالبحر الذي فيه جزائر بها معادن ستة، منها **أربعة مهمة وهي**: العلم بالله، واليوم الآخر، والعبادات المقربة إليه، والعادات المهيِّئة للعبادات، **ومتمان وهما**: العلم بإزاحة الشكوك والأوهام، والاعتبار بمن هلك باجتناب ما أهلكه، فبدأ بالعصر الذي فيه شم روائح الهالك والناجي، وثنى بما للعلم بالله واليوم الآخر، وثلّث بما هو للعبادات والعادات الموصلة إليها، وربّع بالحق الذي هو درياق الشبه والشكوك؛ لأنها إنما تنشأ من أوهام عاطلة وخيالات باطلة، وخمّس بما هو وسيلة إليها؛ لأن معرفة ذلك واجتنابه لا يكون إلا ببذل الجهد في الصبر".

لما كانت لذة الدنيا الظاهرة: التنعم بما فيها من المتاع، وكان الإنسان مسؤولًا؛ بما شهد به ختم التكاثر، فكان ساكن هذه الدار على غاية الخطر، قال دالًا على ذلك بأن أكثر الناس هالك: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾ أي: الزمان الذي خلق فيه أصله آدم عليه السلام، أو الصلاة الوسطى، أو وقتها الذي هو زمان صاحب هذا الشرع، أو زمان كل أحد الذي هو الخلاصة بالنسبة إليه تنبيهًا له على نفاسته إشارة إلى اغتنامه، أو جميع الدهر الذي أوجد فيه سبحانه المخلوقات وقدّر فيه المقدورات، بما ظهر فيه من العجائب المعرّفة بالله، الداعي إلى صرف الهمة إليه وقصرها عليه.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ أي: نقص بحسب صرف أعصارهم في أغراضهم؛ لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر والإعراض عن الغائب.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع ﴿إنه كان ظلومًا جهولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أخبر أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان فقال: ﴿والعصر . إن الإنسان لفي خسر﴾ فالقصور شأنه والظلم طبعه والجهل جبلته، فيحق أن يلهيه التكاثر ولا يدخل الله عليه روح الإيمان ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلى آخرها".

ولما كان فيهم من خلصه الله مما طبع عليه الإنسان بجعله في أحسن تقويم، استثناهم لقلتهم بالنسبة إلى أهل الخسر، فقال دالًا بالاستثناء على أن النفوسَ داعيةٌ إلى الشر مخلدة إلى البطالة واللهو: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولما كان كمال حيوانية الإنسان في القوة العملية المحرَّكة بالإرادة لا بالشهوة القاسرة البهيمية قال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو اتباع الأوامر واجتناب النواهي في العبادات والعادات.

ولما كان الإنسان بعد كماله في نفسه لا ينتفي عنه مطلق الخسر إلا بتكميل غيره، وكان الدين لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتأتى ذلك إلا بالاجتماع، قال مخصصًا لما دخل في الأعمال الصالحة تعظيمًا له: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾.

ولما كان فاعل ذلك الإحسان معرّضًا للشنآن من أهل العدوان وهم الأغلب في كل زمان قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ لأن الإنسان ينشط بالوعظ ﴿بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ أي: الناشئ عن زكاة النفس على العمل بطاعة الله، وحكمة العبادات أمران: خارج عن العامل وهو الجنة، وداخل قائم به وهو النور المقرب من الحق سبحانه، واختير التعبير بالوصية إشارة إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر هو خلاصة الإنسان وصفاوته وعصارته، ولا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه وقسرها على أفعال الطاعة حتى يصير لها عادة، فقد عانق آخرها أولها.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها بيان الحزب الأكبر الخاسر الذي ألهاه التكاثر، واسمها ظاهر في ذلك.

لما بين الناجين من قسمَي الإنسان في العصر وختم بالصبر، حصل التشوف لأوصاف الهالكين، فقال مبينًا لأضلهم الذي الصبرُ على أذاه في غاية الشدة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ وأصل الهمز: الكسر كالهزم، واللمز: الطعن، ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة: "الهمزة الذي يشتم الرجل علانية، واللمزة الذي يعيب الناس سرًا".

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر: ٣] أتبعه بمثالٍ مِن ذِكر نقصه وقصوره واغتراره وظنِّه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره، واعتمادِه على ما جمعه من المال ظنًا أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل".

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾ ولما كان مطلق الجمع يدل على الكثرة قرأه بعضهم بالتشديد، ودلالة على أن المقصود: من جعل الدنيا أكبر همه، بخلاف «عدّد» فإن مجرده يكون لما قل؛ ولهذا أجمعوا على التضعيف فيه ﴿مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ②﴾ أي: جعله بحيث إذا أريد عده طال الزمان، أو ادخره إعدادًا لما ينوبه في هذه الدنيا المنقضية ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③﴾ أي: في الدنيا فأحب ذلك المال كما يحب الخلود، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن أنه عمل بانهماكه في المعاصي والإعراض عن الله والإقبال على الشهوات والأعراض الزائلات: عمل من يظن أنه لا يموت، ويجوز أن يكون استئنافًا.

ولما كان هذا الحسبان لشدة وهيه لا يحتاج إلى إقامة دليل على فساده، اكتفى فيه بأداة الردع الجامعة لكل زجر فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يكون ما حسبه بل يموت كما مات كل مخلوق، ولما كان كأنه قيل: فما الذي يفعل به بعد الموت؟ قال: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي: ليطرحن بعد موته طرح ما هو خفيف هيّن على كل طارح، كما دل عليه التعبير بالنبذ وبالبناء للمفعول ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ④﴾ أي: النار التي تحطّم كل ما طرح فيها، قال الحرالي: "فلمعنًى مّا يختص

بالحكم: يسمي تعالى النارَ باسم من أسمائها، كجهنم فيما يكون مواجهة، والحطمة فيما يكون جزاءً لقوةِ قهرٍ، وكذلك في سائر أسمائها".

﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ فإنه ليس فيما شاهدتموه ما يقاربها ليكون مثالًا لها. ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ فعظمة هذه النار من عظمته ﴿ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ أي: التي وجد وتحتم إيقادها، فهي لا يزال لها هذا الاسم ثابتًا. ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ خصه بالذكر؛ لأنه ألطف ما في البدن وأشده تألمًا بأدنى الأذى، ولأنه منشأ العقائدِ الفاسدة وحبِّ المال الذي هو منشأ الفساد والضلال، وعنه تصدر الأفعال القبيحة.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ أي: مطبقة بغاية الضيق، حال كونهم موثقين ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ أي: معترضة كأنها موضوعة على الأرض فهي بحيث لا يستطيع الموثَق بها نوعَ حيلة في أمرها، وهذا أعظم الويل، فقد رجع آخرها إلى أولها.

سورة الفيل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على آخر الهمزة من إهلاك المكاثرين في دار التناصر بالأسباب، فعند انقطاعها أولى؛ لاختصاصه تعالى بتمام القدرة دون المتمكن بالمال والرجال، واسمها «الفيل» ظاهر الدلالة على ذلك بتأمل سورته وسيرة جيشه وصورته.

لما قدم في الهمزة أن كثرة الأموال المسبَّبة بالقوة بالرجال ربما أعقبت الوبال، دل عليه في هذه بدليل شهودي، فقال محذرًا مشيرًا إلى ضرر الوجاهة في الدنيا بما قد تكسبه من الطغيان: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ولما كان للناظر في الكيفية من التدقيق والتحقيق في وجوه الدلالات على علم الله وقدرته وإعزاز نبيه ﷺ بالإرهاص لنبوته والتمكين لرسالته لتعظيم بلده وتشريف قومه ما ليس للناظر إلى مطلق الفعل قال: ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: المحسن إليك بهذه الواقعة لما تقدم، وفي تخصيصه ﷺ بالخطاب والتعبير بالرب: التعريض بحقارة الأصنام التي سموها أربابًا لهم.

﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ الذين قصدوا انتهاك حرمات الله تعالى، فيخربوا بيته ويمزقوا جيرانه، بما أوصلهم إلى البطر من الأموال والقوة، وهم الحبشة الذين غلبوا على اليمن، بنى أميرهم أبو يكسوم أبرهة بن الصباح الأشرم بيعة بصنعاء وأراد أن يصرف حج العرب إليها، فتغوط فيها رجل من كنانة ليلًا ولطخها به، فحلف أبرهة ليهدمنّ الكعبة، فخرج بأفيال كثيرة منها فيل عظيم اسمه محمود وقاتل العرب فدوّخهم.

فلما دخل الحرم برك الفيل ما دام موجهًا إليه، فإذا وجهوه إلى غيره قام يهرول، فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، كل طائر منها في منقاره حجر وفي رجليه حجران، فكان الحجر يقع في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعًا، وأهل مكة ومن حضر في رؤوس الجبال ينظرون إلى صنع الله تعالى بهم وإحسانه إليهم، وكان ذلك إرهاصًا لنبوة محمد ﷺ فإنه كان عام مولده.

وقال ابن الزبير: "لما تضمنت سورة الهمزة ذكر اغترار من فتن بماله وما أعقبه ذلك، أتبع هذا أصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم، وخدعهم امتدادهم في البلاد حتى هموا بهدم البيت المكرم، فتعجلوا النقمة وجعل الله كيدهم في تضليل".

ولما قرره بالكيفية تنبيهًا على ما فيها من وجوه الدلالة على الرسالة، أشار إلى تلك الوجوه فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ وقد كان عظيمًا غلبوا به من ناوأهم من العرب ﴿فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ أي: مظروفًا مغمورًا بتضييع القصد، وهذا مشير إلى أن من تعرض لشيء من حرمات الله كبيتٍ أو ولي وإن كان مقصرًا نوع تقصير، وقع في مكره «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»، وأن من جاهر بالمعصية أسرع هلاكه، وأن الله يأتي من يريد عذابه من حيث لا يحتسب، لم يخطر للحبشة ولا لأحد أن طيورًا تقتل جيشًا دوّخ الأبطال.

﴿وَأَرْسَلَ﴾ وبين أنه إرسال عذاب بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: خاصة من بين من كان هناك، وأشار إلى تحقيرهم عن أن يعذبهم بشيء عظيم؛ لأنهم عظموا أنفسهم وتجبروا على خالقهم بالقصد القبيح لبيته، فقال معلمًا بأنه سلط عليهم ما لا يقتل مثله عادة: ﴿طَيْرًا﴾ وقد يقع على الواحد ولذا قال مبينًا الكثرة: ﴿أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي: جماعات تتبع بعضًا يقود كلَّ فرقة طيرٌ أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق. ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ أي: عظيمة في الفعل، صغيرة في الحجم ﴿مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ أي: طين متحجر مصنوع للعذاب، قال حمزة الكرماني: "قال أبو صالح: رأيتها مخططة بالحمرة".

ولما تسبب عن هذا هلاكهم قال: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ أي: ورقٍ جوّفه الدود؛ لأن الحجر كان يخرق الرأس -بما له من الحرارة وشدة الوقع- وكلَّ ما مر به حتى يخرج من الدبر ويصير موضع تجويفه أسود، أو: أُكِل فخلا منه، أو: أكلته الدواب وراثته، ولكنه جاء على أدب القرآن كقوله تعالى: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ [المائدة: ٧٥].

وهذا الإهلاك العجيب هو من معاني الاستفهام التقريري في أولها، فقد تعانق طرفاها والتف أخراها بأولاها، والله أعلم بمراده.

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على ضد ما دلت عليه الفيل بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقرين العابدين، وهو بشارة عظيمة لقريش بإظهار شرفهم في الدارين، واسمها «قريش» ظاهر الدلالة على ذلك.

لما كان منعه سبحانه هذا الجيش العظيم كرامة لقريش عاجلة، حماية لهم لكونهم أولاد خليله وخدام بيته وقطان حرمه، ذكّرهم ما فيه من النعمة الآجلة فقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ أي: فعلنا ذلك لأجل إلفهم لبلدهم الذي ينشأ عنه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم، أو أن اللام متعلقة بفعل العبادة بدلالة: ﴿فليعبدوا﴾، وعلى كلٍّ: الإلف علة للعبادة أو لما يوجب الشكر بالعبادة.

وفيه إشارة إلى تمام قدرته وأنه إذا أراد شيئًا يسّر سببه؛ لأن التدبير كله له، يخفض من يشاء ويرفع من يشاء؛ ليثمر اعتقادُ ذلك حبَّه والانقطاعَ لعبادته والاعتمادَ عليه في كل نفع ودفع. والذي يدل على تعلق اللام بفعل دلت عليه الفيل: أن السورتين في مصحف أبيّ رضي الله عنه سورة واحدة من غير فصل.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لا خفاء في اتصالهما، أي: أنه سبحانه فعل ذلك بأصحاب الفيل؛ لانتظام شمل قريش، وهم سكان الحرم وقطان بيت الله، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمن ساحتهم".

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾ إلى اليمن لأنها بلاد حارة ينالون بها متاجر الجنوب ﴿وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ إلى الشام لأنها باردة ينالون فيها منافع الشمال، وهم آمنون من العرب لعزهم بالحرم، والناس يتخطفون من حولهم، وكانوا مضرورين لذلك؛ لأن بلدهم لا زرع به ولا ضرع، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف.

ولما كان هذا التدبير لهم من الله كافيًا لهمومهم، وكان شكر المنعم واجبًا، فإذا أنعم بما يفرّغ المنعَم عليه للشكر كان وجوبه أعظم، سبب عن الإنعام عليهم بذلك قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ

هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ وهو الكعبة، عبر عنها بالإشارة تعظيمًا إشارة إلى أن ما تقدم من المدافعة عنهم معروف أنه بسببه لا يحتاج إلى تصريح.

ثم وصف نفسه الأقدس بما هو ثمرة الرحلتين ومظهر لزيادة شرف البيت فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ۝٤﴾ فيه غيرهم من العرب، أو كانوا هم فيه قبل ذلك لأن بلدهم مهيأ له، ولم يقل: أشبعهم لأنه ليس كلهم كان يشبع، ولما ذكر السبب في إقامة الظاهر، ذكر السبب في إقامة العيش بنعمة الباطن فقال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٥﴾ من أصحاب الفيل ومما ينال من حولهم من القتل والنهب والجذام بدعوة إبراهيم عليه السلام، ومن الطاعون والدجال بتأمين النبي ﷺ، وعن ذلك تسبب الإتحاف بما خصهم به من الإيلاف، فعلم أن آخرها علة لأولها، ويجوز أن يكون إلفهم للبلد وقع أولًا فيكون أولها علة لآخرها، فقد التقى الطرفان.

وكما التقى آخر كل سورة مع أولها، فكذلك التقى آخر القرآن العظيم بأوله بالنسبة إلى تسع سور، هذه أولها إذا عددت من الآخر إليها، فإن حاصلها: المن على قريش بالإعانة على المتجر، والأمر بعبادة الذي منّ عليهم بالبيت الحرام وجلب لهم به الأرزاق والأمان، ومن أعظم مقاصد التوبة المناظرة لهذه بكونها التاسعة من الأول: ذكر مناقب البيت ومن يصلح لخدمته، والبشارة بالغنى على وجه أعظم من تحصيله بالمتجر بقوله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ [التوبة: ١٧] الآيات، وقوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ [التوبة: ٢٨].

سورة الماعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها التنبيه على أن التكذيب بالبعث للجزاء أبو الخبائث، فإنه يجرئ المكذب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال حتى تكون الاستهانة بالعظائم، وكل من أسمائها الأربع: «الماعون» و«الدين» و«أرأيت» و«التكذيب» ظاهر الدلالة على ذلك بتأمل السورة لتعرف هذه الأشياء المذكورة.

لما أخبر سبحانه عن فعله معهم من الانتقام ممن تعدى حدوده فيهم، ومن الرفق بهم بما هو غاية في الحكمة، فكان معرفًا بأن فاعله لا يترك الناس سدى من غير جزاء، وأمرهم آخر قريش بشكر نعمته بإفراده بالعبادة، عرفهم أول هذه أن ذلك لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالي الأخلاق الناهي عن مساوئها، ووصف المكذب به بأوصاف هم منها في غاية النفرة فقال: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما تضمنت السور المتقدمة الوعيد لمن جرى على حكم الجهل والظلم الكائنين في جبلة الإنسان كقوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦] ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر: ٢] ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ [الهمزة: ٣] وانجر أثناء ذلك ذكر ما تثيره هذه الصفات كالشغل بالتكاثر، والطعن على الناس ولمزهم، والاغترار المهلكِ أصحابَ الفيل، أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين إلى الإسلام، أو أعمال من يتصف بها وإن لم يكن من أهلها، فأخبر أنها من صفات من يكذب بيوم الدين ولا ينتظر الحساب.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، فتنزهوا أيها المؤمنون عنها فليست من صفات إيمانكم الذي بايعتم عليه، فمن تشبه بقوم فهو منهم، فإن دع اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل، وعدم الحض على إطعامه إنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو عن الصلوات من ثمرات إلهاء التكاثر والشغل بالأموال والأولاد، فنهى عباده عن هذه الرذائل التي يثمرها ما تقدم، والتحمت السور".

ولما كان من المكذبين من يخفي تكذيبه، عرفهم بأمارات تدل عليهم وإن اجتهدوا في الإخفاء فقال: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ﴾ أي: يدفع بعنف ﴿ٱلۡيَتِيمَ ٢﴾. ولما كانت رحمة الضعفاء علامة على الخير ولذلك قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إني أسألك فعل الخيرات وترك

المنكرات وحب المساكين»، كانت القسوة عليهم علامة على الشر، فقال معرفًا لأن المكذب ينزله تكذيبه إلى أسفل الدركات: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ وتعبيره عن الإطعام الذي هو المقصود بالطعام الذي هو الأصل، وإضافته المسكين: للدلالة على أنه يشارك الغني في ماله بقدر ما فرض الله من كفايته، وقد تضمن هذا أن علامة التكذيب بالبعث: إيذاء الضعيف والتهاون بالمعروف.

ولما كان هذا حاله مع الخلائق أتبعه حاله مع الخالق، إعلامًا بأن كلًّا منهما دال على خراب القلب وموجب لمقت الرب فقال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ ولما كان من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع، وكان من باشرها ولو على وجه الرياء أو غيره مما يحبط العمل ربما ظن النجاة، عبر بالوصف تعميمًا وتعليقًا للحكم به، وشقه من الصلاة تحذيرًا من الغرور، وجمع تنبيهًا على أن الكثرة ليست لها عنده عزة فقال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾.

ولما كان الحكم إنما هو على الذات لا باعتبار التلبّس بالفعل، كقوله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار» وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ أي: بضمائرهم وخالص سرائرهم، ولما كان المراد تضييعهم قال: ﴿عَن﴾ دون «في» ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ التي هي جديرة بالإضافة إليهم لوجوبها عليهم وإيجابها لمنافعهم بالتزكية وغيرها ﴿سَاهُونَ ۝٥﴾ أي: عريقون في الغفلة عنها وتضييعها وعدم المبالاة بها، والتعبير بالوصف للدلالة على ثبوت السهو لهم ثبوتًا يوجب أن لا يذكروها من ذات أنفسهم.

ولما كان من كان بهذه الصفة لا نظر له لغير الحاضر كالبهائم، قال دالًا على أن المراد بالسهو: تضييعها عند الانفراد حسًا ومعنى، وعند الاجتماع في المعنى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ بصلاتهم وغيرها، يُرون الناس أنهم يفعلون الخير؛ ليريهم الناس الثناء عليهم والإحسان إليهم، لا لرجاء الثواب ولا لخوف العقاب من الله.

ثم بين أنهم مع ذلك غلب عليهم الشح حتى أنهم مع كثرة الرياء لم يقدروا على أن يراؤوا بهذا الشيء التافه، فانسلخوا من جميع خلال المكارم، فقال: ﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ وحذف المفعول الأول تعميمًا؛ حتى يعرّف بأنهم بلغوا من الرذالة دركةً ليس وراءها للحسد موضع ﴿ٱلْمَاعُونَ ۝٦﴾ وهو اليسير من المنافع كإعارة التافه من متاع البيت الذي اعتاد الناس أن يتعاوروه بينهم، وينبغي حمل ذلك على منع ما يجب بذله مثل فضل الكلأ والماء والزكاة؛

ليكون موجبًا للويل، فدل ذلك على أنهم بلغوا نهاية التكذيب باستهانتهم بأعظم دعائم الدين واستعظامهم لأدنى أمور الدنيا.

وهذا الآخر هو الأول لأن الذي جر إليه هو التكذيب، ومن منع هذه الأشياء كان جديرًا بأن يُمنع ورود الكوثر في يوم المحشر.

وكما التقى آخرها بأولها التقت السورة مع مناظرتها في العدد من أول القرآن وذلك أن حاصلها: الإبعاد عن رديء الأخلاق، وفي ذلك ترغيب في أضدادها من معالي الأخلاق التي شرحتها الأنفال في نحو قوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقًا﴾ [الآية: ٤] ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ [الآية: ٣٥] ﴿فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين﴾ [الآية: ٤١] الآية.

سورة الكوثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها المنحة بكل خير ممكن، واسمها «الكوثر» واضح في ذلك، وكذا «النحر» لأنه معروف في نحر الإبل، وذلك غاية الكرم عند العرب.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الملك الأعظم الجواد الأكرم الذي لا لفائض فضله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

لما كانت سورة الدين بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، وبإفهامها داعية إلى معالي الشيم جاءت الكوثر لذلك، ولما ختمت الدين بأبخل البخلاء، ابتدئت الكوثر بأجود الجود فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ وهو الخير الذي لا غاية له، ومنه النهر الذي في الجنة، ويسقي المؤمنين من الحوض الممدود منه في المحشر.

وقال ابن الزبير: "لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون وهو الكوثر وهو الخير الكثير، ومنه الحوض والمقام المحمود وتحليل الغنائم والنصر بالرعب والخلق العظيم، إلى ما لا يحصى من خيري الدنيا والآخرة، ومنه كتابه المبين، فاضمحل في جانب نعمة الكوثر كلُّ ما ذكره الله في كتابه من نعيم أهل الدنيا، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فإنه لم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا، وسورة الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك، وتبين بهذا وجه تعقيبها بها، والله أعلم".

ولما أعطاه ما فرغه به للعبادة وأغناه، سبب عنه قوله آمرًا بما هو جامع لمجامع الشكر: ﴿فَصَلِّ﴾ والتفت إلى صفة الإحسان المقتضي للترغيب لأن العبادة لا تقع إلا شكرًا فقال: ﴿لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ أي: أنفق له الكوثر من المال على المحاويج، خلافًا لمن يدعّهم ويمنعهم الماعون، فالنحر أفضل نفقات العرب لأن الجزور الواحد يغني مائة مسكين، وقد قابل في هذا أربعًا من سورة الدين بأربع وهي: البخل بالإعطاء، وإضاعة الصلاة بالأمر بها، والرياء بالتخصيص بالرب، ومنع الزكاة بالنحر.

ولما أمره باستغراق الزمان في عبادة الخالق والإحسان إلى الخلائق، علله بما حاصله أنه لا شاغل له ولا حاجة أصلًا تلم به فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك ﴿هُوَ﴾ أي: خاصة ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ أي: المقطوع من أصله، والمقطوع النسل، والمعدم، والمنقطع الخير والذكر، لا

يعقبه من يقوم بأمره ويذكّر به وإن جمع المال وفرغ بدنه لكل جمال، فالآية الأخيرة النتيجة؛ لأن من الكوثر علوُّ أمره وأمر أتباعه وسفولُ شأن عدوه، فقد التف كما ترى مفصلها بموصلها، وعرف أن وسطاها كالحدود الوسطى معانقة للأولى بكونها من ثمارها، ومتصلة بالأخرى لأنها من غاياتها.

وقد صدق الله -ومن أصدق من الله قيلًا-، لم يبق لأحد من مبغضيه ذكر بولد ولا تابع، ولا لهم شاكر ولا مادح، وأما هو ﷺ فقد ملأت ذريته من فاطمة الزهراء الأرض مع مبالغة الملوك في قتلهم، خوفًا من شرفهم العالي على شرفهم، وأما أتباعه فقد استولوا على أكثر الأرض، وهم أولو الفرقان والعرفان. ويؤخذ منها أن من فرغ نفسه لربه أهلك عدوه وكفاه كل واحد منهم.

وحاصل هذه السورة المن عليه ﷺ بالخير العظيم، كما أن من مقاصد الأعراف: إهلاك الظالمين لمخالفتهم الرسل عليهم السلام، والأمر بالصلاة وستر العورة وما يقصد بالنحر بقوله: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا﴾ [الآية: ٣١] الآيات، وذكر من يمنح ماء الجنة ومن يمنعه بقوله: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ [الآية: ٥٠] الآيات.

وقد علم من إعجازها ما يشرح الخواطر ويبهج النواظر، وعلم أيضًا جنون الخبيث المسخرة مسيلمة الكذاب حيث قال في معارضتها: "إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وهاجر، إنا كفيناك المكابر -أو المجاهر-"، لأنه قصير المدى، ركيك اللحمة والسدى، فالأُولى من سخيف عقل الخسيف [ونظره] إلى الخلق مع نقصان المعنى السار، والأخرى مهمِلة لذوي الشُّبه والسِّتر، مع ما فاتها من خصوص التبار.

سورة الكافرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إثبات مقصود الكوثر بالدليل الشهودي على علم منزلها وقدرته؛ لأنه المنفرد بالوحدانية، وهذا المراد بكل من أسمائها، أما «الكافرون» فلأنهم كفروا بإنكار ما هو مقصودها، وأما «الإخلاص» فلأن من اعتقد ذلك كان مؤمنًا، وأما «المقشقشة» فلأنها أبرأت من كل نفاق وكفر، وعندي أنه من الجمع أخذًا من القش الذي هو تطلب المأكول من ههنا وههنا، فإنها جمعت أنواع الكفر فنفتها.

ولذلك والله أعلم سنت قراءتها مع ﴿قل هو الله أحد﴾ في ركعتي الفجر؛ ليحوز فاعل ذلك بالبراءة من الشرك والاتصاف بالتوحيد أول النهار: ثمرةَ ما ورد أن من صلى الصبح كان في ذمة الله، فيكون جديرًا بأن ينال ما أشارت إليه السورتان اللتان بين سورتَي الإخلاص من الفتح له والنصر، والخيبة لعدوه والخسر.

لما أخبره في الكوثر أن العريق في شنآنه عدمٌ، وجب أن يعرض عنه ويقبل بكليته على من أنعم عليه بذلك، فقال معلمًا له ما يقول ويفعل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ واستغرقت اللام كل من كان على هذا الوصف في كل مكان وكل زمان، وفي مناداتهم بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدتهم ومحل عزهم وحميتهم: إيذان بأنه محروس منهم، علمًا من أعلام النبوة.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما انقضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز وهما من أشير إلى أحدهما في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ والآخر في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وهم من كان في الطرف الآخر من حال أولئك، إذ ليس إلا طريق السلامة أو الهلاك ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [الشورى: ٧] وإن اختلفت مراتب كل فريق وتشعبت طرقه.

فلما تداولت بيانَ ذلك الآيُ من قوله بعد أم القرآن: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢] إلى ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ٣]، أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فبين أن من قضى عليه بالكفر لا يقع منه الإيمان أبدًا، فقال لهم: ﴿لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ إلى آخرها، فبان أمر الفريقين وارتفع الإشكال واستمر كل على طريقه".

ولما كان القصد إعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه، قال بادئًا ببراءته لأنها الأهم: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ الآن ولا في المستقبل؛ ولذا عبر بـ«لا» دون «ما»؛ لأنها للمستقبل و«ما» للحال، بشارة بأنه تعالى يثبته، علمًا من أعلام النبوة ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ الآن وفي آتي الزمان من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة في سر ولا علن.

ولما بدأ بالأحق وهو البراءة من الشرك، وكانوا يعبدون الله مع الشرك، وكانت العبادة معه غير معتد بها، نفى عبادتهم له في الجملة الاسمية الدالة على الثبات، لا الفعلية الدالة على نفي القليل والكثير، من حيث إن الفعل نكرة في سياق النفي فقال: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ عبادة معتدًا بها ﴿مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ لأن معبودي أبعدكم عنه فلا مطمع في الوفاق بيننا. ولما كان ما نفي عنه ﷺ لا يدخل فيه الماضي، وكان عدم المشاركة بوجه أدل على البراءة قال: ﴿وَلَا أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ أي: فيما سلف.

ولما كان ربما ظُن أن نفي العبادة عنهم إنما هو في الحال، نفاه في الاستقبال عَلَمًا من أعلام النبوة، مع تأكيد ما أفادته الجملة الماضية فقال: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ ولما لم يكن قبل البعث مشهورًا عندهم بعبادة الله، عبر بما لا يتوجه لهم إليه إنكار وهو المضارع الذي قد يراد به مجرد إيقاع الفعل من غير نظر إلى زمان معين فقال: ﴿مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾.

فأنتج ذلك قطعًا قوله، مقدمًا لما يتعلق بهم تأكيدًا لبراءته منهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي تعلمون أنه لا أصل له يثبت عليه ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ لا تشاركونني فيه ولا تردونني عنه، فكانت عَلَمًا من أعلام النبوة لأن كثيرًا منهم مات بعد ذلك على الكفر وأتم الله له هذا الدين، فثبت مضمون الكوثر، وأما من آمن بعد ذلك فليس مرادًا؛ لأنه لم يكن عريقًا في وصف الكفر، ولم يؤكد الجمل إشارة إلى وضوحها، ولا شك أن آخرها الذي هو اختصاص كل بدينه هو أولها، وليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليحتاج إلى نسخ.

وحاصلها: قطع رجاء أهل الكفران من أن يقاربهم النبي ﷺ في أن يعدل بربه أحدًا، وذلك من أعظم مقاصد المناظِرة لها في رد الآخر على الأول: الأنعام؛ لأنها السادسة من الأول وهذه السادسة من الآخر ﴿أغير الله اتخذ وليًا﴾ [الآية: ١٤]، ﴿أفغير الله أبتغي حكمًا﴾ [الآية: ١١٤]، ﴿أغير الله أبغي ربًا وهو رب كل شيء﴾ [الآية: ١٦٤] إلى غير ذلك.

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الإعلام بتمام الدين اللازم عن مدلول اسمها «النصر»، اللازم عنه موت النبي ﷺ، اللازم عنه العلم بأنه ما برز إلى عالم الكون والفساد إلا لإعلاء كلمة الله وإدحاض كلمة الشيطان، وعلى ذلك أيضًا دل اسمُها «التوديع» وحالُ نزولها في حجة الوداع.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي أرسلك رحمة للعالمين فعمهم بعد نعمة الإيجاد ببيان طريق النجاة بما أنزل عليك من القرآن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص من أراده بلزوم الصراط المستقيم.

لما دلت التي قبلها على أن الكفار قد صاروا إلى حال لا عبرة بهم فيه، بشر المؤمنين بهذه وأنذر الكافرين، فقال تحقيقًا لأنه ينصر المظلوم ويعلي دينه ويمهل ولا يهمل، حثًا على التفويض له والاكتفاء به: ﴿إِذَا﴾ وعبّر بها إعلامًا بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره وإن توهمت العقول أنه فات وقته.

ولما كانت المقدَّرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها، يسوقها إليها سائق القدرة فتقرب منها شيئًا فشيئًا، كانت كأنها آتية إليها فلذلك تجوز بالمجيء عن الحصول فقال: ﴿جَآءَ﴾ وزاد في تعظيمه بالإضافة ثم بكونها اسم الذات فقال: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ولما كان للنصر درجات أشار إلى أن المراد أعلاها فقال: ﴿وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما كمل دينه واتضحت شريعته وأدى ﷺ أمانة رسالته حق أدائها عرف انقضاء أجله، وقد استشعر الناس ذلك عام حجة الوداع وعند نزول براءة وآية المائدة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ [الآية: ٣] لكن لم يستيقنوه وغلّبوا رجاءهم في حياته ﷺ، فلما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ استيقن أبو بكر ذلك فبكى لما قرأها رسول الله ﷺ".

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العرب الذين كانوا حقيرين عند جميع الأمم فصاروا بك هم الناس، كما دلت عليه لام الكمال ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ بعد دخولهم واحدًا واحدًا. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ إيذانًا بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره، وكذا فعل ﷺ، ودخل يوم فتح مكة مطأطئًا رأسه تواضعًا لله، إعلامًا لأصحابه أن ما وقع إنما هو

بحول الله لا بكثرة من معه، وإنما جعلهم سببًا لطفًا منه بهم، ولذا نبه من ظن منهم أن للجمع مدخلًا: بما وقع من الهزيمة في حنين أولًا، ثم النصرة بمن ثبت مع النبي ﷺ وهم لا يبلغون ثلاثين نفسًا ثانيًا.

فالتسبيح الذي هو تنزيه عن النقص إشارة إلى إكماله الدين تحقيقًا لما تقدم به وعده الشريف، والاستغفار إشارة إلى أن عبادته ﷺ قد شارفت الانقضاء ولا يكون ذلك إلا بالموت، فلذلك أمر بالاستغفار؛ لأنه يكون في خاتمة المجالس والأعمال، جبرًا لما لعله وقع فيها على نوع من الوهن، واعترافًا بذل العبودية والعجز.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٤﴾ أي: رجاعًا بمن ذهب به الشيطان من أهل رحمته، فهو الذي رجع بأنصارك فأيدك بدخولهم في الدين شيئًا فشيئًا، فقد رجع آخر السورة إلى أولها؛ لأنه لولا تحقق وصفه بالتوبة لما وجد الناصر الذي وجد به الفتح، والتحم مقطعها أيَّ التحام بمطلعها، وعلم أن كل جملة منها مسببة عما قبلها.

وقد ظهر بهذا أن حاصلها: الإيذان بكمال الدين ودنو الوفاة لخاتم النبيين، والنصر على جميع الظالمين، وذلك من أعظم مقاصد المائدة المناظرة لهذه في التطبيق بين البادئة والعائدة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [الآية: ٣] وقوله: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ [الآية: ٥٦] وقوله: ﴿لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ [الآية: ١٢٠].

سورة المسد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها البت والقطع بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين، واسمها «تبت» واضح الدلالة على ذلك بتأمل السورة على هذه الصورة.

لما قدم سبحانه في سورة النصر القطعَ به لأهل هذا الدين بعد ما كانوا فيه من الذلة، وكان أبو لهب من شدة العناد لهذا الدين والأذى لإمامه ﷺ مع قربه منه بالمحل الذي لا يجهل، كان بحيث يسأل عن حاله إذ ذاك، فأجاب بما يكون له من النكال، وليكون ذلك بعد الفتح والنصر مذكرًا له ﷺ بما كان أول الأمر من جبروتهم وأذاهم وأنه لم يغن عنهم شيء من ذلك، بل صدق الله وعده في قوله: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جنهم وبئس المهاد﴾ [آل عمران: ١٢].

فذكر أعداهم له وأقربهم إليه في النسب، إشارة إلى أنه لم ينفعه قربه؛ ليكون ذلك حاملًا لأهل الدين على الاجتهاد في العمل من غير ركون إلى سبب أو نسب غير ما شرعه سبحانه، فقال معبرًا بالماضي دلالة على تحتّم الأمر: ﴿تَبَّتۡ﴾ أي: خسرت غاية الخسارة؛ لأنه لا نجاة إلا نجاة الآخرة، ولم يفتتحها بـ«قل» كأخواتها؛ لأن هذا أكثر أدبًا ومراعاة لذوي الرحم.

ولما كانت اليد محل قدرة الإنسان، قال مشيرًا بالتثنية إلى عموم هلاكه بأن قوته لم تغن عنه شيئًا، وبالكنية -وإن كانت للتشريف- إلى مطابقة اسمه لحاله: ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ وإشارة إلى أن حسن صورته لم يغن عنه شيئًا من قبيح سيرته لقول النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»؛ لأنه إنما كني بهذا لإشراق وجهه، ولأنها أشهر فالبيان بها أظهر وأقعد في قول التي هي أحسن؛ لأن اسمه عبد العزى وهو قبيح موجب للعدول عنه؛ غيرةً على العبودية أن تضاف إلى غير مستحقها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة، فهي مع ما تقدمها في قوة أن لو قيل: قد أديت يا محمد ما تحملته وحان أجلك، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك".

ولما كان الإنسان لا تزول جميع منفعته بفوات يديه، قال مصرحًا بالمقصود: ﴿وَتَبَّ ۝١﴾ أي: هو بجملته، فحقق بهذا ما أريد من الإسناد إلى اليدين من الكناية عن الهلاك التام، والظاهر أن الأول دعاء والثاني خبر، وعرف بهذا أن الانتماء إلى الصالحين لا يغني إلا إن وقع الاقتداء بهم في أفعالهم؛ لأنه عم النبي ﷺ.

ومادة: «تب» و«بت» تدور على القطع المؤدي في أغلب أحواله إلى الهلاك؛ لأن من انقطع إلى الأسباب معرضًا عن مسبِّبها كان في أعظم تباب، والذي يُظهِر أن «التب» يؤول إلى القطع: مقلوبُه وهو «البت» التي هي للسبب الظاهر الذي هو أقوى من حيث إنه لا يتحقق إلا بكمال السبب الباطني.

ولما كان صاحب القصة وغيره من الكفار مكذبون بذلك؛ لما له من المال والولد، قال نافيًا لغناء كل الأحوال الدنيوية: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ ولما كان المال قد يُكسِب منافع هي أعظم منه، وكان الإنسان قد يفوز بأمور أثّلها بسعيه خارجة عن المال، قال مفيدًا لذلك مبينًا أنه لا ينفع إلا ما أمر الله به: ﴿وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

وكان ابنه عتبة شديد الأذى للنبي ﷺ حتى قال: «اللَّهُمَّ سلط عليه كلبًا من كلابك» فكان أبو لهب يعرف أن هذه الدعوة ستدركه، فلما سافر إلى الشام أوصى به الرفاق فلم ينفعه ذلك بل جاء الأسد فتشمم الناس حتى وصل إليه فاقتلع رأسه، ولم ينفع أباه ذلك بل استمر على ضلاله، حتى كانت وقعة بدر فلم يخرج فيها، وما عاش بعدها إلا سبع ليال أو ستًا حتى رماه الله بالعدسة فقتله وما نفعه تخلفه عن بدر.

والعدسة بثرة تشبه العدسة من جنس الطاعون تقتل غالبًا، ولتشاؤم العرب بها تُرك بلا دفن ثلاثًا حتى أنتن فاستأجروا بعض السودان وحفروا له بعيدًا لنتنه ثم دفعوه بخشب طوال ورجموه بالحجارة والتراب من بعيد حتى طموه، وذلك من أول إعجاز هذه الآيات: أن كان سبة في العرب دون أن يغني عنه شيء مما يظن أنه يغني عنه.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ أي: لا تخمد أبدًا؛ لأن ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها بـ«ذات» وذلك بعد موته، وليس فيها دليل قاطع على أنه لا يؤمن؛ لجواز أن يصلى على الفسق، وإنما عرف تحتم كفره بموته كافرًا، وتحقق حينئذ ما لأبي لهب من التباب والنار ذات الالتهاب عند العرب كافة بإيمانهم عامة في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وعلم أن

الدين قد رسخت أوتاده وثبت عماده، وأن الذي كان يحميه في حياة النبي ﷺ قد حماه بعده وهو سبحانه حي لا يموت وقادر لا يعجزه شيء.

ولما أخبر عنه بكمال التباب، وكان أشق ما على الإنسان هتك حريمه حتى إنه يبذل نفسه دون ذلك لا سيما العرب، زاده تحقيرًا بتصوير من يصونها بأزرأ صورة، فقال مشيرًا إلى أن خلطة الأشرار غاية الخسار، فإن الطبع وإن كان جيدًا يسرق من الرديء فكيف إذا كان رديئًا؟ وأن إرضاء الناس بما يسخط الله أعظم الهلاك: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أم جميل أخت أبي سفيان، مثله في التباب من غير أن يغني عنها مال ولا نسب، وعدل عن ذكرها بكنيتها؛ لأن صفتها القباحة وهي ضد كنيتها، ومن هنا تؤخذ كراهة التلقيب بناصر الدين ونحوها لمن ليس متصفًا بما دل عليه لقبه.

﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ من جهنم؛ بما كانت تمشي به من حطب النميمة الذي تحمل به على معاداة النبي ﷺ، وشُبهت النميمة بالحطب؛ لأنها توقد الشر فتفرق بين الناس، وبما كانت تنثر من الشوك في طريقه ﷺ، وكانت تفعله بنفسها من شدة عداوتها، ليلًا لتستخفي به لأنها كانت شريفة، فلما نزلت السورة صورتها بأقبح صورة، فكان أعظم فاضح لها.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عنقها وأجود ما فيها ﴿حَبۡلٌ﴾ كالحطّابين تخسيسًا لها ﴿مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ أي: شيء أُحكم فتله، وقد رجع آخرها على أولها، فإن من كانت امرأته مصورة بتلك الصورة فهو في غاية الحقارة والتباب.

وحاصلها أن أبا لهب قطع رحمه وجار عن السبيل وأضل غيره، فهلك وأهلك أهله، ومن أعظم مقاصد سورة النساء المناظرة لها: التواصل والإحسان لا سيما لذوي الأرحام، والعدل في جميع الأقوال والأفعال، فكان شرحًا لقوله تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ [النساء: ٢٦]، فكأنه قيل: يبين الله لكم أن تضلوا فتكونوا كأبي لهب في البوار، فاحذروا من كل ما يشابه حاله.

سورة الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها بيان ذاته الأقدس ببيان اختصاصه بأقصى الكمال؛ للدلالة على صحيح الاعتقاد، المثمر لحسن الأقوال والأفعال، وعلى ذلك دل اسمها «الإخلاص» و«الأساس» و«المقشقشة»، قال في القاموس: "المقشقشتان: الكافرون والإخلاص، أي: المبرئتان من النفاق والشرك كما يقشقش القطران الجرب"، وهذه السورة أعظم مفيد للتوحيد في القرآن.

لما عُلم بالكوثر أنه ﷺ مختص بالخير المستلزم لأن شانئه هو الأبتر فكان موضع السؤال عما يفعل مع الشانئين من معاركة أو متاركة، جاءت الكافرون للمتاركة، ثم النصر لبيان وقت المعاركة وما يترتب عليها من قهر الشانئ، مع الإشارة إلى أنه مما لا يسأل عن وقته؛ لتغيير ذلك في وجه الإحسان في التسليم، وإنما يسأل عما يفعل عنده من التعبد، معبرًا بأداة التحقق إعلامًا بأنه آت لا محالة، فالسؤال عن وقته ليس من دأب السائرين، ثم ختم بهلاك أعدى أعدائه وزوجِه هلاكًا لا جبر له.

فلما اهتز السامع إلى معرفة الفاعل لتلك الخوارق وهو إظهار شخص واحد على الناس كافة مع شدة عداوتهم له، كشفت الإخلاص لما ثبت من العظمة لولي النبي ﷺ سبحانه وتعالى، الذي أمره بهذا الدين وفعل له هذه الأمور الموجبة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يمتثل جميع ما يأمر به كائنًا ما كان وكائنًا فيه ما كان، ومبينة للاعتقاد الحق الذي أوجب هذه النصرة، ورادة على فرق الضلال، ومتضمنةً من وصفه تعالى ما لم ينزل فيه مثلها، فتم الدين عند ذلك بما له تعالى من كمال الأوصاف، فلم يبق إلا تعويذ أهله من الخلل والزلل، فختم بالمعوذتين.

ولما كان المقصود من القرآن دعوة العباد إلى المعبود، وكانت هذه الأمة هي الختام، أنهى البيان في تعريفه تعالى إلى حد لا مزيد عليه، فبيّن أنه ثابت ثباتًا لا يشبهه ثبات، وأنه منزه عن المكافئ والمثيل، فلا زوجة له ولا ولد، ولا حاجة بوجه إلى أحد، بل له الخلق والأمر، فقال آمرًا لنبيه ﷺ؛ ليدل بأول كلمة فيها على رسالته: ﴿قُلْ﴾ وعدم التقييد بمقول له يُفهِم عمومَ الرسالة ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ واختير هذا الاسم؛ لدلالته على جميع صفات الكمال، ولأنه جامع لمعاني الأسماء الحسنى، ولما ذكر الذات عبّر بما هو متنزّل الجلالة فقال: ﴿أَحَدٌ ١﴾.

ورتب الأَحَدية على الإلهية دون العكس؛ لأن الإلهيةَ استغناؤه عن الكل واحتياجُ الكل إليه، وكل ما كان كذلك كان واحدًا، فالإلهية تقتضي الوحدة، والوحدة لا تقتضي الإلهية، وعبر به دون «واحد»؛ للمبالغة في الوصف بالوحدة؛ لأنه تعالى منزه عن سائر ما يثلم الوحدة الكاملة اللائقة بكرم وجهه؛ لأن كل ما كانت هويته باجتماع أجزاءٍ كانت موقوفة على حصولها، فلا يكون هو هو لذاته بل لغيره.

وقد استخلصت الكلام على الاسمين الشريفين من عدة شروح للأسماء الحسنى وغيرها، فقال الرازي والحرالي: " الواحد الذي لا كثرة فيه بوجه، والذي لا ضد له ولا شبيه"، وقال أبو العباس الأُقليشي: "والوحدة بمعنى عدم النظير لا تصح بالحقيقة إلا له سبحانه، ولها معنى آخر وهو التوحد بالفعل والإيجاد، فيفعل كل ما يريد من غير توقف على شيء، فالحاصل أن موجدنا تعالى لما كان واحدًا لا نظير له مع تفرده بالفعل والتدبير، كان من أعظم الحق دعاؤه لجميع الخلق برسوله الخاتم ﷺ".

وقال الإمام أبو حاتم محمد بن مهران الرازي: "قال بعض الحكماء: إنما قيل له سبحانه «واحد»؛ لأنه كان ولا خلق معه ثم أبدع الخلق، فكان الخلق مع احتياجه إليه تعالى: محتاجًا بعضه إلى بعض متعاديًا بعضه بعضًا ومتشاكلًا، واستغنى عز وجل عن الخلائق فلم يحتج إلى شيء فيكون مقرونًا به، ولا ناوأه شيء فيكون ضدًا له، بل توحد بالغنى عن جميع خلقه؛ لأنه كان قبل كل شيء، والأولية دلت على الوحدانية، فـ«الواحد» اسم يدل على نظام واحد يُعلِم بأنه واحد ليس قبله شيء.

وفي الواحد عن العرب لغات كثيرة لم يجئ منها في صفة الله تعالى إلا الواحد والأحد، وكلها مشتقة من الواحد، وكأنه مأخوذ من الحد، فالأشياء كلها إليه انتهاؤها وهي محدودةٌ، فهو غاية المحدودين، وغاية الغايات لا غاية له، و«أحد» يستوي فيه المذكر والمؤنث قال سبحانه: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ويحتمل معنى الواحد والجماعة، تقول العرب: يظل أحدنا الأيام لا يأكل، بمعنى: كلنا، بخلاف «واحد» في الأمرين".

وقال الإمام فخر الدين: "إن «الأحد» اختص به البارئ تعالى، أما «الواحد» فيحصل فيه المشاركة، ولهذا أعري من لام التعريف؛ لأنه صار نعتًا لله عز وجل على الخصوص فصار معرفة"، وقال البيهقي: "لا فرق في إطلاق الأحد عليه تعالى بين تعريفه وتنكيره؛ لأنه معرفة في نفسه، فطاح اعتراض من قال من الملحدين: الجلالة معرفة و«أحد» نكرة لا

ينعت به. وعلى تقدير التسليم يجوز جعله بدلًا، ولا مانع من إبدال النكرة من المعرفة مثل: ﴿لنسفعًا بالناصيةِ . ناصيةٍ كاذبة﴾ [العلق: ١٦ - ١٧]"، قال صاحب كتاب الزينة: "وعلى قراءة التنكير أجمعت الأمة".

وقال الإمام أبو الحسن الحرالي: "الأحد اسم أعجز اللهُ العقولَ عن إدراك آيته في الخلق إثباتًا، فلم تستعمله العرب بمعناه الحقيقي، لا بمعنى واحد ولا بمعنى أول مثلًا إلا في النفي، لما علموا أنه مفصح عن إحاطة جامعة لا يشذ عنها شيء، وذلك مما تدركه العقول والحواس في النفي ولا تدركه في الإثبات، إذ لا يعقل عندهم ذات إنسان هي جامعة لكل إنسان، فلما ورد عن الله اسمه في القرآن، تلقاه المؤمنون بالإيمان وأحبّت قلوبُهم سورةَ ذِكرِه؛ لجمعها لما لا يحصى من ثناء الرحمن.

وهو مبين عن اسم الإلٰه الذي لا يصح فيه الشرك حقًا وقد يتطرق له باطلًا ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ [يس: ٧٤]؛ لأن الواحد يضايف الثاني، و«أحد» جامع محيط لم يبق خارجٌ عنه فيضايفه؛ لأنه ناظر إلى كونه تعالى وحده الآن منذ الأزل، فإن الخلق فان فهو في الحقيقة عدم، ولأنه لا يضايف الشيءَ إلا مناظرٌ لمساواة أو مباراة".

وقال أبو الحكم ابن بَرَّجان: "والأحد يدل على محض الوحدة؛ لأن «واحدًا» تزول عنه الواحدية بضم ثان إليه، بخلاف الأحدية فإنها لازمة الواحد لا تفارقه"، وقال بعض العارفين في معنى الأحد ورتبته: "الإلٰه مرقى إلى تعقّل الأحد، والأحد مرقى إلى التعبد للذات الأقدس، ومن اعتقد أحديته تعالى أحبّه وعظّمه، وهو توحيد الألوهية؛ لأن التفرد بذلك يقتضي الكمال والجمال"، والله الموفق.

وقال ابن الزبير:"لما انقضى مقصود الكتاب عاد الأمر إلى ما كان وأشعر العالم بترددهم بين عدمين، فوجودهم منه تعالى وبقاؤهم به، وهم وجميع ما يصدر عنهم: خلقُه، وقد كان تعالى ولا عالم ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، لا يفتقر إلى أحد، ولا يتقيد بزمان ولا مكان، فطوبى لمن استوضح آي الكتاب وعرف نفسه ودنياه ولم ير فاعلًا حقيقة إلا الله، والحمد لله رب العالمين".

ولما أخبر عن نفسه بذلك، أتبعه ما هو كالنتيجة للأولى والدليل عليها، ولذا أخلاها عن عاطف فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ الذي تناهى سؤدده في كل شيء، فكان بحيث لا يحتاج إلى

شيء، وكل شيء إليه محتاج، فكان مصمودًا إليه في الحوائج أي: مقصودًا لأجلها، فهو الموصوف بهذا الاسم على الإطلاق، وقصر الصمدية عليه؛ لأن اشتداد الإلف لحاجة الشيء إلى غيره ربما أوجب خفاء اختصاصه به، ولم يقصر الأحدية؛ للتنبيه على أن ذلك لشدة ظهوره غني عن التأكيد.

قال العلماء: "الصمد **السيد** المصمود إليه، والذي لا جوف له؛ لأن الأجواف وعاء وكل وعاء محتاج إلى موعيه، **والعالي** الذي تناهى علوه، فالمعنى على الأول أنه سيد كل موجود والكل محتاجون إليه، وذلك اتصافه بصفات الإلهية"، قال الأقليشي: "ومنه تنشعب صفاتُ السؤدد كالجود والحلم، وإذا قلنا: إنه العالي، تشعبت منه صفات التعالي كالعزة والقهر". وقال ابن مسعود: "الصمد الذي لا جوف له، والأحد الذي لا نظير له".

فالصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال، والأحد أنه لا مثل له، فمن كان مصمودًا إليه في جميع الحاجات ومتعاليًا عن كل نقص، كان موجدًا لكل ما يريد قادرًا على حفظ ما يريد، وكان معلومًا كالشمس أنه وحده المستحق للعبادة، وإلى الصمدانية ينتهي التوجه والإقبال، وهي تردّ على كل من ادعى تدبيرًا لغير الله، ومن اعتقد صمديته كمل توكله فلم يلتفت إلى غيره لأن الكل في قبضته، وهو توحيد الربوبية.

ولما بين سبحانه أن الكل محتاج إليه، وكان ربما تعلق بوهمٍ أن تولد غيره عنه من تمام سؤدده، بين أن ذلك محال لاقتضائه الحاجة، فكان بيانًا للصمدية في كلا معنييها فقال: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ لأنه مستلزم للجوف وهو صمد لا جوف له، لأن الجوف مستلزم للحاجة وهو مستغن عمن يخلفه أو يعينه ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣﴾ فهو قديم لا أول له، ومن كان كذلك لم يكن له مثل فلا يصح أن يساويه شيء ليصح أن يقوم مقامه. فلما بيّن ما انتفى في الأول والآخر دل عليه بقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ وعطف هاتين الجملتين على التي قبلها لأن الثلاث شرح الصمدية، فهي كالجملة الواحدة.

فوضح أن هذه السورة أعظم مبين للذات الأقدس بذكر الإلهية التي هي أقرب لوازمها، ولما اقتضت الإلهية الوحدة دل عليها بالأحد، وحقق معناهما بالصمدية، وبيّن معنييها وهما وجوب الوجود وعدم الجوف، والسيادة المطلقة: بعدم التوليد منه وله وعدم المُكافي، فالسورة في بيان حقيقته تعالى ولوازمها الأقرب فالأقرب ووحدتها، وبهذا القدر حصل تمام معرفته

وأنه لا يساويه شيء في قوة وجوده، فلا يساويه في تمام أفعاله؛ بدلالة شاهد الوجود الذي كشف عنه الشهود بنصر نبيه ﷺ على الكافرين الشانئين وهم ملء الأرض، وبشرح الصمد بما بعده: بان أنه هو لذاته فلا إله غيره، فانطبق آخرها على أولها.

[وقال الغزالي في المحبة: "فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرّفٌ من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس وتارة بالجلال وتارة بأفعاله المخوفة والمرجوة، ولا يعدو القرآن هذه الثلاثة وهي معرفة ذاته وتقديسه، أو صفاته وأسمائه، أو أفعاله وسننه مع عباده، ولما اشتملت الإخلاص على أحدها وهو التقديس، وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن"](٨١). وعن أبي بن كعب: "أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قل هو الله أحد﴾ إلى آخرها، قال: لأن كل مولود سيموت، وكل ميت سيورث، والله تعالى لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفوًا أحد".

ولما كان الغرض الأقصى من العلوم: معرفة ذاتِه تعالى وصفاتِه وكيفيةِ صدور أفعاله، وكان القرآن كفيلًا بجميع هذه العلوم، وكانت هذه السورة منه قد تكفلت بما يتعلق بالذات، كانت معادلة لثلثه، وهي ثلث أيضًا باعتبار أن الدين اعتقاد، وقول يترجمه، وفعل يصححه، وهي وافية بأمر الاعتقاد بالوحدانية الذي هو رأسه.

وقد دل نفي الكفؤ على أفعاله العظيمة المشاهدة التي أشار ترتيب السور -بما انتهى إليه وضع هذه السورة في هذا الموضع- إلى استحضارها، وتأمل ما كان منها من تربية هذا الدين بنصر نبيه الذي أرسله ﷺ لإقامته، وسلط الكافرين وهم ملء الأرض على أذاه، وجعل أعظمهم له أذى أقربهم إليه نسبًا عمه أبا لهب، ثم انقلبت النصرة وزال الشقاق، فدل هذا الفعل الأعظم من صدق الرسول ﷺ في كل ما قال، وكذب أعدائه في جميع ما قالوا: على عزته سبحانه بنصره عبدَه على ذلك الوجه الخارق، وعلى حكمته بما سلطهم به عليه حتى أسرعت الشهرة وعمت النصرة.

فعلم بتلك المشاهدة أنه العزيز الحكيم كما دلت عليه سورة التوحيد المناظرة لهذه في رد المقطع على المطلع وهي آل عمران، المناظرة لهذه في الدلالة على التوحيد والمحاجة لمن

(٨١) قال في الأصل: "وقد نقلت في كتابي مصاعد النظر عن الإحياء للإمام الغزالي رحمة الله تعالى عليه في شيء من أسرار هذه السورة كلامًا هو في غاية النفاسة"، وهذا مختصره، والله أعلم.

ادعى أن له صاحبة وولدًا، فعلم قطعًا أنه لا كفؤ له، فعلم أنه لا يصح أصلًا أن يلد ولا أن يولد، فبطلت دعوى إلهية عيسى عليه السلام وغيره.

وابتدأ سبحانه السورة بالضمير قبل الظاهر، بعد التصريح بالنصر والفتح وخسارة أهل الكفر بخسارة أبي لهب، إشارة إلى أن من صحح باطنه باسم الله تعالى نصر وفتح له، كما يشير إليه تعقيب الأمر في آخر البقرة بالرغبة إليه في النصر على الكافرين = بقوله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ [آل عمران: ٢]، فإنه ترجمة أول هذه التالية للنصر والكافرون، لكن كلمة الإخلاص تركبت من نفي ثم إثبات، وسورة الإخلاص من إثبات ثم نفي.

فقررت هذه الكلمة وجوب المعرفة بالنفي والإثبات ليميز بين الحق والباطل؛ لأن من لم يتحقق صفة الباطل لم تتقرر له المعرفة بالحق، ولذلك كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن الحق لصحة الاعتقاد، وعن الباطل للتمكن من مجانبته، حتى قال حذيفة: "كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر"، وذلك لأن من لم يعرف الشر يوشك أن يقع فيه، وإنما خالفت كلمةَ الشهادة في الترتيب؛ لأن تلك للإدخال في الدين، والأليق بمن كان خارجًا أو ضعيفًا: محو الباطل أولًا من لوح القلب ليأتي إثبات الحق فيه وهو فارغ فيقر فيه، ثم جاءت الإخلاص للذين تخلقوا بما قبلها من السور فختمت بنفي الأغيار؛ ليتجلى بذلك ختام الأعمار عند الرجوع إلى الآثار بالعرض على الواحد القهار.

ولما افتتح القرآن بسورة مشتملة على جميع معانيه، ختم بسورتين يدخل معناهما وهو التعوذ في جميع أجزائه، وفي ذلك لطيفة أخرى وهي أنه لما علم بالإخلاص تمام العلم وظهور الدين على هذا الوجه الأعظم، فحصل بذلك غاية السرور، وكان التمام في هذه الدار مؤذنًا بالنقصان، جاءت المعوذتان لدفع شر ذلك.

ومن لطائف إشاراتها: أن الضمير في أولها مشير إلى تصحيح ضمير القلب بالإيمان، والاسم الأعظم إشارة إلى أن ذلك التصحيح لأجل التأله بالخضوع للإله، ويكون ذلك باستحضار افتقار العابد إلى المعبود وتداعيه إلى الهلاك بكل اعتبار لأنه أجوف، وغنى المعبود على الإطلاق بما يشير إليه الاسم الإضافي الصمد.

سورة الفلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الاعتصام من شر كل ما انفلق عنه الخَلق الظاهر والباطن، واسمها ظاهر الدلالة على ذلك.

لما افتتح سبحانه هذا الذكر الحكيم بالهداية في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] وبالهداية والتقوى التي هي شعار التائب في قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢] وذلك أول منازل السائرين، وختم بتقرير التوحيد على أكمل وجه، فتم بذلك الدين وانتهى سير السالكين، وختم الإخلاص المقررة لذلك بأنه تعالى لا كفؤ له فتوفرت الدواعي على الانقطاع إليه، أمر بالتعوذ برب هذا الدين موافقةً لـ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] من شر ما يقدح فيه.

وبدأ بما يعم شياطين الإنس والجن في الظاهر والباطن، ثم أتبع بما يعمهما ويخص الباطن الذي يصلح بصلاحه الظاهر فقال: ﴿قُلۡ﴾ لكل من يبلغه القول من الخلائق، فإن على كل منهم أن يفزع أول المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها، فإنه يرتقي بذلك إلى الرضا بمر القضا، ولا يعتمدْ على جلادته وتدبيره ﴿أَعُوذُ﴾ ولما كان هذا المعنى أليق بالربوبية؛ لأن الإعاذة أعظم تربية قال: ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ قال الملوي: "والفلق: كل شيء انشق عنه ظلمة العدم"، وخص عرفًا بالصبح ومنه: ﴿فالق الإصباح﴾ [الأنعام: ٩٦] لظهوره، ومن قدر على ذلك قدر على إعاذة المستعيذ من كل ما يخافه.

ولما كانت الأشياء قسمين: عالم الخلق وعالم الأمر، وكان عالم الأمر خيرًا كله، فكان الشر منحصرًا في عالم الخلق، خصه بالاستعاذة فقال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ والشر تارة يكون اختياريًا كالظلم واللدغ، وتارة طبيعيًا كإحراق النار وإهلاك السموم.

وقال ابن الزبير: "ولما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر وأناب، كان مظنة الاستعاذة من شر الحاسد وكيد الأعداء، فختم بالمعوذتين".

ولما كان عطف الخاص على العام يعرّف بأنه أولى أفراد العام بذلك الحكم، وكان شر الأشياء الظلام فإنه أصل كل فساد، وكان شره وشر السحر والحسد خفيًا، خصها بالذكر؛

لأن الخفي يأتي من حيث لا يُحتسب فيكون أضر، وكانت مادة «غسق» تدور على الظلام والانصباب، قال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ أي: مظلم منصب ظلامه، سواء كان أصلًا في الظلام حسيًا أو معنويًا، أو حاملًا عليه كقيام الذَّكر لِما يجر إليه من وساوس الشهوة، ونكّره إشارة إلى أنه ليس كل غاسق مذمومًا، والله أعلم، ولما كان الظلام لا يشتد أذاه إلا إذا استقر، قال معبرًا بأداة التحقق: ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ أي: اعتكر ظلامه ودخل في الأشياء بقوة كدخول الثقيل المنصبّ في الوقبة أو ما يشبهها كالنقرة.

ولما كان السحر أعظم ما يكون من ظلام الشر المستحكم في العروق الداخل في وقوبها، عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ﴾ ولما كان كل ساحر شريرًا بخلاف الغاسق والحاسد، ولذلك كان السحر أضر من الغسق والحسد قال: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ أي: النفوس الساحرة سواء كانت نفوس الرجال أو النساء، أي: التي تبالغ في النفث ﴿فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ أي: تعقدها للسحر في الخيوط وما أشبهها.

ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس: الحسد، وهو تمني زوال نعمة المحسود قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ ونكّره لأنه ليس كل حاسد مذمومًا، وأعظم الحسدة الشيطان الذي ليس له دأب إلا السعي في إزالة نعم العبادات بالغفلات، ولما كان الضار من الحسد: ما أُظهر وعُمل بمقتضاه، قال مقيدًا له: ﴿إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ وأما إذا لم يظهر فإنه لا يتأذى به إلا الحاسد؛ لاغتمامه بنعمة غيره، ولعله عبر بأداة التحقيق إشعارًا بأن من كان راسخًا في الحسد -بما أشعر به التعبير بالوصف- تحقق منه إظهاره ولم يقدر على مدافعته في الأغلب إلا من عصم الله تعالى.

وقد علم بكون الحسد علةَ السحرِ الموقع في الشرك والقتل الذي هو أعظم المعاصي بعده: أنه شر ما انفلق عنه ظلام العدم، والشاهد لذلك غلبته على الأمم السالفة وتحذير هذه الأمة منه، قال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، ألا والبغضاء هي الحالقة، لا أقول إنها تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين». فعلم بهذا رجوع آخر السورة على أولها، ومن أعيذ من هذه المذكورات انفلق سماء قلبه عن شمس المعرفة، فانقطع تعلقه بما سوى الله:

هُناكَ ترى ما يملَأُ العينَ قُرَّةً ويُسْلِي عنِ الأَوطانِ كلَّ غريبِ

والمعوذتان معلمتان بأن البلايا كثيرة وهو سبحانه قادر على دفعها، فهما حاملتان على الخوف والرجاء وذلك لباب العبودية.

وسبب نزولهما: أن لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ بمشاطة رأسه، فمرض وانتشر شعره ويرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، فرأى في المنام داءه فاستخرجوه، وأنزل الله المعوذتين، فجعل كلما قرأ آيةً انحلت عقدةٌ ووجد خفةً، حتى انحلت الأخيرة فقام كأنما نشط من عقال، وهذا الفضل لهما كما منح الله به رسوله ﷺ فكذا تفضل به على سائر أمته.

ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في وصفه ﷺ بأنه مسحور، فإنهم ما أرادوا إلا الجنون أو ما يشبهه وأن ما يقوله تخليط لا حقيقة له، كما ينشأ عن المسحور.

وحاصل هذه: الاستعاذة بالله بذكر اسمه: الرب، كما كان أكثر البقرة المناظرة لها في رد المقطع على المطلع: في ذكر أعداء النبي ﷺ الحاسدين، وأكثره في بني إسرائيل الذين كانوا أشد الناس حسدًا له ﷺ، وكان من أعظم ما ضلوا به: السحر المشار إليه بقوله: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾ حتى قال: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ [الآية: ١٠٢] إلى أن قال: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكان السحر من أعظم ما أثر في النبي ﷺ من كيدهم حتى أنزل فيه المعوذتان، وكان الساحر له منهم.

سورة الناس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الاستعاذة من الشر الباطن المأنوس به، فإن الوسوسة لا تكون إلا بما يشتهى، والناس مشتق من الأنس والنوس المشير لاضطراب الباطن، فطابق الاسم المسمى، ومقصود هذه معلولٌ لمقصود الفاتحة الذي هو المراقبة، وهي شاملة لجميع علوم القرآن التي هي مصادقة الله ومعاداة الشيطان، ببراعة الختام وفذلكة النظام، كما أن الفاتحة شاملة لذلك لأنها براعة الاستهلال ورعاية الجلال والجمال، فقد اتصل الآخر بالأول.

لما استعاذ في الفلق من المصائب الخارجة الراجعة إلى ظلم الغير، والمعايب الداخلة الراجعة إلى ظلم النفس، وكانت في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضرها، وكان أصل عدواة الجن والإنس الحسد، استعاذ في الناس من شر خاص وهو الوسواس، ويرجع إلى المعايب الداخلة، وهي سبب المعاصي كلها، والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب فقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ﴾ ولما كانت صفة الربوبية أليق بالتدبير والإحسان قال: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ وخص الإضافة بالمضطربين من القبيلَين؛ لخصوص المستعاذ منه وهو أضرار النفوس، بخلاف ما في الفلق فإنه المضار البدنية التي تعم الإنسان وغيره.

وقال ابن الزبير: "وجه تأخرها عن شقيقتها: عموم الأولى وخصوص الثانية، ألا ترى عموم: ﴿من شر ما خلق﴾ [الفلق: ٢] وإبهام ﴿ما﴾ وتنكير ﴿غاسق﴾ و﴿حاسد﴾؟ فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه".

ولما كان الرب أقرب في المفهوم إلى اللطف والتربية، وكان الملك للقهر وإظهار العدل ألزم، كان الأبلغ تقديم الأول وإتباعه الثاني فقال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢﴾ إشارة إلى أن له كمال التصرف والسلطان، وإليه المفزع وهو المستعان والمستغاث. ولما كانت الإلهية خاصة لا تقبل شركًا أصلًا، أنهى الأمر إليها وجعلت غاية البيان فقال: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣﴾ فمن كان ربهم وملكهم فجديرون بأن لا يتألهوا ولا يستعيذوا بغيره، كما أن أحدهم إذا دهمه أمر استعاذ بوليه من أبناء جنسه واستغاث به.

والإله من ظهر بلطيف صنائعه -التي أفادها مفهوم الرب والملك- في قلوب العباد، فأحبوه وأنسوا به ولجؤوا إليه، وبطن احتجابًا بكبريائه عن أن يحاط بشيء من أمره، فهابه العباد

وشوّقهم الحب إلى لقائه، وكرر الاسم الظاهر «الناس» تحقيقًا لهذا المعنى بإعادة اسمهم الدال على شدة الاضطراب المقتضي للحاجة عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو؛ لإيذانها بالمغايرة، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، وقدم الربوبية لشمولها كلَّ مربوب، وأخر الإلهية لخصوصها؛ لأن من لم يتقيد بشرعه فلم يجعله إلهه، وإن كان في الحقيقة لا إلٰه سواه، ووسط صفة الملك لأنها من كمال ربوبيتِهِ، وإلهيتُه من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها.

ولما أكمل سائر وجوه الاستعاذة ذكر المستعاذ منه فقال: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة، كالزَّلزال بمعنى الزلزلة، والمراد: الموسِوس، سمي بفعله مبالغة، والوسوسة: إلقاء المعاني إلى القلب في خفاء وتكرير، كما أن الكلمة الدالة عليها «وس» مكررة، وأصلها: صوت الحلي وحديث النفس وهمس الكلاب، وكل مضاعف معناه متكرر، والموسوس من الجن يجري من ابن آدم مجرى الدم، فهو يوسوس بالذنب سرًا ولا يزال يزينه ويثير الشهوة الداعية إليه حتى يواقعه الإنسان، فإذا واقعه وسوس لغيره أن فلانًا فعل كذا ليفضحه، فإذا افتضح ازداد جرأة على أمثاله لأنه يقول: قد وقع ما كنت أحذره من القالة.

وشر الوسواس: التحبب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه حتى يشاكله في رذيلة الطبع، فينشأ من ذلك شرور أضرها **الكبر والإعجاب** اللذان أهلكا الشيطان، فيوقع الإنسانَ بها فيما أوقع نفسه فيه، وينشأ عن **الكبر**: الحقد والحسد، ويترشح منه بطر الحق: وهو عدم قبوله، ومنه الكفر والفسوق والعصيان، وغمص الناس: وهو احتقارهم المعلوم من قول الشيطان: ﴿أنا خير منه﴾ [الأعراف: ١٢]، ومنه تنشأ الاستهانة بأولياء الله.

ويترشح من **الحقد**: إمساك الخير وبسط اللسان واليد بكل سوء، ويترشح من **الحسد**: إفساد ذات البين كما يشير إليه: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ [الأعراف: ٢٠] الآية، والكذب والمخادعة كما قاسمهما به.

ويترشح عن **الإعجاب**: التسخط للقضاء كما آذن به: ﴿أأسجد لمن خلقتَ طينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، واستعمال القياس في مقابلة النص بما هدى إليه: ﴿أنا خير منه﴾ [الأعراف: ١٢] الآية، والجرأة على المخالفات فينشأ عن ذلك شرور متعدية وهي السعي في الإفساد، ثم لا يزال يتحبب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه من هذه الخبائث وهو يوافقه فيها، حتى تصير له أخلاقًا راسخة فيصير رديء الطبع فلا ينفع فيه العلاج.

ولما كان دواء الوسوسة ذكر الله تعالى، وصف الموسِوس عند استعماله إعلامًا بشدة العداوة بقوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ أي: الذي يختفي كلما كان الذكر، وكلما بطل عاد إلى الوسوسة.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ وأشار إلى كثرة وسوسته بذكر مسكن القلب فقال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ أي: المضطربين إذا غفلوا عن ذكر ربهم، فإن الصدور دهاليز القلوب، منها تدخل الواردات إليها، والناس قال في القاموس: "يكون من الإنس والجن"، ولعل إطلاقه عليهما بالنظر إلى النوس الذي أصله الاضطراب والتذبذب.

ولما كان الذي يعلّم الشرَّ يكون من الجن أو الإنس، قال مبينًا للوسواس تحذيرًا من شياطين الإنس أيضًا مقدمًا الأضر، أو: يكون بيانًا لـ«الناس»: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ سواء كانوا من الإنس أو الجن، فالمعنى أن الجن مسلط بعضهم على بعض كما هم مسلطون على الإنس، وقد ختمت السورة بما بدئت به، والمعنى الثاني أوفق برد آخرها على أولها، فإنه يكون شرحًا للناس الذين في أولها.

والخواطر الواردة على الإنسان قد تكون وسوسة من الشيطان أو النفس، وقد تكون إلهامًا من الله أو الملَك، فإن كان الإنسان مراقِبًا دفع عن نفسه الضار، وإلا هجمت الواردات عليه وتمكنت منه، ويتميز خير الخواطر من شرها بالشرع، على أن الشيطان يجتهد في التلبيس، فإن وافق الشرع فلينظر، فإن كان فعله ذلك أولى من غير تفويت لفضيلة هي أولى بادر إليه، وإن كان الخاطر دنيويًا وأدى الفكر إلى أنه نافع من غير مخالفة للشرع، زاد على شدة تأمله: الاستشارةَ لمن يثق بدينه وعقله، ثم الاستخارة؛ لاحتمال أن تتوافق عليه العقول ويكون فيه خلل لتقصير وقع في النظر.

وقد جعل بعضهم قانون الخاطر الرحماني: أن ينشرح له الصدر وتطمئن إليه النفس، والشيطاني والنفسي: أن ينقبض عنده الصدر وتقلق النفس؛ بشهادة الحديث في البر والإثم، ويعرف **الشيطاني** بالحمل على مطلق المخالفة، فإن الشيطان لا غرض له في مخالفة بعينها، ويزول بالذكر، **والنفساني** ملزوم شيء بعينه نافعًا أو ضارًا ولا ينصرف بالذكر، وقد يكون الشيطان الإنسي أضر من الجني، فدواؤه المقاطعة بحسب القدرة، ومن أراد قانونًا عظيمًا لمن يصاحب ويجانب فعليه بآية الكهف: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ [الآية: ٢٨] الآية.

وكما رجع مقطعها على مطلعها، كان من المناسبات العظيمة: مناسبة معناها للفاتحة؛ ليرجع مقطع القرآن على مطلعه، فإن الفاتحة اشتملت على: الله والرب والملك، وزادت بكونها أم القرآن بالرحمن الرحيم؛ لاشتمالهما على جميع النعم الظاهرة والباطنة التي تضمنتها صفة الربوبية، وسورة الناس على: الرب والملك والإلٰه الذي هو الأصل في اسم الجلالة، واختصت الفاتحة بالاسم الذي لم يقع فيه شركة أصلًا، فلما تقرر في جميع القرآن أنه الإلٰه الحق، ختم به معبرًا عنه بالإلٰه؛ لوضوح الأمر وانتفاء اللبس بالكلية.

وحاصل السورة الناس: الاستعاذةُ بهذا الرب الموصوف من وسوسة الصدر، المثمرةُ للمراقبة، كما أن حاصل سورة الفاتحة: فراغ السر من الشواغل، والحكم بالفناء على ما سواه، وذلك أعلى درجات المراقبة، فإذا أراد الحقُّ إعانة عبد: حمله على الاستعانة بالاستعاذة، فيسر عليه صدق التوكل فصار عابدًا بصدق، فيكون إلهُه سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

وينبغي أنه كلما اقترب ازداد عبادة حتى ينفك من مكر الشيطان بالموت، كما قال لأقرب خلقه إليه: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩]، ومن نقص من الأعمال لأنه وصل فقد تزندق، وكان مثله مثل شخص في بيت مظلم أسرج فيه فلما أضاء قال: قد أضاء فلا حاجة لي إليه، فأطفأه فعاد الظلام كما كان.

وقد ندب النبي ﷺ إلى افتتاح القرآن بعد ختمه، كما أشار إليه اتصال المعنى بما بينته، وسمى ذلك الحال المرتحل، وكأن القارئ ذكر بالأمر بالاستعاذة إرادةَ افتتاح قراءته؛ لأنه لما أمر بهذا التعوذ وكان قد قال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [النحل: ٩٨] علم أن المراد ابتداؤه، فنسبتها إلى الفاتحة نسبة المعلول إلى علته.

والحمد هو الثناء بالوصف الجميل، فكأنه قيل: أعوذ بأوصافه الحسنى؛ لأن له الحمد وهو جميع الأوصاف الحسنى، خصوصًا الرحمة العامة التي شملتني أكنافها، ثم الخاصة التي أنا أجدر الناس باستمطارها؛ لنقصي المانع لي منها، فأسأله أن يجعلني من أهلها، ويحملني في الدارين بوصلها، لأكون من أهل رضاه فلا أعبد إلا إياه.

وهذا تمام ما أردته من نظم الدرر من تناسب الآي والسور، سودته بعد أربع عشرة سنة من بدئه، ولولا معونة الله أضحى معدومًا أو ناقصًا مخرومًا، فإني بعد ما وصلت إلى قريب من نصفه فبالغ الفضلاء في وصفه، دب الحسد في جماعة أولي النكد، فصوبوا سهام الشرور وأنواع الزور، فأكثروا التضليل بالنقل من التوراة والإنجيل، فصنفت في ذلك: الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة، بينت فيه أن ذلك سنة مستقيمة، لتأييد الملة الحنيفية العظيمة، فأطفأ الله نارهم.

ثم قاموا في فتنة ابن الفارض وألبوا علي الرعاع وصوّبوا طريق الإلحاد وبالغوا في رفع أهل الاتحاد، وصنفت في ذلك مصنفات بانت فيها مخازيهم، أنفقت فيها عمرًا مديدًا وبددوا فيها أوقاتي بددهم الله تبديدًا، وطال الأمر في ذلك سنين، وعم الكرب حتى كثر الأنين، وثبّت الله ورزق الصبر والأناة حتى أكمل هذا الكتاب.

وقد قلت مادحًا للكتاب المذكور، مسميًا له بـ«كتاب لمّا»؛ لأني أكثرت من استعمالها في بيان ارتباط الجمل بعضها ببعض:

هذا كـتـابُ لـمّـا   لـمَّ المـعـاني لـمَّـا
غَـدَتْ بحورُ علْمِـهِ   تَـمُـدَّ مـدًّا جمًّـا
بشرتُ مَـن يحسـدُهُ   بـأن يمـوت غـمًّا
فإنّ قصـدِي صالحٌ   جـاهدتُّ فيهِ الهـمَّا
فـربُّـنـا يـقـبـلُـهُ   كـيـفـيّـةً وكـمَّـا
كابدتُّ فـيه زمـنًا   مِن حاسِدِي ما غمَّا
وكـم دهَـوْني مـرّةً   وكـم رمَـوْني سهْمَا
وفتّروا مِن قـاصِدي   هَـمْـهَـمَـةً وعـزمَا
وأَوْعـدوهمْ بالأذى   وأَوْهنـوهـمْ رجْمَـا
أَلقى إذا الليلُ دَجا   وبالِـبَـلا ادْلَهَـمَّـا
أذاهـمُ وظُـلـمَـهـمْ   بـدعـوةٍ في الظُّلْـمَا

يا ربِّ إني جاهِدٌ   فافرُجْ إلهي الغمَّا
عمَلتُهُ نصيحةً   لمن يحبُّ العِلْمَا
سهَّلَ ربِّيْ أمرَهُ   عليَّ حتى تمَّا
في أربعٍ وعشْرةٍ   مِن السنينَ صمَّا
قال لِسانُ عدِّها   دونَكَ بدرًا تمَّا
كفاهُ ربِّي شرَّهمْ   وَزان منه الأَسْمَا

والحمد لله رب العالمين